

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد التاسع - المجلد الأول

مارس ٢٠٠١ م

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهـــرة

مجلة
المؤرخ العربى

العدد التاسع المجلد الأول مارس ٢٠٠١م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى :

دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطيـة - عمارات شركـة الخليــج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

* علمية تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية.

* البحوث التى تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية.

* تصدر مؤقتا سنويًا فى مارس من كل عام؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.

* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة.

* تخصص أقسام فى المجلة- حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات.

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لاترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية. ولاعلاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية.

* * * * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

كلمة الافتتاح

حقاً ... إنها جميلة ...

إنها اللسان العربى المبين، الذى نزل به القرآن الكريم، والذى لايدانيه لسان آخر فى قوته وتأثيره وبلاغته وجمال بنيانه.

إن جمال اللغة العربية لايقف عند حد غنى هذه اللغة بالمترادفات وقابليتها للنحت، وطواعيتها للاشتقاق، وإنما يتخطى ذلك إلى قدرتها على التحوير فى صياغة الألفاظ ، بل وفى معنى اللفظ الواحد ، فتتعدد الكلمات والمعنى واحد، وتتعدد المعانى واللفظ واحد ... وكل هذه المزايا والصفات ساعدت لغتنا الجميلة على أن تكون أداة لأعظم حضارة عرفها العالم فى العصور الوسطى.

نحن لاننكر أن الحضارة العربية الإسلامية ولدت فى محيط ضيق، وأنه كان لا يمكن لهذه الحضارة عند مولدها أن تقارن بالحضارات القديمة التى سبقتها- كالحضارات الفارسية، والهندية، واليونانية، وحضارات مصر والشام، والعراق، وغيرها. ولم يكن للحضارة العربية الإسلامية- عند مولدها- نصيب من إنجازات الحضارات القديمة، وخاصة فيما نعرفه باسم العلوم العقلية أو التجريبية. لكن ظهر الإسلام ليدفع العرب- وغير العرب من شعوب الدولة الإسلامية الجديدة- إلى الأمام للتعبير عن طاقة حضارية بناءة جديدة.

ولايقلل من شأن الحضارة العربية الإسلامية أنها أفادت من غيرها من الحضارات السابقة، لأن سنة التطور الحضارى تطلبت أن يستفيد الخلف من جهود السلف، بحيث يحاول كل جيل أن يضيف إلى البناء الحضارى ويرتفع به. وهذا عكف المسلمون على دراسة وفحص إنجازات

غيرهم فى شتى الميادين، فأخذوا منها ما لا يتعارض وأحكام الإسلام وآدابه، وعدلوا ما يتطلب التعديل والتقويم، أو التصحيح. واستبعدوا كل ما لا يتفق وروح الإسلام وشريعته وأحكامه.

وتحت مظلة الإسلام ، أقبل العرب وهم مزودون بسلاحين على دراسة ما أنجزه السابقون . أما هذان السلاحان ، **فأولهما** الرغبة فى التحصيل ، والقدرة على سرعة التعلم والالتقاط . وقد ساعد على ذلك أن الإسلام حث على طلب العلم المفيد النافع من أوسع أبوابه ، وكرم العلم والعلماء ، ورفع الله الذين أوتوا العلم درجات. **وأما السلاح الثانى** الذى تزودت به الحضارة الإسلامية لتشق لنفسها طريقًا متميزاً ، فكان اللغة العربية وهى خير أداة أتاحت للعرب القدرة على التعبير عن معان وأفكار ومصطلحات لم يكن لهم بها علم، فعربها العرب وغدت مألوفة فى عالم اللغة العربية. يقول الجواليقى فى كتابه المعرب من الكلام الأعجمى «إن الكلمة إذا أخذها العرب من غيرهم، وصاغوها على أوزان حروفهم، ودارت فى أشداقهم، ومرت عليها ألسنتهم ، صارت من لغتهم بالنقل والاقتباس » . وهكذا استخدم العرب مصطلح أرثماطيقا للدلالة على الحساب، وعرفوا الهندسة باسم جومطريا ، وعرفوا الفلك باسم اسطرونوميا ... وكلها أسماء يونانية عربها العرب.

وفى وسط خضم كبير من الأسماء والمصطلحات التى دخلت اللغة العربية عن طريق التعريب، احتل علم التاريخ مكانة مرموقة، بوصفه العلم الذى امتدت جذوره فى أعماق العصور، لتحكى أخبار الأنبياء والأديان، وسير الملوك والحكام، وحوادث الدهور والأيام. ومنذ مولد الإسلام احتل التاريخ مكانته البارزة، حيث قص القرآن الكريم على المسلمين العديد من القصص الذى يرتبط بأخبار السابقين. وحسبنا أن إحدى سور القرآن الكريم تحمل اسم «سورة القصص» ، كما جاء فى سورة أخرى قوله تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص» . وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم إنما استهدف العظة والعبرة، وربما حمل معه من أخبار الأولين ما لايمكن معرفته من مصدر آخر.

وقد تميز علم التاريخ عند المسلمين بالأمانة وصدق الأحكام وطلاوة العبارة، والحرص على اختيار اللفظ المناسب الذى يشد الباحث ويستثير إعجاب القارىء . ومن أهم ما عنى به المؤرخ العربى انتقاء العنوان الصالح لمؤلفه أو كتابه، بحيث يجذب العنوان مشاعر القارىء . ومن هذه العناوين «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك»، وكتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر

والقاهرة»، وكتاب «غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى» وكتاب «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ... وغير هذا من العناوين الجميلة الجذابة، التى تشد القارىء ، وتلتصق بفكره ومشاعره، بفضل ما تتميز به من جمال العبارة وسحر البيان.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن كتابة التاريخ، بما تتضمنه من حوادث مثيرة ومواقف متشددة أو عاطفية ، تتميز بصبغة لغوية يغلب عليها الطابع الأدبى فى كثير من الحالات . وكثيراً ما نرى المؤرخ يستعرض واقعة من الوقائع ، فتغلب على أحاسيسه النزعة الأدبية فيستشهد بالشعر والأمثال والحكم، مما يسبغ على كتابته مسحة أدبية واضحة ولاننكر إننا نعانى بعض الحيرة عندما نحاول تصنيف كتاب أو موسوعة مثل «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ، أو كتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» أو كتاب «مسالك الأبصار». وربما ساءل الواحد نفسه: هل يدخل القلقشندى ، أو النويرى أو العمرى فى قائمة الأدباء أو فى سجل المؤرخين؟ لقد جعل كل منهم كتابه موسوعة أدبية تاريخية: العنوان يعبر عن الاتجاه الأدبى ولكن المحتوى يضم الكثير من ألوان المعرفة التاريخية: جوانب من التاريخ السياسى، والتاريخ الاقتصادى، والأوضاع الاجتماعية، ونظم الحكم والإدارة، وحياة السلاطين والحكام... كل ذلك إلى جانب الكتب والرسائل والسجلات والتقاليد .

وهنا تحضرنى عبارة دونتها منذ أكثر من ثلاثين عامًا فى مقدمة كتاب «فهارس صبح الأعشى» نصها : (الواقع إن القارىء لكتاب «صبح الأعشى» يسترعى انتباهه أن مؤلف هذا الكتاب يتمتع بحاسة تاريخية قوية. فهو إلى جانب كونه أديبًا وفقيهًا ، يبدو دائمًا فى صورة المؤرخ الواسع الأفق ، المحيط ببواطن الأمور، المستوعب لكثير من كتب السير والتاريخ. وهو عندما يتعرض لعلم التاريخ، يقول ما نصه (أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له. وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه، ما بين مختصر ومبسوط ...).

وهكذا تؤدى لغتنا دوراً كبيراً فى الربط بين فروع العلم والمعرفة، لتجعل منها سلسلة متداخلة الحلقات متكاملة البنيان .

نعم، حقًا إنها جميلة

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد *

الهوية الثمودية فى النقوش النبطية

أولا : الطابع العام للنقوش الثمودية

من المعروف أن اللغة الثمودية هى لهجة عربية شمالية تنحدر من اللغة العربية الشمالية التى انحدرت منها لغتنا العربية الفصحى ولكنها تختلف عنها فى نوع الخط الذى كتبت به، فبينما اشتق الخط العربى من الخط النبطى الذى اشتق بدوره من الخط الآرامى الذى انتشر فى الشام بوجه خاص، فقد اشتق الخط الثمودى من الخط الددانى الذى انتشر فى العلا والذى اشتق بدوره من الخط المسند اليمنى.

وقد تتبع فان دن براندن نشأة الحروف الثمودية واشتقاقها من الحروف الدادانية وخاصة حروف الألف والجيم والدال والذال والهاء (Branden 1950, p.25-27) ثم حروف الياء والألف واللام والميم والسين والفاء والصاد والقاف والشين (Op. cit., p. 29-32) .

والوصف الأكثر انطباقا على الخط الثمودى أنه خط «مخربشات» (Scribbles) حفر حروفه على الصخر أشخاص تتفاوت طريقة وأسلوب كتابة كل شخص بتفاوت ثقافته ومهارته فى الكتابة كما تتفاوت اتجاهات سطوره إذ لاتوجد قاعدة محددة يسير عليها الكتاب الثموديون فى حفر نقوشهم فأحيانا تتجه السطور من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين أو من أعلى لأسفل أو حتى من أسفل لأعلى بل وأحيانا تتجه السطور فى شكل دائرى.

---

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

ولعل السبب فى ذلك أن الثموديين لم ينتظموا فى دولة تحدد طرق الكتابة فى نظام موحد. وتنسق شئونهم فكان أن دون كل كاتب خطه بالطريقة التى تناسبه أو تحلو له فتفاوتت بذلك أشكال الحروف تفاوتا كبيراً.

وعلى هذا فاللغة الثمودية لم تكن لغة أدبية، وإنما كانت لغة تخاطب والخط الثمودى لم يكن خطا رسميا بل كان خطا شخصيًا ولعل هذا يشبه إلى حد كبير اللغة العامية أو الدارجة التى يستخدمها مختلف الشعوب العربية فى التخاطب. كما أن الخطوط الثمودية المحفورة على صخور الجزيرة العربية بما تتميز به من تفاوت فى أشكالها وموضوعاتها من تحية شخص لآخر أو تمنيات برحلة سالمة (نظراً لأن الثموديين كانوا تجار قوافل ورعاة إبل فى المقام الأول) لعلها تشبه ما يسطره الأفراد فى أيامنا هذه ممن يجوبون المناطق الأثرية فى الدول العربية فيسجلون على هذه المناطق مختلف العبارات التى تبدأ بكلمة «للذكرى» (ولو أنها عادة ذميمة تشوه الآثار حيث بدأت الهيئات الحكومية فى هذه الدول فى التصدى لها).

ثانيا : نتائج عدم وجود خط منتظم لدى الثموديين:

لعل عدم الانتظام فى الخط الثمودى وعدم وجود لغة أدبية لديهم يقدمان لنا حلا لمشكلة كثيرا ما واجهت الباحثين وهى تسجيل الثموديين بعض شئونهم بخط آخر ولغة أخرى غير خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية وهما الخط النبطى واللغة النبطية .

والأمثلة على ذلك نقشان أحدهما فى مدينة مدائن صالح والآخر فى بلدة «روافة» الواقعة جنوب غرب مدينة «تبوك» بحوالى ١٠٠ كيلو متر، فأما النقش الأول فهو يخص سيدة تدعى بالثمودية « ل ق ش / ب ن ت / ع ب د / م ن ت » وبالنبطية «رقوش برت عبد منوتو» وهذا النقش بخطين أحدهما الخط النبطى وهو من تسعة أسطر أفقية كتبت بطريقة منتظمة من اليمين إلى اليسار شأن سائر النقوش النبطية والخط الآخر هو الخط الثمودى وهو من سطر واحد كتب رأسيا إلى يمين النص النبطى وبنفس ارتفاعه تقريبا (شكل ١ وشكل ٢) والنص النبطى يسجل ملكية السيدة رقوش للقبر المدون اسمها بجانبه وهو عبارة عن فجوة مستطيلة محفورة فى الصخر بالقرب من قمة الضريحين اللذين يقع بينهما وترجمة هذا النص ببعض التصرف هى «هذا (الـ) قبر نحته كعب بن حارثة لرقوش بنت عبد مناة والدته التى توفيت فى الحجر (مدائن صالح) سنة مائة واثنين وستين من شهر تموز وليلعن إله العالم من يعتدى على هذا

القبر أو من يفتحه فيما عدا ولدها (للقراءة والترجمة الحرفية للنقش أنظر شكل ٢) . (Contineau 1978, II, p. 38)

أما النص الثمودي الذى يتكون من سطر واحد رأسي فقراءته هى «ذ ن / ل ق ش/ ب ن ت/ ع ب د / م ن ت» وترجمته هى : «هذا (قبر) لقوش بنت عبد مناة» (شكل ١) .

ومن هذا يتضح أن صاحبة هذا القبر ثمودية الهوية وأن ابنها استخدم لغته الثمودية والخط الثمودى للإفصاح عن هوية أمه بينما استخدم الصيغة النبطية لإثبات ملكية أمه للقبر حتى لايعتدى عليه أحد وهذه الصيغة هى الصيغة الشائعة فى الكتابات المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح الأخرى أى أنها تشبه ما نسميه فى عصرنا «نموذج إثبات ملكية» ولو أنها تختلف فى بعض عباراتها ولكن مفهومها العام واحد لأن جميعها تقريبا تبدأ بعبارة نبطية واحدة ترجمتها هى «هذا قبر» ثم تذكر اسم صاحب القبر وأحيانا أسماء من يوصى لهم بالدفن فى قبره ثم يذكر نص اللعنة ضد كل من يعتدى عليه ويختتم أغلب هذه الصيغ بإثبات التاريخ وهو سنة حكم الملك النبطى الذى نحت القبر فى عهده (ولو أن النص الذى نحن بصدده اختلف فى استخدام تقويم بصرى الذى اتبع عند انتهاء دولة الأنباط سنة ١٠٦م فالنص مؤرخ بما يعادل ٢٦٧ ميلادية.

ولعلنا نستنتج من ذلك أن الثموديين استخدموا هذا النموذج أو هذه الصيغة النموذجية النبطية المتعارف عليها فى تسجيل أحد شئونهم الرسمية وهو إثبات الملكية بينما استخدموا خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية فى الافصاح عن هويتهم.

والحقيقة أن هذا ليس المثال الوحيد لاستخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى شئونهم الرسمية فقد استخدموهما فى معبد روافه الذى ذكرناه وذلك فى النص التالى «دنه نوسا دى عبدت شركت ثمودو» (Milik 1971, p. 44) وترجمته هى «هذا (هو) الهيكل الذى شيدته قبيلة (أو اتحاد قبائل) ثمود» وهذا النص مؤرخ بتقويم بصرى بما يعادل ١٦٦ ميلادية .

ومن الواضح أن هذا النص قصد منه إثبات ملكية الثموديين لهذا المعبد ولو أنهم أهدوه إلى اثنين من أباطرة الرومان المعاصرين لهم .

ومن هذا يتضح ما أشرنا إليه سابقا من أن سبب استخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى هذين المثالين رغم أنه كان لهم لغة وخط خاصّين بهم هما اللغة (أو اللهجة)

الثمودية والخط الثمودى- سبب ذلك أن اللغة الثمودية كانت لغة تخاطب أكثر منها لغة تسجيل أو لغة أدبية وقد استخدم الثموديون خطهم ولغتهم فى التفاهم بين بعضهم البعض ومن هنا وجدنا آلاف النقوش أو المخربشات الثمودية محفورة على صخور الجزيرة العربية، ولهذا لم يكن هذا الخط الشخصى غير المنتظم يصلح فى تسجيل الشئون الرسمية مثل تسجيلهم ملكية مقبرة أو معبد فاستخدموا خطا منتظما له أصول وقواعد متعارف عليها وهو الخط النبطى وتبع ذلك استخدامهم اللغة المكتوبة بهذا الخط وهى اللغة النبطية واللذان كانا ينتشران فى منطقة الحجاز حيث قامت دولة الأنباط التى امتدت فى عصر ازدهارها من حدود الشام شمالا مرورا بالبتراء العاصمة الأولى لدولة الأنباط حتى مدائن صالح جنوبا التى كانت بمثابة العاصمة الثانية لدولة الأنباط. وبطبيعة الحال فإن دولة منظمة كهذه كان لها خطها المنتظم ولغتها الأدبية ولعلها تشبه عندنا الخط العربى المنتظم الذى يلتزم أصوله الخطاطون (سواء كان نسخا أو رقعة أو غيرهما) كما أن اللغة النبطية تشبه اللغة العربية الفصحى كلغة كتابة وأدب (ولو أنه لم يصل للعلماء نصوص أدبية باللغة النبطية، وما يسمى فى المملكة العربية السعودية بالشعر النبطى ليس به من اللغة النبطية عبارة واحدة فهو شعر عامى باللهجة السعودية الدارجة).

ثالثا: سبب استمرار استخدام الثموديين للخط واللغة النبطية رغم زوال دولة الأنباط:

مما يدل على انتظام الخط النبطى وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية أن الثموديين استخدموهما بعد زوال دولة الأنباط على أثر إسقاط الرومان لعاصمتها البتراء عام ١٠٦ ميلادية أى أن التراث النبطى فى الخط واللغة استمر بعد ذلك التاريخ بحوالى مائة وستين عاما (نقش رقوش المؤرخ بما يعادل سنة ٢٦٧ ميلادية كما ذكرنا).

غير أن هذا التفسير وحده أى استمرار استخدام الخط النبطى وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية وحدهما لدى الثموديين لايبرر تمسك الثموديين بهما هذه المدة الطويلة أى بعد زوال النفوذ النبطى بما يزيد على قرن ونصف وإنما لابد أن هناك سببا آخر عزز من ذلك ، هذا السبب هو فى رأيى وجود رابطة قرابة قوية بين الثموديين والأنباط تفسرها لنا الآيات الواردة فى القرآن الكريم عن الثموديين فقد نسبت هذه الآيات إنشاء الأضرحة النبطية فى الحجر (مدائن صالح) إلى قوم ثمود (سورة الفجر، آية ٩ . وسورة الحجر، آية ٨٠ . وسورة الأعراف، آية ٧٤ .) لا إلى الأنباط رغم ما على واجهاتها من كتابات بالخط النبطى واللغة النبطية مما

يرجح أن الأنباط كانوا فى الأصل قبيلة من القبائل الثمودية اجتذبت أفرادها ثروة التجارة المتدفقة عبر الطريق التجارى العظيم (أو طريق الذهب والبخور) القادم من اليمن والمتجه إلى الشام فانسلخت هذه القبيلة من الشعب الثمودى واستقرت فى منطقة البتراء الغنية بالمياه الباطنية والواقعة على هذا الطريق حيث استنبطت هذه القبيلة المياه بحفر الآبار وأطلق رجالها على قبيلتهم اسما يشير إلى هذا الاستنباط وهو «نبطو» فإن هذه الكلمة عربية قديمة وردت فى النصوص العربية الجنوبية بالصيغة «ن ب ط» وأحيانا «هـ ن ب ط» بنفس المعنى أى مما يدل على استنباط الماء (Beilla 1982, p. 290) وقد أضاف إليها الأنباط حرف الواو النهائى الذى هو من خصائص أسماء الأعلام النبطية (Contineau 1978, II, p. 165) وصار ملكهم يلقب بـ «ملك نبطو» (Op. cit., p.119) .

وكما هو معروف فقد انتحل الأنباط اللغة الآرامية والخط الآرامى واستخدموهما عوضا عن خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية لكى يسهل عليهم التعامل مع أسواق الشام التى كانت تسود فيها هذه اللغة وهذا الخط والتى كانت تصب فيها السلع الثمينة القادمة من الجنوب والتى أصبحوا يتحكمون فيها بحكم موقع عاصمتهم البتراء. وليس أدل على الأصل الثمودى (أو العربى الشمالى) للأنباط من أن اللغة العربية الشمالية بدأت بمرور الوقت تتغلغل فى لغتهم الآرامية المنتحلة فإن المقارنة بين نصوصهم المبكرة المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح والتى ترجع إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، والتى تسود فيها الكلمات والتعبيرات الآرامية- بمقارنتها بنصوصهم المتأخرة المدونة على واجهات هذه الأضرحة وعلى غيرها فى كل من العلا (نقش شمعون المؤرخ بما يعادل ٣٠٧م (JS 1909, II, Atlas, pl. CXXI) وبمدائن صالح (نقش رقوش المشار إليه) يلاحظ غلبة الكلمات العربية الشمالية (القريبة من العربية الفصحى) على الكلمات والتعبيرات الآرامية.

هذا الارتباط فى الأصل بين الثموديين والأنباط هو الذى يفسر تمسك الثموديين باللغة والخط النبطيين بعد زوال دولة الأنباط بوقت طويل كما يفسر سبب إطلاق القرآن الكريم اسم ثمود على أصحاب أضرحة مدائن صالح رغم الكتابات النبطية التى عليها فمن الواضح أن القرآن الكريم خاطب الشعب العربى الأصلى وهو الشعب الثمودى الذى تنتمى إليه القبيلة أو القبائل النبطية ولم يخاطب الأنباط الذين انسلخوا منه وغيروا لغتهم العربية وخطهم العربى واستبدلوا بها خطا ولغة غريبة على العرب ولعل هذا يفسر اعتبارهم «أعاجم» فى نظر الإخباريين العرب.

المراجــع

- Branden 1950 :

Van den Branden, ALB; Les inscriptions Thamoudéennes, Louvain.

- Cantineau 1978 :

Cantineau, J., Le Nabatéen , 2 vols. Paris, 1930-1932 .

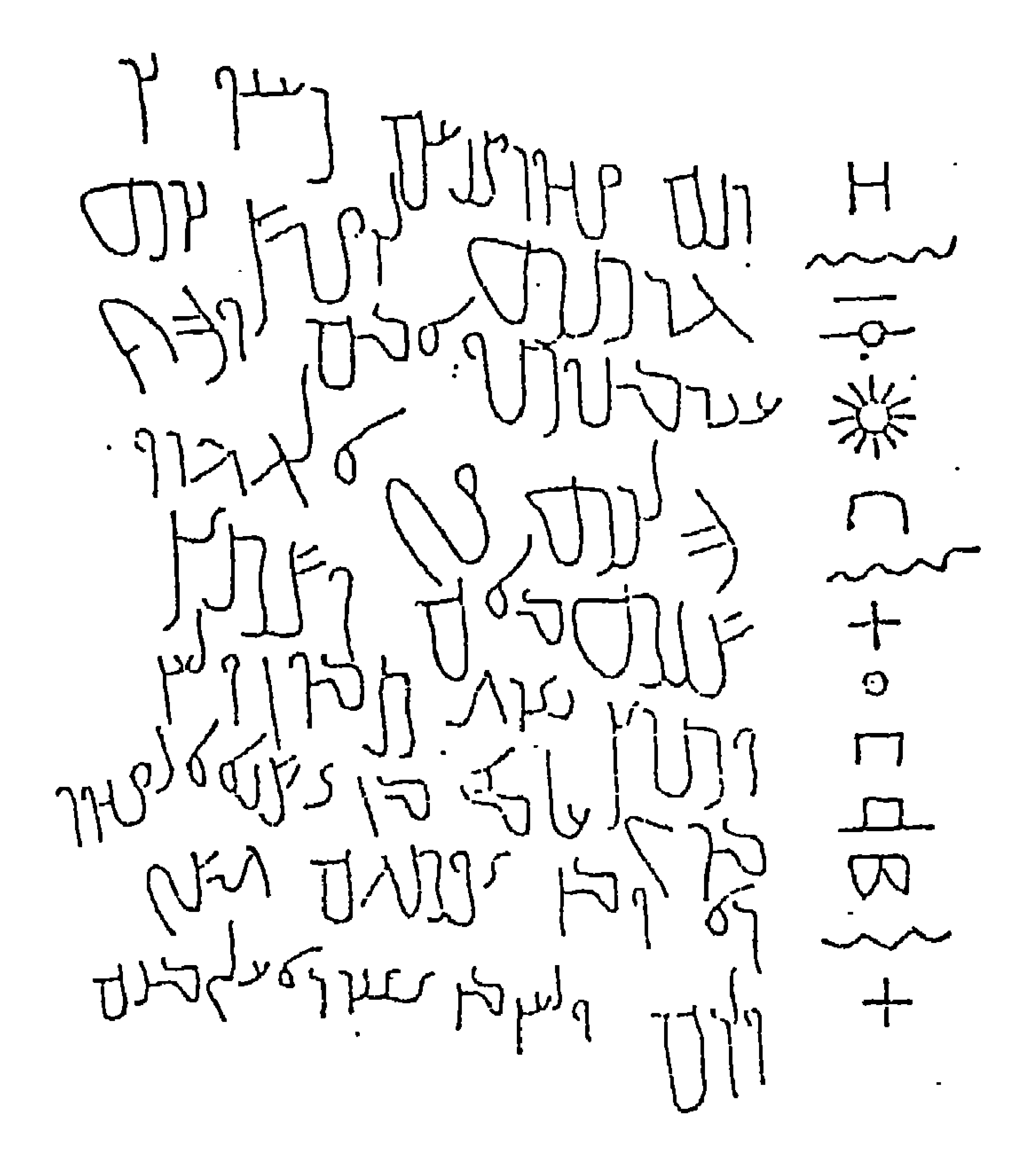
- JS 1909 :

Jassen & Savignac,

Mission Archéologiques en Arabie, 4 Tomes, 1909-1914 .

- Milik 1971 :

Milik J.T "Inscriptions Grecques et Nabateennes de Rawafah " Bulletin of the Institute of Archaeology, No. 10 , London .



(شكل ١) النقش المحفور على واجهة مقبرة السيدة رقوش الثمودية فى منطقة قصر البنت بمدائن صالح ويتكون من تسعة سطور أفقية بالخط النبطى واللغة النبطية (لغة الشئون الرسمية عند الثموديين) ومن سطر واحد رأسى بالخط الثمودى واللغة (أو اللهجة) الثمودية وهى لغة التخاطب عند الثموديين.

سطر ١

القراءة : ته قبر وصنعه كمبو بر

الترجمة : هذا (الـ) قبر صنعه (تحته) كمب بن

سطر٢

القراءة : حـــر ثـــت لرقوش برت

الترجمة : حـــارثـــة لرقوش بنت

سطر٣

القراءة : عبد منـــو تـــو أمه وهى

الترجمة : عبد منـــــاة أمه (والدته) وهى

سطر٤

القراءة : هـــلكت فـــى ألحجـــر و

الترجمة : هلكت (توفيت) فـــى ألحـجـــر

سطر٥

القراءة : سنت مـــأه وستين

الترجمة : سنة مائــــة وستين

(شكل٢أ) تفصيل النقش النبطى (المنشور فى شكل١) وقراءة وترجمة السطور من ١ إلى ٥

سطر ٦

القراءة : واتنيـــن بيـــرح تمـــــــوز ولعن

الترجمة : واتنيـــن في شهر تمـــــــود ولعن

سطر٧

القراءة : مر ى علـــمـــا من بننأ القبرو

الترجمة : سيد العالم من بننأ القبر

(يعتدى على)

سطر٨

القراءة : دا و . من يفتحـــــه حشى

الترجمة : هذا (ده) ومن يفتحـــــه حاشـا

سطر٩

القراءة : ولده ولعن من بغير دا على منه

الترجمة : ولدها ولعن من يغير هذا (الذى) أعلاه

(ربما المقصود هذه الكتابة)

(شكل٢ب) تفصيل بقية النقش النبطي، قراءة وترجمة السطور ٦-٩

د. حسن بكر الشريف *

الصلات القديمة بين أوربا والبلاد العربية الإفريقية

للوقوف على الصلات المبكرة بين أوربا والعالم العربى لابد من أن تكون نقطة البدء هى الاتجاه نحو الأقطار العربية الواقعة فى نطاق حوض البحر المتوسط. وعلى وجه التحديد تلك الدول الواقعة على شواطئه الجنوبية والشرقية ، فى عقد تلك الصلات، وذلك لما يتوفر لها من إمكانية إقامة صلات مباشرة فيما بينها وبين جنوب أوربا**.

ويبدو أن هذه الصلات لم يكن لها وجود فى عصر ما قبل التاريخ. ولكنها أخذت فى الظهور منذ أواخر العصر أى فى فجر العصر التاريخى العام للشمال الأفريقى.

وفى ساحة السباق الحضارى لكل من العالمين : الأوربى والشمال الأفريقى؛ يبدو أن كلا منهما كان يتمتع بشخصية حضارية مستقلة تماما عن الآخر. على الرغم مما كان يحدث

* أستاذ مساعد بكلية التربية بدمنهور- جامعة الاسكندرية.

** الواقع أن الجغرافيين يتحدثون عن ثلاثة معابر يمكن أن تكون طرق وصل فيما بين الجنوب الأوربى والشمال الأفريقى، تلك هى شبه جزيرة البلقان وجزر إيجا ، ومقدمة شبه الجزيرة الإيطالية ورأس بونو فى تونس عبر جزيرة صقلية، ثم مضيق جبل طارق.

أحيانا، وفى بعض المراحل من ظهور توهج حضارى -بلامقدمات- فى أحد العالمين ، دون يكون له أى صدى فى العالم الآخر المقابل له.

ويسهل على الدارس المتتبع للتطور الحضارى لكل من العالمين - الأفريقى والأوربى- أن يلحظ هذه الحقيقة، وأن كلا منهما سار فى طريق حضارى مستقل تمامًا عن الآخر، دون أن يؤثر أو يتأثر بالجانب الآخر، على أنه يمكن القول إن أقطار العالم أخذت فى التباين الحضارى، أو ما يمكن أن نعده تمايزاً إقليميًا، فى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط. ففى تلك الحقبة شهدت أوربا صناعات خاصة بها، أخذت مسمياتها من مواقع أوروبية حقيقية، عرفت بالصناعات الموستيرية أو الموستيرية- اللفلوازية. ويبدو أن هذه التقنيات الجديدة كانت بمثابة مرحلة حضارية عمت جميع أنحاء العالم القديم، وارتبطت بظهور إنسان نياندرتال، لأننا نلحظ أن أقطار الشمال الأفريقى شهدت هذا التطور العام، ولكنها سرعان ما اتخذت لنفسها خطا تقنيا خاصا، حيث ينبثق من أحد مناطقها صناعات محلية متميزة، تبعدها عما شهدته بقية مناطق العالم الأخرى .

وهذه الصناعات الجديدة، عرفها المشتغلون بعصور ما قبل التاريخ باسم الصناعات العاتيرية نسبة إلى مكان كشفها ، وتميزت بأداة خاصة يسهل التعرف عليها. والعجيب فى أمر هذه الصناعات أنها غطت كل أرجاء الشمال الأفريقى وصولا إلى وادى النيل شرقا[1]، واتجهت جنوبا متخطية ما يعرف حاليا بالصحراء الكبرى (أنظر الخريطة) ولكنها شمالا لم تتعد خط الساحل .

وفى حقبة العصر الحجرى القديم الأعلى (الباليوليتى الأعلى) شهدت أقاليم غرب أوربا ازدهارا حضاريا متألقا فى حقب حضارية ثلاث متتالية: مرحلة الحضارة الأورنياسية Au-rignacien، ثم السوليترية Solutréen وأخيرا المجدالينية Magdalénlien وتتسم هذه المراحل الثلاث بتفجر طاقة تقنية وإبداع فنى، شهدت به مجموعات الأدوات الحجرية والعظمية المنقوشة، وفن حوائط الكهوف الذى خلفه إنسان ذلك العصر*. وكان هذا التطور يجرى بينما

---

* شهدت أقطار الشمال الأفريقى بعامة ظاهرة فنية أخرى ، مضاهية لظاهرة فن حوائط الكهوف، وهى ظاهرة النقوش والرسوم الصخرية . لكن ينبغى التنويه بوجود فروق جوهرية بين الظاهرتين ، يبعد أى شبه علاقة بينهما :

=

أقطار الشمال الأفريقي تمر بمرحلة تطور حضارى محلى تماما، تمثل فى تطور تقنى للصناعات العاتيرية التى كانت فى العصر الحجرى القديم الأوسط، تخطو نحو صناعات حجرية بدائية فى خواتيم العصر الحجرى القديم الأعلى، وبالنسبة لانتاجها من الأدوات العظمية جاء فقيرا فى تنوعه وخاليا من النقوش.

وليس معنى ذلك أن هناك فواصل ظلت قائمة بين أوربا والشمال الأفريقي بحيث اتجه كل منهما وجهة حضارية خاصة به.

وهناك رأى درج عليه بعض الباحثين (٢)، يفسر الصناعات القفصية* Capsien، التى انتشرت فى أرجاء الشمال الأفريقي، فى حدود الألف السابع ق.م. تقريبا، على أنها النظير الأفريقي للصناعات الأورنياسية الأوربية، وهي أولى المراحل الحضارية للباليوليتى الأعلى الأوربى؛ والذى يقدر له علماء ما قبل التاريخ أنه بدأ فى أوربا منذ أربعين ألف عام أو خمسة وثلاثين ألفا من وقتنا الحاضر. واعتمد أصحاب هذا الرأى على وجود مشابهة بين أداة (الإزميل أو المحت) فى كل من الصناعتين. والمحت هو أداة الصناعات الأورنياسية المميزة، وكان أساسا أداة النقش على الأدوات العظيمة، وخاصة تلك التى من قرون الرنة.

= - تعاصر فن رسوم الكهوف فى أوربا، مع آخر عصر جليدى فى أوربا، والذى انتهى منذ حوالى عشرين ألف عام، فجاءت موضوعاته الحيوانية مقتصرة على حيوانات مرحلة الصيد . بينما فى شمال أفريقيا فإن هذه الظاهرة، لاتذهب عند أكثر الآراء تفاؤلا أبعد من الألف العاشر ق.م ثم هى تستمر فى التواجد لترصد بعد مرحلة الصيد مرحلة الرعى ثم مرحلة الحصان ثم مرحلة الجمل الذى عاصر الجفاف.

- اقتصار الأعمال الفنية فى أوربا على حوائط الكهوف وأسقفها ، واستخدامها للرسم فى التعبير مع استخدام ألوان طبيعية. بينما كان الحال فى شمال أفريقيا الاقتصار فى المراحل الأولى على أعمال النقش، ثم فيما بعد مورس الرسم، وجاءت هذه وتلك فى مناطق مكشوفة بعيدة عن الكهوف .

- اقتصرت الظاهرة فى أوربا على تصوير حيوانات وبعض مشاهد الصيد ، بينما فى الشمال الأفريقى صور الإنسان، إلى جانب مشاهد الصيد ، والعديد من الموضوعات الأخرى من حياته وممارساته الطقسية، أنظر للباحث:

«الفن الصخرى فى بلاد المغرب» مجلة المؤرخ العربى، العدد السادس، المجلد الأول، القاهرة ، ١٩٩٨، ص٦٢ وكذلك:

«النقوش والرسوم الصخرية كمصدر للتاريخ» ، الدورية السابقة ، العدد السابع، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤١-٦٩ .

* نسبة إلى قفصة فى جنوب تونس .

ويدخل ضمن هذا الرأى ، موضوع صناعات حجرية عثر عليها أحد المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ فى مصر وهو الفرنسى فينيار Vignard[٣]، بالقرب من مصنع قصب السكر فى نجع حمادى بصعيد مصر . وأسماه لذلك بموقع (حقل القصب) Champ de Bagasse وكان وجود نسبة كبيرة من المحتات، أهم ما يميز هذا الموقع. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الأداة هى أداة الصناعات الأورنياسية المميزة.

وكان أن نسب فينيار الموقع المذكور إلى الصناعة الأورنياسية الأوربية، على الرغم من أن فينيار لم يعثر فى موقعه هذا على أى أثر لمحاولات نقش على قطع عظمية، بل لم يعثر أصلا على مثل هذه القطع.

بل إن فينيار ذهب فى تأويلاته المتعلقة بموقع نجع حمادى إلى حد القول بأن أصحاب هذا الموقع ليسوا أصليين، وأن أدوات نجع حمادى إنما هى ذات علاقة بقفصية تونس، وبالأدوات الأورنياسية الأوروبية بمعنى أنها جميعا صناعات من أصل واحد، يرجع أصحابها فى أصولهم إلى آسيا، الذين أخذت هجرتهم وجهتين: وجهة فى اتجاه أوربا عن طريق وادى الدانوب والنمسا حيث أوجدوا الأورنياسية الأوربية. ووجهة أخرى نحو سوريا . وبالنسبة لقفصية تونس فإنها جاءتها إما عن طريق شبه الجزيرة الإيطالية- صقلية- تونس، أو عن طريق الشرق من سوريا. أما بالنسبة لموقع نجع حمادى فإنه يرجع قدوم أصحابه عن طريق سوريا- فلسطين- مصر، دون استبعاد للطريق الآخر.

وهكذا صار علينا أن نتخيل العالم القديم فى ذلك الزمان وقد غدا ساحة مفتوحة خالية تمرح فيها تلك القبيلة الأورنياسية كيف تشاء!

ويدخل ضمن الربط بين ما هو موجود فى أوربا وبين ما هو فى الشمال الأفريقى، ما عرف بالمشكلة السبيكية ، نسبة إلى موقع برج S'baika جنوبى مقاطعة قسنطينة بالجزائر ، حيث عثر ريجاس Rugasse[٣]، على عدد وفير من الأدوات الحجرية (٨٠٠٠ قطعة تقريبا)، عرفها ريجاس على أنها تقنية تصنيع جديدة تمثل تطورا خاصا فى صناعة قبضة اليد Coup de poing الأشولية - صناعة الباليوليتى الأسفل- إلى الأداة الورقية الشكل السوليترية، التى هى ثانى مراحل الباليوليتى الأعلى الأوروبى، دون المرور بالصناعات الموستيرية والأورنياسية .

وقد واجه هذا الرأى استهجانا واسعا من قبل أغلب المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ للشمال الأفريقى ، أمثال فوفريى Vaufrey وبالو Balout واليمان Alimen. الذين أشاروا إلى غياب الأدلة الكافية للمجموعة الحيوانية، مما يشكك فى الوضع الطبقى للسبيكية[٥].

وربما كانت آخر الآراء ، ما أثاره الباحث الفرنسي بلارى Pallary، من بلبلة فى تعريفه لأدوات حجرية، كان قد تم الكشف عنها فى مواقع أفريقية على الساحل الأطلنطى ، ثم تبين أنها تنتشر فى مواقع ساحلية أخرى، تمتد غربا من ساحل الأطلنطى إلى خليج قابس شرقا فى تونس *. وقد اعتقد بلارى أن هذه الصناعات الحجرية ذات علاقة بصناعات أخرى فى الجنوب الأسبانى، لذا أراد تمييز سمتها الجديدة، فأطلق عليها اسم الصناعات : Ibéro- maurusien ويتضح من تركيب الاسم الرغبة فى الإيحاء بوجود علاقات تقنية بين ما هو فى جنوب أسبانيا وما عثر عليه على سواحل المغرب، وهذا ما ثبت خطأه فيما بعد، ورغم تراجع بلارى عن أرائه، إلا أن التسمية ظلت مستعملة بحكم قانون الأسبقية[٦].

* * *

وننتقل بعد ذلك إلى مشكلة ترتبط بهذا الموضوع ، هى مشكلة ذلك الانتشار الواسع للأدوات القزمية أو الميكروليثية Mécrolihiques، الذى غطى كل من أوربا وشمال أفريقيا وغرب آسيا، الأمر الذى أثار الافتراض بوجود موطن أصلى خرجت منه إلى بقية مناطق العالم القديم. وكان هذا الموضوع ضمن أهداف المؤتمر الدولى للأنثروبولوجيا وآثار ما قبل التاريخ الذى عقد فى جنيف سنة ١٩١٢ .

وفى هذا المؤتمر أعلن عالم ما قبل التاريخ الفذ بريل Breuif أنه إذا ما أريد البحث عن أصل هذه الصناعات القزمية، فإنه يتعين علينا البحث عنها فى مكان ما جنوب البحر المتوسط[٧]. والذى حدث بعد هذا المؤتمر وهذا الإعلان بحوالى عقد من الزمن، أن كشف فينيار Vignard فى وادى كوم أمبو بصعيد مصر، عن أشهر مواقع ما قبل التاريخ فى مصر بالقرب من قرية «سبيل» الواقعة فى هذا الوادى، وهو ما عرف فيما بعد بالصناعات السبيلية[٨].

وترجع أهمية هذا الكشف إلى أنه جاء على مستويات ثلاث متدرجة ومتوالية فى الزمن، حيث يعبر المستوى الأول عن صناعات موستيرية صميمة- باليوليتى أوسط- والمستوى الثالث عن أدوات ميكروليثية هندسية الشكل- باليوليتى أعلى- أما المستوى الثانى فيمثل الانتقال من الموستيرية إلى الميكروليثية.

---

* هذه الصناعات التى ارتبطت بمواقع ساحلية كونت مع الصناعات القفصية القائمة فى الداخل، ما يعرف فى حضارة المغرب القديم بمرحلة آل épipaléolithique وهى تمثل المراحل الختامية للعصر الباليوليتى الأعلى للشمال الأفريقى.

ويتضح فى «سبيل» بما لايدع مجالا للشك، التطور التقنى من صناعات الشظايا فى الباليوليتى الأوسط، إلى صناعات شفرية فى الباليوليتى الأعلى، وهو الوضع الذى يجعل من «سبيل» الموقع الوحيد فى العالم، الذى يجسد هذا الوضع الطبقى الصريح.

ويبدو أن فينيار Vignard استحضر دعوة بريل Breuil السابقة إذ يعلن أنه عثر فى «سبيل» على أصل الأدوات الميكروليثية فى العالم. وأنه من «سبيل» خرجت هذه الصناعات إلى سوريا وأوربا وأفريقيا بل وصلت إلى الهند . وأن صناعات هذه المناطق ليس لها نقاط مشتركة مع المستوى الثالث فى «سبيل» ، بل هى مستقة منه.

والحقيقة الماثلة هى أنه منذ اكتشاف فينيار فى «سبيل» لم يبق أمامنا فى مجال الكشف العلمى لعصور ما قبل التاريخ أكثر مما عثر عليه فى كوم أمبو، الأمر الذى يجعل من آراء فينيار عن «سبيل» أمرا من المحال تجاهله .

* * *

ثم كان أن حلّت مرحلة العصر الحجرى الحديث وظهور الفخار فى الشمال الأفريقى .

ويكتسب الفخار فى الدراسات القديمة، أهمية خاصة، تميزه عن غيره من المواد الأخرى، كالحجر أو العاج أو العظم ، فهذه كلها مواد صلبة تفرض خصائصها الطبيعية، على الصانع، حتى مع نهجه نهجا معينا أو ابتداعه لتقنية خاصة فى تصنيعها. وبسبب ذلك كثيرا ما تتقارب تقنيات التصنيع وتتشابه الأدوات، مما يكون مدعاة لكثرة التفاسير.

والواقع أن هذا يوضح لماذا تكثر الآراء وتتعدد أحيانا وقد تتضارب أحيانا أخرى عند تفسير طبيعة هذه المواد المصنوعة من الحجر أو العظم أو ما شابه ذلك. وبالنسبة لأقطار الشمال الأفريقى فإنها شهدت مثل هذه القضايا الخلافية، لأنها قامت فى أساسها على اتخاذ مادة الحجر عنصرا رئيسيا فى تطورها الحضارى. ولتفسير ذلك نقول إنه لكى يتم تصنيع الآنية الفخارية ، فإنه يتعين على الصانع أن يقوم بتصنيع عجينة لينة، يتم تجميع عناصرها من مواد محلية فىْ أغلب الأحيان. والذى يحدث أن هذه العجينة تكون بين أصابع الصانع قابلة لأن يشكلها حسبما يتراء له. فعملية التشكيل هنا غالبا ما تكون قريبة من نفسية الصانع ، حيث يطبع فيها شخصيته وأحاسيسه ، وربما انفعالاته الوجدانية، وسرعان ما يتكون فى جلاء نمط محلى يسود الإقليم، ويكون واجهة له ثم يصبح من اليسير التعرف على الأنماط المختلفة وتحديد مناطقها، ورصد أى أنماط غريبة ومعرفة أصولها.

ونستطيع أن نطبق هذا فى حالة فخار المغرب القديم. حيث فى الإمكان، التعرف فى جلاء وكثير من اليقين ، على العناصر الأجنبية الوافدة من خارج أقاليم المغرب وتحديد مواطنها.

والحقيقة الماثلة فى حالة فخار المغرب القديم، أنه رغم اتساع رقعة أقطار الشمال الأفريقى، إلا أن الفخار الذى خلفته جاء فخارا خشنا ضعيف البهجة فى الغالب الأعم. وقد عزت الدراسات التى تناولته سبب ذلك إلى منافسة بيض النعام. ويتضح ذلك بشكل جلى فى الأقاليم التى كانت ضمن نطاق الحضارة القفصية، إذ يبدو أن أصحاب هذه الحضارة كانوا شديدى التمسك بتقاليدهم التى ورثوها قبل ظهور الفخار فى العصر الحجرى الحديث. ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن طائر النعام يعد من الطيور الحيوانية التى تأكد وجودها فى الشمال الأفريقى، ربما حسبما يعتقد فوفرى Vaufre منذ مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل[٩]. والواقع أنه قلما تخلو طبقة أثرية فى بلاد المغرب من تواجد بيض النعام أو قشوره. ويبدو أن هذا الطائر كان من أوائل الأنواع التى تم استئناسها وتربيتها فى حظائر خاصة.

والواقع إن الفخار فى المغرب عانى كثيرا من منافسة بيض النعام، فلم تخرج الأوانى فى تكوينها عن القاع المخروطى، مما يصعب تصور الكيفية التى كان يتم بها تثبيت الإناء فى وضع مستقر . على أنه كان يتم حمله داخل سلة من نسج الحلفاء ويعلق، وربما كانت هذه هى الطريقة التى كان يتم التعامل بها مع بيض النعام، الذى استخدم كقوارير بشكل شائع فى مناطق المغرب. ويبدو أن إنسان المغرب ألف مثل هذه العادة، ولم يشأ أن يبدلها وهذا قد يفسر البطء الشديد الذى اتسم به تطور الفخار المغربى.

والغريب أن كلا من الفخار وبيض النعام تبادلا تأثيرات سلبية ، ففى مرحلة العصر الحجرى الحديث أخذ دور بيض النعام فى التضاؤل ، ونتيجة لظهور تقنية جديدة ذات إمكانيات إضافية تتمثل فى الفخار، وفى المقابل عانى الفخار من منافسة بيض النعام، مما كان سببا فى بطء تتطوره ، فجاءت تكويناته محدودة للغاية ، تفتقر إلى دقة التنفيذ وقلة أساليب الزينة وفى الحقيقة أن هذه هى الصفات التى اكتسبها الفخار المغربى داخل نطاق الأقاليم، وخضعت للتأثير القفصى. أما بعيدا عن هذه المناطق، فى اتجاه الشمال نحو الساحل فى الجزائر، وامتدادا غربا حتى سواحل الأطلنطى فى المملكة المغربية أى بعيدا عن التأثير القفصى، فإن هذه المناطق كانت أكثر استجابة ومسايرة للتطور وتأثرت بالمأثورات الأجنبية .

وهكذا أمكن تحديد الطبقات الأثرية، في الجهات التي أشرنا إليها، والتي ثبت بشواهد أثرية يقينية أنها تأثرت بالفعل ، بما كان يدور على الساحل الآخر المقابل، في الجنوب الأسباني، وعلى وجه الخصوص ساحل المرية*.

ويعبر فخار هذه الأماكن عن تنوع ملحوظ للنماذج ، فجاءت الآنية بعيدة عن الشكل المخروطي، تحمل تقنيات جديدة لتحقيق زينة الجدران(١٠)، وجرى الحديث عن نوع من الفخار حمل اسم الفخار الكاردیالی Cardiale، نسبة إلى وحدة الزينة التي على جدران الآنية، والتي تمت بواسطة طبع صدفة ال Cardium . كما عرف نمط آخر من الفخار سمي بالفخار ال Cannelée حيث يتم عمل حزوز عريضة على جدار الآنية فتبدو في شكل قنوات هي إلى التجاعيد أقرب.

وهناك نمط ثالث، ربما كان أكثر شهرة من سابقيه في حوض البحر المتوسط، ويعرف بالفخار الكأسي Campaniforme، وفيه تكون الآنية كالكأس أو الجرس المقلوب، وربما يلاحظ أن هذا النوع أخذ تسميته من شكل الإناء وليس من أسلوب الزينة، وإن كان لزاما على الصانع اتباع أسلوب زينة محدد بواسطة المشط، مع استخدام وحدات خاصة على جدار الإناء أصبحت مرتبطة بهذا النوع(١١).

أما على الساحل الأطلنطي ، فلابد من الإشارة بصفة خاصة، إلى جبانة الكفن El Kiffen من نواحي تماريس، حيث تم الكشف عن مقبرة جماعية، يمثل فيها الفخار كمنقولات جنائزية ، وهي حالة فريدة تخالف ما وجدت عليه بقية الطبقات الأثرية في دول المغرب العربي القديم: تونس ، والجزائر ، والمملكة المغربية. وأمكن الحصول من هذه المقبرة ، على عدد من الأواني كبيرا نسبيا (٥٨ آنية سليمة أو يمكن ترميمها) وقد لوحظ أن الأواني لها أشكال جديدة، غير ما كانت عليه في بقية مواقع الشمال الأفريقي. ومن المعتقد أن هذه المقبرة، وربما كانت تعود زمنيا إلى العصر الحجري الحديث المتأخر(١٢).

وجاءت حالة مقبرة الكفن، حالة فريدة . ولذا تحاول الدراسات البحث عن أصل هذا الفخار وعن مدى انتشاره . وإن كان الاعتقاد الغالب أنه يعود في أصوله إلى الساحل الأسباني وخاصة ساحل المرية .

---

* جاء في تحديد أشهر هذه الطبقات الأثرية في إقليم وهران: كهف أشكار Achakar والخويل Elkhiril ومحطة كاحل Car Kahel وكهف تحت المحطة Caf that el gar ، أما في الساحل الأطلنطي فهي جبانة الكيفن ElKiffen (تماريس) والمهدية ودار السلطان .

خاتمة البحث

إن أقطار الشمال الأفريقى العربية كانت بمثابة العالم القديم الحقيقى فيما قبل العصور التاريخية وقبيل انبثاق الحضارات القديمة. ذلك أنها كانت تعيش حضارة حقيقية بتقنياتها المبتكرة في مجال تصنيع الأدوات، وعندما شارفت هذه العصور على نهايتها تفجرت فى أرجاء هذا العالم الخاص، طاقة فكرية وفنية إبداعية، هى الفريدة من حيث ثراء موضوعاتها أو تعدد أساليبها .

وقد أظهر الواقع الأثرى لمجتمعات شمال أفريقيا أنها كانت لها حضارتها الخاصة، وأن هذه الحضارة كانت ذات خصوصية انفرادية إلى حد ما. والملاحظ على هذه المجتمعات أن ميلها نحو عقد الصلات، إنما كان فى حدود الشمال الأفريقى- عالمها الخاص- دون إبداء الرغبة فى النظر إلى ما وراء البحر المتوسط، أو معرفة ماذا يدور شماله*.

قد يكون السبب فى ذلك، راجعا إلى عظم مساحة الشمال الأفريقى، وتجاور مجتمعاته، وتنوعها وسهولة المسالك ووفرتها فيما بينها، مما أغناها عن التفكير فى مخاطر ركوب البحر!

ويمكن القول بقدر كبير من اليقين، إنه فيما قبل العصر الحجرى الحديث العام للشمال الأفريقى، عاش كل من العالمين : الشمال الأفريقى والأوروبى، حياته المستقلة، منفصلا عما يدور فى العالم الآخر. ولايسعنا فى هذا الصدد إلا الأخذ بالأسباب البيئية واختلافها فى كلا العالمين. فقد عاشت أوربا تحكمها ظاهرة عصور الجليد التى يتخللها فترات دفء، وهذه أو تلك كانت تغير من الوسط البيئى بكل عناصره الحيوانية والنباتية، وكان على الإنسان أن يشكل استجاباته بما يتلاءم ومقتضيات الأجواء .

وشواهد الأحوال تظهر أن إنسان العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوربا، الذى عاصر آخر عصر جليدى، مع اضطراره إلى المكوث طويلا فى الكهوف، اكتملت مداركه الفكرية، وتكونت هواجسه الدينية! وتملكته الرغبة فى التعبير، فأخرج فنا راقيا ورائعا، بلغ به ذروة لم يبلغها غيره فى أى مكان آخر فى زمانه .

---

* ربطت كثير من الدراسات بين صلات وعلاقات حضارية بين مناطق تقع فى قلب الصحراء حاليا، كمنطقة تبستى وبين مراكز حضارية فى وادى النيل كمرمدة والفيوم ومناطق أخرى (مصر) وحضارة الخرطوم (السودان) .

أما في شمال أفريقيا فقد كان الحال مغايرا تماما، إذ تتابعت على أقاليمه ظاهرة مناخية مختلفة عما في أوربا، عصور من المطر الغرير، يفصلها فترات جفاف، وكان يمكن في مثل هذه الحالات، أن يحدث لمظاهر الحياة الحيوانية والنباتية أن تهاجر إلى الجنوب، لتعاود رجوعها عند تحسن ظروف المناخ. وكانت الكهوف الكثيرة التي تميز بها الشمال الأفريقي بشكل عام، ملاذا نموذجيا لإنسان هذا الوسط، فلم تنقطع حضاراته، وداومت مجتمعاته على البقاء.

ومع حلول مرحلة العصر الحجري الحديث، وما جاءت به من وفرة في إنتاج الطعام، دعت الحاجة إلى تصريف الزائد منه .. ومقايضته ببعض الاحتياجات الأخرى الضرورية ، في الوقت الذي سمحت به هذه المرحلة المهمة في تطور المجتمعات، أن يقوى التنظيم الاجتماعي للكيانات القائمة، أي بمعنى أشمل أنه قد تم تهيئة الأسباب لعقد الصلات الخارجية وتبادل العلاقات عبر مناطق لم تكن مألوفة من قبل.

والواقع أنه لايمكن الجزم بالكيفية التي تمت بها هذه الصلات أو متى تمت على وجه التحديد، وعما إذا كانت قد نمت بواسطة اتصال مباشر بين مناطق جنوب أوربا وشمال أفريقيا أم أنها تمت بشكل غير مباشر، وهو على ما يبدو الأرجح . ونحن في هذا الصدد لانستطيع أن نغفل نمو الدور الفينيقي في حوض البحر المتوسط، وتزايده مع ازدياد نشاط المدن الفينيقة، وخصوصا في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وانتشار المحطات الفينيقية في جزر وعلى شواطىء البحر. خاصة أن من حسن الطالع أن يترك لنا الفينيقيون دليل وجودهم على أرض الشمال الأفريقي ربما فيما يعتقد أنه حوالي ١٢٠٠ ق.م *. ويبدو أن الصلات تمت بين جنوب أوربا، وشمال أفريقيا في شكل تبادل لسلع يسهل حملها عن طريق التجارة، أو استعارة تقنيات تتعلق بصناعة الفخار وتزيينه. ولكن حالة مقبرة الكفن ElKiffen، تشير إلى أن هذه الصلات أخذت شيئا فشيئا طابع علاقات محكية بين العالمين، وخصوصا عندما نجد ضمن مقتنيات عثر عليها في بعض المواضع أشياء لايتضح لها استخدامات عملية، أو منحوتات على هيئات رمزية، كما في حالة أشكال كهف أشاكار أو كهف المعبودات[١٣]، أو صنعت من مواد جلبت من خارج أقاليم المغرب، مما يعني أن أقطار المغرب العربي القديم، قد خرجت من عزلتها الاختيارية السابقة، وأخذت في الاندماج مع التيارات الثقافية الحديثة التي كان يموج بها عالم البحر المتوسط حينذاك.

---

* تمثلت هذه الشواهد في بعض الأدوات المعدنية عثر عليها في طبقات أثرية على الساحل، وكذا في طبقات أثرية في المغرب الأقصى وبين النقوش الصخرية لجبال أطلس العظمى في موقع مراكش.

Vaufrey, R., Op. cit, p. 339 . Alimen, H., Op. cit, p. 90 .

الهوامش

1- El Cherif, H., " Outils Lithiques a Danfik" (Nagade), A.S. A.E., t. LXXII, Le Caire, 1993, p. 100, pl. VI no . 5et 6 .

2- Morgan, J. de., Capitan , L. et Boudy, P. Etude sur les stations prehistoriques du sud tunisien. Revue de l'Ecole d' Anthropologie t. 20, L 910, pp. 105-196, 206-228, 267-286, et 335-347, t. 21, 1911 , pp. 217-228 .

3- Vignard, E., " Une station Aurignacienne à Nag Hammadi".
(Haute Egypte) Station du champ de Bagasse. "B. I.F. A.O., XVIII, 1921 .

4- Reygasse, M. Les ages de la Pierre dans l'Afrique du Nord (Algerie) . Une brochure in -8 de 34 pages, extraite de " Histoire et Historiens de l' Algeria". Chapitre II. Collection du Centenaire de l'Algerie (1830-1930), publiee par le soin de la Revue historique , pp. 37-70 1931 ,

5- Vaufrey, R., Prehistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, Paris 1955, pp. 121-123 .
- Balout, L., Prehistoire de l'Afrique du Nord , Paris, 1955, p. 454 .
- Alimen, H., Prehistoire de l'Afrique, Paris, 1966, p. 65 .

6- Vaufrey, R., Op. cit., p. 257 .

7- Breuil (H.) Les subdivisions du Paleolithique superieur et leur signification . Congres international d'Anthropologie et d'Archeologie prehistoriques. Compte rendu de la XIV Session, Geneve, 1912, pp. 165-238 , 47 figures.

8- Vignard, E., "Une nouvelle industrie lithique Le sebilien ", B. I. F A.O., XXII, 1923 , pp. 1-76, avec 24 pl .

9- Vaufrey , R., Op. cit., p. 383 .

10- Camps- fabrer, H., MATIERE ET ART MOBILIER dans la prehistoire nord - Africaine et Saharienne , Paris, 1966, p. 391 , ff.

11- Tarradell, Notica sobre la excavaction de Gar Gahal. Tumude, II, 1954, pp. 344-358 .
- Id., Avance de la Primera campana de excavaciones en Caf Taht el Gar Ibid.. III, 1955 , pp. 307-325 .
- Id., Gar cahal y su aportacion al concimiento de la Edad del Bonce en el extremp

occidental del Mediterraneo- IVe Congr . nacion . de Arqueol, Burgos, 1955, pp. 101-112 .

- Id ., Caf Taht el gar . Cueva neolotica en la region de Tetuan (Marruecos) Ampuries, 19-20 , 1957-1958 , pp. 137-166 .

وكذلك أعمال A. Jodin في:

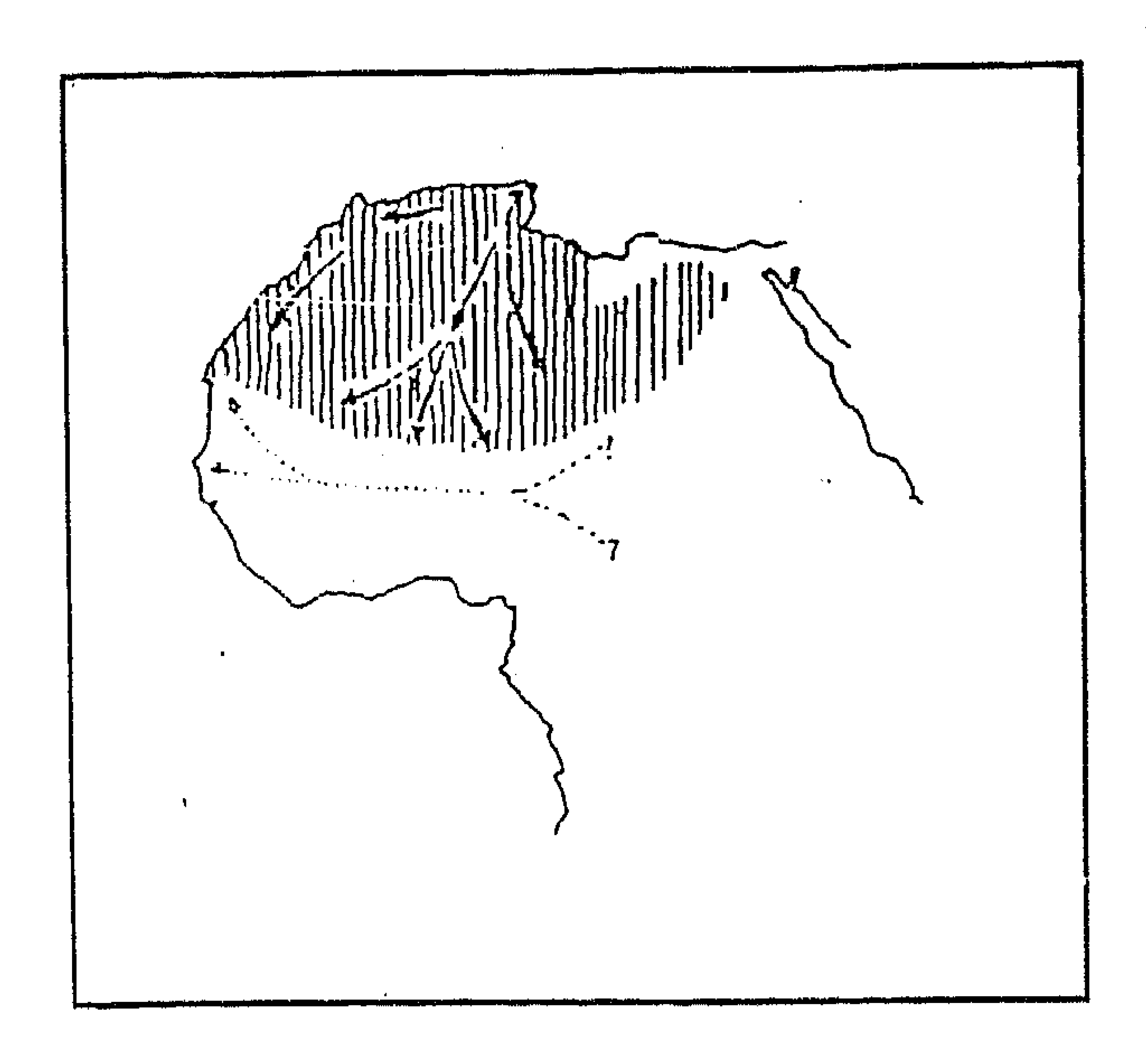
- Jodin, A., les grottes d'El-Khril a Achakar, Bull. d'Archeol. Maroc . t., 3, 1958-1959, pp. 250-313 .

- Id., Nouveaux documents sur la civilisation du vase campaniforme au Maroc. XVIe congr. prehist . De France, Monaco, 1959, pp. 677-687 .

بالإضافة إلى :

- Camps, G., en collaboration avec Souville , g., La civilisation du vase campaniforme (intervention au collogue atlantique de Brest, Septembre 1960) . Les civilisations atlantique du Neolithique a l' age du Fer , Rennes, 1963 .

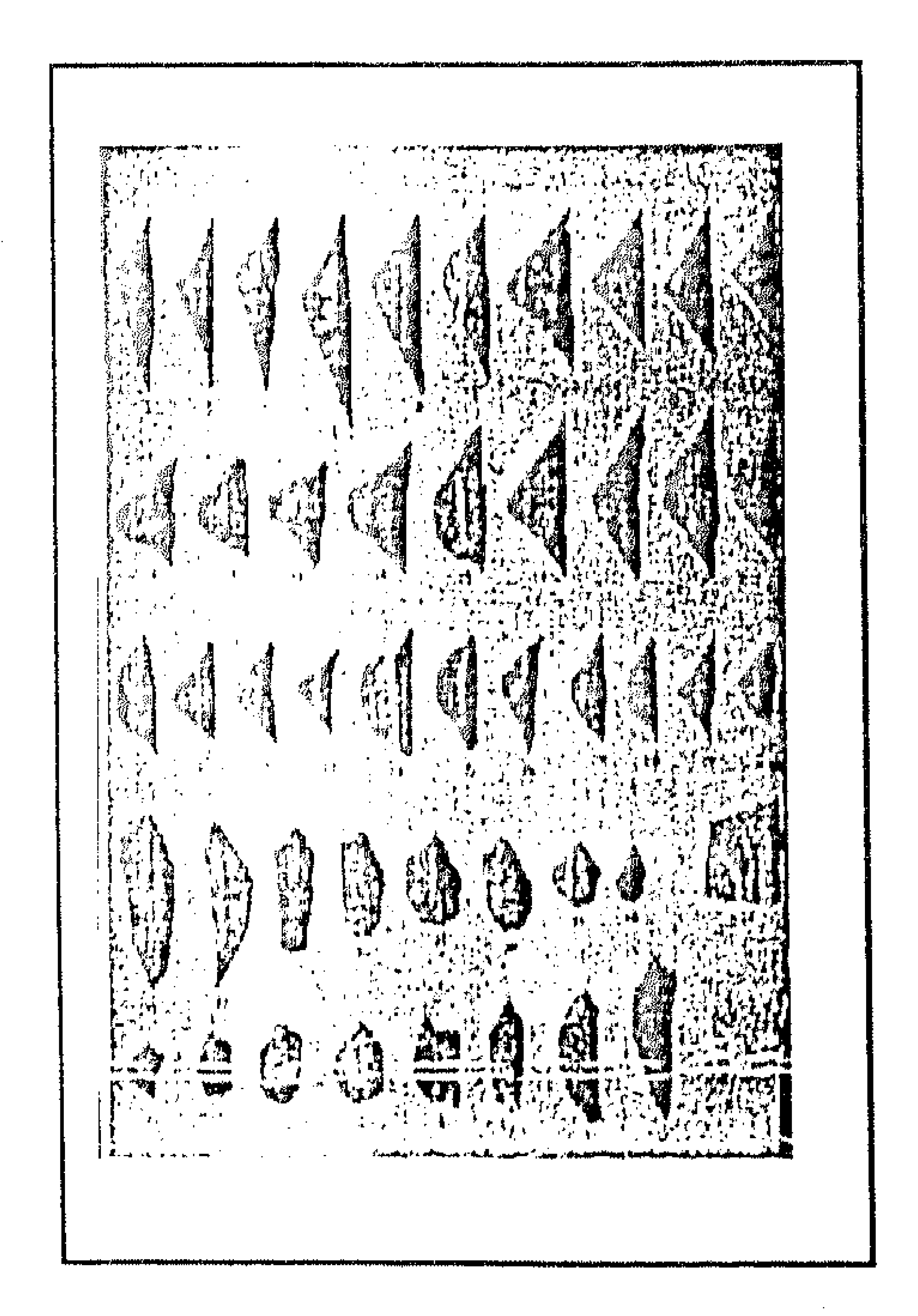
12- G. BAILLOUD et P. MIEG DE BOOFZHEIM , avec la collaboration de H. BALFET et Ch. KIEFER, La necropole neolithique d'El- Kiffen pres des Tamaris (Province de Casablanca, Maroc). Libyca, Anthrop. Prehist. Ethnogr., t. XII, 1964 , pp. 95-171.



مناطق عاتيرية

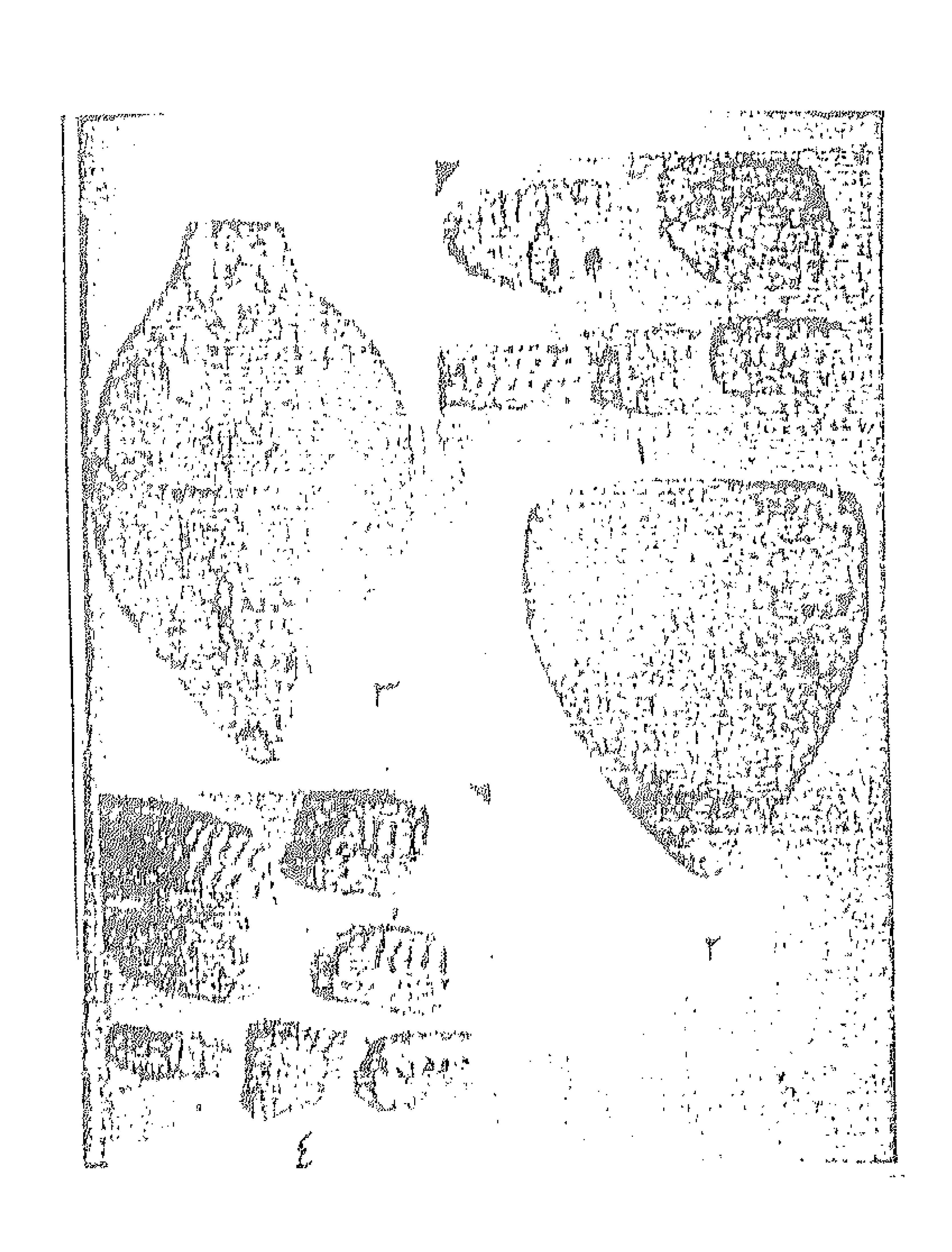
مسار الحضارة العاتيرية (افتراضى)

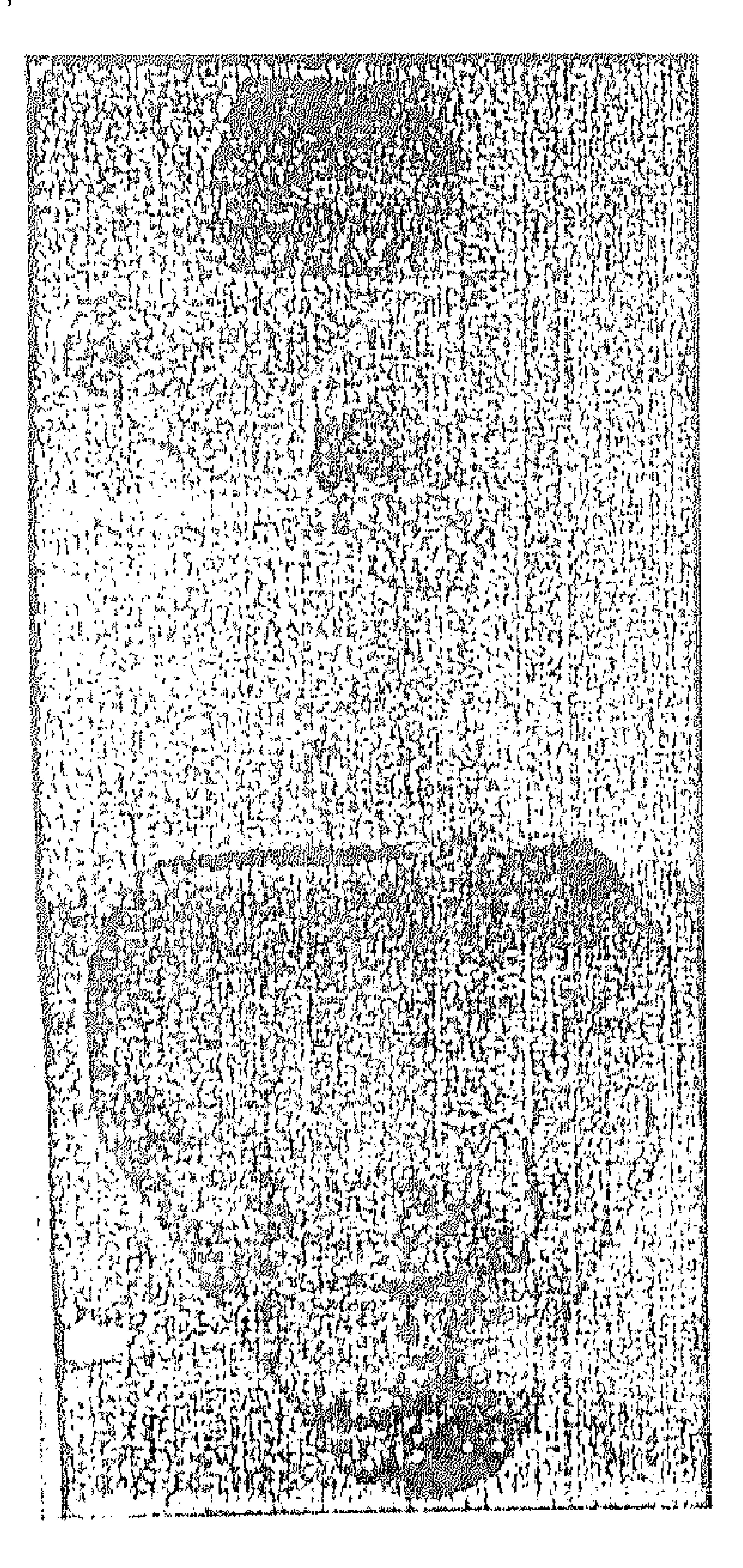
مسار المؤثرات الحضارة الموستيرية الجنوبية . عن : J. Tixier

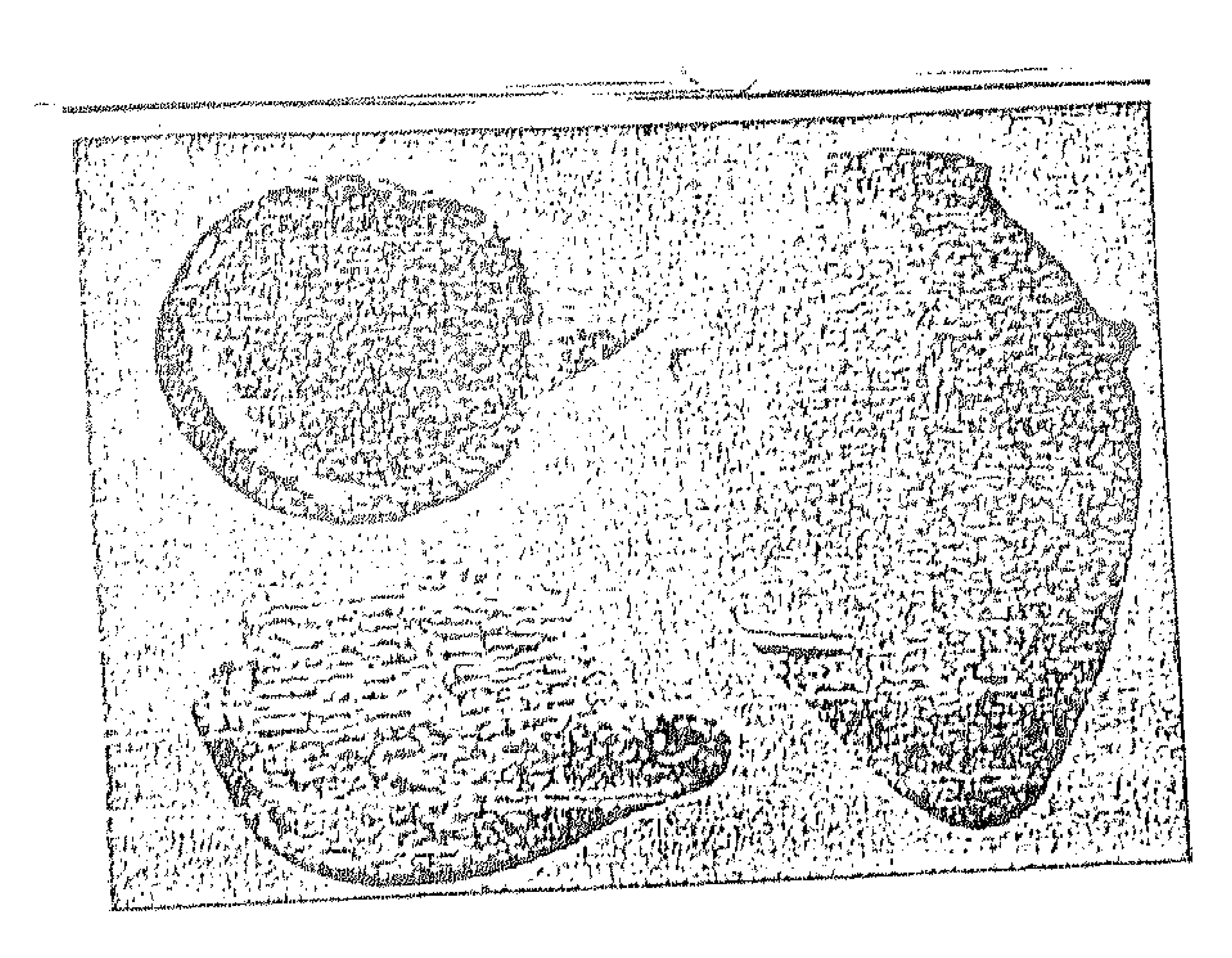


الصناعات القفصية وقد كثرت بها المحتات (الصفان الأخيران) . عن : Vaufrey

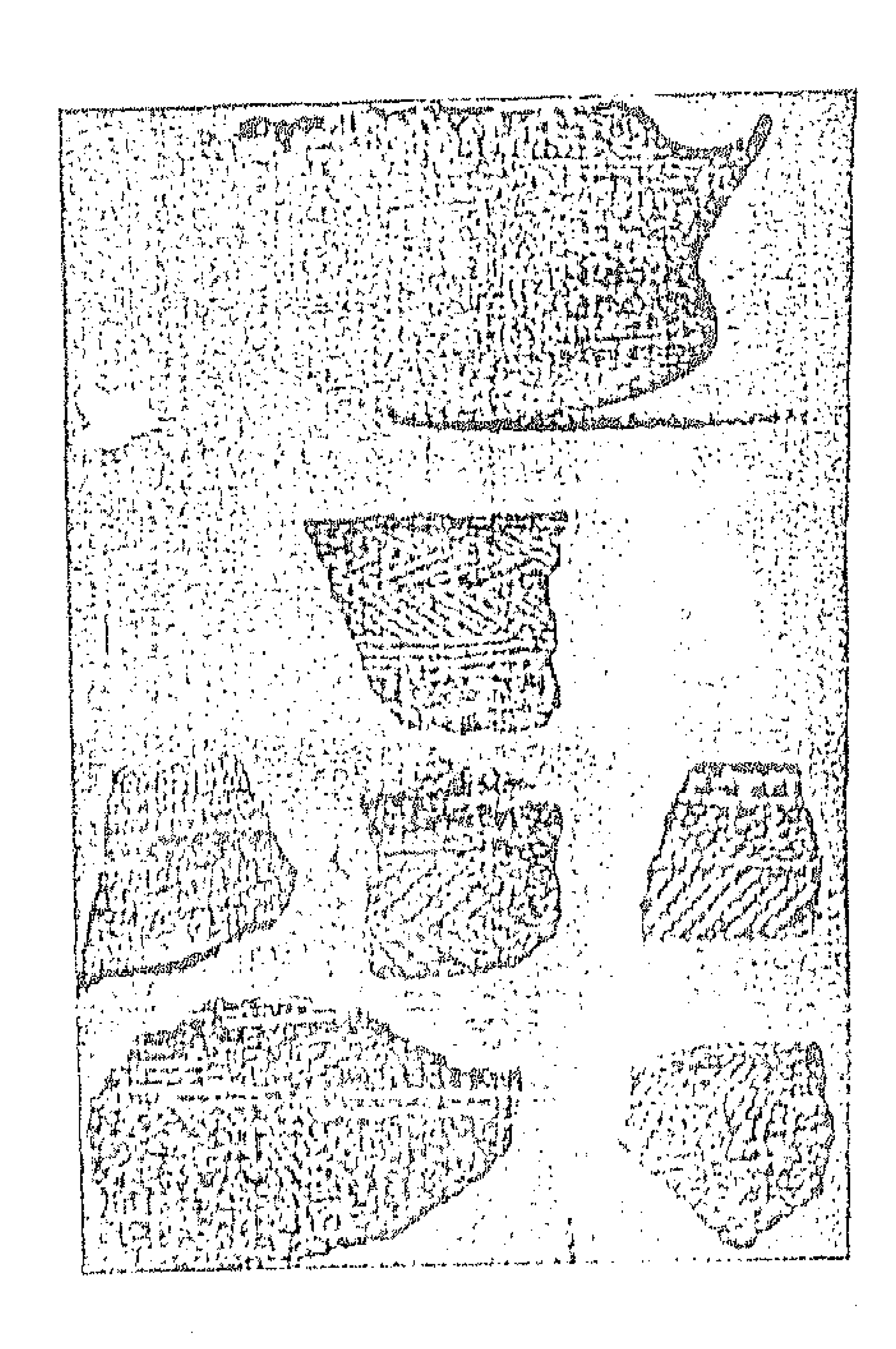
نماذج من الفخار المحلى للمغرب القديم
ويلاحظ انعدام أو قلة الزينة وبساطة الإلهام وقلة حذق التنفيذ.







أشكال هذه اللوحة واللوحات التالية عن : H. Camps- Fabrer



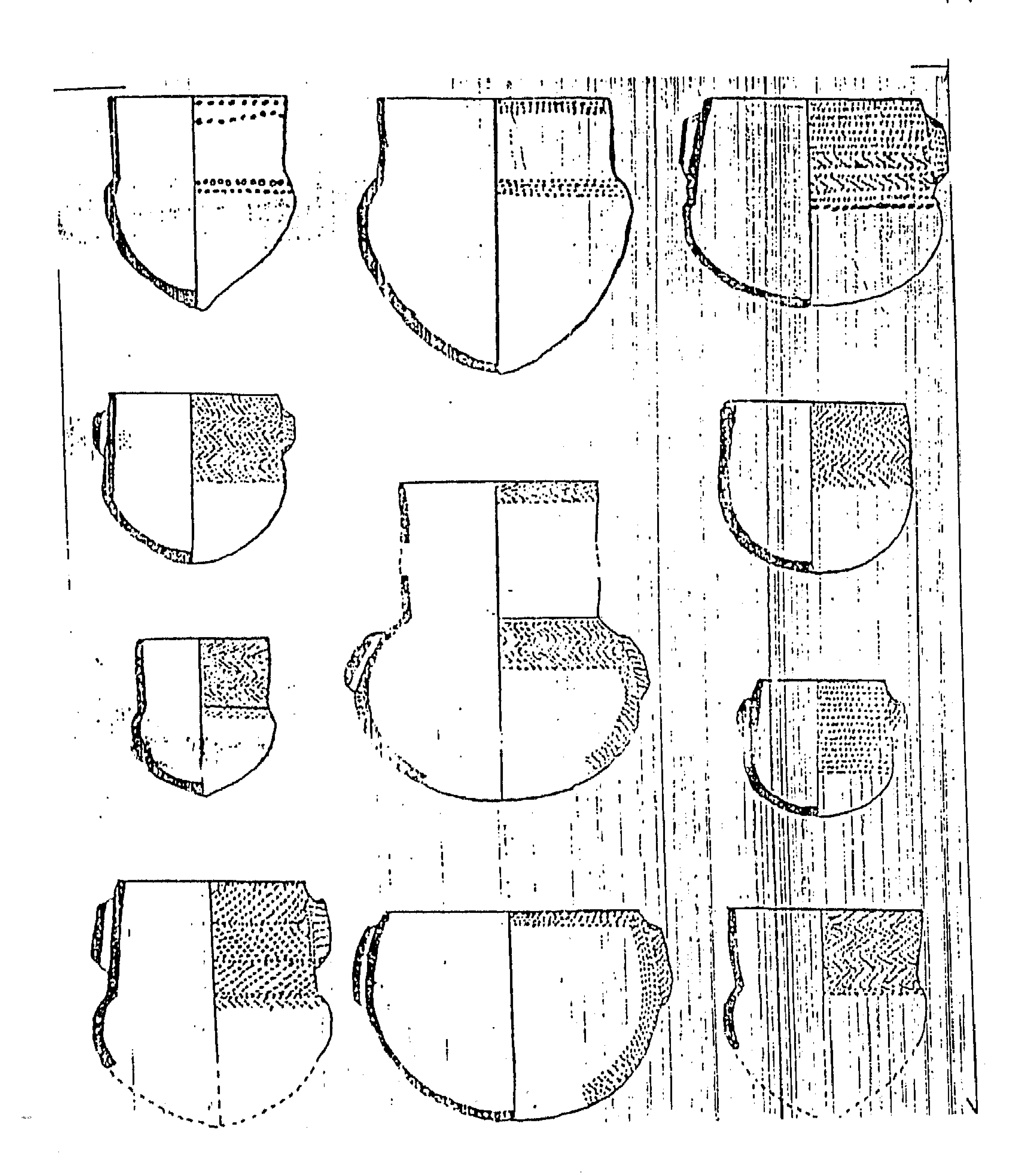
آنية دار السلطان

وهى النموذج الوحيد الكامل من الفخار الكأسى



فخار طبقة الخزيل- أشكار

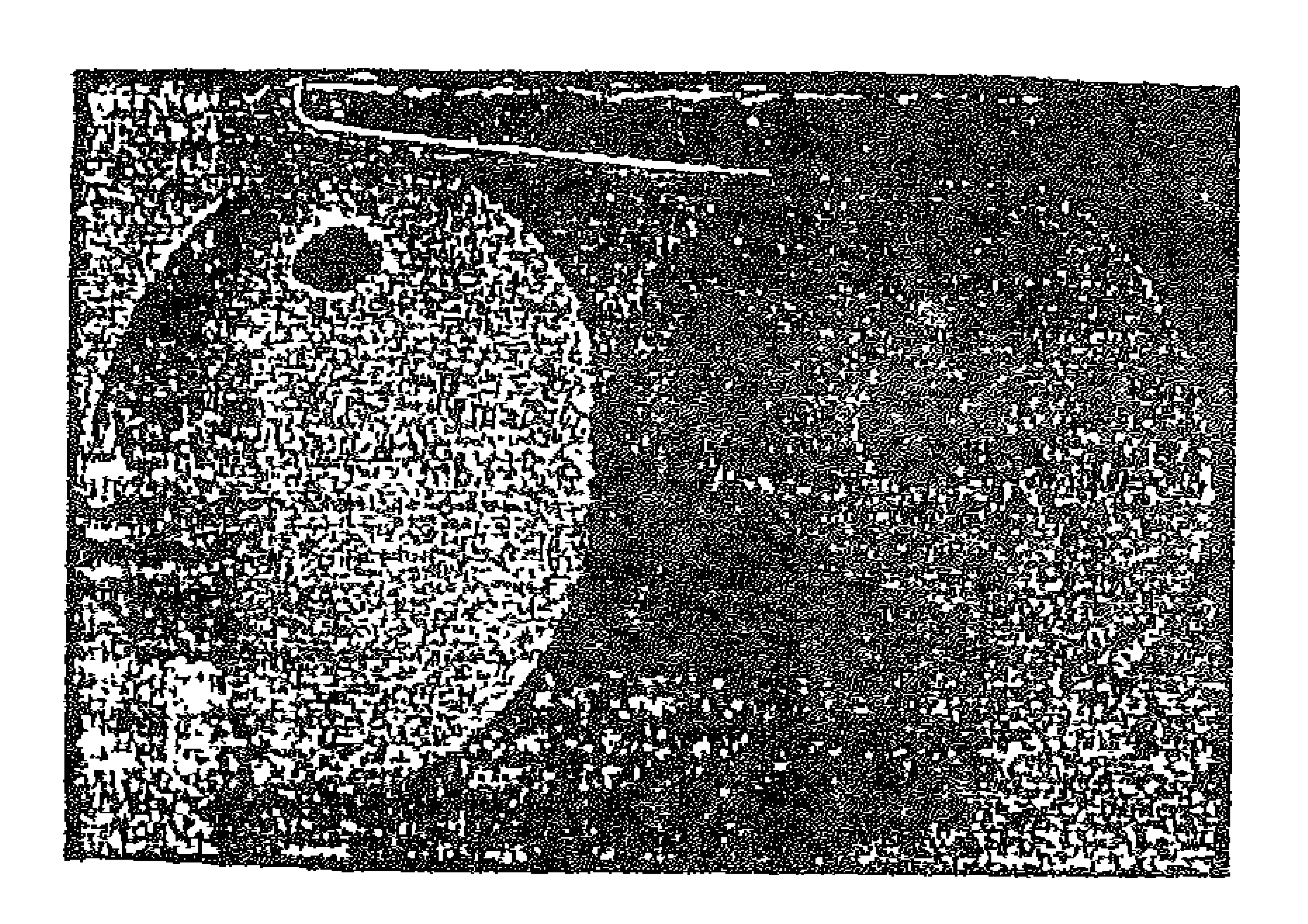
الزينة تمت بواسطة صدفة الكارديوم



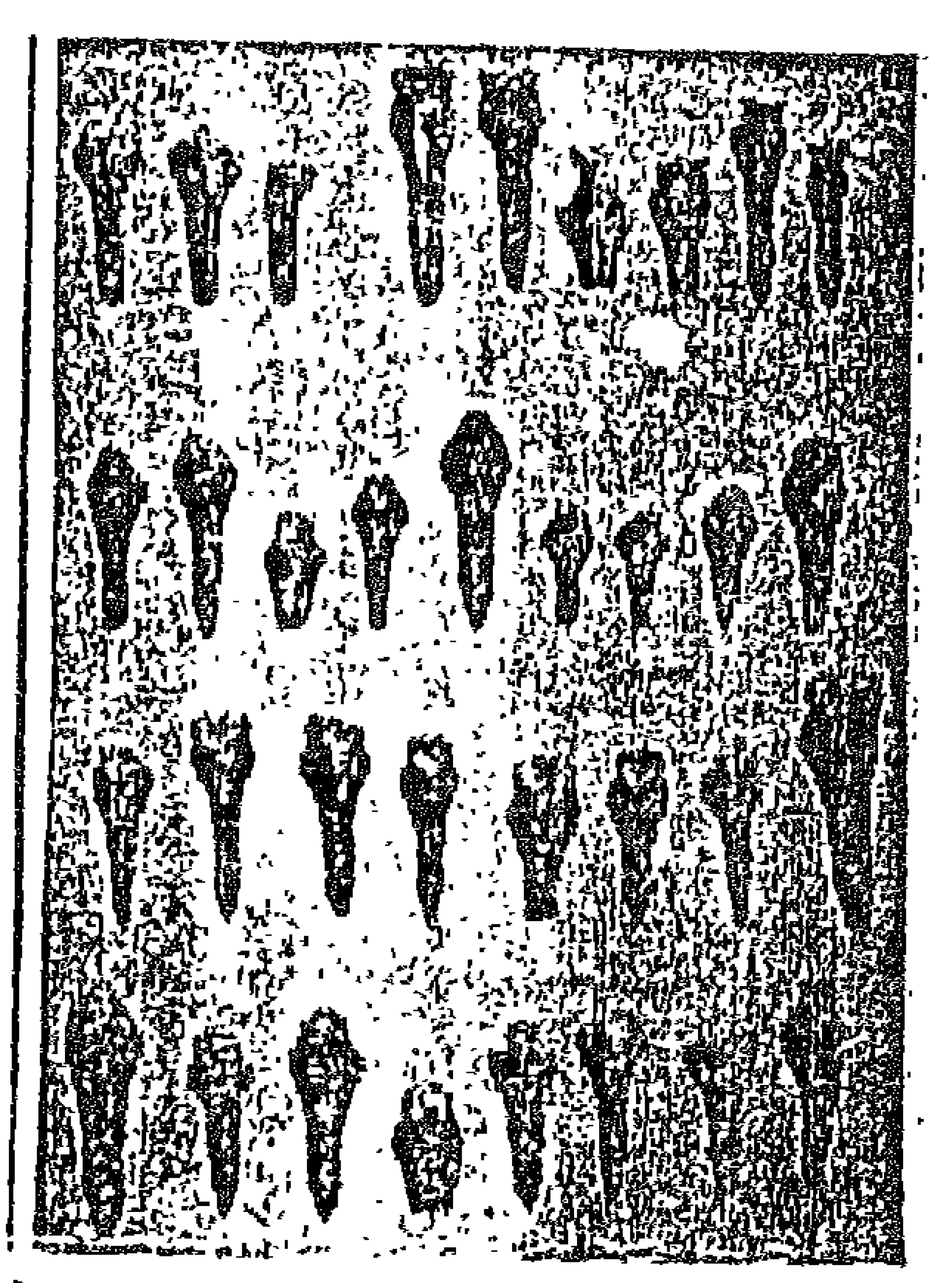
فخار المقبرة الجماعية فى الكفن

ويتميز بتنوع تكويناته وإن كانت الزينة ذات رتابة ملحوظة

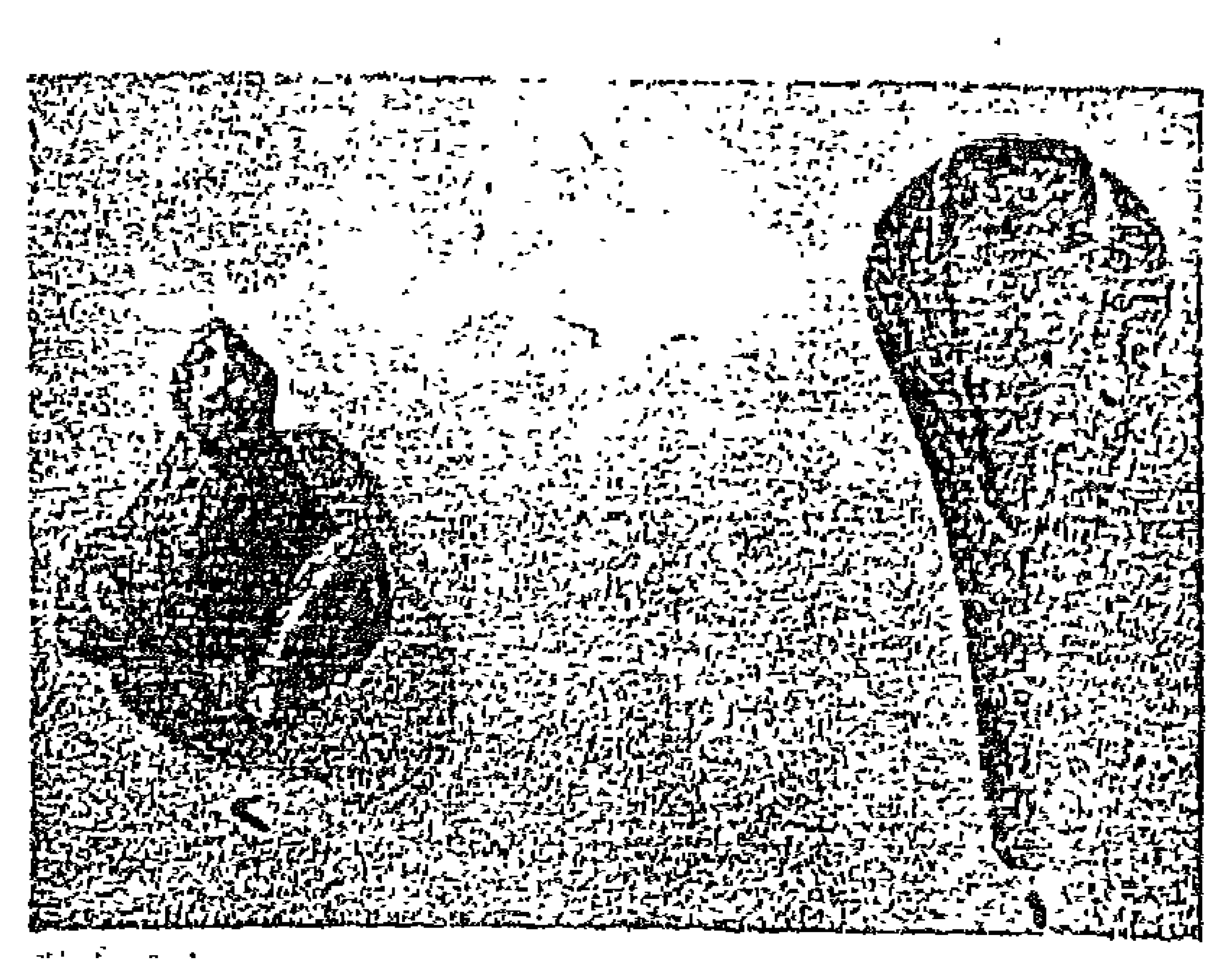
وتمت بواسطة المشط إلا استثناءات قليلة واللازمة قليلة التنوع



استخدام إنسان الحضارة القفصية بيض النعام كقوارير بعد ثقبها وتفريغ ما بها، وكان ذلك قبل توصله لصناعة الفخار.



تمثل أشكال كهف المعبودات (أشاكـــار) تأثر بعض مناطق المغرب القديم بالتيارات الثقافية التى سادت عالم البحر المتوسط. وتؤخذ على أنها إما تماثيل أمومة أو رموز قضيبية ترتبط بمعنى الخصوبة



تمثال آخر من الحجر يشبه أشكال أشاكار مع تمثال آخر (على اليسار) ولكنه أخذ هيئـــة مغايرة (هيئة تماثيل بوذة؟)

د. ثوبة محمد الشريف *

ضبط سنى الأحداث التاريخية لبلاد المغرب في عصر الفتح الإسلامى

(٦٢-٩٢هـ/ ٦٨٢-٧١١م)

اختلفت مصادر التاريخ الإسلامى فى ضبط سنى الأحداث التاريخية، التى وقعت فى عصر الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، وذلك منذ ولاية عُقْبة بن نافع الفهرى الثانية على إفريقية والمغرب سنة ٦٢هـ / ٦٨٢م، إلى بداية فتح بلاد الأندلس فى ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب سنة ٩٢هـ / ٧١١م. وقد حدثت فى هذه الفترة التى تزيد على ربع قرن - نحو ٣٠ سنة - أحداث مهمة وإنجازات عظيمة، غيرت مجرى التاريخ فى بلاد المغرب، الأمر الذى لفت نظرى فيما اطلعت عليه من مراجع حديثة [١]، وقد استرعى نظرى على وجه الخصوص نقد الدكتور صابر دياب لهذه الظاهرة[٢].

وقد أجمعت بعض المصادر التاريخية التى تمكنت من الاطلاع عليها، والتى تعنى بتاريخ المغرب فى هذه الفترة، على تحديد ولاية عُقْبة بن نافع الفهرى الثانية لبلاد المغرب بسنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م، وذلك من قِبَلِ الخليفة الأموى يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/ ٦٨٠-٦٨٣م)[٣]. فلما قدم عقبة بن نافع إلى القيروان، استخلف عليها زهير بن قيس البلوى

---

* قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة الملك عبد العزيز .

وخرج بجنده غازيًا فى نواحى بلاد المغرب ، حتى دوخ البربر فى حروب متصلة، ووصل إلى السوس الأقصى، وفى طريق عودته إلى القيروان، توقف بمدينة طُبنة قاعدة بلاد الزاب، وفرق جنده إلى فرق ليعودوا لأهليهم، وسار هو بعدد قليل منهم إلى تهودة إحدى مدن بلاد الزاب. فلما رآه الروم، فى قلة من الجند طمعوا فيه، وأرسلوا إلى كُسَيلة[٥] وأعلموه بحاله، فأسرع كُسَيلة فجمع قومه من البربر وأقبل لقتالهم، فقتل عقبة وأكثر أصحابه فى سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م[٦]، وقصد كُسيلة القيروان، واستولى عليها[٧]. وكان أن اضطر زهير إلى مغادرة القيروان، والانسحاب إلى برقة، وبقيت القيروان فى يد كُسيْلة نحو خمس سنين، وأمَّن من كان بها من المسلمين[٨].

لما استقرت الخلافة لعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٦٨٥م) بعث إلى زُهير بن قيس الذى كان لايزال مرابطًا ببرقة ، وأمره بالاستعداد لقتال البربر، وأمده بالسلاح والعتاد[٩]. وقد حددت بعض المصادر التاريخية سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، تاريخًا لولاية زهير بن قيس لغزو المغرب وقتال كُسيْلة[١٠] ولكن هذا التاريخ يناقض ما جاء فى مصادر أخرى ، ذكرت أن وفاة زهير بن قيس حدثت فى سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م [١١]، لذا فمن المرجح أن زهير بن قيس كان يتولى المغرب بالنيابة منذ مقتل عقبة بن نافع الفهرى. ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، أقره على الولاية، وأمره بالتعبئة لقتال البربر واستعادة القيروان[١٢]. حيث أنه من المستبعد بقاء بلاد المغرب فترة طويلة من غير وال يتولى أمرها، ولكن يبدو أن الظروف الحرجة والاضطرابات السياسية التى كانت تعانى منها الخلافة الأموية آنذاك ، أخرت وصول الإمدادات إلى زهير، مما اضطره للبقاء مرابطًا ببرقة ينتظر حتى تستقر الأوضاع الداخلية للخلافة ، فلما وصلته الإمدادات اللازمة، توجه إلى القيروان فى سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م[١٣] وهى السنة المرجح فيها حدوث قتال كُسيْلة ، ومن ثم فإننا نرجح استشهاد زهير ببرقة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً : تحديد بعض المصادر سنة ٦٧هـ / ٦٨٧م لوفاة زهير بن قيس البلوى.

ثانيًا: استبعاد أن تكون ولاية زهير بن قيس البلوى فى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، وذلك لأنها تدخل فى زمن ولاية حسان بن النعمان الغسانى، الذى خلف زهيراً على ولاية المغرب. وقد خاض- أى حسان بن النعمان- فى هذه السنة عدة معارك مشهورة فى قتال الروم والكاهنة[١٤].

ثالثًا: احتمال أن يكون ذلك تحريفًا من النساخ، ذلك أن رسم كلمة «تِسْع» يشبه إلى حد كبير رسم كلمة «سَبْع» فوقع النُسَّاخ فى هذا اللبس، وتسببوا فى خلل ضبط الأحداث التى حدثت بعد ذلك(١٥).

نعود إلى تتبع الأحداث، حيث امتثل زهير بن قيس لأمر الخليفة، وتوجه قاصداً القيروان، فخرج له كُسيْلة والتقيا فتقاتلا ، وانتهت المعركة بقتل كُسيلة وهزيمة من كان معه من البربر، وعاد سلطان الخلافة الأموية على إفريقية والقيروان. وتذكر الروايات إن زهير بن قيس لم يبق طويلا فى القيروان بعد فراغه من قتال كُسيْلة واستعادتها ، فقد ذكرت أكثر المصادر التاريخية أنه خرج منها متوجهًا إلى المشرق، زاهداً فى الإمارة(١٦)، ولعله كان فى نيته الاستعفاء منها، فلما وصل برقة، اجتمعت عليه الروم، وقاتلوه ، وكان معه نفر قليل ، فقتلوه ومن معه ، فى نفس السنة التى غزا فيها المغرب ، والتى يرجح كما ذكرنا أن تكون سنة ٦٧هـ/ ٦٨٧م. ولما علم عبد الملك بن مروان ، بمقتل زهير بن قيس البلوى على يد الروم ببرقة، سارع بتولية حسَّان بن النُعمان الغسَّانى ، وكان حينذاك مقيمًا بمصر بأمر الخليفة على رأس حامية من الجند تحسبًا لما قد يحدث(١٧). وأمره الخليفة بسرعة التوجه إلى بلاد المغرب، فسار حسان بن النعمان بمن معه من الجند إلى القيروان فى محرم سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م(١٨) وتجهز منها، ثم اتجه لحرب الروم فى قرطاجنة(١٩)، وانتصر على من كان بها، حتى ألجأهم إلى الفرار منها(٢٠). وخاض حسان بن النعمان بعد ذلك عدة معارك أخرى مع الروم والبربر، حتى خافه أهل إفريقية، واضطر البربر والروم إلى اللجوء إلى حصونهم، وكان الجند المسلمون قد أبلوا بلاء حسنًا فى تلك المعارك التى خاضوها ، وكثرت الجراح فيهم، فقرر حسان بن النعمان العودة بهم إلى القيروان ، وأقام بها مع جنده مدة حتى استراحوا والتأمت جراحهم(٢١). ثم غادر حسان وجنده القيروان فى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، وتوجه بهم إلى جبل أوراس(٢٢) لقتال الكاهنة ، التى كان البربر والأفارقة، قد تجمعوا حولها وملكوها زمام أمرهم بعد مقتل زعيمهم كُسيْلة . ودارت بين الطرفين معارك ضارية، هزم فيها حسان وقُتل عدد كبير من جنده، كما يروى أن البربر أسروا نحو ثمانين رجلاً منهم(٢٣)، مما أضطر حسان للإنسحاب ، وأرسل إلى الخليفة بالخبر، فأمره بالبقاء فى مكانه حتى تأتيه أوامر أخرى. وكان حسان بن النعمان فى ذلك الوقت قد وصل بقواته إلى منطقة عُرفت فيما بعد باسم «قصور حسان»(٢٤) فنزل وابتنى بها وابتنى له ولجنده وأقام بها نحو خمس سنين(٢٥).

لما فرغ الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، من القضاء على عبدالله بن الزبير بمكة المكرمة، عام ٧٣هـ / ٦٩١م، عبأ جيشًا جرارًا قدَّره بعض المؤرخين بنحو أربعين ألف رجل، ووجهه إلى حسان بن النعمان الغسانى وولاه قيادته ، وأمره بالتوجه بهم لقتال الكاهنة، فسار حسان إليها وانتصر عليها وقتلها فى سنة ٧٤هـ / ٦٩٢م[٢٦]. وأقام حسان فى بلاد المغرب، حتى سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م ونظم خلال هذه الفترة أمور البلاد الإدارية والمالية، ثم غادرها فى أواخر تلك السنة متوجها إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان محملاً بغنائم وأموال كثير، كانت سببًا – أى تلك الغنائم والأموال- فى غضب عبد العزيز بن مروان والى مصر وبلاد المغرب عليه[٢٧]، فقام عبد العزيز بن مروان بعزل حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية وبلاد المغرب، وولى مكانه موسى بن نصير[٢٨]. الذى قدم إلى إفريقية فى أوائل السنة التالية، وبالتحديد فى شهر صفر سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م [٢٩]. وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى استشهاد حسان ابن النعمان الغسانى غازيًا بأرض الروم بعد ذلك بنحو عام، أى فى سنة ٨٠هـ/ ٦٦٩م[٣٠].

أما الرواية التى تقول، إن عزل حسان بن النعمان وتولية موسى بن نصير للمغرب، تم فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) دون تحديد ذلك بسنة معينة[٣١] أو الرواية الأخرى التى حددت ذلك بسنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م[٣٢]، فالأرجح أن هاتين الروايتين خلطتا بين ولاية موسى بن نصير الأولى لبلاد المغرب فى عهد تبعيتها لوالى مصر عبد العزيز بن مروان، فى خلافة عبد الملك بن مروان ، وبين ولايته الثانية عليها فى خلافة الوليد بن عبدالملك، الذى فصلها عن والى مصر، حيث أصبحت بلاد المغرب فى خلافة الوليد بن عبد الملك إحدى الولايات الكبرى التابعة للخليفة مباشرة، وأقر عليها موسى ابن نصير[٣٣]. ومن المرجح أن فصل بلاد المغرب عن ولاية مصر، وإقرار موسى بن نصير على ولايتها من قبل الخليفة الوليد بن عبدالملك فى سنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م كان سببًا لهذا الخلط. ومما يزيد فى ترجيح ولاية موسى بن نصير على إفريقية وبلاد المغرب طول المدة التى ذكرناها ، والتى تمتد من سنة ٧٩-٩٦هـ / ٦٩٨-٧١٥ التى انقسمت كما سبق أن بينّا ، إلى فترتين كانت الأولى نحو عشر سنوات، وهى من سنة ٧٩-٨٩هـ/ ٦٩٨-٧٠٥م، عندما كانت بلاد المغرب خلالها تابعة لوالى مصر فى حين كانت الفترة الثانية نحو سبع سنوات، من سنة ٨٩-٩٦هـ/ ٧٠٨-٧١٥ وهى فترة ولايته المباشرة من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد فصل ولاية المغرب عن والى

مصر . وقد أشارت بعض المصادر إلى أن المدة التى قضاها موسى بن نصير فى ولايته للمغرب بلغت، أكثر من ستة عشر عامًا[٣٤]، غزا فيها البربر بالمغرب الأقصى، وأخضع المغرب كله للإسلام، وفتح بلاد الأندلس، وكان موسى بن نصير قد بدأ غزواته منذ قدومه إلى المغرب فى جمادى الأولى سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م[٣٥] فسبى وغنم أموالاً كثيرة وحاز رضاء الخليفة عبد الملك بن مروان، بعد أن كان واجداً عليه[٣٦]. وظل موسى بن نصير على ولايته للمغرب، حتى توفى عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ، فولى الخليفة عبد الملك ابنه عبدالله بن عبد الملك (٨٥-٨٩هـ/ ٧٠٤-٧٠٨م) على مصر وجميع بلاد المغرب[٣٧].

ولما توفى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، وتولى ابنه الوليد الخلافة من بعده، فصل الوليد بن عبدالملك بلاد المغرب عن ولاية مصر سنة ٨٩هـ/ ٧٠٨م، وأقر موسى بن نصير على ولاية المغرب، وبقى موسى على ولايتها حتى نهاية خلافة الوليد بن عبد الملك. وكانت الأموال والغنائم الكثيرة التى توجه بها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبدالملك فى مرضه الذى توفى به ، فى سنة ٩٥هـ/ ٧١٤[٣٨]، سببًا فى عزله عن ولاية المغرب، ذلك أن سليمان بن عبد الملك أرسل إلى موسى بن نصير وطلب منه أن لايجد فى السير ويتمهل، حتى يموت أخوه، ويقدم بالأموال والغنائم فى خلافته، ولكن موسى لم يعبأ بطلب سليمان وسارع فى القدوم على الوليد فى أواخر أيامه. فلما توفى الوليد فى سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م، وتولى سليمان الخلافة، سارع بعزل موسى بن نصير عن ولايته على بلاد المغرب فى نفس تلك السنة. وقد توفى موسى بن نصير حاجًا فى موسم سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م[٣٩].

الهوامش

١- انظر، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م، ج١ ص٢٠٨ ، ٢١٤-٢١٩، ٢٣٦، خطاب ، محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربى، بيروت، دار الفكر، ط٧ ١٤٠٤ / ١٩٨٤، ص٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦-٢٢٨، السامرائى، خليل وآخرون ، تاريخ المغرب العربى، الموصل ، دار الكتب للطباعة، ص٨٢-٩١ ، عنان، عبدالله ، دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٤، ص٢٠-٢٤، مؤنس ، حسين ، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص٢١٨، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٨، ٢٦٦ .

٢- دياب، صابر محمد، بلاد المغرب فى القرن الأول الهجرى، القاهرة، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١١٠ .

٣- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥ / ١٩٩٥ ، ص٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ابن الأثير، على بن محمد ، الكامل فى التاريخ ، بيروت، دار صادر ، ١٣٨٥ / ١٩٩٥م، ج٤ ص١٠٥ ، ابن عذارى، المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان ، وأ. ليفى بروفنسال ، بيروت، دار الثقافة ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠، ج١ ص٢ ، النويرى، أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الإرب فى فنون الأدب ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، ج٢٤ ص٢٥ ، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٨٦م، ج٦، ص٢٩٧ .

٤- خليفة بن خياط ، التاريخ ، ص٢٥١، ابن عبد الحكم، الفتوح ، ص٢٢٦، الرقيق ، إبراهيم بن القاسم، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله العلى الزيدان، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٩م، ص٩ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٨ ، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ ، ص٢٦ .

- زهير بن قيس البلوى يقال له صحبة، شهد فتح مصر وسكنها ، قتله الروم ببرقة سنة ٧٦هـ [ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على، الإصابة فى تمييز الصحابة ، القاهرة، الكتبخانة الخديوية المصرية، ط١ ، ١٣٢٨هـ، ج١ ص٥٥٥، الذهبى، محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عمر تدمرى ، بيروت، دار الكتاب العربى، ط١، ١٤٠١ / ١٩٨١، (وفيات ٦١-٨٠) ص٤٠٤].

٥- كُسيْلة بن لمزم الأوْربى، كان زعيم قبيلة أوربة البربرية . أسلم فى ولاية أبى المهاجر دينار، على بلاد المغرب، ولما تولى عقبة بن نافع بلاد المغرب، لم يعبأ بكسيلة ، واستخف به وأهانه ، فأسرها كُسيلة

فى نفسه، ولما سنحت له الفرصة انتقم منه. انظر [ابن عذارى البيان، ج١ ص٢٩، ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢٩٧، ٢٩٩-٣٠٠].

٦- خليفة، التاريخ، ص٢٥١، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٦-١٠٨، ابن عذارى، البيان، ج١، ص٢٨، ٢٩، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣١.

٧- ابن عذارى، البيان، ج١، ص٣٠.

٨- خليفة، التاريخ، ص٢٥١، الرقيق، التاريخ، ص١٦، ١٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠، ابن عذارى، البيان، ج١، ص٣٠، ٣١، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٢، ابن خلدون، العبر، ج٤ ص٤٠٠، ج٦ ص٢١٧، ٢٩٩.

٩- الرقيق، التاريخ، ص١٧، المالكى، عبدالله بن محمد، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ج١، ص٤٦، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس، المطبعة العربية التونسية، ١٣٢٠هـ، ج١ ص٥٢، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٨، ابن عذارى، البيان، ص٣١، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٢، ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢١٧.

١٠- المالكى، رياض النفوس، ج١ ص٤٦، الدباغ، المعالم، ج١ ص٥٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٨، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٣.

١١- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٨، البكرى، عبدالله بن عبد العزيز، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر دى سلان، ١٨٥٧م، ص٧ الرقيق، التاريخ، ص١٨، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٢ (فى رواية ذكرها عن الواقدى)، ابن خلدون، العبر، ج٤ ص٤٠٠، ابن أبى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، ط٣، ص٣٢، ابن الأبار، محمد بن عبدالله، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٣٠.

- أشارت بعض المصادر المتقدمة السابقة إلى أن وفاة زهير حدثت فى سنة ٦٧ هـ، إلا أن د. مؤنس يوافق الرأى القائل بأن حملة زهير حدثت فى سنة ٧٩هـ، ويرى بأن ابن خلدون قد شذ عندما جعل تأريخ حملة زهير فى سنة ٦٧هـ انظر [مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢١٨].

١٢- راجع ابن الحكم، الفتوح، ص٢٨٨، حيث أرخ ولاية زهير بن قيس للمغرب بسنة ٦٤هـ راجع أيضاً المالكى، رياض النفوس، ج١ ص٤٦، ابن عذارى، البيان، جـ١ ص٣١، وقد حددا ولايته فى سنة٦٥هـ.

١٣- حدد ابن خلدون توجه زهير بن قيس لقتال كُسيْلة ، فى سنة ٦٧هـ [انظر العبر، ج٦ ص٢١٧ ، ٢٩٩].

١٤- قال البكرى: «لما قتل زهير بن قيس ببرقة، استعمل عبد الملك، حسان بن النعمان على إفريقية ، فخرج إليها فى المحرم سنة ثمان وستين . «انظر [البكرى، المغرب، ص٧ ، انظر أيضًا، الدباغ، معالم الإيمان، ج١ ص٥٥] . وهذا يرجح أن مقتل زهير، حدث فى أواخر سنة ٦١٧هـ.

١٥- يلاحظ ورود وقوع الخلط بين النساخين عند قراءة وكتابة هاتين الكلمتين «سبع» و«تسع» فى الكتابات المخطوطة، مثال على ذلك، قارن رواية تحديد تاريخ مولد ووفاة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، فى طبقات كل من أبى العرب والدباغ، انظر [أبو العرب، محمد بن أحمد التميمى، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق على الشابى، تونس الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦م، ص٩٩، والدباغ، معالم الإيمان، ج١ ص١٧٦ .

١٦- الرقيق ، تاريخ إفريقية، ص٢٠ ، الدباغ ، معالم الإيمان، ج١ ص٥٣ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص١٠٩ ، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٣ ، ابن خلدون ، العبر، ج٤ ص٤٠٠، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٣ .

١٧- ابن عذارى ، البيان، ج١ ، ص٣٤ ، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٤ ، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٣ .

١٨- البكرى، المغرب، ص٧ .

١٩- قرطاجنة من المدن القديمة المشهورة بإفريقية بالمغرب ، فيها آثار وعجائب البنيان ما ليس فى بلد آخر، بين قرطاجنة وتونس عشرة أميال أو نحوها، ومرساهما واحد. [الحميرى، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس ، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢ ١٩٨٤م، ص٤٦٢] .

٢٠- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٨، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٦٩، ابن عذارى، البيان ، ج١ ص٣٤، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٥، ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢١٨ .

٢١- ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٠، النويرى ، نهاية الأرب، ج٢٤ ص٣٥، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٤ .

٢٢- جبل قريب من باغاية بإفريقية، وبينه وبين نقاوس ثلاث مراحل وهو المتصل بالسوس، وهو قطعة من جبل درن بالمغرب، ومتصل به وطوله مسيرة نحو اثنى عشر يومًا مياهه كثيرة وعمارته متصلة [الحميرى الروض، ص٦٥] .

٢٣- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٨، المالكى، رياض النفوس، ج١ ص٥١، الرقيق، تاريخ إفريقية، ص٢٥ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٠، ابن عذارى، البيان، ج١ ص٣٦، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص٢١٨= اسمها دهيا بنت ماتية بن تيفان ، ملكة جبال أوراس، وقومها من جراوة، ملوك البتر وزعماؤهم. [انظر ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢١٨] .

٢٤- منهل معروف بهذا الاسم ، يبعد عن طرابلس بأربعين ميلاً، انهزم إليه حسان بن النعمان بعد هزيمته من الكاهنة ، فأمره الخليفة عبد الملك بن مروان بالإقامة فيه بجنده فبنى فيه حسّان قصرين وأقام به نحو خمس سنين، انظر [البكرى، المغرب، ص٨، الإدريسى، محمد بن محمد بن عبدالله، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، بيروت ، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩ / ١٩٨٩، ج١ ص٢٩٨] .

٢٥- الرقيق، التاريخ ، ص٢٦ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٠، ابن عذارى، البيان، ج١ ص٣٦ ، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ ، ص٣٦ ، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٤ .

٢٦- خليفة، التاريخ، ص٢٧٠ ، الرقيق، التاريخ، ص٢٦ ، ٣٤ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٣٧٢، ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢١٩ . ولعل مما يؤيد مسير حسان إلى إفريقية فى سنة ٧٤هـ، ما جاء فى رواية لأبى العرب ، تقول : «ولد عبد الرحمن بن أنعم ببرقة والجند داخلون بإفريقية سنة خمس أو أربع وسبعين». [أبو العرب، الطبقات، ص٩٩، انظر أيضًا، الدباغ، معالم الإيمان، ج١ ص١٧٦].

٢٧- ولى الخليفة الأموى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر وبلاد المغرب سنة ٦٥هـ، وبقى عبد العزيز على ولايتها حتى وفاته فى خلافة أخيه عبدالملك بن مروان، فى جمادى الأولى سنة ٨٥هـ انظر [الكندى، محمد بن يوسف، ولاة مصر، تحقيق حسين نصار، بيروت، دار صادر ، ص٧٠، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف ، ج٩ ص٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ القلقشندى، أحمد بن على، مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، ط١ ١٩٦٤م، ج١ ص١٢٦،١٣٠] .

٢٨- الكندى، ولاة مصر، ص٧٤ .

٢٩- خليفة، التاريخ، ص٢٧٧ ، ٢٩٨، ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق طه الزينى، بيروت دار المعرفة، ج٢ ، ص٥٠ ، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٢٩، ٢٣١ ، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، ٥٤٠، الذهبى، التاريخ، (وفيات ٦١-٨٠هـ) ص٣٣٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩ ص١٧١ .

- ومما يرجح تولى موسى بن نصير للمغرب فى سنة ٧٩هـ ، الرواية التى تقول إن موسى بن نصير، استقضى أبا الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى بالقيروان سنة ثمانين للهجرة. انظر [المالكى، رياض النفوس ، ج١ ص١١٠ ، الدباغ ، معالم الإيمان، ج١ ص١٥١] .

٣٠- ابن الأثير ، الكامل، ج٤ ص٣٧٢ ج، النويرى نهاية الأرب، ج٢٣ ، ص٣٩ ، الذهبى محمد بن

أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ، ج٤، ص١٤٠، ٢٩٤ ، الذهبي، تاريخ الإسلام (وفيات ٦١-٨٠هـ) ص٣٩٣، ابن أبي دينار ، المؤنس، ص٣٥ .

- بالرغم من اتفاق المصادر السابقة على تحديد السنة التي توفي فيها حسان بن النعمان ، فإننا نلاحظ أن د. مؤنس يقدر وفاته بأوائل سنة ٨٦هـ- انظر [مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢٢٦) .

٣١- الرقيق، التاريخ، ص٢٦ ، ٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، ابن عذاري، البيان، ج١ ص٣٩، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٨ ، ٣٩ ، القلقشندي ، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣، ج٥ ص١١٨ ، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٥ .

- ومما يلاحظ أن الدكتور مؤنس قد تبنى هذه الرواية رغم ما ورد فيها من خلط واضح لأحداث مشهورة، حيث قدمت وفاة عبد الملك بن مروان على وفاة أخيه وولي عهده عبد العزيز ، كما خلطت بين ولاية كل من عبد العزيز بن مروان، وابن أخيه عبدالله بن عبيدالملك لمصر، فجعلت عبد العزيز بن مروان على ولاية مصر، في خلافة الوليد بن عبد الملك. انظر [مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص٢٦٤ ، ٢٦٥].

٣٢- البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت، مكتبة الهلال، ١٣٩٨هـ/ ١٩٦٣م، ص٢٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، انظر أيضًا، ابن أبي دينار ، المؤنس، ص٣٥، السلاوي، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، الدار البيضا، دار الكتاب، ١٩٥٤م، ج١ ، ص٨٥ .

٣٣- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٥٨، الرقيق، التاريخ، ص٣٨، ابن عذاري ، البيان، ج١، ص٤١، انظر أيضًا، سديو ، ل. أ. ، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨٩، ص١٥٧ .

- راجع أيضًا إشارة الكندي إلى خلافات ومراسلات وقعت بين عبدالله بن عبدالملك وبين موسى بن نصير، ويبدو أنها كانت من أسباب فصل بلاد المغرب عن ولاية مصر إداريًا ، ثم أعقب ذلك عزل عبدالله بن عبدالملك عن ولاية مصر، انظر [الكندي، ولاة مصر، ص٨١-٨٣].

- بعد وفاة عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ، ولى الخليفة عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله بن عبد الملك على مصر والمغرب، ولما توفي عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك، كتب الوليد بن عبد الملك إلى أخيه عبدالله بن عبدالملك، بولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب، وقطعها عنه، وبقى عبدالله بن عبد الملك واليًا على مصر حتى عزله الوليد سنة ٩٠هـ. انظر [الرقيق، التاريخ، ص٣٨، ابن عذاري، البيان ، ج١ ص٤١، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٩، ص٧٧] .

- وقد ذكر البلاذرى رواية الواقدى التى تقول بتوجيه عبد العزيز بن مروان ، موسى بن نصير واليًا على إفريقية، ثم قال : و«يقال بل وليها فى زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ «فالروايتان فيما يبدو صحيحتان، وتدعم ما سبق بيانه من ترجيح ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب للمرة الأولى فى سنة ٧٩هـ من قبل والى مصر عبدالعزيز بن مروان، ثم ولايته لها للمرة الثانية فى سنة ٨٩هـ ، حينما أقره عليها الوليد، بعد فصلها عن والى مصر. انظر [البلاذرى، فتوح البلدان، ص٢٣٢] .

٣٤- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٥٠ ، ٨٦ ، انظر أيضًا ما ذكره ابن عذارى فى ولاية موسى بن نصير ، قائلاً : «وفى سنة ٨٨ ولى إفريقية ، فأقام عليها أميراً وعلى الأندلس والمغرب كله، نحو ثمان عشرة سنة، إلى أن مات»، وهى عبارة يتضح فيها التناقض بين تحديد السنة التى تولى فيها ويلاحظ كتابتها بالأرقام، وبين عدد السنوات التى قضاها فى ولايته وهى مكتوبة بالحروف، كما يفهم من العبارة أنه بقى فى الولاية لحين وفاته ، أى لسنة ٩٨هـ، ورغم الخلط الواضح فى هذه الرواية ، والذى يبدو أنه من فعل النساخين، لكنها على أى حال تؤكد ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب فى حدود سنة ٧٩هـ. انظر [ابن عذارى، البيان، ج١ ص٤٦] .

٣٥- خليفة، التاريخ، ص٢٧٨ ، ٢٧٩، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص٢٣١ ، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٨٦ .

٣٦- ابن عذارى، البيان ، ج١ ص٤١ .

٣٧- ابن حزم ، على بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٤، ص١٩٩٧م، ص٨٩، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٩، ص٧٧ .

٣٨- خليفة، التاريخ، ص٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج٢ ص٦٨ ، ٦٩ ، الرقيق، التاريخ ، ص٤٤، ٥٤ ، ٥٥، ابن الأثير ، الكامل ، ج٤، ص٥٦، ٥٦٦ ، ابن عذارى، البيان، ج١ ص٤٣ ، ٤٤، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤ ، ص٤٠ ، ٥٢ .

٣٩- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ، ص٨٦ ، ابن عذارى، البيان، ج١ ، ص٤٦ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر القديمة

* ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبى بكر القضاعى (ت - ٦٥٨هـ) .

- الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م.

* ابن الأثير، على بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت. ٦٣٠هـ)

- الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٩٥م.

* الإدريسى ، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٤٨هـ)

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب ، ١٤٠٩ / ١٩٨٩ .

* البكرى، عبدالله بن عبد العزيز، (ت ٤٨٧هـ)

- المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، دى سلان، ١٨٥٧م.

* البلاذرى ، أحمد يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)

- فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت، دار مكتبة الهلال ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

* ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على بن محمد (ت ٨٥٢هـ)

- الإصابة فى تمييز الصحابة، القاهرة، الكتبخانة الخديوية المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.

* ابن حزم ، على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) .

- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٩٧م.

* الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ)

- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤ م.

* ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمى (ت ٨٠٨هـ)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٦ م .

* خليفة بن خياط ، بن أبى هبيرة العصفرى (ت ٢٤٠هـ)

- تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الرياض، دار طيبة ، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ / ١٩٨٩ .

* الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى (ت ٦٩٦هـ)

- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس ، المطبعة العربية التونسية، ١٣٢٠هـ .

* ابن أبى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى (توفى فى القرن ١١هـ)

- المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة.

* الذهبى، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

- تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عمر تدمرى، بيروت، دار الكتاب العربى، ط١، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

* الرقيق ، إبراهيم بن القاسم (توفى فى القرن الخامس الهجرى)

- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله العلى الزيدان، بيروت، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م .

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ)

- فتوح مصر والمغرب ، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤١٥ / ١٩٩٥ .

* ابن عِذارى ، المراكشى (توفى آخر القرن السابع الهجرى)

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان، وأ. ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمى القيروانى (ت٣٣٣هـ)

- طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق على الشابى ونعيم اليافى، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م.

* ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم (ت . ٢٧٦هـ)

- الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزينى، بيروت دار المعرفة.

* القلقشندى ، أحمد بن على (ت. ٨٢١هـ)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨٣هـ.

- مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

* ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)

- البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف، بدون تاريخ.

* الكندى ، محمد بن يوسف (ت ٣٥٠)

- ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ

* المالكى ، عبدالله بن محمد، أبوبكر (توفى فى النصف الثانى من القرن الخامس)

- رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامى.

* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

ثانيًا : المراجع الحديثة العربية والمعربة

* دياب، د. صابر محمد ، المغرب فى القرن الأول الهجرى، القاهرة، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

* السامرائى ، خليل وآخرون، تاريخ المغرب العربى، الموصل ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر.

* سديو، ل. أ.، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابى الحلبى، الطبعة الثانية، ١٣٨٩ هـ .

* سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م.

* السلاوى، أحمد بن خالد الناصرى ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى، الدار البيضا ، دار الكتاب، ١٩٥٤م.

* عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجى، الطبعة الرابعة.

* مؤنس، د. حسين، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

* محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربى، بيروت، دار الفكر، الطبعة السابعة ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

د. ناجلا محمد عبد النبى *

القرصنة اللاتينية فى شرق حوض البحر المتوسط على عصر سلاطين المماليك

لعب البحر المتوسط دوراً هامًا فى الربط بين الدول المطلة عليه منذ العصور القديمة، عندما كانت تسيطر عليه الإمبراطورية الرومانية حتى غدا بمثابة بحيرة رومانية، وعند سقوط الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية من حوض ذلك البحر فى أيدى العرب فى حركة الفتح الإسلامى، حلت هناك بعض التعاملات التجارية بين الغرب اللاتينى والشرق الإسلامى، وإن كان نصيب الغرب فى تلك التجارة بسيطًا نظراً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كيفت أوضاعه . ولم يحدث تطور فى نشاط الغرب اللاتينى فى هذا المجال إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى حين تقلصت الهيمنة العربية على مياه البحر المتوسط. وفى أخريات ذلك القرن عاد البحر المتوسط بحيرة مسيحية، ونشطت الحركة التجارية الأوربية عليه نشاطًا ملحوظًا نتيجة للحروب الصليبية ونشاط المدن التجارية الإيطالية، وفى مقدمتها البندقية وجنوة وبيزا. وكان طبيعيا أن تسير التجارة فى أعقاب الصليب فنمت وازدهرت ، وصحب ذلك انتعاش تلك المدن الثلاث حتى احتكرت التجارة بين الشرق الأدنى الإسلامى وأوربا رغم الصراعات الدينية بين الجانبين.. وقد صاحب هذه النهضة التجارية نشاط القراصنة فى حوض ذلك البحر.

---

* مدرس تاريخ العصور الوسطى- كلية التربية بدمنهور .

والواقع أن البحر المتوسط عرف القرصنة منذ التاريخ القديم، وهى صورة من صور حرب العصابات ، تقوم بها فرق سريعة الحركة تقتنص الفرصة المناسبة لتحقيق المكاسب المادية بالسطو على هدفها فى طرق التجارة فى البحر المتوسط. واعتبر مسيحيو الغرب الأوربى فى العصور الوسطى، خاصة زمن الحروب الصليبية ، القرصنة نشاطًا مشروعًا ونوعًا من أنواع الثأر ضد المسلمين ولونًا من ألوان التجارة تدر المكاسب المادية الكبيرة على من يمارسها ، وكان يزاول القرصنة جماعات من المغامرين من شتى الفئات والطبقات ، سواء من النبلاء أو من التجار أو حتى من أدنى الطبقات كصيادى الأسماك . وهؤلاء باشروا القرصنة طوال أيام العام فى مياه المتوسط. وحركة القرصنة كانت تزداد فى فترات معينة مع مواسم التجارة أو «مدة التجارة» بين الشرق والغرب، خاصة فى المنطقة الشرقية من حوض البحر المتوسط حيث كان الصراع الصليبى الإسلامى محتدمًا. وقد ألحق القراصنة أضراراً كبيرة بالتجار فلم يفرقوا بين سفينة لاتينية وأخرى للمسلمين طالما كانت متجهة إلى سواحل شرق البحر المتوسط، لأن هدفهم الأول كان تحقيق الكسب على حساب الضحايا، مسلمين كانوا أو مسيحيين .

وقبل أن نخوض فى الموضوع الذى نحن بصدده وهو «نشاط القراصنة اللاتين على طرق التجارة فى شرق البحر المتوسط فى عصر دولة سلاطين المماليك «أى فى الفترة من النصف الثانى من القرن ١٣ الميلادى (النصف الثانى من القرن ٧ الهجرى) وحتى الفتح العثمانى فى بدايات القرن ١٦ الميلادى (بدايات القرن ١٠ الهجرى). يجدر بنا أن نشير إلى أنه كان يوجد نوعان من القراصنة: قرصان يعمل لحسابه الخاص بمعاونة تابعين له، وهو ينقض على فريسته أو ضحيته التى يختارها بنفسه، فى أى مكان تتاح له فيه الفرصة لتحقيق ما ينشده . وآخر يعمل لحساب الغير ، فهو لايختار ضحيته بإرادته وإنما يكون مكلفًا بتلك المهمة بمعنى أنه يعمل كمرتزق يتقاضى على عمله قدراً من المال أو تكون له نسبة من الغنيمة حسب اتفاق مسبق مع صاحب عملية السطو، وحينما تنتهى تلك المهمة يتحول مباشرة إلى القرصنة لحسابه الخاص[١]. وهذا هو الفرق بين لفظى Pirate و Corsaire الفرنسيين، فالأول مغامر يعمل لحسابه الخاص بينما الثانى غالبًا ما يكون مكلفًا من قبل جهات مسئولة ، أى أن مهمته تكون رسمية ومشروعة.

وكانت لتلك القرصنة صور عدة اختلفت باختلاف الظروف والأحوال السياسية والحربية فى شرق البحر المتوسط فى فترة اتخذت الاضطرابات والصراعات بين المسلمين والمسيحيين

الغربيين شكل الحروب الصليبية. ولكن مما لاشك فيه أن تدخل البابوية فى النشاط التجارى بين المعسكرين المتناحرين ساهم بطريق غير مباشر فى تفاقم حركة القرصنة التى شهدها حوض البحر المتوسط فى تلك الأونة ، بل ربما أعطاها الصفة الشرعية إذ كانت تبارك من يقوم بها ضد المسلمين. وكانت العلاقات التجارية قائمة بين أوربا وعلى وجه الخصوص المدن الإيطالية وبين الدولة الفاطمية فى مصر والشام قبل مولد الحركة الصليبية واستمرت قائمة بعد أن قامت الإمارات اللاتينية الأربع على ساحل الشام، قائمة بل لقد أصبحت أكثر نشاطًا، ومع ذلك لم تعرها البابوية أى اهتمام طالما كان التفوق العسكرى فى المنطقة فى صالح الجانب الصليبى على الجانب الإسلامى. ذلك أن البابوية لم تلبث أن أظهرت موقفها العدائى للمدن التى كانت تتعامل مع مصر وذلك حين بدأ ميزان القوى يميل نحو رجحان كفة المسلمين وهذا يعنى أن مرحلة التفوق الصليبى قد انتهت، خاصة بعد انتصار المسلمين فى حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ . وعندئذ أدركت البابوية أن الخطر الإسلامى محدق بالإمارات اللاتينية فى الشرق فبدأت تتحرك وتعلن تهديداتها لمن يحاول الاتصال بمصر. وكانت الطامة الكبرى حين سقطت معاقل الصليبيين الواحد تلو الآخر -وآخرها عكا- فى أيدى المماليك فى أخريات القرن ١٣ م (أخريات القرن ٧هـ) وعندئذ تأكدت البابوية من تفوق المعسكر الإسلامى وميل ميزان القوى بشدة إلى جانب مصر والمسلمين فصبت كل غضبها على المدن الإيطالية لأنها تساهم بقدر كبير - بطريق مباشر أو غير مباشر- فى تعزيز قوة مصر العسكرية، لذلك اتخذت البابوية عدة قرارات للحد من التعامل مع مصر، منها الحرمان من عطف الكنيسة واللعنة والقطيعة، ومصادرة البضائع وحرمان من يتعامل مع المسلمين وبخاصة مماليك مصر[٢] من حريته الشخصية ولكن تجار تلك المدن فى أغلب الأحيان لم يعيروا تلك القرارات أى اهتمام، بل كانوا يتحايلون بشتى الطرق للإفلات منها: تارة بتقديم ما يوازى قيمة ما ربحه التاجر المخالف من تجارته مع المسلمين إلى خزانة البابوية[٣]، وتارة أخرى بشراء الغفران بدفع مبلغ من المال تحدده الكنيسة[٤]، وتارة ثالثة بشراء تراخيص التجارة فردية أو جماعية مع المسلمين[٥]. وهكذا كان التحايل على قرارات البابوية بحظر التعامل مع المسلمين. مقصوداً به فى بداية الأمر التجارة مع مصر وتوابعها. ثم شمل هذا القرار مسلمى الأندلس وشمال أفريقيا والسلاجقة فى آسيا لصلاتهم الطيبة بمصر[٦]. وعقدت المجامع الدينية لهذا الغرض وتوالت قرارات الحرمان الكنسى ضد من يتاجر مع مصر والمسلمين. وجاء مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١١م- ١٣١٢م ليكشف عن عدد كبير من التجار الأوربيين لايبالون بقرارات الحرمان أو

القطيعة وظلوا يتعاملون مع مصر، وكان قراره حظر الاتجار مع مصر نهائيًا[٧]. وضمانًا لتنفيذ هذا الحظر كلف المجمع فرسان الداوية، المعروفين بشدة عدائهم للمسلمين، بمراقبة الحركة التجارية للسفن المسيحية الغربية التى تتجه إلى الموانى الإسلامية فى كل من مصر والشام وسواحل آسيا الصغرى. وكان مقر هؤلاء الفرسان جزيرة قبرس[٨]، وصارت مهمتهم حماية الجزيرة وأسر أية سفينة تحاول الاتجاه إلى بلاد سلطان المماليك[٩]. وقد استغل بعض المغامرين هذه العملية ليعمل لحسابه الخاص. فقام بعضهم بعمليات القرصنة والسطو على السفن اللاتينية المتجهة إلى مصر. وهكذا رغم التعقيدات والعراقيل التى كانت تضعها البابوية فى وجه تجار الغرب اللاتينى من أجل عدم التعامل مع سلاطين المماليك، ظلت العلاقات التجارية قائمة معهم فى السر وفى العلن، وظلت القرصنة تزداد معها يومًا بعد يوم طالما لم يكن فى إمكان الغرب المسيحى مواجهة دولة المماليك وقوتها العسكرية. وإن كان تعرضت موانىء الدولة فى مصر والشام للقرصنة وكانت أشهرها تلك التى عرفت بغزوة القبارصة عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م والتى لم تكن سوى واحدة من تلك العمليات الخاطفة التى اعتاد أن يقوم بها القراصنة اللاتين ، وإن كانت بقيادة ملك قبرس. وبعد تلك الغزوة عقد الصلح بين مماليك مصر وبطرس لوزينيان ملك قبرص فسادت فى المنطقة فترة هدوء . وجدير بالذكر أن القبارصة لم يستطيعوا الدخول مرة أخرى فى صراع مع سلطان مصر لأنهم كانوا أضعف من أن يواجهوا وحدهم القوة المصرية، خاصة وأن الإسبتارية الذين كانوا أضعف من أن يواجهوا وحدهم القوة المصرية، خاصة وأن الاسبتارية الذين كانوا يساندون أى هجوم على المسلمين تطرق إليهم الضعف بسبب الخلافات التى مزقت صفوفهم. وقد تحولت تلك الخلافات إلى حرب مكشوفة فضلا عن مشاركتهم فى الحروب ضد العثمانيين فى أوربا. أما البابوية التى اعتادت أن تجمع المسيحيين ، فقد أصبحت هى الأخرى لاتقوى على التأثير عليهم للقيام بعمل مسيحى مشترك ضد المسلمين[١٠] سواء بحملة عسكرية أو بمقاطعة اقتصادية [١١]. وهكذا لم يبق أمام الفرنج سوى القيام بعمليات حربية خاطفة على سفن وسواحل وموانىء دولة المماليك. وبهذه العمليات يمكنهم شل حركة التجارة واستنزاف مواردها أولاً بأول، ومما يؤثر بدوره على دخل مصر، فلاتتمكن من إنشاء الأساطيل أو تجهيز الجيوش لصدهم فيسهل عليهم تحقيق ما يرمون إليه. وجدير بالذكر أن هذا التصرف من قبل اللاتين والجبهة الصليبية لم يكن نابعًا من دافع دينى وإنما كان لتحقيق مكاسب مادية والتنافس على الهيمنة على البحر المتوسط. لذا ساد حوض البحر المتوسط فى أخريات القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر الميلاديين [أخريات

القرن الثامن وطوال القرن التاسع الهجريين] عمليات قرصنة لاتينية تميز فيها القطلان بصفة خاصة[١٢] إلى جانب الإسبتارية وغيرهم. ولم تتعرض تلك الغارات لسفن المماليك فحسب ولكنها لم تترك سفينة فى شرق البحر المتوسط أو غربه تابعة للمسلمين عامة إلا وهاجمتها وأسرت من بها من مسافرين وتجار ونهبت ما بها من بضائع [١٣]، فضلاً عن مباغتة أولئك القراصنة لبعض الموانىء المماليكية مثل الإسكندرية ورشيد وطرابلس وبيروت وصيدا ويافا واستيلائهم على بعض ما بها من مراكب[١٤] وأسر العديد من المسلمين[١٥]. وقد ذكر فليكس فابرى[١٦] Félix Fabri أنه كان يوجد ما يقرب من ثلاثة آلاف عبد مسلم فى البندقية وحدها فى القرن (الخامس عشر الميلادى/ التايع الهجرى). وكان البنادقة يستغلونهم كمجدفين على سفنهم[١٧]. هذا وكانت السلطات المماليكية تصد القراصنة أينما أغاروا. ورغم انهزام الفرنج فى معظم الأحيان إلا أن المماليك تكبدوا خسائر كبيرة، وأصبحت هذه الغارات تسبب لهم قلقًا على أمن دولتهم. ووصلت بالقراصنة الجرأة أن خططوا «للوثب على ناظر الخاص حين قدومه للإسكندرية لتحصيل ما بها من مال، لولا أن كشف أمرهم». ولما لم يأمن أهل المدينة على حياتهم من المغامرين القراصنة، مع إدراكهم عدم جدوى الاعتماد على حماية المدينة، شرعوا فى حفر خندق حول المدينة لحمايتها من أى هجوم [١٨]. وقد ضاقت السلطات الحاكمة فى مصر بتلك الغارات التى كان يقوم بها المغامرون اللاتين وعلى رأسهم القطلان والإسبتارية والقبارسة والروادسة . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، وإنما زادت كارثة القرصنة بتحول التنافس بين البندقية وجنوة ، وهما أشهر وأقوى مدينتين تجاريتين فى مياه البحر المتوسط-، إلى حرب مكشوفة ضارية . ومارست كل منهما عمليات السطو على سفن منافستها، وكانت سفن كلاهما تأتى إلى مصر بما يحتاجه المماليك من سلع استراتيجية وتنقل منها ما يصلها من سلع الشرق الأقصى إلى أوربا، ولم يكن هذا الصراع مقصوراً على القرصنة على السفن المتجهة لدولة المماليك فحسب[١٩]، وإنما انسحب الأمر إلى الإغارة على مدن وموانىء تلك الدولة فى مصر والشام ، خاصة بعد أن حققت البندقية على منافستها جنوة نصراً ساحقًا فى كيوچا عام ١٣٨١م، فانضمت الأخيرة إلى زمرة القراصنة الذين اعتادوا غزو ثغور المماليك حين ضاقت بالعلاقة الوثيقة التى ربطت مصر بالبندقية [٢٠]، مثلما فعل «بوسيكو» Boucicault قائد أسطول جنوة ، من شن غارات خاطفة على شواطىء الدولة المماليكية. وتجنبًا للأخطار التى قد تواجه تجار البنادقة فى البحر ، نظموا رحلاتهم التجارية فى شكل قوافل بحرية، لكل قافلة منها سفينة مسلحة للدفاع عن بقية السفن فى حالة تعرضها لهجوم القراصنة[٢١].

وهكذا أخذت هجمات القراصنة اللاتين بمختلف عناصرهم تعترض طرق التجارة فى البحر المتوسط إلى موانىء المماليك، ولم تسلم من هجماتهم حتى السفن المسيحية المتجهة إلى سواحل مصر والشام. وسببت هذه الهجمات خسائر فادحة للدولة المماليكية وضربت تجارتها فى مقتل، خاصة عندما أخذ الغرب اللاتينى باقتراحات بعض أبنائه الذين رأوا أن أفضل وسيلة للقضاء على قوة المسلمين والتغلب عليهم هى فرض حصار اقتصادى ومحاصرتهم فى منطقتهم[٢٢]. لذا زادت هذه العمليات رغم ما اتخذه المماليك من اجراءات دفاعية لحماية مصالحهم وسواحلهم .

وقد اعتادت السلطات المصرية فى حالة تعرض سفنها أو تجارها أو ثغورها فى مصر والشام لمثل هذه القرصنة أن تلقى بالمسئولية الجماعية على التجار الأجانب دون تمييز بين جالية وأخرى، فتقبض عليهم وتصادر أموالهم وتزج بهم فى السجون. ورغم ذلك لم تتوقف هجمات القراصنة على سواحل الدولة أو السفن التجارية فى مياه البحر المتوسط المتجهة إلى موانىء المماليك، بل ازداد تجرم هؤلاء المغامرين، فاضطرت السلطات الحاكمة فى القاهرة إلى الرد عليهم بنفس أسلوبهم. من ذلك أن السفن الإسلامية أغارت على قبرس- أقرب اوكار القراصنة الفرنج لسواحل المماليك - فى عاميين متتاليين (١٤١٠-١٤١١م / ٨١٣-٨١٤هـ)، ورغم ذلك عاود القراصنة غاراتهم على الشام، ولكن حين أحسن ملك قبرس باستعداد المماليك لغزو الجزيرة من جديد سارع بعرض الصلح عام ١٤١٤م (٨١٧هـ) مع حكام القاهرة، وتعهد فيه بعدم السماح بأعمال القرصنة على سواحل دولتهم وبألا يأوى المغامرين فى جزيرته، وإذا لجأوا إلى موانيه لايقدم لهم أى عون وأن يصدر الملك أوامره للقبارصة بعدم شراء السلع التى يستولى عليها المغامرون من عمليات القرصنة التى يقومون بها على سفن وسواحل المسلمين[٢٣]. ورغم تلك المعاهدة عاود القبارسة والقطلان «تجرمهم فى العام التالى (١٤١٥م/ ٨١٨هـ) فأضطر السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء جميع التجار الفرنج وتناصلهم بالإسكندرية ودمشق، وعلى وجه الخصوص إزاء التجار القطلان وقنصلهم بالإسكندرية ، وأمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة»[٢٤]. وتكررت غارات القراصنة على شواطىء المماليك ، ووجد السلطان ططر الذى خلف السلطان المؤيد أن التجار الفرنج وجالياتهم فى موانيه يمدون القراصنة بالمعلومات عن الاستحكامات العسكرية على السواحل وعن موعد وصول التجار، وعن الإجراءات الدفاعية التى تقوم بها سلطات المماليك لصد ومواجهة غارات المغامرين من اللاتين، لذا أراد أن يحد من نشاط تلك الجاليات الفرنجية

خاصة وأن هؤلاء كان من بينهم من يتمتع بالإقامة الدائمة فى أراضى دولة المماليك[٢٥]، وكان أن أصدر السلطان ططر مرسومه عام ١٤٢١م / ٨٢٤هـ بتحديد إقامة جميع التجار وغيرهم من طوائف الفرنج فى بلاده إلى أربعة أشهر على الأكثر وهى مدة يراها السلطان كافية لإنهاء التجار تعاملاتهم فى بلاده[٢٦]. وكان هذا المرسوم ضربة قاضية لبعض المدن التى كانت لها علاقات وثيقة بدولة المماليك مثل البندقية وجنوة. ولم يستمر تنفيذ هذا المرسوم طويلاً إذ توفى ططر وخلفه برسباى الذى كان فى حاجة ماسة إلى ما يأتى به تجار اللاتين من سلع استراتيجية، فأعاد الامتيازات لتجار بعض المدن التى كان ططر قد حجبها عنها، وعادت التجارة إلى سابق نشاطها ؛ واستمر تعرض القراصنة لسفن المسلمين فى مياه البحر المتوسط والإغارة على موانىء مصر والشام. وضاق برسباى بتصرفاتهم وتيقن من تمركزهم فى جزيرة قبرس شرق البحر المتوسط، فبعث بحملات ثلاث على تلك الجزيرة انتهت بإخضاعها للجزية وصارت جزءاً من إمبراطورية المماليك، ورغم ذلك لم ينته نشاط القراصنة فى تجرمهم على سفن المسلمين، وانتقل مركزهم إلى جزيرة رودس التابعة لفرسان الاسبتارية ، وكان القطلان يرمون بكل ثقلهم فى تلك العمليات، بعد أن حملوا لواء مقاتلة المسلمين أينما كانوا فى حوض البحر المتوسط. ونتيجة لذلك اضطر «چقمق» سلطان مصر آنذاك أن يتبع خطى سلفه برسباى فى القضاء على مراكز إيواء القراصنة اللاتين . وإذا كان برسباى قد نجح فى هجومه على جزيرة قبرس أو أخضعها لسلطان المماليك فى القاهرة، فإن چقمق قد أخفق فى محاولاته الثلاث لإخضاع جزيرة رودس للجزية أو حتى إيقاف عمليات السطو المسلح على سفن تجار مصر فى مياه المتوسط، وذلك لأسباب عدة أهمها بُعد الجزيرة عن سواحل دولة المماليك. وكانت النتيجة، ازدياد تجرم القراصنة اللاتين، وبسبب انعدام الأمان قرب سواحل المماليك والتى تسبب فيها القطلان بصفة خاصة، قلت السفن المتجهة إلى موانىء مصر والشام، حتى أن الجالية الأجنبية التى كانت بالإسكندرية لم تكن تضم فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) سوى عناصر قليلة على رأسهم البنادقة والچنوية[٢٧]. وحقيقة كانت توجد جاليات أجنبية أخرى مثل أبناء فلورنسا أو أبناء مرسيليا وكانت لهم تجارة رائجة فى موانىء مصر والشام، ولكن كانت إقامتهم بتلك الموانىء لفترات قصيرة ، بعد أن زالت بيوتاتهم التجارية بها[٢٨].

على أية حال، ورغم ما ارتكبه القراصنة من عدوان على سفن مسلمى شرق البحر المتوسط إلا أن التجارة الأوربية مع المماليك ظلت قائمة لأن الغرب المسيحى كان لايستغنى عن التوابل

وكماليات الشرق التى تأتيه عن طريق مصر ومع ذلك فإن التجار اللاتين قل توافدهم على موانىء المماليك بسبب انتشار قراصنة الفرنج عامة والقطلان خاصة فى البحر المتوسط واعتراضهم طريق أى سفينة متجهة إلى موانىء المماليك، حتى أنهم كانوا يمثلون الخطر الأكبر على تجارة قطالونيا نفسها. وأدى هذا إلى أن حكام المماليك منعوا تجارهم من دخول أسواق مصر والشام. ولاشك فى أن نشاطهم هذا جر فى كثير من الأحيان ثورة غضب المدن البحرية التجارية الأخرى عليهم حتى أن هذه المدن كانت تطارد العلم القطالونى فى أى مكان فى مياه المتوسط، انتقامًا لما يسببونه لهم من خسائر مادية وضرب لمصالحهم التجارية . لذلك أصدر مجلس الشيوخ البندقى أوامره إلى القائد العام للأسطول عام (١٤٧٤م / ٨٧٩هـ) بالبحث عن قراصنة قطالونيا أمثال «ريزو وسميلانا وألماريتشى» الذين اعتادوا مهاجمة سواحل قبرس ودولة المماليك مع ضرورة القبض عليهم وعدم السماح لهم بالهروب [٢٩]. وهذا يوضح لنا سبب خلو فندق جالية قطالونيا فى الإسكندرية من نزلائه القطالونيين عام (١٤٨٣م / ٨٨٨هـ)[٣٠] عند مرور فليكس فابرى ورفاقه فى رحلة الحج بالمدينة ، فخصصه المسئولون فى مصر لإيواء الحجاج اللاتين[٣١]. وكيفما كان الأمر، فقد ازدادت القرصنة على سفن المسلمين أو تلك التابعة لدولة مسيحية تتعامل مع المماليك. وإذا كان حكام المماليك قد حاولوا الحد من تجرم هؤلاء القراصنة على مصالحهم بأن وجهوا حملات بحرية لضرب أوكارهم فى جزر البحر المتوسط، أو إقامة القلاع والاستحكامات العسكرية للدفاع عن سواحلهم، فقد كان لهم تصرف آخر داخل البلاد للانتقام من أعمال لصوص البحار. فبمجرد علم السلطان بأية حادثة قرصنة تعرضت لها جماعة من المسلمين أو ميناء تابع لهم على يد اللاتين، كان رد الفعل سريعًا : فكانت تلقى المسئولية الجماعية الأجنبية وعلى رأسها قناصلهم رهائن لديهم يتحملون عواقب أى عمل عدائى ضد رعايا المماليك أو المسلمين عامة، فكانت تصادر أموالهم وتجارتهم، وتزج بهم فى السجون إلى أن يتم التصالح بين الطرفين مع تعويض المتضررين. وقد كان ذلك فى أعقاب تعرض الإسكندرية عام (١٣٦٥م / ٧٦٧هـ) لحملة بطرس لوزينيان[٣٢]، فضلاً عن إغلاق أسواق مصر والشام فى وجه التجار الأجانب عامة، مما دفعهم إلى الاتجاه نحو العراق من أجل الحصول على السلع التى حرمتهم مصر منها. ولكن حاكم بغداد آنذاك وهو «أويس ابن الشيخ» منعهم من الاتجار فى بلاده إلى حين مصالحة حاكم مصر[٣٣]. وحادثة أخرى فى بدايات القرن الخامس عشر الميلادى (بدايات القرن التاسع الهجرى) حين أسر أحد القراصنة القطلان وهو «بيير دى لا راندا Pierre De La Randa» سفينة مصرية قرب سواحل

آسيا الصغرى وكان على متنها ما يقرب من مائة وخمسين مسلمًا وحمولة ثمينة، وباع كل ما عليها من بشر وسلع إلى «چاكوب كريسبو» Jacopo Crispo حاكم جزيرة ناكسوس Naxos التى كانت تابعة للبندقية ، لذلك استدعى السلطان قنصل البندقية بالإسكندرية للمثول أمامه فى القاهرة، وطالبه بضرورة الضغط على حاكم ناكسوس لإطلاق سراح جميع المصريين المحتجزين لديه، وحين أبلغه القنصل بأن لا سلطان للبندقية على ذلك الحاكم وأن الجزيرة خاضعة لجمهورية الأدرياتيكى اسميًا فقط، لم يقتنع السلطان بهذا الرد، وزج به فى السجن كرهينة. ومرة أخرى فى أخريات نفس القرن، استأجر بعض التجار المصريين سفنًا بندقية أبحرت من الإسكندرية قاصدة المغرب، فمرت القافلة بجزيرة رودس اللاتينية فتعرضت السفن للسلب والنهب من الاسبتارية ويبدو أن ذلك تم بتحريض من القباطنة البنادقة. وبلغ السلطان الخبر، فانتقم من قنصل وتجار البندقية الموجودين بالإسكندرية، وصادر أموالهم وسجنهم[٣٤]. وأيا كانت جنسية القراصنة الذين يرتكبون الجريمة فكانت المسئولية تقع عادة على جاليات الفرنج عامة، ولكن كان الضرر الأكبر يصيب أعظم جالية موجودة فى دولة المماليك وكانت بالطبع هى جالية البندقية. وهذا ما حدث فى عهد السلطان قايتباى حين خطف قرصان بروفنسالى تاجرين مسلمين وتوجه بهما إلى وكر القراصنة اللاتين فى رودس حيث تم التحفظ عليهما لحسابه الخاص. ورداً على هذه الفعلة قبض السلطان على تجار البنادقة فى كل من مصر والشام كوسيلة للضغط على جمهوريتهم لإجبارهم على التدخل لإطلاق سراح التاجرين المسلمين وتسليم القرصان للسلطان[٣٥].

هذا قليل من كثير من أمثلة عمليات القرصنة التى كان يقوم بها اللاتين ضد سفن أو موانىء المسلمين فى شرق البحر المتوسط ووسائل الرد عليها من قبل المماليك. ومهما يكن من أمر فلم يكن من السهل عودة سياسة الوفاق بين المماليك والتجار الأجانب بعد انقطاعها . وقد تظل مبتورة لفترات غير قصيرة رغم احتياج كل طرف للآخر. لذا كان لابد من تدخل طرف ثالث لإعادة المياه إلى مجاريها وإصلاح العلاقات بينهما. ولما كان التجار هم الفئة المتضررة فى المقام الأول، فإنه كان من الضرورى سعيهم بسرعة وإصرار لإعادة سياسة الوفاق بين الطرفين، كثيراً ما كانوا يقومون بدور الوسيط أو السفير لتلك المهمة الشاقة ، فيقع الاختيار على أحد التجار المرموقين وتكون له مكانة لدى الطرفين. وجدير بالذكر أن هؤلاء التجار الغربيين الذين كانوا يكلفون بتلك المهمة كانوا يخرجون من تلك الصفقة بمكاسب مادية كبيرة

يعوضون بها خسائرهم من السلع والأموال التى كان يستولى عليها المماليك فى مناسبات مختلفة، فكانوا يزيدون مبالغ تعوض خسارتهم فوق الفدية التى كانوا يدفعونها للقراصنة لفك أسر المسلمين، ثم يقومون بتحصيل المبالغ كاملة من المماليك دون علم هؤلاء بألاعيب الوسطاء الغربيين[٣٦]. ومن الشخصيات الهامة التى كان لها دور فعال فى المفاوضات بين طرفى النزاع كان التاجر البندقى السكندرى «پيلوتى- Piloti» الذى نجح فى إعادة العلاقات بين البندقية ودولة المماليك وكانت قد انقطعت بسبب فعلة القرصان القطلانى «پيير دى لاروندا»[٣٧]. وهناك مثال آخر لرجل اقتصاد فرنسى مرموق وهو «جاك كير»[٣٨] Jacques Coeur» الذى عالج بحكمة الموقف المتدهور بين السلطان چقمق والتجار الأجانب بعد فشل الأول فى حملاته الثلاث على رودس للرد على غارات القراصنة على سواحله ، والتى كلفته الكثير من المال والرجال. فصب غضبه على التجار الأجانب فى مصر تطبيقًا لمبدأ المسئولية الجماعية كعادة حكومة المماليك وفرض غرامة مالية كبيرة عليهم لتغطية خسارته المادية. وخوفًا من تمادى السلطان فى الانتقام، تدخل چاك كير هذا بين الطرفين، واستطاع إتمام عقد الصلح بين چقمق وأصحاب رودس من الإسبتارية. وجدير بالذكر أن التواجد الفرنسى بدأ يأخذ شكلاً واضحًا متميزاً فى مصر فى أخريات حكم المماليك، بعد أن ضاق هؤلاء بالبندقية ، صاحبة أكبر جالية أو أفضل مكانة فى مصر، وبسياستها ذات الوجهين. فاستغل قنصل فرنسا بالإسكندرية «فيليب دى پيرتز- Philippe de Peretz » تلك الظروف وأقنع السلطان الغورى بإمكانية لويس الثانى عشر ملك فرنسا مساعدته فى إعادة سفن مصر التى كان قد استولى عليها الاسبتارية فى خليج إياس[٣٩]. لم يكن التجار المسيحيون الغربيون هم وحدهم الذين يلعبون دور الوسيط فى تلك المفاوضات لفك أسر رعايا المماليك أو المسلمين عامة لدى القراصنة، إذ يشير ابن حجر العسقلانى فى أحداث عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) فى عصر السلطان برقوق بتدخل أحد التجار المسلمين وهو «الخواجا على» للقيام بمهمة إعادة التجار المصريين الذين كانت قد أسرتهم جماعة من قراصنة جنوة أثناء الصراع البندقى الجنوى»[٤٠]. على أية حال فإن تلك المهمة التى يقوم بها التجار لم تكن جديدة عليهم فى تلك الفترة، فقد أشارت المصادر أثناء التواجد الصليبى فى إمارات الساحل الشامى، عن تقدم تجار مسلمين أمثال «نصر بن قوام» و«أبا الدر ياقوت» وهما من دمشق ببذل أموال لافتكاك الأسرى المغاربة المسلمين من أيدى الصليبيين»[٤١].

* * *

وكيفما كان الأمر فإن القرصنة اللاتينية ضد مصالح المماليك فى شرق البحر المتوسط كانت إحدى الوسائل العسكرية التى شرعتها البابوية بطريق غير مباشر حين كلفت الرهبان العسكريين بمراقبة سفن التجار الغربيين التي تتجه لسواحل المسلمين، والنيل منها، مما شجع المغامرين اللاتين على التمادى فى القرصنة ضد المسلمين باسم الصليب والحرب المقدسة لحسابهم الخاص. وظلت تلك العمليات منتشرة فى شرق البحر المتوسط يمارسها اللاتين طالما لم يكن فى إمكانهم مواجهة قوة المماليك العسكرية فى حملة تقليدية جامعة، وقد صدهم المماليك بطرق شتى سواء بإقامة الاستحكامات العسكرية والقلاع أو التصدى لهجماتهم على سواحل دولتهم أو بالخروج فى تجريدات بحرية عسكرية على أوكارهم فى جزر البحر المتوسط ، كان منها ما ينجح ومنها ما يفشل ، لذا كان حكام المماليك ينتقمون لدولتهم بتطبيق مبدأ المسئولية الجماعية على التجار الأجانب فصادروا سلعهم وأموالهم فى موانىء مصر والشام وزجوا بهم فى السجون إلى أن يتم التدخل من قبل بعض الوسطاء لإعادة سياسة الوفاق بين المماليك والتجار الغربيين. ومع ذلك ظل القراصنة يستنزفون موارد مصر، خاصة بعد أن أحكم الغرب الحصار الاقتصادى عليها من الشمال والجنوب، وهزمت أمام أسطول البرتغال فى البحار الشرقية، وأصبحت فريسة سهلة المنال للجيش العثمانى فى عام ١٥١٦م ثم ١٥١٧ ، لتسقط دولة المماليك المستقلة وتصبح مصر ولاية تدور فى فلك الدولة العثمانية .

الهوامش

١- Burns , R, I., Moslems, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia , Camb., 1986 , p. 109 .

٢- Depping , G.B., Hist Du Com. Entre le Levant et L'Europe, T.II, Paris, 1830, pp. 172-173 .

٣- Heyd. W., Hist Du Com. Du Levant, T.II, Leipzig, 1886, p. 27 .

٤- Depping, Op. cit., T.II, p. 176 .

٥- Ibid., pp. 188-189 .

٦- المقـرى: نفح الطيب فى غـصن الأندلس الرطيب، ج١، القـاهرة، ١٣٦٧-١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص٣٠٠-٣٠٥ ؛ Heyd, Op. cit., p. 25

٧- Ibid., p. 28 .

٨- ورث فرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية نشاط الداوية فى قبرص، وبعد سقوط تلك الجزيرة فى أيدى المماليك انتقلوا إلى رودس.

٩- Ibid., p. 29 .

١٠- Jorga, N., Philippe de Méziéres, Paris, 1896, pp. 410-411 .

١١- أحمد دراج: المماليك والفرنج ، القاهرة، ١٩٦١، ص٩ .

١٢- أحمد مختار العبادى: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص٦٠٢ .

١٣- أحمد دراج : المرجع السابق، ص٩ ؛ انظر أيضًا:

Heyd, Op. cit., II, p. 472 ; Jorga, N., Rhodes sous les Hospitaliers, extrait de la Revue Historique, T. VIII, Paris- Bucarest, 1931 , pp. 102-103, 176 .

١٤- راجع ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر بأنباء العمر، مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٤٧٦ تاريخ ، ج١، ورقة ١٩٩، ٢٤٤، ٥٧٩، ٦٢٩، ٦٣٠ ؛ العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، مخطوطة بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ ، لوحة ١٩٦، ١٩٧، ٤٣٠؛ راجع أيضًا : Coville, A., France: Armagnacs and Burgundians, in Camb. Medieval Hist., vol VII, Camb., 1932 , p. 376.

١٥- حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٥١ .

١٦- فليكس فابرى ألمانى جاء فى عام ١٤٨٣م/ ٨٨٨هـ مع مجموعة من رفاقه لأداء الحج فى بيت المقدس. ومر بمدن كثيرة فى مصر ودون مشاهداته فيها .

١٧- Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture, Indiana, 1966, p. 184 .

١٨- ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق، ج٢، ورقة ١٥٥-١٩٦ .

١٩- نفس المصدر ، ج١ ، ورقة ٢٦٥ .

٢٠- حلمى محمد سالم: علاقات مصر الخارجية فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، إسكندرية، ١٩٨٦، ص٧٨ .

٢١- Depping, Op. cit., T.I, p. 159 .

٢٢- عن هذه المقترحات انظر : . Adae , G., de Modo Sarrace nos Extripandi, R.H.C.- Doc
Arm T.II, pp. 523-528; cf . also, Depping, Op. cit., T.II, pp. 194-195 .

٢٣- أحمد دراج : المرجع السابق، ص٢٢-٢٣؛ انظر أيضاً :

Ziada, M.M., the mamluk Conquest of Cyprus in the 15th cent., in Bul. of the fac. of Arts, Cairo Univ. vol. I, May 1933, p. 91 .

٢٤- أحمد دراج : نفس المرجع ، ص٥٣ .

٢٥- هذه الإقامة تعرف «بنصف مواطنة» وفيها تمنح حكومة المماليك بعض أفراد الجاليات الأجنبية الإقامة الدائمة فى أراضيها ولكن دون أن يتمتعوا بحقوق المواطن المصرى. أنظر:

Heyd, Op. cit. T. II, p. 473 .

٢٦- أحمد دراج : نفس المرجع، ص٢٨ .

٢٧- Ibid., T.II, p. 486 .

٢٨- Loc. cit .

٢٩- Mas Latrie , M. L. de , Hist. De l'Ile de Chypre, T.III, Paris, 1855, pp. 402-403 .

٣٠- Heyd, Op. cit., II, p. 486 .

٣١- Ibid, II, p. 433 .

٣٢- النويرى السكندرى: الإلمام، ج١ ، حيدر أباد، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣٢٦-٣٣٥؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ورقة ١٧٧ .

٣٣- النويرى السكندرى: المصدر السابق، ج٥، ص٢٣١ .

٣٤- Ibid., II, p. 455 .

٣٥- Ibid., II, p. 496 .

٣٦- أحمد دراج: المرجع السابق، ص٢٦ .

٣٧- Dopp, un Corsaire du 15é Siécle, Bul. of the fac. of Arts, Cairo Uni., vol XI, part II, 1949, pp. 10-12, 17-18 .

٣٨- عن شخصية چاك كير أنظر : Pirenne, H., Cohen, G., Focillon , H., la Civilisation Occ. au Moyen Age , Paris, 1941, pp. 184-185, 549-550 note 4 ; Brinton, C., Christopher, J., Wolff, R., Ahist. of Civilisation, vol . I, 3rd ed. New Jersey, 1967 , p. 417 ; Hoyt, R.S., Chodorow, St. Europe in the Middle Ages, 3rd ed., New York, 1967, pp. 638-639.

٣٩- أحمد دراج : المرجع السابق، ص١٤٩ .

٤٠- ابن حجر العسقلانى: المصدر السابق، ورقة ٢٦٥ .

٤١- ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، كتاب التحرير عن طبعة جيب، القاهرة ، ص٢١٤-٢١٥ .

د. نورة محمد التويجرى *

دعوة التوحيد وأثرها فى تغيير مجرى السياسة فى الدولة الإسلامية فى الأندلس

نجم عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التى أحاطت بالدولة الإسلامية فى الأندلس فى ظل حكم أمراء الطوائف أن ظهرت ما عرف فى التاريخ الأندلسى (بدعوة التوحد) التى قصد بها دعوة أمراء الطوائف وأبناء الدولة الإسلامية لتوحيد الصف وجمع الكلمة وتأليف القلوب ليكونوا جميعا يدا واحدة فى مواجهة الخطر المحيط بهم من قبل ملوك النصارى فى شمال الدولة الإسلامية فى الأندلس. وقد نادى بتلك الدعوة عدد كبير من أبناء الأندلس يمثلهم الفقهاء والعلماء والأدباء والقراء فى محاولة جادة منهم لإنقاذ الكيان الإسلامى من السقوط فى أيدى الأعداء الذين وجدوا فى ضعف الدولة الإسلامية وتفككها فرصة سانحة للعودة بها إلى نطاق العالم المسيحى مرة أخرى، وقد تمثلت هذه الأطماع النصرانية فى شن هجمات متكررة على دولة المسلمين بالأندلس. وازدادت هذه الهجمات وحشية وضراوة فى عهد الفونس السادس ملك قشتالة. ومن الملاحظ أن هذه الدعوة لم تظهر من فراغ وإنما كان هناك عدد من الدوافع والمبررات التى أدت إلى قيامها.

---

* مدرس بكلية التربية بالرياض .

فمن هذه الدوافع:

أولا : سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى الدولة الإسلامية فى الأندلس فى عهد أمراء الطوائف ، ومن ثم فقد قامت هذه الدعوة كنتيجة حتمية لهذه الأحوال السيئة التى كانت تمر بها البلاد والعباد[١].

ومن المعروف أن دول الطوائف بدأت تظهر على ساحة التاريخ الأندلسى الإسلامى منذ انهيار الدولة العامرية [٢]، وعلى وجه التحديد فى عهد آخر أمرائها عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر، الملقب بشنجول فى بداية عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م والذى لقى مصرعه على يد الخليفة محمد بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر[٣] بسبب تقربه من الخليفة هشام بن الحكم وإقناعه بإسناد الخلافة إليه من بعده ، فنزل الخليفة على رغبته وتم له ذلك.

وقد ذكر تلك الحادثة ابن عذارى نقلا عن ابن حيان بقوله : (فأطال الخلوة به، والتقرب منه حتى استدنى نسبه بالخؤولة ، إذ كانت أمهما بشكنيتين[٤] فقدرها عبد الرحمن بجهله قرابة، وسما بها إلى ميراث الخلافة[٥].

وقد أثارت تلك الحادثة غضب أمراء بنى أمية لأنهم رأوا فيها انتزاع الخلافة منهم وإسنادها إلى الأسرة العامرية. لذلك التف أمراء بنى أمية حول الأمير الأموى محمد بن هشام بن عبد الجبار وعينوه خليفة عليهم، وعملوا على تنحية الخليفة هشام بن الحكم من الخلافة.

وكان عهد الخليفة محمد بن هشام بداية لعهد الفوضى واختلال الأمن فى الأندلس[٦]، مما تسبب فى صراع مرير بين أمراء البيت الأموى، وبالتالى بين عناصر سكانها من العرب والبربر والصقالبة وأهالى قرطبة، وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس فى عهد آخر خلفائها (هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر) (هشام الثالث) الملقب بالمعتد بالله (٤٢٠هـ) إذ قتل على أيدى العامة من أهل قرطبة[٧]، وتولى الأمر فى قرطبة أبو الحزم بن جهور[٨] بن محمد بن جهور. ومن هنا بدأ ظهور ما عرف فى تاريخ الدولة الإسلامية فى الأندلس بعصر أمراء الطوائف.

ولقد صور تلك الفترة فى تاريخ بنى أمية فى الأندلس المؤرخ ابن الخطيب بقوله : (ومشى البريد فى الأسواق والأرباض أن لايبقى أحد من بنى أمية ولايكتنفهم أحد)[٩].

وهكذا، أدى سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس وعدم وجود سلطان شرعى يوحد عناصر

السكان المتعددة الأصول فى ذلك القطر الإسلامى إلى انفصام عرى الوحدة وقيام ما عرف بدول الطوئف [١٠]، فانقسمت الدولة الإسلامية فى الأندلس إلى دويلات صغيرة تمثل العناصر السكانية فيها، واستقلت كل دولة بشؤونها ، وذلك على النحو التالى :

العنصر الأول وكان يمثله العرب الموالون للأمويين إذ ظهرت دولتان فى حوض النهر الكبير وهما دولة بنى جهور[١١] من موالى بنى أمية فى قرطبة ودولة بنى عباد[١٢] اللخميون فى إشبيلية [١٣]. والعنصر الثانى وكان يمثله البربر حيث ظهرت دولة بنى ذى النون[١٤] فى طليطلة[١٥] فى الثغر الأوسط، وينسبون إلى بربر هوارة [١٦]، ودولة بنى الأفطس[١٧] وينسبون إلى بربر مكناسة[١٨] وأسسوا دولتهم فى مدينة بطليوس[١٩] التى أصبحت عاصمة الثغر الأعلى ، ودولة بنى هود[٢٠] فى سرقسطة [٢١]ودولة بنى زيرى[٢٢] فى أقصى جنوب الأندلس فى غرناطة[٢٣]. وأما الصقالبة الذين خدموا بنى أمية فقد أصبح لهم نفوذ ومكانة فى قصورهم وأنشأوا لهم دويلات صغيرة فى شرق الأندلس[٢٥].

والواقع إن دولة المسلمين فى الأندلس غدت تضم أكثر من خمسين دولة[٢٦] تفاوتت فى المساحة والأهمية ، كما تفاوتت فى أعمارها ؛ فبعضها استمر قائمًا لسنوات طويلة والبعض الآخر لم يتجاوز عمره السنوات الخمس[٢٧].

وبظهور دول الطوائف بدأت أسس الدولة الإسلامية فى الأندلس فى الانهيار والتصدع، وأصبحت تتألف من فرق متنازعة لاتربط بينها رابطة إخاء ولاتجمع بينها أواصر محبة أو مصالح مشتركة، بل ظهرت بينهم المنافسات الحادة نتيجة للأطماع الشخصية. وقد صور ابن الخطيب ذلك الوضع الذى أصبحت عليه الدولة الإسلامية فى الأندلس فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها بقوله: (وذهب أهل الأندلس فى الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم فى الخلافة إرث ، ولا فى الإمارة كسب، ولا فى الفروسية نسب، ولا فى شروط الإمامة مكتسب ، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار)[٢٨].

وعبر عن ذلك الوضع الشاعر الحسن بن رشيق[٢٩] بقوله:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر ... وذهب العين جميعا وأندثر

قام بكل بقعة مليك ... وصاح فى كل غصن ديك

وقد سلك كل أمير من أمراء الطوائف طرقا ملتوية لإضفاء صبغة شرعية على حكمه تتفق وصورة الخلافة[٣٠]. وأطلقوا على أنفسهم الألقاب والنعوت التى أطلقها الخلفاء فى المشرق وأمراء الطوائف فى المغرب على أنفسهم. وعبّر عن ذلك ابن حزم بقوله: (ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب جدا حتى تسمى بهذه الأسماء السماسرة من رذالات الناس)[٣١].

ومن الملاحظ أن أمراء الطوائف غلبت عليهم الذلة والمهانة أمام أعدائهم النصارى، خاصة أمام الفونس السادس ملك قشتالة، الذى استغل ضعفهم وتفككهم وتناحرهم فيما بينهم فقام بابتزازهم وفرض عليهم إتاوة سنوية تدفع له مقابل ابقائهم على عروشهم وتحقيق أطماعهم فى القضاء على إخوانهم من أمراء ممالك الطوائف الأخرى[٣٢].

وقد أشار إلى ذلك ابن بسام نقلا عن الفقيه أبى بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة[٣٣] والذى صور مدى ما وصل إليه أمراء الطوائف من المهانة والذلة أمام أعدائهم النصارى بشىء من الألم والحسرة إذ قال : (وكاتب ملوك الروم مدة ملوك الطوائف بأفقنا ، قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال ، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد. ودأب النصارى التسلط والعناد، حتى استصنعوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ، مما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة وإلى ما يتبعها من الهديات والنفقات)[٣٤]. أما عن علاقة أمراء الطوائف بعضهم ببعض فكانت يسودها الخوف والحذر والطمع، خوف الضعيف من اعتداء القوى والحذر منه، وطمع القوى فيما لدى الضعيف من ممتلكات ومحاولة ضمها إليه، مما دفع كثير منهم إلى عقد معاهدات صداقة وتحالف مع ملوك النصارى لتحقيق أطماعهم ، مما يدل على عدم الانتماء الدينى الوطنى لدى كثير منهم من ذلك أن الأمير عبدالله بلقين ملك غرناطة تآمر مع ألفونس السادس ملك قشتالة وعقد معه معاهدة حلف وصداقة ، تعهد فيها الأمير عبدالله بدفع جزية لألفونس تقدر بعشرين ألف دينار مقابل أن يمده الفونس السادس بسرية من جنده يستخدمها الأمير عبدالله فى الإغارة على أراضى إشبيلية. واستطاع بهذه القوة من استرداد حصن (قبره)[٣٥] من بنى عباد وهو الحصن الواقع جنوبى غربى مدينة (جيان)[٣٦]. وكذلك تفويض المعتمد بن عباد لوزيره ابن عمار[٣٧] بعقد معاهدة مع الفونس السادس ملك قشتالة يدفع بمقتضاها الفونس السادس لابن عباد الجنود المرتزقة ليستعين بها ضد أعدائه من أمراء الطوائف ويتعهد له المعتمد بن عباد مقابل ذلك بدفع المال اللازم وبعدم اعتراضه على غزو مدينة طليطلة[٣٨].

وكان لذلك التصرف أثر كبير فى نفوس أدباء ومؤرخى وأبناء الأندلس، وعبَّر عن ذلك ابن حزم بشىء من اللوعة والحسرة بقوله : (أقسم بالله بأن هؤلاء الملوك لو علموا أن لعبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا إليها) إلى أن يقول (فنحن نراهم يستخدمون النصارى يمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسرى إلى بلادهم وربما أعطوهم المدن والقلاع فأخلوها عن الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه)(٣٩).

ولم تكن حالة التفكك والضياع التى نشأت كنتيجة حتمية للتنازع والتطاحن بين أمراء الطوائف قاصرة على هؤلاء الأمراء فقط، وإنما امتدت إلى أفراد الأسرة الواحدة كالحروب الأهلية القديمةالتى قامت بين المقتدر حاكم مملكة سرقسطة وإخوته الأربعة، والتى انتهت بتقسيم مملكة سرقسطة بينهم بعد أن استعان كل من هذين الأخوين بالنصارى للقضاء على الآخر(٤٠). وقد صور تلك الحالة ابن الخطيب بقوله : (وجعل الله بين أولئك الأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم من الله يد، ولانشأت على التعاضد عزم) (٤١)، أما ابن حزم فقد وصف أمراء الطوائف بأنهم (محاربون لله ولرسوله ، ساعين بالفساد فى الأرض) وذلك عندما أجاب من استفتاه فى أمرهم(٤٢).

أما الفقيه ابن عبد البر(٤٣) فربما قصد أمراء الطوائف عندما تحدث عن الخيل المعدة للجهاد وفضلها حيث قال : (إلا إذا كانت معدة للفتن وقتل المسلمين وسلبهم وتفرق جمعهم وتشريدهم عن أوطانهم ، فتلك خيل الشيطان وأربابها حزبه وفى مثلها ، والله أعلم)(٤٤).

وربما كان يقصد من وراء ذلك التنديد بالسياسة التى سار عليها أمراء الطوائف والتى كانت قائمة على التشاحن والتطاحن فيما بينهم، وما يملكه كل منهم من قوة عسكرية هى فى ظاهر أمرها معدة للدفاع عن الإسلام، ولكنها فى حقيقة أمرها معدة للقضاء على إخوانهم المسلمين.

أما ابن حيان(٤٥) فقد تعرض للسياسة التى سار عليها أمراء الطوائف بقوله : (فلقد ركبت سنن من تقدمنى فيما جمعته من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه، وأودعت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة، وأسباب كبار الأمراء المنتزين فى البلاد عليهم، وسبب انتقاص دولهم) إلى أن يقول : (وما جرى فى مددهم وأعصارهم من الحروب

الطوائل، والوقائع والملاحم إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ووفاة العلماء والأشراف)[٤٦]. ووصف الفتنة التى أدت إلى قيام ممالك الطوائف بقوله: (هذه الفتنة البربرية الشنعاء الداهمة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة المغربة الشأن على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية)[٤٧].

أما عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة الإسلامية فى بلاد الأندلس فى ظل أمراء الطوائف فلم تكن أوفر حظًا من الحالة السياسية فى عهدهم ، إذ كان للحالة السياسية أثر كبير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأمنية فى البلاد، وذلك من جراء التقلبات السياسية والحروب الأهلية المستمرة والمتواصلة بين الحكام الطوائف. ولعل أبلغ صورة لذلك الوضع الاجتماعى والاقتصادى هو ما ذكره الشاعر الأندلسى أبوطالب بن عبد الجبار[٤٨] بقوله:

ثم تمادت هذه الطوائف	تخلفهم من آلهم خوالف
فأهملوا البلاد والعباد	وعطلوا الثغور والجهاد
وزادهم فى الجهل والخذلان	أن ظاهروا عصابة الصليان
فاستولت الروم على البلاد	واستعبدوا حرائر العباد
وفتكوا الرجال كيف شاءوا	وضاع دلو الدين والرشاد[٤٩]

أما ابن حزم فقد وصف تلك الحياة الاقتصادية المتردية فى ظل حكم أمراء الطوائف من جراء الضرائب الباهظة المرهقة للسكان بقوله : (والذى ترونه من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يفيضون على أهلها ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لاتبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم)[٥٠].

كذلك ندد ابن حزم بالأمور المستحدثة ، التى دخلت على أهالى الأندلس ولم تكن معروفة لديهم من قبل مثل إنهاكهم بالمغارم والضرائب التى أثقلت عواتقهم والتى كان لها أثر عظيم فى انحطاط الحياة الاقتصادية فى الأندلس بقوله : (والمغارم التى كان يقبضها السلاطين فإنما هى على الأرضين) إلى أن يقول (واليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة

يؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل، وعلى كل حليبة بشيء ، وقبالات تؤدى على كل ما يباع فى الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد، وهذا كله ما يقبضه المستغلون اليوم)(٥١). ولعل ما ذكره الشاعر أبو حفص العروضى الزكرمى بأفريقية، مما قاله بالأندلس محتجًا على مطالبته بمكس كان يتولاه يهودى، يعطى صورة واضحة لذلك الوضع الاقتصادى المتردى فى ظل حكم أمراء الطوائف بالأندلس حيث قال:

يا أهل دانيـة لقـد خـالفـتم　　حكم الشـريعـة والمـروة فـينـا

مالى أراكم تأمرون بضـد ما　　أمـرت تـرى نسخ الإله فـينا

كنا نطالب لليهـود بجزيـة　　وأرى اليهود بجزية طلبونا(٥٢)

وقد صور المؤرخ ابن عبد البر تلك الحالة التى كان يسير عليها أمراء الطوائف فى سياستهم فى الأندلس بشيء من النقد والإدانة مما أسهم فى إضعاف الحالة الاقتصادية بقوله : (كل من غلب على موضع ملكه استعبد أهله وكثر فيها الأمراء فضعفوا وصاروا خولا للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذونه منهم)(٥٣). كما يوضح تلك الصورة ما ذكره ابن بسام نقلا عن ذى الوزارتين الفقيه الكاتب أبوبكر عمر بن سليمان - المعروف بابن القصيرة- فى رسالة كتبها على لسان المعتمد بن عباد، يخاطب بها القواد لتحصيل الأموال من الرعية، بالرغم مما أحاطهم من كوارث طبيعية حيث قال : (الحال مع العدو قصمه الله لاتحتاج إلى جلاء ولاكشف معروفة لاتفتقر إلى نعت ولاوصف) إلى أن يقول : (ووقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم إليه، ونستكف بها الشر الموهوب لديه، فكم حال كانت بخروجه تتلف ، ونعمة ما بأيدى طاغيته تنسف والرعية- أحطاها الله- فى هذا العام على ما تقتضيه ما عم بالبلاد من الفساد، وشملها من جائحة القحط والجراد وتكليفها أداء شيء من المال) إلى أن يقول (فلقد أدرجت على رقعتى هذه عنذاقا تسمى الحذفة مثلك فيه ورسم على كل واحد منهم، ما توجبه الحال وتقتضيه فتقدم فيما نصصته فى الحال إليهم، وكلمهم ما يخفف الحال عندهم ويسهلها لديهم)(٥٤).

ولعل ما ذكره المقرى نقلا عن صاحب (مناهج الفكر) يعطى صورة واضحة لما كانت عليه الحال فى الأندلس فى ظل أمراء الطوائف حيث جاء فيما نقله (ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها فى سلك الإنقياد والوفاق إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم

يشن الغارة على جاره ويحاربه فى عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو فى الدين يعادى، ويراوح معاقلهم بالعبث ويغادى، حتى لم يبق فى أيديهم منها إلا ما هو فى ضمان هدنة مقررة وأتاوة فى كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك فى الكتاب مسطور وقدراً فى سابق علم الله مقدوراً(٥٥).

وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى السياسة التى اتبعها عبد الملك بن جهور مع رعاياه حيث بالغ فى الاستيلاء على أموال الناس وضمها إليه، وقد أشار ابن سهل لتلك الحادثة حيث ذكر أنه أقيمت عليه دعوى بذلك الشأن بعد سقوط دولة الجهاورة فحكم عليه برد المظالم إلى أهلها(٥٦). هذا فضلا عما كان عليه أمراء الطوائف من انحلال خلقى واجتماعى أثناء حكمهم فى الأندلس والذى كان نتيجة طبيعية لانصرافهم عن خالقهم وتهاونهم فى دينهم ، مما كانت له نتائجه الوخيمة على ذلك المجتمع ، إذ مهد الطريق لأعدائهم النصارى للإطاحة بهم بعد أن اطلعوا على أوضاعهم المزرية، وأدركوا ما هم عليه من انحلال وفساد ، وهكذا زالت هيبتهم من نفوس أعدائهم ، وزادت رغبتهم فى القضاء عليهم. ولعل ما خاطب به السيد القمبيطور أهالى بلنسية أوضح دليل على ذلك، حيث جاء فى خطابه الذى وجهه لأهالى بلنسية قوله (من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء وسأستمع إليه، فإنى لا أحتجب عنكم ولا أخلو إلى النساء والشراب والفساد كما كان يفعل أولو أموركم ما لم يمكنكم قط من رؤيتهم)(٥٧).

ثانيا : الهجمات المتواصلة والمتكررة من فرناندو الأول ابن سانشو الكبير ملك قشتالة على الدولة الإسلامية فى الأندلس منذ عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م، واحتلاله كثير من القلاع الإسلامية فيها. ذلك أنه قرر غزو مملكتهم وإخضاعها تحت سيادته ، فقام بغزو أراضى المظفر بن الأفطس فى بطليوس وعمل على تخريبها ، واستولى على عدد من مدنها، دون أن يصادف أية مقاومة من ملكها المظفر بن الأفطس الذى وقف عاجزا أمام تلك الحشود الهائلة من جيوش النصارى ، فلجأ إلى محاولة التوصل إلى حل سلمى مع (فرناندو الأول) وتعهد له بدفع ضريبة سنوية تبلغ خمسة آلاف دينار ذهبًا مع تبعيته التامة لملك قشتالة(٥٨) ثم توجه (فرناندو الأول) إلى سرقسطة التى كانت تابعة لابن هود فقام بغزوها وتدميرها، وصالح ابن هود على أساس التبعية التامة له مقابل الانسحاب من أراضيه. وبعد ذلك واصل سيره إلى طليطلة يحدوه ويدفعه الأمل فى إخضاعها لطاعته. وكانت تحت حكم المأمون بن ذى النون فعبر

حدودها، واحتل كثيراً من الحصون والقلاع الهامة التى تقع على الحدود مع أسبانيا النصرانية.

ولعل من العوامل التى جعلت أبناء الأندلس يذعنون لتلك الضربات غزو النورمان لمدينة بربشتر[٥٩] عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م فى عهد حاكمها المقتدر بن هود، إذ كانت تلك الغزوة من أعظم الكوارث والمحن التى حلت بدولة الإسلام فى الأندلس فى عهد أمراء الطوائف. وقد[٦٠] ذكرها ابن بسام نقلا عن ابن حيان قوله : (ولقد أفشينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة)[٦١] وأورد منها ابن بسام نقلا عن ابن حيان حوادث مؤلمة كحادثة القتل الجماعى الذى تعرض له أهالى مدينة بربشتر على أيدى النصارى وقطع المياه عنهم وأسر نسائهم وهتك أعراضهم[٦٢] ولعل السبب الرئيسى الذى يعتبر دفاعا قويا لظهور هذه الدعوة هو سقوط مدينة طليطلة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) على يد (الفونس السادس)[٦٣] ملك قشتالة[٦٤].

وهكذا فإن حركة الاسترداد التى قام بها ملوك النصارى اشتدت ضراوة فى عهد (الفونس السادس) الذى بعث هذه الحروب بين المسلمين والنصارى من جديد[٦٥] حيث باتت أطماعه تزداد شراهة فلم يعد يقتنع بأخذ الأموال من أمراء الطوائف، وإنما امتدت أطماعه إلى الحصون والمدن فى الأندلس، فأخذ يشن غارات مكثفة عليها. وكان إن ركز اهتمامه فى الاستيلاء على مدينة طليطلة ، فبدأ بمحاصرتها حتى سقطت فى يده عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. وصور ابن بسام تلك الحادثة التاريخية المؤلمة بقوله : (وعثا الطاغية (أدفونش) - قصمه الله- استقراره بطليطلة واستكبر بأمراء الطوائف فى الجزيرة وقصر وأخذ يتحنى ويتعتب ، وطفق يتشوق إلى انتزاع سلطانهم ، والفزع من شأنهم ويتسبب ورأوا أنهم وقفوا دون مداه، ودخلوا تحت عصاه)[٦٦].

وعبر ذو الوزارتين أبوبكر محمد سليمان عن استخفاف ألفونس السادس بأمراء الطوائف، فيما نقله عنه ابن بسام بقوله : (ولما كلب العدو فى ذلك التاريخ ، وأعضل داؤه ، وجعل يطأ بلاد المسلمين آمنا لايخاف ، وآنسا لايستوحش، مقدما لايقعى، ومجترئا لايرتدع ، ينزل بساحات القواعد الرفيعة، والقلاع المنيعة، فيعقب الآثار ويستبيح الدمار، ويهتك مصون الأستار ، ورمت لها الأنوف ، واستعذبت معها الحتوف ، وحميت منها النفوس الأبية، والعدو فى ذلك ثلج الفؤاد ، رابط الجأش لايرقب سنان دافع ولايبدو له سنان سيف مدافع، لأن أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يداخلون ملوك الروم)[٦٧].

وكان لسقوط مدينة طليطلة على يد (الفونس السادس) أسوأ الأثر فى نفس أبناء الدولة الإسلامية فى الأندلس، فعبروا عن تلك المأساة ومدى تأثرهم بها فى انتاجهم الفكرى والأدبى ومن ذلك على سبيل المثال قول الشاعر عبدالله بن فرج الطليطلى المشهور بابن العسال[٦٨]:

حثوا رحالكم يا أهل الأندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثورا من الوسط

ونحن بين عدو لايفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى السقط[٦٩]

كذلك عبر عن هذه الحادثة شاعر مجهول من أبناء الأندلس بقوله:

ثكلتك كيف تبتسم الثغور ... سرورا بعدما سبيت ثغور

لقد قصمت ظهور حين قالوا ... أمير الكافرين له ظهور

مساجدها كنائس أى قلب ... على هذا يقر ولايطير

فيا أسفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ما تكررت الدهور[٧٠]

وقال آخر :

ألم تروا فيلق الكفار فرزنه [٧١] ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات[٧٢]

وصاحب سقوط طليطلة سقوط عدد كبير من المدن والحصون المحيطة بها، والتى قدرت بثمانين وحدة من أهمها مدينة بلنسية [٧٣]، التى صور مأساة سقوطها الشاعر البلنسى المعاصر أبو اسحاق بن خفاجة[٧٤] بقوله :

عاثت بساحتك الضبا يا دار ... ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردى فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستكبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار[٧٥]

وهكذا .. كان سقوط مدينة طليطلة فى يد (الفونس السادس) وما يتبعها من سقوط مدن وقلاع وثغور سببا جوهريا للمناداة بدعوة التوحد بكل جد وحماسة من قبل أبناء الأندلس كافة، كما كان لها أثر كبير فى استيقاظ أمراء الطوائف من غفلتهم وتخليّهم عن أنانيتهم، وذلك بعد أن أدركوا مدى خطورة هذا الأمر عليهم وأنه نتيجة حتمية لحالة التنازع والتناحر فيما بينهم، والتى سار عليها ساستهم، فكانت تلك الحادثة بمثابة الدافع المحرك لتقارب أهوائهم واتفاق آرائهم واتحاد مصالحهم، وخاصة بعد أن رأوا أن (ألفونس السادس) ملك

قشتالة قد تمادى فى طغيانه بعد سقوط مدينة طليطلة ، فامتدت أطماعه إلى الاستيلاء على مدن الأندلس كافة وكان أن بدأ بتهديد المعتمد بن عباد حاكم مدينة أشبيلية وقرطبة ، وأنذره بمهاجمة مدينة قرطبة إذا هو لم يسلم جميع حصونها التى على الجبل له، كما رفض الجزية التى كان يقدمها له المعتمد بن عباد(٧٦) وعندما سمع مشايخ قرطبة بذلك التهديد، أثر ذلك التعنت والتسلط من قبل الفونس السادس فى نفوسهم ، فاجتمعوا للتباحث والتشاور فيما بينهم، واتفقوا على الاستنجاد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

القائمون بالدعوة وجهودهم فيها:

وهكذا كان لهذه الأحداث والظروف السيئة التى أحاطت بالدولة الإسلامية فى الأندلس أثر كبير فى ظهور دعوة التوحد التى نادى بها كثير من أبناء الأندلس على مختلف طبقاتهم، وذلك بعد أن أدركوا مدى الخطر المحيط بدينهم ودولتهم فى الأندلس. وقد انبثقت دعوتهم هذه عن محاولة جادة منهم فى سبيل إنقاذ دولتهم من الأطماع النصرانية ، التى وجدت فى تفككها وضعفها وتخاذل أمراءها فرصة سانحة لإعادتها إلى أملاك الدولة النصرانية مرة أخرى(٧٧).

وقام بهذه الدعوة عدد من أبناء الأندلس تحدوهم إلى ذلك غيرتهم على دينهم وأمتهم ، فظهرت مشاركتهم فى هذه الدعوة بأشكال وأساليب مختلفة ، كالنصح والإرشاد فى رسالة موجهة إلى أمراء الطوائف ، أو كلمة للبيان الوصفى للحال التى وصلت إليها دولتهم بشىء من التذمر والأسى على تلك الحال لتخاذل أمرائها أمام أعدائهم النصارى(٧٨).

وكانت الدعوة إلى التوحد شعوراً صادقًا من قبل هؤلاء الدعاة موجها إلى أمراء الطوائف داعين إياهم إلى توحيد الصف وجمع الكلمة ونبذ الفرقة(٧٩) حيث أن ذلك هو الدواء الفعال لذلك الداء الذى ظل ملازمًا لدولتهم طيلة فترة حكم أمراء الطوائف .

ومن أبرز هؤلاء الدعاة الذين كانت لهم جهود فعالة فى دعوة التوحد هذه ، القاضى أبو الوليد الباجى (٨٠). ولعله أول من ابتدر هذه الدعوة ونادى بها، وذلك بعد عودته من رحلته العلمية إلى بلاد المشرق الإسلامى، والتى امتدت ما يقارب الثلاثة عشر سنة - ٤٢٦هـ/ ٤٤٠هـ (٨١)- وقد بدأ دعوته لتوحيد الصف وجمع الكلمة بالتردد على مدن المشرق الأندلسى سرقسطة، وبلنسية(٨٢) ومرسيه(٨٣) ودانية(٨٤) ناصحا وواعظا لأمراء الطوائف ، داعيا إياهم لنبذ الفرقة والتشاحن ، حاثا إياهم على التوحد والائتلاف فيما بينهم.

وقد ذكر ذلك القاضي عياض عندما تحدث عن سيرته الذاتية ، معللا سبب قدومه إلى مدينة المرية أنه كان سفيرا بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام ويدعوهم إلى جمع كلمتهم مع جنود المغرب والمرابطين ، ولكنه توفى رحمه الله قبل أن يتم مهمته[٨٥].

ولم تكن مهمة أبي الوليد الباجي مقتصرة على أمراء الطوائف فقط، بل شملت أبناء الأندلس عامة، وذلك من خلال لقائه بهم وإقرائه لهم وتدريسه لهم في مساجد مدن الأندلس المختلفة. ولعله زاد تحمسا لهذه الدعوة وإصرار على إظهارها وإنجاحها بعد أن تولى القضاء في مدن مختلفة من الأندلس واشتغل بالتدريس فعرف واشتهر بمكانته العلمية[٨٦]. وقد أشار إلى جهوده المثمرة في تلك الدعوة القاضي عياض فقال عنه : (وكان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم ، ويقبل جوائزهم، وهم له في غاية البر)[٨٧] كما أشار إلى جهوده أيضا ابن بسام مبينا دوره كناصح ومرشد لأمراء الطوائف فقال عنه : (ثم نازعه هوى نفسه إلى مسقط رأسه، ومنبت غرسه من أرض الأندلس، فورد وعشب بلادها وناب وظفر) إلى أن يقول (وملوكها أضداد وهواء أهلها ضغائن وأحقاد ، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد، فاسق على ما ضيعه وندم لو أجدى عليه ذلك أو نفعه ، على أنه لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين أمراء أهل الجزيرة بصلة ما أنبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن من آل فرعون لو صادف أسماعًا واعية، بل نفخ في عظام ناخرة ، وعكف على أطلال دائرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، ما كان أفطن الفقيه- رحمه - الله- بأمورهم، وأعلمهم بتقديرهم ، لكنه كان يرجو حالا تثوب ومذنبا يتوب)[٨٨].

ومن المرجح أن يكون للمؤرخ الأندلسي ابن حيان دور في تلك الدعوة كناصح وواعظ لأمراء الطوائف ، بعد أن آلمه ذلك الوضع السيء الذي كانت تمر به الدولة الإسلامية في الأندلس أثناء حكم أمراء الطوائف لها، حيث ذكر ذلك بقوله : (فركبت سنن من تقدمني فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ونظمته وكشفت عنه، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة وسياستهم المنفرة، وأسباب كبار الأمراء المنتزين[٨٩] في البلاد عليهم) كما ذكر بشيء من الألم والحسرة عند تحدثه عن سقوط مدينة بربشتر الحالة التي وصلت إليها الدولة الإسلامية ورعاياها المسلمين في ظل حكم هؤلاء الأمراء ووصفهم بقوله : (أمراء الفرقة والهمل، القاسطون قد نكبوا منهج الطريق، ذيادا عن الجماعة وحوشا إلى الفرقة)[٩٠].

ويتضح دوره في هذه الدعوة بقوله : (ولا أشد ما أفتينا عند أولى الألباب ما أخفيناه من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لامحالة)[٩١].

كما استمر في التعرض لأمراء الطوائف بشيء من الذم والانتقاد محملا إياهم مسؤولية ما حل ببلادهم من المصائب والمحن، بسبب انصرافهم عن خالقهم ودينهم، إلى جانب انتقاده إياهم لتجاهلهم وتغافلهم عن رعيتهم بقوله : (إنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وإن من أكبر الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ويستقرى بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرقا ويبيد أمة ، ومن لدينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم نهاة عن بثهم) إلى أن يقول : (حتى كأنهم ليسوا منا بثقفهم، وليس بمفض إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء، عجائب فاتت التقدير، وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور، وإليه المصير)[٩٢].

واستمر ابن حيان في انتقاده لأمراء الطوائف بعد حادثة سقوط مدينة بربشتر في يد النصارى فقال: (ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء في بربشتر إلا الفزع في حفر الخنادق وتعلية الأسوار وشد الأركان وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوء السوءاء، من إلقائهم (يومئذ) بأيديهم إليهم أمور قبيحات الصور مؤذنات الصدور بأعجاز تحل الغير.

أمـــور لو تدبرهـــــا حكيـــم   إذا لنهى وهيب ما استطاعا[٩٣]

ويبدو أن للمؤرخ الفيلسوف ابن حزم دورا في هذه الدعوة أيضا، الأمر الذى يتضح من مخاطبته لأمراء الطوائف محذرا إياهم من المقربين لديهم من الفقهاء الذين يزينون لهم أخطاءهم بغرض التقرب منهم حيث خاطبهم بقوله : (فلاتغالطوا أنفسكم، ولايغرنكم الفساق والمتنسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم) [٩٤]. كما خاطبهم بقول الله سبحانه وتعالى : (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا)[٩٥] مبينا لهم أهمية الوحدة والائتلاف وبقوله تعالى : (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) [٩٦].

وقد عبر عن الألم والمرارة التى يعانيها من جراء سياسة أمراء الطوائف والتى تقوم على الفرقة والتشاحن ، في رسالة جوابية ردا على رسالة وردت إليه، مبينا فيها جهوده في تلك

الدعوة ، جاء فيها: (ورد كتابك على ما أمر الله به من الألفة والتقاء الكلمة، وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة، فى هذه الجزيرة المنقطعة عن الجماعة فالله رأيك الأصيل ، وسعيك الجميل، ومذهبك الكريم ، وورعيك السليم، ما أصدق قلبك ، وأهدى دليلك ، وأوضح فى سبيل البر سبيلك ، وقد كنت- علم الله - جانحا إلى ما اجتمعت إليه، ويلوح لى ما يلوح إليك من أنا على صرف إلا ما كفى الله، وعلى قلة إلا ما بقى الله)(٩٧).

وإذا كانت هناك جلة من العلماء والفقهاء من أبناء الأندلس الذين عايشوا تلك الفترة، فمن المحتمل أن يكون لهم دور فى هذه الدعوة. يتضح ذلك من خلال ما ذكر عنهم فى سيرهم الذاتية، حيث ذكر أنهم اتصفوا بالعدل والنزاهة وقول الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن المستبعد أن يقف هؤلاء العلماء والفقهاء من تلك الأحداث المؤلمة التى كانت تعصف بدولتهم الإسلامية فى الأندلس موقف المتفرج، وأن يتخذوا موقفا سلبيا من هذه الأحداث دون أن يساهموا فى إصلاحها ، بما يمليه عليهم ضميرهم ومسؤوليتهم أمام الله، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(٩٨).

ولعل مشاركتهم فى تلك الدعوة كانت عن طريق الوعظ والنصح لأمراء الأندلس بالتكاتف والائتلاف ونبذ التشاحن والتطاحن وبث الفرقة فيما بينهم ، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيه الواعظ أبو محمد عبدالله ابن الفقيه أبى عبدالله عمر بن عبد البر النمرى - كما سبق وذكرناه فى موضعه- والذى جاء فى رسالة له على لسان أهالى مدينة بربشتر بعد سقوطها فى يد النصارى محذرا أمراء الطوائف من عاقبة غفلتهم وتخاذلهم مبينا لهم فضل التلاحم والترابط فيما بينهم قوله: (ولو كان شملنا منتظما ، وشعبنا ملتئما وكنا كالجوارح فى الجسد اشتباكا ، وكالأنامل واليد اشتراكا، لما طاش لنا سهم ولاسقط لنا نجم، ولا ذل لنا حزب ولا فل لنا غرب، ولا ورع لنا سرب ، ولا كدر لنا شرب، وكنا عليهم ظاهرين إلى يوم الدين، فالحذر الحذر فإنه رأس النظر، من بركان يتطاير منه شرر وملهب وطوفان تساقط منه خطر مرهب ، فلما يؤمن من هذا إحراق ومن ذلك إغراق ، فتنبهوا قبل أن تنبهوا، وقاتلوهم فى أطرافهم قبل أن يقاتلوكم فى أكنافكم، وجاهدوا فى ثغورهم قبل أن يجاهدوكم فى دوركم ففينا متعظ لمن اتعظ وعبرة لمن اعتبر)(٩٩).

كذلك تضمنت رسالته هذه دعوة أمراء الطوائف لأن يكونوا صفا واحد ضد أطماع أعدائهم النصارى، ، حيث عبر عن ذلك بقوله : (وننبئكم يا معشر المسلمين ببعض ما نبأنا من ثغورنا

عسى أن تكونوا سببا فى نصرتنا ، فالمؤمنون إخوة والمسلمون لحمة ، والمرء كثير بأخويه، وإلى أمه يلجأ اللهفان، وإلى الصوارم تقرع الأقران، والسعيد واعظ غيره، والشقى من عميت عيناه وصمت عن المواعظ أذناه). وفى فصل من رسالته هذه يحث المسلمين على الجهاد والعمل على حفظ دينهم ودولتهم من أطماع المتربصين بهم من النصارى، مبينا لهم ما حل بالإسلام والمسلمين من أذى ومهانة على يد أعدائهم النصارى قوله (وما أظنكم معشر المسلمين وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن وحلاوة الآذان، مطبقة بالشرك والبهتان مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا عن شيعة الرحمن (والأئمة والمتدينيين) والقومة والمؤذنين يجرهم الأعلاج كما تجر الذبائح إلى الذابح ، يكبون على وجوههم فى المساجد صاغرين واضرمت عليهم نار حتى صاروا رمادا، والكفر يضحك وينكى والدين ينوح ويبكى) ثم يعبر عما به من ألم وحسرة على تلك الحالة التى وصل إليها المسلمون بقوله : (فيا ويلاه ويا ذلاه، ويا كرباه، ويا قرآناه ويا محمداه ، ألا ترى ما حل بحملة القرآن وحفظة الإيمان) ثم يعود لمخاطبة المسلمين بما فيهم أمراء الطوائف حاثا إياهم على الجهاد مبينا فضله داعيا إياهم على العمل لإنقاذ الدين والدولة بقوله : (وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد فى غير ما آية من الكتاب يضيق عن نصها الكتاب إلى أن يقول : (فالله الله فى إجابة داعينا وتلبية منادينا قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزجاج، فهناك لاينفع العلاج)(١٠٠).

كذلك كان للقاضى أبوعبدالله محمد بن عتاب بن محسن(١٠١) من أهل قرطبة والذى تفقه على يديه الكثير من أبناء الأندلس دور فى هذه الدعوة، وأعرض عن دعوة ابن الأفطس وابن صمادج وابن هود للاشتغال فى دواوينهم أو تقلد القضاء فى عهدهم حيث كتب لهم ردا على دعوتهم إياه (تركت ذلك لله) (١٠٢).

ويبدو أن للفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن سلمة(١٠٣) - فقيه طليطلة- دور فى هذه الدعوة حيث يتضح من ترجمة سيرته الذاتية أنه كان منكرا لسياسة التزييف والمداهنة التى كان يسير عليها فقهاء بلده لأمراء الطوائف. وقد حدث الناس فسمعوا منه، وكان خروجه من مدينة طليطلة، بعد أن استولى عليها النصارى. كذلك من المرجح أن يكون للقاضى أبى الوليد الوقشى(١٠٤) دور فى هذه الدعوة حيث كان فى طليطلة فى أواسط القرن الخامس الهجرى، وكان موجودا فى مدينة بلنسية فى رجب سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. كذلك يرجح أن يكون للفقيه الزاهد بن أبى زندقة أبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى دور فى هذه الدعوة حيث تلقى علومه على يد القاضى أبى الوليد الباجى بسرقسطة، وأيضا على يد أبى محمد بن حزم

بإشبيلية ، ووافق الإمام القليعى قاضى غرناطة فى فتواه بخلع أمراء الطوائف ، ثم رحل إلى المشرق واشتهر بزهده فى الدنيا وقوله الحق[١٠٥].

ومن المحتمل أن يكون للقاضى الفقيه أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضى الجماعة بقرطبة دور فى هذه الدعوة إذ أنه اشتهر بتعلمه وتفقهه فى الدين، وبمحبة الناس له، واللجوء إليه فى كثير من أمورهم، وتقبل وعظه ونصحه[١٠٦] .

ويبدو أنه كانت للفقيه أبى المعالى ادريس بن يحيى بن يوسف من أهل إشبيلية ، جهود فى هذه الدعوة وذلك من خلال ترحاله إلى عدد من مدن الأندلس، واعظا للناس وداعيا إياهم إلى التشاور والألفة [١٠٧]، وقد اتخذ المسجد مركزا لنشاطه فى هذه الدعوة [١٠٨].

ولعل للقاضى أبى بكر محمد بن أحمد بن حسن بن إسحاق بن عبدالله بن جعفر من أهل قرطبة دور فى تلك الدعوة وذلك لما له من مكانة اجتماعية حيث أنه كان من بيت وزارة[١٠٩] مما جعله يحظى بتقدير أمراء الطوائف ، إضافة إلى اكتسابه مكانة مرموقة فى الدولة حيث تجلت جهوده فى الدعوة إلى إزالة الخلافات التى نشأت بين أمراء الطوائف أيام الفتنة[١١٠].

ويبدو أن للواعظ أبى عبدالله محمد بن سفيان بن إسحاق من أهل بلنسية وهو من تلاميذ الفقيه أبى بكر محمد بن أحمد بن إسحاق دور فى هذه الدعوة حيث دعا إلى التآلف والتآزر واتخذ من مسجده والذى عرف باسم (الغلبة) فى بلنسية مقرا لدعوته[١١١].

ومن الدعاة الذين لهم دور فى محاولة جمع كلمة أمراء الطوائف وتوحيد صفوفهم كان ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبى بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة وقد كلفه المعتمد بن عباد مرات عديدة بالسفر إلى أمراء الطوائف والاتصال بهم ودعوتهم إلى التآلف ونبذ الفرقة بينهم، وكذلك للتشاور معهم فى استدعاء يوسف بن تاشفين بعد أن أدرك مدى الخطر المحيط بهم من قبل ملوك النصارى [١١٢]. كذلك من الدعاة الذين لهم دور فى هذه الدعوة والذين حثوا على توحيد الصف وجمع الكلمة والجهاد فى سبيل الله الوزير الكاتب أبى محمد بن الفقيه أبى عمر بن عبد البر النمرى[١١٣] ففى فصل من رقعة كتبها ردا على رسالة وردته مستنكرا ما يحل بالمسلمين من أذى ونكد، قوله : (وتوضحت جميع تلك الأحوال التى وصفتها، والأحداث التى قصصتها ، فأكبرت وقوعها ، ثم عرفت الأيام صروفها وصدوعها وتألمت لما يجرى على المسلمين من نكد واضح، وتلف فادح) إلى أن يقول : (أما آن للنصر أن يقع، وللداء أن يشفى ؟ نظر الله لكل من واراهم مواضع الرشد من العقد والحل بمنه)[١١٤] كما عبر عن ألمه وحسرته فى أحد رسائله على لسان أهالى مدينة بربشتر عندما غزاها النصارى

وذلك عندما بلغته الأخبار بتعدى النصارى على بعض المدن الإسلامية فى الأندلس بقوله : (واتصل بنا أنه أباد الديار، فى جميع الأمصار، والمسلمون بينهم سوام ترتع ، وأموالهم نهب يوزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع، فأطال الفكرة فى هذا الحزم الداخل، والبلاء الشامل، والله المرجو لكشف الغمة وتلافى الأمة [١١٥]).

ولعل الفقيه أبى عبدالله محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصارى[١١٦] من أهل طرطوشه دور فى هذه الدعوة ، وذلك لتجواله فى أنحاء متعددة من الأندلس والعدوة ولما له من وجاهة وتقدير عند أمراء الطوائف[١١٧].

ومن المرجح أن يكون للقاضى أبى بكر بن العربى المعافرى[١١٨] دور فى هذه الدعوة إذ كان قائما على الوعظ والإرشاد لأبناء الأندلس، يتضح ذلك من خلال ما ذكره عنه النباهى بقوله : (درس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، والتزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى أوذى فى ذلك بذهاب كتبه وماله[١١٩]).

كذلك يبدو أنه كانت للقاضى محمد بن سليمان المالقى[١٢٠] مساهمة فى تلك الدعوة فقد تولى القضاء بمدينة مالقة مدة طويلة، فسار فيه بأجمل سيرة من العدل والنزاهة، وكان فى مذهبه صلبا ورعا زاهدا متفننا وأديبا. وقد روى عن أبى الوليد الباجى ومن شعره :

كان الزمان وكان الناس أشبهه فاليوم فوضى فلا دهر ولاناس

أسافل قد علت لم تعل من كرم ومشرفات الأعالى منه انكاس[١١٥]

كذلك كان للأدباء والشعراء فى عصر أمراء الطوائف دور فى هذه الدعوة إذ توفر فى عصرهم من الأدب (شعره ونثره) إنتاج فكرى يدعو إلى التوحد وجمع الصف ، ويحذر من مغبة النزاع والتناحر ، ويحث على الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصرة الإسلام فى الأندلس. أطلق على إنتاجهم إنتاج النكبات سواء المتأثر بهذه الأحداث والمتحسر عليها أو الداعى للتنبيه إلى مواطن الخطر لأخذ الحيطة وتجنب التنازع والتناحر ولاستعادة ما ضمر من الأوطان وسقط من الهيبة، وإزالة بؤس النكبة والذى يطلق عليه رثاء المدن أو الرثاء البلدانى أو الرثاء السياسى[١٢٢]، ومن الأدباء الذين ساهموا فى هذه الدعوة بإنتاجهم الفكرى الشاعر أبى حفص بن عمر بن حسن الهوزنى [١٢٣]. ومن شعره الذى يحض فيه المعتمد بن عباد على الجهاد عند ظهور الروم بشرق الأندلس بعد آلمه سقوط مدينة (بربشتر) سنة ٤٥٦هـ فى يد النورمان قوله :

أعباد جل الرزء والقوم هجع على حالة من مثلها يتوقع

فلق كتابى من فراغك ساعة وإن طال فالموصوف للطول موضع

إذا لم أبث الداء رب دوائه أضعت وأهل للملام المضيع

فاستدعاه المعتمد وقام بقتله [(١٢٤)].

ومن شعره مستنفرا أهالي الأندلس للجهاد حاثا إياهم قوله :

بيت الشعر فلايستزل طرف النوام سمع أزل

فثبوا واخشوشنوا واحزئلوا كل ما رزء سوى الدين قل[(١٢٥)]

ومن إنتاجه الفكرى زيضا والذى يبدى فيه تحسره على ما أصاب بلاد المسلمين فى الأندلس من بلاء دون أن يحرك أمراء الطوائف ساكنا لإنقاذها قوله:

يا أسفاه للدين إذ ظل نهبه بأعيننا والمسلمون شهود

إلى أن يقول :

أعيذكم أن تدهنوا فيمسكم عقاب كما ذاق العقاب ثمود[(١٢٦)]

كذلك كان للشاعر أبى خلف السميسر[(١٢٧)] دور فى هذه الدعوة وذلك عندما دعا أمراء الطوائف إلى التكاتف والتعاضد ليكونوا صفا واحدا في وجه العدو بدلا من تكاتفهم وتحالفهم مع العدو ضد بعضهم بعضا. ومن إنتاجه الفكرى الذى عبر فيه عن ألمه وحزنه لسقوط مدينة طليطلة قوله:

ناد الملوك وقل لهم ماذا الذى أحدثتم

أسلمتم الإسلام فى أيدى العدو وقعدتم

وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم

لاتنكروا شق العصا فعصى النبى شققتم[(١٢٨)]

وكان للشاعر أبى إسحاق إبراهيم بن مسعود الأبيرى من أهل غرناطة دور فى هذه الدعوة إذ كان من أهل العلم والعمل وشاعرا مبدعا، اختص شعره بالحكم والمواعظ [(١٢٩)]. ومن المرجح أن يكون للشاعر الغرناطى أبى إسحاق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسى دور فى هذه الدعوة قد يكون قائما على النصح والإرشاد وذلك لإعراضه عن أمراء الطوائف فلم ينضم إلى أحد منهم رغم استمالتهم له لاعتراضه على طريقتهم وتصرفاتهم فى الحكم[(١٣٠)].

ومن المحتمل أن عددا من شعراء الأندلس أسهموا فى هذه الدعوة بإنتاجهم الشعرى، منهم على سبيل المثال أحد شعراء الأندلس المجهولين والذى انتقد سياسة أمراء الطوائف حيث كانت تقوم على الفرقة والتشاحن وموقفهم السلبى من نصرة الدين والدفاع عن الدولة فعبر عن ذلك الوضع بقوله:

وتفـرقـوا شـيـعـا فكل مـحـلـة ... فـيـهـا أمـيـر المؤمنين ومنبـرا

وقول الوزير الفقيه أبى حفص عمر الهوزنى:

صـــرح الشـــر فـــلايســـتـــقـل ... أن نهلتم جـــاءكم بعـــد غـــل

بدء ضـــعـف الأرض نشىء وطـــل ... وريـــاح ثم غـــيـم أبـــل

قـــد رجت عـــاد ســـحـــابا يهل ... فـــإذا ريـــح دبـــور مـــحـــل

نقبـوا فـالـــداء رزء يحـــل ... واغـمـدوا سيـفا عليكم يسل[١٣٢]

أما الشاعر عبدالله بن فرج اليحصبى[١٣٣] فكانت له إسهامات عظيمة فى مجال هذه الدعوة وهو تحذير أمراء الطوائف من المخاطر المحيطة بدولتهم وخاصة بعد سقوط مدينة طليطلة فى يد النصارى، ودعوتهم إلى التآلف والتآزر فيما بينهم محذرا إياهم من مغبة تخاذلهم أمام النصارى وتشاحنهم فيما بينهم حيث يقول :

يا أهل الأندلس حثـو رحـال مطيكم ... فـمـا المقام بهـــا إلا من الغلـــط

الثـوب ينسـل من أطرافـــه وأرى ... ثوب الجـزيرة منشـورا من الوســـط

ونحن بين عـــدو لايفارقنـــا ... كيف الحياة مع الحيات فى سقط[١٣٤]

وقال شاعر آخر:

يا أهـــل أندلس ردوا المعـــار ... فـمـا العـرف عـارية إلا مـردات

ألم تروا فـيلق الكفـار فـرزنـــة ... وشاهنا آخر الأبيات شهـمـات[١٣٥]

أما الشاعر أبى الحسن بن الجد[١٣٦] فقد أنكر على أمراء الطوائف سياستهم والتى تقوم على السلبية المطلقة لدينهم ودولتهم محذرا إياهم من تلك السياسة وذلك بقوله :

أرى الملوك أصـابتـهـم بأنـــدلس ... دوائر السـوء لاتبـقى ولاتذر[١٣٧]

كذلك عبر عن ذلك الوضع المؤلم الذى كانت تمر به دولة الإسلام فى الأندلس فى ظل حكم أمراء الطوائف بقوله:

ألا رجـــلا لـــه رأى أصـــيـــل به مما نحـــاذر نســـتـــجـــيـــر

ويطعن بالقنـــا الخطـــار حـتــى يقــول الرمح من هذا الخطيــر[١٣٨]

ومن المرجح أن يكون للشاعر أبى طالب بن عبد الجبار[١٣٩] دور فى هذه الدعوة . ويتبين ذلك من خلال انتقاده وتذمره من السياسة التى كان يسير عليها أمراء الطوائف وما لاقاه أبناء هذه الدولة من ظلم ومهانة على يد النصارى من خلال حكمهم لهذه الدولة- كما سبق وأشرنا- حيث أورد ذلك بقوله :

ثم تمـــادت هذه الطوائـــف تخلفـــهم من آلهم خـــوالف

وأتت بديـــن الجـــور والعـــدول إذ سلبت عـــقـــائل العـــقـــول

وأهملوا البـــلاد والعـــبـــاد وعطلوا الشـــغـــور والجـــهـــاد

إلى أن يقول:

وزادهم فى الجـهـل والخـــذلان أن ظاهروا عـصـابة الصلبـان[١٤٠]

وشارك فى هذه الدعوة أيضا الشاعر أبو محمد بن عبدالله بن العسال الطليطلى[١٤١] وذلك بعد نكبة مدينة بربشتر (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) على يد النصارى حاثًا أمراء الطوائف على الائتلاف وجمع الصف وتوحيد الكلمة لدرء الخطر المحيط بهم[١٤٢].

كذلك من المرجح أن يكون للشاعر ابن خفاجة[١٤٣] دور فى هذه الدعوة - يتبين ذلك من القصيدة التى رثى بها مدينة بلنسية بعد سقوطها فى يد النصارى (سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) - كما سبق ذكره فى موضعه- والتى تبين مدى ألمه وحسرته على الحال التى وصلت إليها دولة الإسلام فى الأندلس فى تلك الحقبة من تاريخها ومطلعها :

عـــاثت بســـاحـتك الظبـــا يا دار ومـــحـــا مـــحـــاسنك البلى والدار

فـإذا تردد فى جنابـــك ناظـــر طال اعـتـبـار فـيك واسـتـعـبـار

أرض تقـــاذفت الخطوب بأهلهـــا وتمخـــضت بخـــرابهـــا الأقـــدار

كـتـبت يد الحدثان فى عـرصاتها لا أنت أنت ولا الديـــار ديـــار[١٤٤]

النتائج التى أسفرت عنها دعوة التوحد:

أولا: كانت أول نتائج هذه الدعوة دخول الدولة الإسلامية فى الأندلس فى عهد جديد من عهود تاريخها بفضل الله سبحانه وتعالى ثم المرابطين والموحدين من بعدهم وهو عصر الدول الكبرى[١٤٥]. حيث كان لتلك الحوادث المؤلمة التى مرت بها الدولة الإسلامية فى عهد أمراء الطوائف وخاصة سقوط مدينة طليطلة على يد الفونس السادس ملك قشتالة، أن أدرك بعض من هؤلاد الأمراء مدى فداحة الخطر الذى يهدد ممالكهم فعقدوا مؤتمرا فيما بينهم حضره معظم أمراء الطوائف بالإضافة إلى قضاة مدينة قرطبة فأسفرت نتائج ذلك المؤتمر عن تكليف المعتمد بن عباد لقاضى مدينة قرطبة عبيدالله بن أدهم[١٤٦] بمقابلة واستدعاء يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين فى المغرب غير آبه بمشورة زعماء مدينة أشبيلية وولى عهده ابنه (الرشيد) الذين أشاروا عليه بمدارات الفونس السادس والامتثال لمطالبه وتنفيذ شروطه فذلك فى نظرهم أولى من الاستنجاد بالمرابطين إذ خاطبوه بقولهم (الملك عقيم والسيفان لايجتمعان بغمد واحد) فأجابهم بقوله (رعى الجمال ولارعى الخنازير)[١٤٧] وقد شاركه التحمس لهذه الدعوة المتوكل على الله عمر بن الأفطس حاكم مدينة بطليوس والذى تجلت جهوده مبكرة فى هذه الدعوة وذلك عندما كلف القاضى أبو الوليد الباجى بمهمة دعوة أمراء الطوائف ولجمع الصف وتوحيد الكلمة ضد أعدائهم ملوك النصارى فى شمال الدولة الإسلامية فى الأندلس وعبدالله بن بلقين صاحب مدينة غرناطة ، فاستجاب يوسف بن تاشفين لتلك الدعوة ودخل الأندلس عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[١٤٨]، وكان دخوله إليه على ثلاث مراحل، المرحلة الأولى دخلها مجاهدا فى سبيل الله بناء على استنجاد المسلمين له- كما فصلناه فى موضعه- فدخل مع النصارى فى معركة حاسمة فى التاريخ الإسلامى عرف باسم موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وقد أحرز فيها الأمير يوسف بن تاشفين نصرا مؤزرا ملأ قلوب المسلمين عامة فرحا وعزة [١٤٩]، وبعدها غادر يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس عائدا إلى بلاد المغرب ، ثم دخلها للمرة الثانية عندما عاود الفونس السادس هجومه على دولة الإسلام فى الأندلس كتعويض للخسارة التى لحقت به بعد موقعة الزلاقة، أما دخول أمير المرابطين يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة فكان على أثر الأنباء التى وصلته بأن أمراء الطوائف استنجدوا بالنصارى لإنقاذهم من المرابطين وقاموا بدفع الجزية لهم من جديد كما فعل الأمير عبدالله بن بلقين حاكم مدينة غرناطة [١٥٠]، وكذلك استجابة من المراسلات والفتاوى من علماء الأندلس إلى جانب علماء المشرق لإنقاذها من أطماع النصارى وتخليصها من أمراء الطوائف [١٥١]، وكان يترأسهم فى ذلك قاضى مدينة غرناطة (ابن القليعى)[١٥٢] حيث ذهب إلى بلاد المغرب فاتصل بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأطلعه

على حقيقة الأمور وأفتى بخلع أمراء الطوائف [١٥٣]، وقد وافقه فى فتواه الإمام الغزالى[١٥٤] والقاضى أبوبكر الطرطوشى [١٥٥].

فتم بذلك دخول يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة للأندلس، فقام بخلع أمراء الطوائف وبسط نفوذه على بلاد الأندلس وإدخالها تحت طاعته ، وكان لدخول أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لبلاد الأندلس أثر كبير من الفرحة والاستبشار لدى أبناء الأندلس منهم الشاعر الأندلسى (ابن سارة الشنتريني)[١٥٦] حيث عبر عن استبشاره بدخول المرابطين إلى دولة الإسلام فى الأندلس لحمايتها من براثن النصرانية بقوله :

فى فتية بشرى إلى نصر الهدى	فنظنهم أسد الدجى أقمارها
خضبوا السواعد بالرقاق تفاؤلا	إن سوف تخضب بالنجيع أشعارها

إلى أن يقول :

لم لا تراح شريعة التقوى بهم	وجفونهم منا ترى أنصارها
ضربوا سرادق بأسهم من دونها	وقد اشرأب الكفر بهدم ديارها
فرقوا بخرصان الرماح جنابها	وحموا بقضبان الصفاح دمارها[١٥٧]

ثانيا : شكلت دولة الإسلام فى الأندلس فى عهد المرابطين وعلى يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وحدة متكاملة التأم على إثرها صدعها وجمع شملها واستعادت قوتها ومهابتها أمام أعدائها من النصارى.

ثالثا : كانت هذه الدعوة سببا فى استمرار بقاء الدولة الإسلامية فى الأندلس، حيث استمر بقاؤها منذ دخول المرابطين إليها وحتى سقوط آخر معقل من معاقل المسلمين فى الأندلس، وهى مدينة غرناطة ، فى ظل محمد بن الأحمر مدة أربعة قرون[١٥٨] تصارع القوى المسيحية الساعية لإسقاطها.

رابعا : دخلت الدولة الإسلامية فى الأندلس بفضل هذه الدعوة عهدا جديدا من النماء والتطور فى مختلف نواحى حياتها سواء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية، فى ظل حكم المرابطين لها والذى قارب خمسين عاما[١٥٩] وقد أشار إلى ذلك الإدريسى عندما تحدث عن مدينة المرية بقوله: (مدينة المرية كانت فى عهد الملثمين - ويقصد بهم المرابطين- مدينة الإسلام، وكان لها من الصناعات كل غريبة [١٦٠]. ولعل ما ذكره مؤرخو تلك الفترة دليل واضح على ما كانت تتمتع به بلاد الأندلس من أمن ورخاء فى عهد دولة المرابطين وقد

أشار إلى ذلك صاحب روض القرطاس «ابن زرع» بقوله: (وكانت أهل لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب ملكوا الأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربى المحيط ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة إلى جبال الذهب من بلاد السودان لم يجر فى عملهم طول أيامهم رسم مكروه معونة ولا خراج فى بادية وحضارة) إلى أن يقول: (وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل وأمن)[١٦١].

وأما القاضى أبوبكر بن العربى الإشبيلى[١٦٢] فقد ذكرهم بقوله (المرابطون قاموا بدعوة الحق، ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين ، الذابّون والمجاهدون دونهم[١٦٣]. مبينا بذلك دورهم فى حماية الدين والدولة . كما ذكر عنهم صاحب الحلل الموشية عندما تحدث عن يوسف بن تاشفين قوله (إذ قامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة وجميلة فى رفاهية وعيش على أحسن حال)[١٦٤].

خامسا: استعادت الدولة الإسلامية فى الأندلس قوتها العسكرية فى ظل المرابطين مما أكسبها مهابة وقوة أمام أعدائها النصارى، فلقد كان للناحية العسكرية نصيب الأسد من الاهتمام والعناية من قبل أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين حيث ظهر اهتمامه بالناحية العسكرية واضحا فى تنظيماته للدولة، وقد استفاد المسلمون من تلك القوة العسكرية بخوض عدة معارك مع النصارى تمكن المسلمون على أثرها من استعادة المدن والحصون التى استولى عليها أعداؤهم النصارى فى عهد أمراء الطوائف ، كما استخدمت تلك القوة فى الحد من أطماع النصارى فى دولة الإسلام فى الأندلس. وقد أشار إلى تلك الناحية ابن الخطيب نقلا عن الصيرفى[١٦٥] فى كتابه الذى فقد والذى بعنوان (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية) عندما تحدث عن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين بقوله : (كان بطلا شجاعا ، حسن الركبة والهيئة، سالكا ناموس الشريعة) إلى أن يقول مبينا جهوده في الناحية العسكرية (وبذلك حمل على الخيل وقلد الأسلحة، وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة وأركبهم ، وأقام همتهم للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب، ففتح الحصون ، وهزم الجيوش، وهابه العدو)[١٦٦].

سادسا: ارتفعت الروح المعنوية لدى رعايا الدول الإسلامية فى الأندلس وذلك بفضل الله ثم ما حققه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من انتصارات باهرة على النصارى. وقد ذكر المقرى جهوده فى ذلك بقوله : (وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين فما قصر فيما آثار من إذلال المشركين وإرغام الكافرين واستدراك أمور المسلمين) [١٦٧].

الهوامش

١- أبو محمد علي بن حزم / الرد على ابن النغريلة اليهودي ، تحقيق إحسان عباس، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) ص١٣٩ ، ١٨٥ ، نقطة العروس، المنشورة بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة في عدد ديسمبر (١٩٥١م) المجلد الثالث عشر الجزء الثاني. أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب ليبيا ، تونس (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ق٤ م٢، ص١٢٩-١٣٠ ابن عذارى المراكشي/ البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، نشر ليفي بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت لبنان (ب.ط) ج٣ ص٤٣ وما بعدها. ابن الأبار أبو عبدالله القضاعي/ الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة (١٩٦٣م) ج٢ ص٤٦ ، ابن الكردبوس التوزري أبو مروان / الاكتفاء في أخبار الخلفاء نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد (١٩٧١م) ص٧٧ .

٢- الدولة العامرية : نسبة إلى الوزير محمد بن أبي عامر، من أسرة يمنية، كان جده عبدالملك المعافري من رجالات العرب الذين اشتركوا في جيوش طارق بن زياد وأبدى شجاعة في القتال للاستيلاء على قرطاجنة ، نشأ محمد بن أبي عامر ظاهر النجابة والذكاء، أسند إليه الخليفة الحكم المستنصر بالله مهمة الوصاية على ابنه هشام، فاستغل محمد بن أبي عامر ظاهرة صغر سن هشام وضعفه فاستقل بأمر الدولة، وأسس الدولة العامرية بعد أن قضى على خصومه، استمرت الدولة العامرية ما يقارب من ثلاث وثلاثون عامًا ثم سقطت في عهد ابنه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (شنجول) وكان ذلك سنة ٣٩٩هـ بعد أن قتل على يد محمد بن هشام بن عبد الجبار. ابن الخطيب ، لسان الدين / أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط (١٩٣٤م) ج٢ ص٥٨، ابن بسام. الذخيرة م١ ق٤ ص٤٥ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج٢ ص٣٩٦، الفتح بن خاقان/ كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في صلح أهل الأندلس قسطنطينية (١٣٠٢هـ) ص٤ عبد الرحمن علي الحجي / التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م، دار القلم، دمشق بيروت، الطبعة الأولى (١٣٦٩هـ / ١٩٧٦م) ص٣٠٦ لسان الدين ابن الخطيب / الإحاطة في أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان/ مكتبة الخانجي / القاهرة م٢ ص١٠١ .

٣- ابن عذارى / البيان المغرب ج٣ ص٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ابن الخطيب، أعمال الإعلام ج٢ ص٩٠ ، ٩١، ١٠٧، المقري أحمد بن محمد / نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، تحقيق محمد محي الدين، عشرة أجزاء، القاهرة (١٩٤٩م) ج١ ص٤٠١ .

٤- نسبة إلى البشكنس Vascos - وهم سكان مملكة نبفار فى أقصى شمال أسبانيا. أحمد مختار العبادى/ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع (ب.ط) ص٣٠ جغرافية الأندلس وأوربا مأخوذة من كتاب المسالك والممالك للبكرى، تحقيق عبد الرحمن الحجى، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٣٨١هـ/ ١٩٦٨م) ص٦٩ .

٥- ابن عذارى / البيان المغرب ج٣ ص٤٢ ، ٤٤ ، ابن الخطيب/ أعمال الإعلام ج٢ ص٩٠ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، المقرى / نفح الطيب ج١ ص٤٠١ .

٦- ابن عذارى / البيان المغرب ج٣ ص٥٢ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٢٦ ، ١٢٧ ، عبد العزيز سالم/ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ص٣٤٧ ، ٣٥٧ .

٧- ابن سعيد المغربى (على بن موسى / المغرب فى حلى المغرب) جزآن، تحقيق شوقى ضيف، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة (١٩٥٣م) ج١ ص٥٥، المقرى/ نفح الطيب، ج١ ص٤١٣، محمد عبدالله عنان/ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى، مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ص١٣ .

٨- ابن حيان (أبو مروان بن خلف) كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس/ تحقيق محمد على مكى، القاهرة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ج٣ ص٢٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ج٢ ص١٣٨ ، ١٤٧ ، ٢٤٥، المقرى/ نفح الطيب ج١ ص٢٨٢، ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص١١٦، ١١٧، عنان / دول الطوائف ص٢٠، حسين مؤنس / معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة (١٩٩٢م) ص٤١٥، ابن حزم (أبومحمد على بن أحمد) الفكر الفيلسوفى فى المغرب والأندلس (نقلاً عن مؤلف مجهول لكتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية) نشر سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الدار البيضاء (١٩٧٩م) ص٤٥ .

٩- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٦٣٨، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ج٢ ص١٣٩، ١٤٧ ، ابن عذارى/ البيان المغرب، ج٣ ص١٥٢ .

١٠- ابن حيان / المقتبس ص٢٥، المقرى/ نفح الطيب م١ ص٤٢٠ وما بعدها ، محمد عبدالله عنان/ مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الرابعة، مؤسسة الخانجى القاهرة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) ص٢٦٥ .

١١- بني جهور : بيت من بيوت الوزراء ، وهم من ملوك الطوائف بالأندلس تولوا على قرطبة نحو نصف قرن من الزمان خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) ، ينسبون إلى جهور بن محمد بن جهور بن عبدالملك، كان جده (بخت بن عبدة) من الفرس ومولى لعبد الملك بن مروان ، وقد دخلت أسرة بن جهور إلى الأندلس في عهده، وكان ابن حزم بن جهور وزيراً للخليفة هشام الثالث آخر خلفاء بني أمية، وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) نجح في إنشاء دولته في قرطبة . ابن عذاري / البيان المغرب م٣ ص١٨٦ ، المقري / نفح الطيب م١ ص٤٢١ ، ٢٥٥ أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، م٣ ص٦٥٠، ابن بسام (نقلاً عن ابن حيان) الذخيرة ق١ م٢ ص٦٠٢ ، ٦٠٣ .

١٢- بنو عباد : أحد فروع اليمنيين ، من قبيلة لخم، قامت دولتهم في مدينة أشبيلية في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) وانتهت دولتهم على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما دخل الأندلس لتخليصها من أمراء الطوائف ، للمزيد من تاريخ هذه الأسرة ينظر ابن عذاري / البيان المغرب م٣ ص٢٠٤ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص١٣ ، ٤١ ، ٤٩ ، المقري / نفح الطيب م١ ص٤٢١ . عنان / دول الطوائف ص٥٩ وما بعدها ، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي م٥ ص٥٠ .

١٣- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص١١،١٣ ، ابن عذاري/ البيان المغرب م٣ ص٢٠٤، المقري / نفح الطيب م١ ص٤٢١ ، عنان / دول الطوائف ص٥٩ ، الحجي / التاريخ الأندلسي ص٣٢٥ .

١٤- بنو ذي النون: أصلهم من البربر ، كانوا في خدمة الدولة العامرية ، ينسبون إلى جدهم (زنون) الذي تصحف اسمه بطول المدة فصار (ذو النون) ، شاع ذكرهم في دولة ابن أبي عامر حيث تولوا مناصب عالية، دعا أهالي طليطلة ابن (ذي النون) ، لتولي أمرهم بعد أن قاموا بخلع حاكمها عبد الملك بن عبد الرحمن بن منود. ابن عذاري/ البيان المغرب م٣ ص٢٧٦ ، المقري/ نفح الطيب م١ ص٤٢٢ / ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٦٨ .

١٥- طليطلة : معنى طليطلة باللطيني (تولاند) ومعناها فرح ساكنوها ، وهي قاعدة القوط ودار مملكتها تقع وسط شبه الجزيرة الإيبرية يحيط بها نهر تاجه من ثلاث جهات تمتاز بموقعها الحصين وخصوبة أراضيها ، ابن القوطية القرطبي/ تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة دار المعارف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م) ص٦٢ .الحميري (محمد عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس، بيروت، الطبعة الأولى(١٣٩٥هـ١٩٧٥/م)

ص٣٩٣ لحموى / شهاب الدين بن عبدالله ياقوت / معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) ج٤ ص٤٠ .

١٦- بربر هوارة : من بطون البرانس البربرية، ينسبون إلى هوارة بن أوريغ بن برنس كانت مواطن سكناهم بنواحى طرابلس وما يليها من برقة . للتفصيل ينظر تاريخها فى ابن خلدون / عبد الرحمن / تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية / بيروت ، لبنان / الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) ج٦ ص١٦٣ وما بعدها .

١٧- بنو الأفطس : ينسبون إلى أبومحمد عبدالله ابن مسلمة المعروف بابن الأفطس وينتمى بنو الأفطس إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية ، قامت دولتهم فى مدينة بطليوس من الأندلس وانتهت على يد أمير المرابطين يوسف ابن تاشفين عندما دخل الأندلس لتخليصها من ملوك الطوائف والدفاع عنها ضد الممالك النصرانية . ينظر تاريخ هذه الأسرة فى ابن الخطيب / أعمال الأعلام ، ج٢ ص١٨٣ ، ابن الآبار الحلة السيراء ج٢ ص٩٧ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٣٧ ، المقرى/ نفح الطيب ج١ ص٤٢٤ .

١٨- بربر مكناسة : موطن سكناهم على وادى ملوية من لدن أعلاه سحلياسة إلى مصبه فى البحر، وما بين ذلك من نواحى تازا أو تسول، كانت رئاستهم فى بنى أبى يزول واسمه مجدول بن تاتريس بن مكناس، وقد أجاز منهم إلى العدوة عند الفتح أمم كثيرة ، كانت لهم بالأندلس رئاسة وكثرة. ابن خلدون / العبر ج٦ ص١٥٤ .

١٩- بطليوس : تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى . ليفى بروفنسال / صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتابة الروض المعطار فى خبر الأقطار) أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميرى / تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧م) ص٤٦ ، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق لأبى عبدالله محمد بن عبدالله الإدريسى) تحقيق دوزى ودى خوية امستردام (هولندا) طبعة مصورة (١٩٦٩م) ص٧٢ .

٢٠- بنو هود : من أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن ، حكموا مدينة بطليوس وما ألبها فى عهد ملوك الطوائف ، المقرى/ نفح الطيب م١ ص٤٢٣، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٧٠ ، ابن الأبار / الحلة السيرة ج٢ ص١٤٧، عنان / دول الطوائف ص٢٦١ .

٢١- سرقسطة : تقع شرق الأندلس، وقاعدة من قواعدها ، كبيرة القطر، آهلة بالسكان ، حسنة الديار والمساكن ؛ تعرف بالمدينة البيضاء، لكثرة جصها وجيارها ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب

(المسالك والممالك لأبي عبيدة البكري) تحقيق عبد الرحمن الحجى الطبعة الأولى، بيروت (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م) ص٩٨ .

٢٢- بنو زيرى: أسرة بربرية تولت جزء من بلاد البربر الشرقية فى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى أواسط القرن السادس هجرى (الثانى عشر الميلادى) وقد استقرت بهم الحياة فى المغرب الأوسط. دائرة المعارف الإسلامية ، انتشارات جهانة تهران بوذر حميرى نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندى وأحمد بشناوى وآخرون ب.ط. ج١١ ص٢١ ، عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيرى/ التبيان والمنشور تحت عنوان (مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة) تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٥٥م) ص١٧ ، ابن خلدون / العبر ج٦ ص١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

٢٣- غرناطة : قاعدة الأندلس وعروس مدنها، يخترقها نهر شنيل وعدد من الأنهار، تمتاز بكثرة بساتينها وجنانها. المقرى/ نفح الطيب م٤ ص٢٦٧ ، ابن خلدون / نقدمة ابن خلدون ، تحقيق عبد الواحد الوافى، الطبعة الأولى (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) ص٣٠٨ . الحموى / معجم البلدان ج٤ ص١٩٥، الحميرى/ الروض المعطار ص٣٨٥ .

٢٤- الصقالبة : يعرفون أيضًا باسم (السلاف) وهم شعوب منحدرة من أصول شتى والتى كانت تنزل الأرض المجاورة بين القسطنطينية وأرض البلغار، وصقالبة الأندلس اسم لجنس يطلق على الحرس الأميرى الخاص بخلفاء قرطبة الأمويين، تولى عدد منهم المناصب الإدارية الرفيعة فى عهد عبد الرحمن الثالث. دائرة المعارف الإسلامية، م١٤ ص٢٥١ أحمد عطية الله/ القاموس الإسلامى، م٤ ص٢٩٨ .

٢٥- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م٢ ص١٥٢، ٢٢٦، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص٩ . ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص١٥٨ ، ١٦١ ، ابن خلدون / العبر م٤ ص١٨٧ . العبادى/ أحمد مختار، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص٩٤ ، ٩٥ .

٢٦- اختلفت المصادر التاريخية حول عدد دول الطوائف ، فبعض منها ذكر أنها خمسين دولة وبعضها ذكر أنها عشرون دولة. ينظر محى الدين عبد الواحد المراكشى / المعجب فى تلخيص أخبار المغرب تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمى، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة التراث الإسلامى، الطبعة الثانية، القاهرة (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) ص٧٠، ابن كرديوس التوزرى (أبومروان عبد الملك) الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، على حبيبة / مع المسلمين فى الأندلس ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ص١٤٣ .

٢٧- عبدالله عنان/ دول الطوائف ص١٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٢٦ .

٢٨- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٤ ، أبو الحسن على بن عبد الملك بن سعيد الأندلسى / رايات المبرزين ، غرناطة (٦١٠هـ) - تونس (٦٨٥هـ) تحقيق غرسية غومس ، مدريد (١٩٤٢م) ص١٠١ ، عبد العزيز سالم / تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٢٤٣ .

٢٩- الحسن بن رشيق القيروانى ، أبو على ، أديب وباحث ، ولد فى المسيلة بالمغرب وتعلم الصياغة ثم مال إلى الأدب وقول الشعر، ابن خلكان / وفيات الأعيان ج١ ص١٣٣ / مؤلف مجهول / الحلل السندسية، عفيف الحبيب الهيلة، الأعلام / خير الدين الزرقلى ج٢ ص١٩١ . كما صور ذلك الوضع الأديب أبى طالب بن عبد الجبار بقوله : لما رأى أعلام مصر قرطبة أن الأمور عندهم مضطربة وعدمت شاكلة للطاعة استعملت آرائها الجماعة / الذخيرة ق١ م٢ ص٩١٦ .

٣٠- ابن سعيد / رايات المبرزين ج٣ ص١٩٩ ، ٢٠٠ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام / م٢ ص١٥٤ ، ابن حزم / رسالة نقط العروس ص٨٣ ، ٨٤ .

٣١- ابن الخطيب (نقلاً عن ابن حزم) أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٢ ، ١٤٣ ، عبد الحليم عويس/ ابن حزم الأندلسى وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى / دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، (ب.ط) ص٢٥٦ .

٣٢- ابن بسام / الذخيرة ، ق٤ م١ ص١٢ ، ١٣٠ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٨١ عبدالله بن بلقين / التبيان ص١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٨٨، المقرى / نفح الطيب ج١ ص٤٣٨ ، عنان/ دول الطوائف ص٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ابن الخطيب / لسـان الدين/ الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان ذخائر العرب رقم (١٧) مكتبة الخانجى، القاهرة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) م٢ ص١١٠ . يوسف أشباخ / تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة وعلق عليه محمد عنان / مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ج١ ص٣٨، سلامة الهرفى / دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، دراسة حضارية وسياسية، دار الندوة الجديدة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص٤٥ . صلاح خالص / إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان سنة (١٩٦٥م) ص٢٣ ، ٢٤ .

٣٣- أبوبكر بن سليمان الكلاعى الإشبيلى يعرف بابن القصيرة كان كاتبًا بارع الخط، كان من المتفننين بالعلوم، انتدبه المعتمد بن عباد كرسول من قبله إلى ملوك الطوائف، ابن بشكوال / أبى القاسم خلف بن عبدالملك / كتاب الصلة / الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (١٩٦٦م) ق٢

ص١٠٤ . ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٣٩ ، ابن عذارى. المغرب م١ ص٣٥٠ ، المقرى/ النفح ج٤ ص٣٦١ ، ٣٦٥ ، ابن الخطيب/ الإحاطة م٢ ص٥١٦ .

٣٤- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٤٨ .

٣٥- حصن قبرة : مدينة قبرة Cabra تقع فى الجنوب الشرقى من قرطبة وبها يقع ذلك الحصن. الحميرى/ الروض ص١٤٩ ، ابن الأبار / الحلة السيراء م٢ ص٣٦٥ .

٣٦- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزرى) الكامل فى التاريخ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ، لبنان (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ج٧ ص٤٥٤ ، ابن بلقين / التبيان ص٦٩، عنان / دول الطوائف ص١٤٣ ، على حبيبة / مع المسلمين فى الأندلس، ص١٤٣ ، ومدينة جيان، مدينة بالأندلس كثيرة الخصب ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية، وتقع على سفح جبل عال، وقصبتها من القصبات الموصوفة بالحصانة ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار/ تحقيق ليفى بروفنسال، ص١٥٩ .

٣٧- ابن عمار : هو أبوبكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى ولد سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، أصله من قرية من أرباض شلب تسمى (شنوس) ، من أسرة متواضعة ، تلقى تعليمه فى مدينة شلب ثم أكملها فى قرطبة ، كان من أشهر وزراء المعتمد بن عباد ، ذو مكانة عنده وحظوة، وبقى يعمل لديه أعوامًا ولكنه نكب على يد المعتمد بتحريض من زوجة المعتمد (اعتماد الرميكية) ٤٧٧هـ ، وخصومه، ابن الأبار/ الحلة السيراء ج٢ ص١٥٠، ١٥١، ابن الخطيب/ أعمال الأعلام ج٢ ص١٦٠، ١٦١، ابن بلقين / التبيان ص٨١ . عنان/ دول الطوائف ص٦٦ . محمد عنان / تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية، القاهرة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ص٢٨٢ وما بعدها.

٣٨- ابن خلدون / العبر ج٤ ص١٨٥ ، القلقشندى أبو العباس أحمد، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، تحقيق وتحليل عبداللطيف حمزة ، المكتبة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (ب.ط) ص٢٤٨ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ ج١ ص٣٣، ٣٤ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص١٢٠ ، سعيد البشرى، الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس/ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص٩٢، عنان / دول الطوائف ص٧٣ ، يوسف أشباخ/ تاريخ الأندلس ص٢٨ ، ٥٥ ، ٦٠ ، حسين مؤنس/ معالم تاريخ المغرب والأندلس/ دار الرشاد، القاهرة (١٩٩٦م) ص٤١٦ .

٣٩- ينظر على سبيل المثال لا الحصر ابن بسام / الذخيرة (نقلاً عن ابن حيان) ق٤ م٢ ص٧٣٣، ق١ م١ ص٢٧٢ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٠٢ ، ابن حزم / رسائل ابن حزم الأندلسى، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى (١٩٨١م) ج٢ ص١٧٦، ابن الخطيب / أعمال الإعلام ج٣ ص١٤٩ .

٤٠- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م٢ ص٢٤١ / دول الطوائف ص٢٤٨ ، ٢٥٠ .

٤١- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م٢ ص٢٤١ .

٤٢- ابن حزم الأندلسى/ أبومحمد على بن أحمد بن سعيد، التلخيص لوجوه التخليص ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) ص١٧٥ ، عنان / دول الطوائف ص٤٢٠ .

٤٣- أبى عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر، كان من أوائل كتاب عصره علمًا ومعرفة ، أصله من قرطبة ، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٧٦٦ رقم الترجمة ١٥٠١، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٣٤ ، ابن حيان / المقتبس ص١٦٨ رقم الترجمة (٥٥٦) ، المقرى / نفح الطيب ٣عن رسالة ابن حزم فى ذكر علماء الأندلس) ج٢ ص١٣١ .

٤٤- ابن عبد البر/ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن الهاجس / تحقيق محمد مرسى الخولى، دار الكتب العلمية. بيروت ، لبنان ب.ط م١ ق١ ص٤٥٧ .

٤٥- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) ٣٧٨هـ- ٤٦٩هـ/ ٩٨٨-١٠٧٦م، من أوائل المؤرخين الأندلسيين ومن أشهر مؤلفاته المقتبس فى أخبار بلد الأندلس فى عشر مجلدات وكتاب (المتين) فى ستين مجلداً، من أهل قرطبة ، ذكره ابن بسام بقوله (كان سهمًا لاينمى رميه ، وبحراً لاينُكش أذيه)، كما ذكر ابن خلكان أن أبو على الغسانى قد ذكره بقوله (كان عالى السنى، قوى المعرفة ، متبحراً فى الآداب بارعًا فيها، توفى تسع وستين وأربعمائة. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد محمد بن أبى بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ تحقيق احسان عباس / دار الثقافة ، بيروت، لبنان (١٩٦٨م) ج٥ ص٢١٨ . ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٥٧٤ . موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين / حققها وراجعها بول غليونجى ، جلال شوقى، حسين مؤنس وآخرون، مكتبة المعارف/ بيروت (ب.ط) ص٨١ ، عنان / تراجم إسلامية شرقية واندلسية ص٢٧٢ .

٤٦- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٥٧٨ .

٤٧- المصدر السابق ق١ م٢ ص٥٧٦ .

٤٨- هو أبوطالب بن عبد الجبار يعرف بالمتنبى الأندلسى، من أهل جزيرة شقر، عاش فى حدود (٤١٩هـ/ ١٠٢٦م) . عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر / المختصر فى أخبار البشر المسمى (تاريخ أبوالفدا) أربعة أجزاء فى مجلدين ، بيروت (١٩٦٨م) دار المعرفة والنشر ، بيروت م١ ج٤ ص١٢٠، ابن الخطيب / أعمال الأعلام، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت (١٩٥٦م) م٢ ص١٤٩ . مجلة الأندلس الأسبانية ، المجلد الرابع، القسم الأول، غرناطة (١٩٥٠) ابن بسام / الذخيرة ق١م٢ ص٩١٦ .

٤٩- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٩٤٢ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٨ ، ٢٩ .

٥٠- ابن حزم / رسالة التلخيص ص١٥٧ ، ابن بسام/ الذخيرة ق١ م١ ص١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤ . يبدو أن شرب الخمر وبيعه فى الأسواق فى فترة حكم ملوك الطوائف أمراً لامنكر عليه ولاغرابة فيه، وهذا ما ذكره مؤرخ ذلك العصر ابن حزم ، تنظر رسائل ابن حزم / تحقيق احسان عباس ص١٧٤ ، المقرى/ نفح الطيب ج٤ ص١٩٩، ابن سعيد/ المغرب ج١ ص٧٦٩، ابن عبدون أحمد التجيبى/ رسالة فى القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسبة) نشر ليفى بروفنسال المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة (١٩٥٥م) ص١٣ . والمكوس: دراهم تؤخذ على بائعى السلع فى الأسواق فى الجاهلية. طاهر أحمد الزاوى/ ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الكتب العلمية (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) مادة مكس ج٤ص٢٧٢ .

٥١- ابن حزم ، المرجع السابق، ص١٣٨ .

٥٢- أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السفر للسلفى) تحقيق احسان عباس، دار الثقافة / بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص٩٢ .

٥٣- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف) النمرى القرطبى/ القصد والأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم / المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة (١٩٧٢م). وخولا : الخول هم العبيد والأماء وغيرهم من الحاشية. الزاوى/ ترتيب القاموس المحيط ج٢ ص١٢٩ .

٥٤- ابن بسام/ الذخيرة ق٢ م١ ص٢٥٢ ، والعنذاق تعنى البيان أو براءة ضمن رسالة أو وثيقة . رينهارت دوزى ، تكملة المعاجم العربية نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمى، دار الرشيد للنشر م٧ ص٢٦٨ .

٥٥- المقرى/ نفح الطيب ج٦ ص٢٣٥ .

٥٦- أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدى، الإعلام بنوازل الأحكام المعروفة بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد التويجرى، الطبعة الأولى، القاهرة (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

٥٧- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٨٠ ، المقرى / نفح الطيب ج٦ ص٢٤٣، ابن الأبار / الحلة السيراء، ج٢ ص٤٦، آنخل جنثالث / تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة (١٩٥٥م) ص٧٧ ، ٧٨ ، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس تحقيق أحمد العبادى ص٧٧، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٤، المقرى ، التلمسانى شهاب الدين أحمد بن محمد / أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض/ تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى، القاهرة (١٣٣٩هـ / ١٩٤٢م) ج١ ص٦٠ ومما يدل على حالة الاستخفاف بهؤلاء الأمراء والازدراء بهم من قبل ملوك النصارى ما قاله ألفونس السادس ملك قشتالة عنهم عندما قابل سفير المعتمد بن عباد إليه وهو يهودى ويدعى بابن مشعل حيث خاطبه بقوله «كيف أترك قومًا مجانين تسمى كل منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون وكل واحد منهم لايسل فى الذب عن نفسه سيفًا ولايرفع عن رعيته ضيمًا ولاحيفا، وقد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحداً وأن يدعها بين أيديهم سداً «ينظر دول الطوائف/ محمد عنان ص٧٤ . والسيد القيبيادور (الكمبيادور) فارس قشتالى اسمه الأصلى رودريجور لقب بالسيد من قبل المسلمين الذى كان يخدم بينهم ويحارب معهم، ووصفه بالكمبيادور معناها المحارب الباسل لشجاعته وحبه للقتال. المقرى/ نفح الطيب ج٢ ص٥٧٧ ، ابن الأبار/ الحلة السيراء ص١٠٧ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٠٣ / ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٣٠٥ ، ويذكر ابن عذارى أن كلمة (الكمبيدور) معناها صاحب الفحص ، عنان / دول الطوائف ص٣٣٢، ٣٣٣ .

٥٨- محمد عنان / مواقف حاسمة فى التاريخ الإسلامى ص٢٤٨ ، ٢٦٦، عنان/ دول الطوائف ص١٤ .

٥٩- بربشتر : بالأسبانية Babastro بلدة حصينة تقع فى شمال غرب مالقة وعلى مقربة من شمال شرق رندة، وكانت أيام الفتنة الكبرى من معاقل زعيم ثورة الجنوب ابن حفصون . ابن الخطيب / الإحاطة م٣ ص٧٩ ، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٨١ وما بعدها، عنان/ دول الطوائف ص٢٧٨، ٢٧٩ . ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٢٢٥ الحجى ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب «المسالك والممالك» لأبى عبيدة البكرى ص٩٢ وقد وردت فى بعض المصادر باسم (ببشتر) .

٦٠- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٥٧ وما بعدها ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٣٥٩ .

٦١- المرجع السابق ق٣ م١ ص١٨٨ .

٦٢- المرجع السابق ق٣ م١ ص١٧٩ وما بعدها ، المقرى/ نفح الطيب م٦ ص٢٤٤ .

٦٣- المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ابن بسام / الذخيرة ق٤ م١ ص١٢٩ ، ابن خلدون / العبر ج٤ ص١٦١ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٨١ .

٦٤- قشتالة : كستلا بالأسبانية مملكة قديمة بشمال ووسط أسبانيا، تنقسم تقليديًا إلى منطقتين ، قشتالة القديمة وتقع فى الشمال وقشتالة الجديدة وتقع فى الجنوب، وتشمل قشتالة معظم هضبة أسبانيا الوسطى العالية الجافة ، كانت قشتالة القديمة مقاطعة من مملكة (ليون) وبحلول القرن العاشر الميلادى أصبحت مستقلة عنها، الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر صورة طبق الأصل من طبعة (١٩٦٥م) ص١٣٨١ .

٦٥- ابن حيان / المقتبس ص١٨ ، ابن الأثير / الكامل فى التاريخ ص١٢٠ ، المقرى / نفح الطيب م١ ص٤٢٣ ، ج٦ ص٨٤ ، ابن الكردبوس / كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ص١٥٧ ، عبد المجيد نعنعى/ الإسلام فى طليطلة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت (ب.ط) ص٣٠٣، محمد عنان تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية / مكتبة الخانجى ، القاهرة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ص٢٧١ .

٦٦- ابن بسام / الذخيرة ق٤ م١ ص١٦٣ .

٦٧- المرجع السابق ق٢ م١ ص٢٥٣، ٢٥٤ ، وأبوبكر محمد بن سليمان الكلاعى تنظر ترجمة فى حاشية ٣٣، ابن سعيد / الغرب ج١ ص٣٥٠ ، ابن الخطيب / الإحاطة ج٢ ص٥١٦ .

٦٨- ابن العسال : هو عبدالله بن فرج بن عسلون اليحصبى، يعرف بابن العسال يكنى أبومحمد ، طليطلى الأصل، سكن غرناطة ، واستوطنها سنة ٤٨٧هـ، ابن الخطيب/ الإحاطة م٣ ص٤٦٣ ، أخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى، تحقيق إحسان عباس ص٧١ ، ابن الخطيب/ الإحاطة م٣ ص٤٦٣ . ابن بشكوال / الصلة م١ ص٢٨٥ ترجمة رقم (٦٢٩) .

٦٩- ابن سعيد / المغرب ج٣ ص٢١ ، ابن بسام/ الذخيرة ق٢ م١ ص١٥٩ ، ويروى الصدر الثالث من البيت بهذا الشكل.

من جاور الشر لايأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيات فى سقط

المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٣١ ، ابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق احسان عباس / ج٥ ص٢٧ ، ٢٨ .

٧٠- المقرى / نفح الطيب ج٤ ص٤٨٣ ، ٤٨٦ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٥١ .

٧١- الفرزان من لعب الشطرنج أعجمي معرب وجمعه فرازين ، وكذلك البيدق والشاه قطع من قطع لعب الشطرنج ، والشهمات ، كلمة من مصطلح اللآعبين يعبرون بها عن انتهاء الدور بمعنى مات الشاه ، ابن منظور/ لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط م٢ ص١٠٧١ ، المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٣١ .

٧٢- المقرى / نفح الطيب ج٤ ص٢٧٥ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٣٥١ .

٧٣- بلنسية : تقع فى شرق الأندلس ، قاعدة من قواعد الأندلس، استولى عليها الروم قديما وأحرقوها بعد خروجهم منها سنة ٤٩٥هـ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب (الروض المعطار للحميرى) تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧م) ص٤٧ ، دائرة المعارف الإسلامية، م٤ ص١١٩ ، ١٢١،١٢٠ .

٧٤- ابن خفاجة : أبو اسحاق إبراهيم ابن أبى الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسى من الشعراء الزاهدين فى عهد ملوك الطوائف ، ولما دخل المرابطون الأندلس، تخلى عن عزلته وشارك فى مدح أمراء الملثمين، إحسان عباس/ تاريخ الأدب الأندلسى فى عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الثقافة ، الطبعة السادسة، بيروت (١٩٨١م) ص٨٨ . ابن خلكان / وفيات الأعيان ، ج١ ص٥٦ ترجمة رقم ١٧ ، ابن بسام / الذخيرة ق٣ م٢ ص١٧٣ ، ابن الخطيب / الإحاطة ص٤٣٩، ٤٤٠ .

٧٥- المقرى / نفح الطيب ج٤ ص٤٤٥ .

٧٦- ابن الأثير / الكامل فى التاريخ ج٨ ص٤٣٩ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٤٨ ، ٢٤٩ ، عنان/ دول الطوائف ص٧٥ .

٧٧- ابن بسام / الذخيرة ق٢ ج١ ص٢٥٣ ، السلاوى أحمد بن خالد الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد أبناء خالد الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء (١٩٥٤م) ص٣٨،٣٧ ، عنان / دول الطوائف ص٧٣ وما بعدها ، سعد البشرى، الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس ص٧٢ ، الحجى، التاريخ الأندلسى، ص٣٤٥ .

٧٨- الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيله ، تونس (١٩٧٠م) ج ٢ ق١ ص١٩٤، الذخيرة / ابن بسام ق٣ م١ ص١٧٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ، ص٣٣٦ وما بعدها.

٧٩- ابن بسام/ الذخيرة ق٣ م١ ص١٧٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٣٦ وما بعدها .

٨٠- أبو الوليد الباجي : هو سليمان بن خلف بن سعيد التجيبي الباجي، أحد أقطاب المذهب المالكي،

ولد فى مدينة بطليوس درس فى قرطبة ، وأتم دراسته فى بلاد المشرق مكة وبغداد توفى ٤٧٤هـ/ ١٨٠١م أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى/ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة (١٩٦٧م) ص٢٢٠ . ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد) الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة ص١٢٠ .

٨١- المقرى : نفح الطيب ج٢ ص٧٦ ، ابن فرحون / الديباج المذهب ص١٢٠ ، ابن بشكوال/ الصلة ج١ ص٢٠١ ، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٩٤ ، ٩٧ الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤٢ .

٨٢- بلنسية . تنظر حاشية ٧٣ .

٨٣- مرسية : مدينة تقع شرق الأندلس شمال مدينة المرية، اختطها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن معاوية ، وهى ذات أشجار وحدائق محيطة بها. الحموى / معجم البلدان ج٥ ص١٠٦ ، الحميرى/ الروض المعطار ص٦٢ ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيدة البكرى، تحقيق عبد الرحمن الحجى ص١٢٧ .

٨٤- دانية : قصبة الناحية الشمالية الشرقية من كورة القنت الأسبانية ، وهذه الكورة أبعد المقاطعات الأسبانية الحديثة، وكانت تتألف من هذه المقاطعات مملكة بلنسية القديمة، وتقع فى الطريق الجنوبى الشرقى من خليج بلنسية ، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) لأبى عبدالله بن محمد بن إدريس ، الإدريسى / تحقيق دوزى ودى خوية / أمستردام (هولاندا) طبعة مصورة (١٩٦٩م) ص١٩٢ ، الحموى/ معجم البلدان ج٢ ص٥٤٠، دائرة المعارف الإسلامية م٩ ص١٢٠ .

٨٥- عياض / ترتيب المدارك ق٣ م٤ ص٨٠٨ .

٨٦- الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤١ .

٨٧- عياض / ترتيب المدارك ق٣ م٤ ص٨٠٢ / ٨٠٨ .

٨٨- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص١٨٠ / ١٨١ .

٨٩- المنتزين عليهم: الحاملين عليهم والمفسدين عليهم. ابن منظور / لسان العرب مادة نزأ م٣ ص٦١٤ ، أحمد الزاوى / ترتيب القاموس المحيط ، مادة (نزأ) ج٤ ص٣٥٣ .

٩٠- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص٧٩، المقرى / نفح الطيب م٦ ص٢٤٣ . والقاسطون : الجائرون والعادلون عن الحق. الزاوى/ ترتيب القاموس المحيط مادة (قسط) م٣ ص٦١٩ .

٩١- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م ١ ص١٨٠ .

٩٢- المصدر السابق ق٣ م١ ص١٨٨، المقرى / نفح الطيب ج٢ ص٢٤٣ .

٩٣- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م ١ ص١٨٠ ، ١٨١ ، المقرى/ نفح الطيب م٦ ص٢٤٤ وقد نقلها المقرى عن الشاعر القطامى بن عمير بن شميم ، وقد وردت الأبيات فى ديوان الشاعر بهذا الشكل.

أمـــور لو تلافـــاهـــا حليـــــم إذا لنهى وهيب مـــاســـتطاعـــا

ديوان القطامى ، تحقيق ابراهيم السامرائى وأحمد مطلوب، دار الثقافة ، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٦٠م) ص٩٦ .

٩٤- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٧٦ ، عبد الحليم عويس/ ابن حزم الأندلسى ص٣٥ وابن حزم هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، أديب ومؤرخ أندلسى ولد سنة ٣٨٤هـ. الضبى / بغية الملتمس ص٤١٥ ترجمة رقم ٢٠٥ ، ابن خلكان / وفيات الأعيان م٣ ص٣٢٥ ، الحموى أبو الدرى ياقوت بن عبدالله / معجم الأدباء / دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان (ب.ط) م١٢ ص٢٣٥ ، عبد الحليم عويس / ابن حزم الأندلسى ص٥٢ ، الموسوعة الإسلامية الميسرة ، أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية الملكية هـ. أ. جب و ج. هـ كالمرز، ترجمة راشد البراوى، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة (١٩٨٥م) ج١ ص١٩ .

٩٥- سورة آل عمران آية ١٠٥ .

٩٦- سورة الأنفال آية ٤٦ .

٩٧- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٣ ص١٧٢ .

٩٨- فى رواية مسلم ورد الحديث بهذا اللفظ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال طارق بن شهاب من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة قال قد ترك ما هنالك فقال أبوسعيد اما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» أما فى رواية النسائى فلم يذكر العيد والخطبة وورد الحديث بهذا اللفظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فقد برىء وإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه فقد برىء، وإن لم يستطع أن يغيره بلسانه فليغيره بيده فقد برىء ، وذلك أضعف الإيمان» مجدى الدين أبى السعادات ابن المبارك بن محمد الأثير الجزرى / جامع الأصول فى أحاديث الرسول، حقق نصوصه وأخرج أحاديثه وعلق عليه عبد القادر الأرناؤوط ، الجزء الأول/ نشر وتوزيع مكتبة الحلوانى، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ص٣٢٥ .

٩٩- ابن بسام/ الذخيرة ق٣ م١ ص٨٥، وابن عبد البر هو أبى محمد عبدالله ابن الفقيه أبى عمر يوسف بن عبد البر ذكر عنه ابن بسام أنه كان من أشهر كتاب عصره استقصى أخبار ملوك الطوائف وكتب عن أكثرهم . توفى سنة ٤٧٤هـ، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٢٤٢ ، ابن سعيد / المغرب ج٣ ص٤٠٢ الضبى / بغية الملتمس رقم ٩٦٥ .

١٠٠- المصدر السابق ق٣ م١ ص١٨٧ .

١٠١- المصدر السابق ق٣م١ ص١٧٤ .

١٠٢- القاضى عياض بن موسى بن عياض (سنة ٤٧٦-٥٤٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك / تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م) أربعة أجزاء ، ج٢ ص٨١١ .

١٠٣- عبد الرحمن بن مسلمة بن عبد الملك بن الوليد القرشى، قاضى قرطبة، كان مقدمًا فى الفهم، بصيراً بعلوم كثيرة من علوم القرآن والأصول والحديث والفقه، ابن بشكوال/ الصلة ج٢ ص٣٣٤ ، عياض/ ترتيب المدارك ج٢ ص٨٢٢ .

١٠٤- القاضى أبو الوليد الوقشى هو أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكنانى الوقشى من أهل طليطلة قاضى مدينة طليطلة ، ذكره المقرى بقوله (الأديب والفيلسوف الأديب) المقرى / نفح الطيب م٦ ص٨٥ ابن خلكان / وفيات الأعيان م١ ص٥٤٦، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٦٥٣ رقم الترجمة ١٤٣٧، الحميرى/ الروض المعطار ص١٩٦، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٣٤٩ ، ووقش قرية بثغر الأندلس، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار للحميرى، تحقيق ليفى بروفنسال ص١٩٦ .

١٠٥- ابن بشكوال / الصلة ج٢ ص٥٧٥ رقم الترجمة (١٢٦٩) ، المقرى/ نفح الطيب ج٢ ص٨٨ ، الحجى / التاريخ الأندلسى، ص٣٥٠ .

١٠٦- ابن بشكوال / الصلة ج٢ ص٥٧٦ ، ٥٧٧ ، النباهى / أبو الحسن على بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن النباهى المالقى / المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا المسمى بتاريخ قضاة الأندلس، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٤٨م) ص٩٨ ، ٩٩ .

١٠٧- ادريس بن يحيى بن يوسف الواعظ ، من أهل إشبيلية ، يكنى بأبى المعالى، كان يجول بلاد الأندلس يعظ الناس ويذكرهم ، أنشد بمسجد رحبة القاضى فى بلنسية ومنها:

أنا فى الغـــــربة أبكـــــى مـــــا بكت عين غـــــريب .

لـم أكـن يـوم خـــــروجى مـن بـلادى بمصـــــيب

ابن الأبار / أبو عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى ابن الأبار/ التكملة لكتاب الصلة طبعة العطار، جزءان ، القاهرة (١٣٥٥هـ/ ١٩٥٦م) ج١ ص١٩٦ ، رقم الترجمة ٥١٩ .

١٠٨- ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٣٦٩ .

١٠٩- أبى بكر محمد بن أحمد بن حسن ابن اسحق بن عبدالله بن اسحاق بن جعفر من أهل قرطبة من بيت وزارة وجلالة عمل على إزالة الخلافات بين ملوك الطوائف وعمل على جمع كلمتهم . ابن الأبار/ التكملة ج١ ص٣٩٠ رقم الترجمة (١٠٩٠) الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤٩ .

١١٠- ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٤١١ رقم الترجمة ١١٦٤ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤٨ .

١١١- محمد بن سفيان بن اسحاق الواعظ من أهل بلنسية ، يكنى أبا عبدالله ، سمع من أبى المعالى ادريس بن يحيى الواعظ وولى الحسبة بالسوق وكان يعظ بمسجده المشتهر بمسجد الغلبة، ابن الأبار/ التكملة ج١ ص٤١٤ رقم الترجمة ١١٧٤ .

١١٢- المقرى / نفح الطيب ج٦ ص١٢٩ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٧ .

١١٣- ينظر هامش ٩٩ .

١١٤- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م١ ص١٢٥ .

١١٥- أورد رسالته صاحب القلائد حيث جاء فيها أن فرديناند نزل فى قرية أيوب محاصرا وغرسيه نزل بسرقسطة وردزمير نزل فى بوشقة وما وراثها ، الفتح بن خاقان / قلائد العقيان فى محاسن الأعيان، تونس (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) مصورة عن طبعة باريس ص١٩٠ .

١١٦- محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصارى من أهل طرطوشة ، يكنى أبا عبدالله ، سكن سرقسطة وتجول كثيرا فى بلاد الأندلس والعدوة، غلب عليه علم العبارة، فشهر بها، وكان وجيها عند الملوك مترددا عليهم.

ابن الأبار / التكملة لكتاب الصلة، ج١ ص٤١١ رقم الترجمة ١١٦٤ ، الحجى/ التاريخ الإسلامى ص٣٤٩ .

١١٧- ابن الأبار/ التكملة ج١ ص٤١١ .

١١٨- أبوبكر المعافري : هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد العربي المعافري من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر ، إمام عالم، خاتم علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها ، ابن بشكوال/ كتاب الصلة ق٢ ص٥٩٠ رقم الترجمة ١٢٩٧ ، النباهي / المرقبة العليا ص١٠٥ . ابن خلكان / وفيات الأعيان م٤ ترجمة ٦٢٦ ص٢٩٦ .

١١٩- النباهي / المرقبة العليا ص١٠٦ .

١٢٠- محمد بن سليمان الأنصاري المالقي: قاضي مدينة مالقة/ ومن جلة أهلها وعلمائها اتصف بالعدالة والزهد، كان في مذهبه صلبا ورعا وزاهدا أديبا، وله على كتاب (الموطأ) شرح كثير حسن مفيد ، النباهي/ المرقبة العليا ص١٠٠ .

١٢١- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٢٥٦ ، النباهي/ تاريخ قضاة الأندلس ص١٠٠ .

١٢٢- المقري / نفح الطيب ج٦ ص١٢٩ ، الحجي/ التاريخ الأندلسي ص٤٤٧ .

١٢٣- أبو حفص بن عمر الهوزني : سكن شرق الأندلس، ثم رحل إلى إشبيلية وطلب العلم على شيوخها، وأخذ من علماء المشرق، قتله المعتمد بن عباد بيده وأمر أن يدفن داخل القصر دون أن يغسل ولايكفن أو يصلى عليه، ابن بشكوال / الصلة ج١ ص٤٠٢ رقم الترجمة ٥٦٨ .

١٢٤- القاضي عياض / ترتيب المدارك ج٢ ص٨٢٦ ، ابن بسام الذخيرة ق٢ م١ ص٨٢ ، ٨٣ ، ابن سعيد، المغرب ج١ ص٢٣٩ ، سعيد البشري الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف ص١٢٠ .

١٢٥- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٩٣ وما بعدها .

١٢٦- المصدر السابق ق٢ م١ ص٩٣ .

١٢٧- السميسر : هو أبو القاسم ، خلف بن فرج الإيبري، يعرف بالسميسر ، شاعر من شعراء ملوك الطوائف بالأندلس، امتاز شعره بهجاء أهل عصره، ابن بسام/ الذخيرة ق١ م٢ ص٣٨٢ ، المقري/ نفح الطيب ج٤ ص٣٨٧ .

١٢٨- ابن سعيد/ المغرب ج٣ ص١٦٧ ، ١٦٩ ، المقري/ نفح الطيب ج٤ ص٣٨٧، ابن بسام/ الذخيرة ق١ م٢ ص٢٨٥ ، أخبار وتراجم أندلسية ص٨٣ .

١٢٩- أبو اسحاق ابراهيم بن مسعود الأيبري. إبراهيم بن سعيد التجيبي ولقبه الإيبري وكنيته أبو اسحاق توفي سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م، خصه الضبي بقوله : «فقيه فاضل زاهد عارف، كثير الشعر في ذم

الدنيا، وذكر عنه ابن الأبار بأن شعره مدون وكله فى الحكم والمواعظ والأزهاد ، عين قاضيا بمدينة غرناطة بتعيين من باديس بن حبوس . ابن الأبار / التكملة ترجمة رقم ٣٥٢، أميلو غرسية غومت/ مع شعراء الأندلس والمتنبى سير ودراسات، ترجمة الطاهر أحمد مكى، دار المعارف ، الطبعة الأولى القاهرة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص٨٩ .

١٣٠- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج١ ص٥٦ . ترجمة رقم ١٧ ابن بسام / الذخيرة ج٣ م٢ ص١٧٣ ، ابن الخطيب / الإحاطة ج١ ص٤٣٩ ، ٤٤٠ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٤٦ .

١٣١- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج٤ ص٤٣٨ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٣٣٣ .

١٣٢- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م١ ص٨٩ .

١٣٣- ينظر حاشية ٦٨ .

١٣٤- المقرى/ نفح الطيب ج٦ ص١٢١ ، ابن سعيد الأندلسى/ رايات المبرزين ص٩٦، ابن بشكوال/ الصلة ج١ ص٢٨٥ رقم ٦٢٩، أورد المقرى البيت الأول بصيغتين مختلفتين أولها :

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم — فما المقام بها إلا من الغلط

وثانيها : حثوا رواحلكم يا أهل الأندلس — فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى — ثوب الجزيرة منسل من الوسط

ونحن بين عدو لايفارقنا — كيف الحياة مع الحيات فى سقط

ويروى الصدر الثالث من البيت هكذا: من جاور الشر لايأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات فى سقط

١٣٥- تنظر حاشية ٧١ .

١٣٦- أبو الحسن بن الجد: هو الوزير الكاتب يوسف بن محمد بن الجد ورد فى مواضع أخرى من الذخيرة مرة بلقب أبو الحسين ومرة بلقب أبو الحسن ذكره ابن بسام بقوله : (وأبو الحسين هذا كان من أسنى نجوم سعدهم [ويقصد بهم بنى الجد] واسمى هضاب مجدهم) استكتبه ذى الوزارتين أبوبكر بن عمار أيام حربه بمرسية، ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٥٥٦، ابن سعيد/ المغرب ج١ ص٢٤٠ .

١٣٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج٤ ص٤٢٨، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص١٤٤ .

١٣٨- عبد العزيز عتيق / الأدب العربى فى الأندلس/ دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية/ بيروت (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ص٣٢٨ .

١٣٩- أبو طالب بن عبد الجبار: تنظر ترجمته فى حاشية ٤٨ .

١٤٠- المقرى/ نفح الطيب ج٦ ص١٣١ ، ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص٩١٦ .

١٤١- تنظر حاشية ٦٩ .

١٤٢- ابن بسام / الذخيرة ق١ م٢ ص١٥٩ ويروى الصدر الثالث من البيت بهذا اللفظ

من جاور الشر لايأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيات فى سقط

١٤٣- ابن خفاجة : تنظر ترجمته فى حاشية ٧٤ .

١٤٤- ابن بسام / الذخيرة ق٣ م٢ ص٥٤٢ ، ٥٦٢ .

١٤٥- حسين مؤنس / تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربى إلى الاحتلال الفرنسى للجزائر الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩٠م) م١ ص٤٤٧ .

١٤٦- مؤلف مجهول / الحلل الموشية ص٢٠ ، ٢٢ ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٣٩٥ ، ٣٩٦ عنان/ دول الطوائف ص٣١٧ / الحجى / التاريخ الأندلسى ص٣٩٨، ٣٩٩ . يوسف أشباخ / تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج٢ ص٧٤ .

وعبيدالله بن محمد بن أدهم: من أهل قرطبة وقاضى الجماعة بها، يكنى أبا بكر استقضاه المعتمد بن عباد. الصلة ج١ ص٣٠٤ رقم الترجمة ٦٧٣ .

١٤٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان/ ج٢ ص٤٨٢ . الحلل الموشية ص٢٨ .

١٤٨- عبدالله بن بلقين / كتاب التبيان (المنشور تحت عنوان مذكرات الأمير عبدالله) المقدمة ص٧٠، ابن أبى زرع الفاسى/ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس/ تحقيق شارل تورنبرج، إبسالة (١٨٤٣م) ص٩٢ ، ٩٣ . على حبيبه / دولة الإسلام فى الأندلس/ دار الشروق / الطبعة الثانية (ب.ت) ص٢٥١ . الحميرى/ الروض المعطار ص٣٩١ / ٣٩٢ مؤلف مجهول (ينسب لابن الخطيب)، الحلل الموشية ص٢١ ، ٣٩٨ ، الاستقصاء / الناصرى ج٢ ص٣٩ .

١٤٩- الحميرى / الروض المعطار ص٨٥، ٨٦ وما بعدها ، محمد الهادى شعيره / المريطون وتاريخهم السياسى، الطبعة الأولى، القاهرة (١٩٦٩م) ص١١٥ .

١٥٠- ابن بلقين / التبيان / مذكرات الأمير عبدالله ص١٢٨ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٣ ص٣٩١،

٣٩٢، مؤلف مجهول / الحلل الموشية ص٣٩، ٤٠، محمد عبدالله عنان/ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ج١ ص٤١ ، ٤٢ .

١٥١- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٠٠ .

١٥٢- ابن بلقين / التبيان ١١٨، ١١٩ والقليعي هو أحد وزراء عبدالله بن بلقين ومن المقربين له، تظاهر بالولاء والإخلاص للأمير عبدالله .، فأولاه ثقته ، ولكن القليعي كان حاقدا على الأمير عبدالله لأنه منعه من الإقامة في المدينة وألزمه الإقامة في ضيعته لما كان يرى من شره حسب قول الأمير عبدالله- فعمل القليعي على حياكة المؤامرات ضده، فأمر الأمير عبدالله بحبسه في بيت قرب قصره، ثم أمر بإطلاق سراحه بعد أن التزم له القليعي بالانضباط وعدم التدخل في الأمور التي لاتعنيه ، ولكن ما لبث أن اتصل بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وحين إليه غزو الأندلس، ينظر المصدر أعلاه ص١١٨، ١١٩ ، ابن الخطيب/ الإحاطة ج١ ص١٤٩ .

١٥٣- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٤٩ ، محمد عنان / عصر المرابطين والموحدين ج١ ص٤١ ، ٤٤ .

١٥٤- نفس المرجع السابق ، والإمام الغزالي هو الإمام أبوحامد محمد، فقيه ومتكلم وفيلسوف ومصلح ديني واجتماعي له مصنفات كثيرة منها علم الكلام والجامع العوام من علم الكلام. الموسوعة العربية الميسرة ، أشرف على تحريرها محمد شفيق غربال، دار الشعب ص٢٥٤، للمزيد من ترجمته يرجع إلى المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر (١٠٠هـ. ١٣٧٠هـ) ، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، دار الحمامي للطباعة (ب.ط) ص١٢٦ .

١٥٥- أبوبكر الطرطوشي : هو أبوبكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي ، المعروف باسم أبي زندقة، ولد بطرطوشة (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) وتوفي بالاسكندرية ، ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، صاحب كتاب سراج الملوك. ابن بشكوال / الصلة ج٢ ص٥٧٥ رقم الترجمة ١٢٦٩ / الضبي/ بغية الملتمس رقم الترجمة ٢٩٥، ابن فرحون / الديباج المذهب ص٢٥٠، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنكليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم يشرف على تحريرها تحت رعاية الاتحاد الدولي للمجامع العربية هو تسماوفينستك وآخرون، النسخة العربية إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، كتاب الشعب م٥ ص١٦٣ .

ابن خلكان / وفيات الأعيان م٤ ترجمة رقم ٦٠٥ ص٢٦٢، ٢٦٥ .

محمد بن جابر الوادى آشى الأصل التونسى مولداً، برنامج الوادى آش/ تحقيق محمد محفوظ . دار العرب الإسلامى/ اثينا / بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص١١٧ .

١٥٦- ابن سارة الشنتريني: هو الأديب أبومحمد عبدالله بن سارة الشنتريني البكرى ، الشنتريني الأصل، نزل أشبيلية وسكنها ، تجول فى بلاد الأندلس شرقًا وغربًا للتعليم بالعربية، امتدح الولاة والرؤساء. ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٨٣٤ ، ابن الأبار/ التكملة ص٨١٦ ، ابن سعيد الأندلسى/ المغرب ج١ ص٢١٩ .

١٥٧- ابن بسام / الذخيرة ق٢ م٢ ص٨٣٤ .

١٥٨- الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٥ .

١٥٩- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج٢ ص٢٤٣ ، ٢٤٥ ، الحجى/ التاريخ الأندلسى ص٤٤٣ . عنان/ دول الطوائف ص٣٧٣ ، يذكر عنان فى كتابه دول الطوائف أن بقائهم استمر ٤٠ عاما .

١٦٠- الشريف الأدريسى / صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس عن كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الأدريسى نشر دوزى ودى خوية، ليدن (١٨٦٦م) ص٧٥ .

١٦١- الناصرى/ الاستقصاء ، ج٢ ص٧٣ ، عنان / عصر المرابطين والموحدين ج١ ص٤٢٥ .

١٦٢- القاضى أبوبكر بن العربى الإشبيلى انظر ترجمته فى حاشية ١٣٩ .

١٦٣- مؤلف مجهول (ينسب لابن الخطيب) الحلل الموشية ص١٠٥ .

١٦٤- المصدر السابق ص٥٩ .

١٦٥- الصيرفى : هو أبوبكر الصيرفى، من أكابر علماء غرناطة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عمل وزيرا وكاتبا لأمير المرابطين محمد بن تاشفين والذى حكم الأندلس (٥٢٠-٥٣١) وألف كتابا فى تاريخ دولة المرابطين وهو (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية) ابن الخطيب / الإحاطة ج١ ص١٠٨ .

١٦٦- ابن الخطيب/ الإحاطة م١ ص٤٤٨ ، م٤ ص٣٤٩، ابن عذارى/ البيان المغرب ج٤ ص٧٩ ، ٨٠ .

١٦٧- المقرى/ نفح الطيب م٦ ص٢٣٧ .

د. عمر سالم عمر بابكور*

غوردون وسياسة إخلاء السودان

(١٣٠١-١٣٠٢هـ / ١٨٨٤-١٨٨٥م)

يعالج هذا البحث موضوع غوردون وسياسة إخلاء السودان، فى فترة هامة من تاريخه الحديث . والمعروف عن غوردون أنه شخصية إنجليزية استقلت أولاً بإدارة مديرية خط الاستواء عن حكمدارية عموم السودان فى عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م ثم بعد أربع سنوات أى فى عام ١٢٩٤هـ عين حاكمًا عامًا للسودان. ولم يكن يرغب فى أن تكون هناك صلة بين مصر والسودان. ولكنه عين حاكمًا عامًا على السودان فى يناير ١٨٨٤ وتسلم غوردون فى يوم تعيينه خطابًا من الخديوى يحدد له خطوط مهمته، وهى تنفيذ الجلاء عن البلاد وسحب القوات والموظفين المدنيين والسكان ممن يرغبون فى العودة إلى مصر. ولم يكن إخلاء السودان سوى تنفيذ لخطة أعدتها إنجلترا منذ وقت طويل استهدفت خفض مصروفات مصر، وبذلك تتجنب إنجلترا أى تدخل أوربى فيها فضلا عن عزل السودان عن مصر .

وقد اعتمدت فى هذا البحث على الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالقلعة فضلا عن - المنشورة وغير المنشورة- وتشمل الوثائق المراسلات المتبادلة بين الخديوى وحكمدار السودان متضمنة منشورات تحمل توجيهات الخديوى إلى حكمدار السودان.

---

* أستاذ مشارك - جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

كذلك اعتمدت على كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، وحاولت فى المراجع العربية أن أرجع إلى بعض المؤلفين الذين شهدوا أحوال السودان فى تلك الفترة حتى تكون أقوالهم أقرب إلى شاهد عيان، ومن هؤلاء نعوم شقير في كتابه (تاريخ السودان القديم والحديث)، وكذلك مكى شبيكة فى كتابه (السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩) حيث أوضح هؤلاء الكثير من النقاط الهامة والغامضة ، هذا بالإضافة إلى الكتاب الأخضر الذى أصدرته رئاسة مجلس الوزراء المصرى فى سنة ١٩٥٣م عن السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ م إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣م.

أما المصادر الأجنبية فمن أهمها :

LYTTON STRACHEY ., THE END OF GENERAL GORDON, 1888.

الذى يتحدث عن نهاية الجنرال غوردون. ويمتاز سترتيش بالعمق فى دراسة الشخصية التاريخية وفهمها ، وهو يجتهد فى إبراز المتناقضات فى الشخصيات التى يعالج تاريخها وأوجه الضعف والشذوذ فيها هذا فضلا عن كتاب :

ALLEN, B. M., GORDON AND THE SUDAN, LONDON, 1931 .

الذى يصور غوردون فى صورة الطفل البرىء الذى لايعرف مكراً أو دسًا أو خديعة ولايعبأ بجاه أو مال.

كذلك عالجت فى هذا البحث موقف غوردون من تجارة الرقيق فى السودان، وبطبيعة الحال رحبت إنجلترا بهذه السياسة التى تثير الأهالى ضد المصريين. وكذلك حملة هيكس ونتائجها حيث أن هزيمة هكس كان لها أكبر الأثر فى موقف حكومته بالنسبة لمصر والسودان، حيث تقرر الانسحاب وتمكن بارنج من إقناع حكومته على تبنى سياسته التى تهدف إكراه الحكومة المصرية على إخلاء السودان، وذلك حتى تتهيأ الفرصة أمام إنجلترا لتحل محل مصر فى مديريتها المفقودة ، وبذلك تربط بين الممتلكات البريطانية بسلسلة من الأراضى فيما بين الكاب والقاهرة . ولهذا الغرض رفضت إنجلترا السماح لتركيا بالعمل للسيطرة على السودان بصفة مباشرة وقد أسندت مهمة الإخلاء إلى غوردون فى يناير ١٨٨٤م إلى أن توفى فى يناير ١٨٨٥م.

أولاً : موقف غوردون من تجارة الرقيق:

حدث بعد استقالة بيكر[١] فى عام ١٢٩٠هـ أغسطس ١٨٧٣م أن أشير على إسماعيل أن يستخدم إنجليزيًا آخر هو شارلس جورج غوردون الذى طلب أن يستقل بإدارة مديرية خط الاستواء[٢] عن حكمدارية عموم السودان . وقد استهل غوردون عمله بمعاكسة التيار الإسلامى وإطفاء شعلة الحضارة العربية التى تصاحب دائمًا هذا التيار . ذلك أن أمتيسا ملك أوغندة كان قد أرسل إلى السلطات المصرية فى أعالى النيل- قبل ذهاب غوردون - يطلب منها إيفاد عالمين إسلاميين ليعلماه وشعبه الدين الإسلامى*[٣]. ولكن غوردون بادر عند توليته السلطة بإرسال بعثة إلى أمتيسا تحول دون اعتناقه الإسلام، وتحمله على الدخول فى المسيحية. واستطاع فعلا أن يحول أمتيسا إلى المسيحية[٤] وقد وجه ستانلى المقيم فى أوغندة خطابًا إلى مواطنيه يحثهم على إرسال البعثات التنصيرية لتحويل قبائل مجاهل أفريقيا إلى المسيحية، فبعث غوردون الخطاب إلى إنجلترا [٥]. وهكذا اتخذ غوردون من المسيحية وسيلة لخدمة الدول الاستعمارية ، ولما جاءت البعثة التنصيرية إلى أوغندة كانت تتكون من قسيس وضابط من البحرية وطبيب ومهندس معمارى ومهندس ميكانيكى وأستاذ ورجل زراعى واختصاصى فى بناء السفن ويتضح من هذا أنها كانت ذات مسحة استعمارية:

وفى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م غادر غوردون لادو إلى القاهرة ثم إلى لندن ، وادعى أنه وضع حداً لتجارة الرقيق فى مديرية خط الاستواء ، وبقى . أن يضع لها حداً فى جميع أنحاء السودان. وكان غوردون يرغب فى شغل منصب الحاكم العام للسودان . وبالفعل عين غوردون فى ١٧ فبراير ١٨٧٧م حاكمًا عامًا بالسودان[٦] ولم يكن يرغب فى أن تكون صلة مصر بالسودان قوية ، فرأى أن يوقف العمل فى مد خط السكة الحديد بين مصر والسودان ٥٠ ميلاً جنوبى وادى حلفا، بحجة أن مالية السودان لاتسمح باستمرارها. ومن العجيب أن غوردون اتجهت نيته حينئذا أن يعطى دار فور لأحد أبناء السلاطين[٧] وفى هذه الآونة بالذات أعلنها غوردون حربًا شعواء على تجارة الرقيق فى السودان، وصارت لغته وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف . وقال فى ٨ أغسطس ١٨٧٨ «أنى أوجه كل يوم ضربات مميتة ضد تجارة الرقيق ، وقد أنشأت من أجل ذلك نوعًا من حكومة الإرهاب» وبطبيعة الحال كانت إنجلترا مرتاحة لهذه السياسة المتشددة التى تثير الأهالى ضد المصريين ، فكتبت فى ١٣ نوفمبر ١٨٧٨م إلى لاسيل مدير القنصلية العامة فى القاهرة تكلفه بأن يعبر للخديو عن اغتباط الحكومة

الإنجليزية بالعمل الحازم الذى يقوم به غوردون ضد تجارة الرقيق. وكان لهذا العمل أسوأ النتائج فى أعالى النيل بالنسبة للمصريين وأفضلها بالنسبة للسياسة البريطانية[٨] ولم يكتف غوردون بالتنكيل بتجار الرقيق، بل أنه أتبع خطة لإذلال بعض ذوى النفوذ من السودانيين مثل سليمان بن الزبير، مما أحفظ السودانيين على الإدارة المصرية[٩].

ولست هنا بحاجة إلى أن أتناول أسباب الثورة المهدية بإسهاب إنما يكفى أن أقول أن سياسة بيكر وغوردون التى قدمت بعضها دفعت السودان إلى الثورة . وفى ذلك قال شاليه لونج فى كتابه «مصر وأملاكها الضائعة». «إن إدارة غوردون وبيكر هى التى أغضبت السودانيين وأثارت ثائرتهم ولاشك فى أن إنجلترا تركت النار تتقد ليكون لها فيه مبرر لإخراج مصر والحلو محلها »[١٠].

ومن الأمور التى تسترعى النظر أن الثورة العرابية والثورة المهدية قامتا فى وقت واحد، وكلاهما قام ضد استبداد الحكم والتدخل الأجنبى. فهل كانت هناك علاقات بين عرابى والمهدى؟ من الصعب الحكم على ذلك ولكن بعض المهديين أعلنوا تأييدهم لعرابى، مثل عثمان دقنة الذى كان يحقد بشدة على الإدارة التركية والإنجليزية ، ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله إلى المهدى، وأعلن أنه كان ينوى تنصيبه حاكمًا عاما على السودان. ومن ناحية أخرى نجد أن المهدى ، كان يهدف إلى توحيد وادى النيل تحت زعامته كمقدمة لتوحيد العالم الإسلامى فى ظل المهدية. وكان هذا يعنى أنه يعتبر مصر والسودان أمة واحدة أو دولة يمكن توحيد عناصرها[١١] ولم يمض على الثورة المهدية عام واحد حتى حلّ الاحتلال البريطانى لمصر، وأصبحت الشئون المصرية فى خريف عام ١٨٨٢م فى يد الإنجليز، ومعنى ذلك أنه لم يعد هناك قانون إلا رغبتهم ولاسلطة غير سلطة جيشهم[١٢].

على أنه كان باستطاعة مصر أن تخمد الثورة فقام عبد القادر حلمى بمحاصرتها فى كردفان، وطلب المدد ليتمكن من إعادة النظام فى كل أنحاء السودان. ولكن وجود الإنجليز فى القاهرة لم يكن مما يسهل مهمة عبد القادر حلمى فى السودان ، أو مما يزيد هيبة الحكومة الخديوية فى أعين المهديين.

ثانيا : حملة هكس ونتائجها :

زحف هكس بجيشه[١٣] الذى يتكون من فلول جنود وصموا بالثورة فى حين كان زعماؤهم فى سجون القاهرة رهن المحاكمة وكان هؤلاء الجنود ينقلون بحالة سيئة إلى السويس حيث

يلقون فى البواخر وبعضهم قيدت أرجلهم يتولى رئاستهم جندى غريب عنهم يجهل طباعهم وأخلاقهم، ويختلف عنهم فى الدين والعقيدة(١٤) كذلك أخذ الجيش يهرب فى الصحراء بعيداً عن قاعدته فى الخرطوم وجنوده فى أسوأ حال وقيادتهم غير منسجمة وكان أن لقى هذا الجيش حتفه عند شيكان فى «نوفمبر ١٨٨٣م». وبينما كانت قوات المهدى تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هناك قوتان على الأقل على درجة ما من القوة أحداهما فى دار فور على رأسها سلاتين والثانية فى بحر الغزال ، يتولى قيادتهما لبتون بك. وقد يكون لهذه القوات شأنها فى تحسين الموقف وتخفيف حدته لو أن تنسيقًا تم فى صورة من الصور، تتضافر فيه جهود تلك القوات فى زحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه فى تخفيف الضغط الذى تعرضت له حملة هكس، ولكن هذا التنسيق لم يتم فلماذا ولمصلحة من؟

جاء فى تقرير مبعوث الخديو أن الحالة فى مديرية دارفور وبحر الغزال كانت على ما يرام، ولايعلم السر فى بقاء مديريهما فى موقف المتفرج . إن موقف المديرين جاء عن عمد، وكانت تحركات حملة هكس تتسرب إلى المهدى أولاً بأول . وذكر مبعوث الخديو أن وكيل القنصل الإنجليزى فى الخرطوم كان فى الأبيض يعمل فى معسكر الإمام المهدى(١٥) ولما تأكدت أنباء كارثة شيكان لدى سلاتين استسلم لمندوب المهدى فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصلت أنباء الكارثة إلى مديرية بحر الغزال وخط الاستواء حيث كانت لها نتائج سيئة(١٦).

ولم تصل إلى القاهرة ولندن أخبار عن هكس طوال شهر سبتمبر وفى خلال تلك الفترة واصل السير إيفلين بارنج عمله إلى القاهرة لكى يحل محل السير أدوارد ماليت فى منصب القنصل العام البريطانى، وأخذ يستعد ليكون منها حقلاً لتجاربه ولينفذ بها جانبًا من السياسة الإنجليزية، وقد بدأ سير إيفلن بارنج عمله فى القاهرة بأن شكا إلى لندن أن مصروفات السودان تكون عبئًا ثقيلاً على كاهل الحكومة المصرية، وبذلك يكون قد انتقد سياسة الحكومة الخديوية فى النواحى المالية، ونسى أن مصر تدفع نفقات جيش الاحتلال فيها ، وكان يعيب على حكومة مصر إنفاق جزء من ميزانيتها لمحاولة الاحتفاظ بسودانها (١٧)، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى يعرف فيه أن عودة الأمور إلى نصابها فى السودان، ستقضى على الخسارة التى تتكبدها الميزانية المصرية فى السودان، وبالتالى ستساعد على تحسين الحالة المالية المصرية(١٨).

وفى ١٩ نوفمبر طلب بارنج تعليمات محددة بشأن السياسة التى يتخذها حيال السودان، وقال أن الحكومة المصرية قلقة جداً بشأن مصير حملة هكس التى لم يصل عنها أنباء منذ شهرين[١٩] وهى تتوقع أنباء سيئة عنه، وأنه من المحتمل إذا هزم هكس أن تسقط الخرطوم فى يد الثوار، وليس لدى الحكومة المصرية أى احتياطى لمواجهة هذه الحالة . بعد أن أرسلوا كل رجل قادر على حمل السلاح إلى السودان، ماعدا القوات التى تحت قيادة السير إيفلن وود والجنرال بيكر، وقال بارنج أنه يعتقد أنه من المحتمل أن تطلب الحكومة المصرية من حكومة صاحبة الجلالة أن ترسل قوات إنجليزية أو هندية ، فإذا هزم هكس فإنه من مصلحة الحكومة المصرية أن تقبل الواقع وتنسحب إلى نقطة على النيل يمكن الدفاع عنها. وأضاف أن الحكومة المصرية قد تطلب إرسال جزء من قوات الجنرال وود إلى السودان، ولكن بارنج أعتقد أن جيش الجنرال وود يجب إبقاؤه فى مصر ، وذلك لقرب سحب جزء من قوات صاحبة الجلالة منها. وقد أجاب لورد جرانفيل على بارنج «إنا لانستطيع أن نرسل قوات إنجليزية أو هندية وأنه ليس من صالح مصر أن ترسل قوات تركية إلى السودان ولذا فأنصح بإخلاء السودان فى حدود خاصة» وهكذا رأى بارنج أن الحكومة المصرية قد تعرض أحد الحلين السابقين، وعمل على قفل الباب أمامها فى كل منهما وقال بارنج أنى اعتبر نفسى مسئولاً لحد كبير عن سياسة الانسحاب من السودان، وتقع على حكومة مستر جلادستون مسئولية تنفيذ هذه السياسة [٢٠].

وفى ١٢ نوفمبر وصلت أنباء كارثة حملة هكس إلى القاهرة ، فأرسل بارنج إلى حكومته فى اليوم التالى أن رد الفعل الأول للحكومة المصرية هو أن تأمر بالإنسحاب من المقاطعات الجنوبية والغربية للسودان، ولكنهم مصممون على محاولة الاحتفاظ بالخرطوم وإعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر [٢١]. وأنهم يريدون إرسال قوة من ألفين من بلوكات النظام وستة آلاف من السودانيين من أجل الغرض الأخير. وأوصى بتأخير سحب القوات البريطانية من القاهرة . وأضاف أنه من رأى الذين فى الخرطوم أنه من الصعب الاحتفاظ بالمدينة، وأنه من الضرورى الانسحاب . وفى ٨ أغسطس ١٨٨٣م أبرق لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية إلى سير أدوارد مالت قنصل بريطانيا العام ومعتمدها بالقاهرة يقول : «لست فى حاجة إلى أن أذكرك أن حكومة جلالة الملكة لاتتحمل أية مسئولية بالنسبة لسير الأمور فى السودان... وأن سياستها تقوم على الامتناع بقدر الإمكان عن التدخل فى عمل الحكومة المصرية فى هذا البلد... »[٢٢].

وكان بارنج سياسيًا ماكراً قديراً ، وكان من المهارة والدهاء بحيث لايفرض الحل على رجال حكومته ، بل كل يعرض أمامهم القضية ، بحيث لايجدون مفراً من الالتجاء إلى الحل الذى يهدف هو إليه فى الأصل. ورغم أنه كان يريد من حكومته تعليمات بإخلاء السودان، إلا أنه لم يشأ أن يطلب ذلك صراحة بل أشار إلى زن الاحتفاظ بالخرطوم كطلب الحكومة المصرية يتطلب :

أولاً : إما إرسال قوات بريطانية أو هندية لحفظ الأمن، ثم يشير إلى أنه يكره هذا الحل لأنه سيجعل حكومته تنغمس فى المسئولية عن أمور خارج مصر ذاتها. فضلاً عن أن شريف باشا نفسه كان يعترض على الاستعانة بهذه القوات، لأن ذلك يعد بمثابة تدخل من جانب المسيحيين، ومن شأنه أن يلهب حماسة قوة الحركة الدينية فى السودان. وهكذا قدم بارنج الاقتراح، وفى نفس الوقت قضى عليه قضاء نهائيًا.

ثانيًا: وإما ترك المصريين وشأنهم فى السودان اعتماداً على مواردهم ولكن هذا فى رأيه من المحتمل أن يعقبه سقوط الخرطوم واندلاع الثورة فى كل المناطق الواقعة إلى الشمال منها حتى حلفا ، مما يدعو إلى زيادة أعباء الإدارة فى مصر، وبالتالى زيادة الحامية البريطانية فيها وتأجيل الانسحاب النهائى منها... وهكذا مرة أخرى قضى على هذا الاقتراح قضاء مبرمًا لأنه يعلم أن الفريق الذى يرأسه جلادستون فى الوزارة لايريد إطالة أمد الاحتلال .

ثالثًا : وأما الاستعانة بقوات عثمانية، وهذا الحل يميل إليه شريف لولا أنه يريد أن يتأكد من جلاء قوات السلطان بعد تهدئة البلاد ثم يقول بارنج «إنى شخصيًا أكره فكرة التدخل التركى ، فهل لديكم اقتراحا أقل سوءاً »[٢٣].

وشاء بارنج أن يرسل هذه البرقية بصفة شخصية، ليتظاهر بأنه لايريد إحراج الحكومة إذا أرسلها بالطريق الرسمى، وكان من الطبيعى أن يأتى رد لورد جرانفيل فى ١٣ ديسمبر كما هو متوقع ، فيقول:

«إن حكومة صاحبة الجلالة ليس فى نيتها استخدام قوات بريطانية أو هندية فى السودان ، وليس لدى حكومة صاحبة الجلالة أية اعترضات على استخدام قوات تركية بشرط أن تسدد نفقاتها الحكومة التركية، وأن يقتصر استخدامها على السودان خاصة، وتكون قاعدتها فى سواكن ... ولاتستطيع حكومة صاحبة الجلالة أن توافق على زيادة الأعباء على الموارد المصرية بالصرف على العمليات عدا تلك التى تهدف إلى تأمين ارتداد الحاميات التى لاتزال تحتل

مراكزها فى السودان ... وأن حكومة صاحبة الجلالة توصى وزراء الخديوى بالوصول إلى قرار سريع للتخلى عن كل المناطق الواقعة جنوبى أسوان أو على الأقل وادى حلفا[٢٤] وأقدم بارنج فى ١٦ ديسمبر على إطلاع محمد شريف باشا فحوى هذه البرقية ، فأبدى شريف اعتراضاته عليها، ووعد بارنج بأن يعرض عليه آراء الحكومة المصرية فى مذكرة مكتوبة .

فى ٤ يناير ١٨٨٤ أبرق جرانفيل بتعليماته إلى بارنج، وتنص على أن الحكومة البريطانية لاتثير أى اعتراض على التجاء الخديوى إلى الباب العالى لطلب قوات لسواكن بشرط أن لايثقل ذلك كاهل الخزانة المصرية، أو يؤدى إلى تأخير الحكومة المصرية فى الوصول إلى قرار بالنسبة لتحركات قواتها داخل السودان، كما أن الحكومة البريطانية لاتمانع فى تسليم موانىء البحر الأحمر وشرق السودان للباب العالى، إذا ما رفضت تركيا إرسال قوات إلى السودان .

وطلب جرانفيل من بارنج أن يوضح للحكومة المصرية أهمية رسم سياسة لها بدون تأخير، وأن يلح على الخديوى ووزرائه بشدة «بأنه يجب أن تتوقف فى السودان كل العمليات العسكرية عدا تلك التى تستهدف إنقاذ الحاميات البعيدة «وأضافت المذكرة: أن حكومة صاحبة الجلالة لاتعتقد أن فى إمكان مصر الدفاع عن الخرطوم ، وهى إذ توصى بتركيز القوات المصرية، تود سحبها من الخرطوم فضلاً عن بقية أنحاء السودان[٢٥].

وبذلك يكون بارنج قد وفق فى حمل حكومته على تبنى سياسته التى تهدف إلى إكراه الحكومة المصرية إلى إخلاء السودان.

وبذلك وضحت نية بارنج فى أنه لايمانع فى تسليم موانى البحر الأحمر وشرق السودان إلى تركيا ، إذ كان يهمه إنسحاب مصر من الخرطوم وبقية أنحاء السودان ولاعجب أنه حين عرض السفير التركى فى لندن على لورد جرانفيل أن يضع السلطان يده على السودان بشرط أن يخضع له مباشرة ، لم يقبل وزير الخارجية أن يدخل فى أية مناقشة حول هذا الموضوع [٢٦]. ذلك أن إنجلترا لم تفكر إطلاقا فى إبعاد مصر عن الخرطوم وبقية أنحاء السودان لكى تحل الدولة العلية محلها.

ولم يكن إخلاء السودان «سوى تنفيذاً لخطة أعدتها إنجلترا منذ وقت طويل وكانت تهدف إلى :

١- خفض مصروفات مصر، وبذلك تتجنب إنجلترا أى تدخل أوربى فيها.

٢- عزل السودان عن مصر.

٣- تهيئة الفرصة أمام إنجلترا لتحل محل مصر فى مديرياتها المفقودة، وبذلك تربط بين المتلكات البريطانية بسلسلة من الأراضى بين الكاب والقاهرة(٢٧).

وأبلغ دليل على ذلك أن إنجلترا رفضت السماح لتركيا بالعمل للسيطرة على السودان بصفة مباشرة(٢٨).

وأما أنه لم يكن لإنجلترا أية مصالح تجارية فهذا المستر فوكس F.W.Fox من رجال الاقتصاد والتجارة الإنجليز يقترح فى ١٨٨٧م تأسيس شركة على شاطىء البحر الأحمر، وإنشاء موانىء ومصانع إلى الشمال والجنوب من سواكن على غرار الشركات الإنجليزية الأخرى فى مستعمرات جنوب أفريقيا والنيجر وشرق أفريقيا ، ثم يمد خط حديدى بين سواكن وبربر، على أن يمتد عقب ذلك إلى نقط أخرى أبعد من ذلك، لفتح أبواب السودان للتجارة مع أوربا. وتضيف (التيمس) إلى ذلك فى عددها الصادر فى ٣ يونيو ١٨٨٧ بعد أن عددت مصادر الثروة فى السودان «ويسود الاعتقاد أنه ما أن يداوم السكان على صلتهم بالمنتجات والموارد من البلدان المتحضرة حتى يعتادون عليها بعد أن كانت بالنسبة لهم من الكماليات التى لاسبيل إليها (٩).

وفى الوقت نفسه كان العنصر الاستعمارى يلعب دوره بمهارة ، فلما كان لورد ولزلى رئيس أركان الجيش صديقًا قديمًا لغوردون ، فقد أبرق إليه فى ١٢ يناير يطلب منه القدوم إلى لندن ومقابلته فى وزارة الحربية. وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٥ يناير ، قابل غوردون ولزلى الذى سأله ما إذا كان على استعداد للذهاب إلى سواكن ليستفسر عن أحوال السودان.

فقدم غوردون خطة مؤداها أن يذهب إلى سواكن، ويقدم تقريراً عن الوضع العسكرى فى السودان ثم يعود، وأن يتلقى أوامره من بارنج وأنه يكون معلوما أن الحكومة لاتطلب منه أكثر من أن يقدم تقريراً وأنها ليست مرتبطة معه بأية حال من الأحوال (٣٠).

وأودع هارتنجتون ذلك كله مذكرة قدمها إلى جرانفيل فى نفس اليوم وأكد ضرورة التعجيل بها(٣١).

ودون أن ينتظر جرانفيل ، رد جلادستون على برقيته المؤرخة فى ١٤ يناير والتى يطلب فيها منه الموافقة على الضغط على بارنج لقبول غوردون ، أبرق إلى بارنج فى نفس اليوم -وهو ١٥ يناير الذى حدثت فيه مقابلة ولزلى وغوردون وتقديم مذكرة هارتنجتون - يقول إنه

وصل إلى مسامعه أن غوردون على استعداد للذهاب فوراً إلى سواكن دون المرور بالقاهرة ، وأن مهمته سوف تقتصر على أن يقدم تقريراً لحكومة صاحبة الجلالة عن الموقف العسكرى فى السودان، ويعود دون أى عمل آخر وأضاف «أنه ربما كان من المفيد إبلاغنا وإبلاغكم عن الموقف، فإن ذلك من شأنه أن يرضى الرأى العام البريطانى وختم برقيته بأن طلب منه رأيه[٣٢].

وقد حرص جرانفيل على أن يبعث هذه البرقية بصفة شخصية، ربما لأن جلادستون لم يكن قد وافق رسميًا على اقتراح جرانفيل فى ١٤ يناير .

وجاءت موافقة جلادستون فى برقيته إلى جرانفيل فى ١٦ يناير ، وهى مشوبة بتحفظات على جانب كبير من الأهمية فقد جاء فيها «إذا كان على غوردون أن يقدم تقريراً بما يجب عمله، فينبغى ألايكون هو المسئول عن عمل ذلك ، أو يحملنا عليه بأن يقدم لنا النصيحة بصفة رسمية إذ يكون من الصعوبة بمكان عندئذ بعد أن أرسلناه رفض مثل هذه النصيحة، ولذلك فإنى أعتقد أنه يجب أن يكون واضحًا أنه ليس منا أو نائبًا عنا ليقدم لنا النصح حول هذه النقطة»[٣٣].

وكان رأى جلادستون واضحًا تمامًا فى ذهن غردون ، بدليل أنه كتب إلى شقيقته أوجستا فى نفس اليوم (١٦ يناير) يقول أن هناك فرصة للذهاب إلى السودان، ولكن ليس بصفة حاكم عام، إنما كقائد عسكرى ليقدم تقريراً عن الأحوال هناك[٣٤].

وهكذا، فرغم موافقة جلادستون ، كان من الواضح أنه مصمم على ألا ترتبط حكومته بشىء، وألاينزلق إلى الانغماس فى الشئون السودانية ، وهى الخطة التى كان يرسمها بمهارة العنصر الاستعمارى برئاسة هارتنجتون . وإذا كانت مهمة غوردون قد تحولت فيما بعد من (التقرير) إلى (التنفيذ) فإن جلادستون لم يستطع أن يتخلص من العقدة التى تسلطت عليه منذ البداية، وهى أن غوردون لم يلق بالاً إلى تعليماته[٣٥].

وفى تلك الأثناء كان بارنج فى القاهرة ، قد فشل فى إقناع عبد القادر باشا حلمى وزير الحربية بأن يتولى مهمة إخلاء السودان. ذلك أن الضابط المصرى فكر فى الصعوبات التى تتصل بهذه العملية، وقرر أنه نظراً لوجود الآف من الجنود والمدنيين هناك فإن ذلك يتطلب آلاف من الإبل لتنقلهم عبر الصحراء، وأن تنفيذ هذه المهمة يستغرق ما بين سبعة أشهر وعام كامل[٣٦].

ولما علم بأنه فى النية إعلان عزم الحكومة على التخلى عن السودان قال أن مثل هذا الإعلان من شأنه أن يجعله بلا حول ولاقوة، ورفض القيام بهذه المهمة، وكان حسين باشا خليفة مدير بربر قد قدم تحذيراً مماثلاً عن المصاعب الطبيعية التى تتصل بعملية الإخلاء(٣٧).

لذلك اضطر بارنج فى ١٦ يناير إلى أن يبرق إلى حكومته بأن الحكومة المصرية تكون شاكرة لو أن حكومة جلالة الملكة أوفدت فوراً ضابطًا بريطانيًا مؤهلاً للذهاب إلى الخرطوم ومعه سلطات مدنية وعسكرية كاملة ليتولى أمر الانسحاب(٣٨).

وبعد إرسال هذه البرقية بدقائق ، وصلت برقية جرانفيل التى صدرت من لندن الليلة السابقة، والتى تعرض عليها خدمات غوردون ، على شرط أن يقتصر عمله على مجرد التحقيق فى سواكن. وبدأ لبارنج- كما يقول- أنه الوحيد فى مصر وإنجلترا الذى يعترض على غوردون وشعر أنه لابد مخطىء فى ذلك الاعتراض(٣٩).

لهذا فإنه فى الساعة الحادية عشر والدقيقة الخامسة والأربعين يوم ١٦ يناير أى بعد خمس وأربعين دقيقة من إرسال برقيته الأولى أجاب على برقية جرانفيل بما يلى:

«إن الجنرال غوردون أفضل شخص يقوم بتنفيذ سياسة الانسحاب من السودان بأسرع ما يمكن ، وينبغى عليه أن يفهم تمامًا أنه يجب أن يتلقى تعليماته من المعتمد البريطانى فى مصر ويقدم تقريره إليه. وأنى أفضله على أى شخص آخر بشرط أن يكون على بينة مما سوف يكون عليه موقفه، ومن الخطة السياسية التى سوف ينفذها (٤٠).

وفى نفس الوقت أسرع غوردون إلى بروكسل لينال موافقة ليوبولد ملك البلجيك على تأجيل مشروع الكونجو ، واستدعاء ولزلى برقيًا فى ١٧ يناير. وفى اليوم التالى تمت المقابلة الهامة فى وزارة الحربية بين غوردون وبعض الوزراء. ولم يحضر الاجتماع جلادستون، وإن كان قد أحيط علمًا به.

ولو أن جلادستون أطلع على التعليمات التى وردت فى هذا الاجتماع لما وافق عليها ، لأنها تتعارض مع ما جاء فى برقيته إلى جرانفيل المؤرخة فى ١٦ يناير: فقد ورد فى التعليمات التى صدرت لغوردون وبارنج أن غوردون سوف يسافر تلك الليلة إلى مصر وبصحبته اللفتنانت كولونيل ستيوارت «ليقدم تقريراً إلى حكومة صاحبة الجلالة عن الوضع العسكرى فى السودان وعن الإجراءات التى ينبغى اتخاذها لتأمين سلامة الحاميات المصرية التى لاتزال محتفظة

بمواقعها فى هذه البلاد » وأضيفت إلى هذه التعليمات فقرة أدت فيما بعد إلى متاعب عديدة، وإن كان البعض يعتقد أنها وضعت ضمن التعليمات استجابة لطلب افلن بارنج بإرسال ضابط بريطانى مؤهل إلى الخرطوم يتمتع بسلطات مدنية وعسكرية كاملة ليتولى أمر الانسحاب(٤١).

وكان أن وصل غوردون إلى القاهرة فى ٢٤ يناير ١٨٨٤، وبعد يومين (٢٦ يناير) عين حاكمًا عامًا على السودان . ومن المصادفات العجيبة أنه قتل فى الخرطوم فى نفس اليوم من العام التالى (٢٦ يناير ١٨٨٥) . وتسلم غوردون فى يوم تعيينه خطابًا من الخديوى يحدد له خطوط مهمته، وهى تنفيذ الجلاء عن البلاد وسحب القوات والموظفين المدنيين والسكان ممن يرغبون فى العودة إلى مصر، واتخاذ الخطوات اللازمة لإعادة الاستقلال السابق لعائلات ملوك السودان(٤٢).

واستند بارنج فى تغيير مهمة غوردون إلى الفقرة الواردة فى برقية جرانفيل إليه فى ١٨ يناير والتى تنص على «أن يقوم غوردون بأية مهام أخرى قد تسندها إليه الحكومة المصرية والتى سوف تعرض عليه عن طريق بارنج(٤٣).

وكان لهذه البرقية التى بعث بها بارنج فى ٢٨ يناير وقع سيء على الوزارة البريطانية، وبصفة خاصة على الرئيس جلادستون وبعض الأعضاء الذين فيما يبدو كانوا لايزالون على اعتقادهم بأن مهمة غوردون استشارية . لذلك وجهوا اللوم القاسى لبارنج ، وقالوا أن حكومة جلالة الملكة وهى تضع فى ذهنها هذه الحالة الاضطرارية لايسعها إلا الموافقة على الأوامر التى فى الحقيقة غيرت مهمة الجنرال غوردون من أن تكون مجرد تقديم النصح إلى أن تصبح تنفيذية ، أو على الأقل مباشرة الجلاء، لا عن الخرطوم وحدها بل عن السودان كله (٤٤). وقيل أن مهمة غوردون قد تغيرت فى المؤتمر الذى عقد بين نوبار وبارنج(٤٥).

وقد دافع بارنج عن نفسه بعد أكثر من عشرين عامًا فى خطاب بعث به إلى جريدة (التيمس) ونشر فى ٩ نوفمبر ١٩٠٥م. وفيه وضع أمام الرأى العام البرقية التى وجهها إليه لورد جرانفيل فى ٢٣ يناير ١٨٨٤ حين كان غوردون فى طريقة من لندن إلى القاهرة، واشتملت البرقية على ستة اقتراحات لغوردون حول الخطوات الواجب اتخاذها بإزاء الأوضاع فى السودان، منها اقتراح بأن يصدر الخديوى مرسومًا إلى شعوب السودان يتضمن هذه العبارة «وقد وكلت الجنرال غوردون الحاكم العام السابق للسودان أن يتوجه إليه كتائب عنى ولكى

يرتب معكم الجلاء عن البلاد وسحب القوات، وأن حكومة جلالة الملكة وهى شديدة الاهتمام برفاهيتكم ، قد عينت أيضًا الجنرال غوردون نائبًا عنها لنفس الغرض ولذلك فإن الجنرال غوردون قد عين حاكمًا عامًا للوقت اللازم لإنجاز الجلاء».

ثم قال جرانفيل «ليس لدى حكومة جلالة الملكة معرفة كافية تمكنها من تكوين فكرة عن مدى الناحية العملية فى هذه المقترحات ، ولذلك فأنى أصرح لك نظراً لأن الوقت ثمين إما أن تعمل الترتيبات المقترحة فوراً أو أن تنتظر وصول الجنرال غوردون للتشاور معه حول الإجراء الذى يتخذ».

ثم يرد بارنج التهمة عن نفسه فيقول : «ولو أننى وافقت موافقة تامة على تبديل تعليمات غوردون، فإن الاقتراح بالتبديل لم يصدر منى أو فى الحقيقة من أى شخص فى القاهرة»[٤٦] ثم يختتم دفاعه بقوله «وقد بدأ لى فى ذلك الوقت بالنسبة للبرقية المؤرخة فى ٢٢ يناير، أن لى الحق كله فى أن افترض أن حكومة جلالة الملكة قد وافقت على تغيير واجبات غوردون بمعنى يجعل منها واجبات تنفيذية لامجرد واجبات استشارية»[٤٧].

وغادر غوردون القاهرة فى ٢٦ يناير ١٨٨٤ وبصحبته الكولونيل ستيوارت الذى كان أحدث خبرة بشئون السودان. وكان بارنج يشعر أن ستيوارت هذا أقدر على معالجة الأمور من غوردون. وكان هناك عضو نائب هو الأمير الغورى عبد الشكور بن عبد الرحمن - وكان فى مصر ثم عين سلطانًا على دارفور تنفيذا لسياسة غوردون التى تقضى برد السودان إلى العلاقات الحاكمة القديمة، أى أن غوردون لم يكن يريد الانسحاب من السودان بل يتوق لأن ينظم البلاد لمستقبل قادم . وقد جاءوا بعبد الشكور هذا وهو لايفيق من السكر ، وألبسوه كسوة التشريفة المرصعة بالأوسمة والنياشين، ثم أركبوه القطار مع غوردون مع عدد كبير من زوجاته ، فكان مثاراً للضحك والسخرية، واشتبك مع غوردون، فخلفه وراءه فى أسوان. وهكذا يتجاهل غوردون السلطة الشرعية فى البلاد، ثم أخذ يبحث عن بقايا الأسر الحاكمة من هذا النوع ويعيدها إلى السودان.

وتوقف غوردون فى بربر فى ١١ فبراير حيث كشف أمام طائفة من الأعيان عن نية الحكومة الانسحاب من السودان، وانتشر الخبر بسرعة البرق، ونجمت عنه أوخم العواقب، فإن المهدى لابد قد علم نية الحكومة، فليس من المستبعد أن يكون قد بادر بسؤال زعماء القبائل الذين كانوا لايزالون مترددين فى الانضمام إليه ما إذا كان يجب عليهم تأييد حكومة تعد العدة للتخلى عنهم .

وكانت النتيجة الحتمية أن القبائل التى باتت تخشى نقمة المهدى فى حالة انسحاب الحكومة - تحولت للقضية المهدية[٤٨].

وفى المتمة أكد غوردون نية الحكومة فى رد سعد أمير الجعليين فانضم للمهدية، إذ كيف يبقى على ولائه لحكومة تخلت عنه [٤٩].

ويدافع البعض عن هذا التصرف فيقول أن غوردون قد كشف عن مهمته منذ البداية حتى لايعلق الناس على قدومه آمالاً كاذبة ، فيتهم بعد ذلك بالغش والخداع حين يبدأ الإخلاء[٥٠].

وحيثما تجمع الناس بين بربر والخرطوم ، وزعت عليهم مناشير تعلن إلغاء تحرير الرقيق وتخفيض الضرائب وقيام الحكم الذاتى. وبدأ واضحًا أمام غوردون وستيوارت أن الناس يرحبون بإلغاء تحرير الرقيق. ولم يهتموا كثيراً بالمناشير الأخرى حتى تلك التى تبشرهم بأنهم سوف يحكمون أنفسهم[٥١].

وقد أيدت (التيمس) غوردون فى هذا الإجراء ، وقالت أنه لم يكن هناك سوى الاختيار بين تحمل الرقيق لبعض الوقت، أو التضحية بالخاميات المبعثرة[٥٢] وقد وصف (ستيوارت) هذا الإعلان بأنه قفزة فى الظلام. ومع ذلك يحلو لبعض من نصبوا أنفسهم للدفاع عن غوردون وأعماله أن يعلل هذا العمل الأخرق بأنه لما رأى غوردون ما حل بالإدارة المصرية بعد هزيمة فالنتين بيكر فى شرق السودان، والتى ترتب عليها تعزيز مركز المهدية ، أراد أن يستميل إليه زعماء القبائل بالكشف عن الوثيقة وما يتبعها من مزايا سياسية بالنسبة إليهم، فيمنعهم من الانضمام للمهدية [٥٣].

ولست أدرى أية «مزايا سياسية» يمكن أن ينالها الناس من حكومة قررت أن تتركهم وشأنهم، مع أن غوردون نفسه فى مقابلته مع المستر (ستيد) محرر الجازيت، كان يرى أنه بمجرد إعلان الإخلاء ، فإن كل رجل سوف ينضم إلى المهدى[٥٤].

وما أن وصل غوردون إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ حتى أمطر سير افلين بارنج بوابل من البرقيات ، فالرجل الذى غادر انجلترا منذ شهر يحمل تعليمات بأن يقدم تقريراً عن أفضل الوسائل لتنفيذ الجلاء عن السودان «بدأ يتكلم صراحة عن القضاء على المهدى بمعاونة قوات بريطانية وهندية»[٥٥].

وقال سير تشارلز ديلك أن غوردون لابد قد جن كما حدث له فى مناسبات حرجة أخرى فى حياته [٥٦].

وقد يبدو ذلك التطور الغريب فى موقف غوردون فى نظر الوزير الإنجليزى جنونًا ، ولكن هذا الموقف الجديد يتفق فى كل تفصيلاته مع الآراء التى سبق أن أدلى بها غوردون لمحرر الجازيت.

بل أن غوردون وهو فى كورسكو فى طريقه إلى الخرطوم، كتب إلى بارنج فى أول فبراير ١٨٨٤م يطلب منه إبلاغ وزارة الخارجية أنه طلب من ليوبولد ملك البلجيك أن يضع يده على مديريتى بحر الغزال وخط الاستواء وتعيينه حاكمًا عليهما ، ولكن جرانفيل رفض السماح له بالذهاب إلى أبعد من الخرطوم(٥٧) وهكذا كان غوردون يتصرف فى أملاك مصر كأنما هى ضيعة ورثها عن أجداده أو أقطعتها إياه دولته .

ولم يقتصر هذا التطوير الغريب على موقف غوردون فى الخرطوم بل تعداه إلى موقف الحكومة الإنجليزية ذاتها .

ويتصل هذا بالموقف فى شرق السودان حيث قاد الثورة ضد الحكومة عثمان بن أبى بكر دقنه، وأصله من عائلة كبيرة تعمل فى تجارة الرقيق وتدعى الانتساب لأصول كرديه.. وقد ولد عثمان حوالى ١٨٤٠ وعمل بالتجارة بين سواكن وجده إلا أن الحكومة ألحقت إضرارً به وبتجارته غير المشروعة ، فقبض عليه مع اثنين من أشقائه وألقى بهم فى السجن. وعاد عثمان إلى سواكن ليجد أن ثروة العائلة كلها قد ضاعت ، فاشتد حقده على الحكومة وحاول بالفعل إثارة بعض الاضطرابات أيام الأزمة العرابية فى مصر، فلم يفلح.

فلما نشبت ثورة محمد أحمد، وجد فيها بغيته، وتوجه إلى الأبيض وهناك قابل محمد أحمد الذى عول على الانتفاع بخدماته فى شرقى السودان، فزوده ببعض الكتب إلى مشايخ البلاد - من هدندوة وبشاريين وأمرار- يدعوهم فيها لنصرة الدين والقيام مع عامله عثمان دقنة لمحاربة الترك والجهاد فى سبيل الله(٥٨) .

وكان أهالى شرق السودان وقتئذ موزعين بين طريقتين دينيتين رئيسيتين : الطريقة الختمية والطريقة المجذوبية. ونظراً للرعاية التى كانت تسبغها الحكومة على الطريقة الأولى، كان من الطبيعى أن يميل أنصار الطريقة الأخرى إلى تأييد المهدى إذا بدت أقل بادرة تنبىء عن نجاح قدرته. وكان عثمان نفسه ينتمى إلى الطريقة المجذوبية فلقى تأييداً من الشيخ الطاهر المجذوب الذى دعا أتباع الطريقة- وهم قبيلة الهدندوة- إلى تأييد عثمان وتعضيده ، وأقسم الشيخ يمين الولاء للمهدية.

وحاول عثمان أن يستميل إليه الميرغنية أتباع الطريقة الختمية، فلم يفلح ولما سمع محمد بك توفيق محافظ سواكن بخبر عثمان خرج إلى سنكات وعمل على تحصينها وتمكن من صد عثمان عنها فى ١٥ أغسطس ١٨٨٣ بعد معركة عنيفة جرح فيها عثمان نفسه.

ولكن عثمان لم يتطرق اليأس إلى قلبه، فتسرب الحصار على سنكات وعلى طوكر وهى تقع على مسافة عشرين ميلاً من الساحل فى دلتا خور بركة ، وواحدة من أهم مصادر الغلال فى السودان الشرقى.

وفى ذلك الوقت انفصل سليمان باشا نيازى عن قيادة حملة هيكس وعين حاكمًا عامًا على السودان الشرقى فأرسل قوة من خمسمائة جندى لرفع الحصار عن طوكر بقيادة محمد باشا طاهر، وصحب الحملة المستر مونكريف (Moncrieff) القنصل الإنجليزى فى سواكن. ولكن القوة تمزقت أربا وقتل مونكريف وعاد طاهر باشا إلى سواكن، وذلك فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ أى فى نفس اليوم الذى وقعت فيه مذبحة شيكان. كما تمزقت قوة أخرى أرسلها نيازى لرفع الحصار عن سنكات فى أول صفر ١٣٠١ (٢ ديسمبر ١٨٨٣) وأعقب ذلك قطع طريق بربر- سواكن [٥٩].

وفى ٢٣ نوفمبر ١٨٨٣، أبرق بارنج إلى جرانفيل أن هناك نية لإرسال فالسنتين بيكر باشا على رأس قوة لفتح طريق بربر- سواكن- ومد يد المعونه إلى الحاميات فى الداخل بعد أن دب فيها الفزع بسبب هزيمة هيكس[٦٠].

وأصل هذه القوة من الشرطة ، تختلط فيها العناصر التركية ببقايا الجيش العرابى القديم، وقد سافرت إلى السودان وسط عويل الأهالى حتى اضطر بيكر باشا إزاء هذا الموقف الذى يثبط عزائم الجند إلى أن يأمر القطار بالتحرك قبل موعده، فتخلف عنه الجنرال سارتوريوس، أحد قواد الحملة [٦١].

وكانت قوة على جانب كبير من سوء النظام وقلة الدراية بالفنون العسكرية[٦٢] وساد الخلاف بين الضباط المصريين والسودانيين ، كما أن الجنود كانوا قد تطوعوا أصلاً للعمل فى الشرطة ولم يدر بخلدهم أنهم سيرحلون إلى السودان ، إذ كان المقصود أن يحاربوا قوات البدو التى كانت تغير على أطراف الدلتا [٦٣].

وخرجت قوة بيكر من سواكن فى محاولة لرفع الحصار عن سنكات وطوكر. وكان طبيعيًا أن

تحل بها هزيمة ساحقة ، فرت على أثرها إلى ترينكيتات ثم إلى سواكن. وأعقب ذلك سقوط سنكات في يد عثمان دقنه مما أدى إلى شدة الفزع فى سواكن ، كما أن الشعور العام فى انجلترا بدأ يطالب بالانتقام . وعقدت الوزارة البريطانية اجتماعين فى ٦ فبراير، تقرر على أثرهما إرسال قوات البحرية إلى سواكن ، وأشار المستشاران العسكريان للحكومة وهما لورد ولزلى ودوق كمبردج بإرسال حملة بريطانية إلى سواكن لتوقع الهزيمة بأية قوة عربية قد تحاول حصار المدينة.

وأدرك جلادستون أن مثل هذا العمل من شأنه أن يغير بصفة أساسية من موقف انجلترا فى السودان[٦٤] فى حين أن الملكة أبدت إرسال هذه الحملة «وإلا صار من المستحيل إقناع المسلمين أنهم لم يهزمونا » وطلبت النظر بعين الاعتبار فى خطة لورد ولزلى[٦٥].

ووجد الجانب الاستعمارى فى هذه الهزائم بغيته . وبالفعل قررت الوزارة فى ١٢ فبراير - رغم معارضة جلادستون وبارنج - إرسال حملة إلى سواكن ، لإنقاذ الحاميات الباقية لحماية المدينة ، على أن يرأس الحملة سير جرالد جراهام .

ووقف هارتنجتون فى المجلس بعد أسبوعين فقط من مغادرة غوردون للقاهرة يعلن أن هذا الإجراء لايعد بمثابة تدخل فى السودان، لأن منطقة البحر الأحمر قد تعد من الناحية الفنية جزءاً من السودان، فى حين أنها من الناحية العملية يمكن أن تعد منفصلة عنه تمامًا. وعلق البعض على تصريح هارتنجتون بقوله «لست أدرى هل صرح بذلك ليقنع أعضاء البرلمان أو ليقنع فوق ذلك رئيسه جلادستون[٦٦].

وسخرت (التيمس) من هذا القرار فقالت : أن الجنرال غوردون فى الخرطوم يقدم عروضًا للسلام والحرية باسم انجلترا إلى الشعب الذى سوف يعمل الجنرال جراهام السيف فى أقربائه فى ترينكينات[٦٧].

ولما وصل جراهام إلى سواكن كان أول نبأ بلغه هو سقوط طوكر التى أتى لرفع الحصار عنها[٦٨].

ورغم أن جراهام أنزل بقوات عثمان دقنه هزيمتين كبيرتين إلا أنه لم تبد أية بادرة على استسلام عثمان الذى انسحب داخل المرتفعات . ورأى جراهام ضرورة توجيه ضربة ثالثة للقضاء عليه قضاء مبرمًا فطلب الإذن من وزير الحربية للتقدم نحو سنكات ووافقت الوزارة

على ذلك[٦٩] ولكن جراهام طالب أيضا أن تتقدم فصيلة من قواته إلى (هندوب) لاستطلاع طريق بربر.

وارتاع جلادستون لهذا الاقتراح، فقد بدأ واضحًا له أن الحكومة قد انغمست رغم أنفها فى سياسة التدخل والغزو، وبدأ واضحًا أيضًا أن العنصر الاستعمارى فى الوزارة قد أوشك على بلوغ مآربه، وتصادف أن وصلت برقية جراهام مع طلب غردون المفاجىء إرسال قوات بريطانية وهندية للقضاءة على المهدى[٧٠]. بل لقد طلب أيضًا إرسال الزبير باشا ليحل محل السلاطين السابقين للسودان، الذين أثبتوا أنه لافائدة ترجى من ورائهم . وكان قد سبق لغوردون أن أبرق إلى بارنج من أبوحمد وهو فى طريقه إلى الخرطوم، أن الزبير هو أنسب شخص ليكون حكمداراً عامًا على السودان إذا أردنا أن يسود الهدوء فى البلاد [٧١].

وكان بارنج أيضًا يؤيد إرسال الزبير، ولايعتقد أن تعيينه يمكن أن يؤثر فى مسألة الرق[٧٢].

وكانت خطة غوردون أنه بعد القضاء على المهدى، يمكن أن يحكم الزبير السودان على أساس أن يتمتع بحماية دولة خارجية، وهذه الدولة إما أن تكون مصر أو تركيا أو بريطانيا ، وسوف تكون السيادة لها بصفة اسمية دون أى التزامات من ناحية الأموال أو الجنود أو المسئولية . ولما كانت مصر وتركيا فى نظر غوردون لا تصلحان للقيام بهذا الدور، فقد رأى غوردون أنه يمكن لبريطانيا أن تلعب هذا الدور، أى يكون الزبير فى وضع مماثل لوضع أمير أفغانستان الذى يتلقى من بريطانيا معونة أدبية . وأيده بارنج فى ذلك [٧٣].

وهكذا أصبح الوضع أمام الوزارة البريطانية ينحصر فى : هل يوافقون على إرسال الزبير وتعزيز قوات جراهام والقضاء على المهدى؟

أما بخصوص إرسال الزبير ، فرغم موافقة بارنج وتأييده الشديد[٧٤] له ، فإن الوزارة لم يسعها الموافقة على إرسال رجل سبق لغوردون نفسه أن وصفه بأنه «أكبر تاجر للرقيق ظهر فى الوجود » كى يحكم السودان تحت السيادة البريطانية. أضف إلى ذلك أن جلادستون رأى أن انسحاب القوات المصرية من السودان يترك البلاد من حق الأتراك قانونًا (De Jure)، وهذا ما تجاهله كل من بارنج وغوردون، هذا فضلا عن أن الوزارة كانت منقسمة على نفسها إزاء هذه المسألة ، فإن (ديلك) كان يرى أنه لو عرضت الحكومة تعيين الزبير، فإن جماعة مكافحة الرق (Anti-Slavery Society) ، يمكنها مع المحافظين قلب الوزارة فى مجلس العموم [٧٥].

وفى أثناء هذا التردد الذى ساد موقف الوزارة ، أقدم غوردون على خطوة خطيرة، فإنه لم يعد يحتمل تأخير الحكومة، فانفجر فى إحدى ثورات غضبه يعلن عن طلبه الزبير إلى (فراد باور) مراسل (التيمس) فى الخرطوم وقنصل انجلترا بها. وكان طلب إرسال الزبير قد بقى حتى الآن -رسميا- فى طى الكتمان. ويبدو أن غوردون قدر أن إعلان هذه المسألة من شأنه أن يجبر الحكومة على النزول على طلبه .

وإذا كان هذا ما دار بذهنه فعلاً ، فإنه يكون قد أخطأ خطأ كبيراً، فإن بلاده التى لم تكن هضمت بعد مسألة إباحة الرق، لم يكن من المتوقع أن تبتلع مسألة إرسال الزبير، فازداد تشدد موقف جماعة مكافة الرق.

وقررت الوزارة فى النهاية ضرورة إبقاء الزبير فى القاهرة، لأن الرأى العام لايحتمل تعيين الزبيـــر[٧٦]. ويقول البعض أن الرأى العام البريطانى كان يفضل كثيراً أن تستمر الفوضى وتجارة الرقيق فى السودان على أن يقضى عليها حاكم كان أصلا من تجار الرقيق[٧٧].

وهكذا بدا أن الموجة الاستعمارية التى كانت قد علت، لم تصل إلى الحد الكافى، بل لقد بدا أنها فى طريق الانحسار. وكانت الخطوة التالية حاسمة للغاية فقد اعترض (هاركورت Harcourt) أحد أعضاء الوزراء على توسيع نطاق عمليات جراهام العسكرية، وفعلاً قررت الوزارة إبلاغ القائد بأنها لاتنوى إرسال قواتها إلى بربر، وأن عمله ينبغى أن يقتصر على تهدئة المنطقة الواقعة حول سواكن، وإعادة المواصلات مع بربر بوسائل سلمية عن طريق الاستعانة بالقبائل الصديقة، وأن عليه أن يستعد للإبحار سريعًا مع قواته [٧٨].

وترتب على هذا الإنسحاب نتائج بالغة الخطورة ، فقد بدت القوات الإنجليزية فى نظر المهديين عاجزة عن أن تحقق نصراً مؤزراً عليهم، الأمر الذى انتهى بالقبائل النازلة بالشمال والشمال الشرقى من الخرطوم إلى أن تتخلى عن ترددها السابق، وتعلن انضمامها لجانب المهدى، فقامت بقطع خطوط المواصلات وبات من المستحيل سحب الأهالى أو الحاميات .

وكان أن غدت المشكلة تنحصر فى «كيفية الخروج بغوردون وستيوارت من الخرطوم [٧٩]، وكانت الوزارة البريطانية بعد اجتماعها فى ١١ مارس قد أبلغت بارنج فى برقية ١٣ مارس أنه لايسعها الموافقة على إرسال الزبير أو إرسال القوات الإنجليزية إلى بربر[٨٠].

وصادفت هذه الأنباء تحرج موقف غوردون فى الخرطوم «ففى ١٢ مارس تم قطع خط البرق بين الخرطوم وبربر ، وظهرت تجمعات المهديين بقيادة الشيخ العبيد وأولاده والشيخ المضوى

عبد الرحمن - عند الحلفاية ، وطردت قوات الحكومة منها . وفشل غوردون مرتين في استردادها . ولم يعقب ذلك أي هجوم من جانب الثوار بعد هذين الانتصارين[٨١] انتظاراً لتعليمات المهدي. وكان قد أرسل إلى غوردون في ٧ جمادي الأولى ١٣٠١ (٥ مارس ١٨٨٤) رده على ما سبق أن عرضه عليه الحاكم البريطاني من الاعتراف به سلطانا على كردفان. ووصل رد المهدي في ٢٢ مارس يعرض على غوردون اعتناق الإسلام، وبعث إليه بجبة مرقعة وهي زي الدراويش. ورفض غوردون العرض بكل احتقار ودفع الهدية بقدمه ، وأعاد الرسل إلى الأبيض، وبدأ العدة للدفاع عن الخرطوم. وبالفعل عين المهدي محمد عثمان أبو قرجه أميراً لجهات البحر وطلب منه تنظيم الحصار حول الخرطوم .

وفي الوقت نفسه أرسل محمد أحمد معلمه السابق محمد الخير أميرا على بربر، فوصلها في ٢٧ أبريل . وكان الشيخ الأمين أحمد المجذوب - شيخ المجاذيب- قد انضم إليه في الدامر، ومن الدامر كان محمد الخير قد كتب إلى حسين باشا خليفة حاكم بربر بالتسليم فرفض، ففرض الحصار عليها في ١٦ رجب ١٣٠١ (١٢ مايو ١٨٨٤) واستسلم حسين باشا في ٢٣ رجب ١٩ مايو [٨٢].

وبذلك بات موقف غوردون بالغ الخطورة ، فعثمان دقنه أغلق عليه الطريق إلى سواكن، ومحمد الخير أغلق طريق النيل نحو الشمال، ولم يعد في وسع غوردون إخلاء الخرطوم دون أية مساعدة عسكرية من الخارج.

وأخذ القلق يسيطر على الرأى العام الإنجليزي، وعندئذ أدركت الملكة خطورة الموقف فأبرقت إلى لورد هارنتجتون في ٢٥ مارس تقول أن الجنرال غوردون في خطر وأنه- أي هارنتجتون - ملزم بأن يقوم بمحاولة لإنقاذه[٨٣] فرد جرانفيل في ٢٥ مارس على برقية لبارنج في اليوم السابق يقول أن الحكومة تود أن تترك لغوردون مطلق التصرف في البقاء في الخرطوم، إذا وجد ذلك ضروريًا ، أو أن ينسحب بطريق الجنوب أو أي طريق آخر يمكن أن يسلكه [٨٤].

وقد ثبت أنه كان في وسع غوردون الجلاء فيما بين ١٨ فبراير (تاريخ وصوله إلى الخرطوم) و١٢ مارس تاريخ قطع خط البرق، بل وحتى في إبريل لغاية منتصف مايو ١٨٨٤ ، كانت هناك فرصة للهروب لو أنه حاول الانسحاب من الخرطوم بطريق بربر، ولكنه لم يشأ أن يستفيد من هذه الفرص[٨٥] وبقي في الخرطوم متعمداً أو متحديًا رغبات رؤسائه . وهنا بدأت الحقائق

تتضح فى ذهن جلادستون : غوردون يسعى إلى إكراه الحكومة على التدخل ، ويأمل أنه بقدر ما يطول مقامه فى السودان، يشتد الأمل فى أن ترسل الحكومة إلى السودان جيشاً للقضاء على المهدى.

والشواهد كلها تؤيد جلادستون فى تحليله للموقف فى السودان ، فقد جاء فى رسالة غوردون إلى بارنج فى ٧ أبريل أنه إزاء رفض الحكومة إيفاد الزبير أو حملة إلى بربر، فإنه يعتبر نفسه حراً يتصرف حسبما تدعو الظروف ، وأنه سوف يبقى فى مركزه طالما يستطيع ذلك، وإذا كان فى وسعه القضاء على الثورة فلن يتردد فى ذلك، وإذا لم يستطع ، فإنه سوف ينسحب إلى خط الاستواء لينزل بالحكومة عار التخلى عن حاميات سنار وكسلا وبربر ودنقلة، وهنا لاتجد مناصاً من القضاء على المهدى[٨٦].

واعتبر جلادستون هذه الرسالة تحدياً شخصياً له [٨٧]، فلم يعبأ بالرأى العام ووقف موقفاً صلباً أمام مجلس العموم وتجاهل الصاحفة وقال إن إرسال جيش معناه إعلان الحرب ضد شعب يكافح من أجل حريته [٨٨].

وبالفعل بدأت الحملة التى تدعو لإنقاذ غوردون تخف تدريجياً ، وشغل الناس بأنباء أخرى أكثر أهمية منها تحركات الروس على حدود أفغانستان ، وبدا كأنما الجميع قد نسوا غوردون، بل أن جرانفيل بدأ يرى أن غوردون يسير على سياسة من وحيه للقضاء على المهدى دون جيش، وأن الحكومة بذلك تنفى مسئوليتها[٨٩] واكتفى جلادستون بأن أدلى ببيان فى مجلس العموم فى ٣ أبريل بأن لغوردون مطلق الحرية فى البقاء فى الخرطوم حتى ينتهى من مهمته أو ينسحب فى أى وقت يشاء ، وأن الحكومة لاتنوى أن تتدخل فى تصرفاته[٩٠].

رابعاً : حملة الإنقاذ:

وفى ٢٦ أغسطس ١٨٨٤ ، عين لورد ولزلى قائداً لحملة الإنقاذ. وعندما وصل إلى مصر فى ٩ سبتمبر ، كان الفيضان قد بلغ حداً جعل غوردون يفكر فى إنفاذ إحدى بواخره الصغيرة فى النيل لكى تمر فوق الجنادل إلى مصر، وفكر فى انتهاز هذه الفرصة لكى يبسط أمام السلطات فى القاهرة ولندن والرأى العام فى بلاده حقيقة الوضع فى الخرطوم وقد شحن بهذه الباخرة واسمها (عباس) مجموعة من الوثائق تضم مفكرة ستيوارت Stewart, S Diary، ونداء شخصى بطلب المعونة موجه منه إلى الدول الأوربية. وفى ليلة ٩ سبتمبر ، كانت الباخرة على وشك الإقلاع حين طلب القنصل الإنجليزى (فرانك باور) والقنصا الفرنسى المسيو هيربن

Herbin السماح لها بالسفر، ثم طلب ستيوارت أن يسافر معها وكان ستيوارت هو الرجل الثانى فى القيادة ، لذلك لاندرى السبب فى تخليه عن غوردون فى هذه المحنة، قد علق أحد أصدقائه على ذلك بقوله «إن دونالد ستيوارت كان صديقًا شخصيًا لى. ولايمكن لأحد أن يشك فى شجاعته ، ولكن ما كان يجب أن يخلف أخاه فى السلاح وحيداً فى الخرطوم[٩١].

والمعنى الذى يمكن استخلاصه من سفر ستيوارت وزملائه أن الطريق كان لايزال مفتوحًا للعودة إلى مصر، ومع ذلك فضل غوردون البقاء فى الخرطوم. وكتب فى مذكراته أنه بفرض وصول حملة الإنقاذ ، فإنه كان مصممًا على ألايمثل دور الحمل الذى تم إنقاذه . وأكد أن الغرض من الحملة هو إنقاذ شرف إنجلترا عن طريق إنقاذ الحاميات فى السودان وليس من المعقول أنها جاءت لإنقاذه وحده[٩٢].

وفى موضع آخر من مذكراته يقول : إنى أعلن أننى لن أغادر السودان قبل أن تتاح الفرصة لمغادرة السودان لكل من يريد ذلك، وإلا بعد أن تقوم حكومة تحمل العبء، وحتى لو وفد رسول أو جاءنى خطاب يأمرنى بالعودة، فلن أطيع ذلك ، بل سأبقى هنا أسقط مع المدينة وأخاطر بكل شىء[٩٣].

أما ستيوارت ورفاقه فقد هوجموا فى بلاد المناصير قرب أبوحمد وقتلوا فى ١٨ سبتمبر على يد سليمان نعمان ودقمر[٩٤] أحد شيوخ القبائل المحلية.

وكان غوردون صريحًا مع شقيقته (أوجستا) حين كتب إليها يقول : وإنى أتوقع أن يشتد حنق حكومة صاحبة الجلالة على بسبب بقائى واضطرارها إلى التدخل ... ثم يقول إنه سعيد لأنه حاول القيام بواجبه[٩٥] أى أن بقاءه فى الخرطوم يعد فى رأيه قيامًا بواجبه.

ولم تصل أنباء حملة ولزلى إلى غوردون إلا فى ٢٠ سبتمبر ، ومع ذلك فإن طابور الصحراء لم يتقدم من كورتى فى دنقلة عبر صحراء بيوضة متجهًا إلى الخرطوم إلا فى ٨ يناير ١٨٨٥م، وفى تلك الأثناء كان موقف غوردون يزداد حرجًا يومًا بعد آخر، فإن المهدى وأنصاره كانوا قد غادروا الأبيض فى بداية إبريل ١٨٨٤، وعسكروا بالرهد ، ثم تحرك قسم من الجيش بقيادة عبد الرحمن النجومى من الرهد فى بداية رمضان (٢٥ يونيو) ، فوصل الخرطوم فى أوائل سبتمبر وبدأ يشدد ضغطه على المدينة. أما المهدى فقد غادر الرهد مع بقية أتباعه والأسرى فى ٢٢ أغسطس حتى وصل إلى الدويم وسار بمحاذاة النيل الأبيض على الضفة اليسرى حتى بلغ موقع (أبوسعد) جنوبى أم درمان فى ٢٣ أكتوبر وفيه أقام مقر القيادة وكتب

إلى غوردون يطالبه بالتسليم، ولم يلبث أن استسلمت قلعة أم درمان فى ٥ يناير ١٨٨٥، فكان لذلك وقع سيء فى نفوس المحاصرين[٩٦].

وكان لورد ولزلى قد وصل إلى دنقلة فى ٣ نوفمبر ١٨٨٤، وفى اليوم التالى قرأ على الناس دكريتو خديوى موجه إلى المدير والعلماء والقضاة والأعيان والتجار ومشايخ البدو بأن ولزلى يحمل إلى السودان قائداً للقوات البريطانية ليقوم بما تدعو الحاجة إليه من عمليات عسكرية، وطلب منهم إطاعته [٩٧].

وكانت التعليمات الأولية إلى ولزلى تنص على إنقاذ غوردون وستيورات فى الخرطوم، وبعد أداء هذه المهمة ، ينبغى ألايقوم بأية عمليات هجومية . ومع ذلك فإنه بعد أن يتم انسحاب الضابطين والجنود والموظفين المصريين فى سلام كان عليه أن يحمل الترتيبات اللازمة لإقامة حكومة للسودان وخاصة فى الخرطوم[٩٨]. وبذلك يحقق الاستعماريون الأحرار هدفهم الذى عملوا من أجله فترة طويلة.

ووصلت حملة الإنقاذ إلى كورتى قبل أول العام الميلادى وهناك احتفلت ببداية العام الميلادى الجديد ولكن القوة لم تحتفل لأنه وصلت رسالة من غوردون مؤرخة فى ٤ نوفمبر ، ينصح فيها ولزلى بأن يشق طريقه من (أم بقول) - كورتى إلى المتمة عبر صحراء بيوضة ، وقال أنه سوف يجد فى انتظاره فى المتمة خمس سفن مزودة بتسعة مدافع، وقال إنه رأى أن غوردون يمكنه مواصلة القتال أربعين يومًا أخرى بسهولة. وقال أيضًا أن الطريق على طول النيل شمالى الخرطوم لاتحتله أية عناصر عربية لأنها تتركز فى الجنوب ، والجنوب الشرقى والشرق من المدينة[٩٩].

واضطر ولزلى بعد أن كشفت هذه الرسالة عن دقة الموقف وخطورته أن يبدل خططه، فعول على أن يتقدم طابور عبر الصحراء إلى المتمة فى مسافة ١٧٦ ميلاً ومنها إلى الخرطوم، وبات هذا الجيش يعرف اسم (طابور الصحراء) Desert Column. أما بقية الجيش فتسير طبقًا للخطة الأصلية بمحاذاة النهر. وخرجت مقدمة طابور الصحراء فى ٣٠ ديسمبر لاحتلال آبار الجقدول، وبعد أن أخذ سيرهربرت ستيوارت قائد الطابور العدو على غرة عند هذه الآبار، واصل سيره إلى المتمة، حيث بات من الواضح أن المهديين عقدوا النية على سد الطريق أمام الطابور عند آبار أبى طليح على مسافة ٦٣ ميلاً من المتمة وكان ولزلى قد أمر سير تشارلز ولسون بمرافقة الطابور، بشرط أنه عقب وصوله إلى المتمة، كان عليه أن يتوجه على ظهر

البواخر التى تحدث عنها غوردون إلى الخرطوم بمساعدة ضباط البحرية وقوة صغيرة من المشاة. ثم يتباحث مع غوردون ، ويعود بالجنود على نفس البواخر إلى المتمة والاتصال بمركز قيادة ولزلى. ويبدو من هذه التعليمات أنه لم تكن هناك نية لسحب غوردون من الخرطوم، وأن ولزلى اعتقد أن المهدى لابد أن ينسحب حين يرى قوة ولسون ، وبالتالى يرفع الحصار عن المدينة، وبذلك تصبح الخرطوم مركزاً سياسيًا لرسم الخطط للمستقبل ، بينما تتحول بربر إلى هدف عسكرى، فتكفى قوة صغيرة برياسة ولسون لإقناع أهالى الخرطوم بوجود الجيش البريطانى، بينما تعمل القوة البريطانية الآتية بمحاذاة النهر على احتلال بربر والتقدم شرقًا على طريق سواكن[١٠٠].

فى حين أن خطة المهدى كانت تقوم على أساس أن تموت الخرطوم جوعًا فتضطر إلى التسليم كما حدث فى الأبيض. فلما شعر باحتمال قدوم قوة بريطانية لرفع الحصار عن المدينة، بات من الضرورى مهاجمة المدينة فوراً.

واشتبك البريطانيون مع قوات محمد الخير، وعلى ود سعد فرح ، أمير الجعليين عند أبى طليح ، وخسر المهديون - حسب تقرير ستيوارت الرسمى- ثمانمائة قتيل بعد أن أبدوا بسالة وإقدامًا منقطع النظير[١٠١].

وبعد معركة أبى طليح استأنف الطابور زحفه ، فاشتبك مع التعزيزات التى أرسلها المهدى بقيادة النور محمد عنقرة عند القبة فى ١٩ يناير ، وتمكن الطابور من صد المهديين ، ولكن بعد أن دفع ثمن ذلك حياة قائده ستيوارت ، فحل محله ولسون الذى تقدم نحو النيل فوجد بواخر غوردون تحمل أنباء سيئة بأن مركز غوردون فى الخرطوم بات حرجًا للغاية [١٠٢].

وبدلاً من أن يتقدم ولسون على ظهر البواخر إلى الخرطوم مباشرة تمهل قليلاً ، إذ شعر أن واجبه الأول هو تأمين سلامة القوة التى سوف يخلفها فى المتمة على ضفاف النيل، فقد خشى أن تتعرض للهجوم من جانب الإمدادات التى بدأت تنهال على أعدائه من الشمال ومن الجنوب، وكان يعتقد فى إمكان تخفيف الضغط على الخرطوم، إذ أن انتصارات جقدول وأبى طليح لاشك سوف تقوى روح الجنود المعنوية فى الخرطوم ، فضلا عن أن المهدى سوف يسحب بعض قواته لمواجهة القوة القادمة من الشمال [١٠٣].

ويخالفه البعض فى اعتقاده ، ويرى أن تأخير قدوم القوة البريطانية هو السبب فى سقوط الخرطوم ومصرع غوردون وتقرير مصير السودان، وأن المهدى استقر رأيه على الهجوم فقط حين

بلغه التعطيل الذى أصاب القوة البريطانية فى القبة، وأنه لم يكن فى نيته الهجوم قبل ذلك، إذ أنه لما علم بما حل بقواته فى أبى طليح أراد أن يرفع الحصار وينسحب إلى كردفان ، فلو ظهر الإنجليز أمام الخرطوم قبل أن يشن هجومه عليها ، لرفع الحصار وانسحب (١٠٤).

ومهما يكن من أمر، فلاشك فى أن ظهور القوة البريطانية فى صحراء بيوضة كان له أثر كبير فى موقف المهدى أمام الخرطوم، ولاشك فى أن المهدى أيضًا وضع فى ذهنه يومئذ النتائج التى تترتب على رفع الحصار والإنسحاب إلى كردفان أو مهاجمة المدينة فوراً، ولابد أنه دارت مناقشات وظهرت آراء تؤيد هذا الحل أو ذاك، وقيل أنه عقب انتصارات الإنجليز فى أبى طليح والقبة عقد مجلسًا من الخلفاء والأفراد وأقاربه، وهذا أمر طبيعى، وقد تم فيه الاتفاق ، بعد أن قلبّوا جميع أوجه الرأى، على الانسحاب إلى كردفان، ولعلهم فكروا فى عدم جدوى الاصطدام بالقوة الإنجليزية المدربة على أحدث فنون القتال، وفضّلوا استدراجها إلى مجاهل كردفان ليحل بها ما حل بالحملات المتعددة التى سيرتها الحكومة فى هذه المديرية. ولكن محمد عبد الكريم عم المهدى، اعترض على ذلك الانسحاب ، وأشار بمهاجمة الخرطوم فوراً وبذلك يضطر الإنجليز إلى الإنسحاب ، حين يعلمون بسقوط المدينة التى جاءوا لإنقاذها بمن فيها. وإذا أصر الإنجليز على التقدم فسوف يكون هناك وقت يسمح بالارتداد. ولذلك قرر المجلس المنعقد شن الهجوم فوراً قبل وصول القوة الإنجليزية. وقد شجع على اتخاذ القرار بعض من فروا من المدينة وهؤلاء شهدوا بنقص خطير فى المؤن وانعدام قدرة الجنود على القتال، فضلاً عن أن أحد قواد الباشبوزق ويدعى عمر الفقيه إبراهيم فر إلى معسكر المهدى يوم ٢٤ يناير من الخرطوم ودل المهديين على مواقع الضعف فى تحصينات المدينة. وفى اليوم التالى أتت الأنباء بخروج وابورات ويلسون من القبة فأمر المهدى عبد الرحمن النجومى ببدء الهجوم، وتم على الأثر استسلام المدينة ومصرع غوردون فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ (١٠٥). وقد أحدث نبأ سقوط الخرطوم ومصرع غوردون صدمة كبيرة فى الرأى العام البريطانى(١٠٦) . بل وفى العالم المتحضر كله(١٠٧) حتى أن الملكة بادرت بإرسال برقية en Clair إلى الوزارة تقول فيها أنه كان من الممكن تفادى الكارثة وإنقاذ حياة الكثيرين ، لو أن الوزارة بادرت إلى العمل فى وقت مبكر(١٠٨).

ولم يكن غريبًا، حينما أبرق لورد ولزلى إلى حكومته يطلب التعليمات الجديدة عقب هذه التطورات ، أن يشعر الشعب البريطانى شعوراً قويًا بألا يسمح بالهزيمة. ولكن سرعان ما فتر

هذا الحماس المفاجىء ، بعد أن بدأت السحب تتبلد فى أفاق العلاقات مع روسيا فى أفغانستان ، إذ وقع صدام بين القوات الروسية والأفغانية على الحدود فى مدينة بنجدة الأفغانية.

خامسًا : الزحف نحو الخرطوم وفشل المهمة:

أمام هذا الوضع الدقيق لم يسع الحكومة سوى النزول على رغبة ولزلى بالزحف إلى الخرطوم أو إعلان سياستها عن المستقبل فى السودان (١٠٩).

وعندما عكفت الوزارة على التفكير فى هدوء بعد مرور العاصفة التى أثارتها حوادث الخرطوم، وبصرف النظر عن التوتر فى العلاقات مع روسيا، أدركت الوزارة البريطانية أن الاستيلاء على الخرطوم لايخدم أى غرض(١١٠).

فاللورد ولزلى رغم أنه يوالى إرسال البرقيات التى تدعو إلى ضرورة القضاء على المهدى وإلا حل الدمار بمصر(١١١). اعترف فى سياق خطاب منه إلى أحد الأعضاء الأحرار فى البرلمان، بأن حرب السودان سوف تكون أشد المعارك خطورة بعد (واترلو) . وتلقف هذا الاعتراف الأعضاء فى الوزارة البريطانية الذين كانوا يعارضون منذ البداية فى تجريد حملة الإنقاذ (١١٢)، ولم يسعهم الموافقة عليها إلا تحت ضغط تهديد هارتنجتون بالاستقالة ومن معه من الاستعماريين الأحرار، وصادف فى ذلك الوقت أن أرسل (بارنج) يعترض على مواصلة العمليات الحربية فى السودان (١١٣). لذلك تمسك العنصر المعارض للتدخل برئاسة جلادستون بهذه الاعتراضات من جانب ولزلى وبارنج، واعترضوا بدورهم على الزحف على الخرطوم ، على أساس أن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى إطالة أمد الاحتلال فى السودان وبالتالى فى مصر، فضلاً عن أنه ليس فى صالح البلاد الإنغماس فى القتال تحت تهديد شبح الحرب مع روسيا فى أفغانستان. وأمام هذه الاعتبارات كلها، وافقت وزارة الأحرار على الانسحاب من دنقلة(١١٤)، وذلك رغم معارضة الاستعماريين الذين كان يمثلهم فى الوزارة هارتنجتون ويؤيده نورثبروك وسلبورن وكالنجفورد(١١٥).

ولما سقطت حكومة جلادستون فى ٨ يونيو وخلفتها وزارة سولسبرى المحافظة ، فكرت فى العدول عن سياسة الانسحاب التى انتهت إليها وزارة الأحرار، خاصة وأن شبح الحرب مع روسيا قد اختفى(١١٦). وبالفعل طلبت من ولزلى الاحتفاظ بدنقلة(١١٧).

غير أن ذلك كان يتطلب جهوداً وأموالاً طائلة. هذا بالإضافة إلى أن الجنرال بولر (Buller) أحد قواد حملة الإنقاذ قدم تقريراً بأن إخلاء دنقلة أوشك على الانتهاء ، وأنه لابد من تنظيم حملة جديدة ، إذا استدعى الأمر الاحتفاظ بالمديرية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المديرية كانت تعانى فقراً شديداً فى الغلال، أدركنا لماذا عدلت حكومة سولسبرى عن خطتها ، ففى ٢ يوليو أبرقت ما يلى:

«إن حكومة جلالة الملكة بعد أن استعرضت الظروف كلها تماماً ، ليست على استعداد لأن تخالف أوامر الحكومة السابقة، فتوقف أمر انسحاب القوة من دنقلة»[١١٨] وبذلك تم التخلى عن السودان فى النهاية، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا القطر الكبير قد فقدته بريطانيا ، فمنذ ذلك الوقت نشأت علاقة بين بريطانيا والسودان نتيجة للحوادث التى بدأت منذ سنة ١٨٨٢ والتى انتهت بالانسحاب من دنقلة وهذه العلاقة من شأنها تعزيز وضع الإنجليز فى مصر، ثم أن إخلاء السودان كان يعقبه حتماً استرجاعه على يد مصر التى تقوم بريطانيا بدور الوصى عليها ، وإذا كان هذا لم يدر بخلد أحد رجال السياسة البريطانيين، فلا شك فى أنه كان فى ذهن سير افلين بارنج[١١٩]. وبذلك تنتهى المسألة نهاية سعيدة بعد مذبحة مروعة يتم فيها الإجهاز على عشرين ألفا من السودانيين فى موقعة أم درمان فى سبتمبر ١٨٩٨ ويعقبها ضم أراضى واسعة إلى الإمبراطورية البريطانية، ودخول سير افلن بارنج فى زمرة النبلاء[١٢٠].

الخاتمـــة

وفى الختام، يبدو من خلال هذا البحث أن غوردون ارتكب خطأ كبيراً وكان له أثر عكسى على الثورة المهدية، فقد قوى من أنصارها حين أعلن للسلطات المحلية فى بربر فرمان الخديوى الذى يحمل نبأ الجلاء عن السودان . وفى ١٣ فبراير أخبرهم بنواياه فى إبعاد المصريين جميعاً -وكذلك الأتراك- وإحلال السودانيين محلهم، ليديروا شئون بلادهم، وأعلن أنه أخذ على عاتقه تنفيذ هذه السياسة ، وأن الحكومة على استعداد لتحمل نفقات كل من له رغبة فى الرحيل عن السودان، فكان هذا الإعلان -كما عبر ستيوارت - قفزة فى الظلام، وكما وصفه «اورفالدر» رئيس البعثة الكاثوليكية بأن هذه الطعنة سددها غوردون إلى نفسه فقضى على مهمته . واعتبره السير ونجت الإعلان المميت الذى كان ضحيته غوردون نفسه، فقد قضى هذا الإعلان على كل متردد فى الانضمام للمهدى، وقطع أمل المساعدة على القبائل التى كانت لاتزال تتطلع إلى مصر فها هو حسين باشا حاكم بربر يقرر أن إعلان غوردون هذا قلب الوضع كلية فى السودان، وكان سببًا غير مباشر فى سقوط بربر وقد دفع ذلك المهدى إلى أن يوجه نداءه إلى هؤلاء المترددين بأن ينضموا تحت لوائه . وتساءل عن مدى استمرارهم فى تأييد حكومة تتأهب لترك البلاد. ولاشك فى أن الاستجابة كانت قاطعة خوفًا من أن يلقوا مصيرهم بعد جلاء المصريين، ويتركون دون حماية ، ولذلك أخذ المعارضون للثورة يلهثون وراءها ويعلنون تأيدهم لها، فقد حطم اعلان غوردون كل أمل لهم فى مساعدة الحكومة. ويعبر عن ذلك ما قاله على واد سعيد أمير متمة «كيف أظل على إخلاصى للحكومة التى صممت على التخلى عنى» وقد رأى غوردون أن إخلاء السودان دون تحديد من يرث الحكم يكون خطيراً ورأى ضرورة تعيين الزبير باشا على رأس حكومة فى السودان على أن يكون هذا التعيين مباشرا من حكومة جلالة الملكة وعليه أن يتعهد بالآتى:

١- بألا تمتد سلطته إلى الأقاليم الجنوبية وخصوصًا منطقة بحر الغزال .

٢- بألا تمتد سلطته إلى دارفور .

٣- يوالى إشعار الحكومة المصرية بإرتفاع مناسيب مياه النيل نظير مائتى جنيهًا سنويًا .

٤- أن يظل فى حالة سلمية مع أثيوبيا .

٥- ألايفرض ضرائب تزيد عن ٤٪ على الصادرات والواردات.

٦- ألايحاول الانتقام من أى شخص اشترك فى سحق ثورة ابنه .

٧- أن يقوم بدفع المعاشات التى تعهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى.

وكان غوردون يطمع فى موافقة حكومته على هذا الاقتراح ، وخاصة بعد أن اتضحت له الرؤيا حول الثورة المهدية وطبيعتها وبعد أن لقى اقتراحه عطف بارنج وموافقة ستيوارت وآخرين من المسئولين فى القاهرة . وكان غوردون يرى فى الزبير الشخصية السودانيةالتى تستطيع أن تحقق التوازن مع قوة المهدى، وتستطيع أن تحدث انشقاقًا فى صفوف المهدية، وخاصة ممولوها من كبار تجار الرقيق فها هو السودان وجيشه ورجاله يحاربون مع المهدى انتقامًا لإبعاد سيدهم وقتل ابنه سليمان. ولكن تعمدت الحكومة البريطانية إذاعة هذا الاقتراح ليلقى المعارضة من جمعيات محاربة تجارة الرقيق ومن الجرائد البريطانية، ولايمكن أن تعفى الحكومة البريطانية مطلقًا من مسئوليتها عن هذه الحملات حتى سقط هذا الاقتراح تلقائيًا. وفى ذلك يقول السير ونجت «من يدرى ربما لو كان الزبير قد سافر إلى هناك قبل غوردون لما دخل الإنجليز السودان» فبريطانيا تعرف جيداً أن غوردون قد أصدر أوامره بحرية امتلاك الرقيق وشرائه والتصرف فيه، وأنه لم يأت إلى السودان لتنفيذ معاهدة مكافحة الرقيق لأن ذلك خارج عن مهمته ، إذاً فلامبرر لبريطانية لأن تبدى مخاوفها من عودة الرق وتجارته فى ركاب عودة الزبير خصوصًا وأن غوردون قد أباح ذلك.

وقد أراد غوردون أن يختبر صدى هذه الإجراءات خارج الخرطوم فأرسل ستيوارت إلى منطقة النيل الأبيض وقد اصطحب معه شيخ الدويم وقاضى شلك، لمساعدته فى تنفيذ مهمته. ولكن الجميع لم يستطع التحرك خلف الدويم فى النيل الأبيض إذ قوبلوا بنيران البنادق من الأهالى. وكان لهذه الرحلة أثرها فى نفس القاضى الشيخ عبد القادر إبراهيم ، إذ أن البقاء أكثر من ذلك فى معسكر غوردون يعتبر تهوراً. وكان لهذا الفشل أثره فى اضطراب العاصمة عندئذ أدرك غوردون خطورة موقفه وسوء تقديره للموقف فقد كان لإجراءاته أثر عكسيا لما كان يتصور . وأخذ يشدد على حكومته بضرورة سحق المهدى وأتباعه. وهذا فى رأيه ضرورى لإتمام الجلاء وتكوين حكومة مستقرة. واعتقد غوردون أن تحطيم المهدى ضمان لسلامة حدود مصر، وطلب إرسال مائتين من القوات المهدية لحراسة الحدود عند وادى حلفا، وأصدر منشوراً يخبر بوصول قوات بريطانية لحفظ النظام وإعادة الأمن للسودان.

وفى هذه الأثنا ـ أخذ غوردون فى جمع قواته عندما علم بتقدم الثوار إلى أم درمان استعد مع قواته للدفاع عن العاصمة ولكن هذه الاستعدادات على الرغم من كونها ضرورية للدفاع وحماية العاصمة إلا أنها أثارت الاعتقاد بأن غوردون لاينوى حقيقة الجلاء عن الإقليم، خصوصًا وقد لاحت له فرصة الانسحاب من ناحية بربر، على أن يقود غوردون بنفسه هذا الانسحاب . وأصبح واضحًا أن أى تأجيل أو تأخير سيجعل التقهقر عملية مستحيلة لأن النيل فى تلك المنطقة منخفض للغاية.

أما ما كان يدور فى خلد غوردون من إقامة حكومة منظمة، والعمل على القضاء على المهدى، وغير ذلك من خطوات اتخذها لتدعيم الخرطوم وحمايتها ، فإن كل هذه الإجراءات كانت على عكس ما توقعته حكومة جلادستون وزملائه من عدم التدخل عسكريًا فى السودان، إذكان الهدف الرئيسى لمأموريته هو الجلاء .

وفى نهاية فبراير أصبح موقف غوردون فى الخرطوم أكثر تعقيداً، واتهم حكومته بأن ترددها وعدم تلبية أوامره قد جعله فى موضع المقبوض عليه فى الخرطوم. ولكى يهيىء لنفسه فرص نجاح مأموريته حث بشدة على ضرورة فتح الطريق بين سواكن وبربر، وطلب معونة من الفرسان البريطانيين والهنود لاحتلال الطريق بين سواكن وبربر، ومنذ ٨ مارس أصبح غوردون يخشى فرض الحصار على الخرطوم وأخذت الأحداث تتوالى مسرعة ففى ١١ مارس أبرق أن الثوار على مسيرة أربع ساعات من النيل الأزرق، ونتيجة لذلك أصبحت الخرطوم على وشك الحصار. ولكن فى نفس اليوم قررت الحكومة البريطانية ألا ترسل الزبير، وألا ترسل له أية قوات بريطانية إلى بربر. ولم يفلح غوردون فى أن يجبر حكومته على أن تغير من سياستها، على الرغم من أن وضعه ازداد سوءاً فى الخرطوم منذ ٨ مارس . وأبلغ بارنج غوردون هذه التعليمات من حكومته .

ولعل فى هذا ما يدعم الاتهام لبريطانيا بأنها حاولت استغلال الثورة المهدية لتحقيق مصالحها والإطاحة بالإدارة المصرية خارج السودان ، وأن تلبية رغبات غوردون يؤدى إلى تحطيم الثورة ، حتى إذا ما قررت إرسال حملة الإنقاذ نجد أنها تضيع الوقت حتى يتم تكوينها وسفرها إلى القاهرة ثم إلى السودان ، وبالتالى تتيح الفرصة للثوار للاستيلاء على الخرطوم وانتهاء الوضع فى السودان لمصلحة المهدى إلى حين.

وبسقوط بربر فى ٢٧ يونيو أصبح الأمر لايدع مجالاً للشك فى خطورة وضع غوردون. ونتيجة لذلك كان لابد من اتخاذ الإجراءات السريعة لإنقاذ غوردون والخرطوم. ولكن لم تتم الموافقة على إرسال حملة الإنقاذ إلا فى ٤ أغسطس ثم ضاع شهر آخر حتى يتم تعيين قائد الحملة فى ٩ سبتمبر ، ولم يصل وادى حلفا إلا فى ٥ أكتوبر. وهكذا استغرق إعداد الحملة لإنقاذ غوردون خمسة أشهر فى الوقت الذى كان يعنى التأخير إضعاف قوة غوردون وإتاحة الفرصة لقوات المهدى لتنظيم صفوفها والتشديد على حصار الخرطوم وتصفية الجيوب المصرية فى أنحاء السودان، دون أن ينشغل المهدى بمقابلة الحملة المنتظرة وقطع كافة الطرق على غوردون وأيضًا على حملة الإنقاذ .

الهوامش

١- أنظر الملحق نص العقد المبرم بين إسماعيل باشا خديو مصر والسير صموئيل بيكر، ص٤٦ .

٢- أنظر الملحق أمر تعيين غوردون مأموراً على خط الاستواء، ص٤٨ .

٣- مكى شبيكة : السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩، القاهرة ١٩٤٧م، ص١٠٩ .

٤- علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠-١٩٠٦، القاهرة ١٩٥٨م، ص.٧٥ .

٥- مكى شبيكة: المرجع السابق ص١١١ .

٦- على إبراهيم عبده : المرجع السابق ٧٨-٨٠ .

٧- مكى شبيكة : المرجع السابق ، ص١٢٤ .

٨- على إبراهيم عبده: المرجع السابق ص٥٨ .

٩- مكى شبيكة : المرجع السابق ص١٢٤ .

١٠- داود بركات : السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية القاهرة ١٩٤٧م ص ٤١، ٤٢ .

١١- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان، القاهرة ١٩٥٩م، ص٤١ .

١٢- Alfred Milner : The Egyptian Sudan its lose & Hacovary, London, 1898 . 30 .

١٣- أنظر ملحق حملة هكس ، ص٥١ .

١٤- مكى شبيكة ، المرجع السابق، ص١٧٣ .

١٥- الشاطر بصيلى عبد الجليل : المرجع السابق ، ص١٧٢-١٧٣ .

١٦- Theobald, A.B., The Mahdiya, History the Anglo- Egyptain Sudan, London 195 .

١٧- أنظر الملحق عن سياسة الحكومة المصرية وأمالها فى السودان .

١٨- جلال يحيى: المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠ .

١٩- Theobald: Op. cit., p. 67 .

٢٠- Omar Abdlenen Omar: Op. cit., p. 14-15 .

٢١- أنظر الملحق الأمر إلى غوردون بإعادة فتح بربر وزيلع ، ص٤٩ .

٢٢- Crabites, P., Gordon, The Sudan & Slavery, London, 1933 , p. 162 .

٢٣- Baring to Granville, Pivato, 10 , 12 . 83 , Quoted by shibeika, op. cit., pp. 120-1 .

٢٤- Granville to Baring, F.O. 13 -12 -83, No 151 in Egypt No . I. 1884, also quoted in Russel Op. cit., p. 54 ; and Cromer , Op. cit., vol , pp. 379-80 .

٢٥- Granville to Baring, F.O., 4-1- 84, quoted by Shibeika, Op. cit., p. 135; Cromer, Op. cit, vol 1, p. 382 ; Crabltes, Op. cit., p. 170 .

٢٦- Granville to Dufferin , Copy to Baring F.O. 11-12-1883, quoted by Abbas Mekki , The Sudan question, London, 1952 , p. 39 .

٢٧- Cocheris, Op. cit., p. 329 .

٢٨- Abbas, M, Op. cit., p. 39 .

٢٩- Russel, Op. cit., pp. 372-5 .

٣٠- Allen, Op. cit., p. 221 .

٣١- Shibeika, Op. cit., pp. 151-2; Crabites, Op. cit., pp. 182-3 .

٣٢- Granville To Baring, private, 15-1-84 , quoted by shibeika, Op. cit., p. 152 ; Vide also ; Allen . Op. cit, p. 222 ; Elton, Op. cit., p. 335 ; Straschey , Op. cit., pp. 246-7 .

٣٣- Gladston to Granville, 16 . 1 . 84 , quoted by shibeika, Op. cit., pp. 152-3 Morley . J., The life of W. e, Gradstone , London , 1903 , p. 390 .

٣٤- Ellon, Op. cit., p. 34 .

٣٥- Shukry, Gordon at, Khartoum, p. 34 .

٣٦- Elton, Op. cit., pp. 337-8 .

٣٧- Theobald, Op. cit., p. 78 .

٣٨- Allen, Op. cit., p. 225 ; Elton , Op. cit., p. 337 .

٣٩- Cromer, Op. cit., vol . 1, p. 437 .

٤٠- Baring to Granville; Private, 16 . 1. 84 , quoted by Shibeka, Op. cit, p. 153 ; Vide also; Russel, Op. cit., p. 47 ; Elton, Op. cit., p. 337 ; Allen, Op. cit, p. 286 ; Stratchey, Op. cit., p. 247 .

٤١- Shukry, Gordon at Khartoum, pp. 33-34 .

٤٢- Cromer, Op. cit., vol., I, p. 447 : vido also : The Thodive to Gordon, cairo p. 6 .

1.84, quotod in Russel, Op. cit., pp. 55-2 .

٤٣- Baring to Granville , Cairo, 28 . 1. 84 , quoted in Shibeika, Op. cit., p. 167 .

٤٤- Cromer., Op. cit., vol ., p. 447 .

٤٥- Fitzmaurice, Op. cit., vol. II, p. 383 .

٤٦- من المعتمد أن كرومر كان يقصد بذلك الرد على الفقرة الواردة فى كتاب (Fitzmaurice, Op. cit., vol, II, p. 383) من أن التغيير تم بمعرفة بارنج ونوبار ويعزز هذا الاعتقاد أن المقال نشر فى سنة ١٩٠٥ وهى نفس السنة التى ظهر فيها كتاب Fitzmaurice سالف الذكر .

٤٧- Times, 9.11.1905, quotod by Colvin, A, The Making of Modern Egypt, London, 1906 , p. 70 .

٤٨- Strachey , Op. cit., p. 257 .

٤٩- Shukry, Op. cit., p. 47 .

٥٠- Theobald, Op. cit., p. 87 .

٥١- Stewart's , diary, enclosed in Baring to Granville, Cairo, 3 . 3 . 84 , quoted in Shibeika, Op. cit., p. 178 .

٥٢- Eiton, Op. cit., p. 356 .

٥٣- Crabites, Op. cit., p. 211 .

٥٤- Eiton, Op. cit., p. 356 .

٥٥- Cromer , Op. cit., vol I, pp. 487 : Elton, Op. cit., p. 368 : Fitzmaurice , Op. cit., vol. II, p. 385 .

٥٦- Gwynn Tuckwell, Op. cit., vol II, p. 35 .

٥٧- Gordon to Baring, Korcsko 1.2 . 84 ; Graville to Baring F.O. II. 2 84, Quoted by Russel, Op. cit., p. 70 .

٥٨- أنظر كتاب محمد أحمد إلى أهالى سواكن المؤرخ أول رجب ١٣٠٠هـ (مايو١٨٨٣) فى نعوم شقير تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج٣ ص١٠٢-٢٠٣، ١٩٠٣ م وانظر أيضًا : Holt, Op. cit 7074.

٥٩- عن تحركات ونشاط عثمان دقنه في السودان الشرقي أنظر:

Jackson, Osman Digna, London. 1926 : levi (G.) Osman Denka Le Caire .

٦٠- Baring to Granville , Cairo 23 , 11 . 84 . Quoted in Russle. Op. cit., p. 42 .

٦١- Sortorivs, E Three Months in the Sudan London 1885, p. 23 .

٦٢- Ibid., p. 155 .

٦٣- Wyide A, 83 to 87 in the Sudan, London, 1888, vol I. pp. 29-30 .

٦٤- Gladstone to Granville, 7 . 2 . 84 , Quoted in Shibeika, Op. cit., p. 202 .

٦٥- The letters of. Queen victoria , 2nd Sorios, (London 1928) , vol . III, p. 477 .

٦٦- Elton, Op. cit, p. 559 .

٦٧- Allen, Op. cit, p. 267 .

٦٨- Wylde, Op. cit., vol, I. p. 130 .

٦٩- Cromer, Op. cit., vol. I, p. 527 .

٧٠- vide Grodon's despatch to Bating Khartoum, 26.2,84 , in Russel, Op. cit., pp. 75-76 .

٧١- Gromer, Op. cit., vol . I, p. 481 .

٧٢- Baring to Granville, 28 . 2 . 84 , quoted in Russel, Op. cit., pp. 74-75 .

٧٢- Baring to Granville . 9 . 3 . 74 , quoted in Russel Op. cit., 81 .

٧٣- Baring to Granville 9. 3. 74 , quoted in Russel, Op. cit., p. 81 .

٧٤- Ibid., pp. 74-75 .

٧٥- Cwynn & Tuckwell, Op. cit., voll II, p. 33 .

٧٦- Granvill Bering , F.O. 22.2.84, quoted by Russel, Op. cit., p. 72 ; vide also : Allen, Op. cit., p. 282 .

٧٧- Elton, Op. cit., p. 371 .

٧٨- Royle C., The Egyptian Campaigns, 1882-1899, London 1899, vol. II. p. 11 .

٧٩- Baring to Granville, Cairo 24 . 3 . 84 , quoted by Russel, Op. cit., p. 86 ; Allen, Op. cit., p. 312 ; Strachey. Op. cit., pp. 261-262 .

٨٠- Granville to Daring F.O. 133. 84 , quoted by Russel, Op. cit., p. 85 ; Allen, Op. cit., p. 306 .

٨١- أنظر رواية المهدى عن هذين الانتصارين فى الحلفاية فى ١٣ مارس والشرق فى ١٦ مارس فى كتابه إلى محمد خالد زقل المؤرخ ١٨ جمادى الثانية ١٣١٠ (١٥ إبريل ١٨٨٤) نعوم شقير: نفس المرجع، ج٣، ص٢٢٤ .

٨٢- Holt, Op. cit., pp. 40-41 .

٨٣- Strachey, Op. cit., p. 263 ; Allen., Op. cit., 312 . Letters of queen Victoria , Op. cit., vol III, p. 485 .

٨٤- Cromer, Op. cit., vol . I, p. 542 .

٨٥- Shukry, Gordon at Khartoum, pp. 49-59 .

٨٦- Allen, Op. cit., p. 331 ; Cromer, Op. cit., vol . I, p. 555 ; Gordon to Baring, Khartoum 7 . 4. 84 , quoted in Russel Op. cit., p. 93 .

٨٧- Strachey, Op. cit., pp. 268-69 .

٨٨- Allen, Op. cit., p. 338 .

٨٩- Fitzmaurice, Op. cit., vol. II , p. 386 .

٩٠- Allen, Op. cit., p. 326 .

٩١- Boulger, D. The life of Gordon, London 1892 vol. II p. 146 .

٩٢- Hake. E, The Journal of Major General C.G. Gordonat Khartoum, London, 1885 , p. 93 .

٩٣- Ibid, p. 307 .

٩٤- Hilt, Op. cit. p. 92 .

فى نفس اليوم الذى قتل فيه ستيوارت ورفاقه كان جلادستون ينزل ضيفًا على أحد لوردات حزب الأحرار فى اسكتلاندة قرب مدينة (ابردين) وتصادف أن التقط جريدة الأحرار المحلية فى ذلك الصباح ليقرأ برقية من القاهرة تحوى رسالة من غوردون إلى بارنج تاريخها ٥ أغسطس ١٨٨٤ عن خطة

إرسال ستيوارت لاسترداد بربر والاحتفاظ بها خمسة عشر يومًا ثم إشعال النار فيها والعودة إلى الخرطوم. وبذلك تأكد السياسى الكبير أن غوردون يسير قدمًا فى خطة تحطيم المهدى مخالفا بذلك أوامر حكومته ، وأنه يشن هجومًا على شعب له الحق فى أن يكافح من أجل حريته ، وقال أحد شهود العيان وقتئذ أن وجهه قد تصلب، وفاضت منه الدماء، واشتعلت عيناه بالنيران حتى لتكاد أن تأتى على الورق الذى طبعت عليه رسالة غوردون وفى اليوم التالى كان جرانفيل يبلغ بارنج أن غوردون يجب أن يتلقى أوامره من ولزلى وأن حكومة غوردون تقتصر على الخرطوم وما حولها أنظر :

Elton. Op. cit., p. 404 ; Allen, Op. cit., 350 .

٩٥- Letters of Gordon to his sister, p. 384 .

٩٦- شقير : نفس المرجع السابق جـ٣ ص٢٨٩-٢٩١ وأنظر أيضًا . Holt. Op. cit., pp. 93-94

٩٧- Shibika, Op. cit., p. 290 .

٩٨- Royle. C., The Egyptian Compaigns 1882-1885 London, 1890 , vol . II, p. 205 .

٩٩- Archer T., The war in Egypt and the Sudan, London, 1886 , vol . III, p. 263 .

١٠٠- Colville H.E., History of the Sudan Campaign, London. 1899, Part II, p. 3 .

١٠١- Royale G., Op. cit., vol . III, p. 243 .

١٠٢- Shukry, Op. cit., p. 68 .

١٠٣- Wilson, C.W. From Korti to Khartoum, London, 1886 , p. 113 .

١٠٤- Ohrwalder J., Ten Year's Captivity in the mahdi's Camp, London, 1892 , p. 148 .

١٠٥- Crabites, Op. cit., pp. 318-29 ; Wingate, Op. cit., pp. 163 , 169-172 , 189, 192-5 ; Slatin, Op. cit., p.340; Strachey , Op. cit., p. 298 ; Arthur, T. Life of Kitchener , London, 1920 , vol .I , p. 121 ; Ohrwalder , Op. cit., p. 173 .

١٠٦- Strachey, Op. cit., p. 299 .

١٠٧- Hanotauk G., Histoire de la Nation Egyptienne F. Charles- Roux, L'Egypt de L'Occupaton Anglaise a I Independence Egyptienne", Tome Vii, Paris 1940 p. 83 .

١٠٨- The Letters of queen Victoira, vol . II, p. 597 .

١٠٩- Granville to Baring , Secret, F.O. 13 . 3 . 85 , quoted by Shibeika, Op. cit., p. 303.

١١٠- Holland, Op. cit., vol . II, p. 27 .

١١١- Rroyle, Op. cit vol II, pp. 332-4 ; Stradchey . Op. cit., p. 300 , Charles- Roux, Op. cit, p. 83 .

١١٢- Holland , Op. cit., vol . II, p. 28 .

١١٣- Baring to Granville, Privare, 3. 4. 85 , quoted by Shibeika, Op. cit., p. 304 .

١١٤- Royle Op. cit., vol . II. pp. 364-5 .

١١٥- Holland, Op. cit., vol . I, p. 36 .

١١٦- Strachey, Op. cit, p. 300 .

١١٧- Shibeika, Op. cit., p. 307 .

١١٨- Royle, Op. cit., vol . II, p. 380 .

١١٩- Charles - Roux , Op. cit., p. 86 .

١٢٠- Strachey , Op. cit., pp. 300-1 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالقلعة:

- المعية دفتر ٢٥٦ تركى ، ١٩٤٨ ، ١٨ «أوامر عربى».
- الكتاب الأخضر: الذى أصدرته رئاسة مجلس الوزراء المصرى فى سنة ١٩٥٣م عن السودان.

ثانيًا: المصادر العربية:

١- الشاطر بصيلى عبد الجليل: تاريخ شعوب وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٥م.

٢- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان، القاهرة ١٩٥٩م.

٣- داود بركات: السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية القاهرة ١٩٤٧م.

٤- على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠-١٩٠٦، القاهرة ١٩٥٨م.

٥- مكى شبيكة : السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩، القاهرة ١٩٤٧م.

٦- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٠٣م.

ثالثا: المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Abbas, M., The Sudan question , London, 1952 .
2- Allen, B.M., Gordon and the Sudan, London, 1931 .
3- Archer . T., The war in Egypt and the Sudan, vol III London, 1886 .
4- Colville . H., History of the Sudan Campaign, London, 1866 .
5- Colvin , A., The Making of Modern Egypt, London, 1906 .
6- Crabites, P. , Gordon , The Sudan & Slavery , London, 1933 .
7- Cromer, The Earl of Modern Egypt, vol II, New York , 1908 .
8- Elton, L., General Gordon, London, 1954 .
9- Fitzmaurice, L., The Life of Granvills (1815-1891), London, 1905 .
10- Gwynn, S.I., and Tuchwell, G., M., Life of Sir Charles Dilde, London, 1917 .
11- Hade . E., The Journal of Major General C.G. Gordon at khartoum , London, 1885 .
12- Hanatauk , G., Histore de la Nation Egyptienne F. Chales- Roux, L'Egypte de L'occupation Anglaise a I "Lndependence Egyptienne, paris, 1940 .
13- Holland, B., Life of Spencer Compton, 8th Duke of Devonshire, London, 1911 .
14- Holt, P.M., The Mahdist State in the Sudan, Oxford, 1958 .
15- Jackson , H., Osman Digna, London, 1926 .
16- Letters of queen Victoria, 2nd series, vol III, London, 1928 .
17- Lytton Strachey ., The End General Gordon London, 1918 .
18- Ohrwalder . J., Ten Year's Captimity in the Mahdis Camp, London, 1892 .
19- Royle . C., The Egyptian Campraigns, 1882-1899, London, 1899 .
20- Russel, H., The Ruin of the Sudan, London 1892 .
21- Shibeika, M., British Plicy in the Sudan, London, 1952 .
22- Shukry, M, F., Gerdon at Khartoum.
23- Sortorivs, E., Three Months in the Sudan , London, 1885 .
24- Strachey. L., Eminent Victarians, London, 1918 .
25- Theobald, A.B., The Mahdiya, London, 1951 .
26- Wilson , C.W., From Korti to Khartoum, London., 1886 .
27- Wyide. A., 83 to 87 in The Sudan, London, 1888 .

د. عبد العزيز صالح سالم *

توقيعـات صناع المعــادن ومدلولاتهـا

(من بداية القرن ٧هـ / ١٣م إلى منتصف القرن ٨هـ/ ١٣م)

تعد توقيعات الصناع على التحف المعدنية منذ بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى المصدر الرئيسى فى إمدادنا بالمعلومات الهامة والنادرة عن الصناع وأساليبهم الفنية وطوائفهم والعلاقات الأسرية والمهنية التى ربطت بينهم لدرجة أن أصبح لهؤلاء الصناع تلاميذ وغلمان ورواد يعملون على نفس منوال أساتذتهم ومعلميهم ، ولذا أصبحت تلك التوقيعات المصدر الوحيد فى وضع قوائم بأسماء الصناع وتخصص كل منهم ومكانتهم بين أبناء حرفتهم وتلاميذهم كما أمكن كذلك عن طريق التوقيعات تقسيم أساليبهم الصناعية والزخرفية إلى مدارس فنية متميزة يمكن تتبع مراحل تطورها أو تأثيرها بعضها فى بعض بالإضافة إلى نسبة التحف الغير موقعة إلى صناعها أو على الأقل إلى أسلوب مدارسهم الفنية[1].

وكان من تقاليد طوائف الحرف والصناع الحفاظ على أسرار تلك الحرف وقصرها على أفرادها وأسرهم ، ولعل هذا يفسر لنا ما شاع من تخصص بعض أسرات فى حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء[2]، فضلا عن صعوبة دخول الغرباء على الطائفة فى صفوفها[3].

* مدرس الآثار الإسلامية والفنون بكلية الآثار - جامعة القاهرة.

وقاد الصناع المواصلة حركة التواصل الصناعى والفنى بين أقطار العالم العربى منذ بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى فهؤلاء الصناع الذين تربوا ونضجوا فى مدينة الموصل هاجروا منها إلى مدن بلاد الشام ومصر وعاشوا تحت كنف الدولتين الأيوبية والمملوكية فى مصر والشام ونالوا رعاية واحترام حكامهما وكونوا مدارس فنية لها أسلوبها المميز والخاص والتى أصبح لها تلاميذ وغلمان ورواد يعملون على نفس منوال أساتذتهم ومعلميهم ومن المعروف أن صناع التحف المعدنية هاجروا من الموصل إلى مصر وبلاد الشام فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى واشتغل هؤلاء الفنانين عند الأمراء والسلاطين الأيوبيين والمماليك فى دمشق وحلب والقاهرة وطبيعى أنهم نقلوا الأساليب الفنية التى ألفوها فى بلاد الجزيرة ولذا كانت آثارهم الفنية تتبع مدرسة الموصل(٤).

وقد وصل إلينا عدد من التحف المعدنية التى تحمل توقيعات صانعيها بالإضافة إلى الكتابات التاريخية وهو ما يؤكد أنها صنعت على يد فنانين من الموصل استقروا فى مختلف العواصم الإسلامية وظلوا مخلصين للأساليب الفينة التى ازدهرت بمدينتهم الأولى مدينة الموصل وحرصوا على إبراز طابعها الخاص وتميز حضارتها(٥).

وعلى رأس هؤلاء الصناع إبراهيم بن مواليا الذى يعتبر صاحب أكبر مدرسة فنية خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى حيث بلغت شهرته درجة كبيرة حيث كان من الصناع الذين يؤخذ عنهم وينتسب إليهم وقد ورد توقيعه على النحو التالى : «عمل إبراهيم بن مواليا »(٦).

ومن أشهر أعمال الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا أبريق من النحاس الأصفر المكفت بالنحاس الأحمر وينسب إلى مدينة الموصل فى بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى (٧). (شكل١)

وإذا كان هذا الصانع قد عاش فى مدينة الموصل ونفذ أعماله المعدنية مفعمة بالسمات الفنية الخاصة بتلك المدينة فإن ما تكشف عنه توقيعات الصناع فى تلك الفترة يثبت ارتباط الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا بعدد من الصناع المواصلة الأخرين الذين ارتبطوا به فى علاقات مهنية متنوعة مثل علاقة التلمذة وعلاقة الغلمنة التى ربطت بين الصانع الكبير وتلاميذه وغلمانه ففى الوقت الذى ينعت الصانع اسماعيل بن ورد نفسه بأنه تلميذ الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا نجد الصانع قاسم بن على ينعت نفسه بأنه غلامه. فالصانع اسماعيل بن ورد بن عبدالله الموصلى ينعت نفسه بأنه تلميذ الصانع المعروف «إبراهيم بن مواليا » على

صندوق معدنى على النحو التالى : «نقش اسمعيل بن ورد الموصلى تلميذ ابراهيم بن مواليا الموصلى وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وستماية» (شكل ٢) .

وقد كشف هذا التوقيع عن علاقة من العلاقات المهنية التى جمعت بين الصناع وهى علاقة التلمذة حيث تتدرب وتتلمذ الصانع اسماعيل بن ورد على يد أستاذه الصانع إبراهيم بن مواليا[٨]. وقد أمكننا التعرف على اسم الصانع اسماعيل بن ورد بالكامل من خلال توقيعه على الصفحة الأخيرة من مخطوط مصابيح السنة[٩] المؤرخ فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٤٢١م وهذا يفيد بأن الصانع اسماعيل بن ورد كان كاتبا ماهراً بالإضافة لكونه صانعا للتحف المعدنية وتلميذا للصانع الكبير ابراهيم بن مواليا حيث جاء توقيعه فى نهاية المخطوط على النحو التالى : «وافق الفراغ من نسخه بكرة الخميس فى العشرين من شوال سنة ست واربعين وستماية كاتبه الفقير إلى رحمة الله ورضوانه اسماعيل بن ورد[١٠] بن عبدالله النقاش الموصل..»[١١] (لوحة ١ ، شكل٣) .

أما الصانع قاسم بن على فقد كشف توقيعه عن ارتباطه بالصانع المشهور ابراهيم بن مواليا حيث نعت نفسه بأنه غلامه ولم يمنع الصانع قاسم بن على الذى كان يعيش فى بلاد الشام بعيداً عن معلمه الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا فى مدينة الموصل أن يعترف بفضل معلمه حيث جاء توقيعه على إبريق[١٢] من النحاس الأصفر المكفت بالفضة[١٣]. على النحو التالى: «عمل قاسم/ بن على غلام أبر / هيم ابن مواليا / الموصلى وذلك فى / رمضان / سنة تسع/ عشرين وستماية»[١٤]. (شكل ٤) .

كما يضيف هذا التوقيع علاقة مهنية أخرى تجمع بين صانع كبير وآخر وهى علاقة الغلمنة[١٥]. وربما تدل هذه الكلمة على أن الصانع قاسم بن على قد تعلم صنعته على يد الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا ومن ثم فإنه يشعر كأنه مملوكه وربما كان الصانع المذكور مملوكا فعلا للصانع الكبير إبراهيم بن مواليا [١٦].

ومما يؤكد إقامة قاسم بن على ببلاد الشام وخدمته لحكامها وخصوصا حاكم مدينة حلب وجود نص تسجيلى يجزم بنسبة الابريق إلى مدينة حلب يقرأ كما يلى : «العز والإقبال لمولانا الأمير الأجل الكبير الزاهد (لوحة٢) العابد الورع البندقدار شهاب الدنيا والدين الملكى العزيزى (لوحه٣)، ويشير هذا النص إلى الأمير «شهاب الدين بن طغريل» آتابك «الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين » صاحب حلب الذى حكم بين سنتى (٦١٣-٦٣٣هـ / ١٢١٦-١٢٣٥م) [١٧].

وإذا كان شهاب الدين بن طغريل لم يستطع وضع اسمه ظاهرا فى سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م على الإبريق السابق واكتفى بكتابة ألقابه فإن نفوذه قد ازداد بعد عامين ونقش اسمه وألقابه بوضوح على واجهة المدرسة الأتابكية بحلب والمؤرخة فى سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م على النحو التالى: «وأنشأها [المدرسة] أتابكه وولى أمره وكافل دولته القائم بقوانين حفظه .. شهاب الدين أبو سعيد طغريل بن عبدالله الملكى الظاهرى »[١٨] والملاحظ أن الصانع قاسم بن على قد أنهى العمل فى إبريقه السابق فى شهر رمضان ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م وأن الصانع الكبير شجاع بن منعة الموصلى أنهى العمل فى إبريقه فى شهر رجب من نفس العام وهو يكون بذلك قد سبق قاسم بن على بحوالى شهرين وهذا مدون فى توقيعاتهما ، كما يظهر الفرق واضحا بين الصانعين لأن شجاع يعد نقاشا وأستاذا كبيرا وصاحب مدرسة لها تلاميذها وغلمانها وهو ذو شهرة ومكانة تفوق شهرة الصانع قاسم بن على كما وردت علاقة الغلمنة على تحفة أخرى صنعها الصانع إياس وهو من الصناع الذين تعلموا على يد الصانع عبد الكريم الترابى الموصلى وأنتج أعماله فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى ، وجاء توقيعه على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة على النحو التالى : «من صنعة إياس غلام عبد الكريم ابن الترابى الموصلى فى سنة سبع وعشرين وستماية»[١٩]. (شكل ٥).

وشجاع بن منعة الموصلى[٢٠] يعتبر رائد حركة التواصل الفنى بين مدينة الموصل ومدن بلاد الشام ومصر وهو نقاش ماهر كان يؤخذ عنه، وينتسب إليه[٢١] وهو أول من ذكر فى توقيعه مكان صناعة منتجاته فقد ترك لنا تحفة فريدة تشتمل على اسم أولى المراكز الصناعية للتحف المعدنية عبارة عن إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة والنحاس الأحمر[٢٢] (لوحة ٤) يحمل توقيعه مصحوبا بتاريخ ومكان الصناعة يقرأ : «نقش شجاع بن منعة الموصلى فى شهر الله المبارك شهر رجب فى سنة تسع وعشرون (عشرين) وستماية بالموصل»[٢٣].

وهو من صناع التحف الذين كانوا يشتغلون عند «شجاع بن منعة الموصلى) ، الحاج اسماعيل ومحمد بن فتوح فقد اشتركا معا فى صناعة شمعدان كل فى تخصصه بحيث قام بالصناعة «الحاج اسماعيل» ، ونقشها «محمد بن فتوح» وهما من أشهر الصناع فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، ومن أعمالهما شمعدان (لوحة ٥) يحمل توقيع : «عمل الحاج اسماعيل نقش محمد ابن (بن) فتوح الموصلى المطعم أجير الشجاع الموصلى النقاش»[٢٤].

ويضيف هذا التوقيع علاقة ثالثة من العلاقات المهنية التى كانت تربط بين صانع وآخر وهى علاقة «الأجرة» وفيها يقوم صانع صغير بالعمل عند صانع كبير مشهور مقابل الأجرة والجدير بالذكر أن يسجل هذا الصانع اسمه على التحفة منعوتا بلقب أجير سيده [٢٥].

ويستفاد من التوقيع السابق أيضا أن لفظة طعم وتطعيم تطلق على من يقوم بحشو المعادن بمادة أغلى وأثمن[٢٦] أما كلمة التكفيت والكفت فكانت شائعة عند العامة وعند أهل الصنعة لكن حرص المتخصصون على استخدام كلمة «التطعيم» وهذا ما أكده «المقريزى» عند تعريفه للكفت بأنه ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة»[٢٧].

ومن الصناع المشهورين الإيرانيين الذين برزوا فى الربع الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وعاصروا الصناع المواصلة وانتجوا تحفهم الفنية فى إقليم خراسان الصانع «شادي النقاش» ومن المحتمل أن يكون قد عمل فى مدينة هراة التى كانت واحدة من أكبر المراكز فى خراسان حيث تربى على يد سيده «مجد الملك المظفر» هذا من جهة ومن جهة ثانية أقام سوق لمنتجاته فى هيراة أو فى بخاري حيث عثر على بعض منتجاته بها[٢٨].

ومن أشهر أعماله : مقلمة من النحاس المطعم «المكفت» والنيلة السوداء ومؤرخة فى سنة ٦٠٧هـ/ ١٠-١٢١١م . كتب عليها توقيع الصانع وتاريخ الصناعة فى الجنب الأمامى من الغطاء بالخط الكوفى المورق ونصها: «عمل شاذى النقاش ٥ فى سنة سبعة وستماية (٢٥ يونية ١٢١٠-١٤ يوليو ١٢١١م)[٢٩]. (شكل ٦) وتحيط بسطح المقلمة كتابة بالخط النسخى ذات الهامات الآدمية نصها : «الصدر الآجل الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور مجيد الملك شرف الدولة والدين شهاب الإسلام والمسلمين اختيار الملوك والسلاطين ضياء الملة بها (ء) الأمة قدوة الأكابر الأماثل عمدة المعالى سيد الوزرا ونظام خراسان المظفر بن الصدر الشهيد مجد الملك[٣٠] ضاعف الله قدره»[٣١].

وأيضا يظهر توقيع الصانع «شاذى النقاش» على تحفتين بنفس الشكل الذى وجد على مقلمة الفرير الأول مقلمة مستطيلة[٣٢] مخصصة لحظ الريشة المستخدمة فى الكتابة، والثانية قنينة على شكل طائر عثر عليهما فى هراة ويظهر عليهما التشابه الكبير بين زخارف سطح غطاء مقلمة الفرير جاليرى فقد وجد توقيع الصانع الذى كتب بنفس الطريقة على القطعتين وهذا يبدوا واضحا فى حرفى «الذال والياء» [٣٣]. وعلى الرغم من أن القطعة لاتحمل اسم صاحبها أو مكان صناعتها إلا أنه من المرجح أن تكون قد صنعت لنفس الشخص الذى صنعت له المقلمة فى مدينة هراة حيث كانت المدينة مركزا عظيما فى صناعة وتكفيت المعادن من أواخر ق٦هـ / ١٢م وبداية ق٧ هـ/ ١٣م[٣٤].

ومن التوقيعات الهامة التى لها دلالات عديدة وأمدتنا بمعلومات هامة توقيعات الصانع الكبير أحمد الذكى النقاش وهو من الأساتذة البارعين فى النقش يرجح أنه عاش فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى[٣٥]. فالتوقيع الأول بخط النسخ على رقبة إبريقه[٣٦] يتضمن اسمه وتاريخ الصناعة يقرأ : «عمل أحمد الذكى النقاش الموصلى فى سنة عشرين وستماية والعز لصاحبه»[٣٧] (شكل ٧) كما يوجد على رقبة الإبريق اسم صانع آخر من الأسماء المضافة التى حزت على الرقبة وهو «حسين بن قاسم»[٣٨].

أما التوقيع الثانى فقد ورد على طسته الشهير الذى حمل أسماء وألقاب الملك العادل أبى بكر مؤرخ فى : ٦٣٥-٦٣٧هـ/ ١٢٣٨-١٢٤٠م [٣٩].

يقــرأ: «عمل احمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش » (لوحة ٦، شكل٨) والملاحظ أن الصانع ترك توقيعه فى مكان ظاهر على السطح الخارجى للطست فى حين كتب أسماء وألقاب الملك العادل أبى بكر محمد على السطح الداخلى بالإضافة إلى وجود نصان فى قاع الطست الأول يقرأ: «برسم الطست خاناه العادلية» والآخر يشير إلى الأمير اليمنى الحسين بن محمد بن أحمد بن أمير المؤمنين وهو ما الأشخاص الذين امتلكوا الطست فى القرن ١٧م[٤٠].

أما التوقيع الثالث لهذا الصانع فجاء على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة : ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م[٤١]. (لوحة ٧) نقش عليه اسمه إلى جانب تاريخ الصناعة ويقرأ توقيعه : «عمل أحمد المعروف بالذكى النقاش الموصلى فى سنة أربعين وستماية»[٤٢] (شكل ٩) .

ولم ينتهى دور هذا الصانع الكبير فمن خلال التوقيعات التى بين أيدينا يمكننا التعرف على صناع مدرسته الفنية وتلاميذه وغلمانه فقد تخرج على يد الأستاذ الكبير أحمد الذكى النقاش صاحب المدرسة الفنية فى صناعة التحف المعدنية عدد من الصناع والنقاشين منهم أبوبكر بن الحاج جلدك وشقيقه عمر اللذان كانا ينقشان إليه بعد اجازاتها كما كانا يكتبان على ما ينقشانه من تحف أنهما غلمان تعلما على يد هذا الصانع والأستاذ الكبير.

فبعد عامين من ظهور أولى أعمال أحمد الذكى النقاش الموصلى تظهر أعمال تلميذه الصانع أبو بكر بن الحاج جلدك الذى أخذ عنه وتخرج على يديه وأتقن صناعة النقش بفضله[٤٣].

وجاء توقيع أبوبكر بن الحاج جلدك ليؤكد فضل أستاذه عليه حيث ينعت الصانع نفسه بأنه غلام الصانع الكبير أحمد الذكى النقاش ويقرأ التوقيع على شمعدان من النحاس المكفت بالفضة[٤٤] مؤرخ فى سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٣٥م[٤٥]. (لوحة ٨) على النحو التالى:

«عمل أبوبكر بن الحاج جلدك غلام أحمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش الموصلى فى سنة إثنتين وعشرين وستماية والبقا لصاحبه»[٤٦].

وبالإضافة إلى النص الرئيسى الموجود على رقبة الشمعدان فإنه يوجد نصا آخر محزوز حزا عميقا على الجدار الداخلى للبدن يقرأ على النحو التالى : «الطشتخانة المسعودية»[٤٧].

أما غلامه الثانى فهو الصانع عمر بن جلدك[٤٨] الذى أخذ عن الصانع الكبير أحمد بن عمر الذكى النقاش ونعت نفسه أيضا بلفظة غلام لأستاذه الصانع الكبير أحمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش فقد أنهى إبريقه بعد عام من إنهاء أخيه أبوبكر للشمعدان السابق وحرص على أن ينعت نفسه بلفظة غلام فجاء توقيعه بالخط النسخ على رقبة إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة والمؤرخ فى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٣٥م[٤٩]. يتضمن اسمه وتاريخ صناعة الإبريق يقرأ على النحو التالى : «عمل عمر بن الحاجى جلدك غلام أحمد الذكى النقاش الموصلى فى سنة ثلاث وعشرين وستماية»[٥٠].

ومن الصناع المشهورين الذين أمدونا من خلال توقيعاتهم بالعديد من المعلومات كما تحققت على أيديهم وفى أبنائه من بعدهم فكرة التواصل الصناعى والفنى الصانع «حسين بن محمد الموصلى» الذى ظهر فى العصر الأيوبى وأنتج منتجاته فى مدينة دمشق حيث خدم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف[٥١] ثم خلفه من بعده أبنائه الذين انتجوا منتجاتهم الفنية فى القاهرة خلال العصر الأيوبى ويتضح ذلك على النحو التالى : انتج حسين بن محمد الموصلى إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م بمدينة دمشق [٥٢]. (لوحة ٩) .

ويوجد على رقبة الابريق شريط يتضمن اسم الصانع وتاريخ ومكان صناعة الإبريق ، ونص الكتابة كالأتى : «نقش حسين ابن محمد الموصلى بدمشق المحروسة سنة سبع وخمسين وستماية»[٥٣].

كما يحمل بالبدن شريط عريض من الكتابة النسخية وهى بارزة على أرضية ذات زخارف نباتية تتضمن اسم أحد سلاطين بنى أيوب الذين حكموا مدينة دمشق. ونص الكتابة كالأتى :

«عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد صلاح الدنيا والدين أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى»[٥٤]. (لوحة ١٠) .

ثم خلف الصانع الكبير حسين بن محمد الموصلى الذين عاش بمدينة دمشق وخدم الملك السلطان أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى ابنان محمد وعلى عاش الأول بمدينة مصر المحروسة والآخر بمدينة القاهرة فالصانع محمد بن حسين بن محمد الموصلى انتج شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (لوحة ١٠) مؤرخ فى سنة ثمان وستين وستماية [٥٥]. ويحمل توقيعه على النحو التالى : «نقش محمد بن حسين الموصلى رحمة الله عليه بمصر المحروسة فى سنة ثمان وستين وستماية هجرية...»[٥٦].

كما توجد ثلاث كلمات قرأها "Wiet" على النحو التالى : «ما احزن البقا»[٥٧]. (شكل ١٠) .

والابن الثانى هو الصانع «على بن حسين بن محمد الموصلى» الذى حقق التواصل الصناعى والفنى فقد عاش بمدينة القاهرة وأنتج تحفا تحمل أسماء وألقاب الملك المظفر شمس الدين يوسف[٥٨] وصنع له بالقاهرة إبريق كبير من النحاس المكفت بالذهب[٥٩] مؤرخ فى سنة أربع وسبعين وستماية وتزينه زخارف متنوعة من الزخارف النباتية والهندسية والرسوم الآدمية داخل الجامات بالإضافة إلى عنصر الكتابات التى ظهرت فى شريطين الأول: على رقبة الإبريق ويشتمل على العديد من المعلومات الوثائقية مثل اسم الصانع وموطنه ومكان وتاريخ الصناعة وتقرأ الكتابة على النحو التالى : «نقش على بن حسين بن محمد الموصلى بالقاهرة فى شهور سنة أربع وسبعين وستماية / ١٢٧٥م»[٦٠]. (شكل ٥) .

والثانى : شريط آخر من الكتابة بخط النسخ المملوكى حول البدن تشتمل على أسماء وألقاب السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف واسم والده المنصور عمر[٦١] وتقرأ على النحو التالى: «عز لمولانا السلطان الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن السلطان الملك المنصور عمر»[٦٢].

وتحتفظ مجموعة "M. Piet- Lataudrie" بمتحف اللوفر بباريس بطست كبير (لوحة ١١) لنفس الصانع يحمل التوقيع التالى : «نقش على ين حسين الموصلى بالقاهرة فى [سنة] أربع وثمانين وستماية» ، كما يوجد شريط آخر من الكتابة باسم السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر يقرأ:

«عز لمولانا السلطان الملك العالم العادل المجاهد المرابط شمس الدنيا والدين يوسف[٦٣] ابن عمر ابن على خليل أمير المؤمنين»[٦٤]. (لوحة ١٢، شكل ١١) .

ويتضح من ذلك أن التحفتين السابقتين قد صنعتا بمدينة القاهرة على يد الصانع الموصلى الأصل «على» الذى استقر والده «حسين بن محمد» بمدينة دمشق وخدم سلاطينها ثم استقر «على» بمدينة القاهرة واستقر أخيه محمد بمدينة مصر المحروسة وأنتجا منتجاتهما الفنية بمصر[٦٥].

وكذلك فمن توقيعات الصناع المواصلة الذين أنتجوا تحفا فنيا تحمل السمات الفنية للمدينة التى تربوا فيها بالإضافة إلى مزجها بتقاليد البلاد التى يعيشون بها كان الصانع داود بن سلامة وهو مكفت ماهر يرجح أنه عاش فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى [٦٦]. وأنتج عدة تحف منها: شمعدان من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م[٦٧]. وصنعت فى شمال سوريا (لوحة١٢) وعلى الرقبة ويدور شريط بارز من الكتابة النسخية جاء فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة نصه كالتالى : «البقا والسعد والبقا والمجد والبقا والخير والثنا عمل داود بن سلامة الموصلى فى سنة أربعين وستماية»[٦٨].

كما أنتج داود بن سلامة الموصلى طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة[٦٩] مؤرخ فى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢-١٢٥٣م[٧٠] ترجح صناعته فى مدينة القاهرة ويحمل توقيع الصانع على النحو التالى: «نقش داود بن سلامة الموصلى / فى سنة خمسين وستماية / التأييد العز البقا والشكر لصاحبه» وصاحبه هو الأمير بدر الدين بيسرى[٧١] حيث يحمل الطست كتابة كوفية تقرأ : «برسم الأمير بدر الدين بيسرى الخزندار الجمالى المحمدى »[٧٢].

وكذلك نستدل من خلال توقيع صانع آخر يدعى محمد بن ختلخ أنه كان من الصناع المواصلة الذين هاجروا من الموصل واستقروا فى بلاد الشام حيث عاش بمدينة دمشق وهو من الكفتين البارزين فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى [٧٣]. وجمع هذا الصانع بين صناعة التحف المعدنية من جهة وبين صناعة الأدوات الفلكية من جهة أخرى وهو ما يثبت أنه كان من الصناع المهرة والمشهورين فى تلك الفترة وما يؤكد ذلك توقيعه على مبخرة مصنوعة من خليط معدنى ومكفتة بالفضة والنحاس الأحمر[٧٤] ومؤرخة فى : ٦٢٨ -٦٣٨هـ/ ١٢٣٠-١٢٤٠م وقد ورد توقيعه محددا مدينة دمشق كمركز صناعى فى شريط كتابى بالمفصلة يشتمل على سطرين كتابين من الخط النسخى نصهما : «١- صنعه محمد بن ختلخ

٢- الموصلى بدمشق»[٧٥] (لوحة ١٣، شكل ١٢) بالإضافة إلى توقيعه على آلة فلكية مصنوعة من النحاس الأصفر المكفت بالذهب والفضة حيث جاء توقيعه فى ثلاثة أسطر بنحو :
«١- صنعه محمد ٢- بن ختلغ الموصلى ٣- فى سنة ٦٣٩ / [١٢٤٢-١٢٤٣م] »[٧٦].
(لوحة ١٤ ، شكل ١٣) .

ويمكن القول أن تفوق الصناع المواصلة فى صناعة التحف المعدنية وانتاجهم سواء فى مدينتهم الأولى الموصل أو مواصلة إنتاجهم فى مدن بلاد الشام ومصر بعد هجرتهم واستقرارهم بتلك المدن متأثرين بتقاليد بيئتهم الأولى بالإضافة إلى استفادتهم بالتقاليد المحلية للمدن الجديدة التى عاشوا فيها واكبه ظهور صناع محليين من تلك المدن أثبتوا قدرتهم الصناعية والفنية فى منافسة الصناع المواصلة ولقد بزغ نجم عدد من هؤلاء الصناع فضل الرحيل إلى البلدان المجاورة فعملوا واستقروا فيها والبعض الآخر آثر الاستقرار فى أوطانهم . ومن هؤلاء الصناع المحليين الذين أثبتوا قدرتهم الفنية أمام الصناع المواصلة الصانع أبو القاسم بن محمد الأسعردى الذى ينتسب إلى مدينة أسعرد التى تقع بين مدينة طنزة ، ومدينة حيزان بديار بكر[٧٧].

وهو من الصناع الماهرين الذين ذاع صيتهم فى ديار بكر وانتسبوا إلى مدينة أسعرد وورد توقيعه على مقلمتين من النحاس المكفت بالفضة[٧٨] على النحو التالى : «عمل أبو القاسم بن سعيد بن محمد الأسعردى فى سنة أربعة وثلثين وستماية»[٧٩] (لوحة ١٥، شكل١٤) كما ترك توقيع آخر على مقلمة ثانية نصه : «عمل أبو القاسم بن سعيد بن محمد أسعردى فى سنة ثلث واربعين وستماية»[٨٠]. (لوحة ١٦، شكل ١٥) .

وأيضا الصانع الشهير عبد الكريم المصرى من الصناع النابغين الذين بلغت شهرتهم درجة كبيرة ولد وعاش عبد الكريم[٨١] بمصر ثم رحل للعمل ببلاد الشام واتخذ لقب النسبة «المصرى» وعندما عمل فى خدمة الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بدمشق وديار بكر نعت الملكى الأشرفى ووقع على منتجاته الفنية : «الملكى الأشرفى» وما يؤكد ذلك هو العثور على آلة فلكية من إنتاج هذا الصانع مؤرخة لسنة ٦٢٥هـ. / ١٢٢٨م يقرأ النص التالى عليها: «الملكى الأشرفى الأسطرلابى»[٨٢].

ثم عمل فى خدمة «الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب» صاحب حلب، والمعروف أن لقب «أتابك الملك العزيز ومربيه» هو شهاب

الدين، فقد حمل الصانع نعت «الملكى المعزى الشهابى» ولايستبعد أن يكون الصانع قد عمل فى خدمة الإثنين خاصة وأنه يستشف من بعض الروايات التاريخية أنهما قد جمعتهما علاقات طيبة ظهر بعضها فى حوادث سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م[٨٣].

وما يؤكد ذلك أسطرلاب من النحاس الأصفر المكفت بالنحاس الأحمر والفضة والمؤرخ فى سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م[٨٤]. (لوحة ١٧) .

ويعتبر هذا الأسطرلاب[٨٥] من الأسطرلابات الفريدة حيث يحتوى على العديد من المعلومات الهامة مثل : اسم الصانع ، موطنه ، أسماء وألقاب السلاطين فى هذه الفترة، التاريخ بالحروف[٨٦]. (شكل ١٨) .

وإذا كان عبد الكريم المصرى قد رحل من مصر إلى حلب للعمل هناك فإن على بن محمد النصيبينى قد ترك مدينة نصيبين فى بلاد العراق فرارا من هجمات المغول الذين استولوا عليها فى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م واتجه إلى مدينة قونية حيث صنع بها لمبة معدنية مزخرفة بالزخرفة النباتية الدقيقة الأرابيسك[٨٧] كما ترك توقيعه عليها يقرأ على النحو التالى:

«عمل على بن محمد النصيبين بمدينة قونية فى سنة تسع وسبعين وستماية»[٨٨]. (شكل١٩) .

وهذه التحفة صنعت فى حكم السلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو الثالث الذى حكم فى سنة ٦٦٥-٦٨٤هـ/ ١٢٦٦-١٢٨٥م[٨٩].

ومن صناع المعادن المواصلة الذين ظهروا فى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى وخلفوا ورائهم توقيعا واضحا الصانع «أحمد بن باره الموصلى» الذى كان إنتاجه سابق بسنوات قليلة منتجات الصانع الشهير محمد بن سنقر وإن كان يظهر التشابه فى أسلوبهما وطريقة توقيعهما على منتجاتهما ، وقد وصلنا توقيع أحمد بن باره على الحلقة البارزة التى يغلق منها صندوق مصحف خشبى مصفح بطبقة من النحاس المكفت بالفضة[٩٠] ويتضمن اسم الصانع أحمد بن باره الموصلى وتاريخ صناعة الصندوق يقرأ : «من صنعة أحمد بن بارة الموصلى فى شهور سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة [١٣٢٣م]»[٩١]. (شكل ٢٠) .

كما يضم هذا الصندوق بين كتاباته نصا باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون[٩٢].

ومن أشهر الصناع الذين تركوا بغداد وقدموا للعمل فى القاهرة فى أعقاب غزو المغول لها

فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م الصانع محمد بن سنقر[٩٣] البغدادى وهو من أشهر صناع المعادن فى عصر المماليك، وقد ساعد على هذه الشهرة ارتباطه باسم السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون الذى كان من أكثر سلاطين المماليك حبا للفن ورعاية للفنانين ، ومن أشهر أعماله كرسى عشاء معدنى مكفت بالفضة [٩٤]. (لوحة ١٨ أ،ب) .

نقش الصانع توقيعه عليه فى الزوايا الست التى تعلو أرجله مباشرة ويقرأ كالآتى: «عمل العبد الفقير الراجى عفو ربه المعروف بابن المعلم[٩٥] الأستاذ[٩٦] محمد بن سنقر البغدادى السنكرى[٩٧] وذلك فى تاريخ سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فى أيام مولانا الملك الناصر عز نصره»[٩٨]. وصياغة التوقيع اتخذت أسلوب الترجمة لما يشير إلى أنها كتبت على لسان الصانع نفسه وبخط بده خاصة وإن الخط الذى كتب به التوقيع يماثل الخط الذى نفذت به الكتابات على الكرسى وقرصته وبالتالى يمكن القول بأن الصانع محمد بن سنقر كان يجيد فن الكتابة إلى جانب مهارته فى صناعة المعادن كما يدلنا وضع التوقيع فى هذا الجزء أسفل الكرسى على أن الصانع يوقع أسفل عمله وكأنه كاتب مشهور يضع توقيعه فى ختام رسالته أو كتابه أو كأنه مصور ذائع الصيت يزود رسومه بتوقيعه الذى يضاعف من قيمة عمله الفنى، وعن تلقب الصانع محمد بن سنقر بالبغدادى فإنه لايدل على صنعه الكرسى ببغداد بل يستشف من توقيعه أنه قام بصنعه بالقاهرة فى عصر الناصر محمد كما أنه من المستبعد أن ينتسب الصانع إلى بغداد وهو مقيم بها، وإنما تكون النسبة إليها أكثر ملاءمة عند ابتعاده عنها ومعيشته فى بلد آخر بالإضافة إلى هذا لم تكن صناعة المعادن المكفتة بالعراق فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بهذه الفخامة التى تميز بها أسلوب ابن سنقر على كرسى العشاء وذلك لتخريب المغول لمدن العراق وضعف صناعة التكفيت بها منذ منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى[٩٩].

وبذلك يمكن القول أن أصحاب الحرف والصناع فى مصر وبلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين كانوا من أكثر الناس وفاء لتقاليدهم الموروثة فقد بقيت طوائف العمال والحرف تسير على نفس النظم والطرق الصناعية التى كانت مستعملة فى الفترة من القرن الرابع حتى السابع الهجرى / العاشر إلى الثالث عشر الميلادى[١٠٠].

كما كان الصناع ينتظمون فى طوائف تحمى حقوقهم وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الأكمل بحيث كان لها نظمها وتقاليدها التى يحترمها الجميع وتؤيدها الدولة بنفوذها[١٠١].

وكان أرباب الحرف والصناعات ينقسمون فيما بينهم إلى تخصصات حرفية متنوعة تعج بها أسواق المدن الإسلامية ولقد أسهمت دراسة الكتابات والنقوش الأثرية على التحف والآثار الإسلامية فى التعرف على العديد من التخصصات التى كانت تضمها الحرفة الواحدة كما كان أصحاب الحرف والصناعات يعيشون داخل المجتمع الإسلامى ضمن تكتلات مهنية ، فلكل صنعة أو حرفة طائفة ترعى مصالحها برئاسة شيخ الصنعة [١٠٢].

الشيخ [١٠٣]: كان يرأس كل طائفة شيخ ينتخبه الأساتذة من رجال الحرفة وبذلك يصبح حاكم الحرفة ويعاونه رئيس رامين صندوق ، وكاتب والشيخ موجود فى جميع الطوائف الإسلامية ، ويلى الشيخ الاختيارية أو المسنون بين أساتذة الطائفة وهم يتعاونون معه على إدارة الطائفة [١٠٤].

يلى الشيخ فى المكانة : الأستاذ[١٠٥] ويدعى عادة أسطى أو أحيانا المعلم وهم يشكلون القسم الرئيسى من الطائفة أما العامل فليس له دورا هاما فى الطوائف الإسلامية ولاوجود له عادة، إذ أن الانتقال من مبتدئ إلى أسطى يتم رأسا ، وقد حرف لقب أستاذ لأصحاب الحرف إلى أسطى[١٠٦].

كما كان تنظيم طوائف صناع التحف المعدنية فى القرن ٧هـ / ١٣م بحيث ازدهر هذا النظام فى العصور الإسلامية ازدهارا عظيما وساهم بأوفر نصيب فى تقدم صناعة التحف المعدنية. ونستفيد من دراسة توقيعات صناع التحف المعدنية التى وصلتنا فى تلك الفترة أن نتعرف على التخصصات الدقيقة التى كانت تضمها الحرفة ويمكن تقسيمها إلى:

١- الصفارون : وهو صانع الصفر[١٠٧] والأدوات النحاسية ، ولقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى وجود بعض مسابك النحاس[١٠٩] فى مدينة الفسطاط بمصر وفى ذلك دلالة واضحة على عراقة هذه الصناعة فى مصر فى العصر الإسلامى[١٠٩] كما جرت العادة أن يتجمع النحاسون فى سوق واحدة أو حى واحد فى المدن الكبرى ، ولهذا كان الحى يعرف بهم كما كانت بعض المؤسسات الموجودة فيه تنسب إليهم فقد عرف فى كل من القاهرة وحلب مثل: سوق النحاسين، وحمام النحاسين، وخان النحاسين[١١٠].

٢- النقاشون [١١١]: أطلقت كلمة النقاش على الحفار سواء فى الرخام والحجر والجص والخشب والمعدن والفخار ، وبصفة خاصة أطلق لقب النقاش على الحفر فى المصنوعات المعدنية المتنوعة ولدينا مجموعة من التحف المعدنية فى القرن ٧هـ / ١٣م، لم تخلو من كلمة «نقش أو النقاش»[١١٢].

٣- المكفتون : (المطعمون) : المكفتون أو الكفتيون[١١٣] الذين يكفتوا الأوانى المعدنية من الطسوت والمباخر والزهريات والشماعد والأباريق بالفضة والذهب كما وردت صيغة «المطعم» بدلا من «المكفت» على بعض التحف والمعروف أن المطعم هو الذى يشتغل بحشو الخشب بمادة أغلى مثل سن الفيل أو العاج أو الصدف وإن كانت تطلق كذلك على من يشتغل بحشو المعدن كالنحاس بمعدن أثمن مثل الفضة[١١٤].

٤- الأسطرلابيون (الاسترلابيون، الاصطرلابيون) [١١٥].كان الاسطرلابيون عالمين بعلوم الفلك ، يصنعون آلاتهم الفلكية بأنفسهم كما كان يفعل منجموا الفرس ، ولذا فقد كانت آلاتهم فى غاية الدقة والاتقان ، ومن الصعب أن نضع قاعدة عامة للمكان الذى اصطلح الاسطرلابيون أن ينقشوا فيه توقيعاتهم على ظهر الاسطرلاب[١١٦].

ولقد كان الاتصال قويا بين مصر والشام فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى بحيث لانستطيع أن نضع حدا فاصلا بين المنطقتين ذلك أن الصناع والفنانين تنقلوا بين المنطقتين واشتهر منهم مجموعة وصلت إلينا أعمالهم الفنية تحمل توقيعاتهم[١١٧].

أما عن مراكز صناعة التحف المعدنية فقد أفصحت توقيعات الصناع عن أشهر مراكز صناعتهم حيث كانت المراكز الصناعية الأساس الذى قامت عليه التجمعات الحضرية فكان يهوى إليها الصناع والعمال والحرفيون من كل صوب كما يرد عليها كثير غيرهم ممن يتاجروا فى المواد الخام التى تحتاجها حرف وصناعات هذه المراكز فيحملونها إلى الأسواق المختلفة ، ووردت فى توقيعات صناع التحف المعدنية أسماء بعض المراكز الصناعية التى بلغت درجة كبيرة من الازدهار من بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وتصدرت قائمة المراكز الصناعية مدينة الموصل التى تفوقت فيها صناعة التحف المعدنية وتكفيتها بالذهب والفضة ، وتعتبر صناعة التحف المعدنية فى الموصل من الصناعات القديمة التى كانت معروفة فى هذه الديار ، ونشطت فى الموصل فى القرنين السادس والسابع للهجرة الثانى عشر والثالث عشر للميلاد حيث كان الصناع المواصلة قد جمعوا بين ما ورثوه من العناصر المحلية القديمة فى الزخرفة والنقش وما تأثروا به من الصناعات المجاورة لها ، وابتكروا عناصر جديدة فى الزخرفة والنقش وتنويع التكفيت فكان الطابع الموصلى هو الغالب عليها[١١٨].

وتأثرت صناعة التحف المعدنية فى الموصل بما كان يصنع فى إيران وأرمينية كما تأثرت بالصناعات المحلية التى كانت معروفة فى هذه البلاد قبل الإسلام وبعده وذلك بفضل صناع

الموصل على هذه الصناعة حيث أنهم لم يكونوا مقلدين فحسب بل طبعوها بطابع خاص ، وتفننوا فى تنويعها وتهذيبها حتى صارت مدرسة الموصل قبلة مدارس العالم فى هذه الصناعة وكانت مصنوعاتها من التحف المعدنية الثمينة التى يتسابق الملوك والأمراء وأرباب الثروة فى اقتنائها ، وتزيين دورهم وموائد طعامهم وشرابهم بها[١١٩].

كما أن طريقة التكفيت بالذهب والفضة فقد اختصت بها مدينة الموصل لما ابدعته قريحة الفنان الموصلى حيث فاقت مدرسة الموصل غيرها فى هذه الطريقة وتفننت فى إخراج أجمل الأوانى [١٢٠].

يلى مدينة الموصل مدينة دمشق التى تعتبر مركزا هاما من مراكز صناعة التحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى جعلت الصناع والفنانين يحرصون على كتابة اسم مدينة دمشق على القطع ترويجا لها ولعلها كانت المحطة الأولى التى استقر بها الصناع المواصلة أثناء هجراتهم من الموصل إلى بلاد الشام ومصر[١٢١].

ثم يلى مدينة دمشق مدينة حلب[١٢٢] حيث كانت من المدن التى ساعدت على ازدهار صناعة التحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وهى تعتبر من أهم المراكز التجارية والصناعية فى شمال الشام وكانت حلب نقطة يلتقى فيها الطريق الآتى من الخليج الفارسى حتى نهر الفرات، مع طريق القوافل الآتى من آسيا الوسطى، حيث تنقل السلع إلى موانىء البحر المتوسط. كذلك كانت حلب مركزا لتجمع القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى والشام مارة إلى بغداد وفارس والهند داخل آسيا[١٢٣].

وتميزت حلب بثرائها الهائل على زمن الحروب الصليبية، وعمرت بالأسواق الواسعة والقياصر والحمامات ، ودأب التجار على جلب مختلف الحاصلات إليها، وظلت محتفظة بأهميتها التجارية حتى الغزو المغولى [١٢٤].

يلى مدينة حلب مصر المحروسة حيث سميت مصانع الفسطاط بـ «المسابك» فقيل «مسابك النحاس» ، و«مسابك الفولاذ» ونحو ذلك ، والذى لاشك فيه أن المسابك كانت قائمة بالفسطاط وتنتج من الخامات المعدنية المصهورة، والمسبوكة ما كان صناع المعادن فى مصر فى حاجة إليه لعمل العديد من الأسلحة والآلات الحربية، علاوة على الأدوات المنزلية والتحف المختلفة، وقد أشار بعض المؤرخين إلى وجود هذه المسابك بالفسطاط . ومن المعروف أن بمصر معدن الذهب والفضة والزمرد فى جبل عند «أسوان» لايشاركها فيها بلد، كما أن بها الحديد

والنحاس وغير ذلك ، والواقع أن الشماعد والمباخر والأدوات المعدنية التى ترجع إلى بداية العصر الإسلامى ، والتى كشفت نماذج منها فى حفائر الفسطاط لاتختلف كثيرا فى شكلها وزخارفها عما كان معروفا فى مصر قبل الفتح العربى مما يجعل التمييز بينها وبين ما أنتج فى العصر القبطى من تحف معدنية ليس من السهولة بمكان [١٢٥].

لاشك فى أن إنشاء دار جديدة للصناعة بساحل الفسطاط والتى سميت «الصناعة الكبرى» فى عهد الأخشيد أحدث نشاطا فى حركة الصناع والحرفيين وغيرهم من صانعى مستلزمات السفن الحربية وآلات القتال. كما أنشئت مسابك النحاس بالفسطاط حيث وجدت دار النحاس بالقرب من سويقة معتوق بالفسطاط ، وسوق النحاس التى كانت تقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص، وقد حفلت بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التى تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأوانى المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس ولاشك أن الفسطاط العاصمة المصرية كانت تزخر بالعديد من هؤلاء من صناع الحديد ومن غيرهم من أصحاب الحرف [١٢٦].

ويعتبر أكثر ما صنع فى الفسطاط من تحف معدنية كان فى العصر الفاطمى الذى شهد ازدهارا حقيقيا فى هذه الصناعة ساعد عليه كثيرا هجرة عدد كبير من صناع المعادن المواصلة إلى مصر منذ بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ونقلهم خبرة مدرسة الموصل إلى الفسطاط حتى بلغت الصناعة المعدنية فى الفسطاط غاية نضوجها فى العصرين الأيوبى والمملوكى حيث كانت صناعة المعادن - فى بعض حالاتها - مشاركة بين المسلمين واليهود فى الفسطاط[١٢٧].

وهكذا عمل الصناع فى مدينة الفسطاط على إنتاج قطع النحاس كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأوانى المنزلية[١٢٨].

يليها مدينة القاهرة التى أصبحت بعد قرن واحد على الأكثر مركزا عمرانيا هاما سرعان ما أسست فيه حياة مجتمع ما بكل طبقاته ومتطلباته ، فانتشرت فى أرجائه أنشطة حرفية وصناعية مختلفة منها صناعة التحف المعدنية التى راجت رواجا كبيرا خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى. والواقع أن صناعة التحف المعدنية بمختلف أنواعها كانت من أكثر الصناعات رواجا وازدهارا فى مدينة القاهرة، يدل على ذلك ما وصل إلينا من القطع المعدنية التى لازالت محفوظة فى بعض المتاحف العالمية بالإضافة إلى ما ورد فى هذا الصدد

من كتابات تاريخية حيث يذكر «المقريزى» عن أسواق القاهرة فى العصر المملوكى «إن سوق الكفتين كان الموضع الذى يشتمل على كثير من التحف المعدنية المكفتة بالذهب والفضة»، وكذلك كانت بعض الورش فى سوق السروجين مخصصة فى بيع المهاميز واللجم والسروج المكفتة بالإضافة إلى سوق السلاح الذى كان يمتلىء بمختلف أنواع الأسلحة والدروع والحراب والزرد والخوذات والسيوف وبلط القتال[١٢٩].

ثم مدينة أسعرد[١٣٠] التى كانت مركزا هاما من مراكز صناعة التحف المعدنية فى العصر الأيوبى فقد اشتهرت بمنتجاتها المعدنية لدرجة جعلت الصناع والنقاشين ينتسبون إليها. وقد وصلنا من آثارها المادية ما يحفظ هذه المدينة ويسطر اسمها فى سجل المدن المنتجة للتحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وكذلك من بين الصناع الذين انتسبوا إلى أسعرد الصانع : «سعد الدين الأسعردى»[١٣١].

وأخيرا فإن توقيعات صناع التحف المعدنية من بداية القرن ٧هـ/ ١٣م وحتى الربع الأول من القرن ٨هـ / ١٤ م تمدنا بالعديد من المعلومات النادرة عن الصناع وأساليبهم الصناعية والفنية وتلاميذهم وغلمانهم والعلاقات الأسرية والمهنية التى جمعت بينهم بالإضافة إلى رعاة الفن من الحكام والأمراء وأيضا فى التعرف على المراحل الصناعية التى تمر بها التحفة حتى تصل إلى شكلها النهائى ودور المشاركين فى صناعتها خاصة وأن بعض التحف كان يشارك فى صنعها أكثر من شخص، يقوم كل شخص بتنفيذ الجزء الذى يخصه فى التحفة ويمكن تلخيص ذلك على النحو التالى:

أولا: الصفار: وهو الذى يقوم بعمل التحفة وصقلها .

ثانيا : يقدمها إلى **الأستاذ** الذى يعمل عنده فيتولى الأخير نقشها أو يكلف أحد النقاشين الذين يعملون تحت يده، ويتدربون عنده فينقش عليها الزخارف والتصاوير والكتابات التى تناسب من تعمل له التحفة.

ثالثا: **النقاش** : وهو من يقوم بحفر ما نقش وصور وأحيانا يكون النقاش هو نفسه الأستاذ أو أحد تلاميذه أو من تدربوا على يديه.

رابعا : المكفت أو المطعم : الذى يقوم بملء ما حفر على التحفة بالذهب والفضة لكى تظهر النقوش والكتابات واضحة. وفى بعض الأحيان أتقن بعض النقاشين الصنعة وأصبحت لديهم

المقدرة على تنفيذ جميع الخطوات مع الأخذ فى الاعتبار أن أسرار صناعة التحف المعدنية كانت تدرس عمليا وتلقن شفويا بين جدران المصانع فالابن يمارس حرفة أبيه أو قريب له الذى يبدأ عادة فى تعلمها منذ الطفولة ، ولذلك حرص الصناع على تزويد أعمالهم بتوقيعاتهم التى أصبح لها دلالات معينة تتمثل فى:

١- اعتزاز الصانع بصناعته وبإنتاجه وبما وصل إليه من مكانة زملائه .

٢- الإشارة إلى تخصصه الدقيق فى الحرفة.

٣- توضيح مكانة الصانع بين أقرانه كأن يذكر قوله «المعلم، أو الأستاذ، أو شيخ الصنعة».

٤- الانتساب إلى وطنه الأصلى على نحو قوله : «البغدادى ، الموصلى ، المصرى، الأسعردى».

٥- إثبات العلاقات الأسرية والمهنية بين الصناع بعضهم ببعض مثل علاقة الأخوة وعلاقة التلمذة وعلاقة الغلمنة وعلاقة الأجرة، وغيرها من العلاقات التى يمكن التعرف عليها من خلال توقيعات صناع التحف المعدنية المصدر الرئيسى فى دراسة التحف المعدنية الإسلامية بصفة عامة وفى الفترة موضوع الدراسة بصفة خاصة.

الهوامش

١- راجع : عبد العزيز صلاح، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى ، الجزء الأول، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٨، ص٥٤ ، ٦٨ .

٢- فقد عرف من قبل عن اشتراك أفراد من عائلة واحدة هم «بنو عبد المؤمن» فى تجارة القماش فى الفيوم فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، كما اشتهرت كذلك أسرة مصرية عرفت «ببنى المعلم» اشتغلت بالتصوير فى بداية العصر الفاطمى ، ونبغت فيه، وانجزت أعمالاً اعتبرها المصورون فى عصرهم من العجائب كما تتلمذ عليهم مشاهير المصورين الذين تعلموا عنهم أسلوبهم وساروا على نهجهم .. راجع : حسين رمضان ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى مصر الإسلامية ، دكتوراة مخطوطة ، ١٩٨٧، ص٢٤٧ .

٣- ولقد كانت الحرف والصناعات تخضع لإشراف الدولة من خلال المحتسب الذى كان يعين لكل طائفة من الصناع عريف مشهود له بالثقة والأمانة يشترط فيه أن يكون على دراية ومعرفة تامة بأمور الحرفة التى يشرف عليها ومهمته اطلاع المحتسب على أخبار أهل صنعته ويدله على مواطن الغش والتدليس التى يلجأ إليها أحيانا أصحاب الحرفة. وكان لتلك الوظيفة أثر بعيد فى نضوج الصناعات الإسلامية ويكفى الإشارة إلى أن أهم أعماله إشرافه على الصناعات جميعا ، إذ كان يرسم للصانع طريقة العمل بإرشاد شيوخ الصنعة كما يحدد له الهدف الأسمى الذى ينبغى أن يتجه إليه وهو اتقان العمل والاخلاص فيه. راجع : عبد الرحمن بن نصر الشيزرى، كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، القاهرة، ١٩٤٦م، ص٦ ، السيد الباز العرينى، الحسبة والمحتسبون فى مصر ، المجلة التاريخية المصرية، ج٣، العدد ٢، ١٩٥٠م، ص١٥٧ ، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ، ج١ ، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م، ج٣ ، ص١٠٢٧ ، محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى مصر قبل عصر الفاطميين، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م، ص٩ ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٤٠-٤١ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى، ١٩٩١م، ص١٠٧ .

٤- راجع : زكى حسن، فنون الإسلام، القاهرة ، ١٩٤٨م، ص٥٤٢ .

٥- وهناك بعض الصناع الذين واصلوا اتجاهم الفنى بمدينة الموصل منهم: أحمد الدقلى الموصلى من الذين عاشوا فى القرن السابع للهجرة فى الموصل . ومن أعماله : إبريق من النحاس المكفت بالفضة ، ومزين بعدة صور آدمية ، وزخارف هندسية ، وكتابات متنوعة نسخية وكوفية ، والتصاوير التى تزينه

تكون داخل جامات تحف بالإبريق ، وكتب على الإبريق : «صنع على يد أحمد الدقلى سنة ثلاثة وعشرون وستماية فى الموصل ». كما يعتبر يونس بن يوسف من الصناع البارعين الذين اشتهروا خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى بمنتجاتهم المعدنية التى حملت العديد من الزخارف والتصاوير، ومن أشهر أعماله : إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخ : ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م. ومن بين زخارف الرقبة شريط من الكتابة النسخية على أرضية نباتية تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصناعة ويقرأ على النحو التالى: «عمل يونس إبن (بن) يوسف النقاش الموصلى سنة أربعة (أربع) وأربعين وستماية» راجع : زكى حسن، فنون الإسلام ، ٥٤٤، سعيد الديوه جى، أعلام الصناع المواصلة، الموصل، ١٩٧٠، ص٧٢-٧٣ .

٦- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص٩١ .

٧- محفوظ فى متحف اللوفر رقم : K3435 راجع Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork, II, BSOAS, 1953 , pp. 69-78 ; Migeon G., Mannuel d'art musulman , Paris , 1927 , p. 54 .

٨- تلميذ : كلمة معربة عن السريانية، وهى تطلق على المتعلم على يد أستاذ ، وربما أطلقت على الموظف الذى لايزال يتدرب على يد رئيسه: راجع : حسن باشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م، ص٣٢٨ .

٩- محفوظ فى "Chester Beatty Library , Dublin , No. 3130"

١١- يوجد فى نهاية الصفحة الأخيرة طمس كبير لنص يفيد بإهداء هذا المخطوط إلى الجامع الأقصى بالقدس كما يوجد فى ظهرها كتابة مضافة بخط آخر من وقعت المخطوط فى حوزته بالإضافة إلى أسماء الشيوخ الذين شاركوا فى السماع ويؤكد "David James" أنه من بين أسماء الشيوخ التى وردت اسم الشيخ الامام العالم أمين الدين أبو اسحق ابراهيم بن على بن حسين بن جرى الموصلى النهاوى وهذا يعنى ظهور اسم ابراهيم الموصلى بجانب صانع المعادن الشهير وأستاذ الصانع اسماعيل بن ورد لكن لم تثبت علاقة بين الاثنين وعلى أية حال فقد قام بعض الصناع والفنانين فى خلال القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى بإتقان أكثر من مهنة صناعية مثل الصانع اسماعيل بن ورد الذى أجاد الكتابة إلى جانب تفوقه فى صناعة المعادن راجع : David J., An Early Mosul Metal-worker Some New information , Oriental Art, N.S 26 1980 pp. 318-321 .

١١- راجع : David J., An Early Mosul Metalwoker ., pp. 318-321 .

١٢- محفوظ فى متحف Kevorkian of New York

١٣- راجـع : Rice D.S. Studies in Islamic Metalwork , II, BSOAS, XV/1 , 1953 , pp. 66-68 , Atil E., chase, W.T., paul Jett, Islamic Metalwork in the Freer Gallery of Art Washington, 1985 , pp. 117-123 .

١٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٩٢-١٩٦ .

١٥- الغلام فى أصل اللغة هو الصبى الصغير ويجمع على غلمان وغلم ، ثم صار اللفظ يطلق على المملوك الصغير السن أو الذى لم يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم استخدم لفظ الغلمان فى الدولة العباسية والدول الإسلامية على المقربين من المماليك الذين كانوا يقومون بخدمة مولاهم ورعاية قصره، ويعهد إليهم بتنفيذ أوامره . راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج٢ ، ص٧٩٦ - ٧٩٨ .

١٦- راجع : Atil E., and Others , Islamic Metalwork., pp. 117-123

١٧- كما هو معروف أن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف والد الملك العزيز لما اشتد به المرض عهد بالملك من بعده لولده الصغير «محمد» ولقبه «العزيز غياث الدين وعمره ثلاث سنين كما جعل أتابكه ومربيه ، خادما روميا واسمه «طغرل » ولقبه «شهاب الدين» فكان هذا الأمير مدبر دولته وقد تولى حكم البلاد نيابة عنه بين سنتى (٦١٣-٦١٦هـ/ ١٢١٦-١٢١٩م) راجع المقريزى «تقى الدين أحمد بن على بن أحمد » ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق / محمد مصطفى زيادة ، ج١ ق١ ، ٢، القاهرة ، ١٩٧١م، ج٢ ، ق٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢م، ص٢٢ ، ٢٥٦، ٢٧٣ ، ٢٩٣، ٢٩٤ .

١٨- راجع : Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , III , BSOAS, 1953 , pp. 69-70 .

١٩- راجع : عبد العزيز صلاح، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٩٧-١٩٨ .

٢٠- من المحتمل أن يكون شجاع بن منعة من أبناء يونس بن محمد بن منعة بن مالك- رضى الدين الاربلى ٥٠٨-٥٧٦هـ/ ١١١٤-١١٨٠م الذى يعتبر أول من سكن الموصل كما خرج من بيته جماعة من الفضلاء انتفع بهم أهل البلاد كما كانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها وبقيت أسرتهم مشهورة بالعلم إلى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر الميلادى، وكان منهم شجاع الصانع المشهور الذى تتلمذ على يديه عدد من صناع التحف المعدنية . راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة، ص٩٦-٩٧، الموصل . ص٢ ، ٥٦-٧٤ .

٢١- راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة ، ص٩٦-٩٧ ، الموصل ، ص٢ ، ٥٦ ، ٧٤ .

٢٢- المقاييس : الإرتفاع : ٢٩سم، القطر :١٤سم ، محفوظ فى المتحف البريطانى بلندن : و-٦٠ :
British Musseum OA 1866 . 12 . 29 . 61 .

٢٣- راجع : Lane - Poole , The Art of the Saracens in Egypt, London, 1888, p. 170 ; Wiet G., Répretoire chronologique d'épigrphie Arabe, IFAO, Le Caire, 1941-42 , p. 29 ; Hayward G., The Arts of Islam, 1976, p. 179 , Atil E., Chase W. T., Jett p., Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., pp. 18-19 .

٢٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٠٦-١١٣ .

٢٥- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ١٥١٢١ وهو شمعدان من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ، مؤرخ فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، راجع سعيد الديوه جى ، أعلام صناع المواصلة، ص٩١ .

٢٦- الثابت على التحف المعدنية الإسلامية بصفة عامة ورود كلمة «طعم» أو «المطعم» فقد وردت كلمة «المطعم» خلال القرن ٧هـ ١٣م وكدها الرحالة وتوقيعات الصناع راجع : Mayer L.A., Islamic Astrolabists and their works, Genéve, 1956 , pp. 40-41. ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج٣ ، ١١٠٧-١١٠٨، حسين عليوة ، المعادن ، ص٣٧٨-٣٧٩ ، عبد العزيز صلاح، دراسة بعض التحف المعدنية الإيرانية المكفتة فى ضوء مجموعة متحف اللوفر بباريس من منتصف القرن ٦هـ / ١٢م إلى بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ندوة شرق العالم الإسلامى ، كلية الآثار- جامعة القاهرة ١٩٩٨م، ص٧٣٧-٧٥٦ .

٢٧- راجع: المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص١٠٥ .

٢٨- منها سطل من الهرميتاج عليه توقيع الصانع «محمد بن ناصر بن محمد» وابريق عليه توقيع الصانع «محمود بن محمد الهاراتى» مؤرخ فى سنة / ١١٨١-١١٨٢م راجع:
Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., p. 106 .

٢٩- طول المقلمة ٤، ٣١ سم والارتفاع : ٥سم والعرض : ٤ ، ٦ سم ومحفوظة بمتحف الفرير جاليرى بواشنطن راجع : Herzfeld E., A Bronze pen - Case , ARS Islamica, vol . III, part I, 1936 , pp. 35 .

٣٠- صاحب المقلمة هو مجد الملك وزير خوارزم شاه علاء الدين محمد الذى أسس مكتبة فى مدينة ميرفى وتوفى فى سنة ١٢٢١م خلال الغزو المغولى على هذه المدينة . راجع : Atil A . and Others Islamic Metalwork in the Freer Gallery of Art, p. 105 .

٣١- راجع . Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery., p. 102

٣٢- الطول : ٢٢,٢ سم ، العرض ٣,٥سم كانت محفوظة فى مجموعة عطا محمد النقشبندى بهراة Allan J.W., Metalwork , Treasures of Islam , Wellfleet Press, 1985 , p. 258 , Fig 265 .

٣٣- راجع : Malikian - Chirvani A.S., Islamic Metalwork ., pp. 114-117 .

٣٤- راجع : Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., pp. 106-107 .

٣٥- Rice D.S, Inlaid Brasses from the Workshop of Ahmed al-Dhaki al-Mawsili, ARS Orientalis, vol . II, 1957 , p. 284 ., Barrett Douglas, Islamic Metalwork in the British Museum, London, 1949 , p. 14 .

٣٦- إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخ فى سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م . محفوظ : متحف كليفلاند Cleveland Museum of art

٣٧- راجع : Rice, Inlaid., pp. 283-301 .

٣٨- حسين بن قاسم: هو صانع أضاف اسمه بجوار اسم الصانع المشهور «أحمد الذكى النقاش»وربما كان ابنا للصانع «قاسم بن على الموصلى» أحد الصناع الذين أخذوا عن الصانع المعروف «ابراهيم بن مواليا». راجع العبيدى، التحف المعدنية، ص٤٠ ، . Rice Inlaid , pp. 283-301 .

٣٩- محفوظ فى متحف اللوفر رقم ٥٩٩١ . راجع : Wiet G., Répretoire., XI, p. 116 ; Art de l'Islam des origines , A 1700 dans les collection publiques Francaises , 1971 , pp. 103-104 Arabesque et Jardins de paris , Hayword, Gallery , the Arts of Islam , 1976 , p. 181 ., Collections francaises d'art islamique , Musée du louvre , Paris, 1989 - 1990 , p. 239 .

٤٠- راجع : Rice, Inlaid ., pp. 283-301 .

٤١- محفوظ فى متحف همبورج بأمريكا Homberg collection .

٤٢- راجع : Rice, Inlaid, pp. 283-301 .

٤٣- راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة ، ص٨٢ .

٤٤- محفوظ فى The Museum of Fine Arts, Boston.

٤٥- Rice D.S, The Oldest dated 'Mosuu' candlestick A. D. 1225 , The Burington magazine, 1949 , pp. 336-340 .

٤٦- راجع : Rice D.S., Inlaid., pp. 316-318 .

٤٧- والنص يشير إلى الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل الذى حكم باليمن من سنة ٦١٢هـ إلى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢١٥-١٢٢٨م ، وظل بها حتى استيلاء بنى رسول على الحكم. ونخلص من ذلك إلى تقارب تاريخ صناعة هذا الشمعدان مع تاريخ حكم الملك المسعودى صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل الذى حكم باليمن حيث كان لقب «مسعود» لقبا له أثناء حكمه لليمن من سنة ٦١٢هـ-٦٢٦هـ/ ١٢١٥-١٢٢٨م أى فى الفترة السابقة على حكم بنى رسول باليمن وفضلا عن أن تاريخ صناعة الشمعدان تقع فى حكم الملك المسعود فقد كان هناك علاقات سياسية بين الأيوبيين فى اليمن ومصر والشام تؤكد الوحدة التى نجح «صلاح الدين الأيوبى» فى تحقيقها بين مصر والشام وبعض اقاليم العراق حيث الأتابكة من بنى زنكى وبنى ارتق حتى أن بعض أتابكة الموصل كانوا يسجلون أسماء سلاطين الأيوبيين على نقودهم تحقيقا للعلاقات السياسية القائمة بين الموصل والقاهرة، راجع : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٢، ص٧٤١-٧٤٢ ، العبيدى ، التحف المعدنية ، ص٨٦ ، آمال العمرى الشماعد المصرية فى العصر الإسلامى منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى، ماجستير مخطوط ، ١٩٦٠م ، ص٧، ٨ ، ٨١ .

Rice D.S., Inlaid ., p. 317-338 ; the Oldest ., p. 339.

٤٨- هو شقيق أبوبكر بن الحاج جلدك الموصلى ومن المعروف فى الموصل وبلاد الشام يقولون للحاج «حجى» . راجع سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة، ص١٠٦ .

٤٩- محفوظ فى : Metropolitan museum of art No, 91-1-586.

٥٠- راجع : Rice, D.S., Inlaid., pp. 317-318.

٥١- السلطان الملك أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى: هو صاحب دمشق ويذكر بن العماد الحنبلى أنه فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م. فتح له عسكره حمص ثم ملك دمشق ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وتوفى فى شوال سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م. راجع : ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى

بن عماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٥ ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٢٩٩ . رامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، دار الرائد العربى بيروت، ١٩٨٠م ، ص١٥١ .

٥٢- محفوظ بمتحف اللوفر سجل رقم : ٧٤٢٨ .

٥٣- قرأ "Berchem" التاريخ على هذه القطعة على النحو التالى: «سنة تسع وخمسين وستماية » راجع Berchem M.V., Notes d'archéologie arabe , étude sur les cuivres Damasquinés et : les verres émailés, J.A., Tome III, 1904 , p. 22 .

٥٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١ ، ص١٧٠-١٧٢ .

٥٥- المقاييس : ارتفاع :٢٢سم، القطر : ٢٥سم ، مشتراه فى ١٨٩٦م، محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم : ١٦٥٧ .

٥٦- راجـــع : Wiet G., Catalogue général du musée arabe du Caire, Objets en cuivre, Or-aganisation égyptienne généale du livre, 1984, pp. 47-48 .

٥٧- ربما تشير هذه العبارة إلى حنين الصانع إلى موطنه ورغبته فى العمل بجوار أخيه على بمدينة القاهرة حيث تمتع أخيه بشهرة كبيرة وخدم الملوك والأمراء .

٥٨- هو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر السلطان الثانى فى دولة بنى رسول، كان رجلا حازما وخضعت له بلاد اليمن، وامتد نفوذه إلى مكة المكرمة. وبنى عددا كبيرا من المساجد ، خصوصا فى قرى تهامة ، كما شيد نحو ثمان مدارس باليمن. وقد مات غيلة على يد بنى ناجى أهل المخادر الذين قاموا بثورة ضد حكمه. راجع: محمد محمد سطيحه، اليمن شماله وجنوبه، القاهرة،١٩٧٢، ص٦٠ .

٥٩- أطلق على هذا الإبريق اسم ابريق مارسان "Marsan" لأنه وضع فى بداية الأمر فى مجموعة مارسان "Marsan" باللوفر وهو الآن بمتحف الفنون الزخرفية بباريس وارتفاعه ٤٠سم.

٦٠- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., pp. 17-19 .

٦١- هو المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول مؤسس دولة بنى رسول فى تعز. وكان السلطان المسعود آخر سلاطين بنى أيوب قد أنابه على السكة والخطبة عندما توجه إلى مصر سنة ١٢١٩م ، وقد عمل على تمهيد الملك لنفسه ، فلما بلغه خبر وفاة السلطان مسعود بمصر سنة ١٢٢٩م أعلن سلطانه على بلاد اليمن وتلقب بالمنصور، بعد أن استمد النيابة من الخليفة الظاهر بن العباسى رأسا وقد خضعت له معظم بلاد اليمن. راجع : محمد محمد سطيحه ، اليمن، ص٦٠ .

٦٢- يحتفظ المتحف البريطاني بلندن بدرهم لهذا السلطان ضرب مدينة زبيد فى سنة ٦٥٦هـ/ ويحمل نفس الألقاب التى وردت على الابريق مثل : «السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور عمر». راجع : , Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 17 N.3.

٦٣- انتج الصناع المواصلة بمصانع القاهرة مجموعة من التحف المعدنية التى حملت أسماء وألقاب السلطان اليمنى الملك المظفر يوسف ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م بعضها حمل توقيع الصانع وقد سبق ذكره بالنص والبعض الآخر جاء خاليا من التوقيع منها على سبيل المثال : صينية بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وشمعدان بـ "Palais des arts, Lyon" ، وصينية بـ "Collection marquet de vasse-lat" وطست بـ "Palais des arts, Lyon" ، وصندوق بالمتروبوليتان ، وشمعدان بـ "Musée des beaux arts de Lyon" راجع : Dimand M.S., Un Published Metalwork of the Rasülid Sultans of Yeman , The metropolitan Museum of art , vol . III, 1930 , pp. 229-230 ; Melikian - Chirvani A.S., L'art du métal dans les pays arabes, BMML, 1966 , pp. 46-48 ; Wiet G., Catalogue général., pp. 103-104 , 187 , 180 , 188 .

٦٤- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 21 .

٦٥- من المعروف أن مصر واليمن ارتبطا بعلاقات تجارية ساعدت على وجود علاقات سياسية طيبة بين القطرين خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى. فقد كانت الحبوب والمنتجات اليمنية تحمل إلى مصر فى مقابل التحف الفنية التى اشتهرت بها مصر . راجع: Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquiné., p. 21 .

٦٦- سعيد الديوه جى ، اعلام صناع الموصل ، ص٩٥ .

٦٧- متحف الفنون الزخرفية بباريس رقم : ٤٤١٤ .

٦٨- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 25 ; Migeon G.; Mannuel ., II, p. 52 ; Dimand M.S., Ahandbook of Muhammadan Art , New York , 1947 , p. 148 ; Rice D.S., The Oldest ., pp. 337-338 ; Arts de L'islam des origins, p. 106 ; Baer E, Ayyubid Metalwork., pp. 24-49 .

٦٩- متحف الفنون الزخرفية بباريس رقم ٤٤١١ الآن متحف معهد العالم العربى بباريس.

٧٠- راجـــع : Wiet G., Répretoire ., XI, p. 230 ; Migeon G., Mannuel ., II, p. 52 ; Barrett D., Islamic Metalwork ., p. XV; Rice D.S., Studies., OO, p. 65 ; L'Islam dans les Collestion Nationnales, p. 101 ; Arts de l'islam, p. 105 .

٧١- الأمير بدر الدين الشمسى الصالحى النجمى أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب البحرية تنقل فى الخدم حتى صار من أجل الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة ، ولم يعرف عنه أنه شرب فى إناء واحد مرتين وإنما يشرب كل مرة فى كوز جديد ثم لايعاود الشرب منه، توفى فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وستماية . راجع : الدار البيسرية . المقريزى ، الخطط ، ج٢، ص٦٩-٧٠ .

٧٢- وتوجد مبخرة كروية تحمل أسماء وألقاب الأمير بدر الدين بيسرى ومؤرخة فى سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م. محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن راجع : Migeon G., Manuel .

٤٣- راجع : سعيد الديوه جى، اعلام صناع المواصلة ، ص١٠٩ ، الموصل ، ص٥٧-٥٨ .

٧٤- محفوظة فى مجموعة The Aron collection

٧٥- محفوظة Allan J.W., Metalwork of the Islamic World, The Aron Collection , Sothe-by , 1986 , pp. 66-68 .

٧٦- The British Museum , No : 5-26-10 راجـــــع : Wiet G., Répretoire., X, p. 135; Rice D.S., Inlaid ., p. 332 .

٧٧- راجع : ياقوت الحموى، معجم البلدان ، مج٢، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٤٩٤ ، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧٤ ، ج١١ ، ص٩٤ ، ج١٢ ، ص٤٩٩ .

٧٨- له عمل ثالث عبارة عن شمعدان من النحاس المكفت بالفضة (the Collection of F.R.,Lamm) راجع .: Wiet G., Répretoire., XI, p. 29 ., Allan J.W., Islamic Metalwork p. 19

٧٩- مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم : ١٥١٨٧ .

٨٠- مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، متحف اللوفر بباريس رقم K: 3438.

٨١- ومن الصناع الآخرين الذين حملوا اسم عبد الكريم الصانع، «عبد الكريم بن الزين» الذى عاش فى القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر الميلادى ، ومن أشهر أعماله : ابريق من النحاس المكفت بالفضة، مؤرخ لسنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، محفوظ بمتحف الاستانة باستانبول . ويرتبط بهذا الصانع صانع آخر مشهور هو «محمد بن الزين الموصلى» وهو من الأساتذة الماهرين فى صناعة النقش والتكفيت ومن

أشهر أعماله طست من النحاس المكفت بالفضة والذهب واستعمل هذا الطست فى تعميد لويس التاسع ٦١٢-٦٦٩هـ / ١٢١٥-١٢٧٠م واشتهر باسم (معمدانية سان لويس) ولقد ترك توقيعه فى ثلاثة مواضع منها توقيع داخل العناصر الزخرفية حيث يقرأ : «عمل ابن الزين» على الإناء فى اليد اليمنى للشخص الجالس وكذلك على المقعد الذى يجلس عليه فى مكان ظاهر (شكل ١٦ ، ١٧)وربما تعلم الصانع ابن الزين هذه الطريقة من الصانع على بن حمود الموصلى الذى سبقه فى التوقيع بهذه الطريقة فقد ترك توقيعه على احدى الجامات برقبة زهرية من النحاس المكفت بالفضة حيث يظهر جندى يحمل صندوق بيديه حفر عليه توقيع يقرأ : «عمل على بن حمود» ، والزهرية مؤرخة فى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، محفوظة فى "Museoo nazionale, Florence" راجع : سعيد الديوه جى ، اعلام صناع الموصل ص١١٠ ، Abouseif Doris- Behrens , The Baptistére de Saint Luis, Islamic Art , III, 1988-1989 , pp. 3-9 ; Rice D.S., Studies., III, p. 229 ., Wiet G., Un novel artiste de mossoul, paris, 1931 , pp. 160-162 .

٨٢- راجع : . Mayer, L.A., Islamic Astrolabists., p. 29

٨٣- يذكر المقريزى فى السلوك فى حوادث ٦٢٠هـ «زنه عندما أخذ المعظم عيسى المعرة وسليمة ونازل حماة شق ذلك على الملك الأشرف موسى وكان بمصر فتحدث مع السلطان «الكامل محمد» فى إنكار ذلك فبعث السلطان الكامل إلى المعظم عيسى يسأله فى الرحيل عن حماة فتركها وهو حنق ثم خرج الملك الأشرف موسى من مصر إلى بلاده ومعه خلع الملك الكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزيز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازى فوصل حلب فى شوال وتلقاه العزيز وعمره عشر سنين فأفاض الخلع الكاملية وحمل الغاشية بين يديه وأقام عنده أياما » : راجع : المقريزى السلوك، ق١-٢ حوادث ٦٢٠، ص٢٥٠ .

٨٤- راجع : Lane - poole St. , The Art ., p. 177 ; Migeon G., Les Cuivres Arabs, Gazette de Beaux arts, 1900, p. 32; Berchem M.V., Etude sur les cuivres Damassquinés., p. 32 ; Migeon G., Mannuel ., II, p. 58 ; Wiet G., Répretoire., X, p. 45; Mayer L.A., Islamic Astrolabists and their Works, Geneva , 1956 , p. 29 .

٨٥- المتحف البريطانى رقم : No . 557-9 1

٨٦- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، ج١، ص١٩٩-٢٠٤ .

٨٧- المقاييس : الارتفاع ٢٠سم، الرقبة ٨ ، ٦سم ، القطر ١٨ سم ، محفوظة فى Collection of the Etnografa Müzesi at Ankara No. 7591 .

٨٨- Rice D. S., Studies in Islamic Metalwork , BSOAS, XVII / 2 , 1955 , pp. 207-212 .

٨٩- كان أيضا الصانع : على بن محمد النصيبى من صناع الأخشاب فى قونية حيث صنع صندوق مصحف بأمر السلطان كيكاوس الثانى ٦٤٤هـ- ٦٥٨هـ/ ١٢٤٦-١٢٦٠م على يد وزيره الشهاب عطا والصندوق محفوظ بمتحف استانبول بتركيا راجع : Rice D.S., Studies in Islamic Metal-work , BSOAS, XVII/2 , pp. 207-212 .

٩٠- محفوظ بمكتبة الجامع الأزهر.

٩١- راجع : حسن عبد الوهاب ، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية ، المجمع العلمى المصرى، ١٩٥٥، ص٥٥٦، عبد الرءوف على حسن ، تحف فنية ، ص١٠٥ .

٩٢- راجع: حسين عليوه ، المعادن، القاهرة ، ص٣٧٨ .

٩٣- يوجد صانع آخر يحمل اسم «محمود بن سنقر» اشتهر فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ومن أعماله مقلمة مستطيلة من النحاس المكفت تشتمل على رسوم الأبراج السماوية ومؤرخة فى سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١-١٢٨٢م ، وربما كان الصانع الشهير محمد بن سنقر من نفس العائلة الفنية التى هاجرت من العراق فى أعقاب غزو المغول لمدينة بغداد . : Willy Hartner The Vaso Vescovali in the British Museum , Vunst des Orients, IXI/2, 1973 / 4 , pp. 109 - 110 .

٩٤- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم :١٢٩ .

٩٥- من المعروف أن لقب «المعلم» كان يطلق على مهرة الفنانين والصناع ، وقد أطلق فى كتابة أثرية على صانع شمعدان كبير من البرونز صنع سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م للأمير قوصون فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ونقل إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة من مدرسة السلطان حسن راجع : حسن الباشا ، بنو المعلم، القاهرة ، ص١٢٢ .

٩٦- الأستاذ : أستاذ كلمة فارسية معربة، «ومعناها : السيد أو المشهور بعمله كما استعملت كلمة أستاذ فى العربية بمعنى الماهر. راجع : القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ج٣، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨ م ، ج٣، ص٤٨١ ، ج٥ ، ص٤٨٩ ، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والآثار ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م، ص١٣٩-١٤٠، الفنون والوظائف ، ج١ ، ص٦٢-٦٣ .

٩٧- قرأها "Gaston Wiet" على نحو «السناى» وذكر أن الكلمة لاتزال غامضة ، وقرأها «زكى حسن» على نحو «السنانى» وبمراجعة هاتين الكتابتين على التحفة «عبد الرءوف على يوسف» تبين شرطة

حرف «الكاف» وكذلك حرف «الراء» وقد سقط عنهما تكفيت الفضة وبذلك تكون صحة القراءة «السنكرى» أى صانع المعادن وهى لفظة مازلنا نستعملها إلى الآن مع غيرها من أسماء الحرف واصطلاحات الصناعة التى وصلت إلينا من عهد المماليك والتى تزخر بها حجج الأوقاف ووثائق هذا العصر ، ولفظة «السنكرى» هى تحريف لكلمة «تكارى» الفارسية بمعنى صانع المعادن أو الحداد حيث يدل على تخصصه المهنى فى أعمال السنكرة التى يتسع مدلولها فى ذلك العصر ليشمل عددا من الأعمال الحرفية فى مجال صناعة المعادن وزخرفتها . وما يؤكد ذلك توقيع الصانع محمد بن سنقر على صندوق مصحف بمتحف برلين بالخط النسخى بحروف صغيرة فى سطرين يقرأ «عمل محمد بن سنقر البغدادى تطعيم الحاج يوسف بن الغوابى» وهذا التوقيع يكشف عن تخصصه بالسنكرة التى وردت على توقيعه على كرسى العشاء. راجع ، زكى حسن، فنون الإسلام، ص٥٥٩-٥٦٠ ، عبد الرءوف على يوسف ، تحف فنية من عصر المماليك، مستخرج من مجلة «المجلة» العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢ م، ص٩٨-٩٩ ، هامش ١ ، حسين عليوه ، دراسة لبعض الصناع والفنانين ، ص١٠٤ .

Wiet G., Catalogue général., p. 18 .

٩٨- راجع : حسين عبد الرحيم عليوه، دراسة لبعض الصناع والفنانين، ص١٠٣ .

٩٩- راجع : حسين عليوه ، محمد بن سنقر، القاهرة، ١٢٨-١٣٠ ، دراسة لبعض الصناع والفنانين، ص١٠٣-١٠٥ .

١٠٠- أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامى، ص١١١-١١٢ .

١٠١- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى، تاريخه ، وخصائصه ، بغداد ١٩٦٥ ، ص١٧٠ .

١٠٢- راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج١ ، ص٦٣٠-٦٣١ ، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى، ١٩٩١م، ص٢٦٤ .

١٠٣- يعرف الشيخ أيضا باسم أمين أو عريف وأحيانا نقيب، إذا اختفت رتبة النقيب يسمى الشيخ. راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج١، ص٦١ .

١٠٤- راجع أحمد رمضان ، المجتمع ، ص١١٣ .

١٠٥- استعمل هذا اللفظ فى الدول الإسلامية بدلالات وظيفية مختلفة فمثلا جرت العادة فى بعض العصور على كل من اتقن مهنة وبلغ درجة رفيعة فيها سواء من رجال الدين أو العلم أو رجال الدولة أو ذوى الحرف والصناعات والمهارات المختلفة كما استخدمت لفظة استاذ فى الدول الإسلامية وبخاصة

فى عصر السلاجقة للدلالة على بلوغ مرتبة رفيعة فى الدولة وكذلك للدلالة على الرئاسة وخاصة بين الموظفين من غير العسكريين الذين كان يصطلح على تسميتهم بأرباب الأقلام بالإضافة لعادة السلاجقة أن يكون لكل سلطان أستاذ يشرف على تربيته وتأديبه فى الصغر . راجع : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣، ص٤٨١ ، ج٥ ، ص٤٨٩ ، حسن الباشا. الألقاب ، ص١٣٩-١٤٠ ، الفنون والوظائف ، ج١ ص٦٢ - ٦٣ .

١٠٦- حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج١ ، ص٦٢-٦٣ .

١٠٧- الصفر : نوع من النحاس الأصفر أو الملاط الذى تصنع منه الأوعية والقدور . راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج٢ ، ص٧٠٥-٧٠٦ .

١٠٨- ضمت بعض نصوص البرديات العربية فى موضوعاتها لقب النحاس وما به تفاصيل دقيقة لأعمال النحاس وأيضا بعض أسماء الأدوات التى كان يستخدمها النحاس من قدور وقوالب وأدوات ومسابك وأفران مع أسعار منتجاته وسائر الصناعات الأخرى النحاسية. راجع : سعيد مغاورى، الألقاب والحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية، دكتوراة، ١٩٩٤م، ص٨٩١ .

١٠٩- ومما لاشك فيه أن وجود هذه المسابك كان ضروريا لإمداد صناع النحاس بالخامات اللازمة من هذا المعدن لانتاج مختلف الصناعات المدنية من أدوات منزلية وكراسى العشاء وغيرها من الشماعد والتنانير والثريات وصناديق المصاحف والمحابر والأوانى والأباريق . راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية ، ج١ ، ص٦٩ .

١١٠- راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج٢ ، ص١٢٧٥ .

١١١- استخدمت لفظة النقاش بمعنى الملون والمصور والمزخرف بالألوان سواء على الورق أو القماش وغير ذلك . راجع : حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣ ، ص١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٢- حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣، ص١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٣- التكفيت : كلمة فارسية من فعل «كفتن» بمعنى وضع مادة أغلى فى الثمن فى مادة أرخص منها تكون مختلفة عنها فى اللون مثل تكفيت النحاس والبرونز بالذهب والفضة ، وقد ازدهر هذا الأسلوب فى زخرفة التحف المعدنية. راجع : سعاد ماهر، مشهد الإمام على فى النجف وما به من الهدايا والتحف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م، ص٣٢٨ .

١١٤- حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣، ص١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٥- الاسطرلابى : هو صانع أو مؤلف الاسطرلابات أو الاصطرلابات ، ويقال له أيضا الاسطرلابى أو الاصطرلابى ، وقد وردت الأسماء الثلاثة فى الكتابات الأثرية. راجع:

Sourdel D., et J., Dictionnaire, pp. 112-114 .

١١٦- راجع : دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، مادة «الاسطرلاب» ص١١٤-١١٨ ، حسن الباشا، الاسطرلاب ، ص٥٧٨-٥٧٩ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية، ص٧٥ .

١١٧- من هؤلاء قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن منصور علم الدين الحنفى وهو عالم رياضى وفلكى ومهندس ولد باصفون من أعمال قنا حوالى سنة ١١٧٨ / ١١٧٩م وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، ولقد تلقى العلم فى سوريا ثم الموصل وتتلمذ على يد العلامة كمال الدين بن يونس الذى علمه الموسيقى وبعض العلوم ، ولما انتهى من دراسته بالموصل عاد إلى سوريا والتحق بخدمة المظفر الثانى تقى الدبن محمود صاحب حماة ١٢٢٩-١٢٤٤م. وكان قيصر ماهرا فى صنع الأدوات الفلكية وخاصة الكرات السماوية ففى سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م صنع كرة سماوية من البرونز للسلطان الأيوبى الملك الكامل محمد بن أبى بكر ونقش عليها اسمه بالخط الكوفى. راجع : Mayer. L.A., Islamic Astrolabists, pp. 29-30 .

١١٨- سعيد الديوه جى، الموصل، ص٥٠-٥٢ .

١١٩- راجع : زكى حسن، فنون الإسلام ، ص٥٤٢ .

١٢٠- أهم المميزات الفنية لمدينة الموصل كذلك الزخرفة ذات الرسوم الآدمية التى تقوم فى كثير من التحف التى صنعت فيها على أرضية من خطوط منكسرة ومتداخل بعضها فى بعض تؤلف شكل حرف "T" المزدوج ، كما أن هذه السمة ظهرت على التحف المعدنية التى صنعت للسلاطين الأيوبيين ، ومن الرسوم التى انفردت بها التحف المعدنية الموصلية دون غيرها هى رسم الهلال بين ذراعى شخص جالس على نحو ما نرى على بعض قطع العملة التى ضربها بنو زنكى فى الموصل. راجع : زكى حسن، فنون الإسلام، ص٥٤٢، صلاح حسين العبيدى، التحف المعدنية الموصلية، ص٦٦ .

١٢١- راجع : ابن القلانس (أبى يعلى حمزة بن القلانس) ، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م، ص٥٥٢-٣٦٥ ، ابن حوقل (أبى القاسم بن حوقل النصيبى)، كتاب صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ ، ص١٥٣-١٧٣ ، ابن خرداذبة (أبى القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة. متوفى فى حدود سنة ٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ص٩٨-٩٩ ، راجع : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٥٣-١٧٣ ، الاصطخرى، المسالك والممالك ، وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦١م، ص٤٥ .

١٢٢- كانت حلب فى العصور الإسلامية الأولى بلدة ثانوية محصورة بين مدينتين عظيمتين وهما انطاكية عاصمة شمال الشام وقنسرين عاصمة الإقليم الذى تقع فيه حلب على أن هذا الموقع المتميز لم يكن نعمة على طول الخط ، وإنما كانت له بعض الآثار السيئة بالنسبة لحلب إذ غدت ساحة للحرب بين القوى المحيطة بها. ذلك أنها المدخل الطبيعى لبلاد الشام من ناحية ثانية، ومن ثم فإن السيطرة على حلب وأعمالها صارت تعنى فصل شمال الشام عن جنوبه ، وعندما هيئت الظروف لصلاح الدين الأيوبى بتملك الشام سعى للسيطرة على حلب وقد تم له ذلك فى ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ومن ثم غدت الجبهة الإسلامية تحت زعامته تمتد من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوبا راجع ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٥٣-١٧٣ ، ابن العديم، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ج١ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١م، ص٦٠-٨٠ ، ناصر خسرو ، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م، ص٥٥ .

١٢٣- محمود محمد الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف ، ١٩٧٩، ص١٣٠ .

١٢٤- راجع : ابن العديم، زبدة الحلب، ص٦٠-٧٠ ، عادل عبد الحافظ حمزة، حلب وجيرانها فى عهد ملوك بنى أيوب، التاريخ والمستقبل، مج١ ، العدد الثانى ١٩٩١م، ص٦٥-٨٥ .

١٢٥- زكى حسن ، كنوز الفاطميين، ١٩٣٧م، ص٢٤١-٢٤٢ .

١٢٦- السيد طه السيد، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١م، ص١٥٨-٢٠٥ .

١٢٧- عاصم رزق ، مراكز الصناعة، ص٣١ .

١٢٨- السيد طه السيد، الحرف والصناعات، ص١٦٥ .

١٢٩- راجع المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص١٠٥ .

١٣٠- راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مج ٢، بيروت ، ١٩٨٤، ص٤٩٤ . ، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، حققه د/ احسان عباس، مج٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٢٢٢، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧٤ ، ج١١ ، ص٩٤ ، ج١٢ ، ص٤٩٩ ..

Allan J.W., Islamic Metalwork the Nuhad Es-Said Collection , Sotheby , 1982 , p. 19 .

١٣١- راجع : حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣، ص١٢٩٤ ، حسن عبد الوهاب ، توقيعات الصناع، ص٥٣٨ .

ثبت المصادر والمراجع

أولا المصادر:

ابن الأثير «لأبى الحسن على بن أبى الكرم محد» ت : ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م .

الكامل فى التاريخ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م . {الكامل} .

ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى بن عماد ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٥ ، بيروت ، بدون تاريخ .

القلقشندى «أبى العباس أحمد بن على بن أحمد» ت : ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م .

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الطبعة الثانية ، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م . {صبح الأعشى} .

المقريزى «تقى الدين أحمد بن على بن أحمد» ت : ٨٤٥هـ/ ١٤٢١م .

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق / محمد مصطفى زيادة، ج٢ ق١، القاهرة ، ١٩٧١ م، ج٢ ، ق٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢م. {السلوك} .

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقريزية» ، جزآن ، طبعة بولاق ، بدون تاريخ. {الخطط} .

ياقوت الحموى ، معجم البلدان، مج٢ ، بيروت ، ١٩٨٤ م.

ثانيا : المراجع

– أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار النهضة بمصر، ١٩٧٩م. {الحياة الأدبية} .

– أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى ، ١٩٩٠م {الحضارة} .

الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، «العلوم العقلية»، الفكر العربى، ١٩٩١م. {الحضارة} .

– السيد طه السيد أبو سديرة ، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م {الحرف والصناعات} .

-ثروت عكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م. {فن الواسطى} .

- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م {الألقاب}.

الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٣ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م. {الفنون والوظائف} .

- حسين عليوة، المعادن ، كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وأثارها، القاهرة، ١٩٧٠ {المعادن} .

- حسين مؤنس ، اطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للاعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٧م. {المعادن} .

- زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، دار الرائد العربى بيروت ، ١٩٨٠م.

- زكى حسن، فنون الإسلام، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، القاهرة، ,١٩٤٨ {فنون الإسلام} .

- سعيد الديوه جى، أعلام الصناع المواصلة، الموصلة ، ١٩٧٠ .

الموصل فى العهد الأتابكى، بغداد ، ١٩٥٨م {الموصل} .

- سوادى عبده محمد الرويشيرى، إمارة الموصل فى عهد بدر الدين لؤلؤ، بغداد ، ١٩٧١ {امارة الموصل} .

- صلاح حسين العبيدى، التحف المعدنية الموصلية فى العصر العباسى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٠م. {التحف المعدنية} .

- عاصم محمد رزق ، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩م {مراكز الصناعة} .

- عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، الجزء الأول، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٨، (الفنون الإسلامية) .

- عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى، القاهرة، ,١٩٦٣ (الفن الإسلامى) .

- محمد محمد سطيحه ، اليمن شماله وجنوبه ، القاهرة، ١٩٧٢ .

- محمود إبراهيم حسين : أعلام المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم الفنية، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٢ (أعلام المصورين).
- محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف ، ١٩٧٩م . {الأوضاع الحضارية} .
- يوسف ذنون ، الواسطى موصليا ، منشورات مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل ، ١٩٩٨م.

ثالثا : المراجع الأجنبية المعربة :

- ويستنفلد . ف، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة / عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.

رابعا : الدوريات

- حسن الباشا ، المبخرة ، بحث بكتاب القاهرة تاريخها، فنونها، أثارها ، المؤسسة، ١٩٧٠م {المبخرة} .
- حسن الباشا، بنو المعلم، بحث بكتاب القاهرة تاريخها، فنونها، أثارها، المؤسسة، ١٩٧٠م . [بن، المعلم] .
- حسن عبد الوهاب، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية، المجمع العلمى المصرى، ١٩٥٥ [توقيعات الصناع] .
- حسين عليوه ، محمد بن سنقر ، بحث بكتاب القاهرة تاريخها ، فنونها، أثارها، المؤسسة، ١٩٧٠م [محمد بن سنقر] .
- حسين عليوه ، دراسة لبعض الصناع والفنانيين بمصر فى عصر المماليك، مستخرج من دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الأول ، مايو ١٩٧٩م {دراسة لبعض الصناع].
- عبد الرؤوف على يوسف، تحف فنية من عصر المماليك، مستخرج من مجلة «المجلة» العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢م [تحف فنية] .
- عبد العزيز صلاح ، دراسة بعض التحف المعدنية الإيرانية المكفتة فى ضوء مجموعة متحف اللوفر بباريس من منتصف القرن ٦هـ / ١٢م إلى بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ندوة شرق العالم الإسلامى، كلية الآثار- جامعة القاهرة١٩٩٨م. [دراسة بعض التحف] .

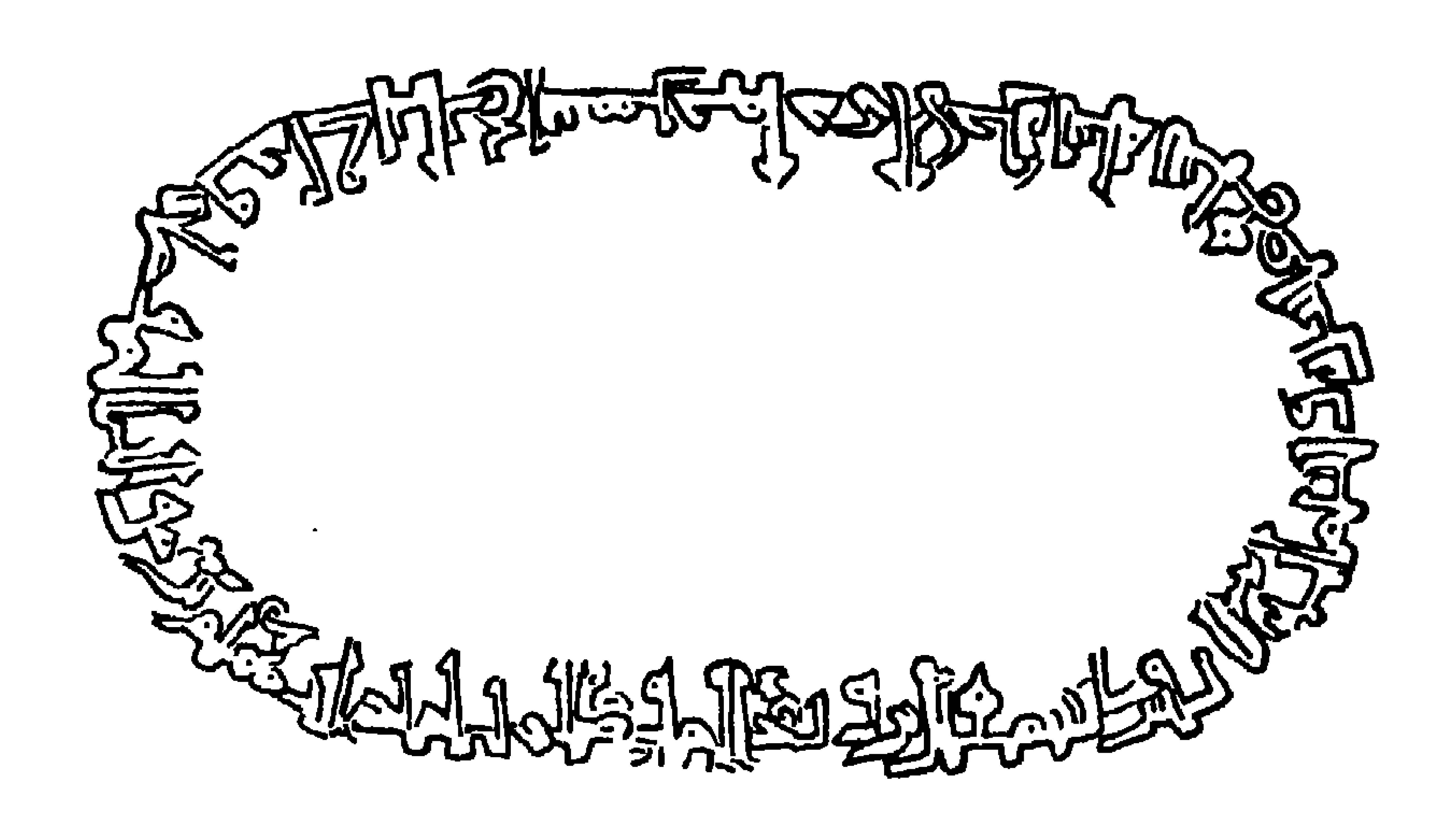
خامسا : المراجع الأجنبية :

- Abouseif Doris- Behrens, The Babtistére de Saint Louis, Islamic Art, III, 1988-1989 .
- Allan, W., James, Metal work of the Islamic world , the Aron collection Sotheby, 1986 .
- Arabesques et Jardins de Paradis, Collections francaises d'art islamique, Musée du Louvre , Paris, 1989-15 Janvier, 16 Octobre, 1990 .
-Atil Esin, and Chase, W.T., Islamic metal work in the freer Gallery of art Washington, 1985 .
- Baer, Eva , Metal work in Medieval Islamic Art, New York, 1983 .
- Balog Paul, the coinage of the Ayyubids, London, 1980 .
- Barrett, Douglas, Islamic Metalwork in the British Museum, London, 1949.
- Berchem. Max Van , Notes d'archéologie Arabe, étude sur les cuivres Damasquinés et les verres émailés, Journal Asiatique, Tome III, 1904 .
- Inscription Mobiliérs Arabes en Russie, J.A., Tome. XIV , 1909 .
- Berchem, Max Van , Und Sarre Von Friedrich , Das metallbecken des arabeks Lu' Lu von Mosul in der kgl . Bibliothek zu Munchen, Munchen Jahrbucher der bildenden Kunst, 1907 .
- Blair Sheila S., Artists and Patronage in late fourteenth- century Iran in the light of two catalogues of Islamic metalwork , Bull. SOAS, XLVIII, 1985 .
- Combe, M. Étinne, Cinq cuivres muslman datés XIII . XIV et XV Siécles de la Collection Benaki , BIFAO, XXX, 1930 .
- Combe , E., J., Sauvaget , G. Wiet , Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe, Caire. IFAO, XI, 1941-1941 .
- David, James, An early mosul metalworker: some new information , Oriental Art, N.S. 26 , 1980 .
- Dimand , M.S., A handbook of muhammadan art, New York, 1947 .

- Dimand , M.S., Unpublished metalwork of the Rasulid Sultans of Yemen, Metopolitan Museum Studies, vol., III, 1930 .
- Ettinghausen , Richard , Le Baptistére de St. Louis. by Rice, ARS Orientalis, vol . I, 1954 .
- Hartner Willy , The Vaso vescovali in the British Museum A study on Islamic Astrologigal iconography , Kunst des Orients, IX 1/2 , 1973/4 .
- Hayward G., The Arts of Islam, 1976 .
- Lane - Poole, Stanley, The art of the saracens in Egypt, London, 1888 .
- Mayer , L.A., Islamic Metalworks and their works, Geneva, 1959 .
- Islamic Astrolabists and their works, Geneva, 1956 .
- Melikian Chirvani Assadullah Sourc , Islamic Metalwork from the Iranian World , London, 1982 .
- L'art du métal islamique , Paris, 1971 .
- Migeon , Gaston , Mannuel d'art musulman , Paris, 1927 .
- Les Cuivres Arabes, Gazette de Beaux - arts, décembre , 1899 .
- Les Cuivres Arabes, Gazette de Beaux arts, LXXXVI, 1900 .
- Mostafa, Mohamed, the Museum of Islamic Art, a short Juide, Egypte, 1979 .
- Musée Benaki Athénes, Guide, Athénes, 1936 .
- Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , I, BSOAS, XIV/3 ., 1952 .
- Studies in Islamic metalwork . II, BSOAS, XV/1 , 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork, III, BSOAS., XV/2 , 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork , IV, BSOAS., 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork , V. BSOAS., XVII/2, 1955 .
- Studies in Islamic Metalwork , VI, BSOAS., XX I/2 , 1955 .
- The Oldest dated ' Mosul' candlestick A.D. 1225 , The Burington Magazine, december , 1949 .
- Inlaid brasses from the Workshop of Ahmad al- Dhaki al- Mawsili , ARS Orientalis, VOL. 2, 1957 .

- The Brasses of Badr al - din Lu'Lu, Bulletin of the School of Oriental and African Studies 13 , 1950 .
- The Aghani miniatures and religious painting in Islam , Burlington Magazine vol. 95 , April 1953 .
- Wiet, Gaston, Répertoire chronologique dépigraphie Arabe , IFAO, X, Le Caire, 1939 .
  - Catalogue Général du musée Arabe du caire (Le Caire), 1932 .
- Wiet G., Catalogue général du musée arabe du Caire, Objets en cuivre, Oraganisation égyptienne générale du livre, 1984 .
- Inscription mobiliéres de L'Égypt Musulmane, Journal Asiatique, CCXLVI, 1958 .
- Les inscription de Saladin, Syria, Revue d'Art Oriental et d'Archéologie, tome III, Paris, 1922 .
- Un Nouvel Artiste de Mossoul , Paris, 1931 .
- L'épigraphie arabe de l'expostion d'art persan du Caire, Mémoire a

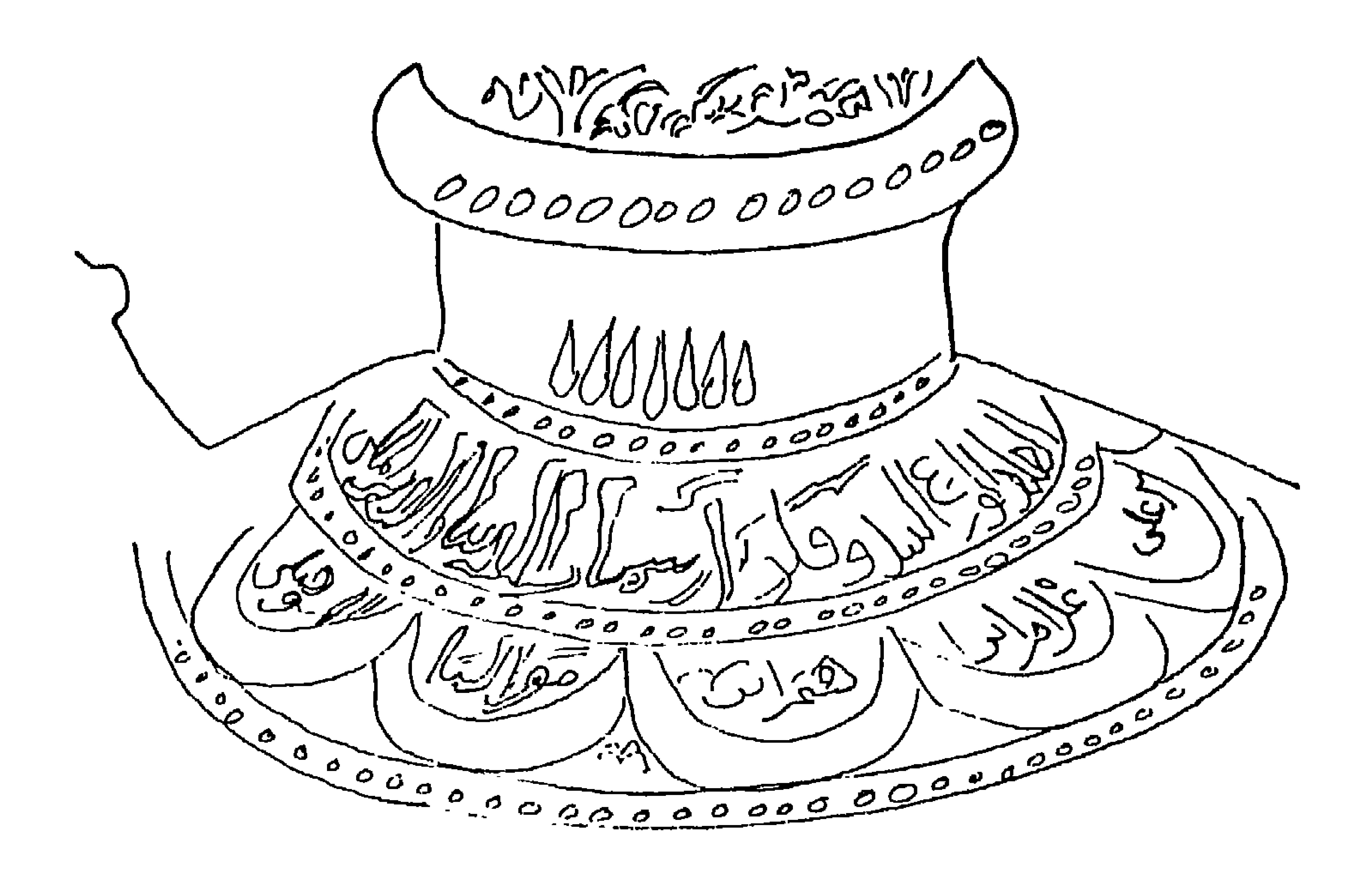
(شكل ١)



(شكل ٢)

وافق الفراغ من نسخه بكره الخميس في العشرين من شوال سنه ست واربعين وستمائه
كاتبه الفقير الى رحمه الله ورضوانه اسمعيل بن ورد بن عبد الله النقاش الموصلي وهو
حامدا لله ومصليا على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله واصحابه وسلم تسليما وغفر الله
لمن نظر فيه ودعا له بالمغفره ولجميع المسلمين

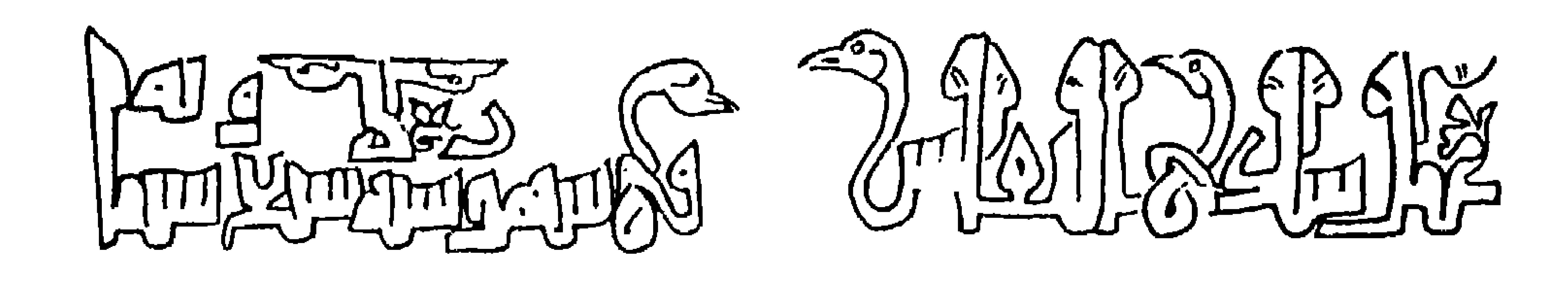
(شكل ٣)



(شكل ٤)

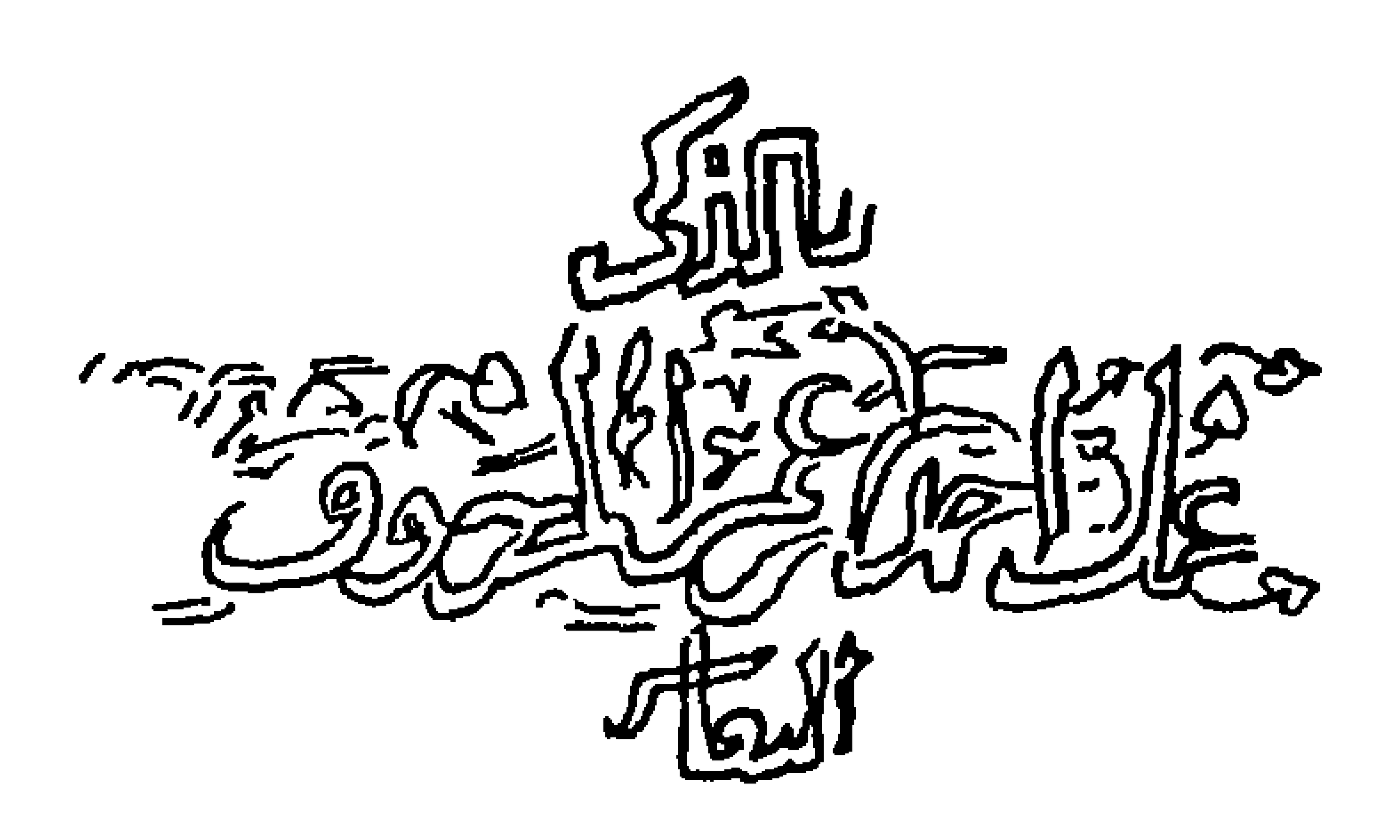


(شكل ٥)



(شكل ٦)

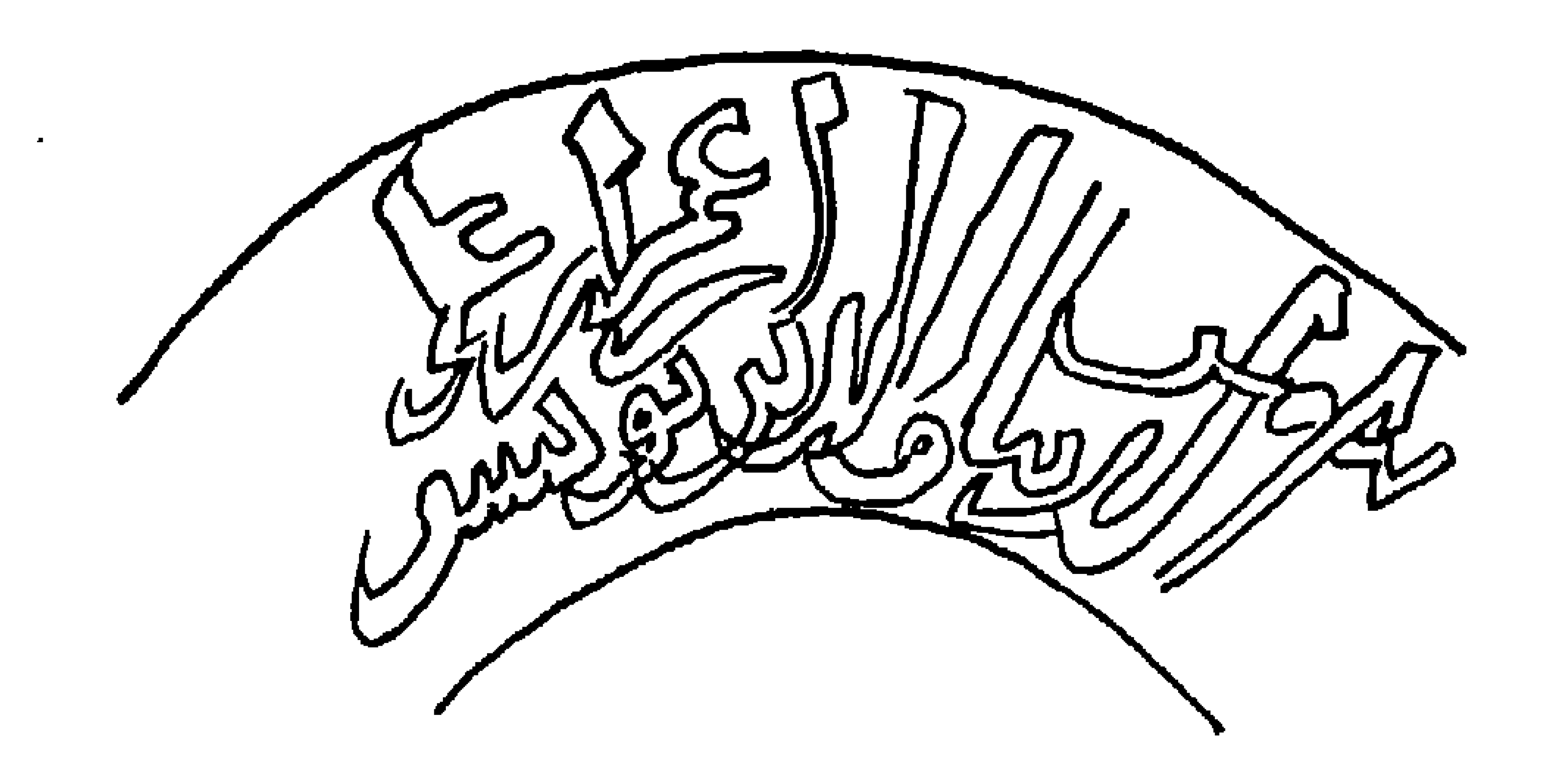
(شكل٧)



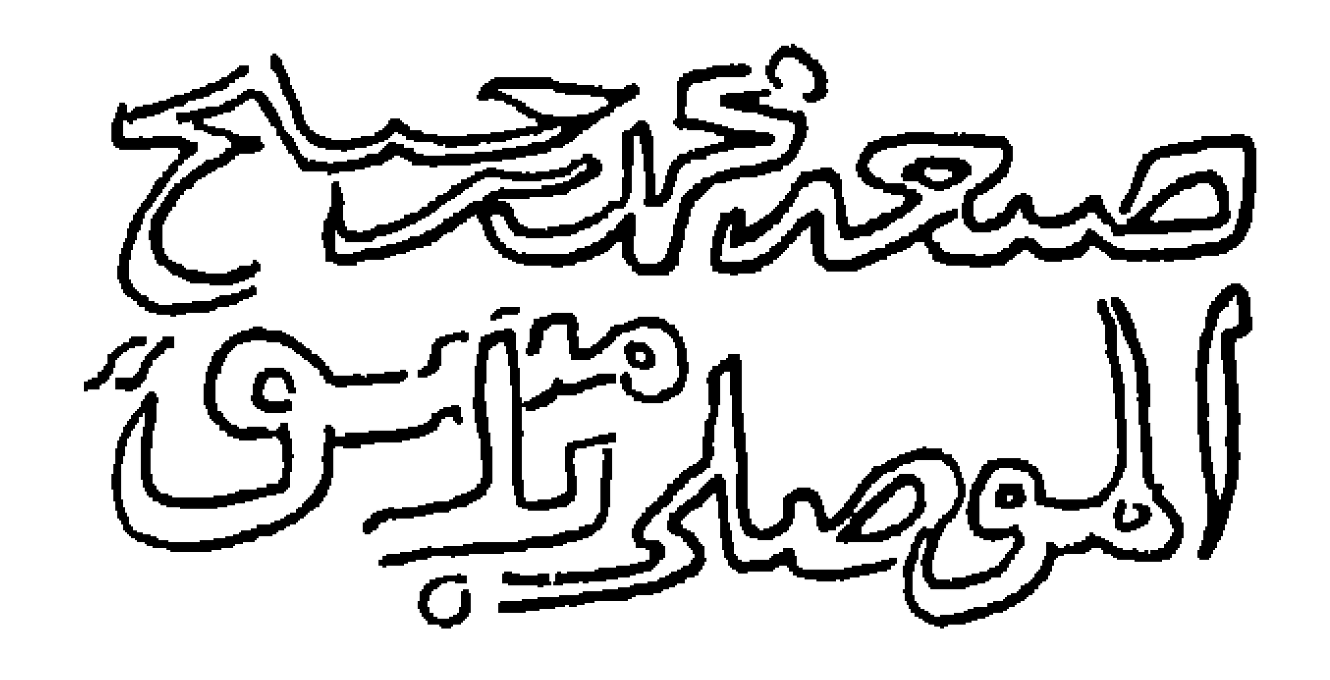
(شكل٨)

(شكل٩)

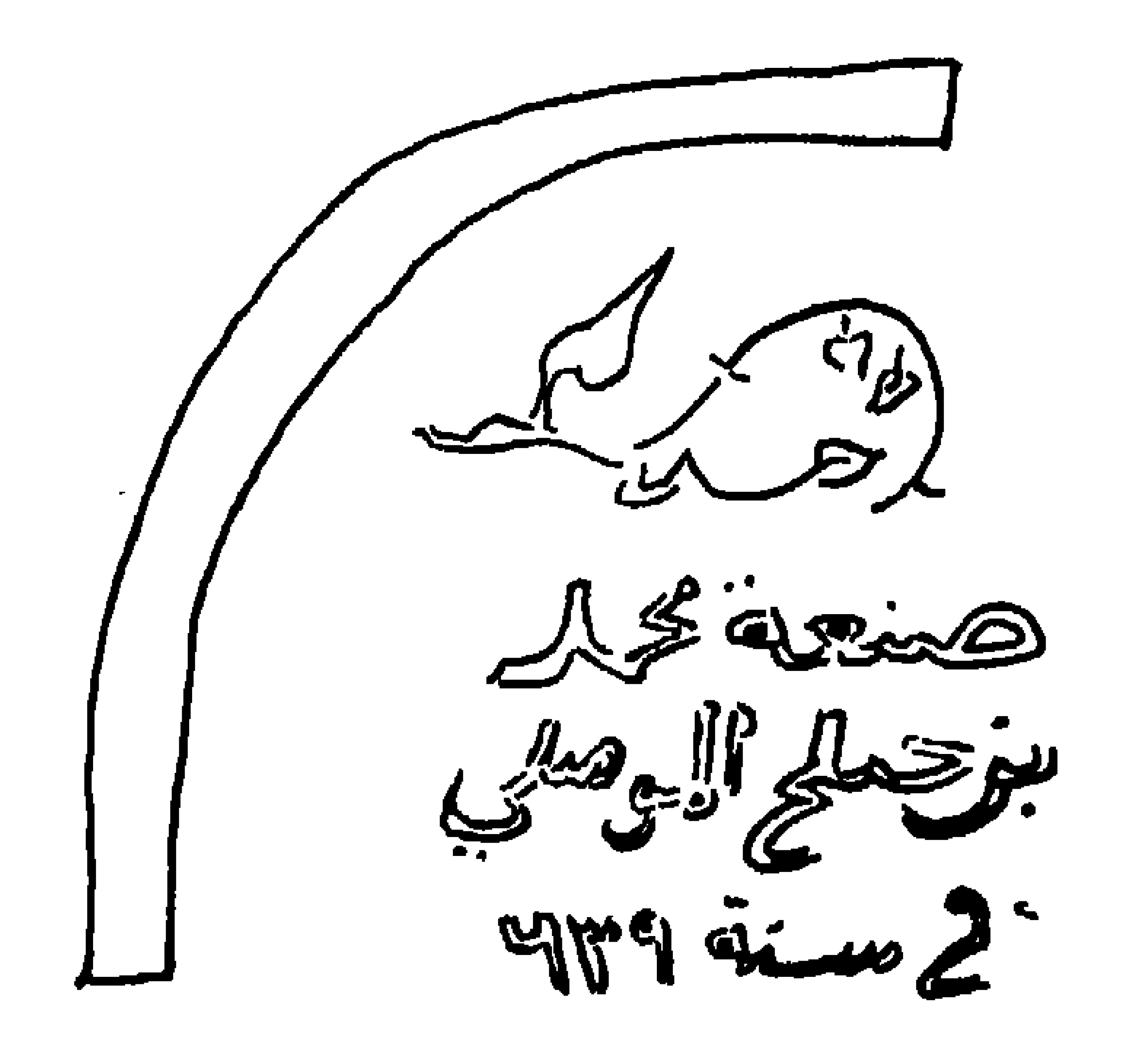
(شكل١٠)



(شكل١١)



(شكل١٢)



(شكل١٣)

عمل ابو القاسم بن سعد بن محمد الاشعري في سنة اربع عشر و ثلثمائة

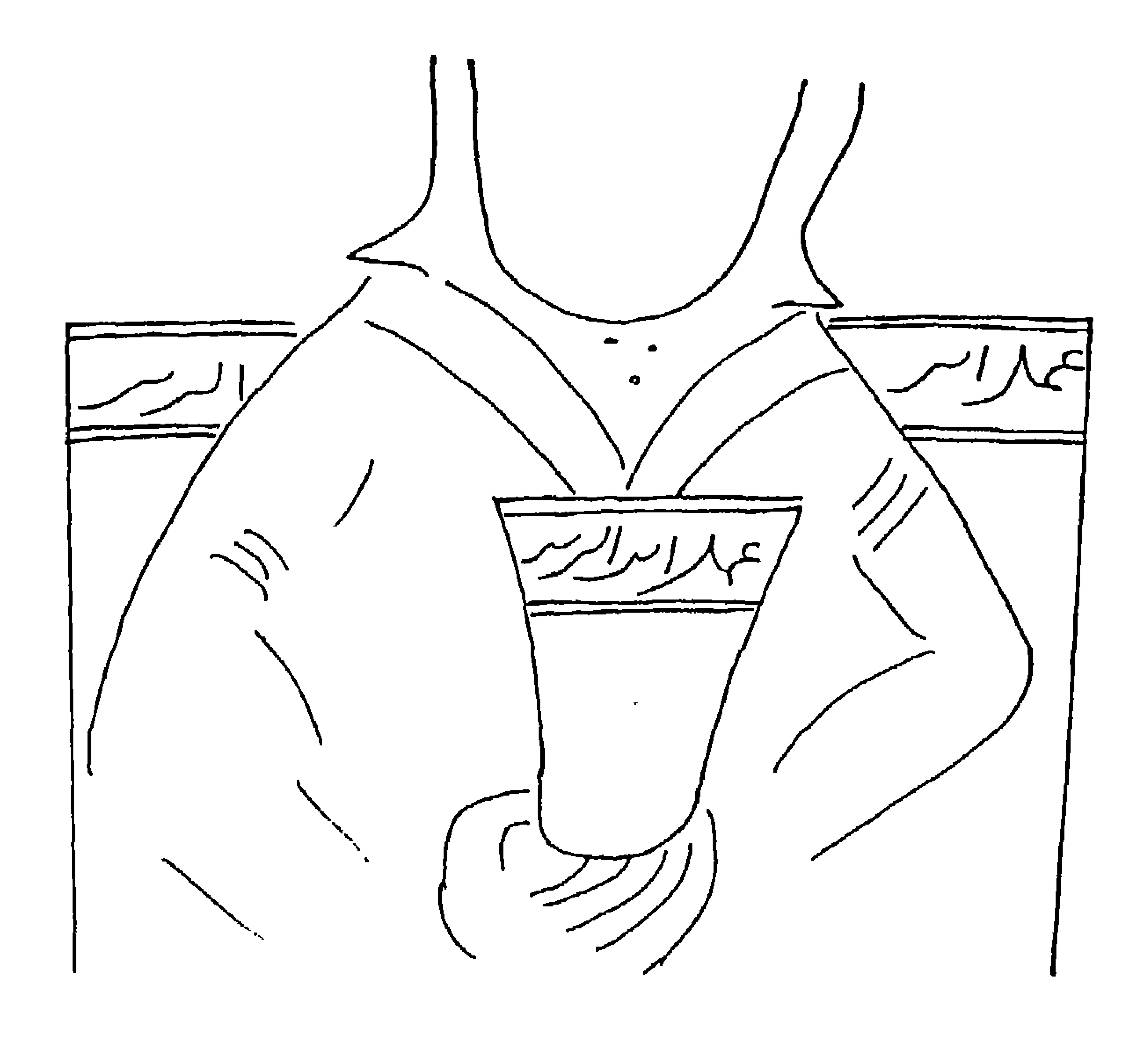
(شكل ١٤)

عمل ابو القاسم بن سعد بن محمد بن مسعودي في سنة ثلث و اربعين و ستمائة

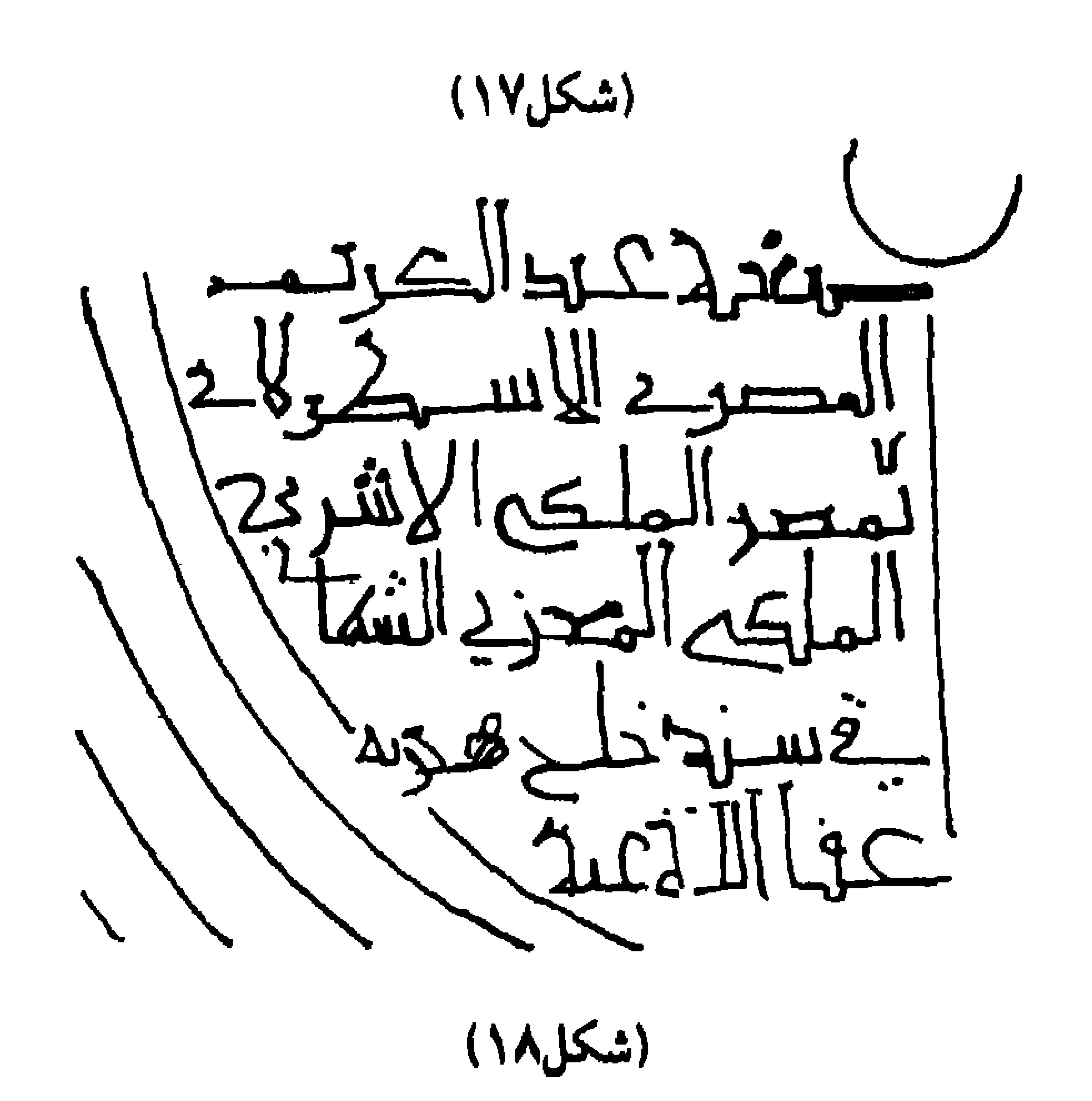
(شكل ١٥)



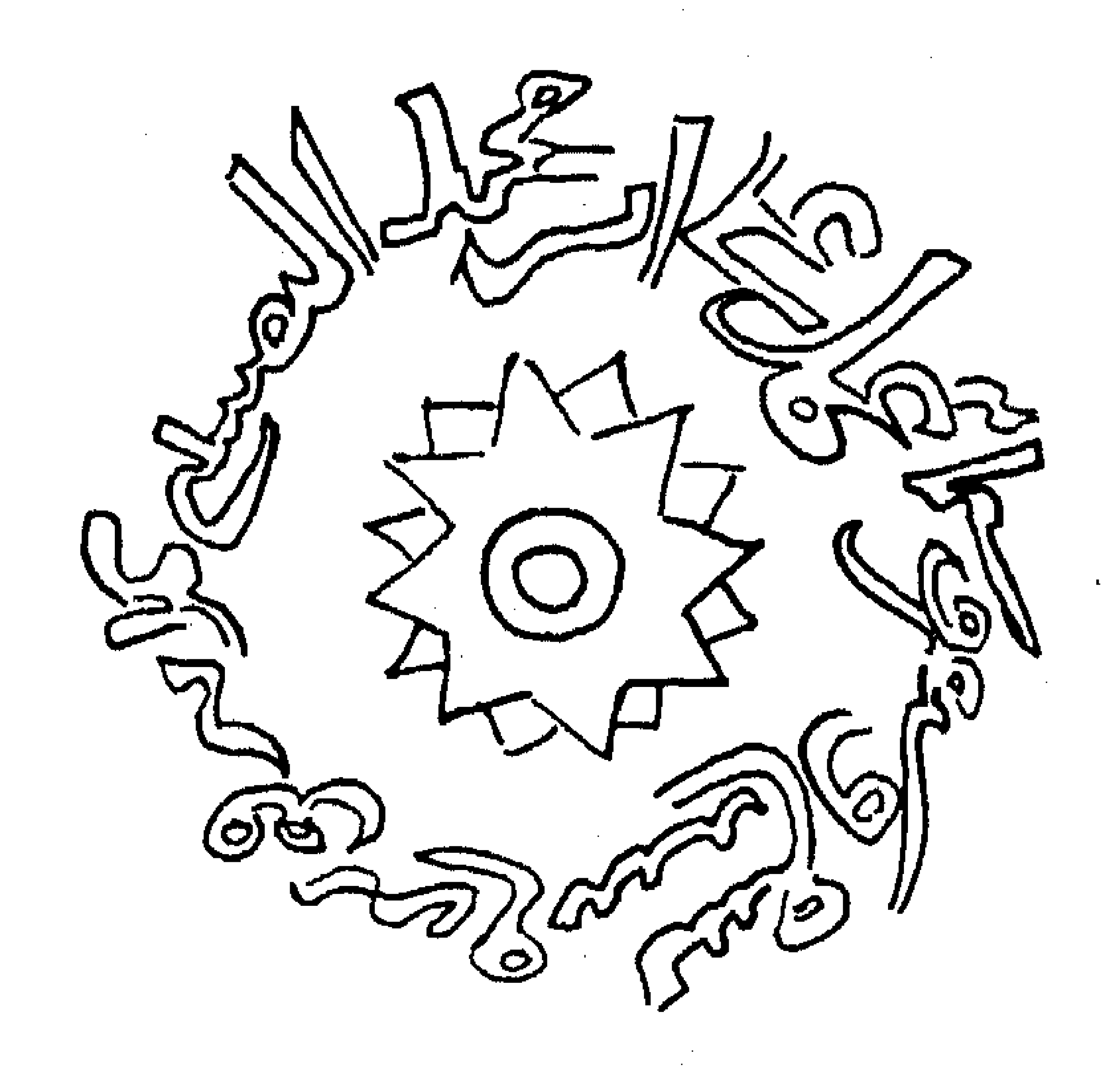
(شكل ١٦)



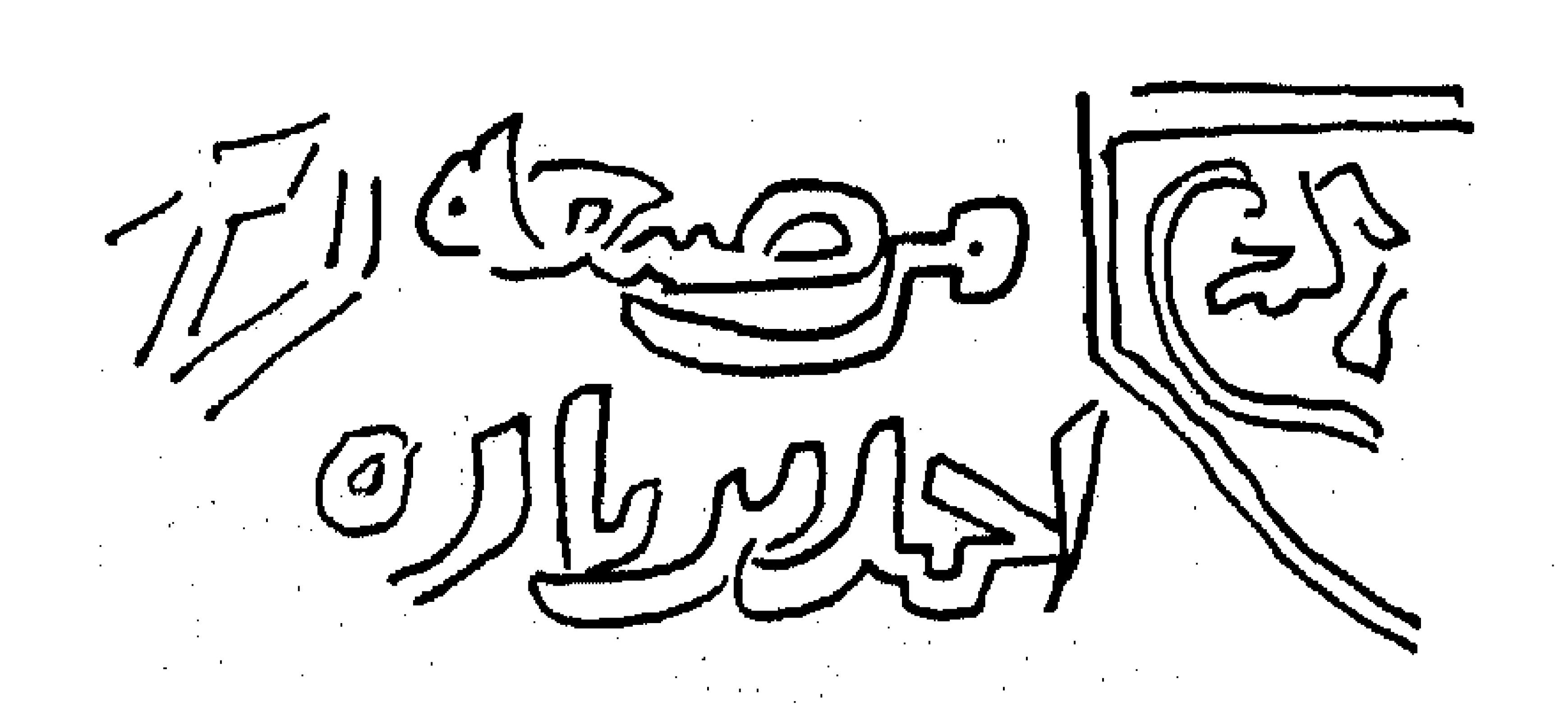
(شكل١٧)



(شكل١٨)



(شكل١٩)



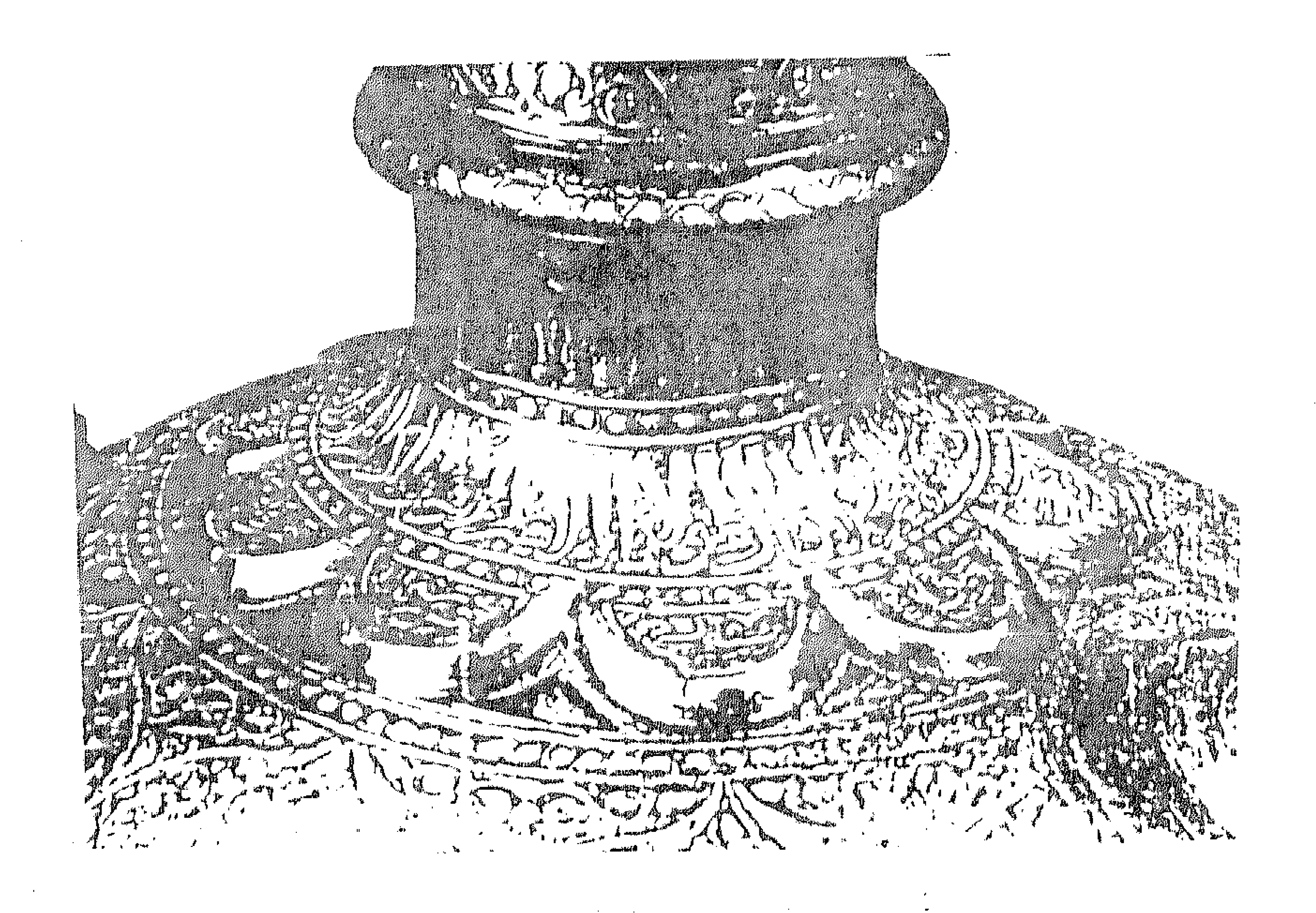
(شكل٢٠)

[illegible]

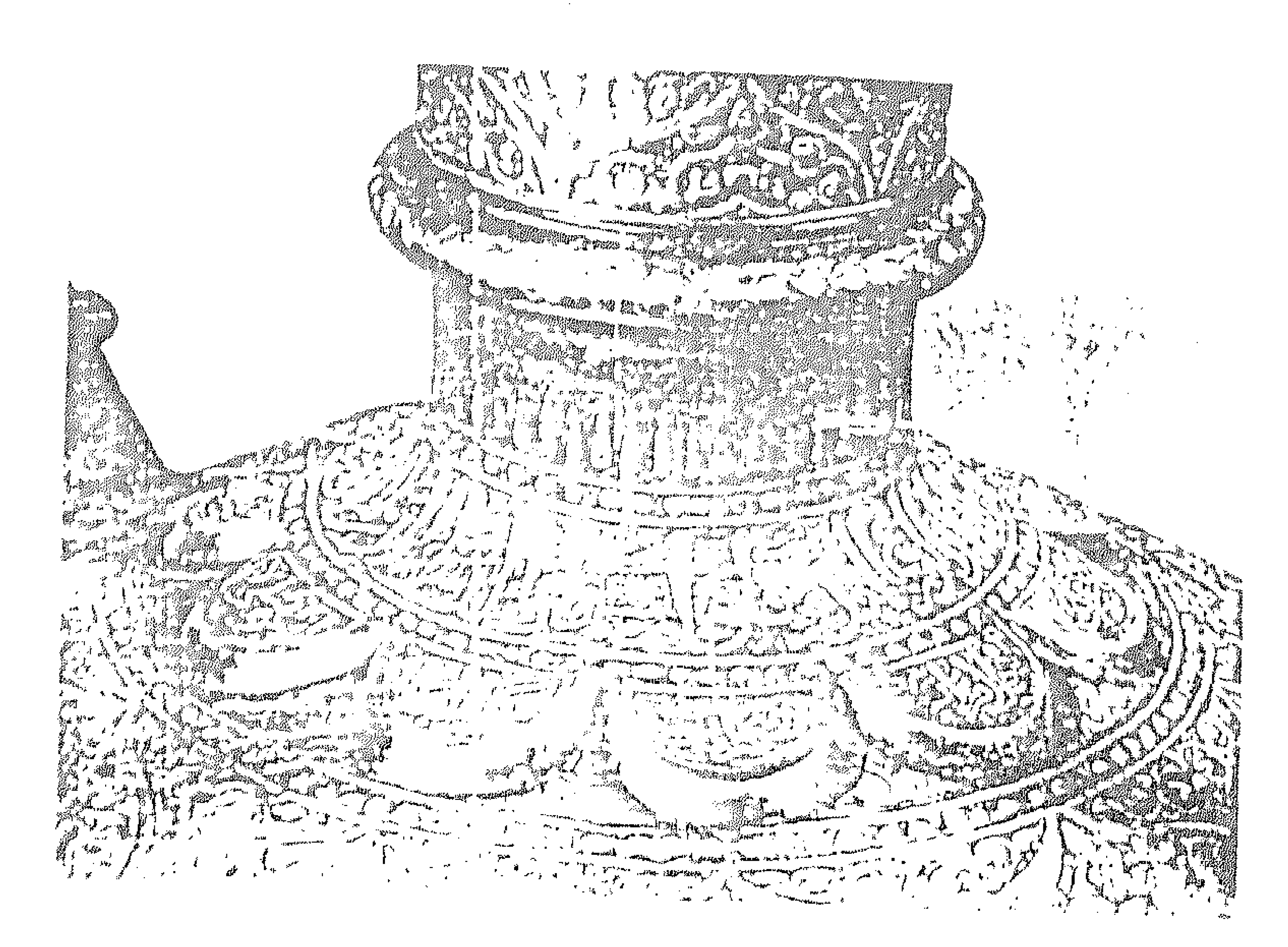
... والقدم والرجل المذكوران في هذا الحديث من صفات الله تعالى المنزه عن التكييف والتشبيه وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب والسنة كاليد والاصبع والقدم والإتيان والنزول فالإيمان بها فرض والامتناع عن الخوض فيها واجب فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم والخائض فيها زائغ والمنكر معطل والمكيف مشبه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ووافق الفراغ من نسخه بكرة الخميس في العشر الأول من شوال سنة ست وأربعين وستمائة كاتبه الفقير إلى رحمة الله ورضوانه إسماعيل بن ورد بن عبد الله النقاش الموصلي وهو حامدا لله ومصليا على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما وغفر الله لمن نظر فيه ودعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين

(اللوحة ١)



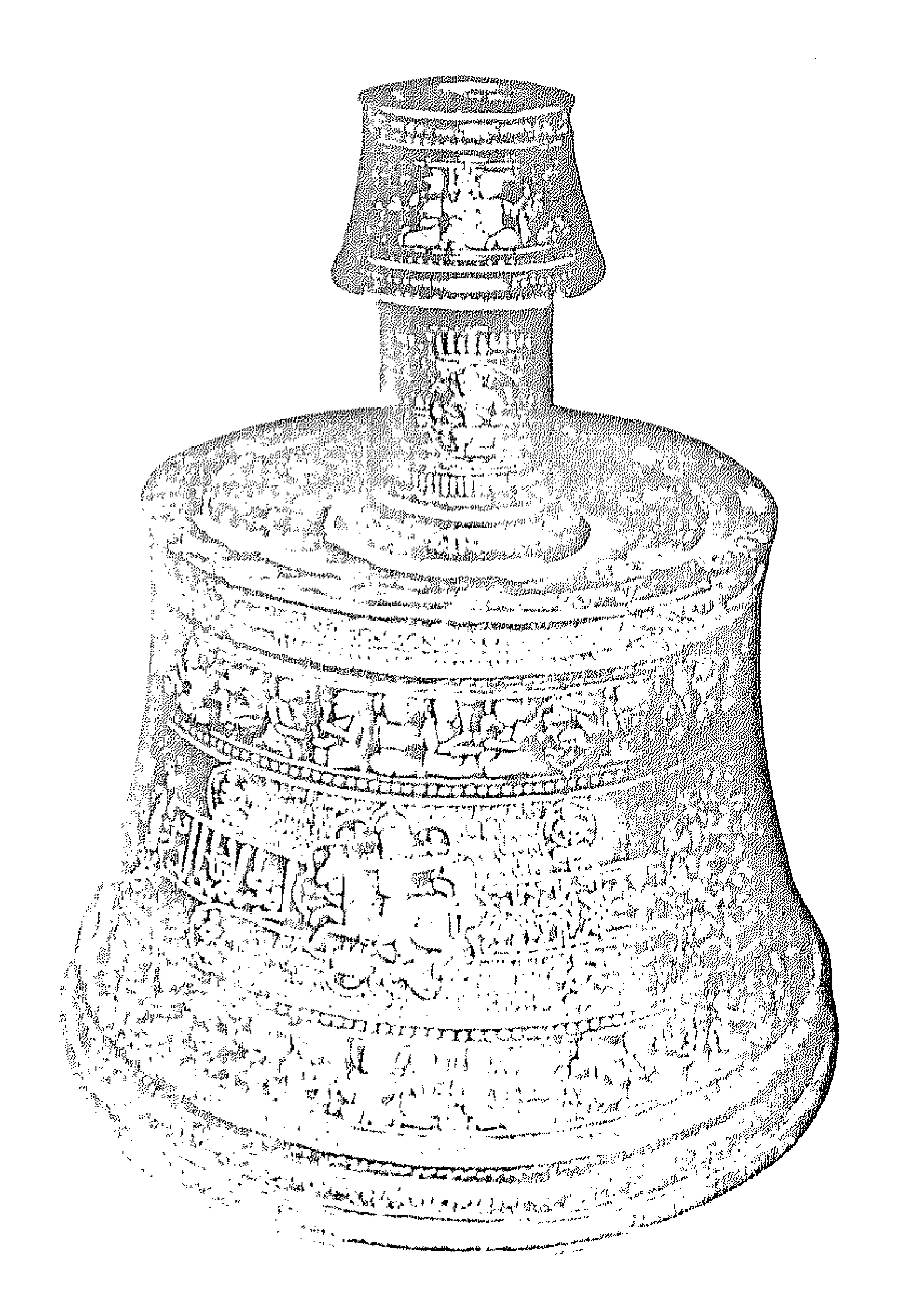
(اللوحة ٢)



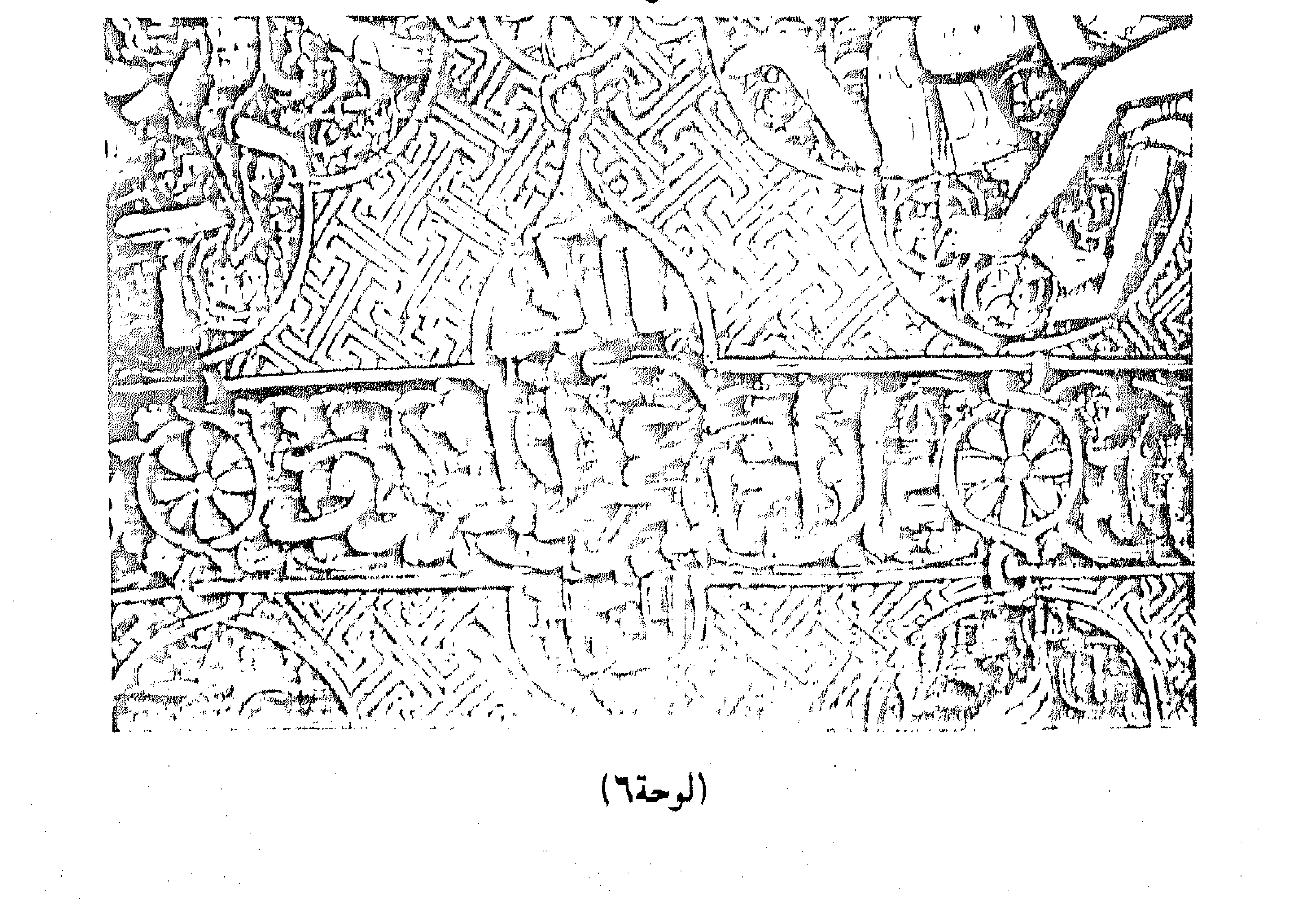
(لوحة٣)



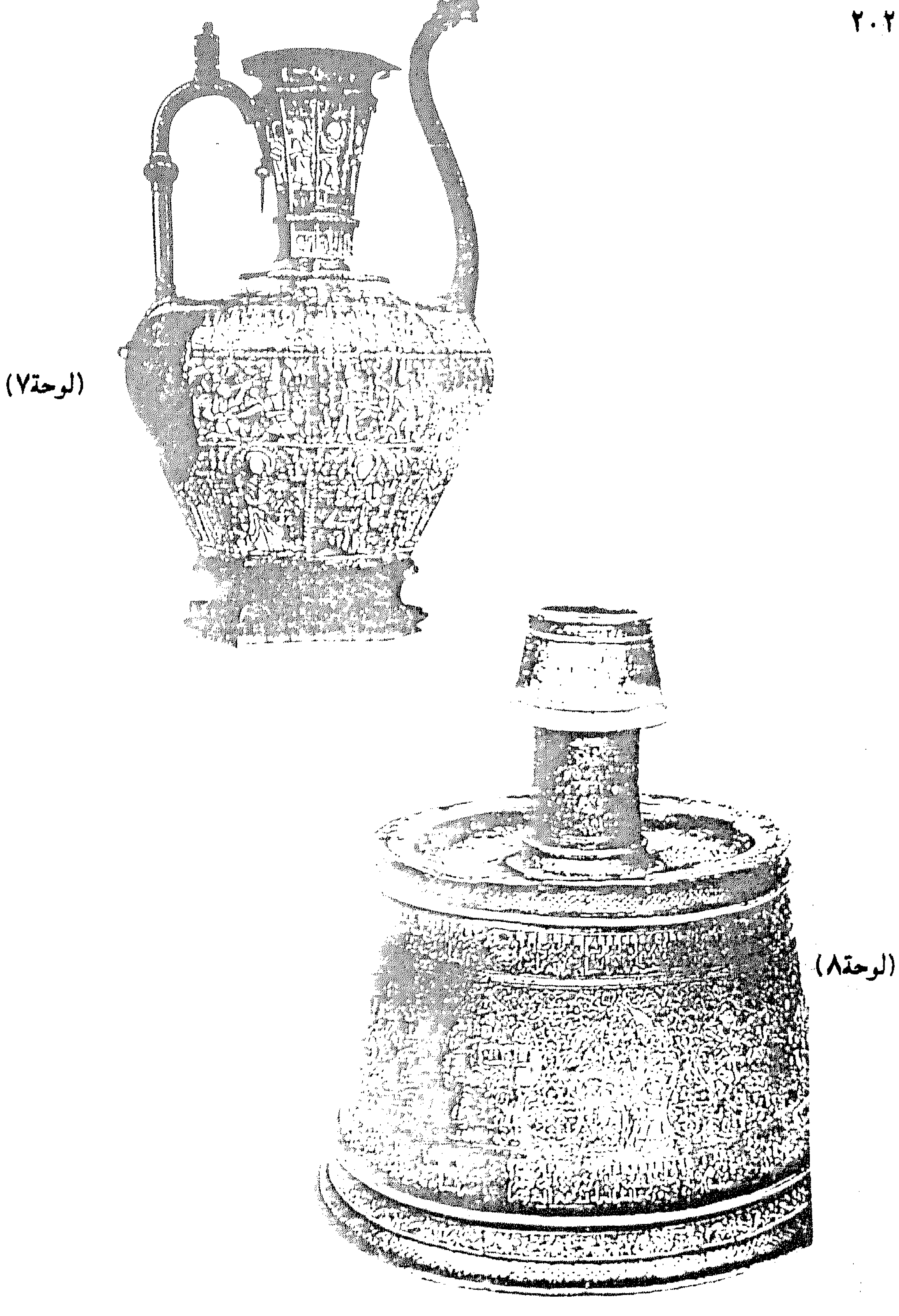
(لوحة٤)



(لوحة٥)



(لوحة٦)



(لوحة٧)

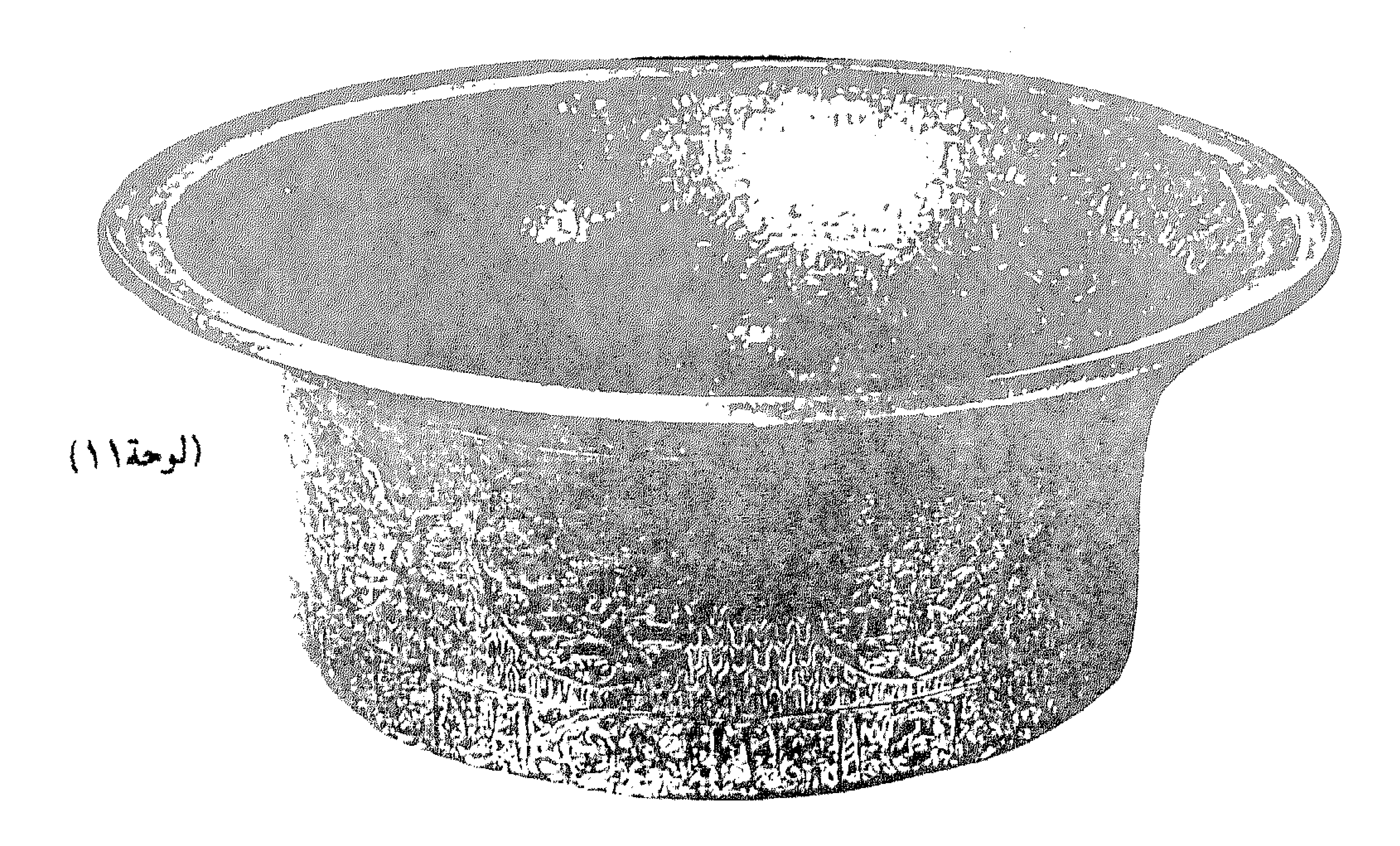
(لوحة٨)



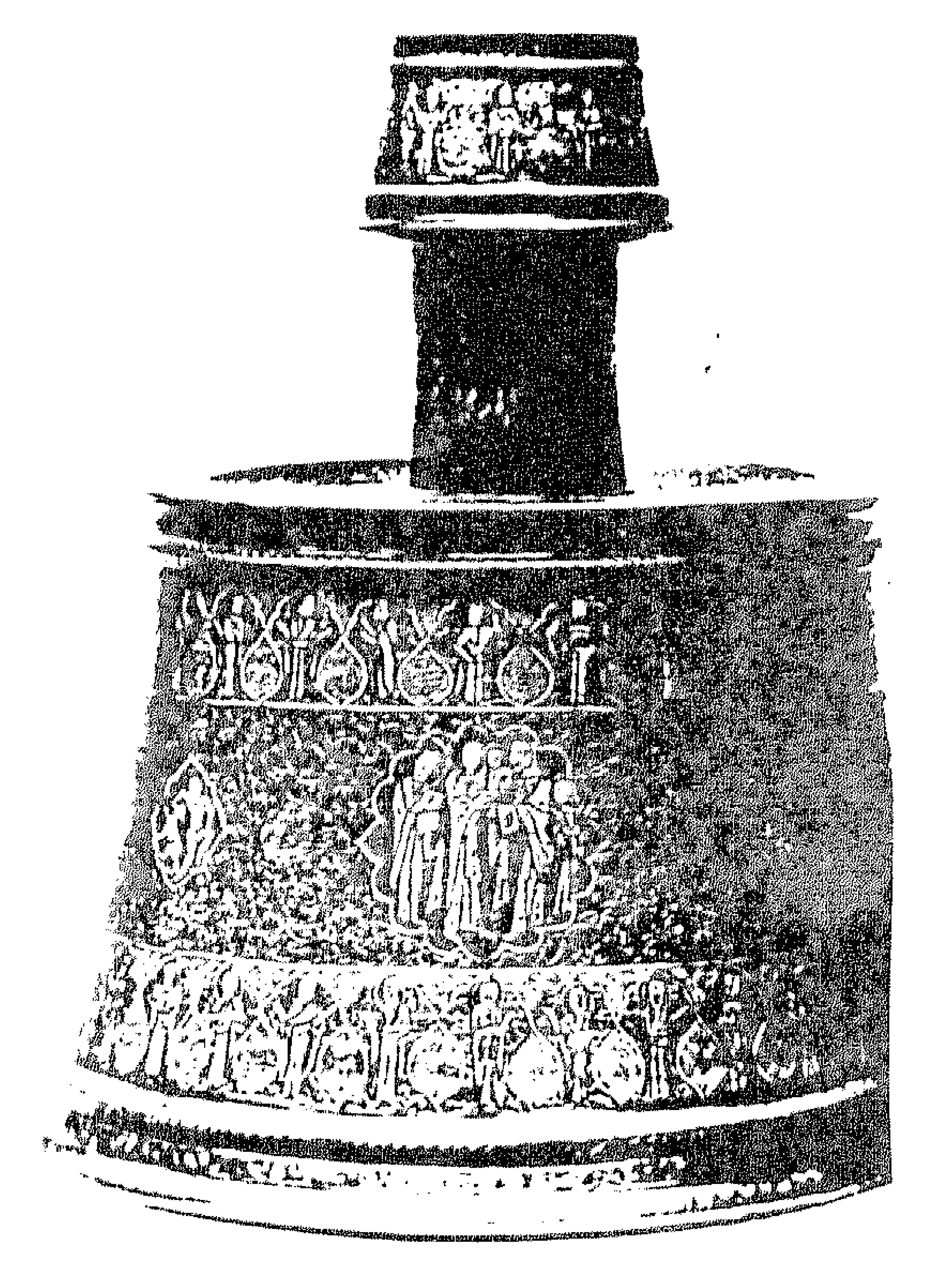
(الوحة٩)

(الوحة١٠

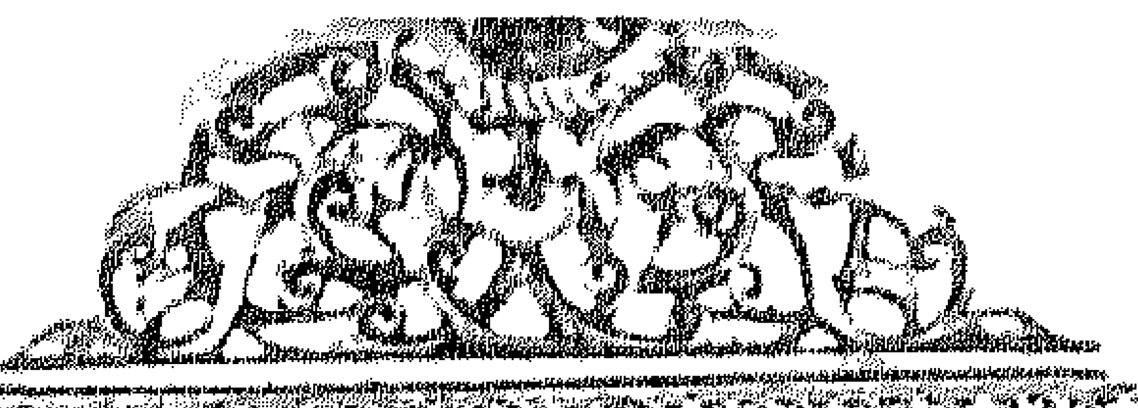




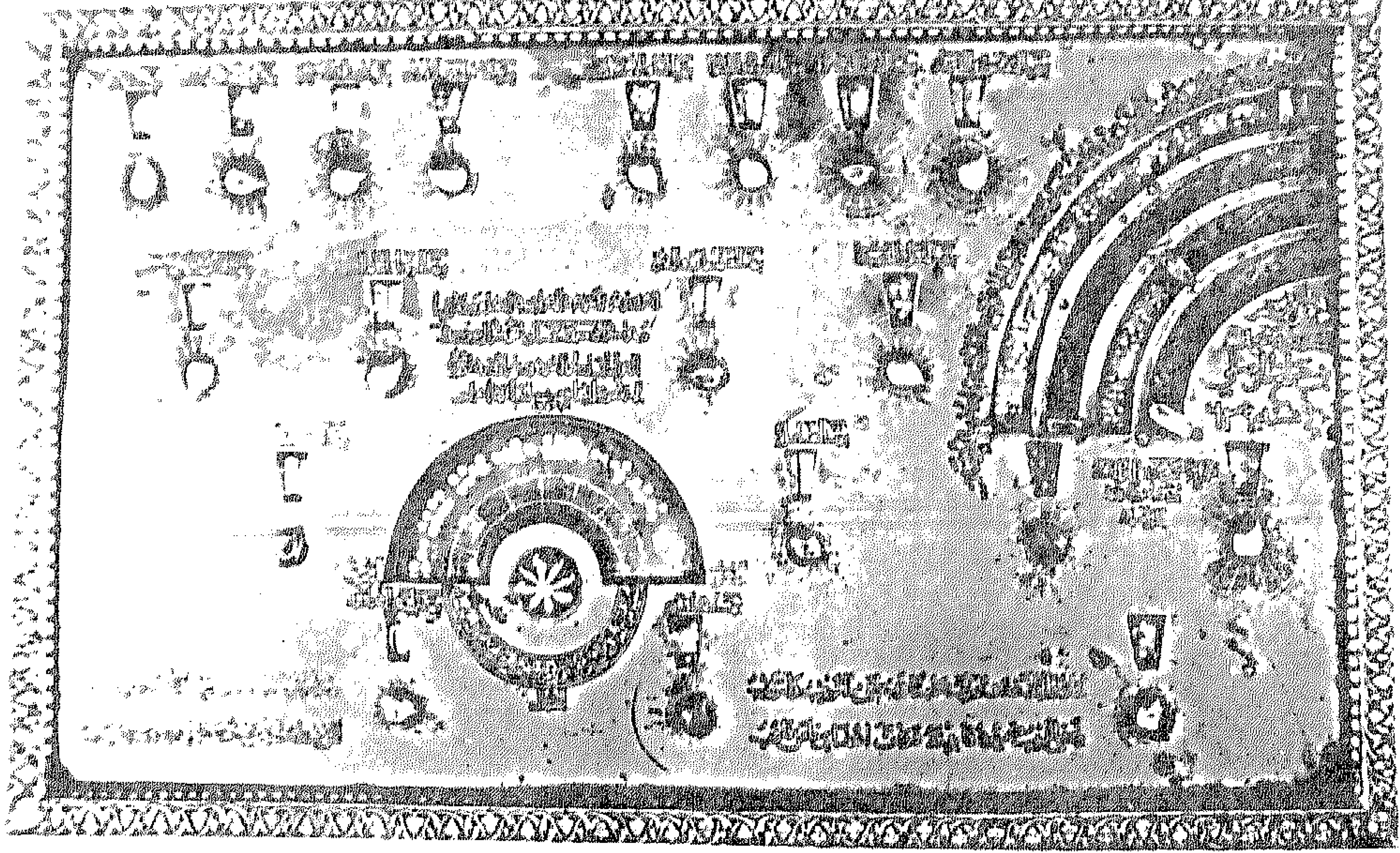
(لوحة١١)



(لوحة١٢)



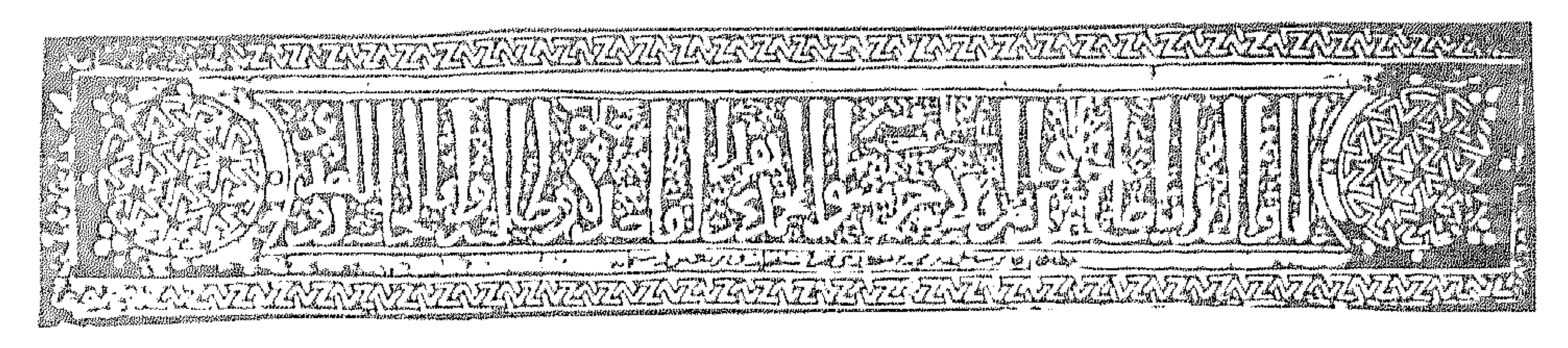
(لوحة١٣)



(لوحة١٤)

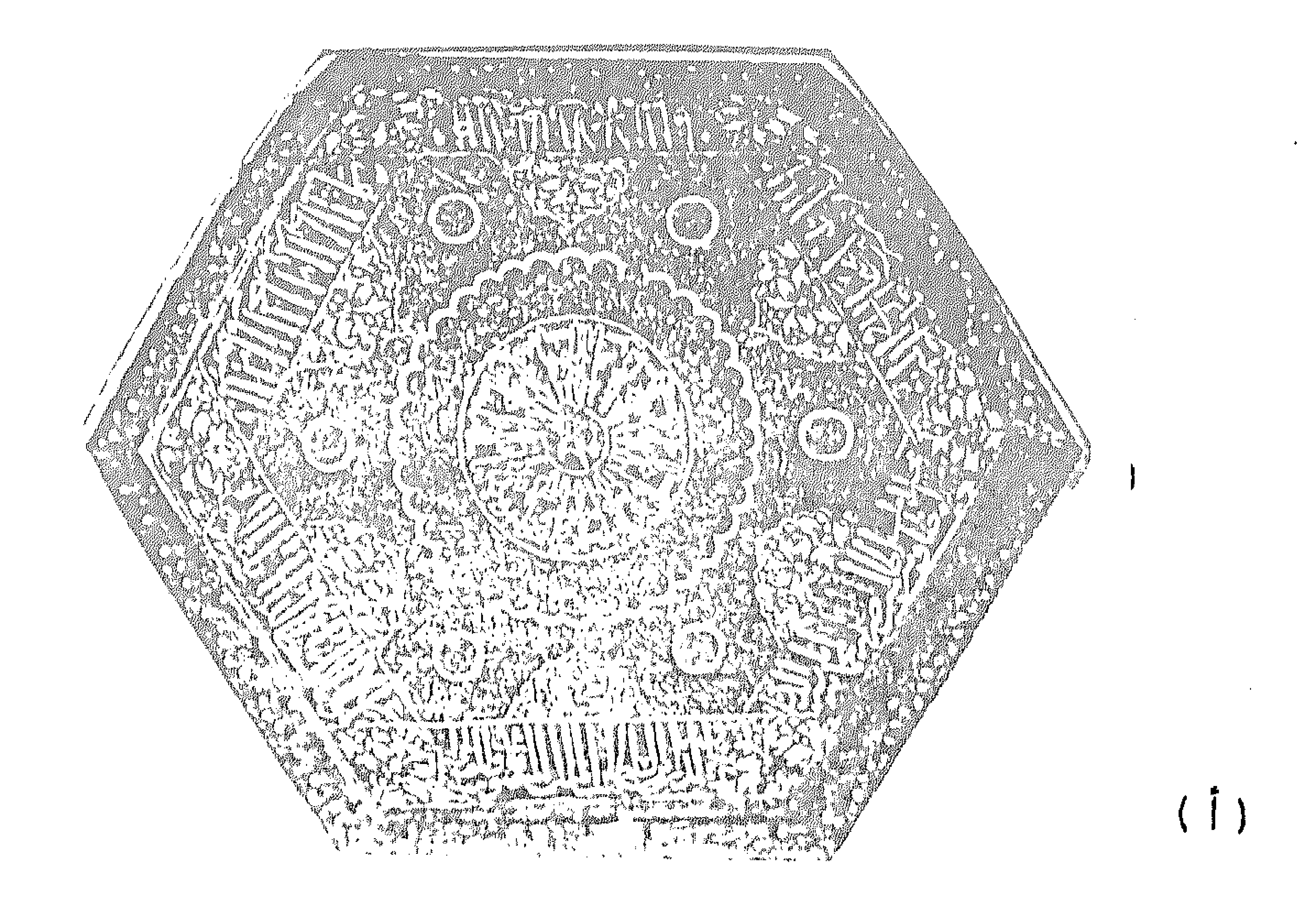


(اللوحة ١٥)



(اللوحة ١٦)

(اللوحة ١٧)



(أ)

(ب)

(اللوحة ١٨)

د. يسرى أحمد عبدالله زيدان *

منهج المقريزى فى كتابه «المقفى الكبير»

اسم الكتاب ووصفه :

كتاب «المقفى الكبير» المعروف أيضًا باسم «تاريخ مصر الكبير»[1] ألفه عمدة مؤرخى مصر الإسلامية[2] الإمام الشيخ المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى[3] المتوفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م والكتاب عبارة عن معجم تاريخى كبير ، بتراجم مشاهير مصر، والوافدين عليها من شتى الأقطار ، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وثقافتهم . وقد أشار صاحبه الإمام المقريزى إلى اختصاص هذا الكتاب بالترجمة لكل من دخل مصر لأى غرض من الأغراض ، وظهر ذلك- على سبيل المثال- عندما ترجم لأحد الثوار ببلاد المغرب ويُدعى «خلف بن جبر» الذى قتل سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م[4] وحملت رأسه إلى مصر فطيف بها ، وعلق المقريزى على هذا الحدث بقوله : «فلذلك ذكرت خلفًا هذا ، وهو من شرط هذا الكتاب»[5]. كذلك صرح المقريزى فى كتابه «السلوك»[6] باختصاص كتاب «المقفى» بالتراجم والوفيات أثناء ترجمته للأمير أحمد بن بكتمر الساقى (ت٧٣٣هـ) حيث ذكر أن له ترجمة وافية فى «المقفى» إذ هو كتاب تراجم ووفيات ، كما أن هذا الكتاب- السلوك- حوادث وماجريات» .

---

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

وللإمام المؤرخ المقريزى كلمة عن كتابه «المقفى الكبير» سجلها له المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»[٧] هى قوله : «وله - للمقريزى- تاريخه الكبير فى تراجم أهل مصر والواردين إليها، ذكر لى- رحمه الله- قال : لو كمل هذا التاريخ على ما أختاره لجاوز الثمانين مجلداً».

ويبدو أن المقريزى أنجز ستة عشر مجلداً كاملاً من كتابه «المقفى الكبير» بدليل أن السخاوى ذكر أن «المقفى» بلغ ستة عشر مجلداً[٨].

ومن بين مجلدات الكتاب الضخمة عثر على خمسة مجلدات موزعة على بعض المكتبات ، وقام الأستاذ محمد اليعلاوى بتحقيقها فظهرت فى سبعة أجزاء ضخمة، وجعل الأستاذ المحقق الجزء الثامن للفهارس العامة، إضافة إلى بعض التراجم الناقصة من كتاب «المقفى» والتى عثر عليها بعد ما كان يظن أن هذه التراجم خاصة بكتاب المقريزى «درر العقود» ثم تبين أنها خاصة بكتاب «المقفى» .وقد اتضح بعد نشر الكتاب وتحقيقه أنه مبتور الأول والآخر، بمعنى ضياع مقدمته وخاتمته، كما فقدت بعض الحروف كالدال والراء وغيرهما من بعض الكلمات . ولأن المقريزى كثيراً ما أشار إلى تراجم سابقة أو لاحقة ، فمن السهولة الوقوف على فقدان العديد من التراجم غير الموجودة بالكتاب ، كذلك أشار المقريزى إلى أن بعض تراجم للنساء ، ضاعت هى الأخرى ضمن ما ضاع من الكتاب[١١].

ومهما يكن الأمر، فإنه يتضح من الكتاب أن المقريزى كان ينوى العودة إليه مرة أخرى، والنظر فيه، ولذا ترك العديد من النقاط التى تحدد تاريخ ميلاد[١٢] أو وفاة[١٣] أو ذكر معلومة[١٤] أو غير ذلك[١٥].

مادة كتاب «المقفى» :

إن مادة كتاب المقفى الرئيسة هى تراجم الملوك والأمراء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين ، وباقى العلماء من أهل مصر فى جميع التخصصات، فضلاً عن مشاهير المصريين بصفة عامة، إضافة إلى من دخل مصر مستوطنا لها أو ماراً بها فى طريقه لأداء الحج أو للتجارة أو لغير ذلك .

ومن خلال التراجم الواردة فى الأجزاء المنشورة يمكن الوقوف على العديد من المعلومات المختلفة التى يمكن حصرها فيما يأتى :

١- المناصب والوظائف :

تضمن الكتاب تراجم الخلفاء والسلاطين والولاة والوزراء والقادة وأصحاب الدواوين والكتاب والقضاة والمؤذنين ، وغيرهم . وقد ترجم المقريزى[١٦] لـ ١٣ خليفة ، ٢٦ سلطانًا و٣٧٤أميراً وقائداً ، و٤٨ واليًا، و٣٩وزيراً ، و٨١موظفًا إداريًا ، و١١٣ كاتبًا ، و١٤٦ قاضيًا ، و١٦ محتسبًا ، و١٠ مؤذنين ، و١٩ طبيبًا ، ولغيرهم من أصحاب الوظائف.

٢- النشاط الفكرى :

عنى الكتاب برصد النشاط الفكرى، فتتبع أعلامه فى كل ميدان فكرى، فعلى سبيل المثال ترجم المقريزى لـ ٨٨١محدثًا ، و٤٢١فقيها ، و٢٢٢ مقرئًا ، و٤١خطيبًا و٢٢ واعظًا و١٨ إمامًا و١٣١ أديبًا وشاعراً و٤٤ لغويًا ونحويًا ، و٩ من العلماء التجريبيين ، و١١ من العلماء المشتغلين بالكلام والمنطق ، و٢٣ مؤرخًا[١٧] ولعدد من المفسرين والمشتغلين بالعلم الدينى بصفة عامة من الرواة له، وبلغ عددهم حوالى ٥٠٠ .

٣- المهن والصناعات الحرة :

ترجم المقريزى فى كتابه «المقفى» لـ ١٩ مهنيًا وصانعًا مثل الخياطين والنساجين ، وغيرهم . كما ترجم لـ ٢٥ تاجراً ممن كانوا بمصر أو نزلوها.

٤- تراجم أخرى :

أورد المقريزى تراجم أخرى عديدة لأنبياء نزلوا مصر كسيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولصحابة الرسول ﷺ ، وبلغ عددهم بالكتاب ٣١ صحابيًا . كما ترجم للعلويين وبلغوا ٤٣ علويًا ، وللمتصوفة والمتزهدين وبلغوا ٨٩ ، ولعدد من المعتزلة والقرامطة والثائرين بصفة عامة، وللمبتدعين فى الدين والمدعين للألوهية [١٨]. كما ترجم لبعض من عاشوا قبل الإسلام مثل : حمير بن سبأ[١٩] ، وعبدالله بن جدعان [٢٠]، ولغيرهم [٢١].

وقد أسهب المقريزى فى الترجمة لعلماء الدين على اختلاف تخصصاتهم، ولاغرابة فى ذلك، فقد انشغلت أجيال متعاقبة بالعلوم الدينية، ومن ثم كثر الشيوخ فى كل فروعها ومع ذلك فإنه لم يهمل باقى الفئات والطوائف.

منهج الكتاب :

لم تصل إلينا مقدمة كتاب «المقفى» ليتسنى معرفة الخطوط العريضة لمنهجه على أن

المقريزى عرّف بمنهجه بنفسه فى كتابه «الخطط» ومن خلال قراءة مادة الكتاب كلها، يمكن إجمال منهج المقريزى فى «المقفى» فيما يأتى:

أولاً : الترتيب الألفبائى :

جرت عادة كثير من مؤرخينا التزام طريقة الترتيب الألفبائى فيما صنفوه من كتب الطبقات والتراجم [٢٣]، فرتبوا الأعلام فيها بحسب حروف المعجم، بهدف التسهيل على القراءة والمطلعين، وهو الأمر الذى أعلنوه . فالخطيب البغدادى- على سبيل المثال - ذكر منهجه فى بداية كتابه «تاريخ بغداد» وبين أنه التزم بالترتيب على حروف الهجاء «ليسهل إدراك ذلك على طالبيه، وتقرب معرفته من مبتغيه»[٢٤]. وهذا ما صرح به أيضًا ابن تغرى بردى[٢٥]، والسخاوى[٢٦]، وغيرهما.

وبالرغم من هذا التطابق فى المنهج بين العديد من المؤرخين، إلا أنهم اختلفوا فى البدء، فبدأ بعضهم[٢٧] كتابه بذكر سيدنا محمد ﷺ؛ إذ هو الذى بُعث بهذا الدين، وبذر أسس تاريخه وحضارته وتراثه الفكرى. وتَيَمّن بعضهم باسم النبى ﷺ، فبدأ بترجمة المحمدين، لئلا يتناقض مع منهجه أو ما قصد إليه فى كتابه [٢٨]. فى حين أن بعض المؤرخين بدأ كتابه بالترجمة لمؤسس الدولة التى يترجم لرجالها ومشاهيرها [٢٩]. بينما راعى بعضهم الترتيب الألفبائى فى جميع الأعلام من أول الكتاب إلى آخره .

أما المقريزى فإنه اتبع نهج الترتيب الألفبائى ، لكنه بدأ باسم «إبراهيم» ومن ثم ترجم أولاً لسيدنا إبراهيم عليه السلام ثم بمن أسماؤهم «إبراهيم» معللا ذلك بقوله : «تبركًا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه» [٣٠]. ولذا جاءت ترجمة «أبان» بعد ترجمة «إبراهيم» .

وكان من المنتظر أن يراعى المقريزى فى كتابه كله تسلسل الأسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم له وأبيه وجده ، وهكذا، لكنه لم يفعل ذلك دومًا ، فاقتصر أحيانًا على مراعاة تسلسل الأسماء حسب النظام الألفبائى بالنسبة للمترجم له ولأبيه فقط، واقتصر فى أحايين أخرى على التزام هذا المنهج بالنسبة للمترجم له فقط.

ويتضح ذلك- على سبيل المثال- من خلال ترجمته لأسماء «إبراهيم بن أحمد» [٣١]، فقد رتبهم كما يأتى:

١- إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله .

٢- إبراهيم بن أحمد بن على بن إبراهيم .

٣- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن أبى حاتم .

٤- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل .

٥- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الحارث .

٦- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن خلف .

٧- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عبدالله .

٨- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن على .

٩- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن سلمان .

وهنا نجد أن المقريزى قد تسلسل مع اسم المترجم له حتى ذكر والده وجده، فاعتبر الحروف فى أسماء الآباء والجد الأول فقط.

ومن أمثلة إيراد المقريزى لاسم المترجم له فوالده -فقط- مسلسلا[٣٢] ما يأتى :

١- إبراهيم بن أدهم بن منصور .

٢- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسحاق .

٣- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل .

٤- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب .

٥- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم التجيبى.

٦- إبراهيم بن إسحاق بن الخضر .

٧- إبراهيم بن إسحاق بن صالح .

٨- إبراهيم بن إسحاق بن عمر .

٩- إبراهيم بن إسحاق بن محمد .

١٠- إبراهيم بن إسحاق بن لؤلؤ ،

وهنا نجد المقريزى قد راعى الترتيب الألفبائى للمترجم له ولوالده فحسب ، ولم يعتبر باقى

الحروف في باقى الأسماء .

ومن أمثلة اقتصار المقريزى على أسماء المترجمين لهم - فقط- مسلسين ومرتبين ترتيبًا معجميًا ما يأتى:

١- أدى بن جماز [٣٣].

٢- أرجواش .

٣- أرسلان الدوادار .

٤- أرغون الدوادار الناصرى.

٥- أرغون الناصرى .

٦- أرغون الأحمدى .

٧- أرغون العلائى .

٨- أرغون الكاملى.

٩- أرقطاى .

١٠- أزبك الحموى .

١١- أزدمر الحمصى .

١٢- أزدمر العلائى .

١٣- أزدمر الكاشف.

وهنا نجد المقريزى يراعى التسلسل الألفبائى بالنسبة للمترجم له فقط دون باقى نسبه. ونجد المقريزى يقتصر على اسم العلم المترجم له فقط مغفلاً باقى اسمه ونسبه .

على أننى لاحظت أن الأسماء السابقة غالبيتها أسماء لأمراء مماليك . وبالكتاب أسماء أخرى قليلة لغيرهم، سلك معهم المقريزى المسلك السابق نفسه ، واشتهروا -هم وغيرهم- بألقابهم دون نسبهم ، وهو ما شاع وانتشر فى المصادر المملوكية كلها [٣٤]. ولــذا أرى أن المقريزى يُعْذر هنا عندما اقتصر على الاسم الأول، وإن كان بإمكانه الإتيان باسم الأب على الأقل .

لكن المقريزى لايُعْذر عند إخلاله بالترتيب الألفبائى بالنسبة للمترجم لهم، وحدث هذا

أحيانًا، ومن أمثلته [٣٥]:

١- بورى بن أيوب .

٢- بنان سعيد السعداء.

٣- بهرام بن أسيد .

ومنه [٣٦]:

١- بيدمر البدرى .

٢- بدرجك الناصرى .

ومنه [٣٧]:

١- برسبغا الحاجب .

٢- بركات .

٣- برجوان .

٤- بيسرى .

ومنه [٣٨]:

١- جيرجين الخازن .

٢- جرجس بن ميخائيل .

٣- جعفر بن إسماعيل .

٤- جعفر بن أحمد .

٥- جعفر بن بدر .

٦- جعفر بن الحسن .

٧- جرجس المكين .

٨- جرجى بن ميخائيل .

ومنه : إقحام اسم «عبد الأحد» و«عبد الأعلى» بين تراجم أسماء «عبدالله»[٣٩]، وإقحام اسم «عبد الباري» بين تراجم «عبدالله»[٤٠].

وهكذا إذا تتبعنا كل تراجم «المقفى» وقفنا على عدم مراعاة المقريزي لمنهج واحد، ونظام موحد في تسلسل الأسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم له ثم لأبيه وجده، وإنما اقتصر المقريزي على ذكر المترجم له وأبيه فقط أحيانًا ، وذكر المترجم له فقط أحيانًا أخرى. وحدثت بعض المخالفات اليسيرة القليلة لمنهج الترتيب الألفبائي للأعلام بالمقفى ، فجاءت أعلام في غير ترتيبها الصحيح وموضعها المناسب .

ثانيا : الحرص على ذكر اللقب أو الكنية والنسبة:

حرص المقريزي في كتابه (المقفى) كل الحرص على ذكر لقب المترجم له أو كنيته أو نسبته إلى قبيلته وفروعها أو إلى مدينته أو جنسه أو غير ذلك، وندر أن يأتي ذكر للعلم دون لقبه أو نسبته أو كنيته [٤١]، وكان المقريزي يذكر ذلك في أول الترجمة مباشرة بعد ذكر الاسم. كما حرص المقريزي على ذكر مكانة المترجم له العلمية أو ذكر مناصبه وأعماله نحو «الحافظ»[٤٢] و«المقرىء»[٤٣] و «الواعظ»[٤٤] و«محدث الإسكندرية»[٤٥] و «الكاتب»[٤٦] و «الشاعر»[٤٧] و «النحوي»[٤٨] و «الطبيب»[٤٩] و«التاجر» [٥٠]... الخ .

هكذا نسب المقريزي كل عَلَم إلى علمه أو عمله أو صناعته وحرفته أو مدينته أو جنسه ، وقلما ترك علمًا اشتهر بشيء وعرف به إلا ذكره . وهذا الصنيع من المقريزي مفيد عند تشابه الأسماء، وييسر على القارىء معرفة الأعلام المرادة بسرعة، والوقوف على المعلومات المطلوبة بيسر وسهولة .

ثالثًا : تحقيق أمر الولادة والوفاة :

اعتنى المقريزي في «المقفى» بذكر تاريخ مولد ووفاة المترجم لهم، وكان أحيانًا يذكر يوم وشهر الولادة أو الوفاة، ومنه قوله- - على سبيل المثال- «توفي بالقاهرة في يوم الجمعة سادس شعبان سنة عشر وسبعمائة»[٥١].

وكتب المقريزي - أحيانا قليلة - تاريخ الولادة والوفاة بالأرقام وليس بالحروف كما هو الشائع عنده ، ومن أمثلة ذلك ترجمته لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وجاء فيها أنه ولد سنة ١٨٢هـ، ومات سنة ٢٦٨هـ وهو ابن ٨٦ سنة. وهكذا بالأرقام[٥٢].

وإذا حدث أن كان هناك تاريخان أو أكثر للولادة أو الوفاة ، فإن المقريزى غالبًا ما يورد ذلك. ومن أمثلة ذلك ترجمته لمحمد بن عثمان الربعى، وجاء فيها : «ولد فى عاشر صفر سنة إحدى عشرة- وقيل : سنة اثنتى عشرة وستمائة»(٥٣).

ومن ذلك أيضا قوله : «مات فى أخريات جمادى الأولى سنة ثمان وسبعمائة . ورأيت فى موضع آخر أنه مات بالقاهرة فى يوم الجمعة تاسع عشر المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة»(٥٤). أما إذا لم يكن متأكداً من تاريخ الولادة أو الوفاة، فإن الدقة والأمانة العلمية اللذين يتمتع بهما مؤرخنا المقريزى جعلته يختم ذكر تاريخ الولادة أو الوفاة بقوله : «تخمينا » وكثر استعمال هذه الكلمة عنده، ومن أمثلتها ما جاء فى ترجمته لشمس الدين الرقاقى وقوله : «مولده سنة تسع وخمسين وستمائة تخمينا »(٥٥).

ويبدو حرص المقريزى الشديد على تحقيق تاريخ الولادة والوفاة معًا للمترجم لهم- أو ذكر أحدهما- من تركه فراغًا عند عجزه عن الوصول إلى تاريخ الميلاد أو الوفاة؛ ريثما يتمكن من الوصول إليه ، وحينئذ يؤرخ بهذا التاريخ. ولذا جاءت فى كتابه عبارات مثل «ولد فى [...] »(٥٦) و «توفى فى ... »(٥٧).

وبالرغم من وضوح جهد المقريزى فى تحقيق أمر الولادة والوفاة ، إلا أنه لم يتمكن من فعل ذلك لكل علم وترجمة من أعلام وتراجم «المقفى» ، فجاءت بعض الأعلام بلا ذكر لتاريخ ميلادها ، ووردت بعض التراجم بلا تحديد لتاريخ وفاتها ، وضم الكتاب أعلامًا عديدين لم يذكر تاريخ ولادتهم ووفاتهم (٥٨).

لكن الغالب فى جميع الأحوال تمكن المقريزى من ذكر تاريخ الوفاة دون تاريخ الميلاد لكل الشخصيات المترجم لها ، لصعوبة العثور على تاريخ الولادة أحيانًا (٥٩).

ولى ملاحظة مهمة بشأن التراجم التى لم يذكر المقريزى تاريخ ميلادها ، وهى أن كثيراً منها لم يتحدد تاريخ ولادتها فى المصادر السابقة على المقريزى أيضًا ، ومن أمثلة ذلك تراجم :

١- إبراهيم الخواص (ت٢٩١هـ). لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته (٦٠).

٢- إبراهيم بن بشار. لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته ولا وفاته (٦١).

٣- إبراهيم بن إسماعيل (ت٢١٨هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته (٦٢).

٤- إبراهيم بن إسماعيل (ت ٧٠٨هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته (٦٣).

٥- إبراهيم بن جعفر (ت ٧٢٩هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته [٦٤].

٦- إبراهيم بن ثابت (ت٤٣٢هـ) ، لم يذكر ابن الجزرى تاريخ ولادته [٦٥].

٧- محمد بن إبراهيم (ت٣٥٠هـ) . لم يذكر ابن الجزرى تاريخ ولادته [٦٦].

٨- حمزة بن محمد (ت٦٨٢هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته [٦٧].

٩- خالد بن زيد (ت ٥٢هـ) . لم يذكر الذهبى ولادته [٦٨].

١٠- محمد بن إبراهيم (ت٢٧٦هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته [٦٩].

وهناك تراجم قليلة محدودة لم يأت تاريخ ولادتها فى بعض المصادر وجاء ذلك فى مصادر أخرى[٧٠].

ومما سبق يتبين لنا أن كثيراً من الأعلام التى لم يتوصل المقريزى إلى تاريخ مولدهم، وتوصل إلى تاريخ وفاتهم[٧١] ولم يظفر السابقون عليه بتاريخ مولدهم أيضًا. وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن المقريزى بذل طاقته فى تحقيق تاريخ ميلاد ووفاة المترجم لهم فى «المقفى» ونجح فى ذلك كثيراً ، فى حين أنه لم يتمكن من تحديد تاريخ الميلاد أحيانًا إلا أنه تمكن من تحقيق أمر الوفاة، وعجز فى أحيان قليلة- بالنسبة لتراجم الكتاب كله- عن الوصول إلى تحديد تاريخ الميلاد والوفاة معًا، وإن كانت النية موجودة فى ذكر هذا عندما يتيسر ذلك للمقريزى، وهذا يعلل وجود بعض الفراغات فى المقفى.

رابعا : ضبط الأعلام والأنساب :

إن كثيرا من أسماء الأعلام تتشابه فى الخط أو الحروف المتشابهة كالجيم والحاء والخاء والدال والذال ، والسين والشين، فإذا أهمل أو نسى نقط هذه الحروف ، فإن الأمر يختلط على القارىء فلا يدرى إذا كانت حقيقة العلم» «مزاحم» أو «مراجم» وهكذا. وقد يتحد الاسمان فى الحروف تماما، ولكن الضبط بالشكل يختلف فى واحد عنه فى الآخر. وهناك أسماء أعلام لايستقيم النطق بها صحيحا إلا إذا ضبطت بالشكل أو بالحركات [٧٢].

من هنا كانت عناية المقريزى بضبط الأعلام والأنساب فى «المقفى» عناية فائقة ، أمِن القارىء من خلالها من التصحيف والتحريف اللذين تقتضيهما طبيعة رسم الحروف العربية ، وأغنته عن الرجوع إلى كثير من المصادر لضبط الأعلام أو المدن أو غير ذلك فى كتب الأنساب والمعاجم الجغرافية أو اللغوية.

ومن أمثلة ضبط الأعلام:

١- محمد بن إبراهيم بن غفار : بكسر الغين المعجمة ثم فاء وراء مهملة (٧٣).

٢- محمد بن إبراهيم بن الهمام : بضم الهاء وفتح الميم (٧٤).

٣- محمد بن أحمد التغلبي : بفتح المثناة والغين المعجمة (٧٥).

٤- محمد بن عبد الرحمن الجباب. والجباب بجيم مفتوحة، وباء موحدة مشددة، وهو لقب لجده (٧٦).

٥- محمد بن عبد الرحمن بن حقبة : بحاء مهملة وقاف وباء موحدة (٧٧).

٦- محمد بن عبد الرحمن بن ثمير : بضم الثاء المثلثلة وفتح الميم وسكون الياء آخر الحروف ثم راء مهملة (٧٨).

٧- محمد بن محمد النفاخ : بفتح النون والفاء المشدة ، وبعدها ألف ثم خاء معجمة ، وقيل حاء مهملة (٧٩).

٨- محمد بن محمد بن عتيبة : بضم العين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق، ثم ياء آخر الحروف وباء موحدة (٨٠).

٩- محمد بن محمد طرخان بن أوزلغ الفارابي : وطرخان بفتح الطاء المهملة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة ، وبعد الألف نون : اسم أعجمي . وأوزلغ بألف مفتوحة وعين معجمة : اسم تركي . والفارابي : نسبة إلى فاراب ، وهي مدينة فوق الشاش ، وهي قاعدة من قواعد مدن الترك . ويقال لها : فاراب الداخلة. وفاراب الخارجه ، وهي من أطراف بلاد فارس. وهي بفتح الفاء والراء وبينهما ألف، وبعدها باء موحدة. وتسمى أطرار بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة، وبين الراءين ألف ساكنة . ويقال : [...] (٨١).

وكان المقريزي كثيرا ما يضبط الأسماء أو الألقاب أو الكنى في أول الترجمة، وضبطها أحيانا في وسط الترجمة، وأحيانا في آخرها (٨٢).

ومن أمثلة ضبط وتحقيق الأنساب :

١- إبراهيم بن سليمان الحرسي. نسبة إلى الحرس، بفتح الحاء المهملة والراء ثم السين

المهملة، قرية شرقى مصر[٨٣].

٢- إبراهيم بن حميد الكلابزى . بفتح الكاف، وبعد اللام باء موحدة مكسورة، ثم زاى، نسبة إلى ضيعة بالبصرة تعرف بالكلابزية[٨٤].

٣- أحمد بن عيسى المقيرى. والمقير بضم الميم وفتح القاف ثم ياء آخر الحروف ساكنة بعدها راء مهملة : قرية من أعمال الكرك[٨٥] .

٤- أسعد بن أحمد المعروف بابن اللمطى. واللمطى نسبة إلى لمطة- لفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة- قبيلة من البربر[٨٦].

٥- محمد بن إبراهيم بن أحمد الخبرى. بالخاء المعجمة المفتوحة وسكون الباء الموحدة، ثم راء، نسبة إلى خبر قرية من قرى شيراز من خبر سروشين وهى إقليم من عمل شيراز مشربهم فى جبل الدينار. وثم خبر آخر يقال له خبر سمكان من عمل شيراز أيضا [٨٧].

٦- محمد بن إبراهيم اليقورى . نسبة إلى يقورة بياء آخر الحروف مفتوحة، وقاف مشددة ، وراء مهملة : بلد بالأندلس[٨٨].

٧- محمد بن إبراهيم الأردستانى . أردستانى نسبة إلى أردستان بفتح اللام وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق ثم نون، وهى بلدة على ثمانية عشر فرسخا من أصبهان[٨٩].

٨- محمد بن حمير السليحى . قال السمعانى : السليحى بضم السين المهملة وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف، وفى آخرها حاء مهملة: نسبة إلى سُليح وهو بطن من قضاعة . وقيل بفتح السين وكسر اللام. قال ابن الأثير: والصحيح الثانى، والأول لايصح ، وهو سَلِيح ، واسمه عمرو بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة [٩٠].

٩- محمد بن عبد العزيز الجوزى، بالجيم والزاى المعجمة، من حمص الأندلس[٩١].

١٠- محمد بن مفرج القبشى، بقاف مضمومة وباء موحدة ثم شين معجمة: عين بقرطبة[٩٢].

١١- محمد بن محمد الكركنتى، نسبة إلى كركنت بكسر الكافين بينهما راء مهملة ساكنة، وبعدها نون ثم تاء مثناة من فوق ، قرية من قرى القيروان [٩٣].

واكتفى المقريزى أحيانا بنسبة الأعلام إلى البلدان أو القبائل أو الحرف والمهن أو غير ذلك ومنه :

١- أحمد بن عبد الرحمن درادة . ودرادة قبيلة من الأكراد (٩٤).

٢- إبراهيم بن عبد الله اليابرى. نسبة إلى يابرة من كورة باجة فى غرب الأندلس(٩٥).

٣- محمد بن أحمد بن أبى فروة الشعبانى. قال ابن يونس : والشعبانى من بنى شعبان بن عمرو بن قيس بن معاوية من حمير . فأهل مصر إذا نسبوا إليه قالوا : الأشعوبى. وأهل الكوفة يقولون: الشعبى. وأهل الشام يقولون : الشعبانى . وأهل اليمن يقولون : ذو شعبين . وكلهم يريدون شعبان بن عمرو بن قيس(٩٦).

٤- محمد بن مصطفى الصُلْغرى - وصلغر فخذ من الترك، الدوركى - ودورك من بلاد الروم، بالقرب من ملطاية (٩٧).

٥- محمد بن إبراهيم المعروف بالكيزانى، نسبة إلى عمل الكيزان، وكانت صناعة بعض أجداده . وكيزان مدينة بازربيجان (٩٨).

كذلك بين المقريزى المراد من بعض الأنساب ، ومنه :

١- أحمد بن محمد السِّلفى . نسبة إلى السلفة - بكسر السين المهملة وإسكان اللام، ثم فاء أخت القاف مفتوحة بعدها هاء - وهو لقب جده أحمد، وهو فارسى معناه: ثلاث شفاه ، فإن شفته كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين، سوى الشفة الصحيحة(٩٩).

٢- محمد بن أحمد المفيد . بضم الميم وكسر الفاء وإسكان الياء آخر الحروف، ثم دال مهملة: اسم لمن يفيد الناس الحديث من الشيوخ (١٠٠).

٣- محمد بن عبيد الله المعروف بالأدرع . قيل له : «الأدرع» من أجل أنه كان بسواد الكوفة سبع أدرع يؤذى الناس ولايطاق ، فخرج إليه ربادره وقتله، فقيل له الأدرع لقتله الأسد الأدرع (١٠١).

وفى حالة عدم إمكانية النسبة إلى البلدان أو القبائل أو الحرف والمهن والصناعات ، وعدم وجود تفسير وعلة للقب ، فإن المقريزى كان يصرح بهذا ، ومن ذلك ترجمة المقريزى لمحمد بن عبدالله الملطى وقوله : «والملطى لقب عرف به»(١٠٢).

وجرت عادة المقريزى أن يحقق الأنساب فى آخر ترجمة العلم وخالف هذا المنهج قليلا، فجعل هذا التحقيق والشرح والبيان فى أول الترجمة أو فى وسطها .

ونادراً ما ترك المقريزى نسبة دون توضيح أو تفسير أو بيان ، ومنه ترجمته لأحمد بن عبد الدايم الشارمساجى(١٠٣) المنسوب إلى إحدى بلاد الدقهلية (١٠٤).

وهكذا تعرفنا من خلال التزام المقريزى بمنهج تحقيق وضبط الأعلام والأنساب على العديد من المدن المختلفة فى أنحاء العالم الإسلامى، فضلا عن ضبط الأعلام، الأمر الذى يغنينا عن العودة إلى المعاجم اللغوية وكتب الأنساب، وهذا كله أدى إلى أن يكون الكتاب- فى هذا المجال- منقحا متقنا، بلغ الغاية فى هذا الباب .

وقد اعتمد المقريزى فى ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب على المصادر الآتية :

١- ابن ماكولا (ت ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) صاحب كتاب «الإكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى والألقاب».

٢- ابن نقطة (ت٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) صاحب كتاب «إكمال الإكمال» . وأكمل به كتاب «ابن ماكولا».

٣- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) صاحب كتاب «اللباب فى تهذيب الأنساب».

٤- السمعانى (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) صاحب كتاب «الأنساب».

٥- الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) صاحب كتاب» تاريخ بغداد ».

وقد صرح المقريزى بالنقل عن هذه المصادر - أحيانا بقوله : «قال السمعانى»(١٠٥) وقال «ابن نقطة»(١٠٦) و «قال ابن الأثير»(١٠٧) وقاله «ابن سيد الناس»(١٠٨).

خامسا : النقل عن المعاصرين أو القريبين للأحداث :

اتجه المقريزى فى كتاباته التاريخية إلى منهج قويم صحيح هو النقل عن مؤرخى البلد التى يتناول تاريخها ، والأخذ عن المعاصرين للأحداث التاريخية أو القريبين منها، فلم يكن نقله للأحداث والوقائع التاريخية - إذاً - عشوائيا دون اعتناء أو تدقيق ، وإنما كان المقريزى يعى طبيعة المادة التاريخية ومصادرها ، ومن ثم بذل جهده فى استخلاصها من أصحابها المعاصرين لها المتصلين بها أو القريبين منها. وقد صرح المقريزى فى كتابه «الخطط» بالنقل عن مؤرخى

الإقليم الذى يكتب عنه عندما نقل خبرا عن ابن الأثير، وابن زولاق المصرى، ورجح رأى المؤرخ المصرى معللا ذلك بقوله: «وأهل كل قطر أعرف بأخباره ، ومؤرخو مصر أدرى بماجرياته ، وفوق كل ذى علم عليم»[١٠٩].

وظهر منهج المقريزى السابق فى كتابه «المقفى» ظهورا واضحا، فكان يأخذ مادته التاريخية عن أعلامه من المصادر القريبة منه زمنيا ، ومن نماذج ذلك :

١- ترجمته لأبى بكر الغزارى (ت٣١٧هـ) وقوله : «قال ابن يونس - ت ٣٤٧هـ : «قدم مصر سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة، كتبنا عنه»[١١٠].

٢- ترجمته لأبى الحسن بن السوار (ت ٢٩٧هـ) وقوله : «قال ابن يونس : كتبت عنه ولم يكن ثقة»[١١١].

٣- ترجمته لأبى الحسن بن نوح (ت٣٢١هـ) وقوله : «قال ابن يونس : قدم مصر، وكتبنا عنه، وكان ثقة حافظا ، وكان قدومه سنة أربع وثلاثمائة»[١١٢].

٤- ترجمته لضياء الدين بن قدامة (ت٦٤٣هـ) وقوله : «قال ابن النجار - معاصر لصاحب الترجمة- : كتبت عنه ، وهو حافظ متقن ثقة صدوق حجة، عالم بالحديث وأقوال الرجال... »[١١٣].

٥- ترجمته للمؤرخ الأندلسى الحميدى (ت ٤٨٨هـ) صاحب الجذوة، وقوله : «قال ابن ماكولا (ت٤٨٦هـ) : أخبرنا صديقنا أبوعبدالله الحميدى وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ، لم أر مثله فى عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم» [١١٤]. اعتمد المقريزى على ابن عساكر (ت٥٧١هـ) أيضا ، فنقل عنه : «قال ابن عساكر : حدثنى يحيى بن إبراهيم قال: والدى أبو طاهر إبراهيم بن أحمد السلماسى- وكان قد لقى الأئمة- : لم تَرَ عَيْنِي مثل أبى عبدالله الحميدى فى فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم»[١١٥].

٦- ترجمته لابن الحمامى البزاز (ت ٤٨٨هـ) وقوله : «قال السلفى - ت ٥٧٦هـ- : كان من فقهاء الشافعية ، كبير السن، ورأيته بمصر والإسكندرية. علقت عنه فوائد من حفظه»[١١٦].

٧- ترجمته لمحمد بن عيسى الأموى (ت ٥٦٠هـ) وقوله : «قال السلفى : كان من

الأذكياء في الفقه والأدب ، وله شعر كثير، وفضائل جمة. كتب عنى الحديث الكثير، وكان حسن القراءة له»(١١٧).

٨- ترجمته لأبى عبدالله الجوزى الأندلسى وقوله : «قال السلفى : قدم علينا الإسكندرية حاجًا، وهو فقيه صالح صدوق ، سألته عن مولده فقال : سنة ست وسبعين وأربعمائة بحمص ، وبها تفقهت»(١١٨).

٩- ترجمته لابن الأكفانى (ت٧٤٩هـ) واعتماده على الصفدى (ت٧٦٤هـ) فى معلوماته ، يقول المقريزى: «قال الصفدى : ورأيت المولعين بالصنعة- يعنى الكيمياء - يحضرون إليه- ابن الأكفانى- ويذكرون له ما وقع من الخلل فى أثناء عملهم، فيرشدهم إلى الصواب ويدلهم على إصلاح ذلك الفساد. ولم أره يعوزه شىء من كمال الأدوات»(١١٩).

١٠- ترجمته لأبى بكر الصدقى (ت٣٦٧هـ) واعتماده على ابن الطحان (ت٤١٦هـ)(١٢٠) وفى هذا يقول المقريزى: «وقال ابن الطحان: سمعت منه . توفى فى ذى القعدة سنة ثمان وستين. وقال فى موضع آخر : سنة تسع وستين »(١٢١).

وهكذا إذا تتبعنا «المقفى» وقفنا بكل سهولة على التزام المقريزى منهج النقل عمن شارك فى الأحداث، أو كان قريبا منها، أو عايش أصحابها ، أو سمع ممن عايشهم . واستمرارا لهذا النهج فإن المقريزى عندما ترجم للمعاصرين له، فإنه حرص على إبراز الأخذ عنهم بعبارات مثل: «أخبرنى» و «قال لى»(١٢٣) تأكيداً على المشاركة والمشاهدة والمشافهة ، ومن ذلك :

١- ترجمته للطواشى مقبل الشامى (ت٨٠٢هـ) وقوله : «أخبرنى - رحمه الله - أن السلطان الحسن (ت٧٦٢هـ) - رحمه الله- ترك بعد موته ذخيرة فيها سبعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار مصرية، وألفا ألف درهم فضة، وترك من الحلى والجواهر والأمتعة ما لايدخل تحت حصر لكثرته»(١٢٤).

٢- ترجمته لمقبل الرومى (ت قبل ٨٠٠هـ) وقوله : «رافق أبى ثم رافقنى فى مباشرة بعض النواحى الأوقاف نحو الثلاثين سنة حتى مات قبيل سنة ثمانمائة ، وكان عارفا قائما بما يليه ، سيوسا، مهابا ، لم نر منه ما ننكره عليه، أخبرنى- رحمه الله- أنه شاهد رجلا تغذّى حتى شبع من الطعام والملح... »(١٢٥).

٣- ترجمته للصدر المناوى قاضى الشافعية (ت٨٠٣هـ) وقوله : «أخبرنى قبل موته بمدة عن جارية تسرى بها ... »[١٢٦].

٤- ترجمته لشمس الدين بن سكر الحنفى (ت٨٠١هـ) وقوله : «... وأعاننى الله عليه لما جاورت مكة فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة حتى قرأت عليه كثيراً من مروياته، ولم يقع بينى وبينه سوء قط، والحمدلله، وكثر فرحه بأخذى عنه، وكتب لى خطه»[١٢٧].

ومما سبق يتبين لنا اعتماد المقريزى على المصادر المعاصرة للأحداث والوقائع التاريخية والمترجمة لأعلامه بالمقفى، وإظهار ذلك ؛ تأكيداً على مصداقية هذه المعلومات التاريخية التى وردت بالمقفى ، وفعل ذلك أيضًا مع المعاصرين له، والذين ورد الحديث عن بعضهم بالمقفى.

سادسًا : الاعتماد على العديد من المصادر :

لم يعتمد المقريزى وهو يترجم لأعلامه على مصدر واحد دون سواه، وإنما اطلع على العديد من المصادر التاريخية، ولذا كان يقدم مادة تاريخية دسمة، بها العديد من الإضافات عن المصادر التى ترجمت لهؤلاء الأعلام، إذا نظرنا إلى هذه المصادر أحادى، وهذا الصنع من المقريزى أكسب الكتاب أهمية فوق أهميته، خاصة إذا لم تقف على بعض المعلومات التاريخية فى العديد من المصادر، مما يؤكد اعتماد المقريزى على مصادر أخرى مفقودة، وبالفعل وردت فى «المقفى» أسماء لكتب مفقودة منها على سبيل المثال :

١- تاريخ مصر للقرطبى (ت ٥٦٧هـ) [١٢٨].

٢- أخبار النوبة لابن سليم الأسوانى[١٢٩].

٣- نسب الأبناء لابن الكلبى. وعنه يقول المقريزى : «وهو عندى بخطه»[١٣٠].

٤- كتاب «الكنوز» [١٣١].

٥- تاريخ مصر لابن الطحان [١٣٢].

٦- السيل والذيل للعماد الأصفهانى [١٣٣].

٧- الخطط لأبى عبدالله محمد بن سلامة القضاعى [١٣٤].

إلى غير ذلك من كتب مفقودة اطلع عليها المقريزى ، واستفاد منها ومن غيرها فى تصنيف كتابه «المقفى» ، ولعل هذا يفسر وجود تراجم عديدة بالمقفى ، ولا أثر لها فى غيره من مصادر تاريخية[١٣٥].

وقبل الخوض فى هذه الجزئية يجدر بى أن أبين عدة أمور متصلة بمصادر المقريزى وأساسه موضوع المصادر، وسأناقش -بعد قليل- باحثًا ذكر أن المقريزى قلما يشير إلى مصادره ، وكثيرا ما ينقل من المصادر دون تحفظ أو تحرج.

والواقع أن المقريزى فى كتابه «المقفى» كان أحيانا يذكر مصادره التى استفاد منها، وأحيانا يغفلها- مثلما يفعل كثير من مؤرخينا القدامى- وكان المقريزى يصرح فى بعض الأحيان بالمؤلَّف دون مؤلِّفه ، ويذكر المؤلِّف والمؤلَّف فى أحايين أخرى. لكن الشىء المؤكد - الذى سأدلل عليه بعد قليل- هو أن المقريزى اطلع على العديد من المصادر عند ترجمة كل علم من أعلامه.

مصنفون ذكرت مؤلفاتهم :

١- ابن حبان صاحب «الثقات»[١٣٦].

٢- أبو الحسن أحمد بن الزبير صاحب «جنان الجنان ورياض الأذهان»[١٣٧].

٣- الصولى صاحب «شعراء مصر»[١٣٨].

٤- ابن أبى أصيبعة صاحب : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»[١٣٩].

٥- الزبيدى صاحب «طبقات النحاة»[١٤٠].

٦- الشيرازى صاحب «طبقات الفقهاء»[١٤١].

٧- اليونينى صاحب «ذيل مرآة الزمان»[١٤٢].

٨- النسائى صاحب «الضعفاء»[١٤٣].

٩- العماد الأصفهانى صاحب «السيل والذيل»[١٤٤] و «الخريدة»[١٤٥].

١٠- نصر بن مزاحم «كتاب صفين» [١٤٦].

١١- ابن الداية صاحب «سيرة ابن طولون»[١٤٧].

١٢- ابن وحشية صاحب «الفلاحة النبطية»[١٤٨].

١٣- العمرى صاحب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»[١٤٩].

١٤- القفطى صاحب «تاريخ النحاة»[١٥٠].

١٥- المسبحى صاحب «تاريخ مصر»[١٥١].

١٦- أبونعيم صاحب «تاريخ أصبهان»[١٥٢].

١٧- ابن سعيد صاحب «المغرب فى حلى بلاد المغرب»[١٥٣].

١٨- ابن الجوزى صاحب «الضعفاء»[١٥٤].

١٩- ابن رشيق صاحب «الأنموذج»[١٥٥].

٢٠- ابن الأثير صاحب «أسد الغابة»[١٥٦].

٢١- ابن زولاق صاحب «قضاة مصر»[١٥٧] و «سيرة المعز لدين الله»[١٥٨].

٢٢- الإدفوى صاحب «الطالع السعيد»[١٥٩].

٢٣- ابن الآبار صاحب «تحفة القادم»[١٦٠].

٢٤- ابن يوسف الجرجانى صاحب «طبقات الشافعية»[١٦١].

٢٥- ابن عبد الظاهر صاحب «الشعراء العصرية»[١٦٢].

٢٦- غنجار صاحب «تاريخ بخارى»[١٦٣].

٢٧- ابن المستوفى صاحب «تاريخ إربل»[١٦٤].

٢٨- الخطيب البغدادى صاحب «المتفق والمفترق»[١٦٥]، و«تاريخ بغداد»[١٦٦].

إلى غير ذلك من مصادر صرح المقريزى بها وباسم مصنفيها[١٦٧].

مصنفون ذكروا دون مؤلفاتهم :

صرح المقريزى بالنقل والأخذ عن عدد كبير من المؤلفين والمؤرخين دون أن يصرح بكتبهم ، وأبرز هؤلاء المؤرخين هم :

١- البلاذرى [١٦٨]. ٢- الطبرى[١٦٩].

٣- الذهبى [١٧٠].

٤- الصفدى [١٧١].

٥- البرزالى [١٧٣].

٦- ابن يونس [١٧٤].

٧- ياقوت [١٧٤].

٨- المنذرى [١٧٥].

٩- ابن ماكولا [١٧٦].

١٠- ابن حجر [١٧٧].

١١- الواقدى [١٧٨].

١٢- السمعانى[١٧٩].

١٣- ابن عسكر[١٨٠].

١٤- ابن ميسر[١٨١].

١٥- السلفى [١٨٢].

١٦- ابن الفرضى [١٨٣].

١٧- ابن العديم [١٨٤].

١٨- الكندى[١٨٥].

١٩- القشيرى[١٨٦].

٢٠- ابن خلكان [١٨٧].

٢١- ابن سعد [١٨٨].

٢٢- الحميدى [١٨٩].

٢٣- ابن بشكوال [١٩٠].

٢٤- ابن حيان [١٩١].

٢٥- ابن النجار[١٩٢].

٢٦- أبو العرب[١٩٣].

٢٧- ابن فضلان [١٩٤].

٢٨- أبو الفرج الأصفهانى[١٩٥].

٢٩- البيهقى [١٩٦].

٣٠- ابن النديم[١٩٧].

٣١- ابن العربى[١٩٨].

٣٢- الدبيثى[١٩٩].

٣٣- الخاليدان [٢٠٠].

٣٤- التنوخى [٢٠١].

٣٥- ابن عبد الحكم[٢٠٢].

٣٦- ابن وصيف شاه[٢٠٣].

٣٧- السبكى [٢٠٤].

٣٨- المالكى[٢٠٥].

٣٩- القاضى [٢٠٦].

٤٠- الحسن الهمدانى[٢٠٧].

وهكذا اعتمد المقريزى على عدد وافر من المصادر المتنوعة المختلفة، وأحسن الاستفادة منها، وعرضها عرضا بارعا فى كتابه «المقفى».

ويمكن لى - الآن- تقديم أمثلة لمؤرخين نقل عنهم المقريزى لأبيّن أمرين :

الأول: اعتماده على أكثر من مصدر فى كل ترجمة .

الثاني- طريقته فى النقل .

١- ترجمة المقريزى لابن الباغندى (ت٣١٢هـ) وفيها نقل المقريزى عن الخطيب البغدادى[٢٠٨] مريت ، وعن الذهبى [٢٠٩]، ومع ذلك انفرد المقريزى ببعض معلومات عن شيوخ ابن الباغندى[٢١٠].

٢- ترجمة المقريزى لأبى جعفر الجمال (ت٣٤٦هـ) وفيها نقل المقريزى بأمانة عن الخطيب[٢١١]، وعن السمعانى ، وعن الذهبى [٢١٢]، لكن المقريزى ذكر عدداً من شيوخ الجمال أكثر مما ذكره هؤلاء المؤرخون السابقون ، الأمر الذى يثبت اطلاع المقريزى على مصادر أخرى[٢١٣].

٣- ترجمة المقريزى لأبى الحسين الحجاجى[٢١٤] وفيها ذكر كل شيوخ المترجم له فى حين أن الخطيب البغدادى[٢١٥] والذهبى[٢١٦] اكتفيا بذكر شيخ واحد من شيخ «الحجاجى» بمصر، كما أن المقريزى انفرد بمعلومات أخرى عن المصدرين السابقين.

٤- ترجمة المقريزى للأبهرى (ت٣٧٥هـ) وفيها نقل المقريزى عن الخطيب البغدادى[٢١٧] والذهبى[٢١٨] ومع ذلك بالمقفى إضافات تزيد عما ورد فى المصدرين السابقين، مما يؤكد اعتماد المقريزى على مصدر ثالث [٢١٩].

٥- ترجمة المقريزى لابن الهنى [٢٢٠]، وفيها زاد عما ذكره ابن الجزرى فى ترجمته [٢٢١].

٦- ترجمة المقريزى للبآرّ (ت٥٣٠هـ) وفيها اعتمد المقريزى[٢٢٢] على السلفى ، والسمعانى، والمقدسى، فجاءت الترجمة وافية إذا ما قورنت- على سبيل المثال- لدى الصفدى فى «الوافى»[٢٢٣].

٧- ترجمة ابن الخيمى المحلى[٢٢٤] (ت ٧٣٨هـ) وفيها انفرد المقريزى بمعلومات وأخبار عن صاحب الترجمة لم تأت عند الصفدى[٢٢٥] أو ابن حجر[٢٢٦] ولم يذكر المقريزى مصادر معلوماته هذه.

٨- ترجمة ابن البابا (ت٧٤٦هـ) وفيها انفرد المقريزى ببعض المعلومات[٢٢٧] عن الصفدى المعاصر لابن البابا، والذى استقى منه المقريزى بعض الحقائق التاريخية بتصرف [٢٢٨].

٩- ترجمة ابن الزبير القاضى[٢٢٩] (ت ٥٦٢هـ) وفيها وردت زيادات عن ترجمة الصفدى لـــه [٢٣٠]، وانفرد المقريزى بذكر أن صاحب الترجمة سمع من السلفى، وقرأ عليه، ولازمه، وأنه كان عالما بالهندسة، وأورد المقريزى أقوالاً للحافظ السلفى والمنذرى عن ابن الزبير.

وهكذا إذا قارنا بين تراجم المقريزى فى «المقفى» وبين التراجم نفسها فى المصادر الأخرى استطعنا أن نقف بكل سهولة على عدة أمور من أهمها:

١- كان المقريزى يعتمد على العديد من المصادر فى الترجمة لأعلامه، ولايقتصر على مصدر واحد حتى وإن كان هذا المصدر معاصراً للأحداث وللمترجم لهم، فإن المقريزى كان يستكمل معلوماته من مصادر أخرى متاحة له، بها مادة جديدة، وهذا الأمر يؤكد صبره وسعة اطلاعه، ودقة استقصائه، وشدة تنقيبه عن كل معلومة تتصل بمن ترجم له .

٢- لم يكن المقريزى حاطب ليل ينقل كل ما وقعت عليه يداه، وما رأته عيناه دون تمييز ، وإنما كان ينتقى الحوادث والأخبار، ثم يرتبها ترتيباً ملائما لمنهجه ، ولذا كان يتصرف فى النقل أحياناً[٢٣٢]، وكان يلتزم بحرفية النقل فى بعض الأحوال[٢٣٣]، لاسيما وهو يترجم لرجال الحديث الشريف ويبين آراء علماء الجرح والتعديل فيهم، ومن ثم يكون النقل حرفيا عمن ينقد هؤلاء المحدثين أو يعدلهم ، ومنهم : أحمد بن حنبل [٢٣٤]، ، والحاكم [٢٣٥]، والنسائى[٢٣٦]، والدرامى[٢٣٧]، والدار قطنى [٢٣٨]، وأبوزرعة[٢٣٩]، والشيرازى [٢٤٠]، وابن يونس [٢٤١]، والخطيب البغدادى[٢٤٢]، والذهبى[٢٤٣]، وغيرهم[٢٤٤].

قضية إغفال المقريزى لبعض مصادره فى «المقفى»:

أغفل المقريزى ذكر بعض مصادره عند ترجمته لبعض أعلامه ، فلم يرد اسم المصدر الذى استقى منه المقريزى معلوماته ، بالرغم من وجود إشارات واضحة ، وقرائن قوية تدل على المصدر الذى أخذ منه المقريزى أخباره، منها معاصرة صاحب المصدر للأحداث التاريخية واتصاله بها ومشاركته فيها والإشارة إلى ذلك، ومنها : إشارة صاحب المصدر إلى تراجم سابقة أو آتية ونقل المقريزى لهذه الإشارة مع اختلاف منهج المصدرين فى الكتابين ، ومنها التشابه الواضح بين المصدرين فى المعلومات التاريخية.

ومن أمثلة ذلك ترجمة المقريزى[٢٤٥] لابن الخطيب الإسنائى (ت٧١٢هـ) دون إشارة إلى الإدفوى[٢٤٦] ، وأظن أنها منقولة عنه . وترجمة المقريزى[٢٤٧] لابن السيد إسنائى (ت ٧٠٤هـ) وأظنها منقولة عن الإدفوى [٢٤٨]، بل وأؤكد ذلك. وترجمة المقريزى[٢٤٩] لنور الدين الإسنائى (ت٧٢١هـ) وأظنها منقولة عن الإدفوى[٢٥٠] أيضا. وترجمة المقريزى[٢٥١] للبرشانى (ت٦٦٧هـ) وأظنها منقولة عن الصفدى [٢٥٢]، مع إضافات مهمة للمقريزى غير موجودة فى «الوافى». إلى غير ذلك من أخبار نقلها المقريزى عن الصفدى[٢٥٣].

ولكن المقريزى كانت له إضافات دائما إلى ما ينقله ، كما أنه ذكر مصادره التى أغفلها- أحيانا- فى مواضع أخرى، ومنها «الطالع السعيد للإدفوى»[٢٥٤] وكتب الصفدى[٢٥٥] ، غيرها. ويذهب أحد الباحثين الكبار[٢٥٦] إلى أن عدم الإشارة إلى المصادر لم يكن عيبا آنذاك، فهناك عدد كبير من كبار المؤرخين لم يذكروا القسم الأكبر من مصادرهم مثل : ابن الجوزى فى «المنتظم» وابن الأثير فى «الكامل» ، والعينى فى «عقد الجمان» وغيرهم. وهناك مؤرخون لم يذكروا المصادر نهائيا وهم من ثقات المؤرخين كالمنذرى فى كتابه «التكملة» . وفى الوقت نفسه كانت هناك طائفة أخرى عنيت بذكر مصادرها ، ولكنها تفاوتت فى ذلك أيضا حيث كان قسم منهم يذكر موارده بصورة دقيقة ، بينما كان القسم الآخر يذكر موارده تارة، ويغفلها تارة أخرى. وأظن أن المقريزى من القسم الأخير؛ ممن يذكرون مواردهم تارة، ويغفلونها تارة أخرى .

وبسبب هذا التوجه من المقريزى تعرض لاتهامات عديدة من المؤرخين المحدثين ، ويهمنا هنا تهمة ألصقت بالمقريزى من قبل أستاذ كبير، وتتصل بكتاب «المقفى».

تهمة النقل الكثير عن «ابن العديم» ومقارنة بين المصدرين:

اتهم المقريزى منذ فترة بأنه نقل كتابه «المواعظ» عن كتاب صنفه الأوحدى، وظفر المقريزى بمسودته فنسب الكتاب إلى نفسه، وقد فند هذه التهمة أستاذ كبير هو الدكتور سعيد عاشور[٢٥٧] فأوضح أنه لو افترضنا - جدلاً- أن المقريزى أخذ عن الأوحدى، فماذا يضيره أو يقلل من قيمة علمه؟ طالما أنه لم يقتصر على ما ذكره الأوحدى، وإنما استعان بمن سبقوا الأوحدى فى كتابه خطط مصر والقاهرة، كما أنه لو اتجهنا إلى اتهام أى مؤرخ أخذ من سابقيه ومعاصريه بالسرقة لأدين بهذه التهمة جميع مؤرخى الإسلام بعد القرن الرابع للهجرة دون استثناء . لكن المقريزى فى كتابه (الخطط) كان أمينا، وذكر أسماء من سبقوه من العلماء

والمجتهدين فى ميدان الخطط، وكان له منهج خاص به ، وإضافات مهمة تجعله أحد المؤرخين الكبار.

أقول: إن المقريزى اتهم مرة أخرى من قبل أحد الأساتذة الكبار[٢٥٨] فذكر أن المقريزى قد نهل من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم ما شاء له القدر «ولكن كما هى عادته لم يشر إلى الكتاب، فهو نادرا ما يشير إلى مصادره، أو يقوم بذكر مصادر صاحب النص المنقول عنه».

ولكنى قمت بمراجعة ومقارنة كتاب «المقفى» بكتاب «بغية الطلب» ومقابلة ما ورد فيهما من تراجم ومعلومات ، فاتضح لى عدم صحة ما ذهب إليه الدكتور سهيل زكار . وقبل التدليل على ذلك أذكر أولاً أن المقريزى أشار إلى النقل من ابن العديم أحيانا [٢٥٩]، وأقدر أن التراجم المشتركة بين المؤرخين الكبيرين بلغت إحدى وأربعين ترجمة .

ويمكن لى تقسيم هذه التراجم المشتركة إلى عدة أنواع :

١- تراجم انفرد بها المقريزى بمعلومات عن ابن العديم، وبلغت هذه التراجم تسعة عشر موضعًا ، من أمثلتها:

ترجمة أحمد بن شعيب بن على النسائى ، وانفرد فيها المقريزى[٢٦٠] بذكر البلاد التى تلقى بها أحمد بن شعيب العلم، وذكر جوانب من حياته الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ولم ترد عند ابن العديم[٢٦١].

ترجمة أحمد بن نصر النيسابورى (ت٢٤٥هـ) وفيها انفرد المقريزى[٢٦٢] بترجمة طويلة عن ابن العديم[٢٦٣] الذى ترجم للنيسابورى فى كلمات قليلات.

ترجمة أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) وفيها انفرد المقريزى[٢٦٤] بمعلومات عن ابن العديم[٢٦٥].

ترجمة إسحق بن محمد بن المؤيد[٢٦٦] (ت٦٢٣هـ) وفيها انفرد المقريزى بمعلومات غير موجودة لدى ابن العديم[٢٦٧].

ترجمة إسماعيل بن إبراهيم بن غازى (ت٦٣٧هـ) وفيها انفرد المقريزى[٢٦٨] بمعلومات عن شيوخه وبعض مواقفه مع المعظم عيسى بن العادل، ولم ترد عند ابن العديم[٢٦٩].

ترجمة أصبغ بن عبد العزيز الأموى، وجاءت مفصلة عند المقريزى[٢٧٠]، موجزة عند ابن العديم[٢٧١].

ترجمة الحر بن يوسف بن يحيى (ت١١٣هـ) وجاءت بزيادات لدى المقريزى[٢٧٢] عن ابن العديم[٢٧٣].

ترجمة حماد بن هبة الله بن حماد (ت٥٩٨هـ) وفيها انفرد المقريزى[٢٧٤] عن ابن العديم[٢٧٥] بأن حماداً ألف كتابا جمع فيه من اسمه «حماد» . ولدى الصفدى[٢٧٦] ترجمة لحماد هذا، لكن ترجمة المقريزى أشمل وأوفى من ترجمة الصفدى.

ترجمة حوثرة بن سهيل الباهلى (ت١٣٢هـ) وجاءت شاملة وواسعة لدى المقريزى [٢٧٧]، مختصرة جدا لدى ابن العديم[٢٧٨] فى عدة أسطر قليلة.

إلى غير ذلك من تراجم[٢٧٩] وردت فى «المقفى»، و«بغية الطلب» وانفرد فيها المقريزى بمعلومات لم ترد عند ابن العديم، بالإضافة إلى تراجم أخرى وردت عند المؤرخين بزيادات هنا أو هناك.

وهكذا انفرد المقريزى عن ابن العديم بمعلومات عديدة فى مواضع مختلفة.

٢- تراجم تشابهت معلوماتها وذكر المؤرخان فيها مصادرها:

وبلغت هذه التراجم تسعًا ، تشابهت فيها المعلومات، وذكر كل مؤرخ مصادره، ومعنى هذا أن المقريزى لايعد ناقلا - هنا- من ابن العديم، وإنما من المصادر المتعددة التى صرح بها وذكرها[٢٨٠].

٣- تراجم تشابهت معلوماتها ولم يذكر كلا المؤرخين مصدريهما، وبلغت هذه التراجم اثنتين[٢٨١].

٤- تراجم متشابهة عاصر ابن العديم أصحابها أو ذكر مصادره ولم يذكر المقريزى مصادره[٢٨٢].

بلغ هذا النوع ستا فقط، وهنا يمكن الظن بأن المقريزى قد نقل معلومات هذا التراجم من ابن العديم بالفعل. وهكذا إذا افترضنا نقل المقريزى عن ابن العديم ، فإن هذا النقل ينطبق -فقط- على هذه الحالات والتراجم الست، مع الأخذ فى الحسبان إشارة المقريزى لابن العديم ووردت هذه الإشارة مرتين- كما سبق- ولذا فالقول بأن المقريزى نهل من البغية ما شاء له القدر، قول مبالغ فيه للغاية وغير صحيح . كذلك كان للمقريزى مصادره التى ينقل منها ، وليس صحيحا أنه كان ينقل مصادر المصدر الذى يطلع عليه، لاسيما وأن المقريزى قد أشار بالمقفى أكثر من مرة إلى مصادره التى ينقل عنها[٢٨٣].

سابعًا : التدخل بالشرح أو النقد أو التعليق:

التزم المقريزى بمنهج إيراد الآراء المتعددة حول بعض الشخصيات والأعلام الذين ترجم لهم، إما لأهمية هذه الشخصية وما أحدثته من تأثير علمى قوى[٢٨٤] أو سياسى أو غيرذلك ، وإما بسبب ما أثير حول هذه الشخصية من لغط [٢٨٥]، أو تشكيك فى عقيدتها أو علمها[٢٨٦] أو دورها السياسى، وكان المقريزى يتدخل - أحيانا- مبديًا رأيه أو معلقا على بعض الأحداث أو ناقدا لبعض المواقف.

وجرت عادة المقريزى فى كتبه[٢٨٧] ومنها «المقفى» أن يقول عند التعليق أو النقد : «قال كاتبه»[٢٨٨] أو «قلت»[٢٨٩].

ومن أمثلة تدخل المقريزى بالتعليق وربداء الرأى:

١- تدخله مؤيدا صحة نسب الفاطميين . فلقد ترجم لعبيد الله المهدى الفاطمى ترجمة طويلة ذكر فيها الآراء الطاعنة فى نسبه والمثبتة له، وعلق على ذلك بعدة تعليقات منها قوله: «قال كاتبه : أنا استغفر الله مما سطرته»[٢٩٠] أى من الطعن فى نسب الفاطميين . وقد استبعد المقريزى الروايات الطاعنة فى نسب الفاطميين» والذى يظهر أن هذه الأقوال موضوعة، لم يقلها أحد، بل افتراها أعداء القوم ونشروها فى الناس لينفروهم عنهم، وقد قال شيخنا العلامة أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - رحمه الله- فى كتابه الذى سماه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» :...»[٢٩١].

٢- تدخله مؤيدا «ابن يونس» وناقداً «السمعانى فى نسبة ابن أبى فروة الشعبانى (ت ٢٥٦هـ) إلى قبيلة حمير- كما قال ابن يونس- لا إلى قيس عيلان[٢٩٢].

٣- تدخله مثبتا بيتًا للبوصيرى نسبه الصفدى لغيره [٢٩٣].

٤- تدخله بالتعليق على أحوال شيخ الظاهر بيبرس الشيخ خضر قائلاً : «والله أعلم بحقيقة حاله» وذلك بعد أن ذكر بعض الأقوال فيه، وعرض لبعض أحواله[٢٩٤].

٥- تدخله مثبتا الاسم الصحيح لأحد كبار الصوفية ، قيل إن اسمه : محمد بن أحمد، وقيل : الحسن بن همام، وعلق المقريزى على ذلك بقوله : «والأول أصح»[٢٩٥].

٦- تدخله مقارنا بين التمكين لعبد الرحمن الداخل بالأندلس، وبين التمكين لمروان بن الحكم والدولة الأموية بصفة عامة بعد موقعة «مرج راهط» سنة ٦٥هـ [٢٠٦].

٧- تدخله حاكمًا على ما ذكره حذيفة بن اليمان- من أنه رأى عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب فى المنام فى الجنة مع رسول الله ﷺ بالوضع [٢٩٧].

٨- تدخله موضحًا طائفة القرامطة ، وأفعالهم بالمسلمين لمدة قرنين من الزمان، بعد أن ترجم لأحد القرامطة ترجمة موجزة[٢٩٨].

٩- تدخله مبينًا طائفة الدروز فى عهده ، بعد أن ترجم لأحد هؤلاء الدرزيه المؤلهين للحاكم بأمر الله [٢٩٩].

١٠- تدخله حاكما على بعض المصادر التاريخية والمؤرخين ، ومن ذلك قوله عن مؤلفات ابن الفرات «وقفت عليها واستفدت منها مع عامية فى ألفاظه »[٣٠٠]. ووصفه كتاب «أعوان النصر» للصفدى بأنه مفيد إلى الغاية فى معناه[٣٠١]، وثناؤه على كتب أبى الفداء[٣٠٢] والذهبى[٣٠٣].

١١- تدخله مثبتا ولادة سيدنا إبراهيم عليه السلام فى «كوثى» من إقليم بابل، وليس بغوطة دمشق كما قيل[٣٠٤].

١٢- تدخله مؤيدا ما جاء فى التوراة من ضبط أسماء أجداد سيدنا إبراهيم عليه السلام، على أساس أن هذه الأسماء ليست مما يلحقه التحريف أو التبديل «أما نقله الأخبار فقد احتاروا فى ضبطها لبعدهم عن معرفة العبرانية»[٣٠٥].

١٣- تدخله مؤكدا ما ورد فى كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية من أخبار عن المناظرة التى جرت بين سيدنا إبراهيم وقومه، بالرغم من تأكيده على أن ابن وحشية ليس من علماء الأديان[٣٠٦].

١٤- تدخله حاكما ومبديا رأيه فى شهر المتنبى[٣٠٧].

وهكذا تدخل المقريزى[٣٠٨] - أحيانا- بالتعليق : شارحا بعض الأمور وناقدا بعضها ، ومرجحا لبعضها، ورابطا بين الأحداث التاريخية ومتابعا لبعضها إلى زمنه[٣٠٩].

ثامنًا : عفة القلم واحترام الغير[٣١٠]:

التزم المقريزى- وهو يترجم لأعلامه- منهج ونهج : عفة القلم واحترام الغير. وكثرت العبارات الدالة على ذلك ومنها : «عفا الله عنه وسامحه»[٣١١] والله يغفر لنا وله »[٣١٢] و«عسى الله أن يكفر عنه»[٣١٣] و«الله أعلم بحقيقة ذلك»[٣١٤].

ولاحظت أن المقريزى التزم هذا المنهج أيضا وهو يتحدث عن شيوخه ومن تلقى عنهم بعض الأخبار والمعلومات ، فكان يدعو لهم بالرحمة والمغفرة[٣١٥]. كما لاحظت أن المقريزى وهو يترجم لمعاصريه بالكتاب التزم هذا المنهج ، فأثنى عليهم[٣١٦]، ولم يقدح إلافيمن يستحقون القدح والذم بسبب ما اشتهروا به من لهو[٣١٧] أو سوء سيرة[٣١٨].

ولعل مما يؤكد اتصاف المقريزى بصفة الصبر، واحترام الغير، والسماحة هو ما ذكره عن أحد الفقهاء المشهورين بالشدة والجفاء ، حتى أدى ذلك إلى ابتعاد الناس عنه، ولكن المقريزى اقترب منه، وعبر عن ذلك بقوله : «وأعاننى الله عليه لما جاورت مكة فى سنة ٧٨٧هـ حتى قرأت عليه كثيرا من مروياته ، ولم يقع بينى وبينه سوء قط، والحمدلله»[٣١٩].

ومن ذلك دعاؤه لرجل كان يبذل المال من أجل المناصب بقوله : «الله يغفر لنا وله» [٣٢٠]. ولاشك أن هذه الصفات مطلوبة فى المؤرخين ، وبخاصة وهم يترجمون للرجال والأعلام على اختلاف أفكارهم وميولهم ووظائفهم.

تاسعا : الأسلوب الفصيح السهل:

اتسمت لغة المقريزى فى «المقفى» باللغة الفصيحة السهلة المفهومة مما يدل على معرفة المقريزى باللغة معرفة تامة، وهذا لاينفى وجود كلمات قليلات عامية مثل «بس» [٣٢١]، وأساليب عامية مصرية مثل «فمشى حاله»[٣٢٢]. وهذه الكلمات والأساليب قليلة جدا بالكتاب ، لكن اللغة الفصيحة السهلة هى الغالبة عليه.

مقارنة بين منهج المقريزى وبين مناهج بعض مصادر سابقة عليه أو لاحقة له:

عند مقارنة منهج المقريزى فى «المقفى» وبين مناهج بعض مؤرخى التراجم السابقين على المقريزى كالصفدى أو اللاحقين له كابن تغرى بردى والسخاوى، يتبين لنا اشتراك هؤلاء المؤرخين جميعا فى بعض الأمور منها على سبيل المثال : طريقة الانتقال من النقل إلى التعليق أو النقد وتصدير ذلك بـ «قلت» وفعل ذلك المقريزى - كما سبق- والصفدى، وابن تغرى بردى[٣٢٤] والسخاوى[٣٢٥] ، ومنها : تحقيق أمر الولادة والوفاة . وقد صرح الصفدى بالتزامه هذا المنهج فى مقدمة كتابه[٣٢٦] والتزم به، إلا أنه - كالمقريزى- لم يتمكن من الوصول إلى تاريخ ولادة كل أعلامه ، ولم يستطع- كذلك- أن يقف على تاريخ وفاة كل مترجميه، وبالمثل كان ابن تغرى بردى. ومن نقاط الاتفاق فى المنهج أيضا: ضبط الأعلام وتوضيح الأنساب، وفعل ذلك الصفدى[٣٢٧] وابن تغرى بردى[٣٢٨] والسخاوى فى بعض الأحيان[٣٢٩].

ومن خلال هذه القراءات السريعة فى مناهج هؤلاء المورخين ، اتضح لى اشتراك المقريزى مع الصفدى وابن تغرى بردى بصفة خاصة فى المنهج، مع ملاحظة أن المقريزى لم يخالف منهجه إلا قليلا، ولأن الصفدى سابق على المقريزى فلربما استفاد المقريزى من منهجه إلا قليلا، لكن الذى أوكده هو أن ابن تغرى بردى قد استفاد فى كتابه «المنهل الصافى» من منهج المقريزى، لاسيما أن ابن تغرى بردى يعد تلميذا للمقريزى ، واجتمعا معا كثيراً [٣٣٠]، واعتمد ابن تغرى بردى على كتب المقريزى [٣٣١]، ومنها «المقفى» ، لكن السخاوى يتفق مع المقريزى فى بعض الأمور القليلة ، وقد اعتمد هو الآخر على كتب المقريزى[٣٣٢].

خلاصات

١- تضمن كتاب «المقفى» معلومات تاريخية واسعة ، بعضها لايوجد إلا به ، بسبب اطلاع المقريزى على المصادر التى ضاع بعضها، واستطاع المقريزى أن يحسن الإفادة من مصادره المتعددة فى تقديم مادة جيدة أكسبت مصنفه قيمة عظيمة.

٢- اتبع المقريزى منهجا دقيقا منظما ؛ فبذل جهدا فى تحقيق أمر الولادة والوفاة، وفى ضبط الأعلام والأنساب ، والتزم النقل عن المعاصرين للأحداث أو القريبين منها، ونقل من المصنفات القديمة عند عدم توافر شرط المعاصرة والمشاهدة أو القرب من الأحداث التاريخية.

٣- لم يكن المقريزى ناقلا لكل ما تقع عليه عيناه أو تصل إليه يداه، وإنما كان يجتهد فى اختيار المعلومات التاريخية من أكثر من مصدر ، ولذا كان يقدم -دوما- أخبارا ونصوصا إضافية عن المصدر الذى صرح بالنقل عنه، وهذا معناه أن المقريزى كان واسع الاطلاع ، ولديه مقدرة على الاختيار والانتقاء والعرض للحقائق والأخبار التاريخي.

٤- اتهم المقريزى بالنقل عن بعض المؤرخين دون تحرج، والنهل منهم دون تحفظ ، ومن هؤلاء المؤرخين : ابن العديم ، والمقريزى فى «المقفى» برىء من هذه التهمة ومن غيرها.

٥- لم يكتف المقريزى - أحيانا- بسرد الوقائع والأحداث التاريخية، وإنما قام بالتعليق عليها أو نقدها أو شرحها ، وسار بالحديث عن بعضها إلى زمنه؛ رابطا بين الأحداث بعضها ببعض.

٦- وأخيراً فإن جهد المقريزى فى «المقفى» يجعل قراءه فى غنى عن الرجوع إلى المعاجم اللغوية والجغرافية وكتب الأنساب من أجل استيفاء معلومة أو بحث عن بلد أو إقليم أو مدينة أو غير ذلك .

الهوامش

١- أطلق المقريزى على كتاب «المقفى» اسم «تاريخ مصر الكبير» فى كتابه «الخطط جـ٢ ، ص٣٣» كذلك سماه السخاوى «تاريخ مصر» فى كتابه الذيل على رفع الإصر ص٦٢».

٢- أطلق ابن تغرى بردى على المقريزى لقب «عمدة المؤرخين» . ابن تغرى بردى: حوادث الدهور جـ ص٢٥ وص٣٩ . وأطلاق السخاوى على المقريزى لقب «مؤرخ الوقت» . السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص٣٢٢ .

٣- راجع ترجمة المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى فى كتاب «المنهل الصافى» «لابن تغرى بردى جـ١ ص٤١٨-٤١٩ ، وفى كتاب «حوادث الدهور جـ١ ص٣٩ -٤١» وفى كتاب «التبر المسبوك للسخاوى ص٢١-٢٥».

٤- ثار خلف بن جبر فى خلق كثير من قبائل البربر على أبى الفتوح يوسف بن زيرى ابن مناد خليفة المعز ونائبه فى إفريقية وبلاد المغرب، فزحف إليه يوسف فقتله سنة ٣٦٤هـ، وأمر بأن يطاف برأسه ورؤوس من قتل معه بالقيروان، ثم حمل منها خلف إلى القاهرة، فطيف بها أيضا. راجع المقريزى: المقفى جـ٣، ص٧٦٢ .

٥- المقريزى: المقفى جـ٣ ، ص٧٦٢ .

٦- المقريزى : السلوك جـ٢ قسم ٢ ص٣٦٥ .

٧- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ، ص٤١٨-٤١٩ .

٨- السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص٢٣ .

٩- ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، ونشرته دار الغرب الإسلامى- بيروت - لبنان.

١٠- كتاب «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » للمقريزى ، ترجم فيه لأعيان عصره البارزين، ووردت إحالات عليه فى كتاب «المقفى» منها على سبيل المثال إحالة المقريزى عليه فى أثناء ترجمته للبرهان بن الحريرى الضرير (ت. ٨٠٠هـ). راجع المقفى جـ١ ص٤٤-٤٥ ، كما أحال عليه المقريزى فى كتابه «الخطط» راجع جـ٢ ص٣٣ وص٦٢ وص٧٤ .

١١- راجع المقفى جـ٢ ص١٠٥ و١١٦-١١٧ وجـ٣ ص٢٦٨ و٣٠٤ و٦٥٢ و٦٩١ وجـ٤ ص٤٠٣ و٤١٩ ،

٤٤٩ و٥٦٥ وجـ٥ ص١٧٦ و١٧٧ و٦١٦ وجـ٦ ص١٠٢ .

١٢- راجع المقفى جـ٥ ص١٣٦ وجـ٦ ص٤٤١ .

١٣- راجع المقفى جـ٦ ص١٣٨ و١٤٥ وجـ٦ ، ص٣١١ و٣٣٣ و٣٩٧ و٣٩٨ و٤٤١ و٤٤٦ .

١٤- راجع المقفى جـ٦ ، ص١٠٢ و١٢١ و١٣٧ وجـ٧ ص١٣٨ و١٤٥ و١٤٧ و٣٤٣ .

١٥- وراجع بصفة عامة المقفى جـ٣ ص٢٥٨ و٢٧٠ و٤٤٥ و٤٩٨ و٧٥٧ وجـ٤ ص٣٩٠ و٤٠٠ و٤٢٥ و٤٤٠ و٤٤١ و٤٥٠ وجـ٥ ص٦٥٩ و٦٧٣ و٦٧٦ و٦٧٩ ، ٦٨٦ ، و٦٨٩ وجـ٦ ص١٠٠ و١٠١ و٢١٧ و٢١٨ و٢٩٨ و٤٠٨ و٤٣١ و٤٣٣ و ٤٤٠ و٤٤١ وجـ٧ ص١٠٧ و١١٢ و١١٣ و ١٣٨ و١٤٥ و١٤٧ و٤٢٩ و٤٣٠ و٥٢٢ و٥٢٦ و٥٢٨ . وراجع - أيضًا جـ١ ص٧٢٥ و٧٣٦ .

١٦- قمت بإحصاء وتصنيف كل التراجم الواردة في كتاب «المقفى» المطبوع لبيان ثقافة صاحب كل ترجمة أو منصبه أو وظيفته ومهنته ، أو غير ذلك.

١٧- أبرز هؤلاء المؤرخين محمد بن إسحاق (جـ٥ ص٣٠٢-٣٠٥) والمسبحي (جـ٦ ص١٦٣-١٦٥) والصفدي (جـ٣ ص٧٦٧-٧٦٨) والعمري (جـ١ ص٧٣٢-٧٣٥) والذهبي (جـ٥ ص٢٢١-٢٢٥) والحميدي (جـ٦ ص٥٠٤-٥٠٨) وأسامة بن منقذ (جـ٢ ص٤٠-٤٩) والكندي (جـ٧ ص٤٨٩-٤٩٠) وأبو الفدا (جـ٢ ص١٠٠-١٠٤) والعماد الأصفهاى (جـ٧ ص٢٠٤-٢١١) والطبري (جـ٥ ص٤٨١-٤٨٧) وابن الفرات (جـ٦ ص٦٤) والقلقشندي (جـ١ ص٥١٢-٥١٣) .

١٨- بلغ عدد المعتزلة ٣ ، وعدد القرامطة ٤ ، وعدد الثائرين ١٠ والمبتدعين في الدين والمدعين للألوهية ٤ .

١٩- راجع المقفى جـ٣ ص٦٩١-٦٩٧ .

٢٠- راجع المقفى جـ٤ ص٤٦٤-٤٨٤ .

٢١- مثل جرجي الأنطاكي وزيد روجار الحاكم النورماني لصقلية جـ٣ ص١٨-٢٠ .

٢٢- المقريزي : الخطط جـ١ ص٣ .

٢٣- فعل ذلك على سبيل المثال : ابن عبد البر : «الاستيعاب» والخطيب : «تاريخ بغداد» وياقوت : «معجم الأدباء» وابن خلكان : «وفيات الأعيان» والقفطي : «إنباه الرواة». والصفدي : «الوافي

بالوفيات » وابن تغرى بردى : «المنهل الصافى» وابن حجر : «الإصابة فى تمييز الصحابة » و«الدرر الكامنة» والسخاوى» : «التبر المسبوك» والسيوطى : «بغية الدعاة» وغيرهم.

٢٤- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٢١٣ وراجع من ص٢١٢ .

٢٥- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص١٩ .

٢٦- السخاوى : التبر المسبوك ص٢١ .

٢٧- فعل ذلك على سبيل المثال ابن عبد البر «الاستيعاب» و «الصفدى» الوافى لكن الصفدى ترجم للمحمدين بعد النبى ﷺ ، ثم التزم الترتيب الألفبائى الذى التزمه ابن عبد البر مباشرة بعد ذكر النبى ﷺ.

٢٨- فعل ذلك الخطيب البغدادى : «تاريخ بغداد» والسيوطى «بغية الدعاة».

٢٩- مثال ذلك ما فعله ابن تغرى بردى فى «المنهل الصافى» .

٣٠- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٣ .

٣١- المقريزى: المقفى جـ١ ص٣٥-٤١ وراجع أمثلة أخرى مماثلة جـ١ ص٩٨-٩٩ وجـ٥ ص٤٧-٥٥ وجـ٦ ص٢٥-٣٠ و٣٤٨-٣٥٥ وجـ٧ ص٧-١٩ و٢٨-٣٢ .

٣٢- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٥ وص٩٠-٩٣ وراجع أمثلة أخرى مشابهة جـ١ ص١٠٢-١٠٥ وجـ٥ ص٥٦-٥٨ وجـ٧ ص٣٤٥ و٣٥٦ .

٣٣- المقريزى : المقفى جـ٢ ص١٣-٣٦ وراجع أمثلة أخرى مشابهة جـ٢ ص٤٩٦-٥٠٤ وجـ٣ ص٩-١٥ و٣٧-٣٩ و٤٣٣-٤٤٢ وجـ٤ ص٧-١٣ وجـ٥ ص٩-١٧ .

٣٤- راجع على سبيل المثال ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٦ ص٦٧-٨٠ وص٨٥ و٨٦ و٨٧ و٩٦ و١٠٤ و١١٥ و١١٨ و١٢١ و١٢٣ و١٢٧ ، ١٢٩ ، وابن حبيب : تذكرة النبيه جـ٣ ص١٩٤ و٢١٣ ، وابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان جـ٤ ص٢٥٢ و٤٦٢ و٢٩٩ .

٣٥- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٥١٠-٥١٢ .

٣٦- المقريزى : المقفى جـ٢ ، ص٥٦٨-٥٧٦ .

٣٧- المقريزى : المقفى جـ٢ ، ص٥٧٠-٥٧٦ .

٣٨- المقريزى : المقفى جـ، ص١٢-١٨ .

٣٩- المقريزى : المقفى جـ٤ ، ص٤٢٢-٤٢٣ .

٤٠- المقريزى : المقفى جـ٤ ، ص٤٢٥ .

٤١- من ذلك مثلا ترجمة (الحسن بن الجراح) المقفى جـ٣ ص٢٨٤

٤٢- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٣٩٦ وجـ٧ ص٤٨٩ .

٤٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٠٧ و١٥٣ وجـ٦ ص٤٥ و٥٠١ .

٤٤- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٧ .

٤٥- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٠٤ .

٤٦- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٨٨ و٤٩١ .

٤٧- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٨٢-٤٩٢ .

٤٨- المقريزى: المقفى جـ٧ ص٢٦ .

٤٩- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٤ و٢٤ وجـ٧ ص١٣٨ .

٥٠- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٦٣ وص٥٠٠ وجـ٧ ص٢٥٧ .

٥١- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٣٥ وراجع أمثلة أخرى مشابهة ص٣٦ و٣٧ و٤٣ و٤٥ .

٥٢- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٩٧ وراجع ص٩٨ .

٥٣- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٢١٣ وراجع أمثلة أخرى جـ١ ص١٧٦ و ١٨٣ و٣٠٤ وجـ٥ ص٦٦١ وجـ٧ ص١٠١ .

٥٤- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٧٣ . وواضح هنا الفارق بين تاريخى الوفاة، وبالرغم من ذلك ذكرهما المقريزى بسبب وجود هذين الرأيين .

٥٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤٨ وراجع أمثلة أخرى ص٦٠٨ و٦٥٩ وجـ٦ ص١٥٥ وجـ٧ ص٥٧ و٢٠٣ .

٥٦- راجع فى ذلك المقريزى : المقفى جـ٣ ص٣٥٨ وجـ٤ ص٥٩٤ وجـ٦ ص٤٤١ .

٥٧- راجع فى ذلك المقريزى : المقفى جـ١ ص١١٥ و٢٣١ و٢٣٦ و٢٣٨ و٧٥٨ وجـ٣ ص٤١٥ و٤٤٢ وجـ٥ ص٦٧٤ و٦٩٠ و٦٩١ وجـ٧ ص٢٣ و٥١ و٧٣ و٩٣ و١١٩ .

٥٨- راجع جـ١ ص٩١ ،٩٢ و٩٣ و١٤٥ و١٤٦ و٢١١ و٢٧٧ وجـ٢ ص٥٣ و٥٩ و٨٢ وجـ٣ ص٦٧٣ و٦٧٤ و٦٨٣ و٧٣٥ و٧٣٧ و٧٨٥ ،جـ٥ ص٥٦٢ و٥٧١ و٦٣٤ و٦٩٠ وجـ٦ ص٢١٤ و٢٣١ و٢٦١ و٢٧٦ و٤٤٦ و٤٤٨ و ٤٤٩ و٤٥٢ و٤٦٢ و٤٧٤ و٥٢٤ و ٥٣٢ و٥٣٩ .

٥٩- وبالرغم من ذلك أورد المقريزى تاريخ ميلاد بعض الأعلام دون تاريخ الوفاة ، ومن أمثلة ذلك المقفى: جـ١ ص١٠٤-١٠٥ وجـ٢ ص١٢٧ وجـ٥ ص٢٠٩ و٢٨٤ وجـ٦ ص٥١ و٩٩ و١٤٥ وجـ٧ ص٢٠-٢١ و٢٣ و٩٢ و٥٠٠ .

٦٠- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١١٥ والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٦ ص٧ .

٦١- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١١٥ والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٦ ص٤٧ .

٦٢- راجع المقريى : المقفى جـ١ ص١٠٢ والخطيب البغدادى تاريخ بغداد جـ٦ ص٢٠ .

٦٣- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١٠٢ والإدفوى : الطالع السعيد ص٥٢-٥٣ .

٦٤- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١٢٦ والإدفوى: الطالع السعيد ص٥٣ .

٦٥- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص١٢٣ وابن الجرزى: غاية النهاية جـ١ ص١٠ .

٦٦- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٦٥ وابن الجرزى: غاية النهاية جـ٢ ص٤٨ .

٦٧- راجع المقريزى: المقفى جـ٣ ص٦٧١ والإدفوى : الطالع السعيد ص٢٣٢-٢٣٤ .

٦٨- راجع المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٢٤ والذهبى : العبر جـ١ ص٥٦-٥٧ وسير أعلام النبلاء جـ٢ ص٤٠٢-٤١٣ .

٦٩- راجع المقفى جـ٥ ص٦٢ والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٣٩٧ .

٧٠- منها على سبيل المثال ترجمة محمد بن إبراهيم (ت٢٧٣هـ) لم يذكر الخطيب (تاريخ بغداد جـ١ ص٣٩٤) ولا المقريزى (المقفى جـ٥ ص٥٤) تاريخ مولده، بينما ذكر ذلك الذهبى : (سير أعلام النبلاء جـ١٣ ص٩١). ومنها محمد بن محمد بن سليمان (ت٣١٢هـ) ولم يذكر الخطيب تاريخ مولده (تاريخ بغداد جـ٣ ص١٠٩) ولا المقريزى (المقفى جـ٧ ص٢١) بينما ذكر الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٤ ص٣٨٣ .

٧١- راجع أيضًا المقفى جـ٦ ص٢٦ مع سير أعلام النبلاء للذهبى جـ١٥ ص٢٧٠-٢٧١ ، والمقفى جـ٦ ص٢٨ مع سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٢١٧ ، والمقفى جـ٦ ص٥٥ مع سير أعلام النبلاء جـ٦ ص١٥٠،

والمقفى جـ٦ ص٧١ مع سير أعلام النبلاء جـ١٣ ص٤٥٩-٤٦٠ ، والمقفى جـ٦ ص٢٢٤ مع سير أعلام النبلاء جـ٦ ص٣١٧-٣٢٢ .

٧٢- محمد بن عبد الغنى حسن : التراجم والسير ص٩٦ .

٧٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٧ .

٧٤- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨٦ .

٧٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٨٩ وراجع أمثلة أخرى فى جـ٥ ص٢٩٩ و٣٠٢ و٤٤٥ و٤٨٩ و٥١٠ و٥٤١ و٥٤٤ و٥٤٨ و٦١٨ و٦٤٣ و٦٦٢ و٧١٤ و٧١٥ .

٧٦- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٠-٣١ .

٧٧- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٢ .

٧٨- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٦١ .

٧٩- المقريزى: المقفى جـ٧ ص٢٨ .

٨٠- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٦٩ .

٨١- المقريزى : المقفى جـ٧ ص١٤٧ وراجع أمثلة أخرى جـ٢ ص٢٢٠ و٣٧٠ و٥٧٥ وجـ٣ ص٧٣ وجـ٤ ص٣٨٤ وجـ٦ ص٩٥ و٩٨ و٩٩ و١٠٢ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٧ و١٦٣ و٢٦٢ و٢٦٥ و٢٧٠ و٣١٨ و٣٣٤ و٣٠٣ و٤٦٣ و٤٥٧ وجـ٧ ص١٢ و٣١ و٣٦ و٣٧ و١٥٤ و٢٠٤ و٢٢٠ و٢٥٣ و٢٨١ و٢٨٥ و٢٩٥ و٣١٣ و٣٢٤ و٣٥٨ و٣٩٢ ، ٣٩٥ و٤٠١ و٤٠٩ و٥١٦ و٥١١ .

٨٢- راجع على سبيل المثال المقفى: جـ١ ص١٥١ و١٥٣ و١٧٦ و٢٠١ وجـ٥ ص٦٤٣ وجـ٦ ص٣١ و٩٨ و٩٩ و١٠٥ وجـ٧ ص١٤٧ .

٨٣- المقريزى: المقفى جـ١ ص١٦٧ .

٨٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٤٧ .

٨٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٥٧ .

٨٦- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٧٤ .

٨٧- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٥٠ وراجع من ص٤٩ .

٨٨- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٧ .

٨٩- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٧ .

٩٠- المقريزى : المقفى جـ٥ وراجع ص٦١٤ .

٩١- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٨٧ .

٩٢- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٨١ وراجع ص٢٧٩ .

٩٣- المقريزى : المقفى جـ٧ ص١٠٦ وراجع أمثلة أخرى عديدة جـ١ ص١٠٩ و١٥٠ و٢٣٤ و٢٣٨ و٣٤٥ وجـ٢ ص١٠٧-١١٠ وجـ٥ ص٥٢ و٨٢ و٩٨ و١٠٧ و١٣٨ و٢٣٨ و٢٤٥ و٢٥٢ و٢٦٤ وجـ٦ ص٢٦ و٨٨ و٨٩ و٢٦٥ و٤٤١ و٤٤٩ و٤٥٧ وجـ٧ ص١٢٦ .

٩٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٨٤ .

٩٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٣٤ .

٩٦- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٥ وراجع ص٢٤٦ .

٩٧- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٦٦ ، وراجع أمثلة أخرى جـ١ ص٩٤ و١١٨ و١٤٢ وجـ٣ ص٤٢٦ و٥١٥ و٦٤٧ و٦٨٢ و٧٦٠ و٧٩٠ وجـ٤ ص٩٨ وجـ٦ ص٤٩ و٤٤٩ و٤٥٧ وجـ٧ ص٤٠٣ و٤٤٦ .

٩٨- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨٢ وراجع ص٨١ .

٩٩- المقريزى : المقفى جـ١ ص٧١١ وراجع من ص٧٠٦ .

١٠٠- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٧٨ .

١٠١- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٦٧ .

١٠٢- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٢٠ .

١٠٣- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٨١ .

١٠٤- وردت عند ياقوت (معجم البلدان جـ٣ ص٣٠٨) شارمساح، وذكر أنها قرية كبيرة بمصر تشبه المدينة ، وهى (شارمساج) من كورة الدقهلية.

١٠٥- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٦ و٦١٥ و٤٨٨ وجـ٦ ص١٠٨ .

١٠٦- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٩٧ وجـ٦ ص١٠٦ .

١٠٧- راجع المقريزى : المقفى جـ٥ ص٦١٥ .

١٠٨- راجع المقريزى: المقفى جـ٥ ص٢٢٠ . ويذكر هنا أن لابن سيد الناس فتح الدين محمد اليعمرى كتاب «عيون الأثر» و«أجوبة ابن سيد الناس» .

١٠٩- المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٣٢ .

١١٠- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٧٣ .

١١١- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٢١٠ .

١١٢- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٣٥٤ ولمزيد من اطلاع المقريزى على ما كتبه ابن يونس عن تاريخ مصر، ونقله عنه لمعاصرته للأحداث راجع جـ١ ص١٩٢ وجـ٥ ص١٤٩ و١٥٤ و١٦١ و١٧٥ و٢٠٨ و٢٦٠ و٤٩٣ و٦٠٤ و٦٢٤ و٦٣٣ و٧٢٦ وجـ٦ ص١٣ وص٤٥ وص٥٤ و١٠٤ و١٠٠ و٣٥٦ و٣٢٩ و٣٥٧ و٤٤٧ و٤٤٨ و٥٢٨ . وقد قام زميلى الفاضل وصديقى الكريم الدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح بجمع روايات وكتابات ابن يونس من بين بطون الكتب، وأصدر كتابين له كانا فى عداد الكتب الضائعة المفقودة ، وهما كتابا : «تاريخ الغرباء» و«تاريخ المصريين» ونشرا محققين تحقيقا علميا فائقا».

١١٣- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٥٠ وراجع مثالا آخر جـ٥ ص١٤١ .

١١٤- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٠٧ .

١١٥- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٥٠٦ .

١١٦- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٦٠ .

١١٧- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٤٧٢ .

١١٨- المقريزى : المقفى جـ٦ وراجع أمثلة أخرى جـ٥ ص٦٣٥ و٧٢٤ و٧٣٩ .

١١٩- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٧٣ .

١٢٠- ابن الطحان هو أبو القاسم يحيى بن على الحضرمى (ت٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) أحد المحدثين البارزين فى مصر ، والمهتمين بتاريخها ، وله عدة كتب فى تاريخ مصر. راجع (شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون جـ٢ ص٢٠٥-٢٠٦ .

١٢١- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٥٣٨ وراجع ص٥٥٦ وراجع ص١٦٥ وراجع جـ٣ ص٧٥٥ .

١٢٢- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤ وص٤٥ وص٨٠ .

١٢٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٥ .

١٢٤- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤ وراجع حتى ص٤٥ حيث أخبر المقريزى القارىء بمعلومات كثيرة عن طريق الطواشى مقبل الذى تربى فى قصر الملك الناصر محمد بن قلاوون .

١٢٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٦ .

١٢٦- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨٠ وراجع من ص٧٩-٨١ .

١٢٧- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٤٦ وراجع ص٣٤٥ ، وراجع أمثلة أخرى جـ١ ص٢٩٥ و٥٥٧ وجـ٣ ص٧٥٥-٧٥٦ وجـ٤ ص٨٢ وجـ٥ ص١٦ وجـ٧ ص٢١٦ .

١٢٨- راجع المقريزى : المقفى جـ٤ ص٥٧٠ وذكر الأستاذ المحقق أن القوطى هو أبو عبدالله محمد بن سعد ، مؤرخ مصرى عاش زمن العاضد الفاطمى، وألف «تاريخ مصر».

١٢٩- راجع جـ٤ ص٥٧٤-٥٧٥ من المقفى عن ابن سُليم الأسوانى مؤرخ النوبة.

١٣٠- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٤١٨ .

١٣١- ذكر المحقق أنه لايعرف هذا الكتاب ولامؤلفه ، وكذلك من خلال قراءتى المحدودة لا أعرفها ، وقد نقل عنه المقريزى : المقفى جـ٣ ص٦٣٠ .

١٣٢- المقريزى: المقفى جـ٥ ص١٧٥ وراجع ٢٦١ و٢٨٢ و٤٨٨ و٥٣٨ وجـ٦ ص١٨٧ و٢٥٣ .

١٣٣- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٣٦ .

١٣٤- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٥٧ .

١٣٥- راجع على سبيل المثال المقفى جـ٢ ص٥٠ ، وجـ٣ ص٣٤ و٦٢ و٣٢٤ ، وقد ذكر الأستاذ المحقق عن هذه التراجم وغيرها أنه لم يجد ترجمة لهؤلاء فى غير «المقفى» .

١٣٦- راجع المقفى جـ٥ ص٦١٥ وراجع جـ٤ ص٤١٦ ،جـ٥ ص٣٠٤ و٦١٥ و٦٤٣ وجـ٧ ص٢٣٨ .

١٣٧- راجع المقفى جـ٥ ص٥٠٥ وجـ٤ ص٣٩ وجـ٧ ص٩٧ ، وراجع جـ٦ ص٣٥٠ .

١٣٨- راجع المقفى جـ٧ ص٣١١ وراجع جـ١ ص٥٧٤ و٥٨٢ وجـ٢ ص٣٧٥ وجـ٣ ص٤٥٦ .

١٣٩- المقفى جـ٧ ص٣٢٦ .

١٤٠- المقفى جـ٧ ص٤٤٨ وراجع ص٢٧١ وجـ٢ ص١٠٨ و١٠٩ .

١٤١- المقفى جـ٧ ص٤٥٧ .

١٤٢- المقفى جـ٦ ص٣٥٣ .

١٤٣- المقفى جـ١ ص٤٠٩ .

١٤٤- المقفى جـ١ ص٥٣٦ .

١٤٥- المقفى جـ٢ ص٥١١ وراجع جـ٢ ص٤٤ وجـ٣ ص٣٠٩ و٤٤٨ .

١٤٦- المقفى جـ٣ ص٧٢٩ .

١٤٧- المقفى جـ٣ ص٤٥٧ .

١٤٨- المقفى جـ١ ص٢٣ .

١٤٩- المقفى جـ٥ ص٢١٦ وراجع ص٦٦٤ وراجع ص٦٦٤ وراجع جـ١ ص٣٥٧ و٤٧٠ و٤٧٥ وجـ٣ ص٤٢٩ وجـ٥ ص٦٦٤ وجـ٦ ص٣٧٠ و٣٧٩ و٣٨٢ وجـ٧ ص١٢٨ و٢٨٨ وراجع ترجمة المقريزى للعمرى جـ١ ص٧٣٢-٧٣٥ .

١٥٠- المقفى جـ٥ ص٥٩٧ .

١٥١- المقفى جـ٥ ص٤٧٣ وراجع جـ٣ ص٤٧ و٤١٠ و٦٣٠ وجـ٤ ص٥٥٢ وجـ٥ ص٥٩٤ و٥٩٥ .

١٥٢- المقفى جـ١ ص٥٠١ وراجع ص٣٠٠ .

١٥٣- المقفى جـ١ ص٣٩٠ ونفسه جـ٣ ص٤١٢ وجـ٦ ص٦٣ .

١٥٤- المقفى جـ١ ص١٤٥ وراجع عن ابن الجوزى فى «المقفى» جـ٤ ص٩٢ و٩٥ .

١٥٥- المقفى جـ٥ ص٥٠٥ وعن ابن رشيق فى «المقفى» راجع جـ٥ ص١٦٥ .

١٥٦- المقفى جـ٥ ص٤٥٣ .

١٥٧- المقفى جـ٥ ص٢٥٤ .

١٥٨- المقفى جـ٥ ص١٧٧ وعن نقول المقريزى عن ابن زولاق راجع جـ٢ ص٥٩ وجـ٤ ص٤٤٨ وجـ٥ ص١٣٧ و١٣٨ و١٧٧ و١٩٦ و٢٥٨ وجـ٧ ص٦٩ .

١٥٩- المقفى جـ٥ ص٧٠ وعن نقول المقريزى عن الإدفوى راجع جـ٥ ص٦٥ و٧٠ و١٧٣ و٢١٠ و٤٩٠ و٥٥٧ و٦٠٨ وجـ٦ ص٢٥١ و٣٧٢ و٣٨١ ،جـ٧ ص٤٢٥ .

١٦٠- المقفى جـ٥ ص١٨٢ . وعن تقول المقريزى عن ابن الأبار راجع جـ١ ص١٤٩ و٢٧٥ وجـ٥ ص٢٦٧ و١٠٣ و١٨٢ و٢١١ وجـ٦ ص٣٤٩ .

١٦١- المقفى جـ٦ ص١٩ .

١٦٢- المقفى جـ٥ ص٦٧٥ .

١٦٣- المقفى جـ٥ ص٢٩٧ .

١٦٤- المقفى جـ٥ ص٢٨٤ .

١٦٥- المقفى جـ١ ص١٦٩ .

١٦٦- المقفى جـ٥ ص١٩٠ و٥٠١ وعن النقول من الخطيب البغدادى راجع المقفى جـ١ ص٤٠ و١١٣ و١٢٤ و١٦٢ و١٦٧ و١٦٩ و١٧٢ و١٩٥ و٢٢٥ و٢٨٣ و٣١٥ و٣٦٦ و٥٤٨ وجـ٥ ص٦٢ و٦٧ و٨٤ و٨٩ و١١٠ و١٤٤ و١٧١ و١٨١ و١٨٥ و١٨٨ و١٩٠ و١٩٨ و٢٣٥ و٢٣٩ و٢٧٨ و٤٩٢ و٥٠١ و٦٠٠ وجـ٦ ص٧ و٢٨ و٨٣ و١٠٨ و٥٢٩ وجـ٧ ص١٥١ و١٨٥ و٢٧٠ و٣٥٩ .

١٦٧- منها كتاب «أخبار الشعراء» لعبد الرحيم (المقفى جـ٣ ص٤١١) وكتاب «تاريخ جرجان» لحمزة (المقفى جـ٥ ص٥٠١) و«التنوان فى القراءات» للسرقسطى (المقفى جـ٤ ص٣٩٥) وكتاب «ذيل تاريخ دمشق » لابن فرتون الفاسى (المقفى جـ٥ ص٩٨) ومعجم أبى الحسن يحيى القرشى (المقفى جـ٥ ص٥٦٤) . والعبر لابن خلدون (المقفى جـ٤ ص٥٤٧) وتاريخ أبى عبدالملك القرطبى (المقفى جـ٢ ص٤٤١) .

١٦٨- راجع المقفى جـ٤ ص٦٣ .

١٦٩- راجع المقفى جـ٤ ص٩٢ وجـ١ ص١٩ .

١٧٠- راجع المقفى جـ١ ص٤٥ و١١٣ و١٥٢ و٢٠٠ و٣٠٥ و٣٦٢ و٤١٤ و٤١٥ و٤٦٩ و٤٩٤ و٥٦١ و٧٠٨ و٧٤٣ وجـ٢ ص٣٢٥ وجـ٣ ص٦٤ و٤٢٨ جـ٦ ص٣٥٣ و٣٧١ ،ص١٢٧ .

١٧١- راجع المقفى جـ١ ص٢٢٦ و٥١٠ و٦٣٩ وجـ٣ ص٤٢٨ وجـ٥ ص٦٣ و٧٢ و١٢٨ و٧٢١ .

١٧٢- راجع المقفى جـ٣ ص٤٣١ وجـ٥ ص٥٢ وجـ٧ ص١٢٧ .

١٧٣- راجع المقفى جـ٣ ص٤٣٣ وجـ٥ وص٤٧ و٥٤ و٥٥ و٨٥ و٨٨ و٩٧ و١١١ و١١٣ و١٤٩ و١٥٤ و١٥٧ و١٧٤ و١٨٧ و٢٠٣ و٢٠٨ و٢٢٠ و٢٤٤ و٢٦٠ و٢٧٥ و٤٤٩ و٤٨٨ و٤٩٧ و٥٠٧ و٥١١

و٥١٧ و٤٠٦ ٦١٦ و٦٣٣ و٧٢٦ وجـ٦ ص١٣ و٤٥ و٥٤ و٦١ و٧٣ و٤٤٧ وجـ٧ ص٣٥٤ و٣٥٦ و٤٥٤ .

١٧٤- راجع المقفى جـ١ ص٣٦٦ .

١٧٥- راجع المقفى جـ١ ص٢٤٤ و٥٣٥ وجـ٤ ص٤٣٧ وجـ٥ ص١٧٣ و٣٠٨ وجـ٦ ص٣٥٠ وجـ٧ ص١٠٧ .

١٧٦- راجع المقفى جـ١ ص١٦٢ و١٧٢ وجـ٦ ص٥٠٧ .

١٧٧- راجع المقفى جـ١ ص٤٥ .

١٧٨- راجع المقفى جـ١ ص١٦ و٤١١ وجـ٣ ص٧٢٩ وجـ٦ ص٥٦ و٢٢٥ .

١٧٩- راجع المقفى جـ٥ ص١٦٠ و١٨٥ و٢٥٨ وجـ٧ ص٨٢ .

١٨٠- راجع المقفى جـ٥ ص١٦٠ و٢٥١ و٢٣٨ و٣٠٠ و٤٩٨ و٥٠٥ و٥٧٢ وجـ٦ ص٥٠٦ وجـ٧ ص٩٧ و٣٣٩ .

١٨١- راجع المقريزى: المقفى جـ٥ ص٨٩ و٣٠٠ و٤٧٦ و٥٧٨ .

١٨٢- راجع المقريزى : المقفى جـ١ ص٩٩ و١٣٧ و١٤٨ و١٩٠ و٢٥٣ و٢٩٨ و٥٣٣ و٥٣٥ وجـ٥ ص١٩٨ و٢١٣ و٤٤٥ و٦١٠ و٦٢٢ و٧٢٤ و٧٣٩ وجـ٦ ص٨٧ و٣٦٠ و٤٧٢ .

١٨٣- راجع المقفى جـ١ ص٥٦٧ وجـ٢ ص٤٤١ وجـ٥ ص٢٠٧ و٢٧٧ .

١٨٤- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٢ وجـ٧ ص٣٣٩ .

١٨٥- راجع المقفى جـ٣ ص٧١٩ وجـ٥ ص٢٤٠ .

١٨٦- راجع المقفى جـ٥ ص٢٤٨ .

١٨٧- راجع المقفى جـ٥ ص٢٥٨ وجـ٧ ص٣٣١ .

١٨٨- راجع المقفى جـ٥ ص٣٠٤ .

١٨٩- راجع المقفى جـ٥ ص٢٠٧ و٧١٨ وجـ٦ ص٥٣٧ و٥٠٧ .

١٩٠- راجع المقفى جـ٣ ص٧٦٠ وجـ٥ ص٤٨ و٧٨ و١١٢ و١٥٠ و١٧٠ و١٨٨ و٧١٩ وجـ٦ ص٧٠ .

١٩١- راجع المقفى جـ٦ ص٤٤٤ ووصفه المقريزى بمؤرخ الأندلس وراجع جـ٣ ص٤٢٩ .

١٩٢- راجع المقفى جـ١ ص٥٧٣ و٦١٧ وجـ٦ ص٦٣ و١٥٠ و٣٥٠ وجـ٧ ص٢٠٥ و٣٢٩ .

١٩٣- راجع المقفى جـ٢ ص٦٠ و٤٤٢ وجـ٧ ص٢٧٦ .

١٩٤- راجع المقفى جـ٢ ص٩٠ .

١٩٥- راجع المقريزى : المقفى حـ٢ ص٣٧٢ و٥١١ وجـ٣ ص٤٤٨ و٥١٧ .

١٩٦- راجع المقفى جـ٣ ص٦٧٠ .

١٩٧- راجع المقفى جـ٧ ص٤٤٨ .

١٩٨- راجع المقفى جـ٧ ص٥٢٤ .

١٩٩- راجع المقفى جـ٦ ص٣٥٠ .

٢٠٠- راجع المقفى جـ١ ص٣٧٧ .

٢٠١- راجع المقفى جـ١ ص٣٦٧ و٣٦٨ وجـ٣ ص٥٣١ .

٢٠٢- راجع المقفى جـ٢ ص٥٦ .

٢٠٣- راجع المقفى جـ١ ص٢٦ .

٢٠٤- راجع المقفى جـ١ ص٥٥٣ وجـ٥ ص١٧٢ .

٢٠٥- راجع المقفى جـ٦ ص٤٤٣ .

٢٠٦- راجع المقفى جـ٢ ص٨٤ .

٢٠٧- راجع المقفى جـ٣ ص٧٣٧ .

٢٠٨- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٣ ص٢٠٩-٢١٣ .

٢٠٩- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٤ ص٣٨٣-٣٨٨ .

٢١٠- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢١-٢٢ .

٢١١- الخطيب البغدادى : جـ٣ ص٢١٧-٢١٨ .

٢١٢- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٥ ص٥٤٧-٥٤٨ .

٢١٣- راجع المقريزى : المقفى جـ٧ ص٢٩-٣٠ .

٢١٤- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٨٥ .

٢١٥- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٣ ص٢٢٣-٢٢٤ .

٢١٦- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٢٤٠ وراجع حتى ص٢٤٣ .

٢١٧- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٥ ص٤٦٢-٤٦٣ .

٢١٨- الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٣٣٢-٣٣٤ .

٢١٩- المقريزى : المقفى جـ٦ ص١٠٧-١٠٨ .

٢٢٠- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣١٢ .

٢٢١- ابن الجزرى : غاية النهاية جـ٢ ص٢٠٥ .

٢٢٢- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٥٣-٢٥٥ .

٢٢٣- الصفدى : الوافى جـ٦ ص٩٠-٩١ .

٢٢٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٠٦ .

٢٢٥- الصفدى : الوافى جـ٦ ص٥٧-٥٨ .

٢٢٦- ابن حجر : الدرر جـ١ ص٤٩-٥٠ .

٢٢٧- المقريزى : جـ٣ ص٧٥-٧٧ .

٢٢٨- الصفدى : الوافى جـ١١ ص١٩٩-٢٠١ .

٢٢٩- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٣٣-٥٣٦ .

٢٣٠- الصفدى : الوافى جـ٧ ص٢٢٠-٢٢٥ .

٢٣١- راجع على سبيل المثال مقارنا بين : جـ١ ص٢٠٨-٢٠٩ المقفى وجـ٦ ص٧٩-٧٠ الوافى، جـ١ ص٢٣٢ المقفى مع الوافى جـ٦ ص٣٣-٣٤ ، وجـ١ ص٢٣٨ المقفى مع جـ١ ص٣٦-٣٧ الوافى، وجـ١ ص٢٥٦-٢٥٨ المقفى جـ٦ ص٩٢ الوافى، وجـ١ ص٢٥٩ المقفى مع الوافى جـ٦ ص٩٥-٩٦ ، والمقفى ص٧٣٤-٧٣٥ مع الوافى جـ١٣ ص٢٦١ ، والمقفى جـ٣ ص٧٣٦ مع الوافى جـ١٣ ص٢٧٤ ، وجـ٥ المقفى ص٢٠٤-٢٠٥ مع الوافى جـ٢ ص١٥٠-١٥١ ، والمقفى جـ٣ ص٩٦ مع الوافى جـ١١ ص٩٩-١٠٠ ، وراجع المقفى جـ٦ ص٣١٢ مع غاية النهاية لابن الجزرى جـ٢ ص٢٠٥ ، والمقفى جـ٦

ص٢١١ مع غاية النهاية جـ٢ ص١٩٦ ، والمقفى جـ٦ ص٢٧-٢٨ مع غاية النهاية جـ٢ ص٣١٥-٣١٦ وقد جمعت أمثلة عديدة، واكتفيت هنا ببعضها للتدليل على الفكرة التى ذهبت إليها .

٢٣٢- راجع على سبيل المثال المقفى جـ٣ ص٧٥-٧٧ مقارنا بالوافى جـ١١ ص١٩٩-٢٠١ ، والمقفى جـ٦ ص٤٢٥-٤٢٧ مقارنا بالخطيب البغدادى ج٣ ص٢٦-٣١ .

٢٣٣- راجع على سبيل المثال المقفى جـ٦ ص٣٤٨ مقارنا بتاريخ بغداد جـ٣ ص٤٠٣-٤٠٤ والمقفى جـ٧ ص٢٨ مقارنا بتاريخ بغداد جـ٣ ص٢١٤، والمقفى جـ٧ ص٩٤ والمقفى جـ٧ ص٢٩-٣٠ مقارنا بتاريخ بغداد جـ٣ ص٢١٧-٢١٨ .

٢٣٤- راجع المقفى جـ٦ ص٢٢٤-٢٢٥ .

٢٣٥- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٥-٢٩٧ .

٢٣٦- راجع المقفى جـ١ ص٤٠٩ وجـ٥ ص٢٩٥-٢٩٧ .

٢٣٧- راجع المقفى جـ٢ ص٥٥ .

٢٣٨- راجع المقفى جـ١ ص١٤٥ و١٧٤ و٥٥٢ وجـ٥ ص٨٩ و٥٥٨ و٥٦٨ وجـ٦ ص٢٢ -٢٣ .

٢٣٩- راجع المقفى جـ٦ ص٢٢٤-٢٢٥ .

٢٤٠- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٥-٢٩٧ .

٢٤١- راجع المقفى جـ٣ ص١٢٨ وجـ٥ ص٢٢٠ وجـ٦ ص١٣ و١٠٤ و٢١٠ وجـ٧ ص٣٥٤ و٣٥٧ .

٢٤٢- راجع المقفى جـ٦ ص٧ و١٣ و٢٨ و٨٣ و١٠٩ و٥٢٩ وجـ٧ ص٣٥٩ .

٢٤٣- راجع المقفى جـ٤ ص٣٩٤ .

٢٤٤- راجع أمثلة أخرى جـ١ ص٣٩٨-٤٠٣ وجـ٣ ص١٢٧ و٦٣٢-٦٣٤ وجـ٤ ص٤٨-٥١ و١١٤-١١٧ وجـ٥ ص١٥٩-١٦٠ .

٢٤٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص٤٨٩-٤٩٠ .

٢٤٦- الإدفوى : الطالع السعيد ص٩٢ .

٢٤٧- المقريزى : المقفى جـ١ ص٥٤٣-٥٤٤ .

٢٤٨- الإدفوى : الطالع السعيد ص١٠٢-١٠٣ .

٢٤٩- المقريزى : المقفى ج١ ص٣٢٧-٣٢٨ .

٢٥٠- الإدفوى : الطالع السعيد ص٦٩-٧١ .

٢٥١- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٤٩ .

٢٥٢- الصفدى : الوافى جـ١ ص٧٨ .

٢٥٣- راجع أيضا المقفى جـ٣ ص٧٥-٧٧ مقارنا مع الوافى ص١٩٩-٢٠١ .

٢٥٤- راجع المقفى جـ١ ص٢٤٤ و٥٣٥ وجـ٣ ص٥١٨ وجـ٤ ص٤٣٧ وجـ٥ ص١٧٣ و٣٠٨ وجـ٦ ص٣٥٠ وجـ٧ ص١٠٧ .

٢٥٥- راجع المقفى جـ١ ص٢٢٦ و٥١٠ و٦٣٩ وجـ٣ ص٤٢٩ وجـ٥ ص٦٣ و٧٢ وجـ٧ ص١٢٨ . وراجع ترجمة الصفدى جـ٣ ص٧٦٧-٧٦٨ .

٢٥٦- د. بشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الإسلام ص٤٢٢ .

٢٥٧- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته . بحث بمجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر ، العدد الثانى، يوليو وأغسطس وسبتمبر ١٩٨٣ م ص١٧٢-١٧٤ وراجع من ص١٦٥-٢٠١ .

٢٥٨- د. سهيل زكار : هامش ص١٧ من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم .

٢٥٩- راجع المقفى جـ٥ ص٢٩٢ وجـ٧ ص٣٣٩ .

٢٦٠- المقفى جـ١ ص٣٩٨-٤٠٣ .

٢٦١- بغية الطلب لابن العديم جـ٢ ص٧٨٢-٧٨٦ .

٢٦٢- المقفى جـ١ ص٧٢٦-٧٢٧ .

٢٦٣- ابن العديم : بغية الطلب جـ٣ ص١١٨٣ .

٢٦٤- المقريزى: المقفى جـ٢ ص٤٠-٨٩ .

٢٦٥- ابن العديم : بغية الطلب جـ٣ ص١٣٥٨-١٣٧٠ .

٢٦٦- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٥٦ .

٢٦٧- ابن العديم : جـ٣ .

٢٦٨- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٧١-٧٢ .

٢٦٩- ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص١٦١٢-١٦١٣ .

٢٧٠- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٢١٣-٢١٤ .

٢٧١- ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص١٩٢٦ .

٢٧٢- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٢٥٩-٢٦٠ .

٢٧٣- ابن العديم : بغية الطلب جـ٥ ص٢٢٢٣-٢٢٢٥ .

٢٧٤- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٦٥٨-٦٥٩ .

٢٧٥- ابن العديم : المقفى جـ٦ ص٢٩١٦-٢٩٢٠ .

٢٧٦- الصفدى : الوافى جـ١٣ ص١٥٤ .

٢٧٧- المقريزى: المقفى جـ٣ ص٧٠٤-٧٠٨ .

٢٧٨- ابن العديم : بغية الطلب جـ٦ ص٢٩٨٨ .

٢٧٩- راجع أيضا المقفى جـ٣ ص٧٧٤-٧٨٣ مع بغية الطلب جـ٧ ص٣١٨٤ - ٣١٩٧ ، والمقفى جـ٣ ص٨١١-٨٣٣ مع المقفى جـ٧ ص٣٣٨٢-٣٣٨٦ بغية الطلب، والمقفى جـ٣ ص٦٥٥-٦٥٨ مع بغية الطلب جـ٦ ص٢٨٥١-٢٨٥٦ ، والمقفى جـ٣ ص٤٤٧-٤٤٩ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٣٠٢-٢٣٠٣، والمقفى جـ٣ ص٢٧٦-٢٧٩ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٢٣٥-٢٢٣٦ ، والمقفى جـ٣ ص١٥٥-٢٥٨ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٠٣٧-٢١٠٤ ، والمقفى ج٢ ص٨٨-٨٩ مع بغية الطلب جـ٤ ص١٦٣١-١٦٣٤ ، والمقفى جـ١ ص٥١٤-٥١٥ مع بغية الطلب جـ٢ ص٩١٣-٩١٧ ، والمقفى جـ١ ص٤١٧-٧٥٢ مع بغية الطلب جـ٢ ص٨٢٦-٨٣٥ ، والمقفى جـ٣ ص٧٦٣-٧٦٦ مع بغية الطلب جـ٧ ص٣٣٥٧-٣٣٥٩ ، والمقفى جـ٣ ص٥٦٧-٦١٨ مع بغية الطلب جـ٦ ص٢٥٦٢-٢٦٧١ .

٢٨٠- راجع المقفى جـ١ ص٤٠٤ -٤١٢ مع بغية الطلب جـ٢ ص٧٩٢-٨٠١ والمقفى جـ١ ص٣٥٩ مع بغية الطلب جـ١ ص٦٢٢-٦٢٥ ، والمقفى جـ١ ص٣٦٦-٣٨٣ مع ابن العديم : بغية الطلب جـ٢ ص٦٣٩-٦٨٦، والمقفى ج١ ص٤٠٤-٤١٢ مع بغية الطلب جـ٢ ص٧٩٢-٨٠١ ، والمقفى جـ١ ص٦٩١ مع بغية الطلب جـ٣ ص١١٥١-١١٥٣، والمقفى جـ١ ص٧٣١ مع بغية الطلب جـ٣ ص١١٩٥-١١٩٨، والمقفى جـ١ ص٧٤٥-٧٤٩ مع بغية الطلب جـ٣ ص١٢٧٠-١٢٧٩ ، والمقفى جـ٣ ص٣١٨-٣٢٣ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٣٦٤-٢٣٧٣ ، والمقفى جـ١ ص٦٩٢ مع بغية الطلب ج٣ ص١١٦٨-١١٧١ .

٢٨١- راجع المقفى جـ١ ص٣٨٣ مع بغية الطلب جـ٢ ص٦٩١-٦٩٢، والمقفى جـ٣ ص٣١٨-٣٢٣ مع بغية الطلب جـ٥ ص٢٣٦٤-٢٣٧٣ .

٢٨٢- راجع المقفى جـ١ ص٣٨٥-٣٨٦ مع ابن العديم جـ٢ ص٧٤٣-٧٤٦ ، والمقفى جـ١ ص٦٩٢-٦٩٣ مع ابن العديم: بغية الطلب جـ٣ ص١١٥٤-١١٦٤، والمقفى جـ٢ ص١١٠-١١١ مع بغية الطلب جـ٤ ص١٨٠٤-١٨٠٨ ، والمقفى جـ٣ ص٦٣١-٦٣٢ مع ابن العديم جـ٦ ص٢٧٣٠-٢٧٣٣ ، والمقفى جـ٢ ص١١٨-١١٩ مع بغية الطلب جـ٤ ص١٦٦٧-١٦٧٠، والمقفى جـ٣ ص٦٨٦ مع بغية الطلب جـ٧ ص٣٢٤١-٣٢٤٣ .

٢٨٣- راجع المقريزى : المقفى جـ٢ ص٤١٨ وجـ٦ ص٦٤ .

٢٨٤- كالحافظ السلفى (جـ١ ص٧٠٦-٧١١) وغيره من الحفاظ والفقهاء. راجع المقفى جـ٢ ص١١٣-١١٥ و٢١٢-٢١٣ و١٢٧ و١٤١ وجـ٤ ص٥٩٢-٥٩٤ .

٢٨٥- مثل عبيد الله المهدى (المقفى جـ٤ ص٥٢٣-٥٧٠) وابن العربى (المقفى جـ٦ ص٣٤٨-٣٥٥) .

٢٨٦- راجع الأمثلة الدالة على ذلك : المقفى جـ١ ص١١٣ وجـ٤ ص٣٩٣-٣٩٦ وراجع جـ٣ ص٤٢٧-٤٢٩ وجـ٥ ص٢٢٠ .

٢٨٧- راجع الخطط للمقريزى جـ١ ص٤٨ و٤٩ جـ٢ ص٩٢ ، واتعاظ الحنفا للمقريزى جـ١ ص١٦ و٢٢ وفيها يقول أحيانا : «قال مؤلفه» وأحيانا «قلت» عندما يريد المقريزى إبداء رأيه ناقداً أو معلقا .

٢٨٨- راجع المقفى جـ٣ ص٤٣٠ وجـ٤ ص٤٠٣ و٥٤٠ و٥٤١ و٥٤٧ وجـ٦ ص٣٥٢ .

٢٨٩- راجع المقفى جـ٥ ص٤٤ .

٢٩٠- المقريزى: المقفى جـ٤ ص٥٤٠ .

٢٩١- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٥٤٧ .

٢٩٢- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٦ وراجع من ص٢٤٥ .

٢٩٣- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٦٦٨ .

٢٩٤- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٥٣ وراجع من ص٧٥٠-٧٥٦ .

٢٩٥- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٤٧ .

٢٩٦- المقريزى : المقفى جـ٤ ص١٠٦ وراجع من ص١٠٢ .

٢٩٧- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٩٥ وراجع من ص٩١-٩٦ وكان عبد الرحمن بن عمر قد توفى فى حد شرب الخمر.

٢٩٨- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٢٨٧ -٣٠٣ .

٢٩٩- المقريزى : المقفى جـ٢ ص٣٠٩ وراجع من ص٣٠٦ .

٣٠٠- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٦٧-٧٦٨ .

٣٠١- المقريزى : المقفى جـ٢ ص١٠٢ .

٣٠٢- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٢١-٢٢٥ .

٣٠٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٢٢١-٢٢٥ .

٣٠٤- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٥ و١٦ .

٣٠٥- المقريزى : المقفى جـ١ ص١٣ وراجع حتى ص١٥ .

٣٠٦- المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٣-٢٤ . وهناك تدخلات عديدة للمقريزى خاصة بقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام ، راجعها جـ١ ص٢٧ و٢٨ .

٣٠٧- المقريزى : المقفى جـ١ ص٣٦٨ .

٣٠٨- راجع أيضـــــا جـ١ ص٥٥٧ وجـ٢ ص٤١٨ و٤٦٣ وجـ٣ ص٦٤ و٤٣٠ و٦٤٧ و٧٢٠ وجـ٦، ص٤٥٥ .

٣٠٩- منها على سبيل المثال حديثه عن منية مطر وقوله : «التى تعرف اليوم بالمطرية خارج القاهرة » المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٦٤ .

٣١٠- تقتضى الأمانة العلمية أن أشير - هنا - إلى أن الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قد وصف المقريزى بهذه الصفة فى بحثه «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته » ص١٧٨ . وأنا أطبق هذه الفكرة على كتابه «المقفى» وأنقل منه ما يؤيدها، وما أكثر الإشارات التى تدلل عليها بالمقفى .

٣١١- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٨١ .

٣١٢- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٥ .

٣١٣- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٤ و٤٥ و٤٦ و٨٠ و١٨١ .

٣١٤- المقريزى : المقفى جـ٣ ص٧٥٣ .

٣١٥- راجع المقريزى : المقفى جـ٤ ص٥٤٧ وجـ٥ ص٤٤-٥٥ .

٣١٦- راجع المقفى جـ١ ص٤٥ و٢٩٩ و٣٦٣ و٥٥٦-٥٥٧ و٥٣٠ و٥٤٨ و٦٢٢ وجـ٤ ص٩٨ و١٣٥ وجـ٥ ص١١ وجـ٧ ص٧-٨ وص٤٣ و٤٥ و٩٥ و٢١٥-٢١٦ و٤٣٧ .

٣١٧- المقريزى : المقفى جـ٥ ص١٦ و١٨٠ .

٣١٨- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٨٣ .

٣١٩- المقريزى : المقفى جـ٦ ص٣٤٦ .

٣٢٠- المقريزى : المقفى جـ٧ ص٤٥ .

٣٢١- المقريزى : المقفى جـ٥ ص٤٣٨ .

٣٢٢- المقريزى : المقفى جـ٤ ص٨ وص٣٨ . ويذكر هنا أن الدكتور الخربوطلى ذهب إلى أن المقريزى لم يكن ينمق كتبه بالأساليب البيانية والفنون الأدبية ، لأنه ليس بحاجة إلى ذلك، بسبب الحقائق التاريخية التى يوردها فى كتبه د. الخربوطلى : المقريزى فى كتابه النزاع والتخاصم ص٢٥ .

٣٢٣- راجع الصفدى جـ١ ص١٧٧ و١٧٨ و١٨٦ و١٩٨ وجـ٥ ص١٩ وجـ١٣ ص٧ و١٥ و٢٦ و٢٧ و٤٩٠ .

٣٢٤- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص٤٥ و٤٦ و٦١ و٦٦ و٧٦ و٩٠ و٩٦ و١١٢ و١٢١ و١٢٦ وجـ٢ ص٦٥ و٨٩ و٢٤٠ و٣٨١ . وحوادث الدهور ص٣٩ .

٣٢٥- السخاوى: الذيل على رفع الإصر ص٥٩ و٩١ و٩٣ و٩٤ و١٢٩ و٣٢٢ و٤٥٠ .

٣٢٦- الصفدى : الوافى بالوفيات جـ١ ص٦ .

٣٢٧- الصفدى : الوافى جـ١ ص٩٩ و١٠٠ و١٢٦ و١٣٢ و١٥٦ و٢٠٩ و٢١٢ و٢١٤ وجـ١٣ ص٢٢ و٣٢ و٤٥ و٦٣ و١٨٥ و٣٦٨ وجـ٥ ص٥ وص٢٧ وص٤٠ و٤٥ .

٣٢٨- ابن تغرى بردى : المنهل جـ١ ص٤٥ و٤٧ و١١٩ و١٧٠ و٢٢١ و٢٣٤ و٢٣٨ وجـ٢ ص٦٣ .

٣٢٩- السخاوى: الذيل على رفع الإصر ص٨٩ و١٠٥ و١٢٧ ولم يضبط الأعلام ولم يوضح الأنساب فى مواضع عديدة من كتابه راجع ص٢٨ و٢٩ و٦٦ و٧٦ و٧٩ و٨٠ و١٠١ و١٥٧ و٤٦٥ .

٣٣٠- راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ص٤٣٤ وراجع جـ٢ ص٥٠ .

٣٣١- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص٤٦ و٥٨ ،٧٥-٧٦ و١٢٢ و١٣٠ وفيها نقل عن السلوك. وراجع أيضا : المنهل الصافى جـ١ ص١٣٠ ،٢٤٢-٢٤٣ وجـ٢ ص٣٧٩ وفيها نقل عن المقفى، وراجع جـ٢ ص٥١ وجـ٢ ص١٠٦ وص٤٣١ وفيها نقل عن «درر العقود» . ولم يكن ابن تغرى بردى يشير إلى الكتاب الذى نقل عنه- وأشار إلى ذلك نادراً - ولكنى قمت بمطابقة ما نقله ابن تغرى بردى مع ما كتبه المقريزى فى كتبه وحددت الكتاب المنقول عنه .

٣٣٢- راجع السخاوى : الذيل على رفع الإصر ص١٨ و١٠٨ و١١٩ و٢٢٤-٢٢٥ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

الإدفوى : (كمال جعفر ت ٧٤٨هـ) .

الطالع السعيد بأسماء نجباء الصعيد . تحقيق سعد محمد حسن الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ابن تغرى بردى : (يوسف ت٨٧٤هـ)

حوادث الدهور تحقيق فهيم شلتوت . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المنهل الصافى تحقيق محمد محمد أمين وآخرين . الهيئة المصرية للكتاب .

ابن الجزرى : (محمد بن محمد ت٨٣٣هـ) .

غاية النهاية فى طبقات القراء . تحقيق ج برجستراسر . مكتبة المتنبى.

ابن حبيب : (عمر بن الحسن ت٧٧٩هـ) .

تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . نحقيق د. محمد محمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ابن حجر : (أحمد بن على ت ٨٥٢هـ) .

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة.

الخطيب البغدادى : (أحمد بن على ت٤٦٣هـ) .

تاريخ بغداد : دار الكتب العلمية -لبنان - بيروت .

الذهبى : (شمس الدين أبوعبدالله ت٧٤٨هـ) .

العبر تحقيق د. صلاح الدين المنجد . الكويت .

سير أعلام النبلاء إشراف د. شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة .

السخاوى : (محمد بن عبد الرحمن ت٩٠٣هـ)

الذيل على رفع الإصر. تحقيق د. جودة هلال ومحمد صبيح . الهيئة المصرية للكتاب.

التبر المسبوك . مكتبة الكليات الأزهرية.

الصفدى : (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ)

الوافى بالوفيات تحقيق مجموعة من المستشرقين .

ابن الصريفى : (على بن داود ت. ٩٠٠هـ)

نزهة النفوس والأبدان . تحقيق أ.د. حسن حبشى . مطبعة دار الكتب.

ابن العديم : (كمال الدين عمر ت. ٦٦٠هـ)

بغية الطلب فى تاريخ حلب . تحقيق د. سهيل زكار . دمشق.

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) .

المقفى . تحقيق أ. محمد اليعلاوى . دار الغرب بيروت – لبنان.

السلوك . تحقيق د. محمد زيادة ود. سعيد عاشور . دار الكتب المصرية.

الخطط. طبعة بولاق،

ياقوت الحموى : (ت٦٢٦هـ)

معجم البلدان . دار صار – بيروت .

ثانيًا : المراجع والدوريات :

د. بشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه (تاريخ الإسلام) طبعة عيسى البابى الحلبى.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته . بحث بمجلة (عالم الفكر) المجلد الرابع عشر، العدد الثانى ١٩٨٣ م. الكويت .

د. شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون . دار العلم للملايين.

د. على حسنى الخربوطلى : المقريزى فى كتابه النزاع والتخاصم . دار العلوم للطباعة ١٩٧٢م.

محمد عبد الغنى حسن : التراجم والسير . دار المعارف – مصر .

د. جمال فوزى محمد(*)

أوضاع السودان الغربى
فى عهد منسا موسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م)

أولا : النطاق الجغرافى للسودان الغربى :

تشمل بلاد السودان المنطقة الفسيحة الممتدة من المحيط الأطلسى غربًا حتى البحر الأحمر شرقًا ، ومن الصحراء الكبرى شمالاً حتى المنطقة الاستوائية جنوبًا[1] . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

١ - السودان الغربى : ويشمل أحواض نهر السنغال ونهر غمبيا ونهر النيجر .

٢ - السودان الأوسط : ويشمل حوض بحيرة تشاد .

٣ - السودان الشرقى : ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل [2].

وكلمة « السودان » عربية قصد بها أصحاب البشرة السوداء بصفة عامة وهم القاطنون فى ذلك الحزام السودانى الممتد فى قلب القارة الأفريقية من الشرق إلى الغرب . ولكن هذه الكلمة تكاد تنصرف إلى سكان الجزء الغربى منه ، لأن العرب نعتوا أصحاب البشرة السوداء فى غير هذا الجزء بأوصاف أخرى .

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

ويمكن أن يحدد هذا الجزء - السودان الغربى ، محل الدراسة - بالمحيط الأطلنطى (بحر الظلمات) (أو البحر المحيط) من الغرب وبحيرة تشاد من الشرق ، والصحراء الكبرى من الشمال وخليج غانا من الجنوب [٣].

وقد عُرفت هذه المنطقة لدى العرب والمشارقة باسم بلاد التكرور - وهى جزء منها وليست كلها [٤]، وهو اسم لم يشع بين أهل المنطقة أنفسهم [٥].

والسودان الغربى منطقة واسعة حبيسة بين عائقين تضاريسيين هائلين ، فالصحراء الكبرى تضغط عليها من الشمال والغابات الاستوائية فى الجنوب وهى تكاد تخلو من العوائق الطبيعية ، ويسودها مجرى نهر النيجر الكبير ونهر السنغال [٦].

وقد قامت فى هذه المنطقة عدة دول إسلامية ذات أهمية ، من أعظمها دولة مالى (٥٩٦ - ٨٧٤ هـ / ١٢٠٠ - ١٤٦٩م) التى كادت حدودها تتطابق مع حدود السودان الغربى سالفة الذكر [٧]، خاصة فى عهد « منساموسى (٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) » [٨].

ثانيًا : نسب منساموسى [٩]:

هو موسى بن أبى بكر ، على الأرجح [١٠]، وقيل : موسى بن فاجالى Faga-lay بن أبى بكر [١١]، وقد عرف السلطان موسى باسم : منساكنكن موسى Mansa Kankanmusa أو كونكور موسى Kounkour أو جونجو Gongo أو كونجو Kongo أو كانجو Kango ، وكلها نسبة إلى أم السلطان موسى واسمها « نانا كانجو Nan Kango » ، إذ النسبة للأم أمر مشهور لدى الأسر المالكة فى غربى أفريقية فى ذلك الحين ، وعند أهل مالى عرف هذا السلطان باسم : كى مل أى حاكم مالى [١٢].

ويعد منساموسى من أعظم سلاطين دولة مالى ، حكم مدة خمسة وعشرين عامًا كانت بمثابة العصر الذهبى للدولة [١٣]، وتروى فى كيفية انتقال الملك إليه قصة تفوح منها رائحة الخيال ، إذ سئل هذا السلطان عن ذلك ، فأجاب بأن الذى كان قبله فى الملك كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئات السفن بالرجال والمؤن الكافية ، وأمر فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهاية البحر أو تنفذ أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم ، فأجاب بأنهم ساروا بالسفن لمدة طويلة ثم عرضت لهم أمواج عاتية حطمت سفنهم ، فلم يصدقه الملك ، وجهز ألفى سفينة ، ألف للرجال وألف

للأزواد واستخلف السلطان موسى فى الحكم ومضى هو بنفسه ليعلم حقيقة الأمر ، فكان ذلك آخر العهد به وبمنم معه (١٤).

وقد جانب أحد الباحثين الصواب حين اعتبر منساموسى هو نفسه الذى أرسل السفن فى البحر ، إذ يقول : « إن آمال منساموسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكأن هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر ، ولما لم يعودوا جهز حملة أخرى فكان نصيبها الإخفاق » (١٥).

وينتمى السلطان موسى إلى إحدى الأسر التى حكمت فى دولة مالى وتدعى أسرة « كيتا Keita » . التى تدعى الانتساب إلى شخص هاجر من مكة المكرمة يرجع بنسبه إلى بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ، والمعروف لدى المؤرخين أن عادة إرجاع الأسر نسبها لأحد الصحابة أو أهل البيت عادة معروفة فى غربى أفريقيا (١٦).

وتنتمى هذه الأسرة بدورها إلى فرع من الشعوب الزنجية هو قبائل الماندنجو Mandingo التى تعنى : الشعب الذى يتحدث لغة الماندى Mande وهى قبائل سادت لبضعة قرون فى المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى ، فى وديان نهر السنغال ، واسم «مالى» تحريف لاسم هذه القبائل التى عرفت بأسماء متعددة لدى القبائل والأجناس الأخرى ، فهى مالى Mali أو ميلى Mele عند قبائل الفولانى الزنجية ، ومل Mel أو مليت Melit عند البربر ، ومَليل Malel أو مليل Melel عند العرب ، وونجاره Wangara عند قبائل الهوسا فى منطقة شمال نيجيريا (١٧).

ثالثًا : الأوضاع السياسية والعسكرية فى عهد منساموسى وجهوده فى نشر الإسلام:

بلغت دولة مالى فى عهد السلطان موسى ذروة مجدها واتساعها ، فقد امتدت من بلاد التكرور على شاطىء المحيط الأطلسى غربًا إلى تَكِده شرقى النيجر . ومن تغازة فى الصحراء شمالاً إلى منطقة الغابات الاستوائية جنوبًا .

وقد قدرت مساحة الدولة زمن هذا السلطان بمساحة كل دول غربى أوربا مجتمعة ، واعتبرت من أعظم الإمبراطوريات فى القرن الرابع عشر الميلادى ، واشتملت على خمسة

أقاليم كبيرة ، كل منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالاً ذاتيًا ، ولكنها تخضع لسلطان مالي، وهى :

١ - إقليم مالى ويتوسط أقاليم المملكة .

٢ - صوصو ، ويقع إلى الجنوب من مالى .

٣ - غانة ، ويقع شمالى مالى ، ويمتد إلى المحيط الأطلسى .

٤ - كَوْكَوْ ، شرق إقليم مالى.

٥- تكرور ، غرب مالى حول نهر السنغال(١٨) .

وقد أخضع السلطان موسى فى توسعاته إمارة صننغى الناشئة(١٩) ووطد سلطان مالى بها، وكانت على ما يبدو كثيرة الخروج عليه ، فبعد عودة السلطان من رحلة الحج الشهيرة التى قام بها سنة ٧٢٤ - ١٣٢٤م ، نجح قائده « سقمنجة » Sagaman (٢٠)فى الاستيلاء على عاصمتها جاو Gao(٢١) سنة ١٣٢٥ م ، وقد عرج عليها السلطان حيث مكث بعض الوقت وبنى مسجداً كبيراً(٢٢) .

وتوالت فتوحات السلطان وتوسعه حتى ليقال إنه فتح أربعًا وعشرين مدينة من مدن بلاد السودان ومنها المدينة الشهيرة فى تاريخ التجارة والثقافة فى السودان الغربى وهى مدينة «تمبكتو » Timbuktu (٢٣)، وبنى بها داراً للسلطنة ، وحين غادر المدينة هاجمتها قبائل الموسى Mossi الوثنية(٢٤) سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ونهبتها وخربتها ، ثم جلوا عنها فعادت لسلطان مالى (٢٥).

حاول السلطان موسى نشر الإسلام فى ركاب فتوحه خاصة فى المناطق التى كانت ماتزال على وثنيتها ، ومنها منطقة إنتاج الذهب فى ونقارة فى الجنوب على أطراف الغابات الاستوائية . وقد تكررت بخصوص هذه المنطقة لدى كثير من المؤرخين ، ودون تعليق تقريبًا ، رواية مفادها أن السلطان فضل السيطرة غير المباشرة على مناطق إنتاج الذهب نظراً لانتشار دعاية تقول بأن أى غاز كان يحاول إخضاع هذه المناطق مباشرة كان إنتاجها من الذهب يقل بشكل ملحوظ (٢٦).

بينما علق عليها باحث بقوله : " على الرغم مما فى هذا الخبر من طرافة وخرافة ، إلا أنه يدل على أن الوثنيين هناك استطاعوا إيهام ملوك مالى المسلمين بتلك الخرافة حتى يتركوهم

على ديانتـهم الوثنيـة "(٢٧) . وحاول باحث آخر تعقل هذه الرواية وتقديمها فى صياغة مقبولة فقال : " وفيما يتصل بالذهب ، حاول ملوك مالى أن يحولوا أهل ونقارة من الوثنية إلى الإسلام، ولكن هؤلاء هددوا بالكف عن استخراج الذهب من مناجمه إن أرغمتهم الدولة على اعتناق الإسلام ، فكف ملوك مالى عن هذه الحالة وتركوهم للزمن وللمؤثرات البطيئة، مما جعل أهل ونقارة يتأخرون فى اعتناق الإسلام " (٢٨).

كان السلطان موسى صالحًا فاضلاً كريمًا ، ومن عادته أنه كان يبنى مسجداً فى كل مدينة تدركه صلاة الجمعة فيها (٢٩)، وقد أنعم على أحد الأشخاص – كان جدٌ للسلطان قد أسلم على يدى جده – بثلاثة آلاف مثقال (٣٠). وكان أحد رعيته ويعرف باسم « ابن شيخ اللبن » قد أحسن إليه فى صغره بسبعة مثاقيل ، ثم اتفق أن جاء إليه فى خصومه بعد أن آل إليه الملك فعرفه السلطان وقربه وأنعم عليه إنعامًا كبيراً (٣١).

وقد عزز السلطان موسى صلاحه وانفعاله بالإسلام وتحمسه له بقيامه بأداء فريضة الحج سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤م فى رحلة شهيرة مر فيها بمصر ، وقابل السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه رفض أن يقبل الأرض بين يديه ، كما هى العادة أنفة من السجود لغير الله ، فأعفاه السلطان المملوكى من هذا التقليد (٣٢). ومن رجحان عقله أنه ثارت فى الحرم فتنة بين عسكره وبين الترك شهرت فيها السيوف فأشار عليهم بالرجوع عن القتال وسكنهم (٣٣).

ونظراً لفخامة موكب حجه وكثرة صدقاته من الذهب ورحلته المثيرة الى شهدها التجار البنادقة المقيمون بمدينة القاهرة فقد وصلت أخبار هذا الموكب إلى أوربا التى بدأت التعرف على قلب أفريقيا وافتتحت المدارس لهذا الغرض وظهرت صورة منساموسى والطرق المؤدية إلى مالى على الخرائط الأوربية آنذاك . وذلك تمهيداً لحركة الكشف والاستعمار الأوربى (٣٤).

وحرص السلطان على تبادل علاقة ودية طيبة مع البلدان الإسلامية فى الحجاز ومصر والمغرب وغيرها ، وقد خصص سلاطين المماليك بمصر قسمًا خاصًا بديوان الإنشاء لتبادل الرسائل مع سلاطين مالى ، كما خصصوا مترجمًا سودانيًا من التكارورة لمرافقة سلاطين مالى خلال إقامتهم بمصر عند نزولهم بها (٣٥). وتوطدت بين مالى والمغرب والأندلس العلاقات وشجع عليها اشتراك الجانبين فى المذهب المالكى وتبودلت السفارات (٣٦).

ويبدو أنه نظراً لحماس منساموسى للإسلام فقد تعرض للنقد اللاذع ، وبخاصة رحلته للحج التى أنفق فيها كثيراً من الأموال ، من جانب بعض الباحثين الأفارقة الذين ذهبوا إلى أن تصرفه لم يكن سوى تبذير لم تجن البلاد من ورائه غير الفقر الذى مازالت تعانى من آثاره إلى اليوم (٣٧).

وحول جهود منساموسى فى نشر الإسلام ، وجهود غيره من السلاطين المسلمين ، والتجار والعلماء والمستوطنين المسلمين ، وطبيعة هذا الانتشار فى هذه المنطقة ثار كلام كثير بين الباحثين المعاصرين والمستشرقين بصفة خاصة ، وبداية فإن ندرة المعلومات والسجلات المكتوبة خاصة عن الفترات المبكرة تصعب من تحقيق كثير من المسائل بوضوح وحسم (٣٨).

وقد قالوا بأن الدول والأسر الحاكمة فى هذه المنطقة تبنت الإسلام فى ذلك الوقت كديانة إمبراطورية استعمارية تدعو للسيطرة والغزو وتعين على ذلك بإنجذاب الناس إليها (٣٩). وأن الإسلام فى أفريقيا جنوب الصحراء ظل منطقة هامشية فى علاقتها بالعالم الإسلامى الواسع ، وأن حضارة الإسلام فى أفريقيا بقيت فى شكل بدائى (٤٠)، وأن اتساع وهيمنة مالى التى أمدنا الكُتاب العرب بكم مموه من المعلومات عنها لم يتزامن معها انتشار مهم للإسلام (٤١)، وأن سمة هذه الفترة كانت تبنى الإسلام كديانة طبقية لدى الحكام والتجار والدعاة على حين لم يكن توغله بين جماعات غفيرة وبتمكن ممتداً وعميقًا ، واتسمت الحياة الدينية بأشكال من التكيف بواسطة ثنائية أو متوازية من القديم والحديث ، الإسلامى والأفريقى الوثنى (٤٢).

ويمكن أن يرد على ذلك بأن الإسلام قد انتشر بشكل متواز بين الطبقات الحاكمة وطبقات العامة . مثال ذلك دولة غانا الوثنية التى كان الإسلام قد انتشر بين كثير من رعاياها حتى دانت به عشائر مجتمعة قبل أن تتحول الدولة رسميًا للإسلام ، ومنها قبائل السوننكى So-ninke التى تحمست لنشر الإسلام حتى إن كلمة « سوننك » كانت تستعمل لدى بعض العشائر الوثنية فى غربى أفريقيا مرادفًا لكلمة « الداعى » مما يؤكد دورهم الكبير فى نشر الإسلام (٤٣).

وقد ظل السودان الغربى منطقة هامشية نسبيًا بالنسبة للعالم الإسلامى بسبب بعده عن قلب العالم الإسلامى وحواضره الكبرى ، والفاصل الطبيعى الهائل المتمثل فى الصحراء الكبرى المعيقة للاتصال بشكل كبير ، والفاصل اللغوى فلم يكن انتشار العربية فى المنطقة ساحقًا كما فى مصر وشمال أفريقيا مثلاً بحيث يضمن لها السيادة الدائمة وذلك لضآلة

الهجرات العربية لهذه المنطقة مقارنة بها فى الشمال الأفريقى أو شرقى أفريقية على سبيل المثال .

ورغم ذلك فلم يكن السودان الغربى منعزلاً تمامًا عن بقية العالم الإسلامى إذا قامت بينهما علاقات فى مجالات متعددة . سبق ذكر بعضها وسيرد غيرها فى هذا البحث ، وسيرد أيضًا عند الحديث عن الأوضاع فى بقية المجالات الحضارية ما يثبت لهذه المنطقة مستوى من التحضر يرتفع كثيراً عن البدائية التى زعمها بعض المستشرقين ، وإن كنت أميل شخصيًا إلى أنها كانت أقل تحضراً نسبيًا من كثير من مناطق العالم الإسلامى وشاهد ذلك إسهامها المتواضع نسبيًا فى سجل التراث الحضارى الإسلامى فى مقابل إسهامات بقية المناطق والأقاليم الإسلامية .

ولعل السر فى هذا التدنى النسبى فى مستواها الحضارى هو العوامل السالفة المذكورة تواً . وأميل أيضًا إلى القول بأن إسلام السودان الغربى فى تلك الفترة كان مختلطًا أحيانًا ببعض العادات والتقاليد الأفريقية الوثنية ، فقد وا مم الأفريقى بين دينه الوافد وتراثه التالد (٤٤) ، وسترد شواهد مؤكدة لهذه الثنائية عند الحديث عن الحياة الاجتماعية .

رابعًا : نظم الحكم والإدارة :

حكم السلطان موسى إمبراطوريته الواسعة من العاصمة نيانى Niani التى وصفت بأنها مدينة تجارية كبيرة مزدحمة السكان ، تقع قريبًا من منطقة الغابات فى الجنوب على أحد روافد النيجر (٤٥).

وقد اتخذت إمبراطوريته نموذجًا للنظم السياسية الإسلامية فى غرب أفريقيا . فأساس الكيان السياسى أسرة ووحدات قروية ، ورأس الأسرة هو الشيخ أو المرشد الروحى أو الزعيم ، ومجموعة القرى بدورها تشكل ما يسمى كافو Kafu أو مقاطعة (٤٦).

وكان لمجلس السلطان هيئة وطقوس معينة رواها القلقشندى بالتفصيل (٤٧). وكان إذا أنعم على أحد فى مجلسه بإنعام أو وعده وعداً جميلاً أو شكره على فعل ، تمرغ المنعم عليه بين يديه فى الأرض من أول المكان إلى آخره ، فإذا انتهى إلى الآخر أخذ غلمانه أو أصحابه من رماد يكون موضوعًا فى آخر المجلس معداً لهذا الغرض ، فيذرونه على رأسه ثم يعود ويتمرغ إلى أن يصل إلى يدى الملك (٤٨).

وكان نظام الحكم في دولة مالي ملكيًا وراثيًا ، ينتقل من الأب للابن أو الأخ ، والقاعدة أن يتولى من هو أكبر سنًا من الأبناء أو الإخوة . وقد يتولى الحكم أبناء الإخوة أو أبناء البنت، وقد انتشرت هذه العادة أي تولى ابن البنت في منطقة غربي أفريقيا وعلى أساسها ولي أبو بكر والد منساموسى الحكم سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م (٤٩).

ويلي السلطان في الحكم نائبه ويلقب « قَنْجا » يقوم مقامه إذا غاب ، وقد أناب منساموسى ابنه محمداً(٥٠) أثناء غيابه في رحلة الحج . ويساعد السلطان ونائبه في الحكم الوزير ويسمى « صندكي » Sundaki (٥١).

وشاركت زوجة السلطان في الحكم وتلقبت باسم « قاسا » Qasa ومعناها : الملكة أو الزوجة الكبرى ، وكان يذكر اسمها على المنبر إلى جانب اسم الملك (٥٢).

وبلغ قوام الجيش حوالي مائة ألف نفر ، منهم حوالي عشرة آلاف فارس ، والباقي رجالة . وأقطع أمراء الجيش إقطاعات واسعة بلغت أحيانًا خمسين ألف مثقال من الذهب للواحد في السنة . والجيش موزع على الأقاليم المختلفة ، لكل حاكم إقليم فرقة يقودها بنفسه (٥٣).

وكان للقضاة منزلة كبيرة ولهم حق مصافحة الإمبراطور (٥٤)، وقد أنعم السلطان موسى على أحد قضاته ، يكنى بأبي العباس ، بأربعة آلاف مثقال لنفقته . وحين وصلوا لأحد المواضع شكا القاضي للسلطان سرقة المبلغ من داره . فاستحضر السلطان أمير تلك المنطقة وتوعده وهدده إن لم يحضر السارق ، وطلب الأمير السارق فلم يعثر على أحد ، فدخل دار القاضي واشتد على خدمه وهددهم ، فقالت له إحدى جواريه : ما ضاع له شيء ، وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع ، وأشارت له إلى الموضع فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان وعرفه القصة ، فغضب السلطان على القاضي ونفاه مدة أربع سنين ثم رده (٥٥).

خامسًا : الأوضاع الاجتماعية :

تمايز مجتمع السودان الغربي إبان تلك الفترة إلى طبقتين : طبقة ارستقراطية يمثلها الحكام والأمراء والحاشية ، وتمتعت بالسلطة والثروة واحتكرت التجارة عماد اقتصاديات البلاد في ذلك الوقت ، واعتمدت على نبل الأصل أو الشجاعة الحربية أو العمل في الحاشية . وطبقة العامة وشملت بقية الشعب وكانت - كالعادة - أقل حظًا في كل شيء (٥٦). وعلى تخوم الطبقة الأرستقراطية تقع جماعات التجار والعلماء والكتاب .

وقد سبقت الإشارة لما تمتعت به المرأة فى الطبقة العليا من منزلة كبيرة وأنها شاركت فى الحكم ودعى لها بجانب السلاطين . وورث أبناؤها الحكم ، ونسب إليها السلاطين ، ومنهم سلطاننا هذا . كما سلف الذكر .

ونظراً لدخول الإسلام إلى منطقة غربى أفريقية عن طريق شمالها فى الغالب ، وللعلاقات الوثيقة بين المنطقتين ، فقد سادها المذهب المالكى [٥٧]. ووجد فى الأطراف الشمالية على مشارف الصحراء بعض الخوارج الإباضية [٥٨]. ومن نافلة القول أن المجتمع السودانى ضم فى تلك الفترة إلى جانب المسلمين أعداداً كبيرة من الأفارقة كانت ماتزال مستمسكة بوثنيتها .

ومن ملامح اختلاط إسلام تلك المنطقة ببعض عادات أهلها الجاهلية أنه كان من عادة أهل مملكة السلطان إذا نشأ لأحدهم بنت حسناء ، قدمها له أمة موطوءة . فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين . وقد أخبر منساموسى ، أثناء مروره بمصر فى حجته المشهورة ، بأن هذا لا يحل لمسلم شرعًا . فتساءل : ولا للملوك ؟ ! فقيل له : ولا للملوك . فأجاب بأنه ما كان يعلم ، وقد ترك هذه العادة من فوره [٥٩].

ولعل هذه الرواية تشى بمدى الوعى بتعاليم الإسلام حتى بين المسلمين أنفسهم فى تلك المنطقة فى ذلك العهد ، إذ كيف تغيب مثل هذه التعاليم الواضحة المشهورة فى الدين عن فهم هذا السلطان المسلم ورجاله . ويبدو أن الأمور كانت ماتزال فى بكارتها إلى حد كبير . واتصالاً بهذا فقد وجدت كثير من الخرافات وممارسة السحر والشعوذة فى تلك العهود [٦٠].

سادسًا : الأوضاع الاقتصادية :

بلغت مملكة مالى شأواً عظيمًا من الثراء على عهد منساموسى لتعدد موارد دخل الدولة وغناها . ودلل على ذلك فخامة موكب حجه الذى بهر كل ما مر به من بلاد . بل وصل صيته إلى أوربا ، فقد بلغت حاشيته وأتباعه عدة آلاف ، وضمت القافلة مائة جمل يحمل كل منها أثقالاً من أرطال الذهب والهدايا النفيسة ، وقدم حين وصوله لمصر حملاً من التبر للخزانة السلطانية ، ولم يترك أحداً من الأمراء والحاشية إلا وبعث له بالذهب ، حتى قيل إنه ثمنه انخفض بمصر بسبب ذلك . وتصدق فى الحجاز بمبالغ طائلة . وفى طريق عوده أهدى للسلطان المملوكى بمصر ، حتى إن كثرة نفقاته أحوجته للاقتراض من أحد تجار مصر ويدعى « سراج الدين ابن الكويك » حيث وفى له به بعد عودته إلى بلاده [٦١].

وقد تنوعت موارد دخل المملكة على النحو التالى :

- **التجارة** : فقد جاءت معظم أرباح الإمبراطورية وأموالها الطائلة من طريق تحكمها فى طرق القوافل التجارية نتيجة ترامى أطرافها ، وقد انتظمت حركة القوافل بينها وبين كثير من البلاد كالمغرب وبرقة ومصر ، وساعد على ذلك استتباب الأمن وسلامة الطرق فى ذلك العهد(٦٢)، واشتهرت على طرق القوافل عدة مدن تجارية غنية مثل : ولاته وتمبكتو وجاو وجنى وتكدا ونيانى العاصمة(٦٣) .... إلخ . وقيل عن إحداها وهى « تكدا » الواقعة بالصحراء إنه كان يمر بها كل عام قوافل تفوق اثنى عشر ألف جمل قادمة من نيانى قاصدة القاهرة ، ولا شغل لأهلها غير التجارة (٦٤).

وحملت هذه القوافل إلى هذه البلاد الملح وحلى الزجاج والسلع العطرية والثياب وتعود بالذهب والنحاس والرقيق وبعض المحاصيل .

وكان للملح أهمية خاصة لدى أهل السودان الغربى حيث يستعمل فى تجفيف الطعام والحفاظ عليه من الحرارة الشديدة ، لدرجة أنهم كانوا يستبدلونه بالذهب . وقد سيطرت مالى فى عهد موسى على مناجم الملح فى تعزة بالشمال الصحراوى (٦٥).

- **الزراعة** : كانت أرض السودان الغربى فى معظمها خصبة زراعية كثيفة السكان(٦٦) وكان بالعاصمة نيانى كثير من المجارى المائية تروى الأرض الزراعية المحيطة بها . وعرفت البلاد نظام المزارع الجماعية التى يعمل بها عبيد الدولة (٦٧). وزرع الأرز والفونى وهو كحب الخردل ... إلخ (٦٨).

- **الموارد الطبيعية** : سيطرت الدولة على مناجم الذهب فى الجنوب وعلى مناجم النحاس فى تكدا بالشمال وأمدت بهما البلدان المجاورة . وبلغت كثرة الذهب بأرض المملكة أنه كانت تحفر الحفائر فيوجد منها كالحجارة والحصى . كما كانوا يحفرون للبحث عن النحاس فى تكدا ويسكبونه نحاسًا أحمر ويصنعونه قضبانًا رقاق وغلاظ تباع بالذهب والسلع وهى عملتهم(٦٩).

- **الجزية والإتاوات** : حصلتها الدولة على قوافل التجارة وعلى بعض مناجم الذهب ، إذ يبدو أن سيطرة الدولة على بعضها لم تكن كاملة حيث اكتفت بأخذ الإتاوة من القائمين عليها(٧٠).

وتقاضت الدولة إتاوة من إمارة صنغى حين أخضعتها وإمارة جنى التى حمتها شبكة من المجارى المائية من الخضوع التام رغم قربها من العاصمة ، ومن بعض قبائل صنهاجة الملثمين جنوب الصحراء الكبرى (٧١).

سابعًا : الأوضاع الثقافية :

شجعت على رواج العلم والثقافة بالسودان الغربى فى ذلك العهد عدة عوامل منها : توافر الثروة والرخاء الاقتصادى الذى مكن من إنشاء المساجد والمدارس والكتاتيب وشراء الكتب وإنشاء المكتبات وجذب العلماء والإنفاق على المتعلمين .

فقد بنى فى عهد منساموسى مسجد عظيم فى جاو وآخر مثله فى تمبكتو تفوقًا على كثير من المساجد كمركزين للثقافة الإسلامية ، بالإضافة إلى مسجد سنكرى بتمبكتو وكان من أشهر المراكز الثقافية بها وفيه تخرج العلماء فى مختلف فنون المعرفة الإسلامية (٧٢).

وبعد عودته من الحج أنشأ فى عاصمته مدرسة كبيرة لتحفيظ القرآن ، وكان التعليم إجباريًا بها (٧٣). كما اشترى فى طريق عودته من رحلة الحج من مصر بعض كتب الفقه المالكى (٧٤). واستقدم العلماء معه ومنهم الشيخ عبد الرحمن التميمى الفقيه الذى صحبه من أرض الحجاز وسكن تمبكتو وكانت وقتها حافلة بالفقهاء والعلماء فلما رأى تفوقهم عليهم ، رحل إلى فاس للتزود بالعلم ثم عاد واستوطن هناك (٧٥). وكذلك استقدم من المغرب الفقيه عبد الله البلبالى الذى تولى إمامة الجامع الكبير فى تمبكتو (٧٦).

ولم يكتف السلطان موسى باستقبال العلماء بل أرسل طلاب العلم من بلاده للدراسة فى معاهد العلم بمصر والحجاز والمغرب والأندلس ، وفى الأزهر خصص لهم رواق لإقامتهم عرف برواق التكاررة ووجدوا من سلاطين وأمراء المماليك العون والترحيب وأجروا عليهم الأرزاق وقد بنى منسا موسى نفسه داراً لهم ينزلون بها بالقاهرة (٧٧).

وممن نبغ من بعثات منساموسى كاتبه المشهور بكاتب موسى الذى أرسله ليتابع حلقات العلم فى فاس ثم رجع بعد تمكنه من العلم وتولى إمامة الجامع الكبير بتمبكتو مدة أربعين سنة(٧٨). وكان السلطان موسى نفسه صالحًا متدينًا عارفا بمذهب الإمام مالك - رضى الله عنه - مجيداً للعربية (٧٩).

واشتهرت فى عهده مدن مثل تمبكتو وجنى وجاتو كمراكز إشعاع ثقافى وحضارى إلى جانب أهميتها الاقتصادية [٨٠]. وكانت الدراسة فى معاهد هذه المراكز الثقافية على مستويين : المدارس القرآنية وتركز على قراءة القرآن وحفظه ، والمدارس التى تدرس العلوم الإسلامية المتنوعة كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه واللغة ، وغيرها كالمنطق والفلك والجغرافيا [٨١].

واصطحب السلطان فى عودته أيضًا المهندس المعمارى الأندلسى الأصل ، والذى كان يقيم بمكة ، أبو إسحق الساحلى ، وقد أسهم الساحلى فى تطوير فن البناء والعمارة فى مالى وبنى عدة مساجد وقصور على الطراز العربى فى غربى أفريقيا . وقد أعجب به السلطان وأغدق عليه ، ونال هو وأسرته منزلة كبيرة فى غربى أفريقية ، وظل قبره مشهوراً بتمبكتو ، وقد زاره ابن بطوطة [٨٢].

الهوامش :

١ - القلقشندى : صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٥م الجزء الخامس ص ٢٧٣ ، السيد أحمد السيد الباز : الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى فى عهد دولتى مالى وصنغى رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٤م ، ص ١٦ .

٢ - السيد الباز : المرجع نفسه والصفحة ؛ J. Spencer Trimingham : A history of Islam in West Africa, oxford University press, London, 1975 . 34 .

٣ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٢ ؛ إبراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م ص ٤ ، ٥ ؛ حسن جلال الدين محمد : مملكة مالى الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨م ، ص أ من المقدمة .

٤ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٢ ؛ Trimingham : A history Islam in West Africa, p. 41 , 42 .

٥ - محمد بلوبن عثمان بن فودى : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مطبعة الشعب ، ص ٢٧ .

٦ - د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٦١م ، ص ٢٢٨ .

٧ - د. حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى من منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدولة العربية سنة ١٩٥٧م ص ٥٩ ، محمد عبد الله النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجريين رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ٧٩ / ١٩٨٠م ، ص ٣ .

٨ - هذا على أرجح الأقوال فى تحديد فترة حكمه ، وفيها خلاف . انظر : د. طرخان : دولة مالى الإسلامية ص ٧٤ ، السيد الباز : الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى ص ٢٣ ، فاى منصور على : دولة مالى الإسلامية فى عصرها الذهبى على عهد السلطان منساموسى (٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٩٣ - ٩٥ . (وهذه الرسالة لا تتناول عهد منساموسى فقط - والذى يمثل مبحثًا من فصل فيها - وإنما هى استعراض لتاريخ الدولة كلها ، وقد لا أبالغ إذا قلت إنها عبارة عن تاريخ

إجمالى للسودان الغربى فى العصر الإسلامى ، ومن المستغرب أن الباحث قد أضاف لقائمة مراجع الرسالة - التى تبلغ ٧٥ مصدراً ومرجعًا عربيًا - قائمة حوت أسماء عشرة مراجع فرنسية لم يرجع لواحد منها فى أى هامش من هوامش رسالته) .

٩ - « منسا » معناه عندهم : ملك أو سلطان . د. طرخان : دولة مالى ص ٣٣ .

١٠ - ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٠ هـ ، السفر الرابع ص ٣٨٣ .

History of West Africa, edited by : J.F.A. Ajayi and Michael Crowder, Longman, second edition, 1976, Vol one, p. 126 .

١١ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٤٥ .

١٢ - د. طرخان : دولة مالى ص ٧٣ .

History of West Africa, Vol one, p. 126 .

١٣ - The Cambridge history of Africa, Volume 3, edited by : Roland oliver, London, frist publised 1977, p. 380 , 381 .

١٤ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، د. طرخان : دولة مالى ٧٤ .

١٥ - د. حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦م ، ص ٢٢٢ . والغريب أنه يستند فى هذا فى المتن إلى رواية القلقشندى السابقة والتى خصت السلطان السابق لمنسا موسى بهذا الأمر وليس موسى نفسه ، ولكنه فى الهامش يوثق الكلام بإسناده إلى كتاب J/D/Fage وعنوانه :

An introduction to the history of West Africa, Cambridge 1955, p. 26 .

وقد راجعت هذا الكتاب فى طبعته التى رجع إليها د. حسن فلم أجد فى الصفحة نفسها ولا فى موضوع السياق فى هذا الموضوع أية إشارة لقصة السفن هذه ومن أرسلها .

ويشارك د. حسن محمود فى إسناد قصة إرسال السفن إلى منساموسى بدلاً من سابقة - وهو صحيح ما ذكرته رواية القلقشندى المشار إليها فى الهامش السابق - يشاركه فى هذا باحث آخر هو د. أحمد شلبى حيث يقول «ويضيف القلقشندى قصة تدل على أن أطماع منساموسى كانت واسعة، فإنه لم يقنع بسيطرته على البر ، بل أراد أن يسيطر على المحيط ، وأن يكتشف ما خلفه من أرض، فأرسل مجموعة من السفن شحنها بالزاد والرجال ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل » موسوعة

التاريخ الإسلامى الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن . مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٩٨م ، ص ٢٤٥ .

١٦ - د. طرخان : الدولة مالى ، ص ٧١ ، حسن جلال الدين : مملكة مالى ١٢ ،

Cambridge histroy of Africa, Vol 3 , p. 377, Fage : An introduction to the history of West Africa, p. 24, I ra.M. Lapidus : A history of Islamic societies, cambridge, frist published, 1988, p. 493 .

١٧ - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ترجمة إلى العربية عن الفرنسية د. عبد الرحمن حميدة ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، الموسوعة الأفريقية المجلد الثانى (تاريخ أفريقيا) ١٩٩٧م ص ١٧٤ .

Fage :An introduction to the history of West Africa, p. 24. F.N, Lapidus; A history of Islamic societies, p. 491, 493 .

١٨ - د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٥ ، ٢٤٦ ؛ د. حسن إبراهيم : انتشار الإسلام ، ص ٥٩ - ٦٣ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ج من المقدمة ، ٤٥ - ٤٦ ، ٥٩ - ٦٠ ؛ فاى منصور : دولة مالى ١١٣ - ١١٤ ؛ الموسوعة الأفريقية المجلد الثانى ١٧٤ ، ١٧٧ .

Trimingham : A History of islam in West Africa, p. 69 .

١٩ - وهى التى ستصبح فيما بعد سلطنة صنغى الإسلامية (٧٧٧ - ١٠٠٠هـ / ١٣٧٥ - ١٥٩١م) وترث إمبراطورية مالى . انظر الموسوعة الأفريقية ص ١٨٢ ، وما بعدها من المجلد الثانى .

٢٠ - أو « ساجمان دير » .Sagman Dir

٢١ - تقع على نهر النيجر ، وقد وردت فى الكتابات العربية بأسماء مختلفة منها : كاخ ، كوغا ، كاغو، كوكو ، كركر ؛ د. طرخان : دولة مالى ، ص ٩٢ ، هامش ٢ .

٢٢ - د. طرخان : دولة مالى ، ص ٧٥ ؛

History of West Africa, Vol .I, p. 126 .

٢٣ - أسسها البربر خلال القرن الحادى عشر الميلادى على مسافة اثنى عشر ميلاً من فرع النيجر ، وكانت منطقة معسكرات لهم فى البداية . وقيل أسسها ملك يدعى منسا سليمان سنة ٦٠٠ هـ . انظر: الوزان : وصف أفريقيا ص ٥٣٩ وهامشها ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٣ الهامش . ولعل هذا الملك قد زاد فيها وجملها ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ غربى أفريقيا كمركز حضارى معروف فى ذلك الوقت : انظر موقعها على الخريطة الملحقة بالبحث .

٢٤ – قبائل زراعية فى إقليم ياتنجا Yatenga فى منطقة فولتا العليا ، ويكونون حاليًا أغلب سكان هذه الجمهورية (فولتا العليا أو بوركينا فاسو الآن) . د. طرخان : دولة مالى ٧٦ ، النقيزة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ١٤٤ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 71 .

٢٥ – د. طرخان : دولة مالى ٧٥ ، ٧٦ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ٤٦ ؛

Trimingham : A history of Islam, p. 68 . History of West Africa, Vol, 1, p. 126 .

٢٦ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٧ .

Trimingham : A history of Islam, p. 70 ; Cambridge history of Africa, Vol, 3, p. 381 .

٢٧ – النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ١٣٧ .

٢٨ – د. شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٨ .

٢٩ – السعدى : تاريخ السودان طبعة هوداس سنة ١٨٩٨م ، ص ٧ .

٣٠ – ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار (الرحلة) دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢م ، ص ٦٩٧ ، حيث ذكر أن جد السلطان أسلم على يد الشخص المنعم عليه نفسه واسمه «مدرك بن فقوص » وليس على يد جده ، ولكن الأقرب للصواب ما ذكره فى المتن ، انظر Trimingham : A history of Islam, p. 66 .

٣١ – ابن بطوطة : الرحلة ٦٩٧ ، ٦٩٨ .

٣٢ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٩٥ ، ٢٩٦ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه تحقيق د. محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢م ؛ السعدى : تاريخ السودان ٧ ، ٨ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى : ٤٧ ، ٤٨ ؛ . Trimingham : A history of Islam, pp. 32 , 33

وقيل إنهم حين طلبوا منه السجود فى حضرة السلطان قال : أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ، ثم سجد . القلشقندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ .

٣٣ – السيد الباز : الحياة العلمية ١٧٥ ، ١٧٦ .

٣٤ – د. طرخان : دولة مالى ٨٣ ، ٨٧ ، ٩١ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 67, 68; Hisatory of West Africa, Vol 1, p. 127 .

٣٥ – النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢١٤ .

٣٦ – Trimingham : A history of Islam, p. 70, Cambridge history of Africa, Vol3, p. 381, History of West Africa, Vol 1, p. 127 .

٣٧ – فاى منصور : دولة مالى ص ١١٦ – ١١٨ ، حيث أورد هذا الباحث هذه المزاعم وناقشها ومال إلى أنها وجهة نظر واردة من الغرب وقال بأنها جزء من المخطط الاستعمارى الهادف إلى محاولة زلزلة إيمان الأفريقى بنفسه وتاريخه القومى والإسلامى بالذات ، وذلك عن طريق إقناعه بالعجز الذاتى المفتعل وصولاً إلى غرس الشعور بالنقص فيه ، فهذه محاولة لطمس أعمال ومعالم هذا السلطان التى حاول بها رفعة بلاده وتوحيدها وأقام علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وفتح بلاده أمام اللاجئين المسلمين من الأندلس وعلمائهم الفارين من وجه حركة الاضطهاد المسيحى الصليبى ، حتى قيل إن فقد إسبانيا كان كسبًا لأفريقيا المسلمة ، وأنا أزيد على هذا الكلام القيم بالتساؤل فى غرابة عما إذا كان حقًا أن أثار رحلة الحج هذه – على بعد زمان حدوثها – هى التى أفقرت ومازالت تتسبب فى إفقار البلاد أم أنه الاستعمار الأوروبى الحديث الى استعبد أبناءها ونهب خيراتها وربط مصائرها به وحاول القضاء على هوياتها ومزق وحدتها واصطنع لها الحدود والموانع الى أثارت ومازالت تثير كثيراً من المآسى والحروب والمنازعات .

٣٨ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن وآخرين مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠م ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ؛ Ninian Smart : The World's religions, old Traditions and modern transformations, Cambridge University press, 1992, p. 297 .

٣٩ – Trimingham : A history of Islam, p. 34, the expansion of Islam, published in , Islam in Africa, edited by : James Kritzeck and William H. lewis, New York 1969, p. 24 .

٤٠ – Trimingham : The influence of Islam upon Africa , London, frist published 1969, p. 1 .

٤١ – Trimingham : The influence of Islam, p. 14 .

٤٢ – Trimingham : The influence of Islam . p. 34 ; Lapidus : A history of Islamic Societies, p. 494 .

٤٣ – فاى منصور : دولة مالى ١٩ ، ٢٠ . وقد ساعد على ذلك أن حملة الإسلام لهذه المنطقة كانوا فى الغالب رسل حضارة على شكل جماعات من التجار والعلماء ، فعلى عكس مناطق أخرى فى الشرق والهند مثلاً مهد فيها الفتح العسكرى لانتشار الإسلام فإن الذى مهد للإسلام فى غربى أفريقيا فى الغالب هم الجماعات السابقة . انظر : د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٤٧ ؛ Lapidus : A history of Islamic Socieities, p. 489 ولكن انتشار الإسلام فى هذه المنطقة لم يكن ساحقًا منذ زمن مبكر بصورة تجيز قول أحد الباحثين بأن معظم سكان السودان الغربى وأغلب ملوكهم قد اعتنق الإسلام قبل فتح المرابطين لمملكة غانة الوثنية سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦م .

(انظر : محمد النقيرة : الزثير الإسلامى فى السودان الغربى ص ٣٥) .

وهذا الباحث نفسه يعود فيذكر أن مملكة غانة بعد تحولها للإسلام لم تأل جهداً فى نشر الإسلام بين جيرانها الوثنيين (السابق ص ٤٩) بل يذكر عن منسا موسى أنه فتح الكثير من البلاد الوثنية المجاورة ، ويروى أنه فتح بسيفه أربعًا وعشرين مدينة من مدن السودان (نفسه ص ٥٠) ، وذلك بعد فتح المرابطين لغانة بحوالى قرنين ونصف من الزمان ، فلا مجال إذن للقول بالانتشار الساحق للإسلام فى ذلك الزمن المبكر ، وهذا ما يؤكده رأى أحد المستشرقين حين يقول معلقًا على ضآلة معلوماتنا عن تفاصيل انتشار الإسلام فى تلك المنطقة إبان ذلك العهد : " ولكن حقيقة واحدة تبرز لنا من هذا السجل التاريخى الهزيل ، تلك هى البطء الشديد فى تحول الناس هناك إلى الإسلام ، وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الأوثان يعيشون فى الأقاليم التى مرت عليها قرون وهى تحت الحكم الإسلامى ، ليدلنا فما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصوراً فى المدن طويلاً ، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجيًا . والواقع أن النفوذ الإسلامى لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التى جعلت جماعة البمبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم ، مع أنهم – وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى – كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين » . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٥٨ .

٤٤ – د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ص ١٥ .

٤٥ – انظر موقعها على الخريطة ، انظر كذلك : حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٤٥ ، ٤٦ ؛ الموسوعة الأفريقية ، ٢ : ١٧٦ .

٤٦ – Lapidus : A History of Islamic sosieties, p. 493 .

٤٧ – صبح الأعشى : ٣٠٠ – ٣٠١ .

٤٨ – صبح الأعشى ٣٠١ . ولعل هذا يؤيد ما ملتُ إليه من قبل مع بعض الباحثين من القول بأن إسلام السودان الغربى اختلط أحيانًا ببعض العادات والتقاليد القديمة .

٤٩ – القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٤ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٦٧ ؛ History of West Africa, Vol 1 , p. 126 .

٥٠ – هو الذى خلف أباه ُى الحكم باسم منسامغا Magha ، مما حرم سليمان أخا موسى من حقه كأكبر ذكر فى الأسرة الحاكمة . انظر : Cambridge history of Africa, vol 3 , p. 381

٥١ – حسن جلال الدين : مملكة مالى ٧٢ .

٥٢ – ابن بطوطة : الرحلة ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٧١ ، ٧٢ .

٥٣ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٩ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٧٦ .

٥٤ - فاى منصور : دولة مالى ، ص ١٣٠ .

٥٥ - ابن بطوطة : الرحلة ٦٩٩ ، ٧٠٠ .

٥٦ - جلال الدين : مملكة مالى ، ص ١٠٥ .

٥٧ - د. طرخان : دولة مالى ، ٣ ٥٣ ، ٥٤ .

٥٨ - ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٨٩ .

٥٩ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٦ ، Trimingham : A history of Islam. p. 71

٦٠ - Trimingham : A history of Islam, p. 71

٦١ - انظر وصف هذا الموكب الهائل وتلك النفقات الباهظة : القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٤٢ ، ١٤٣ ؛ السعدى : تاريخ السودان ٧ ، ٨ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 68 , Cultural Atlas of Africa, edited by : Jocelyn murray, New York 1989, p. 49 - 51 .

٦٢ - د. شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ؛ د. طرخان : دولة مالى ١٣٥ .

٦٣ - انظر مواقعها على الخريطة .

٦٤ - ابن بطوطة ٧٦٠٤ ؛ د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدولة الإسلامية ، ص ١١٢ .

٦٥ - ابن بطوطة ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٩ ، ٧٠٤ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٩ ، ٨٠، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية ، ص ١١٢ .

٦٦ - د. طرخان : دولة مالى ١٣٥ .

٦٧ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٩ .

٦٨ - ابن بطوطة : ٦٨٩ .

٦٩ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٩ ؛ ابن بطوطة : ٧٠٥ . وقد استعمل أهل السودان الغربى الذهب والنحاس والملح وأعراض السلع كعملات يتبادلون بها فى متاجراتهم ، انظر بالإضافة إلى ما سبق : فاى منصور : دولة مالى ١٥١ ، ١٥٢ .

٧٠ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ولعل هذا ما دعا أحد الباحثين الغربيين إلى القول بأن الدولة لم تستطع على عهد منساموسى إدارة مناجم الذهب . وايدنر : تاريخ أفريقيا

جنوب الصحراء الجزء الأول ترجمة : على أحمد فخرى ، د. شوقى الجمل مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٧٦م ، ص٣٣ .

٧١ – د. طرخان : دولة مالى ٧٥ ، ٧٦ ؛ Cambridge history of Africa, vol 3 , p. 381

٧٢ – السعدى : تاريخ السودان ٥٦ ؛ السيد الباز : الحياة العلمية ٢٧ ، ٥١ .

٧٣ – السيد الباز : الحياة العلمية ، ص ٦٢ .

٧٤ – د. طرخان : دولة مالى ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

٧٥ – السيد الباز : الحياة العلمية ، ص ٦٨ .

٧٦ – النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ٢٣٥ .

٧٧ – السيد الباز : الحياة العلمية ١٦٤ ، ١٦٥ ؛ النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢٣٦ .

٧٨ – السعدى : تاريخ السودان ٥٧ ؛ النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢٣٦ .

٧٩ – ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٤٣ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ .

٨٠ – حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ج من المقدمة ؛ فاى منصور : دولة مالى، ص ١١٤ ؛ From mande to songhay, towards a political and ethnic history of medieval Gao, published in : the jaurnal of african history, Vol 35 , 1994 , Number 2 .

٨١ – السيد الباز : الحياة العلمية ٦٤ .

٨٢ – ابن بطوطة ٧٠١ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٥٥ – ٥٨ ؛ Trimingham : A history of Islam, p. 68, 69 .

المراجع

أولاً : المراجع العربية والمعربة :

* أرنولد : سير توماس :

- الدعوة إلى الإسلام : ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .

* الباز : السيد أحمد السيد :

- الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى فى عهد دولتى مالى وصنغى - رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

* ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، ت ٧٧٩هـ :

- الرحلة المسماة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار شرحه وكتب هوامشه طلال حرب - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٩٢م .

* ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩ هـ :

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق : د.محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

* حسن : د. حسن إبراهيم :

- انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية ١٩٥٧م .

* زكى : د. عبد الرحمن :

- تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٦١م .

* السعدى : الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر ، ت بعد عام ١٦٥٥م:

- تاريخ السودان طبعة هوداس مطبعة بردين ١٨٩٨م .

* شلبى : د. أحمد :

- موسوعة التاريخ الإسلامى الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخولها الإسلام حتى الآن . مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٩٨م .

* طرخان : د. إبراهيم على :

- دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

* العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن على بن حجر ، ت ٨٥٢ هـ :

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٣٥٠هـ .

* على : فاى منصور :

- دولة مالى الإسلامية فى عصرها الذهبى على عهد السلطان منسا موسى (٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) ، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٩٨٤م .

* ابن فودى : محمد بلوبن عثمان ، ت ١٢٥٣هـ :

- إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مطبعة الشعب ١٩٦٤م .

* القلقشندى : أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١ هـ :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٥م .

* محمد : حسن جلال الدين :

- مملكة مالى الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها ، رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨م .

* محمود : د. حسن أحمد :

- الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

* النقيرة : محمد عبد الله محمد :

- التأثير الإسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجريين ، رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ٧٩ / ١٩٨٠م .

* وايدنر : دونالد :

- تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الجزء الأول ، ترجمة على أحمد فخرى ، د. شوقى الجمل نشر مؤسسة سجل العرب ١٩٧٦م .

* الوزان : الحسن بن محمد أوليو الأفريقى ، ت ٩٤٤ هـ :

- وصف أفريقيا ، ترجمة من الفرنسية إلى العربية ، د. عبد الرحمن حميدة .

- الموسوعة الأفريقية ، إعداد نخبة من الأساتذة صدرت عن معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة بمناسبة اليوبيل الذهبى للمعهد ١٩٤٧ - ١٩٩٧م. المجلد الثانى (تاريخ أفريقيا) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

Fage : J.D: An introduction to the history of west Africa, cambridge 1955 .

Lapidus : Ira M : A History of islamic societies, cambridge, frist published 1988 .

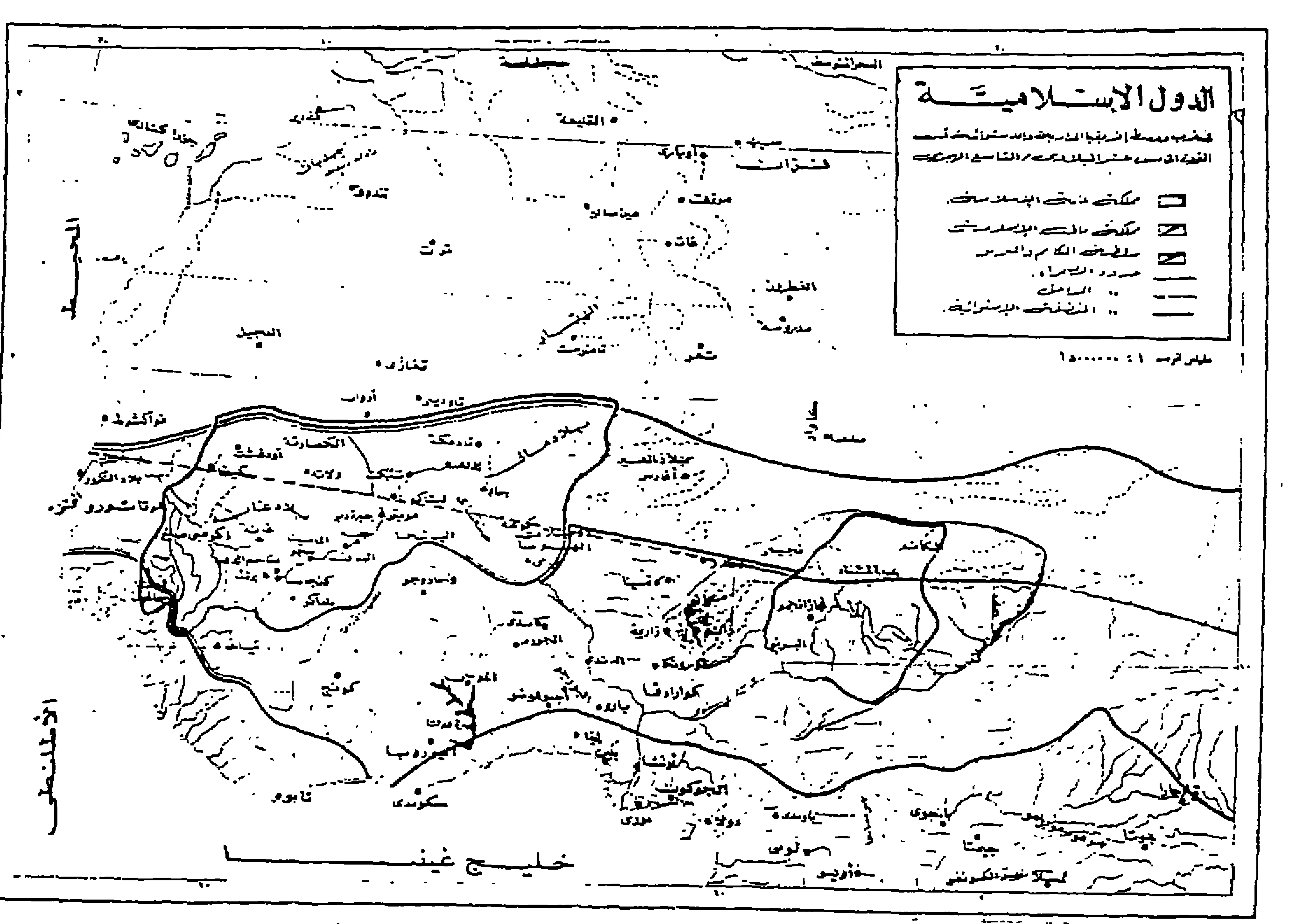
Smart : Ninian : The world's religions, old trafitions and modern Transformations, cambridge 1992 .

Trimingham : J. Spencer :

- A history of Islam in West Africa, London 1975 .
- The expansion of Islam, published in : Islam in Africa, edited by : James Kritzeck and William 14. Lewis, New York 1969.
- The influence of Islam upon Africa, London, frist published 1968 .
- Cultural Atlas of Africa, edited by : Jocelyn murray. New York

1989 .

- From mande to Songhay Towards a political and ethnic history of medieval Gao published in : The Journal of African history, Vol 35 , 1994 , Number 2 .
- History of West Africa, edited by : J.F.A.A jani and michael Crowder Longman, second edition 1976 .
- The cambridge history of Africa, Vol 3 , edited by : Roland oliver, London, frist published 1977 .



د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام الزهراء للإعلام العربي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م

أ.د. محمد أحمد زيود(*)

النشاط الفاطمى المغربى في صقلية وجنوب إيطاليا

لاشك فى أن الفاطميين ، ورثوا تراثًا حضاريًا هائلاً ، شكل دعمًا كبيراً لمجهودهم البحرى، ونشاطهم الملاحى المتوسطى ، الذى بدأ مع قيام دولتهم فى المغرب العربى فى رقاده عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨م ، واستمر هذا النشاط فى تقدم مطرد ، حتى بعد نقلتهم الموفقة إلى مصر والشام ، وسيطرتهم على القواعد البحرية والتراث البحرى الحضارى هناك .

ومما لا شك فيه أن هذا النشاط البحرى الفاطمى فى المتوسط أكدته وأثرت فيه عوامل متعددة ومهمة ، يأتى على رأسها أهمية البحر المتوسط والقوة الدفينة الكامنة التى يأمنها لشعوبه المواجهة له ، فهو يشكل منطقة القلب من العالم القديم ، ومركز احتكاك حضارى وصراع مصيرى ، ومركز القوة العالمية ، فى غالبية عصور التاريخ .

لقد دخل العرب المسلمون عالم هذا البحر المتوسط ، وأدركوا قيمته منذ أن وطأت أقدامهم شواطئه ، وواجهوا أكبر قوة بحرية عالمية معاصرة وهى دولة الروم أو الدولة البيزنطية . وسرعان ما نافس العرب الروم فى النفوذ والسيطرة على هذا الممر المائى المتحكم

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة دمشق .

بالاستراتيجيات العسكرية القوية ، والتفوق الاقتصادى الهائل ، وصاحب الحلقة الكبرى الرئيسية فى الاتصالات المائية بين القارات والشعوب .

هذا التنافس العسكرى والاقتصادى والفكرى ، جعل القوى العربية الإسلامية كافة ، تدرك أهمية البحر بوصفه سلاحًا بحريًا حربيًا مضاداً لا غنى عنه ، فاندفعت تعمل لصد التحدى البيزنطى ، وعمل الجميع مجتمعين أو متفرقين فى معظم الأحيان ضد بيزنطة ، ولم تنته العقود الإسلامية الأولى حتى غدا العرب المسلمون فى وضع متقدم على بيزنطة ، وحققوا عليها انتصارات عسكرية مدهشة ، وأجبروها على تغيير خططها البحرية العسكرية فى شرق المتوسط فاتجهت إلى غربه ، واتخذ الإمبراطور البيزنطى قسطانز الثانى (٢١ - ٤٨ هـ) (٦٤١ - ٦٦٨م) من صقلية مركزاً لنشاطه العسكرى البحرى ، وقاعدة بيزنطية ، تهدد الوجود العربى الإسلامى فى أفريقية ، وتعمل جاهدة لحماية الممتلكات والمصالح البيزنطية فى الغرب بما فى ذلك الشمال الأفريقى ، والإيطالى ، والصقلى إلى جانب التصدى للتوسع العربى المحقق والمرتقب [١]. وأدركت القوى العربية الإسلامية أهمية صقلية اقتصاديًا ، ودورها ، واقتنعت بأن فتحها وانتزاعها من بيزنطة عمل لابد منه تفرضه استراتيجية الفتوحات الإسلامية وصيانة الوجود الإسلامى من التهديدات البيزنطية التى اتخذت من صقلية قاعدة لها ومركزاً لاعتداءاتها [٢]. لذلك تتابعت الحملات العسكرية عليها طيلة العصر الأموى واستمر ذلك فى العصر العباسى . وجهدت بيزنطة فى إعاقة الجهود العربية الإسلامية وعملت على تحصين الجزيرة وحمايتها ، ومنعها من السقوط فى قبضة العرب المسلمين ، حماية لمصالحها فى صقلية وفيما وراء البحار وانقاذاً لعاصمتها القسطنطينية من الانهيار أمام الضربات العربية الإسلامية المتلاحقة .

وكان أن قدمت أول حملة عسكرية بحرية إلى صقلية من بلاد الشام ، وربما انطلقت من طرابلس ، تحت إمرة معاوية بن حديج . ويؤكد الواقدى أن هذه الحملة وصلت صقلية ، وحققت بعض الانتصارات العسكرية ، وعادت محملة بالغنائم ، وكانت الحملة تستهدف احتلال الجزيرة ، وتواكب عمليات الفتوح الإسلامية [٣]. ثم تتابعت بعد ذلك المحاولات العربية الإسلامية لفتح صقلية ، واستمرت أكثر من قرنين من الصراع العسكرى ضد بيزنطة التى غذته المصالح الاستراتيجية العربية الإسلامية ، وما تمتعت به صقلية من أهمية اقتصادية ، وموقع استراتيجى فريد وعسكرى كبير مؤثر فى تأجيج النزاع العربى البيزنطى ، فهى أحد

مفاتيح قلب البحر المتوسط ، والنافذة الكبيرة المطلة على إيطاليا ، والمتحكمة فى معظم الطرق التجارية ، والشرايين الفعالة فى البحر المتوسط ، هذا كله إضافة إلى خيراتها وإمكاناتها الزراعية والصناعية والمعدنية التى أشار إليها العلماء والرحالة العرب والفرنجة ، وأكدت عليها ، ووصفوها جميعًا ، بأنها بلد الخير والعطاء ، وفيها من الموارد الزراعية والصناعية ما أدهش الجميع وشد الانتباه . وصورتها أقلامهم بأنها مصدر رزق كبير ، ومفتاح خير عميم ، وهى تمتلك أنواعًا من السلع والمعادن التى تستخدم فى صناعة السفن كالأخشاب والحديد (٤ ، ٥).

وقد أردك العرب المسلمون هذه الأهمية الاستثنائية لجزيرة صقلية ، فهى تمكن البيزنطيين من الهيمنة الكاملة على النشاط التجارى فى المتوسط ، والسيطرة عليه، وإحكام القبضة على التجارة المتوسطية ، التى استغلتها بيزنطة ، واستخدمت الأسلوب السلبى ضد التجارة العالمية بهدف تحقيق مصالحها السياسية والعسكرية ، وعملت على شل التقدم الحضارى ، والتفاعل البشرى الإيجابى بين الشعوب .

ولقد حقق فتح صقلية مكاسب ونتائج كبيرة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وحضارية عامة ، فانتهى الحكم البيزنطى فيها ، وغدت عربية يحكمها ولاة أفارقة تابعين للأغالبة ، ثم الفاطميين بعد ذلك وغدت فيما بعد قاعدة انطلاق مهمة تنطلق منها الهجمات البحرية والبرية على إيطاليا ، مما مكن هذه القوى العربية الإسلامية الأغلبية ثم الفاطمية ، من تحقيق السيادة على البحرين التيرانى والأدرياتى ، والسيطرة الفعالة على القسم الأوسط من البحر المتوسط حتى أصبح بعد ذلك من شرقه إلى غربه تحت السياة العربية الإسلامية ، وأصبح القول بأنه بحيرة عربية أمراً ممكنًا بعد أن بلغت القوى العربية الإسلامية أوج قوتها ونشاطها فيه .

وكما ساعدت السرايا العسكرية الإسلامية المتقدمة فى صقلية الأغالبة على تحقيق النصر ، باستفادتهم من التجارب الإسلامية السابقة ، فكذلك ورث الفاطميون هذا التراث كله ، بعد قيام خلافتهم فى المغرب . وشكل هذا التراث البحرى الموروث أرضية مفيدة ، وساعدهم على تلمس الأخطاء ، والابتعاد عنها ووضع الخطط الناجحة ، وتدعيم وجودهم فى صقلية ، والسيادة على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وبينما كانت القوة البحرية الأندلسية تساند الأغالبة وتقف إلى جانبهم فى فتح صقلية ، إلا أنها مع الأسف لم توظف فى العصر الفاطمى لصالح هؤلاء بل على العكس عملت ضدهم ، وتقويض نشاطهم البحرى ، وذلك لما كان بين

الدولتين من خلافات فى الرؤى والتوجه ، مما أثر بشكل سلبى فى الاستراتيجية العسكرية البحرية العامة الإسلامية وقد أضعف تلك الخلافات الجهد العربى الإسلامى ، والمجهودات البحرية ، وعملت [٦ ، ٧] على الحد من النشاط الفاطمى وإضعافه .

لقد تبنت الدولة الفاطمية العبيدية معارضتها للعباسيين [٨] ، وكان أتباعها الإسماعيليون يعتقدون بأنهم وحدهم أصحاب الحق الشرعى بالخلافة ، وبأن الأمويين – وكذلك العباسيين – مغتصبون لها . ولقد اتخذ عبيد الله لقب المهدى ليشير إلى أنه هو الشخص الذى أظهره الله بالحق ليُملك الأئمة الفاطميون الأرض كلها [٩]. وكان قيامها حدثًا مهمًا ، ومؤثراً فى التاريخ العربى والإسلامى إذ أصبح لدى المسلمين ثلاث خلافات إسلامية : عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى المغرب ، وأموية فى الأندلس . ومما يؤسف له أنها تبنت من حواضرها معاداة بعضها بعضًا ، ودخلت فى نزاعات مستمرة ، ولم تتمكن من الاتفاق حتى فى اللحظات الحرجة التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية من مغربها إلى مشرقها .

لقد عمل الفاطميون ضمن معتقداتهم ، واعتبار أنفسهم مسؤولين عن أقاليم الدولة وشعوبها ، وتوحيد المسلمين تحت سلطانهم ، وامتداد خلافتهم ، ووضح هذا التوجه التوسعى فى مناسبات عدة ، وأعطوا بذلك التوجه أسبابًا للخشية منهم ، والعمل ضدهم ، ومحاربة مشروعهم التوسعى بكل الوسائل ، ودخلوا فى نزاع مع الأمويين فى الأندلس والعباسيين ومؤيديهم فى كل مكان [١٠].

ومن ناحية أخرى واجه الفاطميون فى بلاد المغرب صعوبات كبيرة ، وأعداء كثيرين ، وفى هذا الجو المعادى ، قامت الخلافة الفاطمية ، وكان عليها أن تأخذ كل ذلك بالحسبان ، وتعمل بجهد ضد قوى كثيرة مجتمعة أو متفرقة .

وهكذا إدراك الفاطميون أن استمرارهم ، ونجاح مشروعهم لايمكن أن يتم إلا بتبنى سياسة عسكرية برية وبحرية قوية تعمل مشتركة ، معتمدة أسلوب القتال وتأصيل فكرة الجهاد الذى كان على رأس أولوياتهم ، ودعمته بمجموعة من الإجراءات والخطط التى كانت تصب كلها فى هدف واحد، يعمل لتدعيم قوة الدولة وصيانتها والتصدى لأعدائها من الداخل والخارج معتمدة أسلوب الإقدام والجرأة ثم حزم الأمور ، والاستفادة من الوقت ، والأتباع والمخلصين ، وهذه السياسة التى استنها عبيد الله المهدى كانت المنهج السليم الذى سار عليه خلفاؤه من بعده ، فحافظوا على دولتهم وكتب لها البقاء والاستمرار [١١].

وقد اهتم الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب اهتمامًا ظاهراً في الشؤون الملاحية والبحرية ، وأعطوها الأولوية ، وفاقت مجهوداتهم في العناية بالبحرية ، وفي الكفاح البحري جهود كل من سبقهم من القوى العربية والإسلامية ، ودعموا قوتهم العسكرية البحرية والتي شغلت تفكيرهم منذ قيام دولتهم ، وتطلعوا منذ عهد المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢هـ) (٩٠٩ - ٩٣٣م) لفرض هيمنة دولتهم ، وقوتهم على غرب البحر المتوسط والجنوب الإيطالي ، وغير ذلك من المناطق ، وتمكنوا من إيجاد قوة بحرية لم يسبقهم لها أية قوة عربية إسلامية ، وربما ساعدهم عى ذلك تأصيل الفكرة الجهادية عندهم بوصفها العنصر المهم في سياستهم العسكرية ، ولأنها الركيزة الأساسية التي تقوم عليها العقيدة الإسماعيلية ، فساعدهم ذلك على شد الهمم والانتباه للعودة إلى مجد الفتوحات الأولى ، وقد أعطاهم العباسيون ، وما وصلوا إليه من ضعف وخنوع ، كل الحق في تبني هذا الشعار الجهادي إلى اعتبر ضروريًا لإنقاذ الموقف الإسلامي المتدهور والدفاع عن المصالح التي هددت في كل مكان لاسيما في الشام ومصر وجزر البحر المتوسط ، والتوسع البيزنطي في الثغور ، والبحر المتوسط[١٢] وغير ذلك .

كل ذلك دفع الفاطميين لتقوية قوتهم البحرية ، وأدركوا ضرورة تنميتها في حال رغبوا في تحقيق هذه المطامع الطموحة ، التي لا يمكن النهوض بها إلا بقوة متفوقة برية بحرية فعالة ومتعاونة ، وقد تمكنوا من إعدادها بسرعة وأعطت ثمارها عبر مساهماتها في جميع أوجه نشاط الفاطميين وتحركاتهم لاحتلال مصر[١٣] وإحكام قبضتهم على صقلية ، وغيرها من الأماكن التي خططوا لمد نفوذهم إليها .

وربما كان بناء المهدية ، وطريقة اختيار موقعها ، ومدى الاهتمام بتحصيناتها لتكون أكبر معقل بحري في الشمال الأفريقي ، أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالبحرية الإسلامية ، وتحقيق مخططهم البحري الواسع الطموح ، الذي استند على قاعدة بحرية آمنت بفكرة قديمة متطلعة نحو البحر ، واعتقاد راسخ بأنه لابد من التوجه صوبه ، والاستفادة من الخبرات والتراث المغربي القديم ، وعلاقته الوشيجة بالبحر ، فتجلى ذلك من خلال تشييد المهدية على شاطيء البحر المتوسط ، وكان المهدي قد أدرك بحسه السليم ضرورة تشييد المهدية ، ولذلك كان أول حاكم عربي مسلم قام بمثل هذا العمل [١٤].
واختار موقعًا استراتيجيًا مناسبًا يقع بين سوسة وصفاقس في جزيرة متصلة بالبر في سنة

٣٠٣هـ / ٩١٦م واختط مدينته الساحلية ، لإيمانه أن دولته لابد لها من الانفتاح على العالم الخارجي ، ولابد لها من أن تكون دولة جهادية لأن سواحلها كلها مناطق ثغور وجبهات قتالية، وهذا ما يفسر مدى اهتمام الفاطميين بالأساطيل البحرية وقواعدها ومراسيها ، وتعددها ، وساعدهم على ذلك استفادتهم من التراث المغربي الموروث في هذا المجال .

ولقد أفاضت المصادر العربية الإسلامية بوصف المهدية ، وركزت على أهميتها البحرية وأسلوب تشييدها ، ووصف أسوارها ، وبواباتها الضخمة ، ومدى التحصينات المرتبطة بالمرسى ، ودار الصناعة ، وإنجاز كل ذلك باتقان لأنه أقيم تحت إشراف المهدى نفسه وحسب توجيهاته ، وهذا ما مكن المهدية من أن تفوق جميع المدن الإسلامية التى سبقتها منعة وتحصينًا ، وشكل قيامها توافقًا مع أهداف الفاطميين وتطلعاتهم التوسعية ، وقد أبدى المهدى ارتياحه واطمئنانه عندما انتهى من إعمارها والإقامة فيها في سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠م بقوله : " الآن أمنت على الفاطميات " ولم يكن يقصد حماية بناته ، وقريباته فحسب ، وإنما كان يتطلع إلي أنها ستحمى دولته ، وتحافظ على قوتها وتوطيد أركانها ، واطمأن بعد ذلك إلى قدراته العسكرية البحرية وتحقيق النصر . ومواجهة جميع القوى المعادية من الداخل والخارج ، ولقد كثر الكلام عن هذه المدينة ، وجاء بعضها على شكل أسطورى ، وفاق ما قيل ونسج من بناء الحواضر الإسلامية الأخرى [١٥]. وأكدت المصادر القديمة والدراسات الحديثة على عمق توجهات الفاطميين وسعيهم الدؤوب للاهتمام بالبحرية والدوافع التى كانت خلف هذه العناية ، وبينت أن التصدى للثورات الداخلية والخارجية ، والتطلع للتوسع كان خلف قيام البحرية الفاطمية ، ونشاطها ، وكثرة أدواتها الحربية ومراكبها المتنوعة [١٦]، وكثرة التوقيعات والرسائل حولها ، وتشييد دور الصناعة فى كل من سوسة ، والمنصورية وغيرهما ، ومتابعة الخلفاء لكل هذه الأعمال ابتداء من تأمين المواد الأولية حتى انطلاقة السفن بحراً ، وتعيين أمر قيادتها والاهتمام بموظفيها ، كبار وقادة عظام .

كما وضعت تحت تصرف هذه البحرية المواد اللازمة لصناعتها ، من أخشاب وحديد ، وألياف ، وقطران ، ونفط ، وكبريت ، وغير ذلك من مواد وسلع لابد منها لتجهيز الأسطول وإعداده الإعداد الجيد للقتال البحرى الشائك ، ولقد توفرت هذه المواد فى بلاد المغرب وفى صقلية بكثرة [١٧]، ومن أهمها الخشب ومعدن الحديد والألياف الخاصة بالحبال وكذلك القطران والزفت ، ثم النفط والكبريت المستخدم فى القتال البحرى ، واستخدم هذا السلاح الذى كان

يسمى النار الإغريقية منذ سنة ٢٠٠ هـ / ٨٣٥م فى عصر الأغالبة ، واستخدمه الفاطميون فى هجماتهم فى البحر التيرانى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥م واحرقوا السفن المعادية ، ولم يعد هذا السلاح سراً وقفًا بعد ذلك على بيزنطة وسلاحًا فتاكًا بيدها (١٨).

كما شكلت المراسى والقواعد البحرية العديدة فى الشمل الأفريقى ستاراً أماميًا للسواحل الفاطمية الأغريقية ، وقد أفاضت بذكرها الأبحاث ، ولفتت الانتباه إلى أهميتها البحرية ، كما أكدت الدراسات على صقلية وأهمية مراسيها أمثال مسينى ، وطبرمين ، وقطانية ، وسرقوسة ، وجرجنت ، وطرابنش ، وبرطنيق وغيرها ، وهذه الأماكن تذكرنا بوقائع عسكرية مروعة تعاركت فيها السفن ، وأريقت الدماء ، وهذه القواعد والمراسى ، وضعت تحت تصرف الفاطميين وسيطرة قواتهم ، وساهمت بشكل فعال فى نشاط قوتهم البحرية ، وساعدتها فى تفوقها ، وحققت لها النصر على البيزنطيين وحلفائهم من روم وفرنجة وغيرهم (١٩).

كما أمنت سيطرة الفاطميين على معظم الجزر البحرية المتوسطية المواجهة للسواحل الأفريقية الحامية للمدن والثغور الأفريقية الفاطمية ، وعلى رأس هذه الجزر صقلية ، وسردانية ثم قرشقة، ومالطة وغيرها من الجزر العديدة الصغيرة ، والتى كانت تحرس وتحمى السواحل وتشكل نقاط إنذار سريعة ومتقدمة ، تدفع عنها عامل المفاجآت ، كما عملت هذه الجزر على تدعيم الجهود الملاحية والبحرية الفاطمية ، ومنحتها فرص النصر ، وقوة السيطرة على غرب المتوسط جنوة ، والتأثير فى أحداثه (٢٠)، والمهم من كل ما تقدم أن الفاطميين ورثوا التراث المغربى الطويل الذى منحته الطبيعة لسواحلها ، وجعلت منهم شعبًا لا يمكنه الاستغناء عن البحر ، وإدارة ظهرهم له ، ولذلك صار أهله من أنشط الأمم البحرية ، واستمر ذلك عبر العصور ، وأدرك العرب هذا التوجه ، واستغل الفاطميون ذلك أحسن استغلال ، وطوروا بحريتهم ، وتنبه إلى هذا التوجه البحرى عند شعوب المغرب العالم والمؤرخ الاجتماعى الأول ابن خلدون ، وفهم مدى تأثير هذا الساحل الأفريقى على طبيعة أهله ، وزيادة تمرسهم بالأمور البحرية (٢١)، وهذا الموروث أمن لهم نشاطًا اجتماعيًا واقتصاديًا ، وظهر أكثر ما ظهر بعد عمليات الاستقلال فى المغرب ، التى تعمقت أثناء حكم الفاطميين ، وساعدهم ذلك ، بحيث وصلت بحريتهم إلى الذروة فى دورها المغربى ، ودعمت بعد احتلالهم جزيرة صقلية ، وبعض الأماكن فى الجنوب الإيطالى والجزر الأخرى أمثال مالطة وسردانية وقورشقة وغيرها ، ثم تابع نشاطهم البحرى تفوقه .

وسوف نستعرض أهم أوجه نشاط الفاطميين فى غرب المتوسط ، وتحركاتهم العسكرية على الطبيعة ، ونحاول التعرف على أهداف هذا النشاط وطبيعته وما كان يرمى إليه من فوائد مادية ومعنوية .

لقد ورث الفاطميون من جملة ما ورثوه فى المغرب العربى عن الأغالبة جزيرة صقلية ، والتوجه الجهادي إليها ، وحماية المصالح الإسلامية فى الجنوب الإيطالى ، ولم تكن الأحوال الإسلامية فى صقلية مطمئنة ، ولم يكن التحول الإسلامى فيها قد اكتمل بعد ، كما كان قد نشأ فيها أسر تخصصت في الحكم ، وخبرت أمر الجهاد فيما وراء البحار وورثته . كما استهوتها السلطة ومغرياتها ، ونمت عند بعض الأفراد فكرة الانفصال والاستقلال والتفرد فى الحكم بهذه الجزيرة المنشقة على نفسها عرقيًا ومذهبيًا ما بين عرب وبربر نشبت الحروب فيما بينهم ، وتعمق الخلاف فى النفوس ، بينما كانت بيزنطة خلال عهد الإمبراطور باسيل الأول (٢٥٤ - ٢٧٣هـ (٨٦٧ - ٨٨٦م) تحشد قوتها البحرية ، واستعادت نفوذها فى مدينتى باري وطارنت ، ودعمت سيطرتها على قلورية وأبوليا ، وأعادت فرض سيطرتها عى مجموعة المدن الكمبانية ، وعلى رأسها نابلى وجانيا ، وامالفى بحيث لم يبق تحت القبضة الإسلامية سوى إمارة مونت جاريلبانو الموجهة ضد الريف الإيطالى الجنوبى ، وهيأت الاضطرابات التى حدثت فى أفريقية وصقلية الفرصة لإخراج المسلمين من معظم القواعد[٢٢] المهمة فى صقلية .

وسار الفاطميون منذ بداية نفوذهم فى صقلية على نهج الأغالبة فى الجزيرة فاتخذوها مقراً وقاعدة انطلاق ، تثب منها قواتهم باتجاه إيطاليا ، ولقد كان آخر ولاة الأغالبة فى الجزيرة ، أحمد بن أبى الحسين بن رباح ، ولم يكتب له البقاء طويلاً فى منصبه ، حيث وصلت أخبار انتصارات الداعى أبو عبد الله الشيعى على زيادة الله الثالث الأغلبى فما كان من الأهالى فى صقلية إلا أن ثاروا على واليهم وحبسوه ، ونصبوا على الجزيرة على بن أبى الفوارس فى رجب سنة ٢٩٦ هـ / أبريل ٩٠٧م ، ثم أرسلوا الوالى المخلوع إلى رفادة ، وكتبوا يطلبون من أبى عبد الله الشيعى تثبيت أبى الفوارس ، فوافقهم على ذلك ، واشترط عليهم أن يقوم بواجب الجهاد براً وبحراً . وما إن هدأت أحوال الداعى ، حتى وجه كتبه إلى الأقاليم يدعوها إلى الطاعة ، وكذلك أرسل خطابًا إلى صقلية ، حض فيه أهلها على الجهاد ، وجاء فيه : " وأنتم معشر أهل جزيرة صقلية ، أحق بما أوليته من المعروف والإحسان ، وأسديته ، وأولى به وأقرب إليه ، لقرب داركم من دار المشركين وجهادكم الكفرة الظالمين ، وسوف أملأ إن شاء الله

جزيرتكم خيلاً ورجالاً من المؤمنين الذين يجاهدون فى الله حق جهاده ، فينصر الله الذين والمسلمين ، ويذل بهم الشرك والمشركين " (٢٣).

هكذا بدأت العلاقة بين أهالى صقلية من المسلمين والفاطميين ، وهى توضح ميل المسلمين فى الجزيرة إلى الاستقلال ، وحاجتهم إلى القوة التى تساندهم على أعدائهم المتربصين بهم ، لهذا سرعان ما اتجهوا إلى الفاطميين وقوتهم المنتصرة فى بلاد المغرب ، وأكد هذا التوجه فى العلاقات خطاب الداعى الشيعى قبل اعتلاء المهدى سدة الحكم .

وما إن بويع عبد الله المهدى بالخلافة حتى أقدم على تعيين زعماء قبيلة كتامة على أمر الولايات فى دولته ، وأرسل إلى صقلية " أحمد بن جتزير " (٢٩٧ - ٢٩٩هـ) (٩٠٩-٩١١م) أحد قادة كتامة واليًا يتولى أمرها ، فوصلها هذا فى ذى الحجة(٢٤) سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠م ثم تتابع بعد ذلك أمر تعيين ولاة صقلية من الحاضرة الفاطمية فى المغرب ، وكان أول عمل لهذا الوالى على طريق الجهاد تصديه لإخماد ثورة فى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١م قام بها النصارى فى مدينة دمنش فى إقليم قلورية ، فعاثت القوات فساداً هناك . ثم رجعت محملة بالغنائم ، ولم يغفر له جهاده -وفشله فى إدارة الجزيرة- فثار عليه أحرار مدينة بلرم وخلعوه ، وكتبوا بذلك للمهدى ، فعين عليهم " على بن عمر البلوى " (٢٩٩ - ٣٠٠هـ) (٩١١ - ٩١٢م) ، وربما أنف المسلمون العرب أن يحكمهم رجل من المغاربة البربر ، بالإضافة إلى أخذه بالمذهب الإسماعيلى ، وطرحه لمذهبهم المالكى . فرمى بالاستبداد وسوء السيرة .

كما تابع الوالى الذى تلاه أحمد بن زياد الله بن قرهب أو (قرعب) (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ) (٩١٢ - ٩١٦م) جهاده وهجماته على قلورية قبل أن يعلن ثورته ضد الفاطميين، وينقض بيعتهم - فى الجزيرة . وبعث بحملة صغيرة إلى كلابريا (قلوية) سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢م ، ثم عادت الحملة كسالفتها محملة بالغنائم والأسرى (٢٥).

ثم استأنف الفاطميون حملاتهم العسكرية فى صقلية بعد القضاء فيها على التمرد الذى قاده ابن قرهب ما بين ٣٠٠ هـ / ٩١٢ إلى ٣٠٤ هـ / ٩١٦م ، والهدف منه الاستقلال عن الخلافة الفاطمية وعن أفريقية ، ومحاولة إعادة حكم الأغالبة فى صقلية ، وخاصة أنه كان أغلبيًا(٢٦) ولم تكن تبعيته للخلافة العباسية إلا تبعية اسمية .

انطلق الفاطميون فى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨م من صقلية ، وكان هدفهم مدينة " ريو " فى قلورية ، وحققوا نصراً عسكريًا هناك ، وأجبروا حاكمها على الالتزام بتجديد الهدنة ، ودفع

اثنين وعشرين ألفًا من القطع الذهبية كل سنة مقابل الحفاظ على أمن بلاده ، وذلك بموجب الاتفاق والمعايشة أو حسن الجوار مع العرب المسلمين، وهذا كان معقوداً مع كبار القادة والبطارقة فى كلابريا (قلورية) وفى جنوب إيطاليا ، فى حال عدم تمكن هؤلاء من صد الهجمات العربية الإسلامية عنهم . وهذه الإجراءات أدت إلى زيادة الضرائب على المواطنين فى كلابريا وغيرها ، وأدت إلى قيام ثورات منها تلك التى قامت ضد البطريق جان " موزالون " وقتله فيما بين ٣٠٨ هـ و ٣١٠ هـ / ٩٢٠ م و ٩٢٢م ، وتوافق هذه الثورة ، تعرض بلاد اللومبارد، وكلابريا لهجمات الأساطيل الفاطمية من المهدية ، وصقلية ، ونشاط البحرية الفاطمية فى تلك السنين (٢٧).

وقد رحبت الدولة البيزنطية بعقد الصلح السابق ذكره مع العرب المسلمين فى صقلية لانشغالها فى الحروب البلغارية (٢٨)، والحروب مع القوى الإسلامية فى شرق المتوسط ومياه بحر إيجة المجاورة لجزيرة كريت . غير أن هذا الصلح لم يحترم ، ولم يكتب له الاستمرار. وكعادة بيزنطة وحلفائها من الإيطاليين ، كثيراً ما كانوا يقومون بنقض أى حلف مع المسلمين ، عندما تسمح ظروفهم بذلك ، لذلك استؤنف النشاط البحرى باتجاه قلورية فى سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢م وأقدم القائد الفاطمى " مسعود الفتى " وهاجم مدينة " شنت اغاثى " القريبة من "ريو"، واجتاحتها قواته ، وعاد إلى المهدية محملاً(٢٩) بالغنائم والأسرى .

وتتابعت الحملات العسكرية الفاطمية باتجاه الجنوب الإيطالى ، فقامت حملة سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م بقيادة الحاجب الوزير " جعفر بن عبيد " ويبدو أنها لم تخرج فى وقت ملائم ، ولهذا فقد عادت من بلاد الروم ، دون أن تتمكن من تحقيق أهدافها ، فى حين تورد بعض المصادر أن جعفر الحاجب استولى على بريصانة (٣٠).

ثم أمر المهدى بتكثيف الجهود البحرية ضد جنوب إيطاليا ، وتجلى ذلك بقيام حملة مزدوجة باتجاه إيطاليا سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥م ، قامت إحداها من صقلية بقيادة أميرها سالم بن أبى راشد (٣١٣ - ٣٢٥هـ) (٩٢٥ - ٩٣٦م) والثانية انطلقت من المهدية بقيادة الحاجب " جعفر بن عبيد " وعلى الرغم من التنسيق الظاهر فيما بينهما فإن كلاً منهما اتجه فى طريق خاص ، وكان محور حملة بلرم باتجاه اللومبارد حيث تمكنت من فتح مدينتى غيران ، وأبرجه ، وغنمت مغانم كثيرة ، ثم عادت الحملة بعد ذلك نحو " كلابريا " وفتحت طارنت عنوة ، ثم عرجت باتجاه " ادرنت " ولما لم تتمكن من فتحها ، أقدمت على تخريبها وهدم منازلها . ثم عادت هذه الحملة إلى صقلية بعد تعرضها لوباء أصاب مقاتليها .

أما الحملة التى انطلقت من المهدية بقيادة الحاجب جعفر ، فقد أخذت محور تارنت ، واجتاحت مدينة " أورية "(٣١) وقتلت الألوف من رجالها ، وسبت عشرات الألوف من نسائها ، وكان من بين الأسرى أحد البطارقة الذى دفع خمسة آلاف دينار عن نفسه ومدينته ، وأثناء عودة الحاجب جعفر إلى صقلية عبر " كلابريا " وهادن أهلها ، فدفعت له الجزية ، واصطحب معه رهائن مهمين بينهم أسقف صقلية ، وحاكم قلورية " كلاريا " ، وبعد أن عرج على صقلية لإصلاح أحوالها ، وأخبر المهدى بالغنائم الوفيرة ، التى قال المهدى عنها بأن قائده جعفر لم يعطه من " الجمل إلا أذنه " كما أرسل المهدى فى سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م إلى صقلية شيوخًا من المهدية برفقة الوالى سالم ، فقاموا بجباية الضرائب من أهلها دون ذكر للأسباب والتفاصيل(٣٢).

وفرضت هذه الانتصارات التى تحققت إثر هذه الحملة المزدوجة سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥م أمراً واقعًا ووجد حاكم قلورية أن المصلحة والحكمة تقضيان أن يقوم بتجديد الهدنة وعقد الصلح الذى تضمن دفع الجزية وقدرها أحد عشر ألف قطعة ذهبية (٣٣).

ثم أسند الخليفة الفاطمى المهدى ، أمر الأسطول إلى الفتى الصقلبى " صابر " وأمره على رأس جيش كبير طالبًا منه سرعة الهجوم على السواحل الإيطالية الجنوبية ، فقام هذا الفتى بثلاث حملات متتالية خلال الأعوام ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ هـ / ٩٢٧ و ٩٢٨ و ٩٢٩م ، اتجهت الأولى إلى صقلية ، حيث انطلقت إلى الجنوب الإيطالى ، وفتحت أماكن عديدة منها: اوترنتوه Otrente أما حملة صابر الثانية فكان هدفها السواحل التيرانية من جنوب إيطاليا ، وهاجمت " الفيران " وقلعة الحسب ، وأخذت ما فيهما ، وتابعت توجهها إلى " ساليرنو " فصالحها أهلها على فدية من المال والديباج ، ثم أقلعت إلى نابولى ، وصالحتها على نفس الشروط السابقة . وعرج صابر قبل عودته إلى كلابريا فعقدت معه هدنة سنوية ، مقابل مقدار من المال . أما الحملة الثالثة للفتى صابر سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩م ، فهى عبارة عن غارة صغيرة، تقدمت باتجاه البحر الأدرياتى وهزمت السفن الرومية بقيادة حاكم كلابريا "سردغوس"، ثم تقدم صابر مقتحمًا مدينة " ترمولة " وأخذ منها سبيًا كثيراً قدر باثنى عشر ألفًا ، قبل العودة إلى المهدية (٣٤). وتذكر بعض المصادر بأن القوات المشتركة الصقلية والمغربية بقيادة الأمير سالم بن راشد ، والقائد الفتى صابر الصقلبى الذى كلفه المهدى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩م، بالاستيلاء على مدينة طارنت وادرنت قامت بالمهمة وتمكنت بمساعدة سالم

من تحقيق النصر ، ولذلك أجبرت قلورية على دفع الجزية التى استمرت تسددها طيلة حكم المهدى [٣٥].

بدأ عهد القائم الفاطمى (٣٢٢ - ٣٣٤هـ) (٩٣٤ - ٩٤٥م) ، بحملة عسكرية بحرية قادها يعقوب بن اسحق التميمى انطلقت من المهدية فى رجب من عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٤م ، وذلك فى السنة الأولى من حكم القائم ، واتجهت الحملة لغزو بلاد الروم ، وصادفت الحملة فى طريقها مراكب للروم فأخذت تجارتهم ، وأسرت من فيها ، وتقدم يعقوب صوب مدينة جنوة ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، واضطروا للاحتماء بسور المدينة ، فشدد عليهم الزحف حتى فتحها وسبى من فيها ، وغنم منها البز والحرير والكتان ، ثم أقدم على حرقها ، ثم غادر الأسطول الفاطمى المدينة ، بعد أن انتشرت أصداء هذه الغزوة بين المسيحيين والمسلمين ، ومر فى طريقه على سردينيا ، وقرقيسيا [٣٦].

اضطربت أحوال الجزيرة بدءاً من عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦م واستمر ذلك إلى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م ، وتحركت الفتنة نتيجة لسوء سيرة الوالى سالم بن أبى راشد ، وثارت جرجنت ، وبلرم وزاد العصيان فى سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ ، بعد تدخل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٣٠٧ - ٣٣٣ هـ) (٩٦٩ - ٩٤٤م) فجاءت نجدة فاطمية من المهدية مساندة لسالم بقيادة خليل بن اسحق ، الذى ضرب المتمردين بعنف وقسوة ، وأجبر الكثرين على الفرار إلى بلاد الروم حيث تنصر بعضهم [٣٧]، وأقدم على هدم تحصينات بلروم وأزالها وبنى قاعدة جديدة بديلة عنها وهى عبارة عن قلعة حصينة عرفت بالقصبة ثم أطلق عليها " الخالصة " .

أما المهدية فكانت تنوء تحت ثورة هزت الكيان الفاطمى وهددته بالأفول وهى ثورة أبى يزيد مخلد الخارجى ، ولهذا لا نستغرب أن يصاب النشاط الفاطمى البحري فى غرب المتوسط بالضعف حتى القضاء على الثورة فى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م .

وما إن تخلص الخليفة الفاطمى المنصور (٣٣٤ - ٣٤١هـ) (٩٤٥ - ٩٥٢م) من ثورة أبى يزيد الخارجية فى المحرم من سنة ٣٣٦ هـ / يوليو ٩٤٧م ، حتى استبدل الوالى ابن عطاف (٣٢٩ - ٣٣٦هـ) (٩٤٠ - ٩٤٧م) بقائد آخر مجرب شحذته الأحداث وتمرس بالقتال وفنونه وعينه على صقلية وهو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى (٣٣٦ - ٣٤١هـ) (٩٤٠ - ٩٥٢م) وهو مقدم الأسرة الكلبية ، ومن أخلص أنصار الدولة الفاطمية وكبار قوادها ، وكان أبوه من أعوان الدولة الفاطمية فى صقلية وقتل أثناء أحداث سنة ٣٢٧هـ /

٩٣٧م، فى ثورة جرجنت على الفاطميين. ولقد وفق المنصور فى هذا الاختيار ، حيث أثبت الحسن أنه على قدر مسئولية وقيادة صقلية وإدراك قضاياها الاستراتيجية الخارجية ومشاكلها الداخلية السياسية والعرقية والمذهبية ، وكانت إمرته عليها بداية عهد جديد فى تاريخها . فإليه يرجع الفضل فى إصلاح أحوالها ، وضبطها ، وتكوين أسرة حاكمة فيها تناوبوا أمرها، ورفعوا من الشأن الفاطمى، وجعلوها من أقوى القوى البحرية الكبرى فى المتوسط برفعيه الغربى والشرقى، وكان لشخصية الحسن الأثر فى محبة الصقليين والتفافهم حوله، وتمكن من أن يقضى على الفتن ويتغلب على مقاومة العصبيات القوية التى يأتى على رأسها بنو الطبرى، الذى فرض عليهم عقوبات قاسية(٣٨).

فرض الحسن الكلبى هيبة الحكم الفاطمى فى صقلية ، مما اضطر الروم لتقديم مال الهدنة المتراكم عليهم منذ ثلاث سنوات، وكانوا قد امتنعوا عن دفعه للوالى الفاطمى سالم ابن راشد ، ثم مد الحسن نفوذه باتجاه كلابريا والجنوب الإيطالى بعد أن كان قد استقر لصالح بيزنطة أثناء الحروب فى الجزيرة فى أواخر حكم سالم بن رشاد وفترة تسلم خليل بن إسحق زمام فى صقلية(٣٩).

بدأت الاستعدادات والتنافس يتصاعدان فى الجنوب الإيطالى، وجاءت الإمدادات العسكرية من المهدية يقودها الفتى فرج مولى المنصور، واتجهت القوات الفاطمية بتشكيل عسكرى برى وبحرى إلى مسينا، ثم إلى «ريوه» أوريه وانهزمت قواتها، فتحركت الجيوش إلى قلورية (كلابريا) وحاصرت مدينة جراجة ، وأجبرتها على الصلح ودفع الفدية المالية للحسن الكلبى ، الذى أسرع بقواته نحو الروم الذين اعتصمت قواتهم فى مدينة بارى (باره)، واستقر حول مدينة قسانه ، متخذاً منها مركزاً للقيادة والإشراف على إدارة العمليات العسكرية ، وانتهت الأحداث بسرعة حيث عقد صلح سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م وعادت قوات الحسن فى إثره إلى مسين ورابطت فيها ، وانتقل هو إلى بلرم، منتظراً تحسن الأحوال الجوية للانقضاض بقواته على جراحة حيث التجمع الكبير للقوات الرومية التى تتأهب للقتال فالتحمت القوتان فى شهر ذى الحجة من سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م بمعركة حاسمة انتصرت فيها الثوات الفاطمية انتصاراً ساحقًا ، وهزم التجمع البيزنطى الرومى الإيطالى، وانتهوا بين قتيل، وهارب وأسير (٤٠)، وكثرت الغنائم ، وفتحت الحصون ومنها رمنسة، ولطرة، وأرسلت الأعداد الكبيرة من السبايا إلى المهدية وكان بينهم قائد الأسطول الرومى الذى صلب فيها(٤١).

وفى سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢م قصد الحسن الكلبى جراجة ، وحاصرها ، مما أجبر الإمبراطور البيزنطى قسطنطين على إرسال مبعوثه " جان بلاطوسى " إلى الخليفة الفاطمى المنصور بالله بشأن طلب الهدنة ، بعد هذه الانتصارات المظفرة للقوات الإسلامية فى قلورية ، وقابل هذا المبعوث الخليفة المنصور فى عاصمته الجديدة المنصورية ، وتقبل منه هداياه ، وكتب إلى جوذر ومولاه وواليه على المهدية ، أن يكافىء السفارة بأحسن ما قدمته ، وأوكل إلى واليه على صقلية الحسن بن على الكلبى ، مفاوضة المبعوث البيزنطى بشأن طلب الهدنة ، ووقعت الهدنة بين الطرفين ، وكان من أهم شروطها بناء مسجد فى مدينة " ريو Reggio " بكلورية ، وتعهد البيزنطيون بالمحافظة عليه ، والسماح لأسرى المسلمين(٤٢) بأداء الصلاة فيه وأن يكون ملجأ آمنًا لأسرى المسلمين ، وبعد ذلك عاد الحسن إلى صقلية ، حيث وصلته الأخبار بوفاة الخليفة المنصور فى شوال سنة ٣٤١هـ/ فبراير ٩٥٣م، وقيام خلافة المعز (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) (٣٥٢ - ٩٧٥م) ، فنزل صقلية متجهًا إلى المهدية ، وأبقى على الجزيرة ولده أبا الحسين أحمد بن الحسن بن على الكلبى (٣٤١ - ٣٥٣هـ) .

أقر الخليفة الفاطمى المعز أحمد بن الحسن بن على الكلبى على صقلية ، وهكذا تحول الحكم فيها إلى حكم وراثى فى بنى أبى الحسين الكلبى ، وعرفت صقلية والأقاليم الواقعة تحت النفوذ الفاطمى فى قلورية والجنوب الإيطالى الهدوء النسبى والاستقرار لعدة أعوام فى ولاية أحمد .، وقد يكون ذلك متعلقًا بالأوضاع الداخلية لكل من بيزنطة والخلافة الفاطمية ، ولم تنته سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٦م حتى أقدمت بيزنطة على نقض الاتفاق السابق ، وأرسل الإميراطور البيزنطى قواته التى تمكنت من احتلال بعض القلاع فى صقلية ، وأرسل الإمبراطور البيزنطى قواته التى تمكنت من احتلال بعض القلاع فى صقلية ، منتهزة وضع المعز الداخلى ، ومحاولته استكمال السيطرة على بلاد المغرب ، وما إن استقرت أمور الفاطميين ، حتى تحركت قواتهم باتجاه صقلية ، بهدف إعادة الهيمنة الكاملة الفاطمية عليها ، وعلى ما وراء البحار فى الجنوب الإيطالى ، وضمن هذا التوجه انطلقت قوة فاطمية فى عهد أبى الحسين أحمد إلى صقلية من أفريقية بقيادة عمار بن على بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٧م ، ونزل الأسطول الفاطمى فى بلرم ، منطلقًا فى الصيف إلى الجنوب الإيطالى ، وهكذا عادت الحروب بين القوتين البيزنطية والفاطمية وحققت القوات الفاطمية بعض الانتصارات ، وهذا ما يفسر وصول سفارة بيزنطة إلى المنصورة سنة ٣٤٥هـ ، ولم يستجب الخليفة لهذه

السفارة وطلب من قواته مهاجمة الأسطول البيزنطى عند سواحل صقلية ، فدحر البيزنطيين إلى (قلورية) بعد هزيمتهم[٤٣] ، وجاء فى العام التالى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م إلى المنصورة سفير بيزنطى يحمل الهدايا والأموال الكبيرة ويبلغ الخليفة رغبة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (٣٠١ - ٣٤٨هـ) (٩١٣ - ٩٥٩م) ، فى وقف الغارات الإسلامية على أرض قلورية ، ويتعهد بدفع الجزية ، وإطلاق أسرى المسلمين فى المشرق[٤٤] ، فتقبل الخليفة ، ورأى فى ذلك صلاحًا للدين والمسلمين .

ولم يكن البيزنطيون يلتزمون بالعهود إلا إذا كانت لصالحهم ، أو فى حال عجزهم عن المواجهة ، ولهذا نراهم يتحركون فى صقلية والجنوب الإيطالى ، وفى هذا الإطار قام ضابط بيزنطى باقتحام ريوه ، وهدم المسجد فيها ، ومهاجمة الشواطىء الصقلية ، والاستيلاء على مدينة ترمينى Termini ، فتحركت القوات الفاطمية بقيادة أبى الحسين أحمد فى سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م وعبر مضيق مسينا إلى كلابريا والتقى أبو الحسين مع عمه عمار ، واتجها بقواتهما للقاء قوات " كلابريا " الذى هرب أمامهم بعد أن أخذ بعض سفن المسلمين [٤٥]، واستمرت المناوشات الحربية بين الطرفين فى الأعوام التالية . إلي أن جاءت فى سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م فاشتركت القوات الفاطمية فى صقلية والمغربية الفاطمية فى حصار قلعة طبرمين الجديدة واستمر الحصار مدة سبعة أشهر تم خلال قطع الماء عنها فأجبرت على طلب الصلح ، وتحولت بعد أن سكنها المسلمون إلى مدينة فاطمية ، وأمر المعز بتسميتها المعزية تيمنًا به[٤٦]، وأرسل بالكثرة من أسراها إلى المهدية فى أفريقا .

وربما كان التوجه الفاطمى يهدف إلى تحويل المنطقة الجنوبية الجبلية وجنوب مسينى إلى مناطق إسلامية ، وتحويل المدن المسيحية إلى مدن خاضعة للمسلمين ، والعمل على نشر الإسلام فى جميع المناطق ، عن طريق زرع المستعمرات الإسلامية ، وعلى غرار ما حدث فى طبرمين التى صودرت أملاك أهاليها ، وحول اسمها إلى المعزية ، وهذا ما أكده المؤرخ الفرنجى جى .

كما تمكن الأمير أحمد من استعادة رمطة وهى مدينة هامة فى صقلية تبعد عن مسنين تسعة أميال ، بعد أن كانت قد خرجت عن طاعة والى صقلية ، وطلبت النجدة من الإمبراطور البيزنطى نقفور فوكاس (٣٥٢ - ٣٥٩هـ) (٩٦٣ - ٩٦٩م) ، فأرسل إليها نجدة تقدر بأربعين ألفًا بقيادة البطريق نقيتاس ، وإلى جانبه مانويل ابن أخى الإمبراطور ، وقائد فرقة

الخيالة ، وتلقى أحمد قوة فاطمية من المهدية قادها والده الحسن الكلبى ، واستلم قيادة القوات الفاطمية التى تولت مهاجمة رمطة وحصارها بقيادة الحسن بن عمار بن على الكلبى ، وحدثت المعركة الحاسمة ، وكان البيزنطيون مقتنعين بحتمية النصر بسبب كثرتهم ، لكن البسالة الإسلامية ، والخطط المفاجئة قلبت نتيجة المعركة ، وتحقق النصر للقوات الفاطمية ، وقتل مانويل ، وارتبك الجنود البيزنطيين وسقطوا فى حفرة ، وقتل بعضهم بعضاً ، ثم هوجمت رمطة وفتحت فى سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤م ، وتتبع المسلمون الجنود المنهزمين ، وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد (٤٧).

واستثمر المسلمون هذا النصر فلاحقوا القوات البيزنطية التى تجمعت من جيش مانويل ، أخذت معها من وجدته من روم صقلية ، وجزيرة ريوه ، وغيرهم لمواجهة المسلمين ، وتحصنت فى البحر انتظاراً للحظة الحاسمة وما سيتم تقريره ، ولهذا سارع الأمير أحمد وزحف لقتال هذا التجمع فى البحر ودارت معركة بحرية أظهر فيها الصقليون كفاءة عالية فى القتال البحرى حيث نزل بعض الغطاسة ، ونقبوا السفن المعادية ، فغرق معظمها ، وقتل الكثير من رجالها ، ولم يكن أمام الروم إلا الانسحاب والاعتراف بالهزيمة التى عرفت باسم وقعة المجاز ، ولم يكن أمام المدن الإيطالية إلا طلب الهدنة من جديد سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م ، وتم لهم ذلك مقابل دفع الأموال والفدية المتفق عليها (٤٨).

وقبل مغادرة المسلمين رمطة تركوا فيها حامية من أجل حمايتها ، وإعمارها لمنع الروم والنصارى من العودة إليها ، كما فعلوا فى طيرمين ، وقد اعتبر بعض الباحثين الفرنجة هذا الإجراء من مسلمى صقلية ولاسيما الوالى أحمد بن الحسن بن على الكلبى محاولة لإزاحة البقية المتبقية من المسيحيين فى صقلية ، وإنشاء مستعمرات إسلامية مكانها بهدف نشر الإسلام فيها ، وهذا ما يتفق مع سياسة المعز الدينية فى نشر الإسلام والمذهب الإسماعيلى ، وهو ما حاول تنفيذه الأمير الصقلبى (٤٩).

بعد هذا النصر الحشدى الذى تحقق فى وقعتى الحفرة والخندق والمجاز - اتجهت المدن الإيطالية والقوى الرومية إلى طلب الصلح وتحقق لها ذلك فى سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥م ، بعد دفع الأموال المفروضة ، كما أجبر نقفور فوكاس المقاتل العنيد ضد المسلمين على طلب الصلح، وعقد مع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م اتفاقًا ودفع الجزية ، بعد سفارة حملت هدايا نفيسة شملت بعض الأوانى الذهبية المرصعة بالجوهر ، وأبلغت الخليفة المعز رغبة

الإمبراطور فى عقد الهدنة بشروط الهدنة الأخيرة المتضمنة وقف القتال ، ودفع الجزية ، وإطلاق سراح مجموعة من أسرى المسلمين المشارقة (٥٠)، ولقد ذهل السفير البيزنطى نيقولا Nicholaa وهو أحد أشراف البلاط البيزنطى ، أثناء حفل استقباله فى المنصورية ، وأدهشه ما رآه من مظاهر الأبهة والعظمة والإجلال للحضرة المعزية .

وقبل أن يتوجه المعز إلى مصر اقتضت السياسة الاستراتيجية الفاطمية إعادة النظر فى ممتلكات الدولة الفاطمية فى إقليم المغرب الإسلامى وتنظيم أمورها بما فى ذلك صقلية وضمن هذا التوجه الجديد أعفى المعز بنى الحسن الكلبيين من حكم صقلية ، رغم ما بذلوه من جهود وتضحية لتثبيت الحكم الفاطمى فى المغرب وصقلية وفى ما وراء البحار ، فأقدم المعز فى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م على استدعاء أبى الحسن أحمد بن الحسن من صقلية إلى المهدية مع جميع أفراد الأسرة وخدمها وأنصارها ، وعين على الجزيرة أحد مواليهم وهو يعيش مولى الحسن نفسه (٥١)، حتى يخفف من وقع هذا الانقلاب المفاجىء وتأثيراته على أفراد هذه الأسرة ومكانتها ، ولا شك فى أن المعز تخوف من تفكير هؤلاء بالاستقلال عن الدولة والتفرد بحكم الجزيرة بعد أن تصبح الفرصة مناسبة إثر انتقاله المرتقب إلى مصر .

لم يكن الوالى الجديد على مستوى المسؤولية ، ولم يتمكن من ضبط أمور الجزيرة فأثيرت النزعات القبلية بين كتامة ومنافسيها ، وحدثت الفتنة ، وعدم الاضطراب ، وخشى المعز من طمع الأعداء ، وتحركهم ، فما كان منه إلا أن اضطر إلى إعادة الحكم فى الجزيرة إلى آل بنى الحسن الكلبيين ، فعين أبا القاسم بن الحسن بن على بن أبى الحسين نيابة عن أخيه أحمد الذى بقى فى المهدية ، أميراً لصقلية ، ومات أحمد بعد مدة قصيرة فعهد المعز بأمر صقلية إلى أبى القاسم ، فارتاح أهلها لهذا التعيين وهمدت الفتنة ، وهدأت الأحوال ، بعودة الأمور إلى مجاريها ، وعاد حكم الجزيرة لهذه الأسرة بعد أن أجبرت الأحداث العسكرية المعزّ على الاعتراف لها بحكم وراثى فى صقلية (٥٢).

وهكذا استقرت الأمور فى صقلية داخليًا وخارجيًا ، واطمأن الخليفة المعز على أملاكه فى صقلية ، وفيما وراء البحار ، كما اطمأن على سلطانه فى المغرب العربى ، واستمر السلام بعد انتقاله إلى مصر فترة اتخذ خلالها التوجه الفاطمى منحى جديداً ، وسياسة خارجية جديدة تخضع لمؤثرات مستجدة شرقية وربما مختلفة ، وكان على الفاطميين أن يتعاملوا بجدية مع المعطيات الجديدة بعد استقرارهم فى مصر .

ربما كانت أهم الاثار التى ترتبت على السيطرة الإسلامية الجديدة على البحر المتوسط الغربى ، وهذه السيطرة كانت نسبية غير مطلقة وقد جاءت من باب التعميم غير الدقيق ، والمقصود بالسيطرة ، أن الغلبة فى البحر المتوسط بجزأيه الغربى والشرقى غدت تحت الإشراف العربى الإسلامى ، وزال الخطر البيزنطى الذى كان كثيراً ما يحد من النشاط التجارى فيه ، عندما كانت بيزنطة تستخدم أسلوب السلبية[٥٣] التجارية عن طريق سيطرتها على المتوسط، والتحكم فى مفاتيحه ، لأطماعها ومكاسبها الخاصة ، ضاربة بالمصالح البشرية عبر الحائط .

ظهر فى هذه الفترة للعالم الإسلامى ثلاثة مراكز متميزة للقوات الإسلامية البحرية فى حوض البحر المتوسط ، الأول فى الغرب ممثلاً للقوة الأموية فى الأندلس ، والثانى فى الوسط ، وهى قوة الأغالبة التى ورثتها الدولة الفاطمية ، أما الثالثة فكانت فى الشرق متمثلة بقوة البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، وكان أهم هذه المراكز وأقواها القوة التى تركزت فى الشمال الإفريقى وفى صقلية أيضًا . وقد ورث الإشراف عليها وعلى قيادتها وتطويرها الفاطميون منذ سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م كما رأينا [٥٤].

وكان الاحتكاك العسكرى البحرى بين قوات هذه المراكز الثلاثة ضعيفًا وغير ظاهراً ، إلى أن قامت الخلافة الفاطمية ، معلنة شعاراتها الطموحة ، ونظريتها التوسعية ، واستخدمت قوتها البحرية ضد أملاك الخلافتين العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب ، وظهر كل ذلك فى الحملات العسكرية المتكررة إلى مصر ابتداء من عهد المهدى الخليفة الفاطمى الأول وإرسال الحملات العسكرية البرية والبحرية منذ عام ٣٠١هـ / ٩١٣م ، واستمرار ذلك التوجه إلى أن تمكن الخليفة المعز وقائده جوهر من تحقيق الحلم الفاطمى فى مصر ، ومعلوم أنه كان يرافق هذه الحملات البرية وحدات بحرية ترافقها وتساندها وتحمل لها المؤن والذخيرة وما تحتاجه [٥٥].

كما قام الفاطميون بالتحرش بالأمويين فى الأندلس ، ولم يكتفوا بالنشاط الفكرى ، ومؤازرة الثوار على الحكم الأموى ، إنما تجاوز ذلك إلى غزو الأملاك الأموية فى الأندلس سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م ، وتكرر هذا الغزو فى سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م عندما قام الأسطول الفاطمى من صقلية فى عهد الخليفة المعز وغزا ميناء المرية الواقع فى جنوب شرق الأندلس ، واحرق مراكبه والمخازن الخاصة بالسفن ، وما فيها من معدات بحرية من الصوارى والعدد ونهب جميع ذخائرها ، ثم عاد الأسطول الفاطمى محملاً بالغنائم إلى المهدية[٥٦] ، ومعلوم أن الأمويين ردوا على المشروع الفاطمى بإجراءات سريعة ، وفعالة ، وأبطلوه واستخدموا كافة السبل

حياله، بما فى ذلك التعاون مع الأعداء البيزنطيين ، الأمر الذى عمق الخلاف بين القوى الإسلامية فى غرب العالم الإسلامى ، وقاد ذلك إلى آثار سيئة على كلتا الدولتين ، وألحق الضرر الكبير بالمصالح العليا العربية الإسلامية وقدم كل ذلك الدليل الأكيد على وجود عوامل الانحلال الداخلى فى الدول الإسلامية ولم تتمكن البحرية الإسلامية من أن تقيم تعاونًا واضحًا وتحقق سيادة عربية معادلة لسيادة بيزنطة البحرية على المتوسط ، عندما كان واقعًا تحت نفوذها الذى استمر حتى[٥٧] سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م .

ورغم كل هذه السبيات الظاهرة ، وعلى الرغم من أن هذه السيادة العربية الإسلامية على البحر المتوسط كانت نسبية إلا أنها تركت آثاراً إيجابية اقتصادية عظيمة ، وأثرت بشكل واضح فى الخط التجارى فى معظم أقاليم هذا البحر المتوسط بالإضافة إلى الأسود ، وكان المستفيد الأول من هذا التحول الجديد ، والأكثر نفعًا من الوجهة الاقتصادية والتجارية سكان صقلية عامة والشمال الإفريقى خاصة ، حيث ازدادت أهمية سكان المنطقتين كوسطاء دوليين فى التجارة العالمية فى الشمال والواصلة بين سورية ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص ، وتحكم هؤلاء الأفارقة فى نقل السلع بين الغرب والشرق ، وتقدموا على حساب التجار الشوام والأوربيين فقامت سفنهم وجابت هذه الأماكن لنقل السلع والتوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة من مخازنها فى مصر والشام ، وإيصالها للغرب الإسلامى والأوربى .

هذه السيادة العربية على البحر المتوسط الغربى ، أدت إلى رخاء واضح لجميع بلاد المغرب كافة ، ويظهر ذلك بقوة عندما نقوم بعمل مقارنة بسيطة بين ما كانت عليه بعض المدن المشهورة فى الشمال الأفريقى فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع عندما كان النفوذ فى المتوسط لصالح بيزنطة كاملاً ، وبين هذه الفترة التى نحن بصدد دراستها منذ منتصف القرن التاسع وإلى نهاية القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، حيث يتضح لنا الفارق ، ونرى أن تونس والقيروان ورقادة ، وغيرها من المدن المغربية المهمة زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا ، زادت خيراتها وثراواتها وربما تضاعفت زمن الفاطميين على الرغم من فداحة الضرائب التى فرضها هؤلاء عليهم بهدف تحقيق مشروعهم التوسعى ، وما أدى إليه من حروب وصراعات فى المنطقة، وما استهلكه من أموال طائلة ، وخير مثال عن ذلك الثروة الهائلة التى انفقها المعز على حملته التى كلفت بفتح مصر والتى بلغت حصيلة ما جمعوه لها حوالى ٢٤ مليون دينار ذهبى ، وهو مبلغ مهم وكبير ويقدم البرهان الأكيد على التقدم الاقتصادى المتحصل من التجارة والصناعة فى الداخل والخارج [٥٩].

كما كان من آثار هذا التحول الجديد توسع تجارة الشمال الإفريقى مع مصر فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وتوافد الكثرة من البربر وعرب أفريقيا إلى مصر واستقرارهم فى الإسكندرية ، وهؤلاء شغلوا دوراً مهمًا فى مساعدة الحملات الفاطمية على مصر بدءاً من الحملة الأولى وحتى حملة جوهر الصقلبى الأخيرة .

ومما يؤكد هذا التواصل الحضارى فى هذه الفترة ، بين الشمال الأفريقى وشرق البحر المتوسط ، انتقال الزراعات ، وبعض النباتات من الشرق إلى الغرب كزراعة القطن ، وقصب السكر ، والزعفران(٦٠) وغيرها من مواد زراعية وصناعية إلى بلاد المغرب وكذلك إلى صقلية، وفيما بعد ساعد هذا التنقل الذى ابتدأ من هذه الفترة ، على إيصال هذه البذور الحضارية إلى أوربا ، وعلى إنهاض الهمم فيها ، وغرس بذور الأمل فى نهضتها المرتقبة .

كما كان من آثار ذلك النشاط التجارى الوصول إلى أعماق القارة الأفريقية وإلى منطاق تواجد الرقيق ، وتوفر الذهب ، فوجدت مسالك وطرق جديدة فى العصر الفاطمى ، لتؤمن للقوافل الوصول إلى السنغال والنيجر والسودان ، مخترقة الصحراء ، حيث الذهب والرقيق الأسود ، وهذا ما زاد فى أهمية سجلماسة على هذا الطريق ، منذ أن شيدها الرستميون فى سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م ، وغدت من أهم المراكز على الطرق التجارية المتجهة إلى أماكن هذه السلع المهمة فى أفريقية ، ومن المظاهر الدالة على ازدهارها فى القرن العاشر أن الضرائب المفروضة عي هذه التجارات السودانية بلغت حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ألف دينار سنويًا (٦١).

كما استفادت مصر هى الأخرى من هذا الوضع الجديد ، وبلغت درجة من الرخاء خلال القرن العاشر على الرغم من الأحداث العسكرية التى تفجرت فيها منذ بداية القرن ، وربما كان التحول التجارى الذى أصاب التجارة الشرقية وانتقل بها عن طريق الخليج العربى والعراق ومراكزها كهرمز والبصرة إلى مصر والبحر الأحمر ، من العوامل التى ساعدت على ازدهار مصر ونهوضها الاقتصادى ، حيث تشير بعض المصادر لهذا النشاط وازدهارها المراكز الواقعة على هذا الخط أمثال عدن(٦٢) والإسكندرية التى أصبحت مستودعًا كبيراً لتجارة البحر المتوسط ، وغصت بتجار المغرب والبندقية وكذلك من القسطنطينية ، وشاركت الشام مصر فى رخائها رغم الصراعات الإقليمية فيها ، وانتعشت مدنها البحرية لاسيما طرابلس وبيروت وصور وجميع الموانىء والثغور الساحلية الإسلامية ، وذلك بسبب فتح البحر المتوسط أمام التجارة العربية الإسلامية ، وانتهاء التحكم البيزنطى(٦٣)، وما رافقه من سلبية تجارية كما أشرنا إلى ذلك .

ومن مظاهر هذا الرخاء التجارى ونشاطه أيضًا ، التغيرات التى رافقت استخدام الدينار الذهبى ، حيث عم انتشاره شرقًا وغربًا ، وغدت المناطق الإسلامية فى الغرب والشرق تشكل وحدة اقتصادية نقدية واحدة ، وبعد أن كان استخدام الدينار حتى سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م مقتصراً على الشمال الأفريقى والشام ومصر وبعض أجزاء فى إيطاليا ، أصبح فى حوالى سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م نقداً دوليًا دون منازع واستخدم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى(٦٤) ما بين بلاد فارس والأندلس .

والأهم من ذلك كله أن السيطرة العربية الإسلامية على البحر المتوسط بجزأيه لم يكن لها آثار اقتصادية سلبية حتى على الأقاليم البيزنطية الشمالية ، وأسباب ذلك تعود إلى أنه لا توجد أية إشارات تشير إلى محاولة القوى الإسلامية عرقلة التجارة الدولية الذاهبة إلى الإمبراطورية البيزنطية أو القادمة منها ، أو التحكم فيها ، ومما يؤكد على ذلك انعدام ما يدل على أن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت لأزمات اقتصادية خلال هذه الفترة المدروسة بل توضح القرائن أنها كانت تنعم برخاء اقتصادى هى الأخرى ، واستمرت القسطنطينية من المراكز الصناعية والتجارية المهمة فى عالم البحر المتوسط وبين شعوبه (٦٥)، وبقيت عملتها رائجة ، ونقدها الذهبى نقيًا ، وواسع التداول ، وتوسعت الأعمال المصرفية ، وزادت أرباحها وجاء ذلك نتيجة للرخاء الذى عمّ العاصمة القسطنطينية ، واستمرار علاقاتها التجارية مع الغرب بواسطة المدن التجارية الإيطالية أمثال البندقية وغيرها .

أما الوضع الاقتصادى فى أقاليم الغرب اللاتينى المهمة ، فإنه اختلف تمامًا عن بقية بلاد البحر المتوسط ، وغدت مناطق الساحل المسيحى فى المتوسط من برشلونة حتى نهر التيبر تشكل مناطق مهجورة ، وميتة ، واختفت معالمها المتقدمة السابقة التجارية وغيرها وضعفت أمام التحدى العربى الإسلامى فى الأندلس .

أما مدن ساحل إيطاليا الغربى أمثال أمالفى وجاتيا ، وسلرنو ، ونابولى فقد حظيت بشىء من التقدم ، ولم تلتزم كثيراً بتوجيهات بيزنطة ، وتمكنت بما ملكت من قوة من أن تحدد علاقاتها الاقتصادية مع العرب المسلمين على قدم المساواة ، وكذلك حدث مع البندقية على البحر الأدرياتى ، حيث استفاد تجارها من التفوق الإسلامى فى البحر المتوسط ، واستمر تجار هذه المدن يتعاملون مع البلاد الإسلامية ، رغم اعتراضات بيزنطة والبابوية ، وكانت حاصلاتهم من الحديد والخشب والأسلحة ، إضافة إلى تجارة الرقيق هى التى درت على البندقية أرباحًا

طائلة فى أسواق العالم الإسلامى ما بين قرطبة وبغداد باعتبار أنه كان لهذه السلعة قيمة كبيرة فى قصور الحكام ، كما كان الخشب والحديد من المواد المهمة فى الصناعات البحرية والحربية وكانت دائمًا مطلوبة على طول السواحل البحرية فى المتوسط [٦٦]. وقد تميزت نابلى عن غيرها من المدن الإيطالية فى علاقاتها مع العرب المسلمين ، وكثيراً ما كانوا ينقلون إضافة إلى الحديد والخشب العبيد والمنسوجات إلى الأسواق الإسلامية ، ويعودون محملين بزيت الزيتون والسلع الشرقية والمصنوعات فى بلرم ، وشمال أفريقية .

جملة القول إن فترة السيطرة الإسلامية على حوض المتوسط من ٢١٢هـ / ٣٤٩هـ (٨٢٧ - ٩٦٠م) كان لها تأثيرات إيجابية واضحة على مجمل النواحى الاقتصادية لاسيما التجارية على شعرب ذلك البحر ، حيث شهدت انتعاش العديد من الطرق التجارية ، واتضح تفوق الشمال الأفريقى وتقدمه ، وسيطرته على تجارة البحر المتوسط ، وعلى الرغم من هذا التقدم للشمال الأفريقى ، فلم يكن حائلاً دون الرخاء التجارى الشامى ، كما أن البحر الأحمر وتجارته نهضت ولاقت كل ازدهار ، وتبين أن العالم الإسلامى بجملته شهد فى هذه المرحلة تقدمًا ظاهراً، كما أن بيزنطة لم تخرج عن هذا الإطار فزاد رخاؤها ، ووصلت إلى أوربا كما أشرنا عن طريق البندقية وبعض المدن الإيطالية القديمة ، وبوساطة الطرق الواصلة بين البحرين الأسود والبلطى .

وهذا العصر يعد من العصور الحيوية المميزة فى تاريخ البحر المتوسط حيث تبدل النظام الاقتصادى القديم ، وحدث تعديل فى التحولات الاقتصادية للأقاليم الاقتصادية الغربية من زراعية إلى صناعية ، وشاركت المدن الإيطالية الوساطة التجارية ما بين الشرق والغرب ، وكل ذلك أخذ يشكل الخطوات الأولى نحو السيطرة الغربية فى البحر المتوسط التى أخذت تتحكم فى الأقاليم العربية الإسلامية الغربية شيئًا فشيئًا ، وأدى ذلك كله إلى التحكم الأوربى الغربى فى شؤون هذا البحر المتوسط ، والتسلط على مصيره ، وخيرات شعوبه ، ومن ثم إحكام القبضة عليه .

الهوامش

١ - ارشيبالد : القوى البحرية ، ص ٩٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ : تاريخ البحرية الإسلامية ج٢ ص ٢٣ ، ٢٤ .

٢ - انظر : فاريليف : العرب والروم ، ص ٦٣ ؛ وجوردن : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة صقلية ؛ الواقدى : فتوح الشام ومصر ص ٤١٣ ؛ تقى الدين عارف الدورى : صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى : ص ٢٣ ، بيروت ١٩٨٠ .

٣ - المصادر والمراجع السابقة .

٤ - ٥ - انظر أقوال الرحالة العرب المسلمين ، المكتبة الجغرافية الصقلية ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٨١ ... إلخ ؛ ابن عذارى : المغرب البيان ج١ ، ص ٢٣ ؛ صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ص ٧٥ .

٦ - ٧ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٢٠٠ ؛ صابر دياب : سياسة ، ص ٩١ / ١٤١ .

٧ - المقريزى : اتعاظ ، ج٢ ، ص ٩٢ ؛ جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٢٢ ، وقيام الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٢٦ ؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية ، ص ٤٩ .

٨ - ابن عماد : أخبار ملوك بنى عبيد " لعله هو عبد الله وليس عبيد الله وإنما عبيد الله هو تصغير لاسمه ، ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٣٩ ؛ المقريزى : اتعاظ ، ص ٨ ؛ عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، ص ٨١ ط ٤ ، ١٩٩٤م .

٩ - المقريزى : اتعاظ ج٢ ، ص ٨٠ ؛ ماجد : ظهور ، ص ٨١ .

١٠ - القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ تحقيق الحبيب الفقى ، تونس ١٩٧٨ ؛ ماجد : ظهور ، ص ٨٦ وما بعدها ؛ محمد محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص ١١١ ؛ حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله الفاطمى ص ٤٦ ، ٣٠٣ وما بعدها ؛ العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ، ص ٥٢ .

١١ - المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٠ ؛ عارف تامر : تاريخ الإسماعيلية ج ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٢ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ج٣ ، ص ٥٧ ، ٦٢ .

١٢ - انظر : المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ١٣٣ تحقيق الشيال ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ١٢٨ ط ١٩٥١م ، تحقيق الدهان ؛ السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٤٥ ، تاريخ البحرية ج١ ، ص٩٩ .

١٣ - عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى ، ص ١٧٣ ليدن ١٨٩٧م ؛ الكندى : الولاة ، ص ٢٦٩ ؛ المقريزى : اتعاظ ج٢ ، ص ٧١ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ،ج١ ، ص ٢٥٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية ج٢ ، ص ١٧٢ ، تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٠ .

١٤ - انظر : أرشيبالد : القوى ، ص ٢٢٤ .

١٥ - البكرى : المغرب ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ وما بعدها ؛ ابن أبى دينار القيروانى : ص ١١ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ؛ العبر ج٢ ، ص ٦٢٨ ؛ التجانى : ص ٦ ؛ ابن حوقل : صورة ، ص ٧٣ ؛ سالم : البحرية الإسلامية ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ ؛ سعيد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ .

١٦ - انظر : الأنطاكى : تاريخ ص ٧٤٦ ، ٧٤٨ ؛ المقيرزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ؛ صابر دياب : سياسة ص ١٠١ ، ١٠٣ ؛ سيرة الأستاذ جوذر : ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢١ نشر محمد عبد الهادى شعيرة ، ومحمد كامل حسن ؛ حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله ، ص ٨٥ ، ١٨٦ ؛ ارشيبالد : القوى ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ؛ سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٢ .

١٧ - ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ١٤٧ ؛ سيرة الأستاذ جوذر : ص ١١٧ ؛ الأدريسى : نزهة ، ص ٩١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، المكتبة الجغرافية ، ص ١٣٤ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٤١ / ١٧٤ ؛ اليعقوبى : البلدان ص ٣٤٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٣ ، ٧٤؛ ابن حوقل : صورة ص ٧٧ ، ٨٤ ؛ البكرى : المغرب ، ص ٣٣ .

١٨ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ وعن أهمية صقلية والمواد الأولية فيها اللازمة لصناعة السفن : انظر : المكتبة الصقلية ٢٥ ومابعدها ٧٤ ، ٨٧ ... إلخ .

١٩ - ابن خلدون : العبر ج ٢ ، ص ٦٢٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ج١ ، ص٧٦ .

٢٠ - انظر : فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العسكرى والاتصال الحضارى ج ٢ ، ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٦٧ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٢ ؛ البكرى : المغرب ، ص ٢٠ ؛ الإدريسى : نزهة ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ ؛ سالم : تاريخ البحرية ج١ ، ص ٧٧ .

٢١ - ابن خلدون : ج ٢ ص ٦٢٧ ؛ سالم : البحرية ، ج١ ص ٧٧ / ٧٨ ؛ فتحى عثمان : الحدود ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ٣٤٧ .

٢٢ - انظر أرشيبالد : القوى ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ و ج٣ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

٢٣ – انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٦ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١٠٢ ؛ صابر دياب : سياسة ص ١٤١ نقلاً عن النويرى نهاية الأردب ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٣٤ حيث يذكر أن اسم والى الأغالبة الأخير هو " أحمد بن أبى الحسن بن رباح " .

٢٤ – ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٩ ، ٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ج ٢ ، ص ٦٦ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٩٨ ؛ تقى الدين الدورى: صقلية ، ص ١١٣ ؛ مورينو : المسلمون فى صقلية ، ص ١٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

٢٥ – انظر : ميخائل أمارى : المكتبة العربية الصقلية نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ص ٤٧٦ ، بيروت ليبسك ١٨٥٧م ؛ ابن خلدون : العبر ج ٣ ، ص ٣٦٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٧١ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٦ ، ١١٧ ؛ سعد زغلول عبد الحميد تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

٢٦ – وعن هذه الثورة وأهدافها : انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٦ ؛ الأنطاكى : تتمة تاريخ سعيد بن البطريق ، ص ٧٦٢ . ٧٦٤ ، طبعة باريس ١٩٢٤ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٧١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ١٢٠ ؛ العبر ج ٤ ، ص ٢١٧ ؛ المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ تاريخ جزيرة صقلية ص ١٦٨ ؛ ابن عذارى : ج ١ ، ص ٢٣٣ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٨ ، ٩٩ ؛ عبد الله المهدى ص ٢٦٨ ؛ تقى الدين عارف الدورى : صقلية : ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٨ .

٢٧ – انظر : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ نقلاً عن مؤرخ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ، ص ١٦٩ .

٢٨ – أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ؛ تقى الدين : صقلية ، ص ١١٧ .

٢٩ – تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٧ ؛ نقلاً عن مؤرخ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة العقلية ص ١٦٩ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٢٦٤ ؛ وانظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ، ج٣ ، ص ١٥٦ .

٣٠ – ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٨٩ ، ٢٦٦ فى حين جاء فى تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ ، ١٧١ أن جعفر أخذ بريعانة ؛ انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٥٦ .

٣١ – الكامل : ج ٨ ، ص ١٥٩ ؛ ابن عذارى : ج ١ ، ص ١٩٠ و ط بيروت ٢٦٧ حيث يرد اسم المدينة " وارى " بدلاً من أوريه – وانظر : تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، المكتبة الصقلية لامارى ج ١ ص ١٧٠ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٧ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٧ ؛ وانظر أرشيبالد : القوى ص ٢٣٤ وورد اسم أورية " أريو " .

٣٢ – انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ص ١٥٨ نقلاً عن المكتبة الصقلية ج ١ فصل ٢٧ ، ص ١٧٠ .

٣٣ – ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٢٧٠ ؛ تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ص ١٧٠ ؛ لويس أرشيبالد : القوى ، ص ٢٣٤ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ .

٣٤ – انظر : مؤرخ مجهول : جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٠ / ٢٧٥ ؛ ح . جاى : إيطاليا الجنوبية ص ٢١٨ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٩ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ .

٣٥ – الكامل ج ٦ ، ص ١٨٢ ؛ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ص ١٧٠ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٨ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٣٤ .

٣٦ – انظر : العبر ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ الكامنل : ج ٦ ، ص ٢٤٦ ؛ وهناك اختلاف فى النصوص حول اعتبار جنوة من بلاد الروم أو الإفرنج انظر : سعد زغلول : ج ٣ ،و ص ٢٥٦ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٨٥ " حيث يقول إن جنوة من بلاد الروم ، وقارن ذلك مع افتتاح الدعوة ، ص ٣٣١ ، حيث تذكر افتتاح مدائن الروم فافتتحت جنوة ؛ انظر أرشيبالد : القوى ص ٢٣٤ " حيث يذكر أن الفاطميين أزعجهم النشاط البيزنطى، فى غرب المتوسط فأرسلوا عام ٩٣٥ أسطولاً ليثبت دعائم سلطانهم فى مياه البحر التيرانى ، وأغار هذا الأسطول الفاطمى على مرونية وكورسيكا وربما على جنوة وتمكن من حرق العديد من السفن .

٣٧ – ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٤٣ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء كج ٢ ، ص ٣٠٢؛ الجوذرى : سيرة الأشتاذ جوذ ، ص ٧١ ، ٧٢ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ؛ العبر ، ج٣ ، ص ٢٠٨ ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٠ ؛ عارف الدورى : صقلية ص ١١٧ ، ١١٨ .

٣٨ – انظر : الكامل : ج ٨ ، ص ٤٧١ ، ٤٧٣ ؛ العبر ج ٤ ص ٢٠٩ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١٠٨ ؛ سعد زغلول : ج٣ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

٣٩ – انظر : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٦؛ نقلاً عن ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٢ .

٤٠ – انظر : الكامل ج٨ ، ص ٤٧٤ ، ٤٩٤ وأحداث سنة ٣٤٠ هـ . المكتبة الصقلية حيث يقابل سنة ٩٥٤م ٣٤٣هـ ، ج١ ، ص ١٧٤ و ١٧٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

٤١ – المصادر والمراجع السابقة .

٤٢ – انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٤ ، حيث يقول أن الحسن شرط على الروم إن أخرجوا حجراً من المسجد هدمت كنائسهم كلها بصقلية وأفريقية ، وأن الروم وجدوا بهذه الشروط ذلة وصغاراً؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٨ ؛ وانظر سليمان الرحيلى : السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ، ص ١٧٤ ، الرياض ١٤١٤هـ .

٤٣ - انظر : القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ إدريس عماد الدين القرشى : عيون الأخبار وفنون الآثار ج ٥ ، ص ٣٣٨ ، بيروت ١٩٧٥ ؛ سليمان الرحيلى : السفارات ، ص١٧٥ .

٤٤ - لم يفرق المعز بين أسرى المسلمين سواء كانوا تابعين للدولة الفاطمية أو مشارقة تابعين للعباسيين فالجميع مسلمون وهذا ما يتفق والتوجه الإسماعيلى الفاطمى حيث يعتبرون المسلمين كلهم رعاياهم وحتى ولو لم يكونوا تحت نفوذهم أو سلطانهم وكانوا يفتخرون على الأمويين بذلك . انظر : القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٧٥ و ١٦٧ ؛ سليمان الرحيلى : السفارات ، ص١٧٦ .

٤٥ - الكامل : ج ٨ ، ص ٥٤٣ ؛ المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٢٩، ٤٧ ، ٤٩ ؛ ابن ظافر الأزدى : الدولة المنقطعة ، ص ٢٣ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٤ ، ١١٥ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

٤٦ - ج جاى : إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩ بالفرنسية ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣، ص ٢٧١ .

٤٧ - انظر : الكامل ج ٨ ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ ؛ جاى : إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية (بالفرنسية) ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛ المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٦ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

٤٨ - انظر المصادر والمراجع السابقة .

٤٩ - انظر : جاى : إيطاليا ، ص ٢٩١ ؛ سعد زغلول : تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٧٣ .

٥٠ - القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ٣٦٧ ، ٣٧٠ ؛ الكامل : ج ٩ ، ص ٥٥٨ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ؛ أحمد عزيز : صقلية الإسلامية ، ص ٣١ (بالإنجليزية) ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٦ ؛ نقلاً عن النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ج ٢٢ ، ص ورقة ١١٩ ؛ انظر : سليمان الرحيلى : السفارات ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ .

٥١ - الكامل : ج ٨ ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، أحداث سنة ٣٥٩هـ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧٥ / ٢٧٦ ؛ أحمد عزيز : صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) ، ص ٣١ .

٥٢ - المصادر والمراجع السابقة .

٥٣ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ؛ فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، ص ٢٢ إلى ٢٦ ؛ زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولونى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

٥٤ - انظر ما سبق من هذا البحث .

٥٥ - القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٥٦ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٥١٣ حوادث سنة ٣٤٤هـ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٢٩ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥١ .

٥٦ - انظر سعد زغلول عبد الحميد : ج ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ؛ نقلاً عن المجالس والمسايرات ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٥١٣ .

٥٧ - أرشيبالد : القوى ، ص ١٥٧ ، ٢٥٢ .

٥٨ - انظر أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٢ .

٥٩ - المقيرزى : اتعاظ ج ٢ ، ص Lane Poolci Egypt : p. 101 - 1s

أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٤ .

٦٠ - البكرى : المغرب ، ص ٦٥ ، ٦٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤١٣ ، ٤١٥ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٤ .

٦١ - لومبارد : العرب فى أوج حضارتهم تجارة الذهب ، ص ١٤٩ ؛ أرشيبالد ، ص ٢٥٥ .

٦٢ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ نقلاً عن المقدسى ؛ وانظر :

Lestusange, G. Baghdad under the chliphis. p. 44 , 77 .

٦٣ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٩ .

٦٤ - لومبارد : العالم الإسلامى ، النقد ص ١٥٢ ؛ أرشيبالد : ص ٢٦١ .

٦٥ - لومبارد ، ص ١٥٣ ؛ أرشيبالد : ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

٦٦ - أرشيبالد : ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .

المراجـع

١ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩م .

٢ - أرشيبالد ، لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠) ترجمة غربال وعيسى ، مكتبة النهضة ، القاهرة .

٣ - أحمد عزيز : صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) ادنبرة ١٩٧٥م .

٤ - أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية تفسير جديد ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، القاهرة .

٥ - النعمان بن محمد : كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحان الدشراوى ، تونس ١٩٧٥ ، كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الفقى ، وشبوح ، واليعلاوى ، تونس ١٩٧٨م .

٦ - البكرى : المغرب ، المسالك والممالك ، نشر رسلان الجزائر ١٨٥٧م .

٧ - التجانى : الرحلة ط ١ ، تونس ١٩٢٧م .

٨ - السيد عبد العزيز سالم والعبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ج ١ و ج ٢ ، ط ١٩٩٣م .

٩ - تقى الدين عارف الدورى : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى ، بغداد ١٩٨٠م .

١٠ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ١٩٨١م ، المعز لدين الله الفاطمى القاهرة ١٩٦٤م .

١١ - حسين مؤنس : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٣م .

١٢ - ابن الخطيب : الأعلام ، تحقيق العبادى ، والكتانى الرباط .

١٣ - ابن خلدون : العبر بولاق ، ٧ أجزاء والمقدمة .،

١٤ - رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٦م .

١٥ - راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٨٦م .

١٦ - سليمان الرحيلى : السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ، الرياض ١٤٠٦هـ .

١٧ - سيرة الأستاذ جوذر : تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ١٩٥٤م .

١٨ - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ، ج ٣ ، الإسكندرية ١٩٩٠م

١٩ - صابر محمد دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ، عالم الكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م .

٢٠ - على حسنى الخربوطلى : الإسلام فى حوض البحر المتوسط ، بيروت ١٩٧٠م .

٢١ - عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، دار الفكر ، القاهرة، السجلات المستنصرية ، القاهرة .

٢٢ - ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، دمشق ١٩٥١م .

٢٣ - عارف تامر : تاريخ الإسماعيلية ، ج ١ ط ١ ، ١٩٩١م .

٢٤ - ابن عذارى : البيان المقرب ، نشر إحسان عباس ، بيروت .

٢٥ - فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العسكرى والاتصال الحضارى ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٧م .

٢٦ - فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، وفؤاد حسين على ، القاهرة دار الفكر .

٢٧ - لومبارد موريس : الإسلام فى فجر عظمته ، ترجمة حسين عودات ، دمشق ١٩٧٩م.

٢٨ - المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، تحقيق الشيال ج٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١م .

٢٩ - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية دار الفكر ١٩٩٥م ، وسياسة الفاطميين الخارجية .

٣٠ - ميخائيل أمارى : المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧م .

٣١ - محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولونى حتى نهاية العصر الفاطمى ، بيروت ١٩٩٢م ، دار الفكر .

د. عبد الله كامل موسى عبده(*)

المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص منذ العصر العثمانى حتى نهاية القرن ١٣هـ/١٩م دراسة أثرية وثائقية

نعالج فى هذا البحث موضوع منشآت مدينة قوص التجارية والصناعية من النواحى الأثرية والوثائقية . وهى المنشآت التى تنوعت ما بين فنادق وخانات ووكالات وأسواق ومعاصر وطواحين وقاعات حياكة وغير ذلك ، كذلك تتعرض هذه الدراسة للخطط التى ارتبطت بالتجارة وطوائف الحرف وغير ذلك من ألوان الحياة الاجتماعية والفنية بالمدينة ، خاصة وأن هذه المنشآت وطوائف الحرف لم تحظ بقدر كاف من عناية الباحثين خلال الفترة موضوع الدراسة ، وهى الفترة التى تبدأ فى القرن الخامس الهجرى .

وتتألف هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة محاور :

أما المقدمة فتتناول منشآت قوص التجارية والصناعية منذ بداية ازدهار قوص فى النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١م نتيجة تحول درب الحج من شبه جزيرة سيناء إلى طريق قوص ، وهى الدراسة التى تعتمد بشكل أساسى على نصوص الجغرافيين والرحالة الذين

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

توافدوا على المدينة فى أوقات مختلفة خلال تلك الفترة ، وسجلوا عنها كل ما عاينوه فى كافة نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية وجاءت نصوصهم المدونة عنها فى غاية الأهمية والدقة .

ويتناول المحور الأول المنشآت التجارية المندثرة والباقية خلال الفترة موضوع الدراسة . ويشتمل هذا المحور على ذكر لبعض الوكلات المندثرة بقوص التى أمدتنا بها الوثائق ، كما يشتمل على دراسة أثرية معمارية لوكالتين إحداهما تعرف بوكالة الوقف وترجع إلى سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٨م ، وقد اندثرت حاليًا ، غير أن جان كلود جارسان (Garacin, J. C.) أمدنا بصورة لها ، والأخرى ترجع إلى ما قبل سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م وتعرف بوكالة بيت عودة ، وهى بحالة جيدة .

ويتناول المحور الثانى المنشآت الصناعية بالمدينة من خلال دراسة وثائقية .

أما المحور الثالث فيتناول الخطط التى ارتبطت بالتجار وبعض الحرف ، كما يتناول طوائف الحرف وطبقة التجار بالمدينة من خلال دراسة وثائقية .

موقع قوص وأهميته (شكل ١) :

قوص[١] (Qous) مدينة مصرية قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل بين مدينتى قفط والأقصر ، ذكرها اليعقوبى فى النصف الثانى من القرن ٣هـ / ٩م فقال " ومن مدينة قفط إلى مدينة الأقصر ، وهى مدينة قد خربت وصارت مكانها مدينة قوص "[٢] ، بدأ عمرانها فى العصر الإسلامى منذ عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م عقب تدهور مدينة قفط[٣] بسبب أهمية موقعها على النيل ، وكانت أسوان فى ذلك الوقت تمثل حاضرة الصعيد ، حيث ازدهرت إداريًا واقتصاديًا وعمرانيًا وثقافيًا وفنيا ، وهو الأمر الذى يتضح جليًا فى كتابات المؤرخين[٤] والجغرافيين[٥] والرحالة[٦] المسلمين فى العصور الوسطى .

بداية ازدهار قوص :

كان أول ظهور حقيقى لقوص على مسرح الأحداث التاريخية فى العصر الفاطمى ، وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١م عقب تحول درب الحج من طريق سيناء إلى الطريق الجنوبى عبر نهر النيل بسبب الأحوال السياسية[٧] والاقتصادية[٨] التى مرت بها مصر خلال تلك الفترة أى إلى أحد طرق ثلاثة تربط بين البحر الأحمر والنيل هى قوص - القصير ، قوص - عيذاب ، أسوان - عيذاب[٩] (شكل ١) .

ولم تلبث أن غدت قوص مدينة زاهرة من الناحيتين الدينية والتجارية بعد أن تدفق عليها الحجاج والتجار ، فقد وصفت بأنها " أعظم ولايات الديار المصرية ، وواليها يحكم على جميع بلاد الصعيد "(١٠)، ويحدثنا البكرى فى النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١م عن هذا الازدهار بقوله : " وهى مدينة كبيرة .. وفيها أسواق وحمامات ومعاصر للسكر ... ولها ضياع جليلة"(١١)، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المدينة قد شهدت تطوراً فى الناحيتين التجارية والصناعية من حيث النشاط والمنشآت فتعددت الأسواق(١٢) والحمامات ، وازدادت موارد الثروة ، وازدهرت المعاصر كمنشآت صناعية ، حيث ازدهرت صناعة السكر من القصب ، وقد ارتبط كل ذلك ارتباطًا وثيقًا بالأحوال السياسية المستجدة ، وتطور الحياتين الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة .

هذا وقد ازدهرت موانىء البحر الأحمر ازدهاراً عظيمًا من الناحية التجارية حتى أنها فاقت فى العصر الفاطمى موانىء البصرة وسيراف وصحار ، عقب تحول طريق التجارة البحرية مع الشرق الأقصى من الخليج إلى البحر الأحمر . وغدت عدن مركزاً رئيسيًا لكل تجارة المحيط الهندى ، وقد فطن الفاطميون إلى ضرورة تأمين البحر الأحمر فتم لهم ذلك بقيام الدولة الصليحية(١٣) فى اليمن خلال الفترة من ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م إلى ٥٣٢هـ / ١١٣٧م(١٤) .

وقد ترتب على هذا الاستقرار السياسى للفاطميين فى مصر والحجاز واليمن تزايد ازدهار المنشآت التجارية والصناعية فى قوص وموانىء البحر الأحمر سواء من قبل الفاطميين أو التجار الكارمية(١٥) فى الوقت الذى لم تعد أسوان سوى مدينة تخزن فيها البضائع المخصصة للنوبة . ويحدثنا الإدريسى فى القرن ٦ هـ / ١٢م عن تزايد هذا الازدهار فى قوص بقوله "مدينة كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات ودخل وخرج والمسافر إليها كثير والبضاعات بها نافقة والمكاسب رابحة والبركات ظاهرة ... ولها بقول طيبة وضروب من الحبوب كثيرة ... ولحوم .. طيبة المأكل "(١٦) ، غير أن الأحوال التجارية والصناعية لم تلبث أن تأثرت فى نهاية العصر الفاطمى بسبب اضطراب أحوال مصر السياسية نتيجة الصراع بين شاور وضرغام. فى الوقت الذى اشتعلت فيه نار الحروب الصليبية (١٧).

منشآت قوص التجارية والصناعية فى العصر الأيوبى :

استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يعيد إلى مصر الاستقرار السياسى(١٨) والاقتصادى فازدهرت تجارة البحر الأحمر ازدهاراً عظيمًا ، وبلغت قوص أوج ازدهارها فى العصر الأيوبى

إداريًا واقتصاديًا وعمرانيًا وثقافيًا وفنيًا ، قال ابن جبير " وهذه المدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم "(١٩) .

ويشير ابن جبير إلى فندق بقوص ينسب لابن العجمى ، حيث أورد ما نصه : " وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة "(٢٠) ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المدينة عرفت إلى جانب الأسواق العامرة فى العصر الأيوبى نوعًا آخر من لمنشآت التجارية تمثل فى الفنادق ، وفى اعتقادي أنها عرفت عمارة الفنادق فى العصر الفاطمى مع اتساع وازدهار الحركة التجارية الداخلية والخارجية من جهة ، وتوافد الحجاج عليها من جهة أخرى ، حيث تعد الفنادق من المنشآت التجارية الهامة الى خصصت للتجار وغير التجار الأجانب ، يدل على ذلك أن الفاطميين شيدوا العديد منها للتجار الإيطاليين وغيرهم ، إذ كان لكل جالية أجنبية فندق خاص ، وكانت عبارة عن منشآت ذات أفنية تشتمل على كنائس وأفران وغير ذلك من الملحقات(٢١) . وأغلب الظن أن تجار(٢٢) الكارم قد شيدوا أيضًا هذا النوع من المنشآت التجارية فى العصر الفاطمى فى قوص وبقية المدن التى نزلوا بها فى مصر واليمن ، وكانت فنادقهم أيضًا ذات أفنية تشتمل على مساجد وغير ذلك من الملحقات ، خاصة وأنهم اتخذوا الإسلام أساسًا لوحدة طائفتهم ، وأرجح أنها جاءت على غرار الفندق الذى شيد فى الفسطاط للكارم من قبل الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (٢٣).

ويذكر أحد(٢٤) الباحثين أن ابن جبير أمدنا بوصف لفندق ابن العجمى بقوص بما نصه "ربع كبير خارج المدينة " ، والواقع أن ابن جبير لم يقدم لنا وصفًا للفندق وإنما قدم لنا وصفًا للمنية التى يقع بها بما نصه " وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة "(٢٥) ، وهو ما يدل على أن الباحث قد جانبه الصواب فى قراءة النص ، وفى النص تسجيل توثيقى لمنشأة تجارية مندثرة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه على الرغم من كثرة ما ورد من نصوص تتعلق بأسماء الفنادق الى شيدت بالقاهرة خلال العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية فى المصادر التاريخية وكتب الجغرافيين والرحالة المسلمين إلا أننا لم نستدل على تكويناتها المعمارية سواء من حيث التخطيط أو الوحدات والعناصر المعمارية ،

حيث خلت هذه النصوص من الوصف المعمارى لها من جهة ، ولم يبق قائمًا منها شيء يمكن الاعتماد عليه فى وصفها من جهة أخرى(٢٦) .

كذلك يحدثنا ابن جبير عن موضع يشغل مساحة عظيمة عرف بالمبرز يقع قبلى قوص يجتمع فيه رحال الحاج والتجار ، حيث كان يتم السفر منه إلى عيذاب ، ويدل هذا الموضع من جهة ، ووجود الفندق بربض كبير عرف بالمنية من جهة أخرى على أن المدينة بلغت من النمو العمرانى نتيجة الاستقرار السياسى والازدهار الاقتصادى درجة عظيمة بحيث توسعت فى امتدادات عمرانية جديدة .

ويصف لنا ياقوت الحموى فى بداية القرن ٧ هـ / ١٣م المدينة وصفًا رائعًا يؤكد وصف الرحالة ابن جبير ، حيث قال " وهى مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر ... وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهى محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة ، وهى شديدة الحر " (٢٧).

قوص فى العصر المملوكى :

يحدثنا ابن سعيد عن قوص ومنشآتها الدينية والمدنية خلال زيارته لمصر قبل عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م بقوله " وهى مدينة جليلة ... ذات ديار فائقة ، ورباع أنيقة ، ومدارس وربط وحمامات ، يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال ، وبها البساتين والحدائق المستحسنة إلا أنها شديدة الحر ، كثيرة العقارب "(٢٨) .

ويصف لنا التجيبى المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م والذى زار مصر فى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م المنشآت التجارية بقوص المتمثلة فى الفنادق أو الخانات بقوله " وكان نزولنا بهذه المدينة بالخان الكبير المعروف بالفندق ... وبه ينزل التجار المدعوون بالأكارم ... وإليه يقصد الجمالون وغيرهم ممن يريد دخول الصحراء "(٢٩)، كما أمدنا بوصف معمارى للخان الذى نزل به بما نصه " وما رأينا قط خانًا أكبر منه ، وهو نوع حصن ، وكل نوع من مساكنه مستقل بنفسه غير محتاج إلى غيره وفى وسطه مسجد تصلى فيه الصلوات الخمس ، وله إمام راتب "(٣٠) ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن هذا الخان تميز بالضخامة والفخامة من الناحية المعمارية يشتمل على مسجد شأنه فى ذلك شأن بقية الخانات أو الفنادق التى شيدت من قبل الكارمية كما تقدم .

ويحدثنا أبو الفداء المتوفى ٧٣٢هـ / ١٣٣١م عن قوص بقوله " مدينة بالصعيد وليس بأرض مصر بعد الفسطاط مدينة أعظم منها وهى فرضة التجار من عدن ... وفرضة قوص قصير "(٣١) .

ويشير ابن فضل الله العمرى المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م إلى ازدهار الحياة التجارية والصناعية بهاوتعدد الفنادق بقوله " قوص أكبر مدينة بالصعيد وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن والحجاز بعد مرورها بصحراء عيذاب وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة والحمامات والمدارس والبساتين والحدائق ومزارع الخضروات ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ذوى العقارات والأملاك وهواؤها فى غاية الحرارة"(٣٢) .

هذا ويصف لنا ابن بطوطة المدينة فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ / ١٤م بقوله " مدينة عظيمة لها خيرات عميمة ، بساتينها مورقة ، وأسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثيرة ، وهى منزل ولاة الصعيد "(٣٣) .

والواقع أن الأحوال التجارية قد تأثرت فى قوص فى بداية العصر المملوكى بسبب اضطراب الأحوال السياسية من جهة ، وفرض السلطان قطز المكوس على تجار الكارم من جهة أخرى . غير أن المدينة لم تلبث أن استعادت نشاطها التجارى بفضل سياسة الظاهر بيبرس ، حيث ألغى المكوس ، وربط المدينة بعيذاب بطريق البريد . وفى عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م أعاد استخدام درب الحج القديم مما أثر على الطريق الجنوبى ، غير أن المدينة ظلت تزاول دورها التجارى والصناعى ، وهو الأمر الذى يتضح جليًا من خلال نص ابن بطوطة الذى تقدم ذكره(٣٤) .

وقد بدأت عيذاب فى الاندثار منذ عام ٨٣٠ هـ / ١٤٣٦م عندما عمد السلطان برسباى إلى الاهتمام بجدة والشروع فى تعميرها فى عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م . وخلال تلك الفترة وحتى نهاية العصر المملوكى ذكرت قوص فى صبح الأعشى(٣٥) ، وفى الخطط المقريزية(٣٦) ، وفى زبدة كشف الممالك(٣٧) ، وفى الروض المعطار(٣٨) على سبيل المثال ، ويتطابق ما ورد عنها فى ألروض المعطار وما أورده الأدريسى(٣٩) وتقدم ذكره .

المنشآت التجارية بقوص فى العصر العثمانى والقرن ١٣ هـ / ١٩م :

أولاً : الوكالات :

اندمجت الأعمال القوصية كلها بما فيها مدينة قوص فى ولاية جرجا فى العصر العثمانى، وظلت كذلك حتى عام ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م ، حيث تبعت إقليم قنا لأول مرة باسم مأمورية قنا ، وأصبحت قاعدة لقسم قوص من تلك السنة ، وقد سمى مركز قوص من أول سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م [٤٠].

هذا وقد أمدتنا الوثائق بالعديد من الوكالات بمدينة قوص فى القرن ١٣ هـ / ١٩م ، مما يدل على ازدهار الحياة التجارية بالمدينة ازدهاراً كبيراً فى العصر العثمانى والقرن ١٣هـ / ١٩م . ومن هذه الوكالات وكالة ملك محمد أغاه (أنظر الوثيقة المرفقة فى نهاية البحث) بارون ورد ذكرها فى السجلات بما نصه " وأوقف جميع الوكالة الكائنة بناحية قوص إلى مسجد العارف الطواب وجعل الناظر عليها من بعده معتوقه سعيد "[٤١] ، وقد اتضح لى من خلال الزيارة الميدانية أن هذه الوكالة كانت تقع أمام مسجد الطواب ، غير أنها اندثرت حالياً وشيدت فى موضعها أبنية سكنية حديثة جارية فى وقف المسجد تقع فى شارع سيدى أحمد الطواب . (انظر الوثيقة الملحقة بالبحث) .

كذلك ورد فى الأشهاد السابق ذكر لوكالة أخرى بما نصه " وحدودها ... والشرقى وكالة أبى قرض "[٤٢] . كذلك أمدتنا السجلات بوكالة تقع بحارة الخولى جارية فى ملك الأمير رجب أغاه [٤٣]. غير أنه مما يؤسف له أن الوثائق التى بين أيدينا لم تمدنا بوصف لهذه الوكالات يتناول طبيعة الوظيفة التى كانت تؤديها من جهة ، ووحداتها وعناصرها المعمارية وطبقاتها من جهة أخرى . ويذكر لنا على باشا مبارك وكالتين بمدينة قوص بما نصه " وبها وكالتين يبيت بهما الواردين ويربطون بهما مواشيهم ودوابهم "[٤٤] وقد ذكر جارسان وكالتين بقوص إحداهما تعرف بوكالة الوقف وترجع إلى العصر العثمانى ، حيث شيدت فى عام ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م ، غير أن هذه الوكالة اندثرت ولم نقف عليها ، ونتبين من خلال صورة[٤٥] قديمة لها أنها شيدت بالآجر تشتمل واجهتها العمومية على مدخل جاء من فتحة مستطيلة يتوجها عقد مستقيم من الخشب ، ثم يتوج المدخل عقد ثلاثى .

أما الأخرى[٤٦] فتعرف بوكالة بيت عودة وترجع إلى النصف الثانى من القرن ١٢ هـ / ١٨م ، حيث جددت فى عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م ، وهى بحالة جيدة من حيث التخطيط

والعمارة ، وقد قمت بزيارتها ودراستها دراسة ميدانية ، وهى الدراسة التى يمكن عرضها على النحو التالى :

وكالة بيت عودة :

الموقع وتاريخ الإنشاء (شكل ٢)

تقع هذه الوكالة بشارع أبى العباس فى مواجهة الواجهة العمومية الجنوبية الغربية للجامع العمرى ، وتشرف على الشارع السالك من خلال واجهة رئيسية تقع فى الجهة الشمالية الشرقية . أما الجهات الثلاث الأخرى الجنوبية الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الشرقية فتحيط بها حاليًا عمائر سكنية ، حيث يوجد درب فى طرفها الجنوبى . ويبدو أن هذه الوكالة كانت تشتمل على أربع واجهات تشرف على الطريق السالك ، إلا أنها نتيجة الزحف العمرانى فقدت ثلاث واجهات ، ولم يتبق سوى الواجهة الرئيسية . (لوحة ١) .

وقد عرفت الوكالة واشتهرت بوكالة بين عودة أو آل عودة ، فقد ورثها آل عودة . وتشتمل الوكالة على نص كتابى نتبين منه تجديدها فى ١٤ ربيع الأول من سنة ١٣٠١هـ (١٨٨٣م) من قبل شخص يدعى أحمد عبد الله ، وهو الأمر الذى أرجح معه أن هذه الوكالة معاصرة لوكالة الوقف التى تقدم ذكرها ، أى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى .

الواجهة ومشتملاتها (لوحة ١)

قسم المعمار الواجهة التى تقدم ذكرها بالجهة الشمالية الشرقية إلى مستويين أحدهما سفلى والآخر علوى ، حيث ترتفع الواجهة بمقدار طابقين . يشتمل الطابق السفلى على كتلة المدخل العمومى الذى يتوجه عقد ثلاثى ، كما يشتمل فى القسم الشمالى منه الذى يقع على يمين الواقف أمام المدخل العمومى على نافذة مستطيلة مغشاة بمصبعات حديدية، كذلك يشتمل فى القسم الجنوبى منه على حانوتين ثم نافذة تقع فى نهاية الطرف الجنوبى من الواجهة .

أما الطابق الثانى فيشتمل على سبع نوافذ مستطيلة كبيرة جاءت من مستويين تغشيهما مصبعات حديدية ، وتشرف هذه النوافذ على الطريق السالك والجامع العمرى . وقد أوجدها المعمار لإضاءة وتهوية القاعات العلوية التى تقع بالطابق الثانى من الوكالة فى الجهة الشمالية الشرقية ، ثم تنتهى الواجهة بسور علوى شيد مع بقية أقسام الواجهة بالآجر ، وقد وجدت أثناء صعودى إلى السطح بقايا قاعة يبدو أنها شيدت حديثًا تقع فى الطرف الجنوبى من

الواجهة تشتمل على نافذتين منفصلتين إحداهما صغيرة فى المستوى السفلى ، والأخرى كبيرة فى المستوى العلوى ، وتتوسط سور الواجهة نافذة تشرف من خلالها الواجهة على الطريق السالك والجامع العمرى .

كتلة المدخل (لوحة ٢) :

تقع كتلة المدخل فى الطرق الشمالى من الواجهة فهى لا تتوسط الواجهة ، ويعزى ذلك إلى اشتمال الواجهة على حانوتين ونافذة فى القسم الجنوبى منها والذى يقع على يسار الواقف أمام المدخل العمومى ، ويتوج المدخل عقد ثلاثى بديع يعد من أهم خصائص هذه الوكالة من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، وتفصيل ذلك أنه يشتمل على فتحة مستطيلة يغلق عليها فردة باب خشبى كبير صفح تصفيحًات كاملاً بالصفائح المعدنية التى تثبت بمسامير مكوبجة ويعلو الفتحة عقد مستقيم من الخشب يشتمل على نص تجديد الوكالة الذى تقدم ذكره والذى نفذ بالخط النسخ بأسلوب الحفر البارز ويتوج كتلة المدخل عقد ثلاثى بديع جاء على غرار عقد وكالة الوقف الذى يتوج مدخلها كما تقدم ، وعلى ما يبدو فإن هذا العقد يعد من أهم سمات عمارة الوكالات فى صعيد مصر فى العصر العثمانى ، فقد وجدته مدخل وكالة مدينة قفط التى ترجع فى اعتقادى إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما وجدته فى وكالتين بمدينة قنا إحداهما تعرف بوكالة أبى السرور (لوحة ٣) ، والأخرى تعرف بوكالة آل القط (لوحة ٤) ويرجعان إلى العصر العثمانى وبالتحديد إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما وجد هذا العقد يتوج بعض المداخل فى منازل قوص القديمة مما يدل على أنه من أهم خصائص المنشآت المدنية خلال تلك الفترة .

وقد نفذ العقد بالآجر داخل إطار مستطيل يزدان فى داخله بأشكال هندسية بديعة التكوين قوامها أشكال نجمية ثمانية تكون ستة صفوف أفقية وأحد عشر صفًا بشكل رأسى ، وقد وزعت هذه الصفوف فى الحالتين بشكل متناغم على المساحة المخصصة لها بحيث جاء العقد لوحة فنية رائعة ، كذلك تتجلى لنا روعة الزخرفة فى الوحدات والأشكال الهندسية البديعة التى تفصل بين الأشكال النجمية سواء فى التنفيذ أو اللون ، وقد كرر الفنان عنصر الأشكال النجمية فى كوشتى العقد بشكل زخرفى جميل ، وفصل بينها بأشكال هندسية تكاد تماثل مثيلاتها داخل العقد غير أنها هنا تتميز ببساطتها حيث جاءت بهيئة مربعات تتصل ببعضها من خلال معينات صغيرة تربط بينها وبين الأشكال النجمية فى أسلوب زخرفى بديع التكوين ، والمدخل فى مجمله يمثل لوحة فنية جميلة ، وتتفق زخارف هذا المدخل المنفذة بالآجر مع زخارف

المداخل التى تقدم ذكرها بوكالات قفط وقتا من حيث الاعتماد على الأجر فى تشكيل الزخارف الهندسية مع الاختلاف في التفاصيل والتكوينات الزخرفية من وكالة لأخرى . (لوحة ٣ ، ٤).

هذا وقد أوجد الفنان الكتابات التى تعلو فتحة المدخل مباشرة فى العتب الخشبى والتى تقدم ذكرها فى ستة أجزاء ، بحيث جاء كل جزء على هيئة مستطيلة تنتهى فى طرفيها بعقد منكسر ، وقد نفذت هذه المساحات المستطيلة بشكل أفقى ، وتعلو أربعة أجزاء منها فتحة المدخل ، وقد وضع كل جزء داخل إطار مستطيل يزدان بزخرفة هندسية مجدولة بديعة التكوين، وتفصل بين كل جزء وآخر زخرفة هندسية عبارة عن دائرة تزدان فى مركزها بشكل نجمى من ثمانية أضلاع أوجده الفنان داخل شكل نجمى آخر بنفس التصميم إلا أنه نفذ بحجم أكبر ، ثم حدد الشكلين بإطار دائرى يزدان من خارجه بشكل ترس بديع التكوين ويحدد هذا الترس من الخارج إطار دائرى آخر يمثل الحد الخارجى للتكوين الهندسى بأكمله . (لوحة ٢) .

وقد نفذت التكوينات الزخرفية الهندسية على واجهات ومداخل وكالات قفط وقنا بهيئة تقرب كثيراً من تلك التى نفذت أعلى وعلى جانبى مدخل وكالة آل عودة بقوص ، مما يدل على مظهر من مظاهر الوحدة الفنية بين وكالات صعيد مصر فى العصر العثمانى .

الوكالة من الداخل (الدور الأرضى) :

يتوصل إلى داخل الوكالة من المدخل الرئيسى ، حيث نصل إلى دركاة المدخل التى تنخفض أرضيتها عن أرضية الطريق بمقدار ثلاث درجات ، وهى من مساحة مربعة يغطيها سقف خشبى، وأرضيتها من الآجر ، تشتمل فى جانبها الشمالى الغربى على حاصل يشرف على الطريق السالك من خلال نافذة صغيرة تقدم ذكرها عند ذكر الواجهة الرئيسية ، كما تشتمل فى جانبها الجنوبى الشرقى على دخلتين ، ونصل من خلال هذه الدركاه إلى ساحة مستطيلة الشكل تشتمل فى جانبها الشمالى الغربى على حاصل . كما تشتمل فى الجهة الجنوبية الشرقية على سلم يؤدى إلى الدور الأول أو العلوى ، ونصل من خلال هذه الساحة المستطيلة إلى حاصلين بجوار السلم أحدهما يقع خلف الحانوت المجاور للمدخل العمومى ويمتد من الشمال إلى الجنوب فى ساحة مستطيلة والآخر يقع خلف الحانوت الذى فى نهاية الواجهة من الطرف الجنوبى ، ويمتد رأسيًا من الشرق إلى الغرب ملاصقًا لجدار الوكالة الجنوبى الشرقى .

هذا وتفضى هذه الساحة المستطيلة من خلال مدخل يقع على محور المدخل العمومى إلى صحن الوكالة أو القسم الغربى منها (لوحة ٥) ويتكون هذا القسم من مساحة مستطيلة تمتد أفقيًا من الشمال إلى الجنوب تنقسم إلى صحن مربع مكشوف تفتح عليه ستة حواصل من الجهتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بواقع ثلاثة حواصل فى كل جهة يعلوها سقف خشبى يمتد من الشرق إلى الغرب يمثل ممر الدور العلوى حول الفناء ، وقد أوجد المعمار فى الجهة الجنوبية الغربية مساحة مغطاة بسقف خشبى من براطيم خشبية تشرف على الصحن من خلال كمرة خشبية ضخمة ترتكز فى الوسط على عمود أسطوانى من الآجر ، وفى الجانبين على الجدارين الشمالى والجنوبى للحواصل (لوحة ٥) ، وتفتح الحواصل على هذا القسم المغطى بواقع حاصلين فى الجهات الثلاث الجنوبية الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الشرقية ، أى أن الجدار الشمالى الغربى للصحن والقسم المغطى يشتمل على خمسة حواصل تقابلها خمسة حواصل فى الجدار الجنوبى الشرقى أما الجدار الجنوبى الغربى فيشتمل على حاصلين ، وتميز الحاصل الذى يقع فى الطرف الجنوبى من الجدار الجنوبى الغربى باشتماله على نافذة تفتح على الدرب الذى يقع خلف الوكالة ، وهو الدرب الذى تقدم ذكره عند ذكر الموقع ، وقد أوجدها المعمار لإضاءة وتهوية الحاصل ، وهى فتحة مستطيلة تتسع من الداخل وتضيق من الخارج (لوحة ٦) ، كما أن الحاصل الذى يقع فى نهاية الضلع الجنوبى الشرقى من الجهة الغربية يشتمل أيضًا على نافذة تفتح على نفس الدرب ، لذا فهو يتسم بالإضاءة والتهوية ، وهو الأمر الذى أرجح معه أن جميع الحواصل التى تقدم ذكرها كانت تشتمل على فتحات للإضاءة والتهوية ، إلا أن نتيجة الزحف العمرانى على الوكالة وملاصقة الأبنية الحديثة لها سدت هذه الفتحات ، لذا فإن جميع الحواصل مظلمة تمامًا ولا توجد بها تهوية .

وقد جاءت هذه الحواصل فى معظمها من ساحة مستطيلة يغطيها سقف خشبى من براطيم خشبية أو من جذوع النخل ترتكز عليها ألواح خشبية أو أسقف خشبية من الجريد. (لوحة ٧).

الدور الأول (العلوى (لوحة ٨) :

يتوصل إليه من الساحة المستطيلة التى تلى الدركاه ، حيث نصل من خلال سلم يتكون من ثلاث قلبات إلى الدور الأول ، وتفصيل ذلك أن القلبة الأولى من السلم تنتهى بباب خشبى تعلوه قطعة مستطيلة من الخشب تزدان بأشكال مستطيلة مفرغة فى الخشب بهيئة مسننة فى حوافها بطريقة بديعة ، ثم نصل إلى القلبة الثانية وهى من ثلاث درجات ، تؤدى إلى دهليز يغطيه سقف خشبى ، وقد أوجد المعمار فى نهايته الشرقية دورة المياه ، ثم نصل من خلال القلبة الثالثة إلى الدور الأول ، ويشتمل هذا الدور على قاعات وزعت على النحو التالى :

ثلاث قاعات فى الجهة الشمالية الشرقية تشرف على الطريق السالك والجامع العمرى من خلال نوافذ تقدم ذكرها عند ذكر الواجهة العمومية ، أما الجهة الشمالية الغربية فتشتمل على أربعة مداخل ، ويتوصل من المدخل الذى يقع فى الطرف الشرقى إلى قاعة مستطيلة تؤدى بدورها إلى قاعة شبه مربعة تشرف على الجامع العمرى من خلال نافذتين على غرار قاعات الجهة الشمالية الشرقية التى تقدم ذكرها ، وينتهى الضلع الشمالى الغربى من الجهة الغربية بقاعة شبه مربعة يغطيها سقف خشبى تشتمل فى جدارها الشرقى على طاقة مصمتة كما تشتمل على مدخل فى نهاية جدارها الشمالى يؤدى إلى قاعة ، كذلك تشتمل فى جدارها الغربى على مدخلين يفتح كل منهما على قاعة .

أما الجهة الجنوبية الغربية فتشتمل على مدخلين يؤديان إلى قاعدتين ، تتوسطهما دخلة مستطيلة مصمتة .

وتشتمل الجهة الجنوبية الشرقية على خمس قاعات ، وهى فى معظمها مع قاعات بقية الجهات مستطيلة الشكل تغطيها أسقف خشبية على غرار حواصل الطابق الأرضى ، ويشرف ممر الطابق الثانى على الفناء من خلال دعامتين من الآجر فى الجانبين الشرقى والغربى ، ويتوصل من سلم يقع فى نهاية الجهة الجنوبية الشرقية من الجهة الشرقية إلى سطح الوكالة ، حيث نصعد من خلال قلبة أولى تنتهى ببسطة خشبية بديعة التكوين من تسعة ألواح خشبية مصممة بحيث تتخللها فتحات الإضاءة والتهوية لإضاءة وتهوية السلم من أسفل (لوحة ٩) ثم نصل من خلال هذه البسطة إلى القلبة الثانية وهى من ثلاث درجات تنتهى ببسطة خشبية على نفس النمط السابق، أما القلبة الثالثة فقد جاءت من سبع درجات، والسلم من الخشب والآجر يحيط به درابزين من الآجر، ثم نصل من خلال هذه القلبة الأخيرة إلى السطح (لوحة ١٠) .

ثانيًا : الأسواق :

إضافة إلى الأسواق التى تقدم ذكرها فى نصوص الجغرافيين والرحالة يذكر لنا على باشا مبارك ما نصه " وبها سوق كبير دائم يباع فيه الأقمشة وأصناف العقاقير والأبزار واللحم والخضر ونحو ذلك "[٤٧] والواقع أن المدينة أسهمت بدور فعال فى تجارة مصر الداخلية والخارجية بسبب كثرة منتجاتها الزراعية والصناعية ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى ازدهار وانتشار الأسواق بالمدينة ، وقد أشارت السجلات إلى العديد منها أذكر منها على سبيل المثال سوق الغلال[٤٨] .

المنشآت الصناعية بقوص :

أولاً : المعاصر :

عرفت قوص العديد من الصناعات فى العصر العثمانى ، فقد أمدنا كتاب وصف مصر بعدة صناعات فى المدينة تتمثل فى مصانع الفخار ، وصناعة الجير ، وصناعة المنسوجات القطنية والصوفية ، وصناعة الحصر من الحلفا أو من سعف النخيل ، وصناعة الزيت من بذور الخس والقرطم وغير ذلك من الصناعات(٤٩) .

وتعد المعاصر من الوحدات التى نعتبرها منشآت صناعية . وقد أمدتنا الوثائق بالعديد منها فى قوص ، مما يدل على ازدهار صناعة السكر من جهة والزيت من جهة أخرى ومن هذا النوع الأخير بقيت لنا معصرة بقوص لعصر الزيت ، وهى بحالة جيدة وتعمل حاليًا ، حيث وجدنا نوعين من المعاصر الأول أمدتنا به المصادر كما تقدم ، والثانى أمدتنا به الوثائق ، ومن النوع الأخير معصرة (٥٠) تقع بحارة الأروام ملك ورثة القاضى عبد الرءوف النحريرى ، ومعصرة(٥١) ورثة الخولى تقع بحارة القرملانى ، ومعصرة(٥٢) تقع بحارة التجار قديمًا المعروفة بحارة أولاد هوارى وهى فى ملك ورثة عبد الحق ومعصرة بحارة الهيم ورد وصفها الوثائقى " فى كامل بيت معصرة معد لعصر الزيوت كاينة بمدينة قوص بالحارة الفوقانية بحارة الهيم ... مشتملة على حجر وقاعدة وجب وقرصة تحتوى على ثلاث مسايح " ، وغير ذلك من المعاصر التى أمدتنا بها الوثائق دون ذكر لمشتملاتها(٥٣) .

ثانيًا : الطواحين :

تعد الطواحين من الوحدات الإنتاجية الى يمكن وصفها بالمنشآت الصناعية ، وقد أمدتنا الوثائق بالعديد منها فى قوص ، مما يدل على ازدهار هذه الصناعة ضمن ما عرف وازدهر من صناعات عديدة بالمدينة ، ومن الطواحين التى وردت فى الوثائق طاحونة(٥٤) ورثة سلمان على ، وطاحونة(٥٥) بحارة أولاد هوارى ، وطاحونة(٥٦) البرعى ، وطاحونة ورد وصفها الوثائقى " طاحونة كاملة الآلة معدة لطحن الدقيق كاينة بالحارة المذكورة (حارة السبع أشراف)"(٥٧) .

ثالثًا : قاعات الحياكة :

تعد قاعات الحياكة من منشآت النسيج التى يمكن وصفها بالمنشآت الصناعية ، فقد ازدهرت هذه الحرفة ازدهاراً كبيراً فى قوص ، يدل عى ذلك على ما أمدتنا به الوثائق من ذكر

للعديد من قاعات الحياكة بالمدينة ، إلا أن النصوص الوثائقية التى بين أيدينا لم تصف لنا هذه القاعات وصفًا كاملاً ، كما لم ترد بها الآلات المستخدمة للحياكة ، كذلك أنواع الملابس، ومن قاعات الحياكة التى أمدتنا بها سجلات المحكمة الشرعية على سبيل المثال قاعة ورد وصفها الوثائقى " جميع كامل قاعة قايمة البنا والجدران كاينة بمدينة قوص بالحارة الفوقانية بحارة العارف بالله تعالى سيدى محمد البهجورى معدة لصناعة الحياكة قديمًا(٥٨) ، وقاعة ورد وصفها الوثائقى " فى كامل بيت قاعة معدة لصنعة الحياكة "(٥٩) ، وتقع هذه القاعة بحارة الحدادين ، وقاعة ورد وصفها الوثائقى " فى كامل قاعة معدة للحياكة كائنة بحارة الفراشى "(٦٠) .

طوائف الحرف وطبقة التجار :

أمدتنا سجلات المحكمة الشرعية ببعض الطوائف الحرفية بمدينة قوص خلال العصر العثماني والقرن ١٣ هـ / ١٩م ، أذكر منها طائفة القصابين . ونتعرف أيضًا من خلال الوثائق على اسم شيخ هذه الطائفة بما نصه " تحرر سند على الرجل محمد إبراهيم القصاب شيخ قصابين ناحية قوص " (٦١)، وقد وردت بعض أسماء من أفراد هذه الطائفة فى السجلات أذكر منها على سبيل المثال ثلاثة أسماء وردت فى أشهاد واحد بما نصه " حضر الرجل محمد إبراهيم القصاب والرجل مصطفى على القصاب والرجل غلاب فتيحى القصاب الجميع من أهالى قوص " (٦٢).

كذلك أمدتنا الوثائق بطائفة الطحانين واسم شيخ هذه الطائفة بما نصه " تحرر سند على الرجل خليل إبراهيم شيخ الطحانين بقوص باستلام مبلغ ماية قرش... "(٦٣) .

كما أمدتنا الوثائق بطائفة المعصرانية بما نصه " اسلم الرجل عبد العال زارع أحد المعصرانية بقوص الرجل حسن بدرير المذكور من أهالى جزيرة مطيرة ... "(٦٤) .

هذا وقدوردت عدة أسماء مقرونة بصنائعهم مثل " الرجل أبا بكر صالح القهوجى "(٦٥) "الرجل الحاج محمد أحمد عبد الله الخياط "(٦٦)، " الذمى حنا حبشى الفرارجى "(٦٧) ، "مصطفى عبد الله النجار " (٦٨)، محمد محمد حجازى النحاس "(٦٩) ، «مقاريوس بن عبد رب المسيح الصايغ "(٧٠)، مما يدل على أن المدينة كانت تضم العديد من طوائف الحرف الأخرى إضافة للحرف التى تقدم ذكرها .

وقد أمدتنا السجلات بذكر لحارات ارتبطت بالحياة التجارية وبعض الحرف الصناعية ، ومن هذه الحارات حارة التجار أو درب التجار ، وقد عرفت هذه الحارة بحارة الأمير الحاكم صديق

مقبول ، ثم عرفت بحارة أولاد هوارى فقد ورد : " بالحارة الفوقانية بحارة التجار قديمًا والآن تعرف بحارة الأمير الحاكم صديق مقبول " (٧١)، ثم ورد " بالحارة الفوقانية بحارة التجار قديمًا المعروفة الآن بحارة أولاد الهوارى "(٧٢) .

كما أمدتنا السجلات بحارة السويقة (٧٣)، كذلك أوردت لنا بعض الحارات التى عرفت ببعض الحرفيين القاطنين بها مثل " حارة الحدادين "(٧٤) ، و " حارة الجمالة "(٧٥) ، وهى حارة أصحاب الجمال الذين كانوا يتحملون مسئولية الأحمال .

أما فيما يتعلق بطبقة التجار فى قوص فقد أمدتنا السجلات بأسماء العديد منهم مما يلقى الضوء على ازدهار الحركة التجارية بالمدينة ، ومن التجار المسلمين الذين ورد ذكرهم بالسجلات " الرجل حماده صالح كيلانى " الذى وصف بأنه أحد تجار قوص "(٧٦) ، والشيخ عبد الله أحمد عبد الجواد " الذى وصف بأنه " أحد عمد تجار الناحية "(٧٧) ، والرجل مصطفى صالح كيلانى " الذى وصف بأنه " أحد تجار قوص " ، وورد فى موضع آخر " الشيخ مصطفى صالح كيلانى "(٧٨) ويتضح من اسمه أنه كان شقيقًا للتاجر حماده صالح كيلانى الذى تقدم ذكره ، و "الشيخ محمد خليل حسن نمرك " الذى وصف بأنه أحد تجار قوص " ، وقد وصف فى موضع آخر بـ " الرجل العاقل البالغ الرشيد محمد خليل حسن نمرك "(٧٩) .

ومن أهل الذمة أمدتنا السجلات بعدد من التجار أذكر منهم " الذمى بطرس سعيرا " الذى وصف بأنه " أحد تجار قوص " (٨٠)، و " الذمى جودة منديليون " الذى وصف بأنه " أحد عمد تجار قوص " ، وقد ورد فى موضع آخر " المعلم جودة منديليون "(٨١) .

والواقع أنه من خلال عرض بعض طوائف الحرف وطبقة التجار يمكن القول أن الطائفة الحرفية تعنى " مجموعة من الأشخاص تمارس نفس النشاط الحرفى فى المدينة ولها إطار تنظيمى يكفلها "(٨٢) ، وقد كان هناك طبقة عليا من الأسطوات أو المعلمين ، وهى تتكون من المحنكين فى الطائفة، ويطلق عليهم أكابر الطائفة (٨٣)، وهؤلاء كان يتكون منهم ما يسمى بالمجلس أو المجمع وأهم وظائفهم مساعدة الشيخ فى إدارة الطائفة ، وأعضاء الطائفة كان يمكنهم عزل الشيخ ، كما كان لهم باتفاق منهم إقرار الشيخ .

الخاتمة :

وبعد ، فإننى أرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألقت الضوء على المنشآت التجارية والنصاعية بمدينة قوص ، وهى المنشآت التى تنوعت ما بين فنادق وخانات وأسواق ومعاصر وطواحين وقاعات حياكة .

الهوامش

١ - قوص من المدن القديمة ، ذكرها جوتييه فقال أن اسمها المصرى Hat Hor واسمها المدنى Qes ، واسمها الرومى Apollonopolis Vicus ، واسمها القبطى Qous ، ومنه اسمها العربى قوص . مزيد من التفاصيل ، انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٨٩ .

٢ - اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧م : البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٩٣ .

٣ - مزيد من التفاصيل عن قفط انظر : د. حسن خضيرى أحمد : مدينة قفط وتطورها السياسى من الفتح العربى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب بقنا ، جامعة جنوب الوادى ، العدد ٤ ، ١٩٩٥م ، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٤ - المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، جـ ١ ، ص ص ١٩٧ - ١٩٨ .

٥ - اليعقوبى : البلدان ، ص ٩٣ ؛ الاصطخرى (ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م ، ص ٤٢ ؛ المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧م : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤١١هـ / ١٩٨١م ، ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .

٦ - ناصر خسرو علوى : سفرنامه ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م، ص ص ١٣٢ - ١٣٤ .

٧ - مزيد من التفاصيل عن الأحوال السياسية فى مصر والعالم الإسلامى انظر : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٩٦م ، جـ ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

٨ - المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، كتاب الهلال ، العدد ٤٧٢ ، رمضان ١٤١٠هـ . أبريل ١٩٩٠م ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

٩ - يسلك الحجاج من هناك برية عيذاب عبر وادى العلاقى إلى عيذاب ، وعبر وادى الحمامات إلى القصير ومنها إلى جدة أو ينبع ، فلم يعد الطريق البحرى الشمالى من القلزم إلى الجار أو جدة ، ولا الطريق البرى من أيلة آمنًا لقوافل الحجاج . د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ص ٢١ - ٢٣ .

١٠ - القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ .

١١ - البكرى : المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن واندرى فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٢م ، ص ٦١٨ .

١٢ - د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، ١٢٨ ، الكويت ، ذو الحجة ١٤٠٨هـ / أغسطس / آب ١٩٨٨م ، ص ١١٥ ؛ محمد محمود على حسن : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى (عن دراسة للباحث الفرنسى جان كلود جاراسان) ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٦٧ .

١٣ - مزيد من التفاصيل عن الدولة الصالحية وعلاقاتها بالدولة الفاطمية انظر : د. عبد الله كامل موسى عبده : دراسة معمارية مقارنة للعمائر الدينية فى عصر الدولة الصليحية فى اليمن والفاطمية فى مصر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص ص ٣٣ - ٤٤ .

١٤ - لمزيد من التفاصيل عن موانىء الخليج وميناء عدن انظر : د. شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٤١ - ٩٠٤هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨م) ، عالم المعرفة ، ١٥١ ، الكويت ذو الحجة ١٤١٠هـ / يوليو -تموز ١٩٩٠م ، ص ص ١٧٤ - ١٨٣ .

١٥ - كان الكارمية أشهر تجار المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وكانت هذه الطائفة الدعامة والركيزة الأساسية للبناء الاقتصادى فى مصر الإسلامية ويحدثنا القلقشندى عن وظيفة " نظر البهار الكارمى" وموضعها التحدث على واصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر ، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتارة تضاف إلى الخاص وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان . القلقشندى : صبح الأعشا ، جـ ٤ ، ص ٣٢ ؛ د. آمال أحمد العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤م، ص ص ٣٧ - ٣٨ ؛ د. شوقى عبد القوى : تجارة المحيط الهندى ، ص ٢٦٩ ؛ د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ص ٣٥ - ٣٦ .

١٦ - الإدريسى (أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مج ١ ، ص ١٢٨ .

١٧ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢م ، ص ص ١١ - ١٣ .

١٨ - مزيد من التفاصيل عن استقرار مصر السياسى والاقتصادى فى عهد صلاح الدين انظر : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ص ١٣٠ - ١٤٠ .

١٩ – ابن جبير (أبى الحسن محمد بن أحمد) : رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الاثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ٣٧ .

٢٠ – ابن جبير : رحلة ، ص ٣٧ .

٢١ – د. آمال العمرى : المنشآت التجارية ، ص ص ١٣٩ – ١٤٠ ؛ د. رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ص ٤٣ – ٤٦ .

٢٢ – من التجار الذين ورد ذكرهم بقوص من طائفة الكارمية محمود بن الكويك ، الزين محمد بن محمد بن عبد الرحمن النخعى القوصى ، محمد بن مسلم بن أحمد البالسى الأصل، د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر، ص ص٣٥-٣٦ .

٢٣ – د. آمال العمرى : المنشآت التجارية ، ص ١٤١ .

٢٤ – د. رفعت موسى : الوكالات والبيوت الإسلامية ، ص ٤٧ .

٢٥ – ابن جبير : رحلة ، ص ٣٧ .

٢٦ – مزيد من التفاصيل عن الفنادق انظر : د. آمال العمرى : المنشآت التجارية ، ص ١٤٥ .

٢٧ – ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، جـ ٤ ، ص ٤٦٩ .

٢٨ – أورد لنا هذا النص القلقشندى نقلاً عن ابن سعيد . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

٢٩ – أورد د.محمد محمد الكحلاوى هذا النص عند دراسته لآثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين . مزيد من التفاصيل انظر : د. محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، ص ص ١٤٦ – ١٤٧ .

٣٠ – د. محمد محمد الكحلاوى : اثار مصر الإسلامية ، ص ١٤٧ .

٣١ – أبى الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م : تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ص ص ١١٠ – ١١١ .

٣٢ – أورد هذا النص على باشا نقلاً عن ابن فضل الله العمرى . مزيد من التفاصيل : على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٥هـ ، جـ ١٤ ، ص ١٢٩ .

٣٣ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م ، ص ٤٨ .

٣٤ – د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ص ٣٧ – ٦١ .

٣٥ – القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

٣٦ – المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ .

٣٧ – ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، ص ١١٨ .

٣٨ – الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م ، ص ٤٨٤ .

٣٩ – الإدريسى : نزهة المشتاق ، مج ١ ، ص ١٢٨.

٤٠ – محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ص ١٨٩ .

٤١ – سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٥ صفر ١٢٧٧ – ١٢ شوال ١٢٧٧) ، اشهاد ١ ، ص ١ .

٤٢ – سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، إشهاد١ ، ص ١.

٤٣ – سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٢ ربيع ١٢٧٨ – ١٢ ربيع أول ١٢٧٩) ، إشهاد ٣ ، ص ١ .

٤٤ – على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ ١٤ ، ص ١٣٤ .

٤٥ – محمد محمود على حسن : قوص ، ص ٣٦٦ ، لوحة رقم ٣١ .

٤٦ – محمد محمود على حسن : قوص ، ص ٣٨٤ .

٤٧ – على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٤ ، ص ١٣٤ .

٤٨ – سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣ ، ص ١ .

٤٩ – علماء الحملة الفرنسية : وصف مصر (الزراعة – الصناعات والحرف – التجارة) ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص ص ١٦٧ – ٢٢٩ ؛ د. إلهام محمد على ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، تاريخ المصريين (٢٥٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص ص ١٧٩ – ٢٥٨ .

٥٠ – سجل رقم ٣ ، محكمة ترص ، دار الوثائق القومية (الفترة التاريخية ٢٠ جمادى آخر ١٢٧٣ – ١٥ محرم ١٢٧٤) إشهاد ١٦٠ ، ص ٢٨ .

٥١ – سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٥ محرم ١٢٧٤ – ١٩ شوال ١٢٧٤) ، اشهاد ٢٥٢ ، ص ١٥ .

٥٢ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٣ شوال ١٢٧٧ - ٢٠ صفر ١٢٧٨) ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .

٥٣ - سجل رقم ١٨ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٤ ربيع آخر ١٢٨٠ - ٢٩ صفر ١٢٨١) ، اشهاد ٣٨ ، ص ٥ .

٥٤ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٨٣ ، ص ٥٢ .

٥٥ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .

٥٦ - سجلب رقم ١٣ ، محكمة قوص ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .

٥٧ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢١٦ ، ص ص ٢١ - ٢٢ .

٥٨ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٧٤ ، ص ٢٧ .

٥٩ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٠ شوال ١٢٧٤ - ٣ صفر ١٢٧٥) ، اشهاد ٨٥ ، ص ٧ .

٦٠ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٥ صفر ١٢٧٦ - ٢٢ صفر ١٢٧٧) ، اشهاد ١٦٠ ، ص ١٢ .

٦١ - سجل رقم ٢ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٠ جماد أول ١٢٧٣هـ- ٢٥ محرم ١٢٧٤) ، اشهاد ٢٧ ، ص ٥ .

٦٢ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٨ ، ص ٣ .،

٦٣ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٤٩ ، ص ٢٥ .

٦٤ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٠٧ ، ص ١٩ .

٦٥ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٣ ، ص ٢ .

٦٦ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٩٠ ، ص ٥٢ .

٦٧ - سجل رقم ١٦ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٥ ربيع أول ١٢٧٩ - ٢٠ ربيع أول ١٢٨٠) ، اشهاد ٦٤ ، ص ٢١ .

٦٨ - سجل رقم ١٨ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٨ ، ص ٥ .

٦٩ - سجل رقم ٢٠ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٩ ربيع آخر ١٢٨١ - ١٧ ربيع آخر ١٢٨٢) ، اشهاد ، ٢٣٩ ، ص ١٨ .

٧٠ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، اشهاد ٦٨ ، ص ٦ .

٧١ – سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣١٧ ، ص ٢١ .

٧٢ – سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٧٠ ، ص ١٥ .

٧٣ – سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٩٦ ، ص ٣١ .

٧٤ – سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٦٥ ، ص ٧ .

٧٥ – سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٣ ، ص ٢ .

٧٦ – سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٣٤ ، ص ١٣ ؛ سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٥ ، ص ٢ .

٧٧ – سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٧ ، ص ١ .

٧٨ – سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٥٢ ، ص ٣٨ ، سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٠ ، ص ٣ .

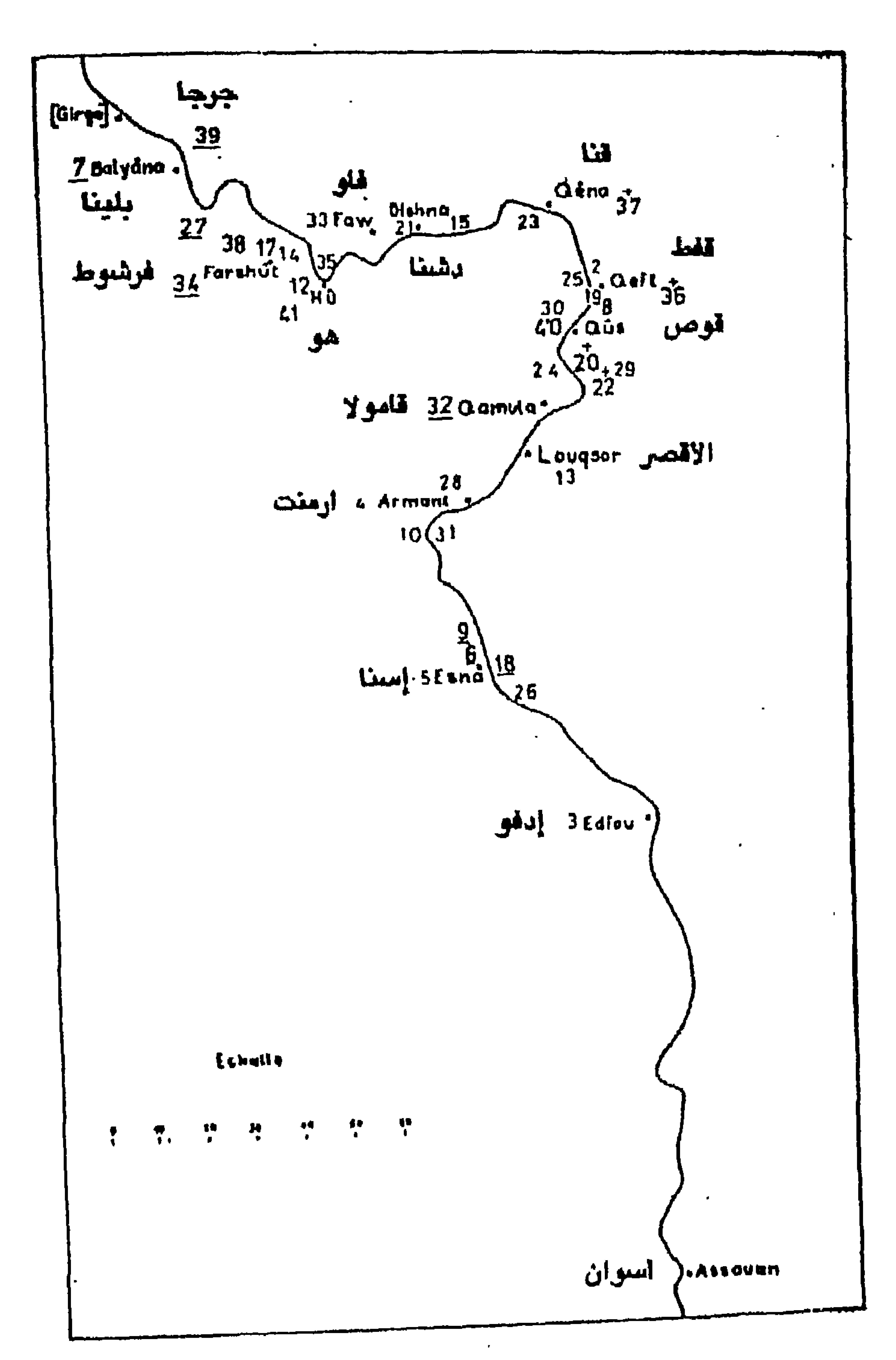
٧٩ – سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٢ ، ص ٣ ، سجل رقم ١٩ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٧ ربيع آخر ١٢٨١ – ١٧ ربيع آخر ١٢٨٢) ، اشهاد ١٩ ، ص ٤ .

٨٠ – سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٢ ، ص ٣ .

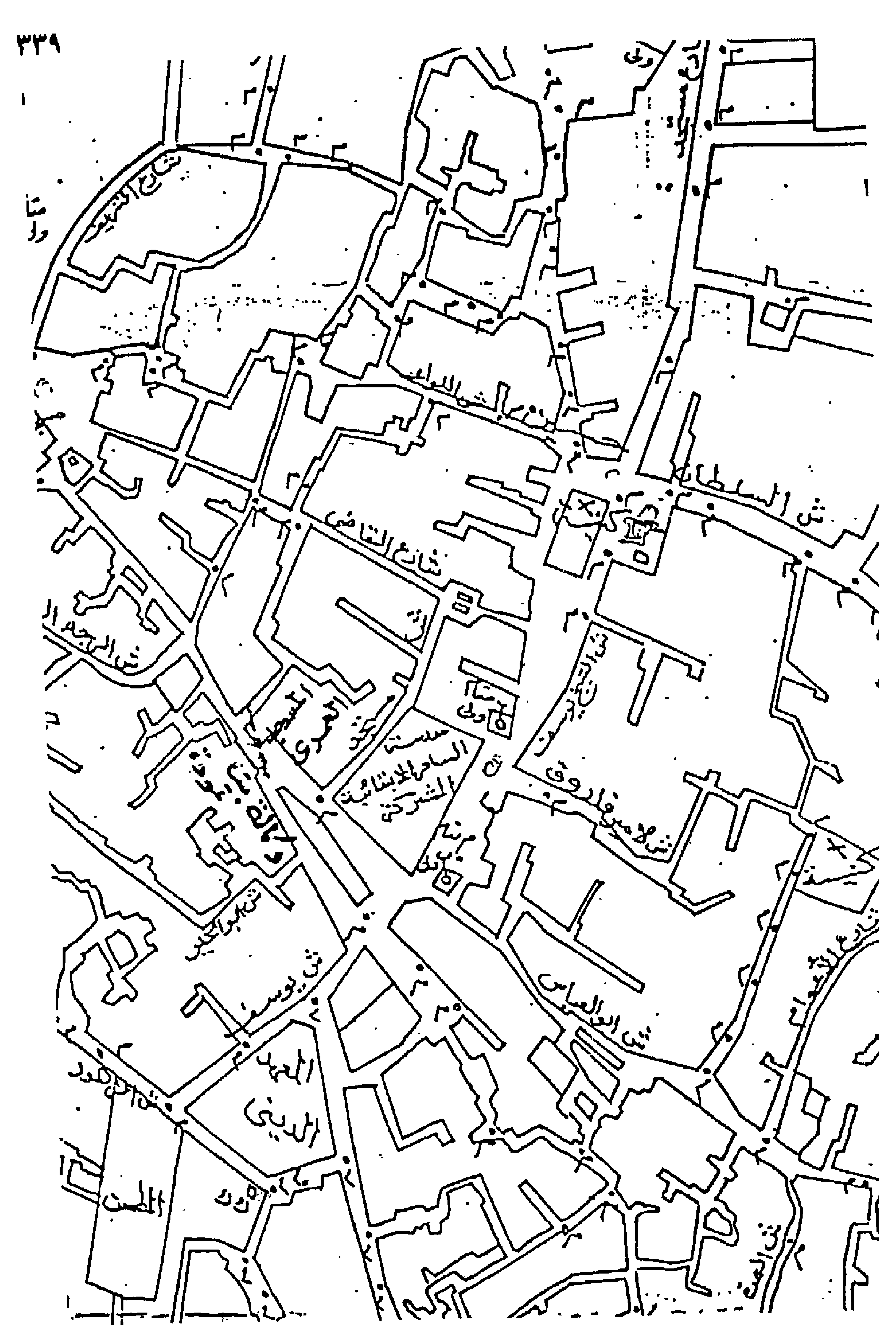
٨١ – سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٦٢ ، ص ٢٥ ؛ سجل رقم ١٩ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٠ ، ص ٣ .

٨٢ – مزيد من التفاصيل عن الأسواق والحرف انظر : د. حسين مصطفى رمضان : طوائف الحرف فى العصر العثمانى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ص ١٤٩ – ١٥٠ . Raymond (A.) : Une Liste des Corporations de Metiers au Caire, Arabica, 1801, T.IV, 1957, pp. 154 - 155 .

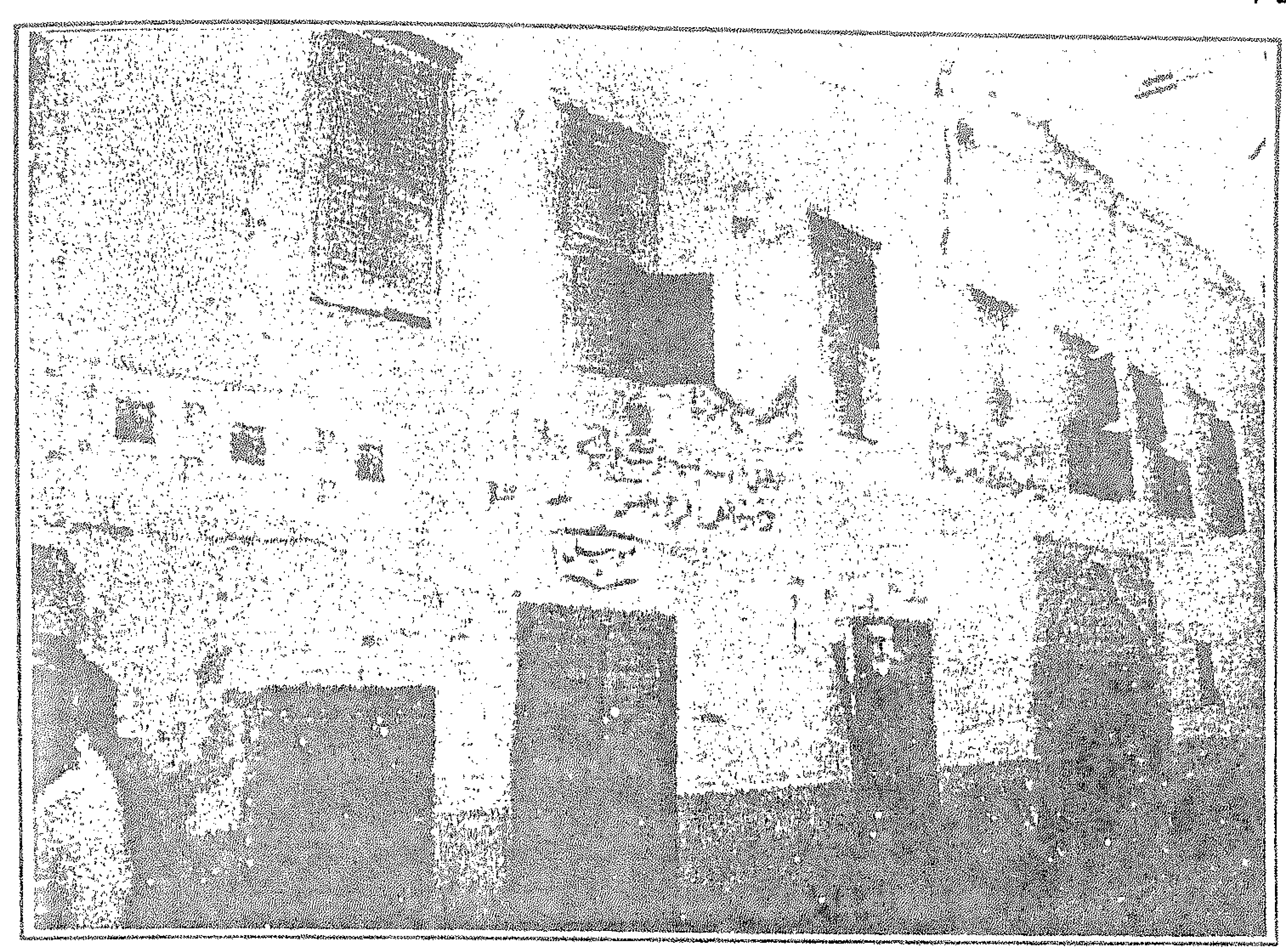
٨٣ – انظر عن لقب معلم : د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، جـ ٣ ، ص ص ١١٠٨ – ١١١٠ ؛ د. حسين رمضان : طوائف الحرف فى العصر العثمانى ، ص ٦٤ ، هامش ٢ ؛ Raymaond (A.): Artisans et Commer Conts au Caire. Au XVIII e Siecle 2, Tomes, Dames, 1973, p. 545 .



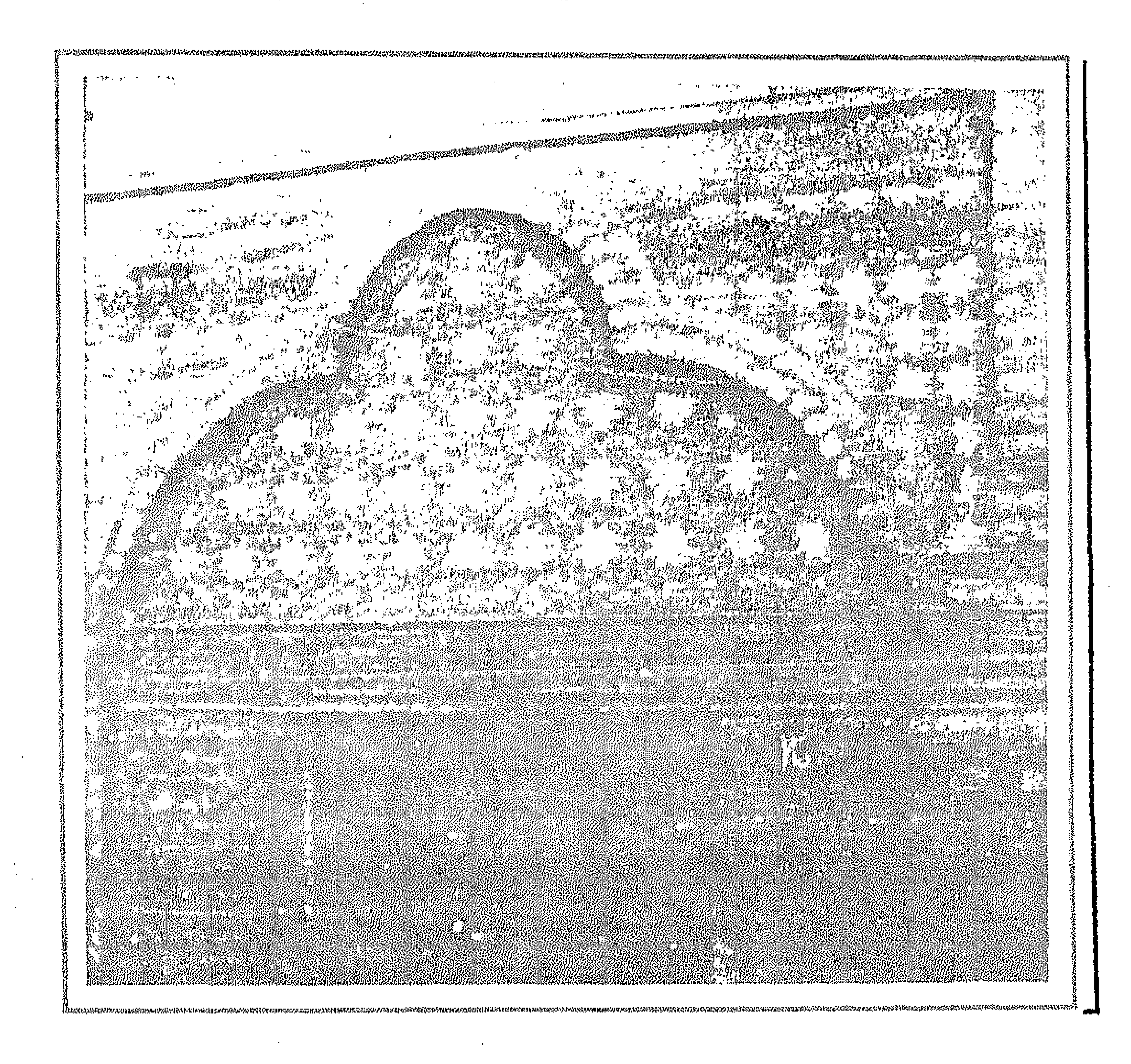
(شكل١) خريطة تبين موقع مدينة قوص (محمد محمود على حسن)



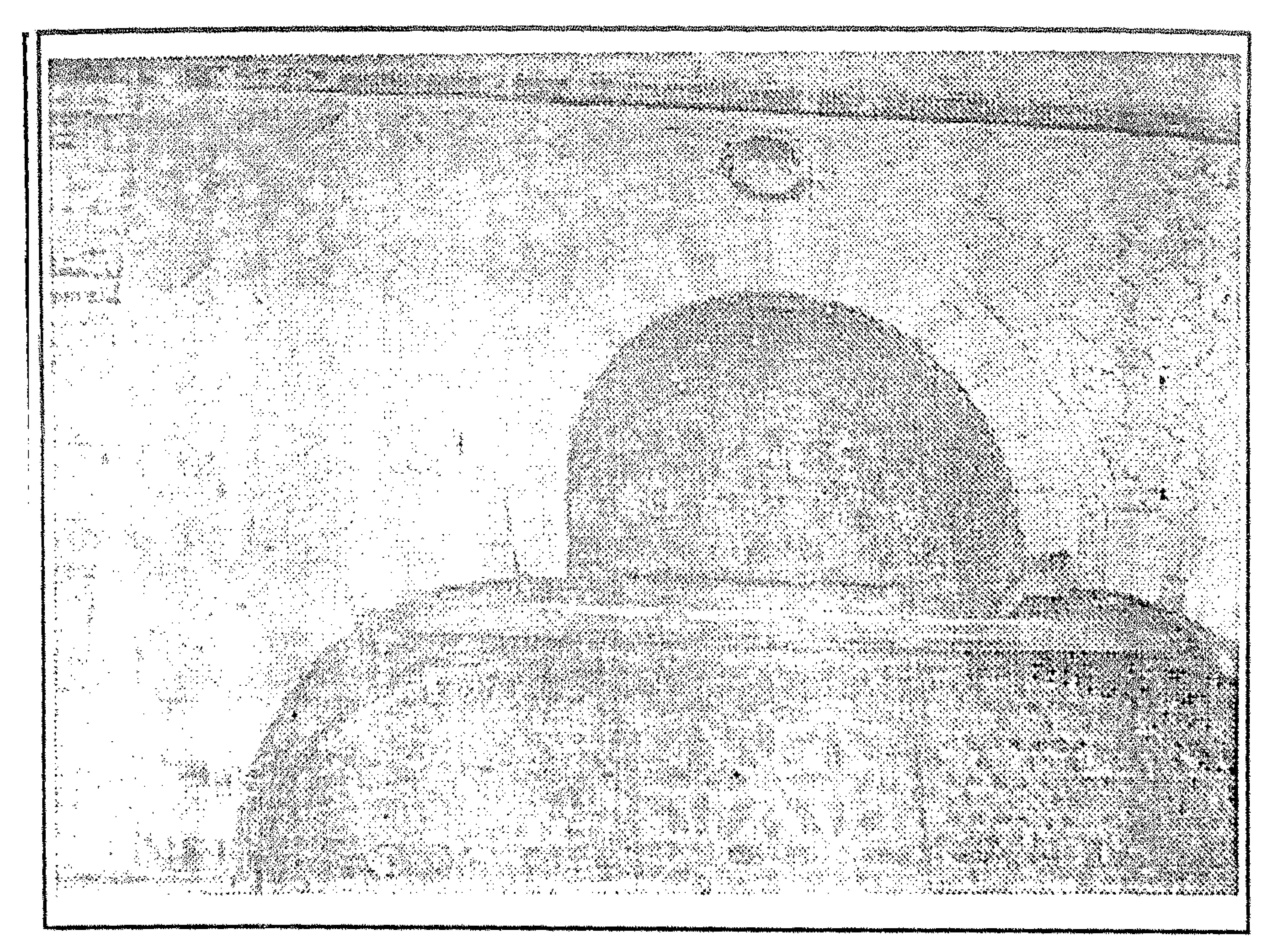
(شكل رقم٢) موقع وكالة آل عودة عن مصلحة المساحة



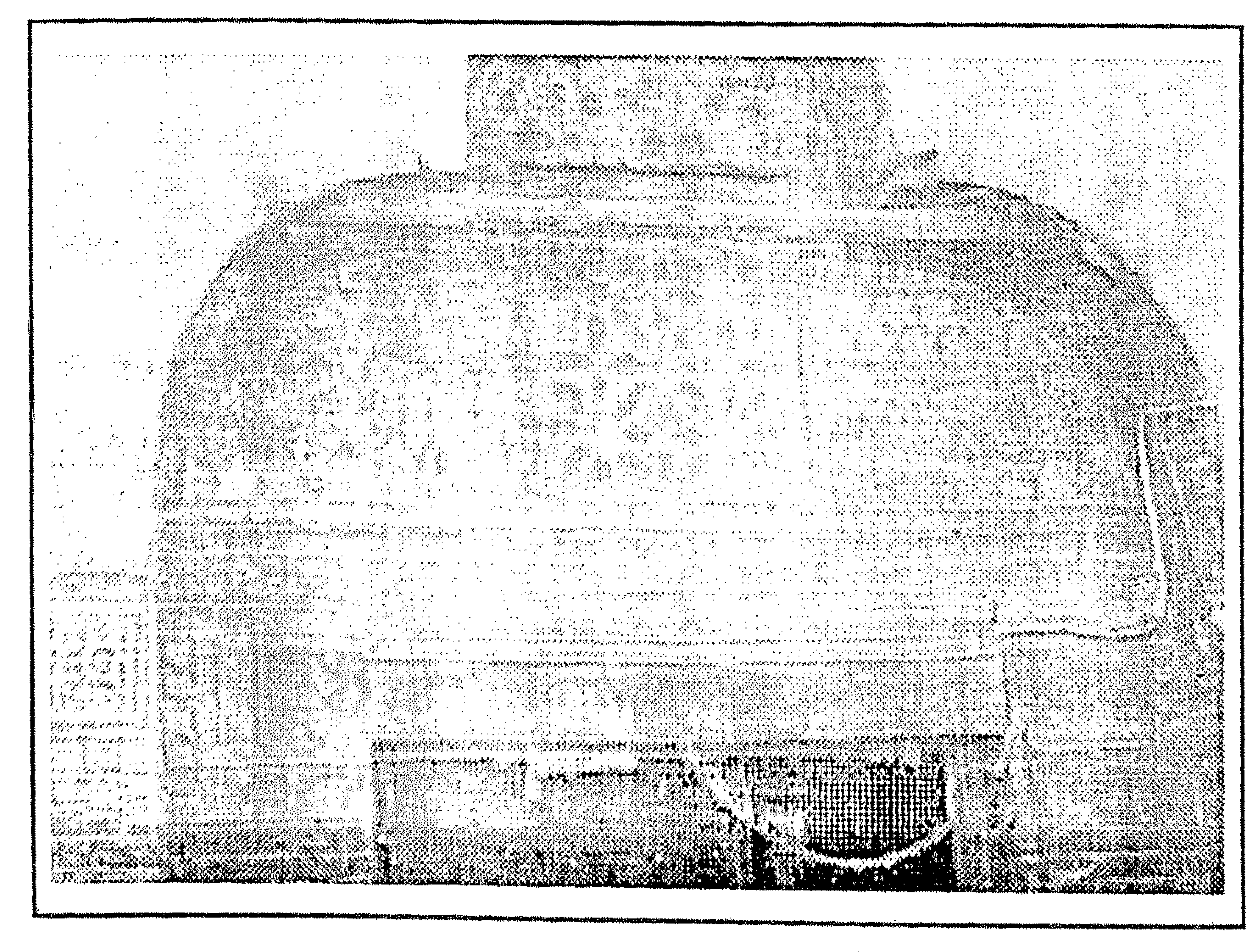
(لوحة١) : الواجهة الرئيسية لوكالة بيت عودة



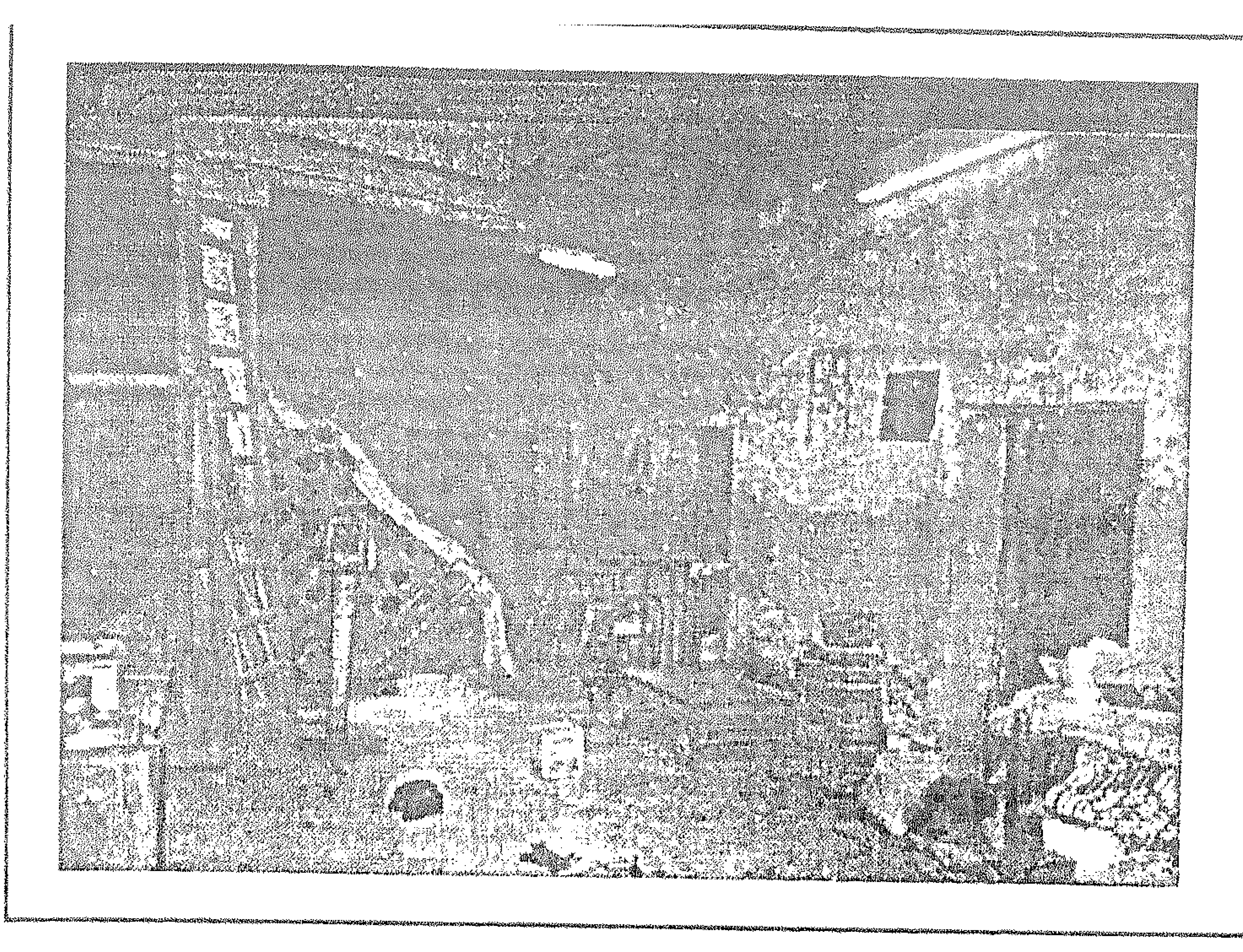
(لوحة٢) : المدخل الرئيسى لوكالة آل عودة



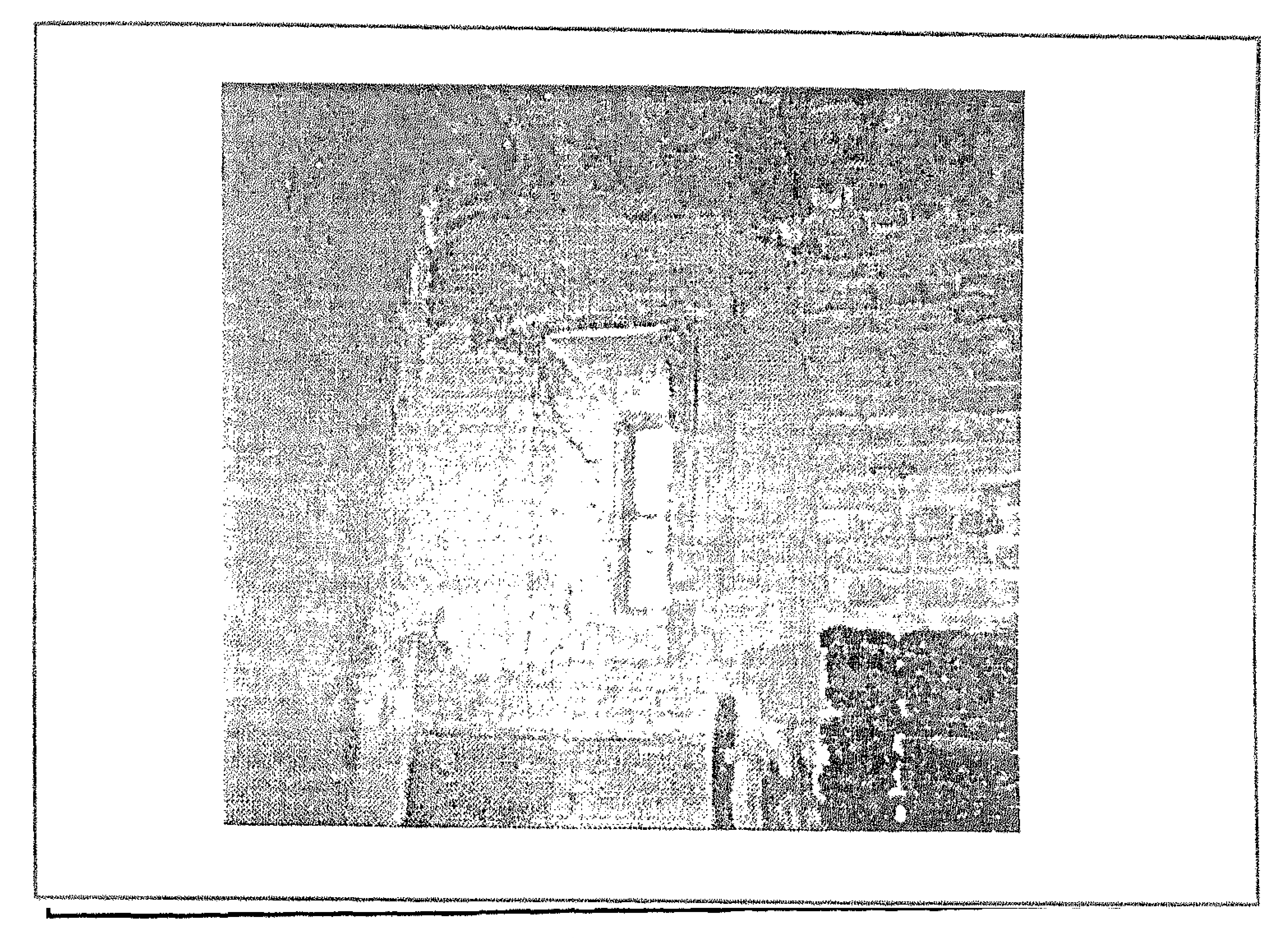
(لوحة٣) : مدخل وكالة أبى السرور بمدينة قنا



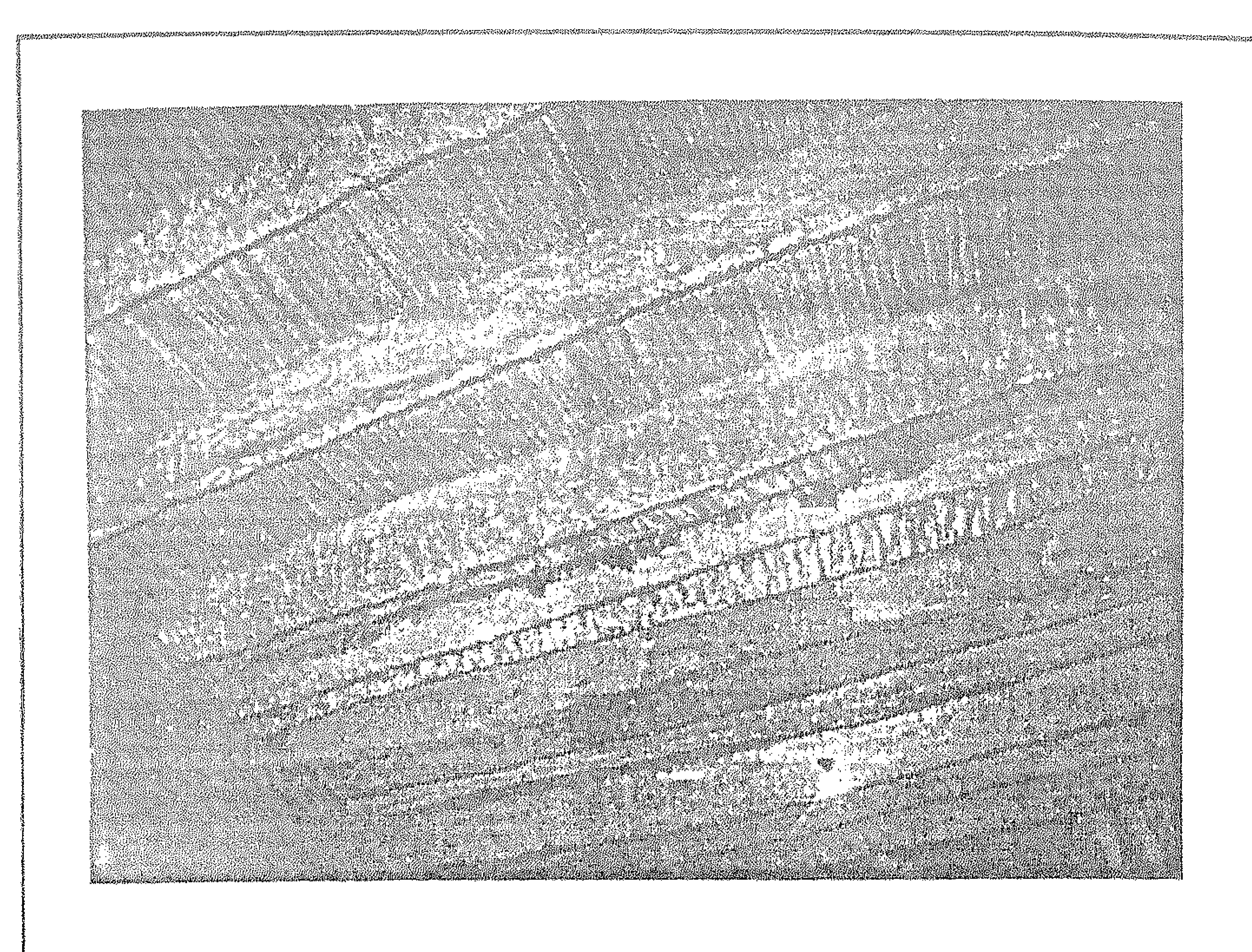
(لوحة ٤) : مدخل وكالة آل القط بمدينة قنا



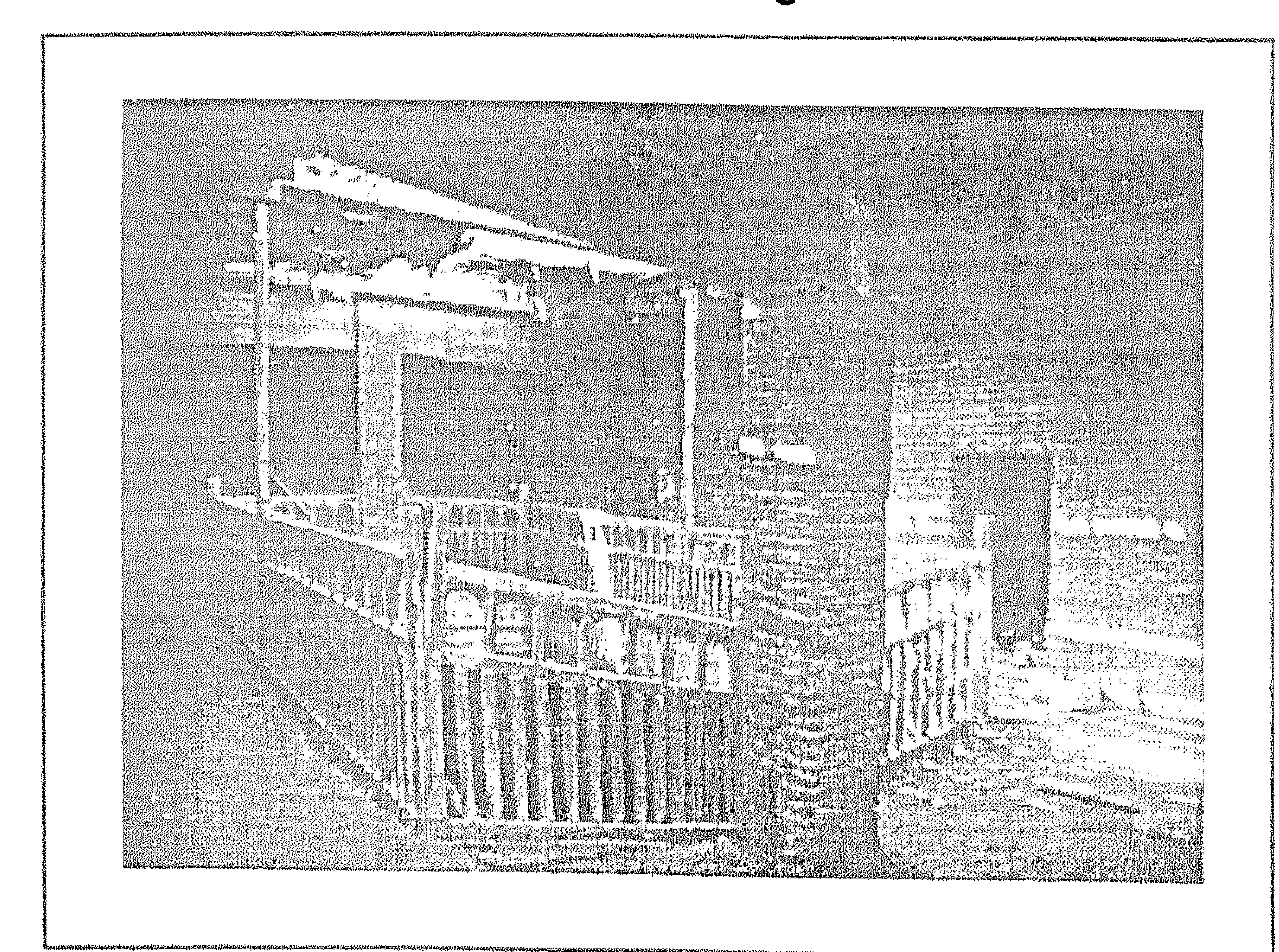
(لوحة٥) : الدور الأرضي لوكالة آل عودة



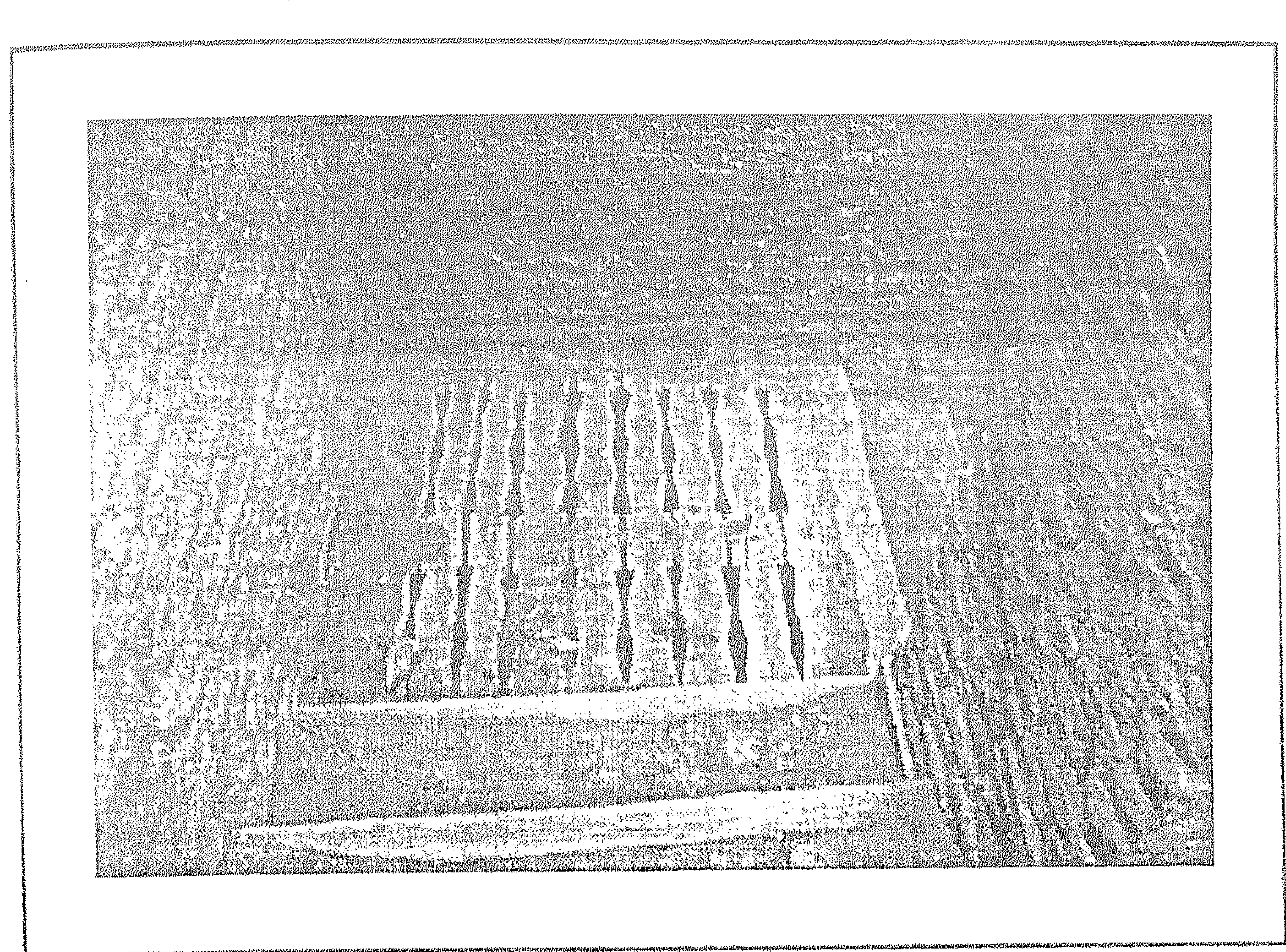
(لوحة٦) : نافذة حاصل بالدور الأرضي لوكالة آل عودة



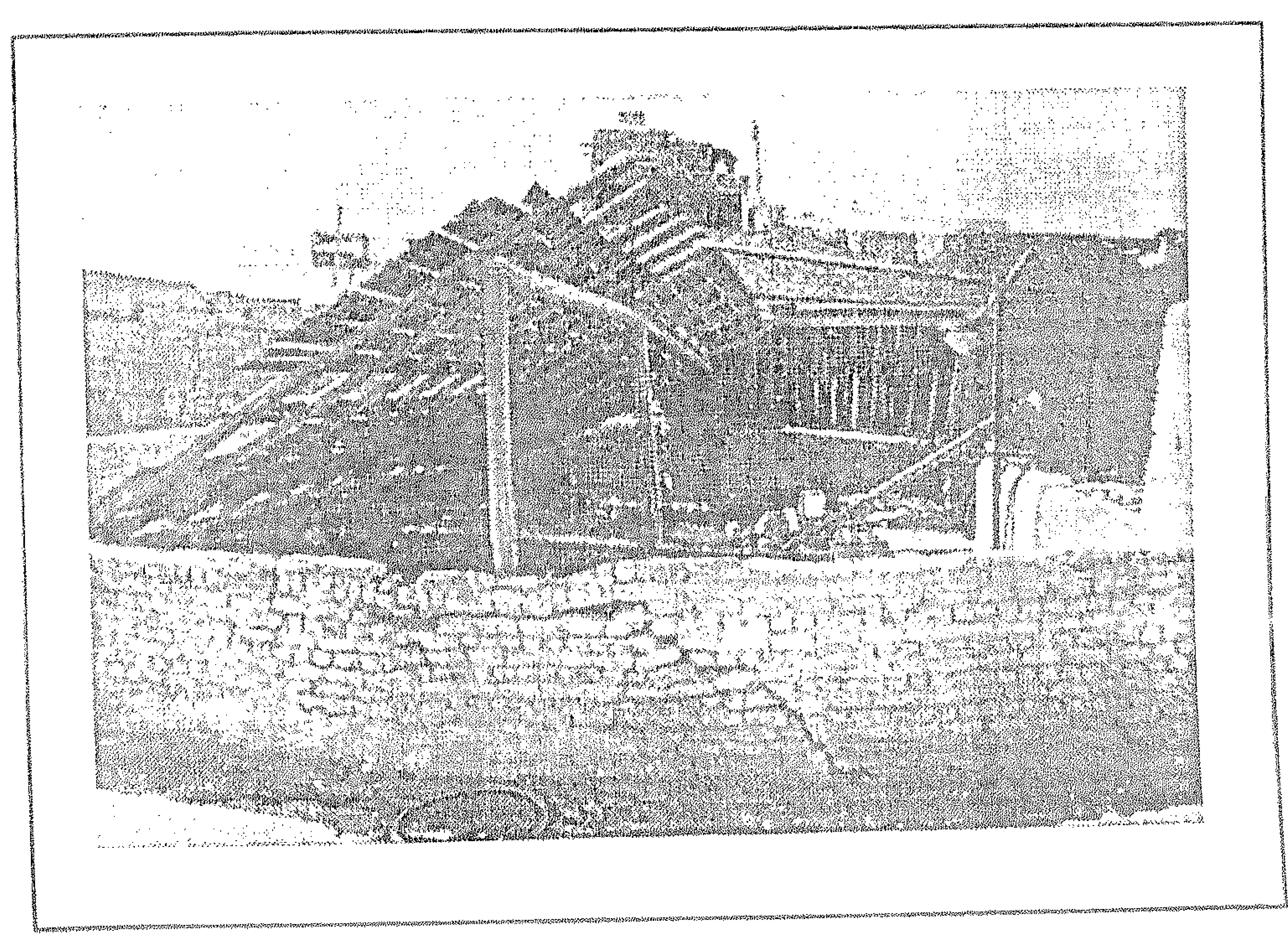
(لوحة٧) : نموذج من الأسقف الخشبية فى وكالة آل عودة



(لوحة٨) : الدور الأول فى وكالة آل عودة



(لوحة٩) : السلم العلوى المؤدى إلى السطح فى وكالة آل عودة



(لوحة١٠) : سطح وكالة آل عودة

شهر صفر ٢٧٧

٥٢٩ ص ٧٧

حضر كل من الرجل الكامل سعيد معتوق المرحوم محمد اغاه بيروني عن نفسه وبطريق الوكالة الشرعية عن عتقاء سيده وهم حليمه وزعفران وبخيت وفاطمه وجوار ولدها علي الثابت وكالته عنهم بشهادة الرجل صالح ... والرجل محمد علي ... وحضر لحضوره زوجة سيده المرأة فاطمة بنت الحاج علي الحجازي وادعى سعيد المرقوم بان سيده اوصى له ولمعتوقيه ... العارف ... بالمبالغ الموضحة ... عشر الف غرش ... وخمسة الاف غرش لحليمه والف وخمسمائة غرش لزعفران ... غرش لبخيت والف وخمسمائة غرش لفاطمه ... غرش لعلي ولدها ... وخمسمائة غرش لولدها علي والف غرش تصرف في اصلاح وترميم ... العارف الطواب ... سعيد المذكور جميع الوصية المذكورة ... الف غرش ... والربع في منزله الكائن ... سعيد وزعفران وحليمه كل واحد منهم ... الربع ... وحدوده القبلي الطريق ... والبحري ... والباقي ضريح الاستاذ ... والشرقي منزل المرأة ... والغربي الطريق الموصل للجامع العمري ... جميع الوكالة الكائنة ... الطواب ... من بعده معتوقه سعيد وحدودها القبلي الشارع والبحري منزل ... والشرقي ... والغربي الشارع والموصى ... المتوفى المرقوم ... عن زوجته فاطمه المذكورة فقط ... وعثمان اغاه ... ناظرا ... محمد بيك ... سعيد ... بتنفيذ الوصية ... المذكورين ... بالوكالة المذكورة ... المرأة فاطمة المذكورة ... فاجابت بعدم ... الوصية المذكورة وانكرت ثبوتها وطلب ... سعيد المدعي المذكور اثبات دعواه بالبرهان الشرعي فاحضر كلا من الرجل ... والرجل حسين ... فشهدا ... بلفظ اشهد ... المرأة فاطمة المذكورة بان المرحوم محمد اغاه بيروني ... في حياته ... المذكورين بالمبالغ المرقومة ... سعيد ... عشر الف غرش وحليمه خمسة الاف غرش وزعفران الف وخمسمائة غرش ... غرش وفاطمة الف وخمسمائة غرش ... وعلي ... غرش وكذلك ... غرش يصرف على ... الاستاذ ... بنظر الوصي ... سعيد معتوقه وكذلك اوصى بنصف وربع المنزل المحدود بالحدود الاربع ... وحدوده ... لكل من سعيد وزعفران وحليمه كل واحد منهم الربع ... وجميع الوكالة المذكورة ... الطواب ... وحدودها ... النظر لنفسه ثم من بعده الى معتوقه سعيد وذلك بموجب وصيه ... قبل وفاته ... الشهادة العدول ... المذكورين ثم صار ... والطعن ... الشيخ ... صالح وحسين ... فلما ثبت ... الوصية المذكورة ... لم يكن للموصي وارث ... جميع المال ... المذكورة عن اجازة الوصية المذكورة ... فاجابت بعدم الاجازة ... الوكالة المذكورة ... اجازته ... الوصايا ... ثلث التركة الزوجية لم تجز ... ثلث ... بدون اجازة والباقي ... للزوجة ... وهو السدس من جميع المتروكات والباقي يرد على الثلث ... الموصى لهم على حسب ... بما سيأتي

	عدد	
طشت وابريق	٢	١٠٠
اصحن صيني	١٠	٣٠
طباق صيني	٦	٨
[illegible]	١	٤
صوانية قهوة وبكرج	٢٠	٣٠
ساعة شرلك	١	٧٥
كباية [illegible]	٣	١٥
شمعدان نحاس	١	١٢
نحاس [illegible]	١٥	٩ — ٣٠
فانوس [illegible]	١	١٥
[illegible]	٣	١٥
شمعدان نحاس	٢	٢٥
[illegible] نحاس	١	١٠
[illegible] فارغ	٢	٤
منشار	٣	٤
صندوق خشب	١	٢
حق [illegible]	١	٢
[illegible] فارغ	٧	٤
صينية [illegible] حديد	١	١
[illegible] خشب	٣	١٢٥

أشهاد ملحق بالبحث يشتمل على وكالتين .

[illegible]

٤٨٨	ما قبله	
٢٠	دولاب خشب	١
٥	كرسي قديم	١
١٠	قلل شربات	٥٠
٣	قلة شرب صيني	١
٣	شباك دخان قديم	١
٣	اكليم قديم	١
٣	مرتبة فرش	١
١٠	مخاود	١٠
٤	[illegible]	١
١٠	صندوق خشب	١
٢	كرسي اكل	١
٩٠	سجادة مستعملة	١
٨٠	اكليم قديم	١
٣	سرير خشب	١
٢	درج قديم	١
٣	شمعدانات	٢
١	صندوق خشب	١
١٠	طبلية عشا	٢
٣	ابريق نحاس	١
٤٠	سرج كبير	١
١٠	بندقية	١
٥	لوازم حديد مستعملة	[illegible]
١٠	كراسي خشب	٢
٥	محارات خشب	٢
١٠	قلال فخار	٢٠
١٠٠	لوح خشب	٣٠
٢٠	[illegible]	٧
٨٠	كراسي بلدي	٢
٥٠٠	جاموس	١
١٠٠	حمار	١
١٢٥	صحون [illegible]	٦
٤	صحون نحاس	١
٣	طاس شرب	١
١٣٠	صينية نحاس	١
١٥	صوف شعر	١
٧١	طقم عود فضة [illegible]	١
٥٠٠	معلق قلل فضة	٣
١٠٣٠	[illegible]	١
[illegible]	كنكة قهوة	١٠
٤	كنكة قهوة	١
٢٠٧	قراقات نحاس	١
٤٣٤٤		

تابع ص ٧٧

تابع تقويم متروكات محمد اغا ميرزا

عرد

ما قبله ٤٤٢٢

٥٠	١٠٠	١	عال نحاس جديد	٩
٥٠	٤	٩	دست نحاس صحن	٥ ٩
٧٢٠		٢	هاونگ نحاس بنطا ٨٠	٩
١٨		١	مصنفي نحاس ٢	٩
٥ ٤ ١		٥	صحون نحاس ١٠٥	٩
٢٠ ٢٢		١٠	قروان نحاس ٢٢	٩
٢٠ ١٤		١	طاسة نحاس ١٦	٩
١٨٠		١٠	طشت نحاس ٢٠	٩
١٠٨		١	حلة نحاس ١٢	٩
٥٤ ١		٧	دلال نحاس قراضة ٢٧	٥
١٥		١	صنية نحاس ٣	٥
١٠		٢	طوس قراضة ٢	٥
١٥		١	كوز قراضة ٣	٥
٢٥		٣	صحون قراضة ٥	٥
١٠		١٠	قروان قراضة ٢	٥
٤٠٠٠		١	صنية [illegible] قراضة ٨	٥

٥٤٠١ ..

وسهامات الرسالة وجه الشرحم

	٢٧٧٤٩	طرف سبيه
	٠٩١٠٧	طرف مذروب وما ياكله عرض على بيد سعيد المدكور
	١٩٠٠٠	طرف حيدا [illegible]
٥٢٨٥٦	١٠٠٠	طرف سبيه

٥٩١٥٧ ..

ومن المال الذي كان شائعة قبضه عمارة السابع والمحمد قبله ١٠٠٠٠

٩٩١٥٧ ..

مصاريف الخارج

وبر نات ثمن [illegible] حيث [illegible] وعبد [illegible] قبضه وطلب البينة [illegible]	٢٠٠٠٠	..	
وبمانات [illegible] ايضا من [illegible] الرهان و [illegible] قبضه وطلب البينة [illegible]	١٧٨٩	..	٢١٧٨٩ ..

٤٧٣٦٨

عن الترك كما الك	منزل قرين الضا	١٥٧٨٩ ١٤

٤١٥٧٨ ٢٧

مصاريف امانات

ومن الملك مرافع الابنة [illegible]	٤٦١	٠٥	
من الحجر واسناه [illegible]	١٨٠٠	..	
اسماعيل [illegible] مرافع الابنة [illegible]	٥٨٩.١٥		٢٨٤٧ ٢٠

كتيم على زوجته والمذكب [illegible]	٢٨٧٢١ ٠٧

٤٧٨٨ ٢١

ام زوجته فاطمة بنت علي الغاء الرهاني [illegible] الخ [illegible] لشيكات الرهن [illegible]

[illegible] ٥٥٥ ٢٢

والربع [illegible]	٥٢٤٦.٠٢	
نقدات	٢٢٨٨.٢١	

٤٩٥٥٠٧

نقدات	١٢٨٨٢٥

٣٤٤٨٧ ٠٢ [illegible] ما مذكور [illegible] والربع [illegible]

٥٠٠٠ ..

٢٩٥ ١٩٦٦ [illegible] سعيد [illegible] الربع [illegible]

٢٩٧ ١٩٦٦ [illegible] زهرات [illegible] الربع [illegible]

٢٩٥ ١٩٦٦ [illegible] علية [illegible] الربع [illegible]

٥٠٠٠ ..

١٤٤٨٧ ٠٢

١٢٤٧	[illegible]	باقيه من المعاش [illegible]		
		سعيد	١١٤١٦	[illegible]
		حليمه	٥٠٠٩	١٧
		[illegible]	٦٠٠	[illegible]
		زعفرانه	٩٠١	١٢
		فاطمه	٩٠١	١٣
		[illegible]	٤٨٠	٢٨
		[illegible]	٤٨٠	٢٨
		مسعود [illegible]	٦٠٠	٢٥

في ٢٥ [illegible] — اشهد على نفسه الرجل [illegible]

في ٢٥ [illegible] منه — حضر الرجل [illegible]

في ٢٧ [illegible] — حضر الرجل [illegible]

في ٢٨ منه — حضر الرجل [illegible]

[illegible] ربيع اول [illegible]

في ٨ ربيع اول [illegible] — حضر الرجل [illegible]

في ١٢ منه — حضر الرجل [illegible]

في [illegible] — حضر [illegible]

في [illegible] — حضر [illegible]

في [illegible] — حضر [illegible]

في ١٥ منه — حضر الرجل [illegible]

في ١٦ منه — حضر [illegible]

في [illegible] — حضر الرجل [illegible]

في [illegible] — حضر الرجل [illegible]

[illegible] — حضر الرجل [illegible]

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى(*)

بعض أضواء جديدة على :

العلاقات التجارية بين مصر والصين في عصر دولة سلاطين المماليك

ترجع علاقة الصين ببلاد العرب إلى أمد بعيد - قبل الإسلام - حيث كانت التجارة بين الصين والهند من جهة وموانىء البحر المتوسط من جهة أخرى فى أيدى العرب حينذاك[١] ، كذلك كانت علاقة الصين بالمسلمين علاقة قديمة ، إذ من المعروف أن الإسلام دخل الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحرى الذى كانت تسلكه السفن التجارية [٢]، ولهؤلاء التجار الفضل فى أن يشتد عود الإسلام ببلاد الصين .

وقد عرفت مصر فى المراجع الصينية باسم " هاى - سى " ، أى بلاد غرب البحر ، ووصفت بأن منها يخرج نهر يصب فى بحر عظيم [٣]، كما كانت الإسكندرية معروفة لديهم باسم " كسند " ، وكانت البضائع تصدر من مصر إلى الصين عن طريق البحر الأحمر ، كما أن مدينة كانتون الصينية كانت معروفة فى المصادر العربية باسم " خانقو " وهى من أعظم مراكز التجارة فى الهند الصينية [٤]. ومما يؤكد اتصال مصر ببلاد الصين منذ القدم ، وجود

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

بعض الزخارف القبطية ذات المسحة المصرية على الرسوم والفنون البوذية ، مما يثبت أن الفنون القبطية المصرية وصلت تلك البلاد (٥).

ولا غرو أن تتوطد الروابط السياسية والعلاقات التجارية بين كلا الدولتين بيد أن العلاقات التجارية كانت أوطد من الروابط السياسية على مر عصور مصر الإسلامية ، ولكن الوضع احتلف فيما بعد ، فى أواخر العصور الوسطى عندما توثقت عرى المحبة وأواصر الصداقة بين سلاطين دولة المماليك بمصر وأباطرة دولة المغول بالصين ، وخاصة فى عهدى كل من أسرتى مينج المغولية الصينية ، وبنى قلاوون المملوكية المصرية ، فكان أوج ازدهار البعثات الدبلوماسية والعلاقات السياسية (٦). ومما لاشك فيه أن تلك العلاقات قد ساهمت مساهمة فعالة فى انتعاش ونمو النشاط التجارى بين كل من الدولتين الصينية والمملوكية ، وارتبط ذلك بميناء عيذاب الذى كان يعد من أهم مراكز التجارة بالبحر الأحمر فى عصر دولة سلاطين المماليك ، وبخاصة فيما تتعلق بتجارة دولة الصين وأيضًا الهند واليمن (٧). وترجع أهمية هذا الميناء إلى أنه كان أكثر الموانىء أمنًا على السفن لقلة الشعب المرجانية التى كانت تنبت فى قاع البحر الأحمر حوله ، فضلاً عن عمق وغزارة مياهه . ومن ثم فقد كان هذا الطريق من أكثر الطرق التجارية أمنًا للتجار والملاحين (٨)، علاوة على ذلك فقد كان أيضًا من أكثر الطرق التجارية أمنًا بين الشرق والغرب(٩) لانسداد معظم طرق التجارة العالمية بسبب حركة المغول التوسعية منذ القرن ٧ هـ / ١٣م ، بحيث لم يبق من الطرق الآمنة إلا الطريق المار بأراضى السلطنة المملوكية ، وهو طريق عيذاب ، قوص ، الإسكندرية أو دمياط (١٠).

وقد تدفقت أحمال توابل تجارة الشرق الأقصى من البهار والفلفل(١١) والقرفة وغيرها لتصل عبر طريق البحر الأحمر إلى ميناء عيذاب ، ثم تنقل فى القوافل البرية إلى ميناء قوص، ومن هناك تحمل فى النيل على مراكب الشحن النيلية لينتهى بها المطاف فى خزانة التوابل بالقاهرة(١٢) ، تلك التى ترد إليها " متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى " ، وهنا تكتمل حلقة التجارة العالمية عبر البحر الأحمر النيل - البحر المتوسط (١٣).

وقد لعب الدور الرئيسى فى هذه التجارة تجار الكارم أو الكارمية (١٤)، وهم كما عرفهم (ذكرهم) المقريزى(١٥) " فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارد إلى مصر دون غيرهم من الدول ، من الهند والشرق الأقصى " ، أى أنهم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق بين المحيط الهندى وبين البحر الأحمر ومصر (١٦).

وخلاصة القول فإن هذه الطائفة أو تلك الفئة كان بداية ظهورها فى مصر فى العصر الفاطمى ، وتزايدت أهميتها أيام الأيوبيين والمماليك مما أدى إلى أنهم كانوا أشهر تجار المحيط الهندى والبحر الأحمر أواخر القرنين ٧ - ٨ هـ / ١٣ - ١٤م ، وأوائل القرن ٩ هـ / ١٥م ، وقد كان هؤلاء التجار يحتكرون تقريبًا التجارة مع الهند والشرق الأقصى [١٧]، ويكفى أنهم تعلموا استعمال إبرة المغناطيس فى الملاحة البحرية من التجار الصينيين ، وعن طريقهم نقلت للعرب[١٨]، مما ساعد على زيادة الرواج التجارى . وكان لهذا أثره فى إثراء دولة سلاطين المماليك، كما قاموا بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب مما نمى مكانتهم التجارية وأصبحوا يمثلون الرأسمالية التجارية آنذاك [١٩].

وقد اتخذ تجار الكارمية فى العصر المملوكى ، من مدينة قوص[٢٠] مركزاً لنشاطهم الواسع ،فغدت تلك المدينة المهمة فى صعيد مصر سوقًا تجاريًا واسعًا للمنتجات الصينية والهندية ، وهناك فى قوص كون تجار الكارمية نقابة خاصة بهم ، وذلك للحفاظ على كيانهم التجارى ، حيث هيمنوا أو سيطروا على تجارة التوابل والفلفل والبخور فى عصر دولة المماليك البحرية وخاصة إبان عهدى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى والسلطان المنصور قلاوون ، وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك ، وأطلق عليه رئيس الكارمية[٢١]، ولا غرو أن نعرف أن هذه الطائفة وتلك الجماعة كانت شديدة الارتباط ببعضها البعض مدعومة برابطة المصاهرة ، وأن مصر كانت هى المركز الرئيسى لهم [٢٢].

وقد شهد إقليم قوص أكبر حركة تجارية لتجار الكارم فى عصر دولة سلاطين المماليك حيث كان سوقًا لمتاجرهم التى حفلت بمنتجات أفريقيا الوسطى والمغرب واليمن والحبشة والهند والصين[٢٣]. وهكذا صار أهم مركز تجارى نهرى فى مصر ، لوقوعه عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب والنيل[٢٤] (شكل ١) ويؤكد ذلك المقريزى [٢٥]، فى أن قوص لعبت دوراً كبيراً منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى عن طريق تجار الكارم فيقول: و«استمرت بضائع تجارة الكارم تُحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة- أى سنة ١٣٥٨م- وتلاشى أمر قوص من حينئذ».

ومما هو جدير بالذكر أن إقليم قوص تبوأ مكانة عظيمة فى صعيد مصر منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى، حيث كان والى هذا الإقليم يعهد إليه بحكم الوجه القبلى كله، وهو يلى الوزير فى الرتبة تقريبًا ويحكم تحت نفوذه مناطق ومديريات عديدة[٢٦].

كذلك كان يقع على مسئوليته تأمين الطريق التجارى للكارمية ، وحفظ الثغور ، والاهتمام بالأسطول فى هذا الجزء الكبير من الوادى لأنه باب مكة للحجاج ، وباب التجارة مع اليمن والحجاز والشرق الأقصى . وظل ذلك ردحًا كبيراً من الزمن[٢٧]، وقد زار مدينة قبرص الكثير من الرحالة، وذكرها العديد من المؤرخين وكتب عنها الجغرافيون فأجمعوا على أنها مدينة متسعة المرافق ، كثيرة الأسواق لكثرة الصادر منها والوارد إليها من التجار من كل صوب ، وحدب، من شرق العالم الإسلامى ومغربه من أقصاه إلى أدناه .

هذا بالإضافة إلى أنها ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين وإليها عودتهم ، فهى محط الرحال ومجتمع الرفاق ، فضلا عن أنها مدينة تجارية عظيمة تقع على البر الشرقى للنيل، ذات مبانى كثيرة يسكنها العلماء والتجار وذوى الأموال[٢٨].

وقد أدرك المستشرقون الفرنسيون[٢٩] فى أوائل القرن ١٣هـ / ١٩م ، وكذلك ١٤ هـ / ٢٠م مكانة هذه المدينة وأهميتها الاقتصادية والتجارية على مستوى صعيد مصر ، ودورها الحضارى على مر العصور الإسلامية وخاصة العصر المملوكى، عصر الازدهار السياسى والرواج التجارى مع مختلف أقطار العالم الإسلامى[٣٠].

وهكذا كان لموقع مدينة قوص المتميز على النيل أثره الذى جعلها تزدهر اقتصاديًا وتنتعش تجاريًا وتعمر سكانيًا ، وينشىء بها تجار الكارم الفنادق والخانات والوكالات[٣١] على نفقتهم الخاصة، لكى تتم فيها صفقات بيع التوابل والسلع الأخرى وأيضًا لمبيتهم وسكناهم [٣٢]، وقد اهتم سلاطين المماليك البحرية بهذه المنشآت التجارية لخدمة تجار الكارم، فأقاموا العديد منها على شاطىء النيل والكثير على المدن الساحلية مثل دمياط وقوص وجدة وعيذاب وعدن وزبيد [٣٣].

ويُعد عصر الناصر محمد بن قلاوون وأولاده من أهم عصور دولة سلاطين المماليك التى يتجلى فيها نشاط تجار الكارم على أرض قوص ، تلك المدينة التى لعبت دوراً تجاريًا مهمًا فى تجارة الشرق الأقصى بين الصين وبلاد العراق والشام ومصر [٣٤].

وحفاظًا على النشاط التجارى لمدينة قوص ، صدر مرسوم سلطانى يوضح ويؤكد واجب ودور والى تلك المدينة تجاه تجار الكارمية ، جاء فيه : «وأكرم مقدوم من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك، أنك أول ما قدمناه من المكارم فهم سماء كل نادي، ورفاق كل ملاح وحادي، ولابد أن يتحدث السمار وتتداول بينهم الأسعار ، فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم

ومننا حلية أعناقهم، ومنحنا سببًا لاستجلاب رفاقهم ، فهم من مواد الارفاق وجواد ما يحمل من طرف الآفاق (٣٥).

ولا غرو أيضًا أن يعمل السلطان الناصر محمد بن قلاوون على تأمين الملاحة والتجارة فى شمال البحر الأحمر وجنوبه من الخطر، ويسعى فى سبيل ذلك لجذب التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، يشهد على ذلك المنشور الرسمى الذى أذيع من قبل السلطان:

«... ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفياؤها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لايحتاج ساكنها إلى ميرة ولا ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة لمن فطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر والمقيم بها فى ربيع دائم وخير ملازم، ويكفيها أن بعض أوصافها أنها شامة الله فى أرضه .. فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة فى الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحسانًا يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها فى بلده طيبة ، فى سلامة فى النفس والمال ، وسعادة تمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه...».

ومن جهة أخرى فقد اهتمت حكومة الصين بالتجارة اهتمامًا كبيراً فعملت على تنشيط أعمالها التجارية بإرسال وفود إلى الخارج من قبل الإمبراطور الصينى يحملون معهم الخطابات المختومة بخاتم الإمبراطور ، ومقدار من الذهب والفضة لشراء البضائع وللدعاية بين التجار الأجانب بسواحل بحر الجنوب وترغيبهم فى زيارة الصين (٣٧).

أما عن علاقاتها التجارية مع مصر، فقد انتظمت وتطورت ولعب تجار الكارم دوراً مهمًا فى العلاقات الدولية السياسية إلى جانب التجارية (٣٨)، حيث كانت مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك ترسل سفراء من تجار الكارم إلى الصين ، فكانوا يقابلون بحفاوة بالغة وكرم كبير من ذلك أن السلطان برسباى أرسل سفارة إلى الصين فى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م مكونة من بعض تجار الكارم ، كان الهدف الرئيسى منها تقوية أواصر الصداقة بين الدولتين المملوكية فى مصر والمغولية فى الصين، وكان هؤلاء التجار محملين بالهدايا من قبل السلطان المملوكى للإمبراطور الصينى وأسرته، وعند عودتهم كانوا يحملون الكثير من الهدايا لأمراء وأميرات أسرة السلطان المملوكى من قبل الإمبراطور الصينى (٣٩).

ومما يدل على التواصل الحضارى والتجارى بين مصر وبلاد الصين، ما ذكره ابن بطوطة[٤٠] عند زيارته لمدينة الخنسا فى القرن ٨هـ / ١٤ م من استقرار بعض التجار المصريين هناك فيقول: «وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصرى ، هم كبراء المسلمين، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عصمان المصرى، وكان أحد التجار الكبار[٤١] استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه- أى ذريته أو أبنائه- بها الجاه والحرمه . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء، والإعانة للمحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة، لها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع[٤٢] بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافًا عظيمة ، وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير».

ويتجلى التواصل الحضارى والتجارى واضحًا بين مصر وبلاد الصين فيما ذكره الخزرجى فى أحداث سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، عند وصول أحد تجار الكارم من الصين إلى اليمن، وكان معه الكثير من السلع من أهمها الحرير والبهار وجملة مستكثرة من الفخار الصينى، وطلب من صاحب اليمن السماح له بمواصلة رحلته إلى مصر[٤٣].

وخير دليل على عمق المعاملات التجارية بين دولتى سلاطين المماليك فى مصر وأباطرة المغول فى الصين ، هو أن بعثة هيئة الآثار المصرية عثرت فى حفائرها بمدينة قوص فى موسم سنة ١٩٦٦-١٩٦٧م على جرة فخارية أو قدر من الفخار الصينى يحتفظ به الآن متحف جاير أندرسون بالقاهرة[٤٤] «بيت الكريدلية» (لوحة ١) .

وهذا النوع من الفخار زاد انتشاره فى العصر المملوكى نتيجة للنشاط البحرى التجارى بين الدولتين ، واشتهرت بصناعته بلاد الصين، ويشهد على ذلك ابن بطوطة[٤٥] الذى زار هذه البلاد فى القرن ٨هـ / ١٤م، ولمس تفوق بلاد الصين فى صناعة الفخار الصينى ، فيقول : «وأما الفخار الصينى فلايصنع منه إلا بمدنية الزيتون وبصين كلان، وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم ، ويضيفون إليه حجارة من عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابًا ، ثم يخمرونه ، فالجيد منه، خمر شهراً كاملاً . ومن التراب يصنعون أواني الفخار الصينى وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنًا ، ويحمل إلى سائر الأقاليم، وهو أبدع أنواع الفخار» . ويستطرد ابن بطوطة[٤٦] ذاكراً أكبر مدنها، وأهم أسواقها لبيع الفخار الصينى وهى مدينة صين كلان- صين الصين- وأيضًا مدينة الزيتون ومن هذه المدينة يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن[٤٧].»

وهذا القدر الفخارى أو تلك الجرة الفخارية التى عُثر عليها بحفائر قوص ، ترجع أهميتها فى الزخرفة الكتابية والنقوش الخطية التى نفذت بأسلوب الحز تحت الطلاء العلوى من البدن الكروى وقرب فوهتها العليا. وقوام هذه الزخرفة وتلك النقوش كتابات باللغة الصينية القديمة من مقطعين هما "JI- Shun" بمعنى احترام المواثيق ، ومراعاة العهود (شكل ٢) ، ودلالة هذه العبارة، أن التجار الصينيين على العهد والميثاق فى مراعاة الأمانة والمتانة، مع الاتقان فى صنعهم كما هو معروف عنهم، كذلك إشارة أو علامة على متابعة السلطات للسلع التجارية لمنع الغش ومحاربته .

ومما هو جدير بالذكر أنه عندما كثرت التيارات الفنية والأساليب الصناعية التى وردت إلى مصر إبان العصر المملوكى نتيجة عوامل كثيرة، منها اقتصادى لتجمع منتجات الشرق الأقصى التى أصبحت تنتهى فى مصر ، بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والفنية، لوفود أجناس مختلفة ذات حضارات وعادات وتقاليد متباينة عن حضارة الشرق، لذا صار على الفنان أن يسجل هويته ولغته على عمله [٤٨].

ومن ثم فلا غرو فى معنى هذا الختم أو تفسير تلك الكلمات ، إذا ما عرفنا كما ذكر آنفًا من بدر الدين حى الصينى[٤٩]، أن حكومة الصين كانت تهتم عظيم الاهتمام بالتجارة وتنشيط الأعمال التجارية مع المسلمين عامة ودولة المماليك خاصة، حتى أن امبراطور الصين كان يبعث مع وفوده إلى الخارج خطابات مختومة بخاتم الإمبراطور ومقدار كبير من الذهب والفضة، كدعاية لترغيب التجار الأجانب بزيارة الصين، ووعدهم برخصة خاصة ببضائعهم .

وكما جلب التجار المسلمون فى العصر المملوكى أبدع التحف الفخارية من البلاد الصينية، فقد استوردوا أيضًا أجود أنواع الخزف الصينى منها، وهو ما عرف باسم «السيلادون[٥٠] ويتميز بأسلوب صناعى وزخرفى اشتهرت بصناعته الصين. ومما يؤكد مدى التواصل الحضارى وعمق النشاط التجارى بين أسرة قلاوون المملوكية فى مصر ، وأسرتى سونج - من مغول- الصين، هو ما عثر عليه أيضًا فى حفائر قوص من تحفتين خزفيتين من صنع الصين من نوع خزف السليلادون يحتفظ بها فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، التحفة الأولى عبارة عن صحن[٥١] من خزف السيلادون الصينى ذى لون أخضر نافض ، له حافة خارجية مسطحة، ويتوسط قاع الصحن من الداخل ، زخرفة نباتية بأسلوب الحز على هيئة مجموعة من الزهور فى باقة واحدة (لوحة٢) .

أما التحفة الثانية فهى عبارة عن إناء على هيئة مزهرية[٥٢] من خزف السيلادون الصينى ذى لون أخضر نافض ، له فوهة متسعة، وبدن شبه كروى به تضليعات بارزة . وهذا البدن يستدق إلى أسفل حيث القاعدة ، والإناء خلو من الزخرفة اللهم إلا التضليعات (لوحة ٣) .

ولا غرو أن يكون بداية ظهور الخزف الصينى فى القرنين ٨-٩هـ / ١٤-١٥ م من بين الهدايا التى يرسلها سلاطين مصر إلى ملوك أوربا ، ومن ذلك الحين كانت أسواق القاهرة تتزود دائمًا بالخزف الصينى[٥٣].

وبالإضافة إلى التحف التطبيقية السابقة الذكر التى عثر عليها بحفائر قوص، والتى تدل على الترابط التجارى مدعمًا بالعهود والمواثيق ، فإن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة يحتفظ أيضًا بمجموعة من القطع النسيجية الحريرية تؤكد عمق العلاقات ومتانة السفارات بين أباطرة المغول فى الصين وسلاطين المماليك فى مصر، وهذه القطع من صنع الصين باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مهداة من إمبراطور الصين إلى سلطان مصر، وعليها كتابات صينية معناها «سعادة مكررة» ، «طول العمر» وكان يعتقد فى أول الأمر أنها كتابات كوفية ولكن ثبت بالدليل أنها كتابات صينية قديمة [٥٤].

* * *

وخلاصة القول أن العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الصين ازدهرت ازدهاراً كبيراً ، وكان أوج ازدهارها فى العصر المملوكى وخاصة فى عهدى قلاوون وبرسباى والعصر المغولى وخاصة فى عهد أسرتى سونج ، ومنج .

ويكفى أن العرب المسلمين فى القرن ٧هـ / ١٣م تعلموا من التجار الصينيين طريقة استعمال البوصلة البحرية (إبرة المغناطيس) فى الملاحة، مما كان له أثره الواضح فى زيادة النشاط التجارى البحرى زيادة كبيرة بين البلدين، وترتب عليه أيضًا زيادة الروابط السياسية ونمو العلاقات الدبلوماسية .

الهوامش

١ - محمد تواضع، الصين والإسلام، ص٥ .

- دائرة المعارف الإسلامية ، مج١٤، ص٤٥٩ .

- Encyclopaedia of Islam rol . Leiden 1986,1, p. 839 .

٢- زكى محمد حسن، الصين وفنون الإسلام القاهرة، ١٩٤١م ص٩ .

٣- يقصد باسم «هاى- سى» غرب البحر أى البحر الأحمر، والنهر يخرج منه هو نهر النيل، والبحر العظيم هو البحر المتوسط .

- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، مكتبة النهضة المصرية، ط١ ، ١٩٥٠م، ص١٣-١٤ .

٤- محمد محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٤م، ص١٥ .

٥- سيدة اسماعيل كاشف ، علاقة الصين بديار الإسلام، مجلة كلية الآثار، ١٩٧٦م، ص٣٠ .

٦- بدر الدين حى الصينى، المرجع السابق ، ص٤٥ ، ٢٣٩ .

٧- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى دار النهضة العربية ، ١٩٩٤ م، ص٥٤٢ .

٨- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج٣، ص٤٦٨ .

٩- محمد عبد الغنى الأشقر، تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص٢٩٠-٢٩١ .

١٠- سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى، ص٥٤١ .

- راشد البراوى، فى الاقتصاد الإسلامى دار الحرية، ١٩٨٦م، ص١٣٠-١٣١ .

١١- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى جـ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م، ص٣٧٨ .

١٢- القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣، ص٤٦٤ .

- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م جـ١ ، ص١٥٥ .

- محمد بركات البيلى، بداية الكارم المؤرخ المصرى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٣ ، ١٩٩٤م، ص١٠٦ .

١٣- محمد عبد الغنى الأشقر، المرجع السابق ، ص٤٣ .

١٤- لقد اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال فى معنى كلمة الكارم ونشأتهم وبداية ظهورهم وأصل وجودهم، وللآن لم يحسم النقاش بعد حول كل هذه التساؤلات .

وقد كان أول ذكر للكارمية فى متون الكتب عندما ذكرهم المقريزى فيقول «إن الكارمية جاءوا إلى مصر سنة ١١٨١م أى سنة ٥٧٧هـ وأنهم دفعوا مكوسًا عن عدة سنوات قادمة » وهذا التاريخ يثبت أنهم جاءوا فى عهد صلاح الدين الأيوبى.

- المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ، ص٧٢-٧٣ .

- القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٦٤ .

- صبحى لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو ١٩٥٢، ص٥-١٠ .

- King , Historical Dictionary of Egypt, Cairo, 1984 , p. 384

- الشاطر بوصيلى ، الكارمية ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٣ ، ١٩٦٧ ، ص٢١٧-٢٢١ .

- جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية ، تعريب وتحقيق د. عطية القوصى ، ص٤٨٥، ص٤٩٤ .

- سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٩٤م ص٣٠١ .

- محمد عبد الغنى الأشقر ، تجار التوابل فى مصر، ص٢٤-٣٢ .

- محمد بركات البيلى ، بداية الكارم، ص٨٩-٩٨ ، ص١٠٣ -١٠٥ .

١٥- المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٨٩٩ ، هامش (١) .

١٦- صبحى لبيب ، التجارة الكارمية ، ص٦ .

١٧- جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى، ص٤٨٤ ، ص٤٩٥ .

١٨- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين، ص٣٠٨ .

١٩- شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٩٠م، ص٢٦٩-٢٧٠ .

٢٠- قوص ، بالضم ثم السكون، وصاد مهملة ، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا ، وبينها وبين قفط فرسخ وهى شرقى النيل ، يقال أن كلمة قوص قبطية معناها الدفن ، وسميت كذلك لتخصص إناس من أهلها فى دفن ملوك الفراعنة بعد تحنيطهم، واسمها القبطى Qous، ومنه اسمها العربى ويقال لها قوص بربير.

– محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، ق٢ ج٤ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٤ م، ص١٨٧ .

٢١- سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٣٠١ .

– نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص١٤٣ .

٢٢- جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص٤٨٤ .

٢٣- نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص١٤٢-١٤٣ .

٢٤- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية ، جـ١ ، ص١٦٥ .

٢٥- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار / مكتبة مدبولى، ١٩٩٨م، ج١، ص٥٦٧ .

٢٦- على إبراهيم حسن، مصر فى العصور الوسطى، ص٣٥٩ .

٢٧- القلقشندى ، صبح الأعشى، ج٣ ، ص٥٢٠-٥٢٤ .

– سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص١١٥ .

– محمد خليل أحمد هيمى، إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، مخطوط رسالة ماجستير ، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩٢م، ص١٣٧ .

٢٨- لمزيد من التفاصيل راجع:

عائشة التهامى، دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر فى العصور الوسطى، المؤتمر العالمى لجامعة الأزهر بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على دخول الإسلام مصر، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/ سبتمبر ٢٠٠٠، ص٣٣١-٣٤٠ .

٢٩- جان كيلود جارسان ، قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى ، ١٩٩٤م، ص٣٥٥-٣٧٦ .

٣٠- The Encyclopaedia of Islam, vol . V. p.

- محمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص٩٨ .

٣١- لم يبق بقوص غير وكالتين هما:

وكالة عوده وهى تقع بمواجهة المسجد العمرى بقوص ومسجلة فى عداد الآثار الإسلامية تحت رقم ١٣٥ .

ووكالة محروس وهى تقع بحارة البومة من شارع القيصرية وكلا الوكالتين جددتا فى العصر العثمانى، ووجودهما يدل دلالة واضحة على الرواج التجارى لهذه المدينة.

٣٢- صبحى لبيب، التجارة الكارمية ، ص١٩ .

٣٣- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة، ص٢٩١ .

٣٤- المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ص١٧٥، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

- عطية القوصى ، من تاريخ بلاد النوبة ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة، ١٩٨١، ص١١٦-١٢٥ .

٣٥- صبحى لبيب، التجارة الكارمية ، ص٣٨ .

٣٦- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٣٤٠-٣٤٢ .

٣٧- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص١٣٤ .

- شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، ص٢٥٩ .

٣٨- محمد عبد الغنى الأشقر ، تجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، ص٣٥٦ .

٣٩- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤٠ .

٤٠- الرحلة، ص٦٣٨-٦٣٩ .

٤١- ويذكر ابن حجر عن مكانة التاجر المصرى الكارمى بالنسبة للتاجر الصينى فيقول:

«إن التاجر الكارمى فى مصر يعادل أضخم تجار الصين مالاً وثروة من حيث المكانة المالية والتجارية».

- الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص٢٠٤ .

- أما ابن بطوطة فيذكر أن التاجر الصينى هو:

«وترى التاجر الكبير منهم الذى لاتحصى أمواله كثرة، وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعًا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ... ومن كان له خمس عشرة قطعة سموه الستى وهو بمعنى الكارمى بمصر».

- الرحلة ، ص٦٢٨-٦٢٩ .

٤٢- وقد بلغ عدد المساجد الآن ببلاد الصين نحو ٢٣ ألف مسجد، منها أكثر من ٥٥ فى العاصمة بكين، وتعد هذه آخر إحصائية ذكرها رئيس تحرير جريدة الأهرام عند زيارته لدولة الصين فى أواخر القرن العشرين.

- إبراهيم نافع ، الصين معجزة نهاية القرن العشرين ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ص١٦٦ .

٤٣- العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص٣٥٠ .

٤٤- رقم السجل : ٣٧٩ ارتفاعها : ٥١,٠٠ سم قطر الفوهة : ١١,٠٠سم

٤٥- الرحلة، ص٦٣٠ .

٤٦- الرحلة، ص٦٣٣-٦٣٤ .

٤٧- بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص١٣١ .

٤٨- سعاد ماهر ، كتاب الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٥٣-٥٤ .

٤٩- المرجع السابق ، ص١٣٤ .

٥٠- السيلادون، نوع من الطينة الطبيعية توجد فى الصين ذات خواص طبيعية ، تعطى لونًا أخضرًا نافضًا إذا حرقت فى درجة حرارة معينة، كما أنها تعطى بريقًا خاصًا فهى ليست فى حاجة إلى مادة الطلاء الزجاجى الشفاف.

- ديماند، الفنون الإسلامية، ص٢١٨ .

- سعاد ماهر ، المرجع السابق، ص٥٥ .

- Hobson, The Art of the Chinese pottery , pp. 7-19 .

٥١- رقم السجل : ٢٣٩٧٠ قطر الصحن : ٦٩,٠٠سم ارتفاعه : ٣,٨سم

٥٢- رقم السجل : ٢٣٩٧١ قطرها : ١٣,٠٠سم ارتفاعها : ٦٢,٧سم

٥٣- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ٤ ، ص١٩٠ .

٥٤- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين، ص٢٣٩ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية

- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن جبير : الرحلة ، دار صادر، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، الهند، ١٩٢٩م.
- الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد على الأكوع، جزءان، ١٩٨٣م.
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة، الجزء الثالث، ١٤١٣هـ .
- المقريزى: السلوك فى معرفة دول الملوك ج١ نشر مصطفى زيادة، القاهرة ، ١٩٣٨م.
  المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج٢ بولاق، ١٢٧٠هـ .

ثانيًا : المراجع العربية :

- إبراهيم نافع : الصين معجزة نهاية القرن العشرين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- آمال العمرى (دكتور) : أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م.
- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى (دكتور) : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، ج١ ، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م.
- الشاطر بصيلى: الكارمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣، ١٩٦٧م.
- بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠م.
- جان كيلود جاراسان (دكتور) : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى، ١٩٩٤م.
- جواتياين : دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق د. عطية القوصى، دار الثقافة العربية ١٩٦٦م.

- ديماند : الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى، دار المعارف ، الطبعة الثالث ، ١٩٨٢م.
- زكى محمد حسن (دكتور) : الصين وفنون الإسلام ، القاهرة، ١٩٤١م.
- راشد البراوى (دكتور) : فى الاقتصادى الإسلامى، دار الحرية، ١٩٨٦م.
- سعاد ماهر (دكتور) البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ .

كتاب الفنون الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.
- سعيد عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣، ١٩٩٤م.

مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، دار النهضة العربية، ١٩٩٤م.
- سيدة إسماعيل كاشف (دكتور) : علاقة الصين بديار الإسلام، مجلة كلية الآثار، ١٩٧٦م.
- شوقى عبد القوى عثمان (دكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، .عالم المعرفة، ١٩٩٠م.
- صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مايو، ١٩٥٢م.
- عائشة التهامى (دكتور) دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر فى العصور الوسطى، المؤتمر العالمى لجامعة الأزهر بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على دخول الإسلام مصر، ٢٠٠٠م.
- عطية القوصى (دكتور) :

من تاريخ بلاد النوبة، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة، ١٩٨١م.

أضواء جديدة على تجارة الكارم والكارمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٢٢، ١٩٧٥م.
- فاروق عثمان أباظه (دكتور) : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

- محمد بركات البيلى (دكتور) : بداية الكارم ومعناه فى العصر الفاطمى، المؤرخ المصرى كلية الآداب- جامعة القاهرة، العدد ١٣ ، ١٩٩٤م.

- محمد خليل أحمد هميمى: إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، مخطوط رسالة ماجستير، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩٢م.

- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ق٢ ج٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

- محمد عبد الغنى الأشقر (دكتور) : تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

- محمد محمود زيتون : الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة، ١٩٦٤ .

- نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م.

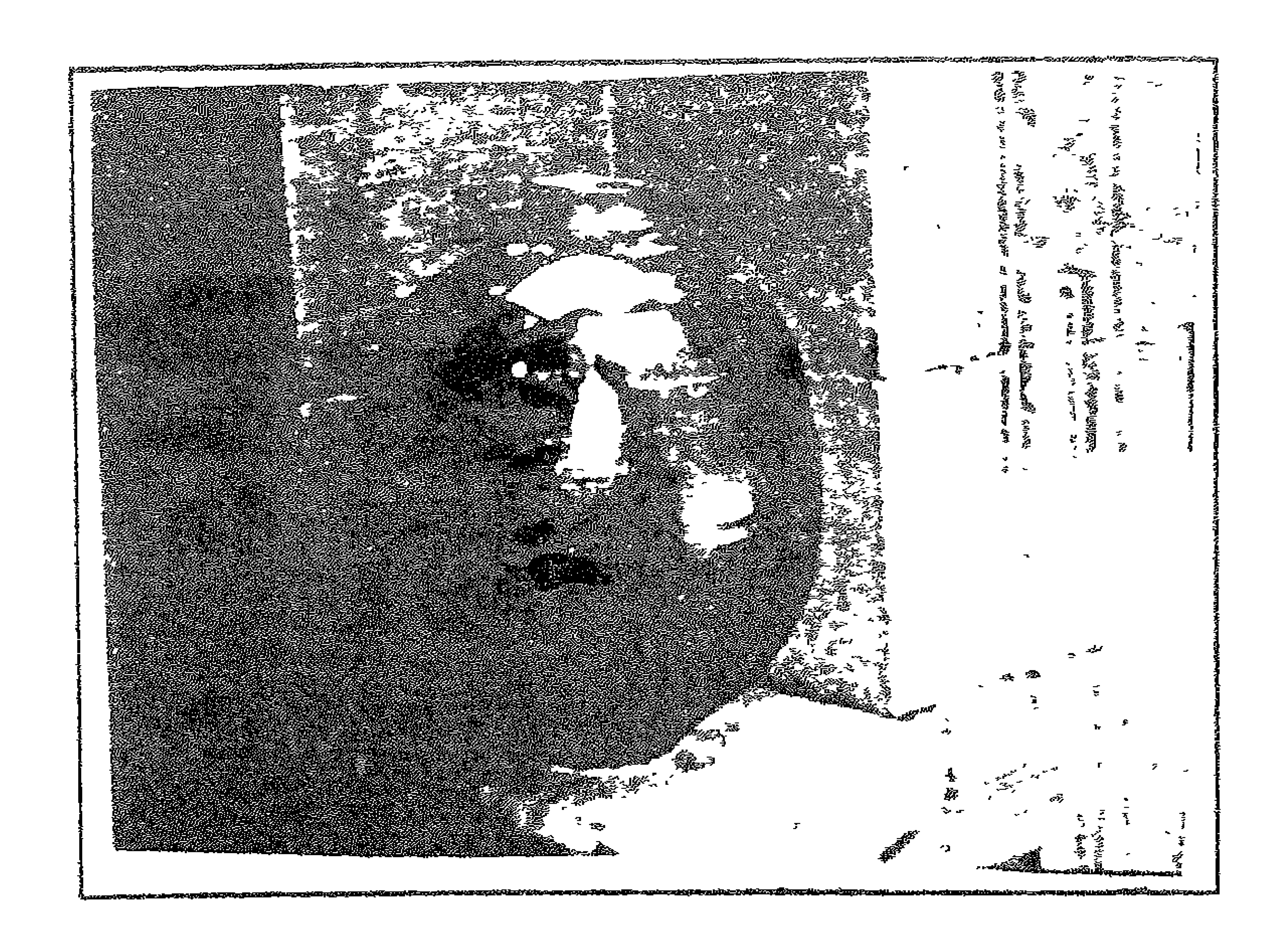
ثالثا : المراجع الأجنبية :

- Ashtor : The Karimi mershants, JRAS/ 1956 .

- Hobson : The Art of the Chinese potter, London, 1923 .

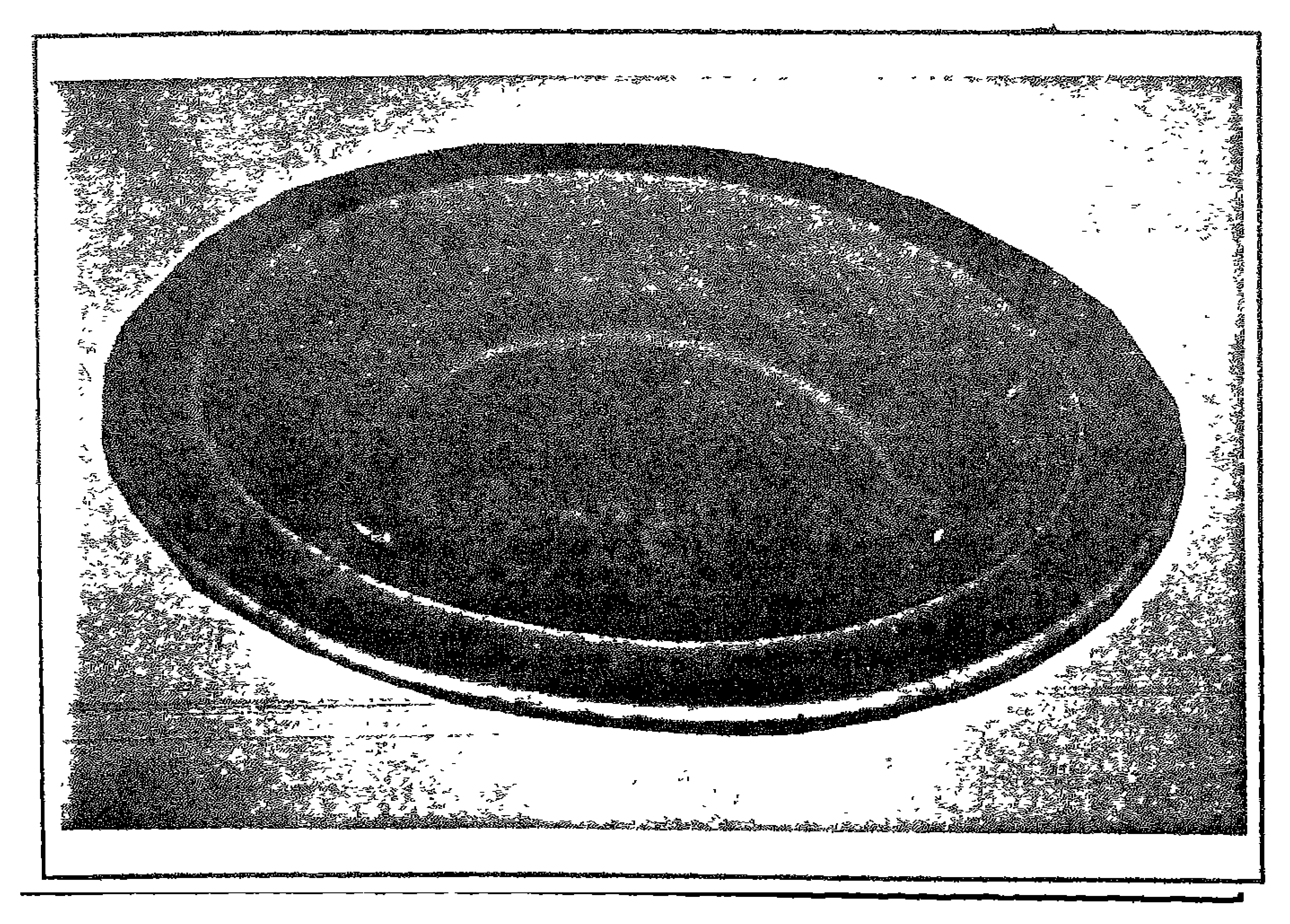
- The Encyclopaedia of Islam, vol . V, Leiden, 1986 .

- King, J.W: Historical Dictionary of Egypt, American University, Cairo, 1989 .



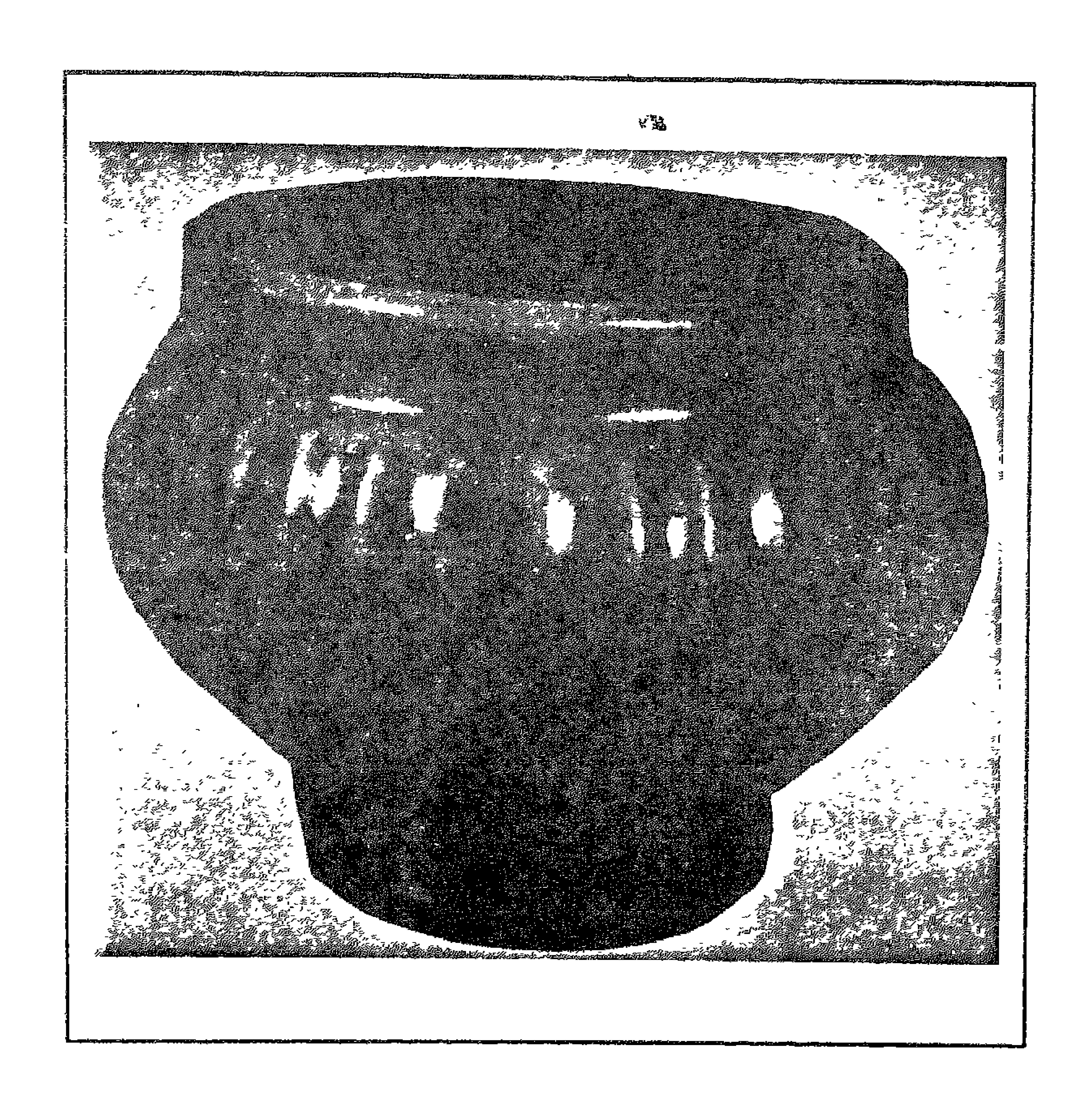
(لوحة١) جّرة فخارية عليها كتابات أثرية بالخط الصينى عُثر عليها بحفائر مدينة قوص

- محفوظة بمتحف جاير أندرسون بالقاهرة



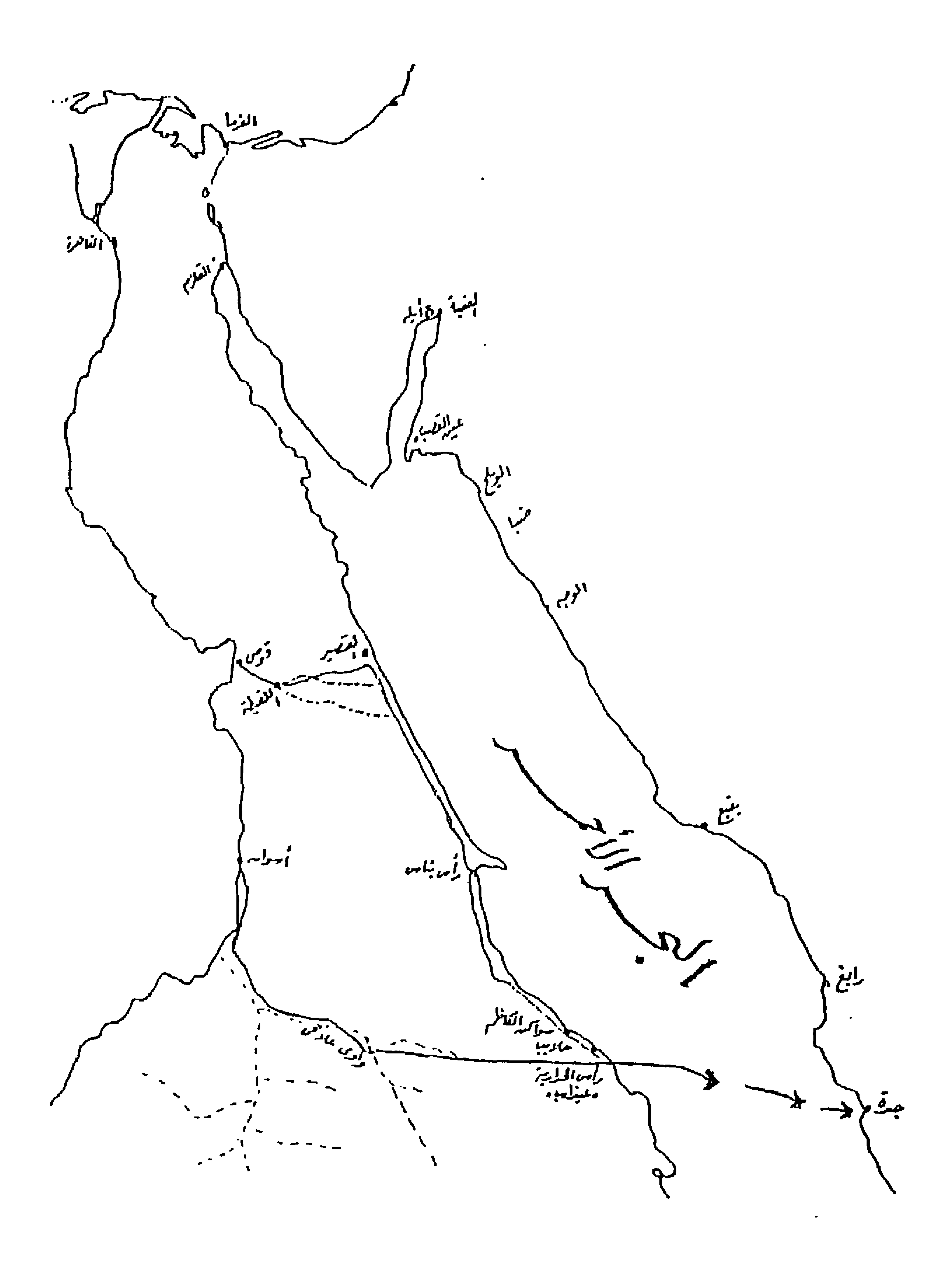
(لوحة٢) صحن من خزف السيلادون الصينى عُثر عليه بحفائر مدينة قوص

- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة-

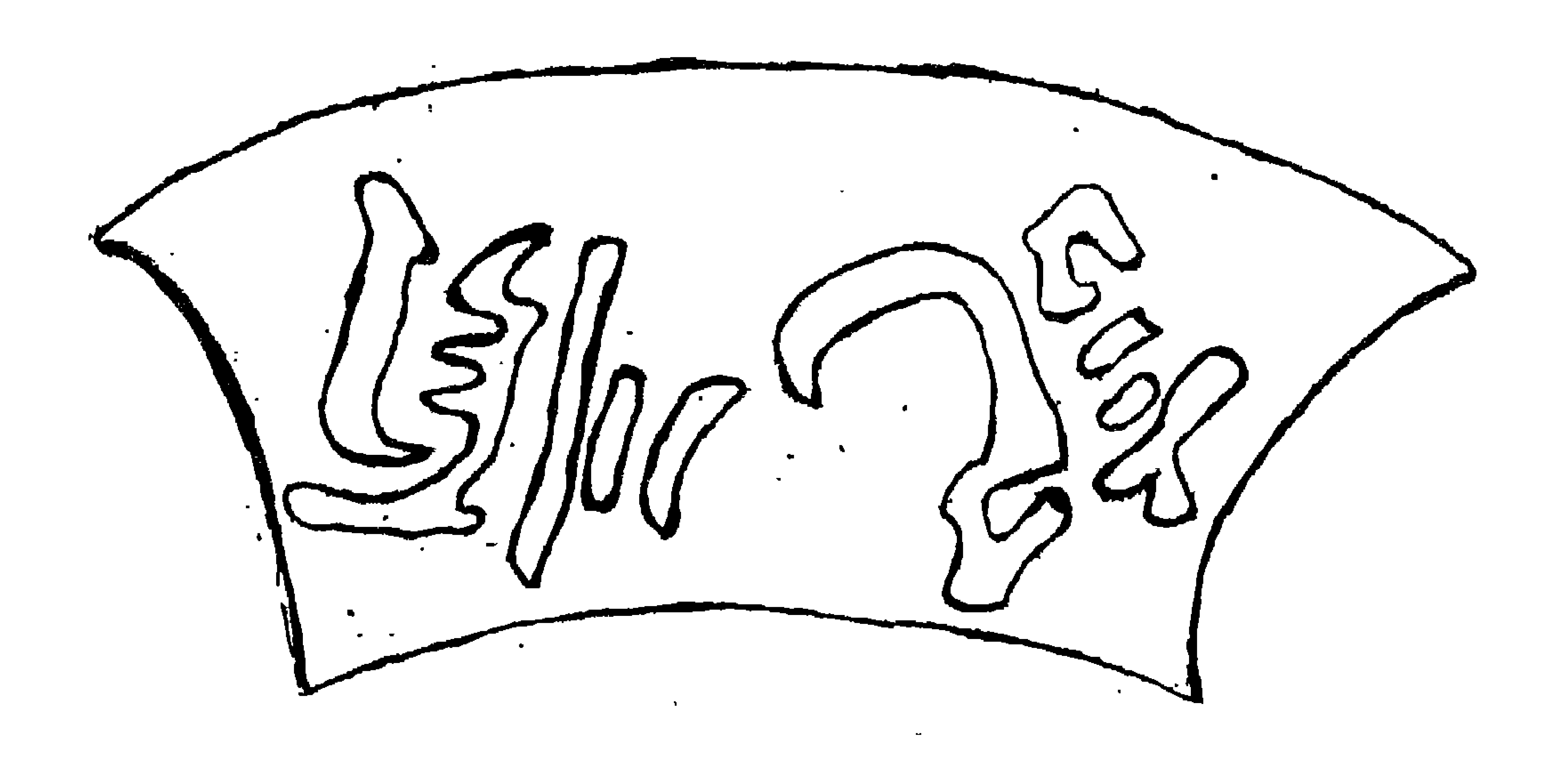


(لوحة ٣) مزهرية من خزف السيلادون الصينى عُثر عليها بحفائر مدينة قوص

- محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة-



شكل (١) خريطة تبين طرق قوافل الحج والتجارة باقليم قوص فى العصور الوسطى



شكل (٣) الكتابة الصينية أعلى البدن بالجرة الفخارية التى عُثر عليها بحفائر قوص

- محفوظة بمتحف جاير أندرسون بالقاهرة-

د. محمد محمود أحمد النشار*

خاتمة الوجود الإسلامى فى غرب الأندلس

اعتلى الملك سانشو الثانى Sancho II المدعو Capello[1] عرش مملكة البرتغال (١٢٢٣) [2]، بعد وفاة أبيه ألفونسو الثانى (١٢١١-١٢٢٣م)، ليواجه تركة مثقلة بالمشاكل، وخاصة مع رجال الدين ومع عماته . وكان أن بدأ الإصلاح بينه وبين رجال الدين فوقع اتفاقًا فى قلمريه ١٢٢٣م ينص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التى حصلوا عليها من قبل، وأن تلغى جميع الاجراءات التى شكت منها الكنيسة ، مع منحهم بعض الامتيازات الجديدة[3]، ثم عقد الصلح مع عماته وسلم لهن أراضيهن مع رواتب سنوية. وفى المقابل اعترفن بسلطة الملك على أراضيهن أى الاعتراف بالتبعية الإقطاعية وما تتطلبه من شروط وواجبات [4].

أما بالنسبة لحركة الاسترداد البرتغالية فإنها توقفت بعد الاستيلاء على قصر أبى دانس Alcacer de Sol فى ١٢١٧م نتيجة لمشاكل ألفونسو الثانى مع رجال الدين ومع إخوته . وعندما نجح ابنه وخليفته سانشو الثانى فى معالجة مختلف الشئون والمشاكل التى ورثها مع الحكم عن أبيه قرر أن يمارس حركة الاسترداد ومشاريع غزو أراضى المسلمين للاستيلاء على قلاعهم ومدنهم. وكان ذلك فى عام ١٢٢٦م عندما قام بحملته على الباس Elvas .

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد- كلية الآداب- جامعة طنطا .

ومن الواضح أن النهوض بهذه المشاريع (للغزو) تطلب توافر دعامتين : الأولى أن تكون الأحوال مستقرة فى البرتغال وهذا ما تحقق على يديه منذ بداية توليته العرش، الدعامة الثانية هى أوضاع المسلمين فى الأندلس والمغرب آنذاك . ومن زاوية الوضع الإسلامى فإن الخليفة المستنصر بالله الموحدى الذى استغرق فى اللهو والحياة العابثة توفى عندما ضربته إحدى الأبقار وذلك فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ الموافق ٦ يناير ١٢٢٤م [٥]. وأما بالنسبة لوضع الخلافة فقد اضطربت الأحوال فى الأندلس وخاصة بعد أن دعا بالخلافة لنفسه أبا محمد بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن صاحب جيان وتلقب بالظافر، والذى اشتهر بالبياسى نسبة إلى مدينة بياسة التى اعتصم بها، وانضم إليه البعض واشتعلت الحروب الأهلية بين المسلمين فى الأندلس الذين انقسموا إلى أقسام اشتد العداء بينها [٦]، حتى أن بعضهم تحالف مع القوى المسيحية ضد إخوانه من المسلمين [٧]. ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى تكالب الممالك المسيحية الأسبانية فى هجماتها على الأراضى الأندلسية.

ومن الإشارات الجديرة بالاهتمام للحميرى والذى أشار أثناء ما كان العادل فى أشد صراعه مع البياسى إلى غزوة على أراضى إشبيلية وخاصته بفحص طلياطة Tejado [٨]، ويشير إلى أنه فى جمادى الأول ٦٢٢هـ، ١٢٢٥م، قام الروم الغربيون (ويقصد الليونيون) بقيادة مارتين سانشيز Martin Sanchez وهو ابن غير شرعى لسانشو الأول[٩]. ملك البرتغال وعم الملك الحالى سانشو الثانى والذى كان فى خدمة مملكة ليون آنذاك وحينئذ أشار الحميرى أيضا إلى حال الأندلس آنذاك بقوله :

> «فأغار الروم الغربيون على تلك الجهة وغنموا ما وجدوا وساقوا ما أصابوا والعادل صاحب المغرب يومئذ بإشبيلية ووزيره أبوزيد بن وجان ومعهما أهل الدولة وأشياخ الأمر ولا غناء لديهم ولامدفع عندهم إذا كان الأمر قد أدبر ورونق الدولة قد تغير ومن نزلت به من الناس مصيبة سرح لم يرجع مغيثا ولايجد نصيرا»[١٠].

ويتضح من إشارة الحميرى مدى ما وصلت إليه حال الأندلس من ضعف وانهيار وما تلا من غزوات فى شرق الأندلس وغزوات فرديناند الثالث ملك قشتالة آنذاك بمعاونة البياسى فى معظمها حتى ١٢٢٦م. والأراضى الإسلامية تتلقى الضربات من شتى الممالك الأسبانية.

هكذا كانت الأندلس مسرحا للفتن والصراعات وكان الملك سانشو الثاني قد وطد حكمه وبدأت خططه في غزو أراضي الأندلس تضامنا مع باقي غزوات الممالك المسيحية الأخرى وتحقيقا لأحلام ومشاريع مملكة البرتغال، خاصة وأن مملكة قشتالة قد تقدمت تقدما كبيرا ناحية الجنوب واستطاع القشتاليون بمحالفة البياسي أن يستولوا على العديد من المدن والقلاع الأندلسية في منطقة جيان وقرطبه وأصبحوا يتحركون كما يشاءون في أراضي الأندلس الوسطى حتى اقتربوا من قرطبة [١١].

وكان التنسيق بين الماليك المسيحية الثلاث (قشتالة - ليون - البرتغال) لحملاتهم جنوب التاجه يتم برعاية البابوية، إذ أن البابا وهو نوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) أرسل مبعوثا إلى مدينة شانت ياقب دى كومبلاستلا Santiago de compostela ثم توجه إلى براغا حيث تقابل مع فرديناند الثالث ملك قشتالة في ربيع ١٢٢٦م ثم قام بزيارة ألفونسو التاسع ملك ليون، وذلك للتنسيق مع سانشو الثاني ملك البرتغال[١٢] لأجل توحيد هجماتهم وتعاونهم ضد الأراضي الإسلامية ، وكانت الخطة أنه في نفس توقيت مهاجمة ألفونسو التاسع لبطليوس يقوم سانشو الثاني بالهجوم على مدينة الباس Elvas[١٣] وقد أشار أحد المؤرخين إلى أن الهدف من توجه سانشو الثاني إلى هذه المدينة هو منع مساعدة القلاع الإسلامية الواقعة على ضفاف وادى يانة لمساعدة إخوانهم في الإكسترمادورا الأسبانية[١٤].

وجدير بالذكر أن هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام تقع على منطقة الحدود ما بين البرتغال وليون . ويفسر ذلك الموقع الخطة الموضوعة المشار إليها سابقا- وتعتبر هذه المدينة قلعة حصينة جدا ومحاطة بجبل وأرضها غنية، وكانت مشهورة بأسوارها الحصينة القوية[١٥].

وعندما جهز الملك سانشو الثاني جيشه كان معه مارتين انيز Martin Anes رئيس أساقفة براغا ومعه دون أبريل بيريز Abril Peres والعديد من النبلاء والفرسان ، وتوجهوا إلى قلعة إلباس ، وذلك في شهر يوليو ١٢٢٦م / ٦٢٣هـ . وقد طوق المدينة وحاصرها حصاراً تاماً في حين تحصن المسلمون في داخل المدينة ودافعوا عنها باستماتة [١٦]. وأشارت الروايات التاريخية إلى ظهور الملك سانشو الثاني (في أول اختبار له) كفارس وأنه أثبت جدارته كمحارب مثل جده الفونسو هزيكز ذلك أنه كان في طليعة المهاجمين لأسوار المدينة ، وعرض نفسه للخطر لقربه من الأسوار حتى أصبح في مرمى قذائف المسلمين، فأسرع أحد الفرسان ويدعى الفونسو منديز Alfonso Mendes إلى إنقاذ الملك وكان بدوره قد عرض نفسه لخطر

كبير لانقاذه[١٧]. وقد شدد الملك الحصار على المدينة ودافع المسلمون ببسالة، ولكن تحصينات إلباس كانت قد دمرت نتيجة للهجمات العنيفة للبرتغاليين، حتى أصبح الدفاع عنها صعبًا للغاية . ومع ذلك منذ استمات سكانها فى الدفاع عنها رغم تدمير معظم منازلها من شدة القذف[١٨].

وتوجد ثلاث روايات حول سقوط المدينة :

الأولى أن سانشو ملك البرتغال اقتحم المدينة واستولى عليها وأجبر سكانها المسلمين على الخروج منها ، ووضع فيها إحدى الحاميات . وأصدر مرسوما نصه :

«أنا سانشو الثانى ملك البرتغال ابن الملك المشهور ألفونسو مع زوجتى الملكة أوراكا ورغبة فى تعمير مدينة الباس التى استوليت عليها من المسلمين قد منحتها إلى الأشخاص التاليين لتعميرها».

والمرسوم صادر فى عام ١٢٢٦ م ويفهم منه أن المدينة تم الاستيلاء عليها فى هذا العام[١٩].

وفى الرواية الثانية أنه استولى عليها ثم تركها وانسحب منها واستردها المسلمون مرة أخرى [٢٠]، ولم توضح الرواية لماذا انسحب منها وتركها .

وأما الرواية الأخيرة فهى أنه لم يستول عليها بل تركها لسبب غير معروف ثم بعد ثلاث سنوات قام بإرسال جيش مرة أخرى بقيادة مارتين انيز Martin Anes الذى نجح فى حصارها والاستيلاء عليها فى سنة ١٢٢٩م[٢١].

ويبدو أن الرواية الأولى هى الأقرب إلى الواقع لأن براندو Brando وهو مؤرخ ثبت أنه يعتمد كثيرا فى تاريخه على الاستشهاد بالنصوص والروايات .

وجدير بالذكر أنه بعد الاستيلاء على الباس أعطى الملك كثيراً من الحقوق والامتيازات لسكان إحدى المدن البرتغالية التى تدعى مارباو Marvao وأيضا لجماعة رهبان فرسان الاسبتارية لتعمير المناطق المحيطة بالباس واستولى أيضا على قلاع جديدة مثل قلعة بيلا مندو Vila Mendo وسالبتيرا دى إكسترموا Salvaterra de extremo [٢٢].

والواقع أن التعاون كان وثيقا بين الملك سانشو الثانى وجماعات الرهبان الفرسان فى مهاجمة الأراضى الإسلامية ، إذ أشارت الروايات إلى أنه فى نهائيات عام ١٢٢٩م ٦٢٧ هـ

فى نفس يوم استيلاء ألفونسو التاسع ملك ليون على مدينة ماردة Merida استولى أيضًا الملك البرتغالى على مدينة جلمانية Juremena (Juromenha) . وجدير بالذكر أن الروايات قد اختلفت فى تاريخ الاستيلاء ما بين ١٢٢٩م وأوائل ١٢٣٠م[٢٣] وهذا يتفق مع قراءة الأحداث إذ أن سانشو الثانى خرج فى أواخر عام ١٢٢٩م وكان الاستيلاء عليها فى أوئل عام ١٢٣٠م خاصة وأن براندو قد أشار إلى الاستيلاء عليها فى هذا التاريخ الأخير.

وفى أثناء نشاط الملك سانشو فى الأراضى الإسلامية على ضفاف وادى يانة الشمالية توفى ألفونسو التاسع ملك ليون فى عام ١٢٣٠م ورث مملكته ابنه فرديناند الثالث ملك قشتالة ، فتم بذلك توحيد المملكتين واستتبع ذلك النزاعات على الحدود مع مملكة البرتغال . ولكن اتفقوا سريعا على تقسيم بعض الأراضى التى كانت على الحدود مع المسلمين واتخاذها مجالا ومناطق لفتوحاتهم فى أغسطس ١٢٣١م[٢٤].

وكان لجماعات الرهبان الفرسان دور كبير سواء فى الاشتراك مع الجيوش البرتغالية فى غزو الأراضى والقلاع الإسلامية أو فى تعمير الأراضى المفتوحة حديثا وتأسيس القلاع الجديدة على الحدود مع المسلمين (وسيتعاظم دورهم لاحقا) ولذلك نرى أنه فى مارس ١٢٣٢م منح الملك سانشو الثانى خطابًا (موقع فى قلمرية) بهبة للإسبتارية يمنحهم الكثير من الأراضى على الحدود مع المسلمين لتعميرها فأسسوا قلعة جديدة اتخذت اسم اوكراتوUcrato(Ocrato)[٢٥].

ومن أهم الاستيلاءات التى أشارت إليها الروايات التاريخية ما قام به الملك سانشو الثانى فى عام ١٢٣٢م تنفيذا لأهدافه وسياسته فى الاستيلاء على الأراضى والمدن الإسلامية، إذ استولى فى الإلنتخو على قلعة شربة Serpa وتقع شرقى نهر وادى يانة إلى الجنوب الشرقى من مدينة باجة . كذلك استولى على قلعة مورا Moura وهى أيضًا شرق نهر وادى يانة إلى الشمال من شربة وإلى الشمال الشرقى من مدينة باجة واللتان استسلمتا له سريعا وتعتبر هاتان القلعتان من أهم الاستيلاءات فى وادى يانة وعهد بالدفاع عنهما وعن الأراضى المحيطة بهما لجماعة رهبان فرسان الاسبتارية بزعامة ألفونسو بيريز فارينا Alfonso Peres Fa-rina[٢٦]، وكان محاربا له نشاط كبير فى تلك المناطق . ويبدو أن ذلك كان مكافأة لهم على دورهم فى الاستيلاء على هذه القلاع .

وهكذا استمر الملك سانشو الثانى فى حملاته ضد الأراضى والقلاع الإسلامية وتعمير الأراضى المحيطة بها واشراك جماعات الرهبان الفرسان فى نشاطه المكثف ضد المسلمين وقد

أشارت لنا المدونات التاريخية أنه نتيجة لهذا المجهود الكبير الذى يقوم به ملك البرتغال ضد المسلمين ، فإن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) منحه حمايته ورعايته وأعرب عن مساعدته للملك البرتغالى فى حروبه ضد المسلمين والسماح للصليبيين بالاشتراك فى هذه الحروب لمدة أربع سنوات [٢٨].

وهكذا غدت الحرب ضد المسلمين فى الأندلس شعارا تنادى به كل القوى الأوربية آنذاك، واستمرت تحظى بتشجيع الممالك المسيحية الأسبانية مما ترك أكبر الأثر فى أحوال شبه الجزيرة الإيبريه ذلك أن شبه الجزيرة لم تشهد مثل الحماس والروح والتكالب على الأراضى الإسلامية ، ولذلك تعتبر هذه الفترة ذروة الصراع ضد مسلمى الأندلس .

وفى تلك الحرب العدوانية بدأت تظهر أهمية جماعات الرهبان الفرسان إذ غدت هى التى تتولى القيام بغارات وغزوات ضد القلاع الإسلامية الصغيرة وتشير الروايات التاريخية إلى جماعة رهبان القديس شانت ياقب التى بدأت فى مملكة ليون وصارت لها فروع فى مملكة البرتغال ومن أهم مراكزها الرئيسية مدينة بلمالة Palmela وبعد استيلاء الملك الفونسو الثانى على مدينة قصر أبى دانس منحها لجماعة القديس شانت ياقب وكان حاكم هذه المدينة وزعيم الجماعة فى البرتغال هو الفارس بايو بريز كوريا .
Paio peres Correia (Pelayo Perez Correa)[٢٩]

وفى نهائيات ١٢٣٤م استولت تلك الجماعة على إحدى القلاع التى تدعى الجسترل Al-justral وبذلك وصلت الحدود البرتغالية حتى أعالى الألنتجو على طول خط وادى يانة إلى الشرق من نفس هذا النهر [٣٠]. وتشجيعا لهذه الجماعة أصدر الملك سانشو الثانى مرسوما فى ٣١ مارس ١٢٣٥م بمنح هذه القلعة إلى جماعة شانت ياقب [٣٢]، وفى نفس هذا العام استولت الجماعة على كل الأراضى المحيطة بوادى سيسمبر Vila de sesimbera [٣٢].

واستمرت حملات البرتغاليين فى عام ١٢٣٦ م فى نفس إقليم الألنتخو ، إذ أن الملك سانشو الثانى استولى على مدينة اروشس Arroches (٧يناير ١٢٣٦م) واستمر فى حملاته حتى استولى على كل الأراضى الواقعة على ضفاف نهر كوا Coa-والتى سوف تحدث نزاعات حولها فى المستقبل مع مملكة قشتالة[٣٣].

وهنا يبرز أمامنا تساؤل له أهمية : وهو ماذا كان موقف المسلمين من هذه الضربات العدوانية الواقع أننا إذا نظرنا إلى مسرح الأحداث نجد أنه ليست مملكة البرتغال وحدها هى

التى كانت تهاجم وتستولى على المدن والقلاع الإسلامية، إذ أن ممالك قشتالة ليون وأرجوان شاركت هى الأخرى فى هذه الفترة فى العدوان على الأراضى الإسلامية، والمسلمون عاجزون عن وقف هذه الهجمات خاصة وأن الحروب الأهلية والاضطرابات ظلت مستمرة حول منصب الخلافة ، مما عرض المسلمين بالأندلس لخسائر فادحة. من ذلك أن السيد أبا العلى ادريس ابن يعقوب المنصور والى أشبيلية وقرطبة دعا لنفسه بالخلافة عقب مقتل الخليفة العادل وتلقب بالمأمــــون(٣٤). وفى نفس الوقت دعا لنفسه بالخلافة أيضا أبوزكريا يحيى بن الناصر فى المغـــــرب(٣٥)، وهكذا شغل المأمون بقتال يحيى فى المغرب بمساعدة جيش من قشتالة وصراعهما(٣٦). وبعد ذلك ظهر مدع جديد للخلافة هو السيد أبو موسى عمران بن يعقوب المنصور أخو المأمون ...(٣٧)، كل هذه الصراعات نشبت بين زعماء الدولة الموحدية فى نفس الوقت الذى ظهرت ثورات الأندلسيين ضد الموحدين ، وكان أهمها ثورة ابن هود وهو عبدالله محمد بن يوسف بن هود ، الذى دان له الكثير من مدن وأقاليم الأندلس وأصبح أميراً شرعيا على الأندلسيين، وقد اعترف بسيادة الخلافة العباسية وكان سلطته تمتد فى شرق الأندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمريه جنوبا ، وفيما بين المريه والجزيرة الخضراء. وفى وسط الأندلس فيما بين قرطبه وغرناطة. وكان يمثل الفكرة الأندلسية القومية والتى تهدف إلى تحرير الأندلس من الموحدين والمسيحيين جميعا (٣٨).

وهكذا أصبحت الأندلس مساراً للصراعات بين مختلف القوى، كل يسعى لمصلحته الخاصة، وكل عنصر من هذه القوى لايقوى على مقاومة الممالك المسيحية الإسبانية ، خاصة وأنهم فى صراعاتهم يحتاجون إلى قوتهم لقتال منافسيهم .

وقد أشارت لنا الروايات البرتغالية إلى نشاط مكثف فيما بين عامى ١٢٣٨م ١٢٤٠م للبرتغاليين فى حملاتهم ضد الأراضى والمدن والقلاع الإسلامية، إذ أن الملك سانشو الثانى توجه بجيشه إلى ضفاف وادى يانة حيث قلعة مارتلة Mertola (٣٩) وهى من أمنع القلاع وتقع فى منطقة حصينة حصانة طبيعية غربى نهر وادى يانه، وتحدها من الشمال الغربى إلى الشمال انهار Cabres et erges وبها حاميه قوية جدا ولها أهمية كبيرة منذ عهد الرومان والقوط ومن المدن التجارية الهامة. وقد نجح فى حصارها والاستيلاء عليها(٤٠). ثم توجه إلى قلعة الفجار دى بنا Alfajar de Pena (٤١)، وأيمونت Aiamonte على الضفاف الشمالية لوادى يانه وقرب مصب النهر فى المحيط الاطلنطى ومنحت تلك القلاع لجماعة القديس شانت ياقب(٤٢).

وكان أن خرج بايو بيريز وجماعته فى عام ١٢٤٠م، وتوجه إلى حقل أوريك Ourique وكان أول مكان وصل إليه هو برج استمبار Torre de Estombar فقام بتدميره وعندما تصدى له المسلمون فى ذلك المكان نجح فى الانتصار عليهم ثم استولى على قلعة البور Al-vor[٤٣]، التى تقع بين شلب Silves ولاجوس Lagos، واشتبك هناك مع جيش من المسلمين كان قد تجمع من مدينة شلب وكل المناطق المجاورة وأتى لنجدة القلعة، ولكنه انتصر عليهم أيضًا[٤٤].

وبعد الهزيمة عرض المسلمون على «بايو» أن يسلموه مدينة كاسيلا Cacela بدلا من مدينتى برج استنبار Torr de Estombar والبور Alvor اللتين استولى عليهما، على أن تعاد المدينتين للمسلمين، وذلك لأن مدينة كاسلا أبعد قليلا من أراضى المسلمين فى حين أن المدينتين هما أقرب المدن إلى أراضيهم[٤٥].

وتوضح إحدى الروايات أن السيد بابو غضب كثيرا من عرض المسلمين بأن يترك هذه الأراضى البعيدة عن أملاكه والقريبة من أملاك المسلمين فى مقابل أراضى قريبة من أراضيه ولكنه رفض لغنى هذه الأراضى وأهميتها [٤٦]، ويبدو أن رفضه راجع أيضًا إلى أن هاتين المدينتين القريبتين من أراضى المسلمين يمكن أن يتخذها قاعدتين أماميتين للهجوم على أراضى المسلمين وفى نفس القوت فإن الدور على مدينة كاسلا لن يطول .

ثم كان أن واصل بايو حملاته فتوجه إلى ميناء كاسيلا Porte de Casela وهو ميناء هام على المحيط الأطلنطى إلى الغرب قليلا من طبيرة، وهى منطقة قوية حصينة مليئة بالسكان ويستطيع المسلمون المجاورون لها نجدتها بسرعة[٤٧]. ومنحت هذه المدن الجديدة أيضًا لجماعة القديس شانت ياقب بزعامة بايو كارير[٤٨] ويعتبر هذا تشجيعا من الملك البرتغالى سانشو الثانى لهذه الجماعة لكى تستمر فى نشاطها وحملاتها ضد المسلمين وتعمير الأراضى المفتوحة.

وقام «بايو» أيضًا بالاستيلاء علي كل القلاع المجاورة للمدن السابقة. وكان أهمها على نهر ريباكو Ribacoa مثل فيلار Vilar ومايور Maior وسابوجال Sabugal وجستوسا Ges-tosa وقلعة رودريك Castel Rodrigo [٤٩].

وهكذا تكالبت الجيوش البرتغالية على المدن والقلاع الإسلامية، فنجد أن بايو وجماعته خرجوا من كاسلا Cacela فى عام ١٢٤٢م / ٦٤٠هـ للاستيلاء على مدينة بادرنى Paderne مما جعل المسلمين يتجمعون من مدن فارو Faro (شنتمرية الغرب) ولولى Loule وطبيرة Ta-

vira وتوجهوا للقاء بايو وجيشه فى إحدى الأماكن التى تدعى دسبارتو Desbarato. وحدثت معركة كبيرة بينهم انتصر فيها «بايو» على المسلمين[٥٠] ثم وصل إلى مدينة بادرنى التى كانت حينئذ تواجه مشاكل داخلية، ولكن سرعان ما اتحد سكانها واتفقوا على مقاومة البرتغاليين. ونتيجة لحصانة هذه المدينة وعلم بايو بتجمع جيش من المسلمين مرة أخرى من مدن فارو وطبيرة وأماكن أخرى مجاورة ، غير بايو اتجاهه إلى مدينة لولى Loule ثم توجه إلى إقليم طبيرة (Tavira Tavila) ويبدو أن الهدف الرئيسى فى تحركاته هى التمويه لكى يفاجىء مدينة طبيرة وقد وصل إلى إقليم طبيرة وما كاد يصل إلى ذلك الإقليم حتى نظم قواته للمعركة رافعا أعلامه . واستعد المسلمون لمقاومته ونشب القتال وأشارت المدونات البرتغالية إلى أن المسلمين لم يستطيعوا الصمود أمام هجمات البرتغاليين، وأصبح كل واحد من المسلمين يسعى لإنقاذ حياته . وأسفرت الموقعة عن أعداد كبيرة من القتلى والجرحى المسلمين[٥١].

وعندما وجد بايو أنه يجب عليه أولا القضاء على الجيوش الإسلامية فى ذلك الإقليم قبل أن يحاصر المدينة للاستيلاء عليها تعقب المسلمين ، والتقى مع فلول الجيش الهارب والذى لجأ إلى المكان المسمى فورادیرو Furadero وهناك نشبت المعركة فى منطقة نافورة الأسقف Fon-tedo Bispo وقد قتل عدد من البرتغاليين ولكن قتل من المسلمين كثيرين[٥٢] وأشار برنداو إلى أن بايو استمر فى تحركاته حتى التقى مع أحد الجيوش الإسلامية فى منطقة رأس مسترى Cabeca do mestre وقد صمد المسلمون فى بادىء الأمر ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فى القتال حتى قدوم الليل، وأصبح الخطر بالنسبة لهم كبيرا مما دفعهم إلى الانسحاب خشية قدوم نجدات للبرتغاليين ثم عاد الجيش البرتغالى فرحا بهذه الانتصارات إلى كاسلا Cacela [٥٣]. ويبدو أن عودته كانت ضرورية لتنظيم جيشه بعد هذه المعارك المتتالية، واستكمال استعداداته من أجل الهدف الرئيسى لحملاته السابقة، وهو الاستيلاء على كل القلاع والمدن فى الطريق إلى مدينته طبيرة Tavira .

وجدير بالذكر أن هذه المدينة لها أهمية كبيرة إذ أنها تقع على المحيط الأطلنطى إلى الغرب قليلا من مصب نهر وادى يانة فى المحيط. وهى على بعد أربع فراسخ (الفرسخ ثلاثة أميال) من مصب النهر المذكور. وقد أشارت المدونات البرتغالية إلى أهميتها وأنها ذات أسوار قوية تحيط بها من جميع الأطراف وقلعتها فى الداخل قديمة وقوية وبها كثير من المبانى ولذا فإنها من المدن الحيوية فى تلك المنطقة[٥٤]. وكان المسلمون يعلمون أنها هدف لبايو وجيشه، ولذلك

حاولوا الحصول على هدنة معه لمدة أربعة أشهر كوقت ضروري لأجل استكمال استعداداتهم وتجهيز الاستحكامات للدفاع عن أراضيهم، وأيضا من أجل طلب النجدات واحضار المساعدات لكي يستطيعوا الصمود أمام هجمات بايو (٥٦). ولكن بايو لم يستجب لهم ثم خرج مرة أخرى وتوجه إلى طبيرة . وقد توقف في الطريق في المكان المسمى المارجين Al-margen لكي نظم قواته، عندما علم أن المسلمين قد تحصنوا في داخل المدينة ، وصمموا على القتال. فانتظر وصول بعض الامدادات إليه ثم طلب المسلمين في طبيرة والأماكن المجاورة المفاوضات مع بايو ولكنهم فشلوا(٥٦) (ويبدو أنه أدرك أن المسلمين يريدون اطالة الوقت في انتظار النجدة) فتوجه سريعا إلى طبيرة ليهاجمها فجأة، ونجح في مفاجأة المسلمين في المدينة. وكانت أبوابها مقفلة وقد فتح المسلمون أحد الأبواب لكي يخرجوا منه لمقاومة البرتغاليين الذين نجحوا في الانتصار على المسلمين وشددوا الهجوم على المدينة حتى دخلوها وذبحوا كل قادر على القتال في المدينة كما قتلوا الكثيرين من سكانها (٥٧). وأشارت الروايات إلى أن قائد المدينة والذي يدعى ابن فلول Aben Falule ، نجا بحياته وفر من المدينة (وفي رواية أخرى قتل) واستولوا عليها في ٩ يوليو ١٢٤٢ (وفي رواية ١١ يوليو) ، فحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا (٥٨)، وقد اختلفت بعض الروايات في تاريخ الاستيلاء عليها، ما بين تاريخي (١٢٤٢ أو ١٢٤٩م) ولكن يبدو أن الاستيلاد عليها تم في عام ١٢٤٢ ويؤكد ذلك أن هذه المدينة منحت إلى جماعة القديس شانت ياقب أي جماعة بايو في وثيقة مؤرخة ٩ يناير ١٢٤٤ وهذا ما يؤكده أيضا عدد من المؤرخين المحدثين (٥٩).

أما بايو فقد قرر أن لايفقد الوقت ولاعنصر المفاجأة فتوجه بسرعة إلى البور Alvor واستولى عليها مرة أخرى (ويبدو أن المسلمين كانوا قد استعادوا هذه القلعة مرة أخرى لأنه سبق الاستيلاء عليها) ثم توجه إلى حصار مدينة باردني Paderne وكانت قلعة قوية جدا واستولى عليها أيضًا .

وكانت آخر المشاريع الكبيرة في عهد الملك سانشو الثاني هو الاستيلاء على مدينة شلب(٦٠)، وهي من أهم مدن غرب الأندلس . وقد أشادت بموقعها وحصانتها وأهميتها وما تتمتع به من ثروات المصادر الإسلامية والمدونات البرتغالية . واحتلت مكانة بارزة في عهد الموحدين (٦١).

ثم توجه بايو بيريز إلى منطقة شلب . وفي الطريق هاجم قلعة برج استمبار Torrę de stombar، وهي القلعة التي كان قد استولى عليها من قبل سنة ١٢٤٠م ولكن المسلمين

استردوها مرة أخرى. وكانت هذه القلعة تابعة لابن عفان Aben Afan حاكم مدينة شلب . ويبدو أنها كانت خطة ماكرة من بايو بيريز إذ أن ابن عفان عندما علم بذلك خرج مسرعا من شلب لإنقاذ هذه القلعة . وعندما علم بايو بخروجه أسرع بجيشه تجاه شلب(٦٢).

وعندما علم ابن عفان بالموقف أسرع بالرجوع إلى مدينته، فوجد البرتغاليين محاصرين للمدينة وقد هاجموها . وهدموا منطقة فى سورها بجوار الباب الذى يدعى زايا (Azaia) Zaya وفى تلك المنطقة بجوار كنيسة سانت ماريا، التقى الجيش المسلم بقيادة ابن عفان بالجيش البرتغالى بقيادة بايو، وانهزم ابن عفان مما جعله يلجأ إلى القلعة داخل المدينة لكى يتحصن فى داخلها . ولكنه وجد أنه لاقبل له بقتال البرتغاليين ولايتوقع انتظار نجدة من المسلمين فى تلك المناطق مع صعوبة الاحتفاظ والصمود داخل المدينة(٦٣).

ولذلك أرسل ابن عفان أحد الفرسان ليبحث عن مخرج ونجح فى الفرار مع بعض أتباعه ولكنه غرق أثناء عبوره النهر على فرسه فى أحد الأماكن العميقة يدعى (حتى الآن) مخاضة ابن عفان Pego de Aben Afan (٦٤) أما عن باقى المسلمين فى داخل المدينة فإنهم دافعوا عن القلعة فى حدود إمكاناتهم ولكن نجح بايو فى نهاية الأمر فى الدخول والاستيلاء على القلعة. ويشير برنداو إلى أن المسلمين فى القلعة طلبوا الرحمة من دوق بايو الذى لم يخل سكانها وسمح لهم بالإقامة (٦٥)، وكان المسلمون الذين يبقون فى المدن ويخضعون للحكم المسيحى، كما يحدث للمستعربين فى الأراضى الإسلامية يدفعون جزية سنوية على الرأس(٦٦). ثم توجه بعد ذلك إلى بادرنى Paderne واستولى على القلعة بالقوة وقتل المسلمين لقتلهم اثنين من الفرسان الرهبان هناك(٦٧).

وجدير بالذكر أن جميع الروايات البرتغالية اختلفت فى تحديد سنوات الاستيلاء على المدن والقلاع الإسلامية ما بين تقديم وتأخير. ولكن يبدو أن هناك بعض التعتيم المقصود من بعض الروايات البرتغالية ، إذ أضافوا الكثير من الاستيلاءات على عهد الملك الفونسو الثالث لسنة ١٢٤٨م والبعض الآخر يرى أنه منذ بداية الحروب الأهلية التجأ الملك سانشو الثانى إلى مملكة قشتالة واستيلاء أخيه على الحكم فى سنة ١٢٤٥م ويضع كل حملات بايو فى عهد الملك الفونسو الثالث. ويبدو أن بعض المدن قد استولى عليها البرتغاليون فى عهد الملك سانشو الثانى ثم استردها المسلمون وتم الاستيلاء عليها مرة أخرى فى عهد الملك الفونسو الثالث، ولكن بعد تحقيق وروية اعتمدنا على مقارنة الروايات واستعراض أحداث الروايات نفسها

التى تنسب هذه الفتوحات إلى عهد الملك ألفونسو الثالث نجد أنها تتناقض فى بعض الأحداث، إذ تذكر أحداثا من المعلوم حدوثها فى عهد الملك سانشو الثانى . وجدير بالذكر أن برنداو هو أكثر المؤرخين البرتغاليين القدامى دقة حيث يعتمد على الوثائق والنصوص فى تأكيد سنوات الأحداث . وعلى سبيل المثال هناك أحداث الاستيلاء على طبيره فقد وضعها فى سنة ١٢٤٢ ثم بعدها فى نفس العام شلب- كما أشرنا- واتفق فى تفاصيل الأحداث مع بعض المؤرخين القدامى وهناك بعض المدونات مثل مدونة الملوك السبعة الأوائل للبرتغال تضع هذه الأحداث فى مدونة الملك ألفونسو الثالث، وأيضا مدونة الخمس ملوك الأوائل للبرتغال توضع فى عهد الملك ألفونسو الثالث، وكلها حدث فى سنوات ١٢٤٩-١٢٥٠م . ولكن معظم المؤلفات الحديثة وضعت هذه الأحداث فى عهد الملك سانشو الثانى اتفاقا مع وثائق برنداور.

ولنا أن نتساءل عن موقف المسلمين من هذه الحملات والغزوات البرتغالية على الأراضى الإسلامية فى غرب الأندلس؟

وجدير بالذكر أن هذه الحملات كانت تتواكب مع حملات مملكة قشتالة ومملكة أراجون إذ نجح الملك فرديناند الثالث فى الاستيلاء على العديد من القلاع والمدن الإسلامية وأهمها ابده سنة ١٢٣٣م وقرطبة سنة ١٢٣٦م[٦٨]، وخايم الأول ملك أراجون استولى أيضا على العديد من المدن والقلاع الإسلامية، وأهمها الجزر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة سنة ١٢٣١م وبلنسية سنة ١٢٣٨ وما حولها [٦٩]. أما بالنسبة للمسلمين فكانت الضربات تتلاحق على جميع أراضى الأندلس مضافا إليها النزاعات والحروب الأهلية التى منعت تضافر وتوحيد جهود القوى الإسلامية ضد نهضات الممالك المسيحية الإسبانية. ويهمنا هنا منطقة غرب الأندلس فقد كانت الصراعات قد اشتعلت بين ابن هود وابن الأحمر[٧٠]، وإذا كان ابن الأحمر قد اعترف بسلطنه ابن هود فإنه سرعان ما ظهر قاضى مدينة لبلة Niebla شعيب بن محمد بن محفوظ ليدعو لنفسه، وتسمى بالمعتصم فتوجه ابن هود لقتاله وعندئذ امتنع ابن محفوظ فى مدينته ونجح فى الصمود، مما دعا ابن هود لترك حصارها، ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م [٧١] وبذلك قامت مملكة ابن محفوظ وعاصمتها لبلة. ويمتد هذا الإقليم من رأس القديس فيكنت San Vi-cente إلى الغرب حتى مصب نهر الوادى الكبير ويحده من الشمال سيرا مورينا Sierra Mo-rina ومن الجنوب البحر وإقليمها الحالى يشمل ولبه علاوة على شربة Serpa ومورا فى الألنتخو (البرتغال) وكل الغرب مع مدن فارو وطبيرة ولولى Loule وكاستروماريـن Castromarin[٧٢].

وبهذا يتضح أن منطقة وغزوات البرتغاليين هى أملاك تابعة لمملكة ابن محفوظ فى لبلة، ولكن لماذا لم يقم بمجهودات فى الدفاع عن مملكته؟ والواقع أنه أعلن حكمه فى سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م، وكان على صراع مع ابن هود فى نفس الوقت ، متخوفا من هجمات ملك قشتالة فرديناند الثالث، فكان لايستطيع أن يترك عاصمته ليدافع عن أراضيه فى مناطق أخرى، خاصة وهو لايأمن من التحرك منها خوفا من ابن هود وملك قشتالة ولذلك اعتمد على مبدأ أن تدافع هذه المدن عن نفسها . وكانت كل مدينة تعتمد على الدفاع عن نفسها بجهود سكانها وحاميتها ، وأحيانا عندما يكون الخطر مشتركا تتعاون القرى والقلاع المجاورة فى التصدى للغزوات البرتغالية.

* * *

وقد تعرضت مملكة البرتغال فى عام سنة ١٢٤٥م لأحداث هامة، إذ قامت فيها ثورة ضد الملك سانشو الثانى ، وكانت بقيادة أخيه الفونسو كونت بولونيا- الذى كان متزوجًا من ماتيلده صاحبة بولونيا وأصبح أميراً على هذه الولاية[٧٣]. وكانت لهذه الثورة أسباب عديدة أهمها العداء والنزاعات بين سانشو الثانى والأشراف (النبلاء) ، بالإضافة إلى نزاعاته أيضا مع رجال الدين، إلى جانب تربص كل من أخويه الفونسو وفرديناند وعمه بدرو ، وخضوع سانشو الثانى لنفوذ زوجته ، خاصة أنه ليس له ولد. واتفق الجميع على خلع الملك عن العرش. وأيد البابا هذا الطلب واتفق الجميع على عزل الملك وتولية أخيه الفونسو ، وصدر قرار البابا فى ٢٢ يوليو سنة ١٢٤٥ م بعزل الملك سانشو الثانى وتنصيب أخيه مكانه فى الحكم، ولم تلبث أن اشتعلت الحروب الأهلية وتحالف الجميع ضد سانشو الثانى، ماعدا قلة من أتباعه من النبلاء ، مما اضطره للفرار إلى مملكة قشتالة. ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث. وخرج بجيش، ومعه الفونسو أكبر أبناء الملك فرديناند ووريثه، وزحفوا على البرتغال، ولكن حدثت مفاوضات عرض فيها الفونسو الثالث على الفونسو ولى عهد قشتالة قرار البابا ، فوجد نفسه فى موقف صعب، مما دفعه إلى العودة دون قتال . وهكذا استمرت النزاعات حول بعض القلاع والمدن ، وأهمها قلمريه التى ثبتت على ولائها لسانشو الثانى حتى توفى الأخير فى طليطلة يناير سنة ١٢٤٨م[٧٤].

وجدير بالذكر أن فترة الحروب الأهلية ١٢٤٥-١٢٤٨م لم تشر الروايات إلى أى فتوحات تذكر فيها خاصة وأن الحرب الأهلية استمرت حتى توفى سانشو الثانى فى يناير سنة ١٢٤٨م. وعندئذ استقر الملك ألفونسو الثالث فى الحكم وبايعه الجميع، وتلقب بلقب الملك فى حين أنه كان من قبل يلقب بلقب القائم بشئون الدولة أو نائب الملك[٧٥].

ومن الأحداث الهامة فى غرب الأندلس - ما حدث عندما بدأ الفونسو الثالث حكمه كملك- مشاركة البرتغاليين فى حصار مدينة إشبيلية بقيادة بايو بيريز مقدم جماعة القديس شانت ياقب، ومعه عدد كبير من أفرادها، بالإضافة إلى كثير من الفرسان البرتغاليين . وقد أشار برنداو إلى أن المؤرخين الأسبان تجاهلوا دور النبلاء البرتغاليين ، إذ كان لهم دور كبير حيث عبروا نهر وادي يانة واشتبكوا أيضًا فى أكثر من موقعة مع ابن محفوظ ملك الغرب الأندلسى، كما اشتبكوا أيضًا مع مسلمى طريانه Triana . وكان لهم نشاط فى شغل قوات المسلمين حتى لايتكتلوا فى الدفاع عن إشبيلية ، وأيضًا أشار إلى جماعة فرسان رهبان ابيز وزعيمهم مارنين فرديناند مع جماعة فرسان الداوية من مملكة البرتغال شاركوا أيضًا فى حصار أشبيلية، والاستيلاء عليها فى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م(٧٦).

وكانت أول مهام الملك ألفرنسو الثالث بعد استقرار الأمور ورغبته فى أن يضفى على حكمه أهمية وبطولات ، فقرر التوجه إلى الاسكترامادورا لكى يواصل حركة الاسترداد ويضع نهاية للبقية الباقية من الأراضى الإسلامية غرب نهر وادى يانه وقد جمع جيوشه والأموال اللازمة لهذا المشروع فأرسل لجمع الجنود من المدن البرتغالية كما استعان بفرسان جماعات الرهبان ومنهم جماعة أبيز Aviz (قلعة رباح سابقا) وجماعة شانت ياقب وكانت لهما أهمية كبيرة آنذاك فى الألتنخو وأراضى الغرب وجماعة الاسبتارية . واشترك كثير من الفرسان المشهورين وكثير من الفرسان الذين شاركوا فى حصار إشبيلية والاستيلاء عليها؛ هذا فضلا عن الأمير بدرو عم الملك(٧٧).

وتوجه فى ربيع سنة ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ إلى مدينة فارو Faro (شنتمرية الغرب) (٧٨)، خاصة وأن مدينة فارو وإقليمها غدت آخر ما بقى من الأراضى الإسلامية غربى وادى يانة.

وتشير الروايات إلى أنها كانت تابعة لأمير المؤمنين (الخليفة الموحدى فى مراكش) وكان يحكمها حاكم يدعى ابن هارون Uben Harron ويخمن برناردو أنه فى لقبه un almoxarife por Aloandre يرتبط باسم أمير المؤمنين فى المغرب وكان حاكم المدينة لديه عدد كبير من الرجال والأسلحة لأجل الدفاع عنها، وهى مدينة قوية وحاميتها مشهورة بقوتها . وكان سكانها يشعرون بالأمان والطمأنينة لحصانة مدينتهم وكانت المدينة مجهزة وخارجها برج مراقبة وعند رؤية أى خطر تدق الأجراس وتعطى تحذيراً للمدينة (٧٩)، وهكذا أصبحت مدينة فارو ملاذاً وملجأ لكل المسلمين المطرودين أو الذين رفضوا البقاء تحت الحكم المسيحى فى كافة

المدن والقلاع التى استولى عليها البرتغاليون. وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى أهمية هذه المدينة وأنها كانت من الموانىء الهامة جداً فى غرب الأندلس، خاصة بعد سقوط الموانى الأخرى وأصبحت هى الميناء الرئسى غربى وادى يانة. وكانت مجالا للتجارة المزدهرة وقد أشار الحميرى والإدريسى إلى أنه كانت بها المراكب واردة وصادرة ، وبها دار لصناعة السفن وكان من الضرورى أن يبدأ الملك البرتغالى بالاستيلاء عليها لأنه بسقوطها سيسهل سقوط توابعها .

وعندما وصل الملك الفونسو الثالث مع جيشه إلى فارو Santa Maria de Faro أمر بتنظيم جيشه وتوزيعه على كل أسوار المدينة لحصارها؛ بعد أن قام بقتل الكثير من السكان والقادة فى المناطق المجاورة لكى لايتكتلوا أو يقدموا مساعدات للمدينة ولكى يفقد المسلمون الأمل فى وصول أو انتظار النجدات عن طريق البحر، أمر الملك أسطولاً من السفن بمحاصرة المدينة عن طريق البحر أى إحكام الحصار عليها براً وبحراً (٨٠). ثم شدد البرتغاليون هجومهم على أسوار المدينة ونجحوا فى نقب منطقة من الأسوار ، ولكن نجح المسلمون فى سد الثقب وكان يايو ومجموعته ومعه فرق من الاسبتارية وأبيز قد هاجموا أحد الأبواب ويدعى باب الرهبان Porto los Freires . وفى نفس الوقت أمر الملك أحد النبلاء ويدعى برو اسكرنيو Pero Escrenho بأن يهاجم أحد الأبراج القوية ويسمى برج خوان دى بيام Joao de Baim وكان فى مواجهة قصر الملك حاكم المدينة(٨١).

أما بالنسبة للسفن الإسلامية فإنها عندما رأت كثرة عدد السفن المسيحية وأنه لاقبل لها بمواجهتها فرت من المواجهة (٨٢).

وقد عرض الملك ألفونسو الثالث على قائد المدينة ابن هارون أن يستسلم ويسلم المدينة وقلعتها مقابل حريتهم . ولكن رفض حاكم المدينة(٨٣) هذا العرض . وكان أن استمر الحصار لبضعة أيام قاوم فيها المسلمون قدر طاقتهم، حتى تأكدوا أنهم لن يستطيعوا انتظار النجدة التى كانوا يتوقعوها . وبدأ سكانها فى المعاناة من استمرار القتال، مما دفع ابن هارون لطلب تسليم المدينة والرحيل على شرط أن يخرج المسلمون من فاروا ويتجهون إلى أماكن أخرى ومعهم كل أملاكهم . وإذا أرادوا أن يعيشوا فى المدينة عليهم دفع الجزية للملك البرتغالى، (كما كانوا يدفعون من قبل إلى أمير المؤمنون على حد رواية المدونات البرتغالية) ويستطيعون الاحتفاظ بأملاكهم ومنازلهم على أن يكونوا خاضعين للملك ويخدموه فى الحرب ويؤدون

الخدمات المفروضة عليهم ومنها الدفاع أيضا عن المدينة . وقبل الملك ألفونسو الثالث هذه الشروط وبناء عليه بدأت اجراءات التسليم بتقدم عشرة من الفرسان مقابل عشرة من المسلمين لتسليم قلعة المدينة. ولكن حدثت تطورات، إذ أن البعض من جنود القلعة رفضوا الإذعان للتسليم ورفضوا الاستسلام ، مما أعاق دخول الملك إلى القصر خوفا على حياته، وقرر القضاء أولاً على هذه الجماعة الرافضة. وبدأ القتال بمحاولة البرتغاليين فتح أحد أبواب القلعة ولكن المسلمين قاوموا بشدة، ومات من الطرفين كثير من الرجال، مما دفع الملك إلى الصعود بسرعة إلى أحد الأبراج لكى يرى جيشه ويصدر تعليماته حتى تم القضاء على القوة المدافعة عن القلعة، ثم الاستيلاء على المدينة فى شهر مارس سنة ١٢٤٩م- ٦٤٧هـ [٨٥]. وقام الملك بتنظيم أحوال المدينة وعين حاكمًا للمدينة هو استفاو بيرز Estevao Pires de Tavares وهو أحد النبلاء البرتغاليين الذين حضروا حصار أشبيلية [٨٦]، وإن كانت هناك رواية بأن البرتغاليين اقتحموا المدينة وأنها فتحت عنوة، وحدث خلل وهرب سكانها ودخل البرتغاليون وقتلوا كثيرا من المسلمين [٨٧]. ولكن الرواية الأولى لاتختلف كثيراً عن الثانية إذ أجمعت عليها المصادر البرتغالية .

وكان السماح لمسلمى المدينة فى البقاء مقابل دفع الجزية ويمثل سياسة اتبعها كثير من ملوك شبه الجزيرة الإيبيرية فى أنحاء وفترات مختلفة، وذلك لما هو معروف من الاستعانة بالمسلمين فى كثير من الصناعات والزراعات لتقدم المسلمين فى شتى مجالات الحضارة. ورأت مملكة البرتغال مثل غيرها الاستفادة من هؤلاء المسلمين خاصة فى هذه المدينة التى تعتبر من أهم موانى الغرب ولها نشاط تجاري كبير .

وبعد الاستيلاء على فارو قرر الملك غزو باقى القلاع الصغيرة فى الغرب ولذا قسم جيشه إلى عدة جيوش وأرسل أحدها وهو مكون من جماعات رهبان فرسان ابيز بقيادة مقدمهم مارتين فرديناند D. Martin Fernandez لكى يهاجموا مدينة البوفيرة Albuferia فنجحوا فى الاستيلاء على المدينة ولكن قبل دخول المدينة حضر الملك وخير سكانها بين الرحيل والبقاء ومنح المدينة لجماعة ابيز، وفى نفس ذلك الشهر ، وهو شهر مارس سنة ١٢٤٩ [٨٧]، توجه جيش آخر من البرتغاليين يتألفون من جماعة القديس شانت ياقب بقيادة بايو إلى مدينة سلير Selir واستولوا عليها [٨٨]، ثم انضموا إلى جيش الملك وتوجهوا إلى مدينة لولى Loule واستولوا عليها بعد مقاومة ضعيفة من جانب المسلمين ، وقتل عدد من الجانبين ثم استولوا على الجزر Aljezur ، فلته بورشز Porches [٩٠]. وانفصل بايو بجيشه واستولى على مدينة

سان فيكفت San Vicante وكان بها الكثير من المسلمين فقتل وأسر الكثيرين بها(٩٠).

وجدير بالذكر أن بعض القلاع السابقة كان قد تم الاستيلاء عليها من قبل فى عهد الملك سانشو، ولكن يبدو أن المسلمين انتهزوا فرصة الحرب الأهلية الدائرة فى البرتغال واستطاعوا استعادة هذه الأراضى والقلاع مرة أخرى.

وقد أشار هرقلانو إلى أن البرتغاليين أخضعوا مرة أخرى قلاع مثل ايمونت Aiamonte وكاسلا Cacela وطبيرة Tavira ، وهى قلاع كان قد استولى عليها فى عهد سانشو الثانى(٩١)، وجدير بالذكر أن المصادر البرتغالية لم تشر إلى هذه الاستيلاءات أو إلى أحداثها مرة أخرى.

أما آخر ما أشارت إليه الروايات من حركة التوسع البرتغالية فكانت مدينة الفجر Al-faghar وبها مدت البرتغال حدودها حتى شاطىء المحيط فى سنة ١٢٥٠م (٩٢)، بالإضافة إلى عدد من القلاع شرقى نهر وادى يانه مثل اروطه Arode وارووسينه Aracena(٩٣). وهكذا وصلت البرتغال فى عهد الفونسو الثالث فى سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ إلى حدودها المعروفة وتم إنهاء الوجود الإسلامى غربى نهر وادى يانة.

وجدير بالذكر أنه أثناء هذه الفتوحات الأخيرة وخاصة شرقى وادى يانة حدث نزاع بين مملكة البرتغال ومملكة قشتالة إذ رأت الأخيرة أن البرتغاليين استولوا على بعض المناطق التى تعتبر مجالا لفتوحاتها ، مما جعل النزاع يدب بين البرتغال وقشتالة . وكان ملك البرتغال يرى أن هذه الأراضى هى الامتداد الطبيعى لأملاكه (٩٤).

كذلك رأت مملكة قشتالة أن حقوقها تنسحب أيضًا على بعض القلاع فى غرب وادى يانة، خاصة أن بعض المصادر القشتالية أشارت إلى أن بايو كان يعمل لحساب مملكة قشتالة، وأنه استولى على تلك الأراضى باسم مملكة قشتالة . وهناك مدونة قديمة تشير إلى أن بايو استولى على عدة أماكن فى الغرب كان قد فتحها لحساب ملك قشتالة(٩٦).

ويشير دوراتى ردا على ذلك بأن بايو قد انفصل عن تبعية ملك قشتالة وأصبح تابعًا لملك البرتغال (٩٦)، فهل يعنى ذلك أنه فى الفترة السابقة كان بايو يعتبر تابعا لملك قشتالة، والواقع أن بايو كان من أعضاء جماعة شانت ياقب التى كان من مراكزها الرئيسية فى البرتغال مدينة بلمالة Palmela كذلك أصبح حاكم قصر أبى دانس بعد الاستيلاء عليه فى

سنة ١٢١٧م وكان كلما استولى على مدن وأراضى بادر الملك سانشو الثانى وأصدر المراسيم بمنحه هذه المدن والأراضى للدفاع عنها وتعميرها ، ولكن ترى أن وجهة النظر الطبيعية هى أن البرتغاليين استولوا على بعض المناطق من الأراضى التابعة لابن محفوظ وهو على علاقة قوية وتبعية لمملكة قشتالة. وترى الأخيرة أن هذه الأراضى التى كانت تابعة لابن محفوظ فى مناطق ومجال فتوحات مستقبلية لها، أما الاعتماد على أن بايو يريز كان تابعا لمملكة قشتالة، على أساس أنه كان تحت تبعيته فى حصار إشبيلية فإنه بحكم كونه زعيمًا من زعماء جماعات الرهبان الفرسان . وكان يرى ميدانه هو القتال ضد المسلمين سواء أكانوا فى الأراضى التى تعتبر امتداد لمملكة قشتالة أو الأراضى التى تعتبر امتدادا لمملكة البرتغال. ومما يؤكد وجهة نظرنا أن المدونة العامة الأولى لتاريخ أسبانيا تشير إلى أن بايو وهو من جماعة شانت ياقب البرتغاليين ومعه العديد من الفرسان والنبلاء البرتغاليين اشتركوا فى حصار إشبيلية[٩٧].

وقد فند برنداو هذا الرأى وأشار إلى أن المصادر القشتالية تشير أن الأراضى التى فتحها بايو لاتقع فى مجال فتوحات البرتغال، وأن الأراضى التى اكتسبها كانت تحت رعاية وتبعية فرديناند ملك قشتالة. وعقب برنداو أن هذا بعيد عن الحقيقة[٩٨] .

وهكذا أصبح المسلمون فى غرب الأندلس بين شقى الرحى، أى بين القشتاليين والبرتغاليين. وكان سقوط أشبيلية سنة ١٢٤٨م إيذانا بانتهاء الوجود الإسلامى فى غرب الأندلس ، إذ أن القواعد والمدن الباقية توالى سقوطها . وهكذا تكاملت الفتوحات القشتالية والبرتغالية . وكان المسلمون آنذاك ينحصرون فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة ، وهو ما أصبح مملكة غرناطة لبنى الأحمر، وكان المرجع الرئيسى لسقوط هذه القواعد هو الانقسامات والخلافات بين زعماء الموحدين ، وانقسام الأندلسيين فيما بينهم وما ترتب على ذلك من ثورات الأندلسيين ضدهم مما قسم الأندلس فرقا وشيعا.

وهكذا نجحت مملكة البرتغال فى انتزاع القواعد والمدن الأندلسية فى غرب الأندلس حتى وصلت حدودها جنوبا إلى المحيط الأطلنطى ، وإلى حدودها المعروفة ولم يكن ذلك نتيجة لقوة مملكة البرتغال أو نشاط ملوكها فحسب بل لضعف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم منذ موقعة العقاب سنة ١٢١٢م . واتسمت تلك الفترة بتسوية النزاعات بين الممالك المسيحية وتوحيد جهودها وقواها ضد المسلمين فى الأندلس ، استغلالا لهذا الضعف والانقسام الذى اعترى الجبهة الإسلامية فى الأندلس .

الحواشى

١- Capello ذو الثوب الكهنوتى اشتهر بهذا الاسم وأطلقت عليه جميع المدونات هذا الاسم وقد أشار أشباخ والمدونات البرتغالية أنه اشتق من الحياة التى عاشها فى أعوامه الأخيرة بالإضافة إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل على أثر مرض ألم به- ثوب راهب تبركا بالقديس أوغطين ووفاء لنذر نذرته متى شفى . أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ج٢ ، القاهرة ١٩٩٦، ص٢١٤ .

٢- أشار دنيس ولد سانشو الثانى فى ٨ سبتمبر ١٢٠٢ Denis , F: Historia de Portugal. Barcelone 1845 , p. 18. ويتفق معه أشباخ أنه كان لديه العشرين من عمره حينما خلف أباه نفس المرجع ، ص٢٠٧ وإن كان المؤرخ دوراتى يشير إلى أنه كان لديه من العمر عند وفاة أبيه ٢٦ عاما Daurte Nunes de Leao . Chronica del Rei Sancho II. Cronicas dos Reis de Portugal . Porto 1975 , p. 125 .

وكانت أمه هى دونيا اوراكا ابنة الفونسو الثامن ملك قشتالة . Duarte . Op. cit, p. 123

٣- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر :

Cronica do Rei D. Sancho II . Cronicas dos sete primeiros Reis de Portugal , Lisboa 1952 , pp. 211-217 . Duarte, Op. cit, p. 127 .

أشباخ : نفس المرجع ، ج٢ ص٢٠٧ .

٤- Herculans , A. Historia de Portugal. T2, Lisboe 1982 , pp. 349-350 .

٥- ابن عذارى: البيان المغرب، القسم الثالث (الموحدين) انطوان ١٩٦٠، ص٢٤٧ ، ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط ١٩٧٢م ص٢٤٧ .

Huice : A. M, Historia Politica del Imperio Almohade T2 , tetuan , 1956 , p. 450 .

٦- ابن عذارى: البيان المغرب ، ص٢٤٧ ، ٢٤٨ ؛ ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص٢٤٤-٢٤٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٣٥٤-٣٥٩ ؛ أشباخ : تاريخ الأندلس، ج٢ ص١٥٦ وانظر تفاصيل أوضاع الموحدين أيضًا فى :

Herculano, Op. cit. T2 , pp . 365-366, Peres, D. Historia de Portugal, vol 2. Barcelos, 1929 , p. 214 .

٧- ابن عذارى : البيان المغرب، ص٢٤٩-٢٥٠ ؛ الحميرى، صفة جزيرة الأندلس، القاهرة ١٩٣٧، ص٦٠-٦١ .

Cronica Latina de los Reyes de Castilla, Universidad de cadiz 1984, pp. 65-66 .

٨- مدينةطلياطة «بالأندلس بينهما وبين أشبيلية محلة من عشرين ميلا ومن طلياطة إلى ليلة محله مثلها» الحميرى : نفس المصدر، ص١٢٨ .

٩- أشار عنان إلى أن مارتين سانشيز هو ابن لسانشو الثانى.

عنان : نفس المرجع ، ص٣٥٤ وأشار أيضًا ويثى ميرانده Huiciفى ص٤٤ أنه ابن ساشنو الأول وفى صفحة أخرى وهى ٤٥٤ أشار أنه ابن سانشو الثانى وقد أشار إليه هرقلانو أنه ابن سانشو الأول،
Herculan , Op. cit, pp. 298-299 .

وجدير بالذكر بحثنا من خلال المدونات لم نجد من أبناء سانشو الثانى ما يدعى مارتين ، وهو في الواقع ابنا لسانشو الأول، وقد أشار بيريز أنه عم سانشو الثانى Peres, Op. cit. cit., p.214 وهو أيد ذلك لأنه دوارتى أشار أن سانشو الثانى عندما تولى كان لديه من العمر ٢٦ عاما وهذا ما ينفى أن يكون مارتن ابنا له ولمزيد من التفاصيل عن هذه الغزو انظر . Duarte Op. cit, p. 129

١٠- الحميرى : نفس المصدر، ص١٢٨-١٢٩ ؛ عنان : نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣٥٤ .

١١- بالإضافة إلى روايات ابن عذارى وابن أبى زرع عن هذه الغزوات انظر :

Ganzalez ., J: Las Conquistas de Fernando III en Andalucia , Madrid 1946 , p. 28-37, Huici, Op. cit, T2 , pp. 454-456 , Fortunato, Historia de Portugal. TI, coimbra 1922 . pp . 204-205 ,

ولمزيد من التفاصيل انظر عنان : نفس المرجع والجزء ص٣٥٧-٣٦٣ .

١٢- كان سانشو قد تلقى مساعدات من البابا هونوريوس فى ١٢٢٥م لأجل أن يتجهز لقتال المسلمين.

Peres. Op. cit, T2 , pp. 214-215 .

١٣- Herculano , Op. cit. T2 . pp. 371-372 , martinz, M. R: Historia del Reino de Badojoz, Badojoz 1905 , p. 248 .

١٤- Serrao , J. V: Historia de Potrugal , vol I , Lisboa 1979 , p. 127 .

١٥- Herculano , Op. cit, T2 , p. 273 .

١٦- Brandao , A. Monarquia Lusitana . Parte 4 , Lisboa 1974 , p. 125 CF. also: Fortunato, Op. cit, p. 205 ; Serrao P.OP. cit, p. 127 ; Stephens. H.M; Portugal. London 1891 , p. 75 .

١٧- Brandao , A, cronicas de D. sancho II ED. Alfonso III, porto 1946, p .26 ; CF . also ; Peres , Op . cit, 12 , p. 215 ; Denis , Op. cit, p. 18 Stephens, Op. cit. Loc cit., Martinez, Op. cit., p. 279-280 .

١٨- Herculano , Op. cit. T2 , pp. 374-375 ; Fortunato Op. cit. p. 205 .

١٩- Brandao , Man ... Lus ... Parte 4, p. 126 ; CF. also ; Peres , Op. cit, p. 215 ; Lomax, D.W; La Reconquista. Barcelana 1984 , p. 186 ; Sergio, A; Breve interpretacao da Historia de Portugal . Lisboa (N.D), p. 21 .

أشباخ : نفس المرجع ، ص٢٠٨ .

٢٠- Beirao , G: Historia breve de Portugal, Lisboa (N.D), p. 14 .

٢١- Herculano , Op. cit. T2 , pp. 374-375 ; Fortunato Op. cit, Loc cit; Serrao , Op. cit. p. 128 ; Mattoso, A.G: Historia de Portugal , vol.I . Lisboa 1939 , p. 70 ; Martinz , Op. cit, p. 287 .

٢٢- Fortunato , Op. cit, p. 208 ; Les Hospitaliers de la morte de D. Alfonso Henriquez a lo suppression des templiers, Paris 1977 , p. 39 ; Serrao , Op. cit. Loc cit.

٢٣- Radrigo, Op. cit, p. 274 ; Brandao, Cranicas de D. sancho II, p. 40, CF. also : Serrao , Op. cit, p. 128 ; Herculano Op. cit, p. 398. ; Peres Op. cit, p. 220 .

٢٤- Herculano , Op. cit, p. 419 .

٢٥- Peres, Op. cit, p. 223 ; Fortunato, Op. cit, Loc cit.

٢٦- نتيجة لنشاط الفونسو بيريز ضد المسلمين فقد تلقب بلقب فارس فى جماعة فرسان رهبان الاسبتارية والذى أصبح سيد الجماعة فى البرتغال وحارب المسلمين مدة ٢٢ سنة على الحدود البرتغالية الإسلامية ثم بعد منحه هاتين القلعتين اختار البقاء فى مورا . Moura Peres, Op. cit, p. 223

٢٧- أشار دوريك الطليطلى إلى أنه سانشو الثانى استولى على شيربة وعلى قلاع أخرى عديدة دون توضيح Rodrigo , opcit, p. 274 ولمزيد من التفاصيل عن هذه الاستيلاءات انظر Herculono , Op. cit, pp. 420-422 Fortunato , Op. cit, loc cit, serrao , Op. cit, loc cit, : stephens, Op. cit, p. 76 .

٢٨- وقد أشار البابا جريجورى التاسع فى مقدمة الرسوم «جريجورى أسقف وخادم خدام الله وكل الأخوة المسيحيين فى مملكة البرتغال يكونوا تحت حمايتنا ورعايتنا مع ملكهم الشهير ملك البرتغال سانشو الثانى ومن أجل حملاته ضد أعداء المسيح وأيضا كل النبلاء فى أراضيه والذين قادوا الجيوش عن طريق البر والبحر وخدمتهم للكاثوليكية تشملهم بحمايتنا وعايتنا ... الخ» انظر نص هذا المرسوم فى: Brandao , Cronicas de D. S. ancho II , pp. 67-68 ; Basto : Cronica de cinco Reis de portugal, vol I, porto (N.D), pp. 170-174 . CF. also serrao , Op. cit loc cit .

أشار أشباخ إلى البابا جريجورى الحادى عشر والواقع أنه التاسع، أشباخ، نفس المرجع والجزء ، ص٢٠٨ .

٢٩- Peres, Op. cit, p. 190 .

أشباخ : نفس المرجع والجزء ، ص٢٠٦ .

٣٠- Herculano , Op. cit. p. 433 ; Fortunato , Op. cit, p. 208 ; sergio , Op. cit, p. 21 .

٣١- Brandao, Cronicas de D. sancho II, p. 56 ; Cronica Rei D. A fonso !!!, pp 253-255 . CF. also : serrao , Op. cit, p. 128 ; Beirao, Op. cit, p. 14 .

٣٢- Herculano , Op. cit, loc cit; Peres, Op. cit, p. 224 .

٣٣- Brandaa, Mon Lus ..., parte 4 . p. 140 .

٣٤- ابن عذارى: البيان المغرب- قسم الموحدين، ص٢٥٣-٢٥٥ ؛ أبى ابن زرع روض القرطاس ، ص٢٤٩-٢٥٣؛ عنان ، نفس المرجع، ص٣٦٤-٣٦٥ .

٣٥- ابن عذارى : البيان المغرب.(قسم الموحدين)، ص٢٥٣، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص٢٤٧-٢٤٩ .

٣٦- ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص٢٥٠-٢٥١ ، عنان : نفس المرجع ص٢٦٨-٢٦٩ . Huici, Op. cit . pp. 473-474 .

٣٧- ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص٢٥٣ ؛ عنان : نفس المرجع ، ص٣٨٢ .

٣٨- لمزيد من التفاصيل عن ابن هود وثورته انظر:

ابن أبى زرع : روض القرطاس : ص٢٥٢-٢٥٣، ص٢٧٤، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، بيروت ١٩٥٦، ص٢٧٧-٢٨٦؛ عنان: نفس المرجع ، ص٤١١-٤١٥ ؛ أشباخ ، نفس المرجع ، ج٢ ص٢٠٨ .

Castro, Op. cit, pp. 69-70 .

٣٩- أشار إليها الحميرى، «على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس ، صفة جزيرة الأندلس، ص١٧٥ وأشار إليها الإدريسى» حصن مارتلة المشهور بالمنعة والحصانة صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس تحقيق دوزى امستردام ١٩٦٩م، ص١٧٩ ولمزيد من التفاصيل عن المدينة وحصانتها وآثارها انظر دراسة : Pavon: B; Ciudades Y Fortalezas Lusomusulmanas, Madrid 1993, pp. 34-46 .

٤٠- Brandao , Cronicas de D. sancho II, p. 65 ; CF. also ; Fortunato , Op. cit., p. 208 ; coelho , Op. cit, p. 323; sergio , Op. cit, p. 27 .

٤١- أشار براندو إلى أنه توجد احدى الروايات أنه تم الاستيلاء عليها فى عام ١٢٣٤م عندما أسبغت البابوية رعايتها على الحروب الصليبية فى البرتغال.

Brandao Mon... Lus .., p. 141 .

٤٢- Brandao , cranicas de sancho II, pp. 65-67 ; CF. also : serrao , Op. cit, p. 129 ; Lo-max, Op. cit, p. 188; peres, Op. cit, p. 244 ; castro , Op. cit, pp. 71-72 .

أشباخ : نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٠٨ .

٤٣- البور تقع على بعد ١٦ كم من شلب ويشير هرقلانو إلى أن هذه القلاع (البور) كانت أسست لخدمة القرى المجاورة ومركز للدفاع عنها.

Herculano , Op. cit, p. T2, p. 45 .

٤٤- Duarte, Op. cit, p. 173 ; Cronica del Rei D. Alfonso III. p. 256 ; cranica Reinos de Portugal, p. 204 ; CF. also : collho , Op. cit, p. 324 .

٤٥- Cranico do Rei D. Alfonso III, p. 256 , Brndao, cronicas de sancho II, p. 69 .

٤٦- Coelho , Op. cit, p. 324 .

٤٧- Cronica do Rei D. Alfonso III, p. 260 ; CF. also ; serrao , Op. cit, p. 129 , Fortunato, Op. cit., Loc cit; Peres, Op. cit , p. 224 ; mattoso, Op. cit, pp. 70-71, stephens, Op. cit, p. 78 .

أشباخ: نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٠٨ .

٤٨- Brandao , Cronicas de sancho II, p. 67 .

٤٩- Serrao, Op. cit, p. 129 .

قلعة رودريك فى غير قلعة مدينة رودريك Ciudad Rodrigo والأخيرة تقع فى مملكة ليون .

- وجدير بالذكر أن جميع الروايات اختلفت فى سنوات وترتيب الاستيلاءات على المدن والقلاع الإسلامية وإن كانوا اتفقوا أنها ما بين ١١٣٨-١١٤٢م .

٥٠- Brandao , Cronicas de Sancho II, p. 69 ; Cronica Do Rei D. Alfonso III, p. 257 ; Cronica de cinco Reis de portugal, p. 205 .

٥١- Duarte, Op. cit, pp. 173-174 ; Cronica do Rei P. Alfonso III, pp. 266-267 , CF also. Coelho , Op. cit, p. 325 .

٥٢- Coelho , Op. cit loc cit.

٥٣- Brandao , Cronicas de Rei D. sancho II, p. 70.

٥٤- Ibid p. 72 .

٥٥- Brandao , Mon ... Lus .., T4, pp. 146-147 ; CF. also ; Coelho, Op. cit, Loc cit.

٥٦- Duarte, Op. cit , pp 174-175 ; Cronica do Rei D. Alfonso III, p. 202 .

٥٧- هناك رواية أنه قرر الانتقام من سكان المدينة لأنه قد أرسل خمس فرسان مع بدرو رودريك لاستطلاع أحوال المدينة ولكن قتلهم المسلمين فى منطقة انتس Antes فانتقم من المسلمين فى تلك المدينة.

Cronica de cinco Reis de Portugal, pp. 208-209 , CF. also : Coelho , p. 328 .

- بحثنا عن اسم ابن فلول من خلال ما أتيح لنا من المصادر ولم نعثر على أى معلومة عنه أو اسمه.

٥٨- Brandao , Cronica de Rei Di . Sancho II, p. 71 ; Duarte, Op. cit, p. 176 ; coelho , Op. cit Loc cit, castro Op. cit, p. 699 Fortunato, Op. cit, p. 208 .

– والاستيلاء على المدينة أضيفت إليه بعض الأساطير مثل أسطورة السبع صيادين (قناصين) وبطولاتهم فى الاستيلاء على المدينة.

Denis, Op. cit, p. 22 .

وإن كان دنيس Denis قد وصف الاستيلاء عليها فى عهد الفونسو الثالث .

Brandao : Cranio de Sancho II, p. 74- CF - also : serrao Op. cit, p. 129 ; castro , Op. cit, p. 69 ; Fortunato, Op. cit p. 208 sergio , Op. cit, p. 21 .

٦٠- يشير إليها الإدريس بقوله : «حسنة فى بسيط من الأرض وعليها سور حصين ولها غلات وجنات وشرب أهلها من واديها الجارى بجنوبها وعلى أرجاء البلد والبحر منها غربا على ثلاثة أميال ولها مرسى فى الوادى وبها الانشاء والعود بجبالها كثير يحمل منها إلى كل الجهات والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة بديعة المبانى مرتبة الأسواق وأهلها سكان قراها عرب من اليمن وغيرها وهم يتكلمون بالكلام العربى الفصيح الصريح... ومدينة شلب على اقليم الشنشين وهم اقليم به غلات التين الذى يحمل إلى أقطار الغرب.

– الادريسى : صفة المغرب ، ص١٧٩-١٨٥ ولمزيد من التفاصيل عن مدينة شلب انظر الحميرى: نفس المصدر، ص١٠٦ ؛ أبو الفدا : تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص١٦٧ .

٦١- لمزيد من التفاصيل عن أهميتها وأحداثها انظر بحثنا عن مدينة شلب بين البرتغاليين والصليبيين والموحدين ١١٨٩-١١٩١م . ألقى هذا البحث فى الندوة التاريخية الأولى للعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى من ٢٠ أكتوبر ١٩٩٢م بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

٦٢- Duarte , Op. cit, p. 177 ; cronica do Rei D. Afons III v pp 269-270, cronica de cinco Reino de Portugal , p. 214 .

٦٣- Brandao, Cronicas de D. Sancho II, pp. 72-73 ; cronia do Rei D. Alfonso III, p. 270; coelho , Op. cit., p. 330 .

٦٤- Duarte, Op. cit., p. 178; Coelhgo, p. cit, Loccit.

٦٥- Brandao , Cronicas de D. sancho II, 73 .

٦٦- Marques, Op. cit, p. 164 .

٦٧- Coelho , Op. cit, loc cit .

٦٨- لمزيد من التفاصيل انظر بحث جونثالث عن فتوحات الملك فرديناند الثالث فى الأندلس .

Gonzales, J. Las conquistas le Fernando III 3n Andolucia, Madrid, 1946 .

عنان : نفس المرجع جـ٢ ، ص٤١١-٤٢٠ .

٦٩- ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص٢٧٣-٢٧٥-٢٧٧ ؛ عنان : نفس المرجع، جـ٢ ، ص٤٣٨-٤٤٤ .

- Masia, A: Introduccion a la Historia de Espana, Barcelana 1943 , pp. 190-191 .

٧٠- لمزيد من التفاصيل أنظر ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص٢٧٧-٢٨٦ ، عنان : نفس المرجع ، ص٤١١-٤٣٦ .

٧١- ابن عذارى: البيان المغرب ، قسم الموحدين، ص٣٢٢، ابن أبى زرع ، روض القرطاس، ص٢٧١، عنان ، ص٤١٦ .

٧٢- Castro: Niebla, p.71 وهى رسالة عن مدينة لبلة.

٧٣- كان ألفونسو متزوجا من ماتيلده صاحبة بولونيا ووريثتها وأصبح أمير لهذه الولاية وكان وثيق الصلة بالكنيسة حتى أنه وعد بأن يقود حملة إلى المشرق لمحاربة المغول وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس، ولمزيد من التفاصيل انظر Cronica Do Rei D. Alfonso III, pp. 24 - 252.

أشباخ ، نفس المرجع ، ص٢١٢ .

٧٤- انظر تفاصيل الحروب الأهلية والنزاعات بين الملك سانشو الثانى وأخيه ألفونسو الثالث ثم وفاة سانشو فى:

Duarte, Opcit, pp 134-138 ; Cronica do Rei D. Alfonso III, pp. 229-241 ; Brandao , Cronica de Rei D. Sancho II, pp. 90-110 ; CF also : castro , Op. cit., pp. 72-73 ; Valdeavellano, Op. cit., pp. 135-136 ; Molina, Op. cit, p. 30 .

- أشباخ ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٢١١-٢١٤ .

- أشباخ : نفس المرجع، جـ٢، ص٢١٥ .

٧٦- Brandao , Cronicas de Rei D. sancho II, p. 139; Cronica do Rei D. Afanso III, p.

253 , Pimera croncica general de Espana , p. 765 ; CF. also : Lafeuent , Op. cit, pp. 398-399 ; Serrao, Op. cit, p. 137-138 ; Schantal , Op. cit, p. 47 ;

Isidoro de las cagigas, sevilla Almohadey Ultimos anos de su vida nusulmano , Madrid 1951 , pp. 31-33 .

٧٧- Duarte , Op. cit, p. 181 ; Herculano , Op. cit, pp. 19-20 , Peres, Op. cit, p. 244 .

٧٨- أشار إليها الحميرى بقوله «شنتمرية على معظم البحر الأعظم سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد وفى مدينة متوسطة القدر حسنة التربة، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة وبها المراكب وارده وصادرة وهى كثيرة الأعناب والتين وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا. وهى مدينة أولية وبها دار صناعة للأساطيل وبازائها جزائر فى البحر «صفة جزيرة الأندلس ، ص١١٤-١١٥، الإدريسى: نفس المصدر، ص١٧٩ .

٧٩- Brandao , Cronicas, p. 148 ; CF . also : coelho , Op. cit, p. 331 .

٨٠- Brandao, Cronicas, p. 150 ; CF also : Denis, Op. cit, p. 21; serrao , cit, p. 138 ; Fortunato , Op. cit, p. 215 .

٨١- Duarte, Op. cit., p. 181 ; CF . also : coelho , Op. cit., p. 33 .

٨٢- Coelho , Op. cit., p. 331-332 .

٨٣- Ibid.

٨٤- Brandao , Cronicas, p. 150 ; Duarte Op. cit., p. 182 ; CF . also ; Herculano , Op. cit, T3 . p. 20 ; Mattoso, Op. cit, p. 71 ; Peres Op. cit, p. 254 .

- عنان : نفس المرجع جـ٢ ، ص٤٩٢، أشباخ ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٢١٥ .

- وهناك رواية أن تم الاستيلاء على المدينة فى شهر يناير سنة ١٢٤٩م . Coells, Op. cit, 333 .

٨٥- Brandao, Op. cit, pp. 150-151 ; coelho, Op. cit, pp. 332-333 .

٨٦- Coelho , Op. cit., p. 332 .

٨٧- Brandao , Mon .. lus parte 4, pp. 182-183 . Duarte , Op. cit, p. 183 ; CF . also : Herculano, Op. cit, T3 . pp. 21-22 ; Peres, Op. cit., p. 254 ; Stephens, Op. cit, p. 80 ; castro , Op. cit, p. 72-73 .

٨٨- Duarte , Op. cit ., p. 182 ; CF . also : coelho , Op. cit, 331 .

٨٩- Brandao , cronicas , pp 151-152 ; croniea do Rei D. Alfonso III, p. 278 ; CF also : Fortunato , Op. cit., p. 216 ; coelho , Op. cit, p. 216 ; Beirao , cit, p. 17 .

٩٠- Duarte, Op. cit, loc cit ., cronica do Rei D. Alfonso III, p. 278; CF . also : serrao Op. cit, p. 138 .

٩١- Herculano , Op. cit., T3, p 21 ; CF. also : Stephens, Op. cit, p. 80 .

٩٢- Herculano , Op. cit, T3, pp. 21-22 .

٩٣- Serrao , Op. cit., p. 138 .

أشباخ ، نفس المرجع ، جـ٢، ص٤٩٣ .

٩٤- Castro, Op. cit., p. 70 ; Fortunato, Op. cit., p. 216 .

٩٥- Serrao, Op. cit, p. 138 .

٩٦- Duarte, Op. cit., p. 181 ; CF. also .

٩٧- Primera cronica general de Espana, pp. 766-767 .

٩٨- Brandao, Cronicas de D.S ancho II, pp. 148-149 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر البرتغالية والأسبانية :

- **Brandao , A:**

  1- "Monarquia Lusitana Parte 3, Parte 4, Lisboa 1973 .

  2- Cronicas de D. Sancho II ED . Alfonso III, Porto 1946 .

- **Cronica de cinco Reis de Portugal,**

  Edicoa M. Basto, vol I, Porto (N.D).

- **Cronica Latina de los reyes de castilla.**

  Traoduccion luis chorlo Brea, un . de cadiz 1984 .

- **Cronicas dos sete primeiros Reis de Portugal.**

  1- Cronica do Rei D. Sancho II.

  2- Cronica do Rei F. Alfonso III .

  Edicao Critica carlos do silva tarouca, vol I.

- **Duarte Nunes de leao :**

  Cronicas dos Reis de portugal .

  1- Chronica del Rei D. Sancho 11 .

  2- Chronica del Rei D. Alfonso 111 Porto 1975 .

- **"Primera Cronica general de Espane"**

  Publicada P or Ramon Menendez Pidal T2, Madrid 1955 .

- **Rodrigo Jimenes de Rada**

  "Historia de los hechos de Espana" Madrid 1982 .

ثانيًا : المصادر العربية :

- ابن أبى زرع : (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) أبو الحسن على بن عبدالله
« الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس »
الرباط ١٩٧٢ .
- ابن الخطيب : (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) لسان الدين أبوعبدالله محمد بن عبدالله
«أعمال الأعلام، أو تاريخ أسبانيا الإسلامية» بيروت ١٩٥٦م.
- ابن عذارى : (ت٧١٢ / ٣١٢م) أبو عبدالله محمد المراكشى»
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب القسم الثالث (تاريخ الموحدين) نشر
ويثى ميراندة تطوان ١٩٦٠م.
- أبو الفدا : (ت٧٣٠هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبوالفدا اسماعيل
«تقويم البلدان » باريس ١٨٩٠م.
- الأدريسى : (ت٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) الشريف محمد بن عبد العزيز
«صفة المغرب وأرضى السودان ومصر والأندلس ووصف أفريقيا وإسبانيا» .
تحقيق دورى امستردام ١٩٦٩م.
- الحميرى: عاش فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ، أبى عبدالله محمد
بن عبدالله بن عبد المنعم
«صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار» تحقيق
ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧ .

ثالثا : المراجع الأوربية:

- Beirao, G :

Historia breve de Portugal, Lisboa (N.D).

- Cagigas:

Sevella Almohade Y ultimos anos de su vida Musulmana., Madrid 1951 .

- Castro : F. R:

Niebla Musulmana (Siglos VIII - xIII, Madrid 1993 .

- Chantal : S

Historia de Portugal, 400, Borcelone 1960 .

- Coelho : A. B:

Portugal na Espanha Arabe, vol 2 , Lisboa 1989 .

- Denis: F:

Historia de Porugal, Barcelona 1845 .

- Fortunato de Ameida:

Historia de Portugal" tl, Coimbra 1922 .

- Gonzalez: J:

Las conquistos de Fernando III en Andalucia" madrid 1946 .

- Herculano : A

Historia de Porugal, t2 , t3 , Lisboa 1982 .

- Huici : M

Historia Politica del Imperio Almohade , t2 , Tetuan, 1957 .

- Lafuente : M;

Historia general de Espana " t1, Barcelona 1877 .

Les Hospitaliers de la morte de D. Alfonson Henriquez a la suppression des templiers, Paris 1977 .

- Lomax, D:W:

la Reconquista " Barcelona 1984 .

- Mattoso, A.G.

"Historia de portugal" vol I, lisboa 1939 .

- Marques, O

Historia de portugal lisboa 1976 .

- Martins, M: R:

"Historia del Reinado Badajoz" Badajoz 1905 .

- Masia, A.

Introduccion ala Historia de Espana, Barcelona 1949 .

- Molina, R:

Portugal , sevilla 1979 .

- Pavon , P:

Ciudades Y fortalezas lusomusulmanas Madrid 1993 .

- Peres, D:

"Historia de Portugal" vol 2, Barcelos 1929 .

- Sergio, A:

Breve interpretacao da Historia de Portugal Lisboa (N.D).

- Serrao, J.V:

Historia de Portugal vol I , lisboa 1979 .

- Shantal, S:

Historia de Portugal , Barcelona 1960 .

- Stephens , H.M:

Portugal London 1891 .

- Valdevellano , L.G:

Historia de Espana , Antigua Y Medievel, Madrid 1980 .

رابعًا: المراجع العربية والمترجمة:

- محمد عبدالله عنان:

عصر المرابطين والموحدين ، جـ٢ ، القاهرة، سنة ١٩٦٤ .

- أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين، القاهرة ١٩٩٦ .

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر*

أوربا (الحضارة والحرب) فى كتابات المثقفين المصريين إبان الحرب العالمية الثانية

تعد الفترة الممتدة من مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فترة التجارب والتأسيس فى نظرة المجتمع المصرى إلى الحضارة الغربية(١).

فقد أحدثت الحملة صدمة ثقافية عبر عنها الجبرتى عند زيارته المجمع العلمى الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها إلى مصر (بأنه رأى عجبًا وشاهد أعمالاً لا قبل لأمثالنا بها) على حد تعبيره(٢).

نافذة على الغرب

وربما كان المغزى الأول للحملة أنها أوضحت بشكل صارخ أن مصر أصبحت جزءًا جوهريًا من تطلعات السيطرة الأوربية الغربية حربيًا وسياسيًا واقتصاديًا(٣).

كما كان من نتاج الحملة أيضًا أن أول نافذة تفتح لمصر على الغرب كانت نافذة فرنسية فحدث التصور بأن حضارة الغرب ما هى إلا الحضارة الفرنسية ، لذا كانت الاستعانة خلال فترة التحديث بالمخترعات والنظم الفرنسية، بعد أن أدرك محمد على بأنه لابد له من الأخذ بأساليب الحضارة الأوربية. وكان استدعاء الأجانب وإرسال البعثات هو بداية حلقة جديدة من

* مدرس التاريخ الحديث - كلية الآداب- جامعة القاهرة.

حلقات اتصال العقل المصرى بأوربا. وامتازت هذه الحلقة بالكثافة والتنظيم[٤] وهكذا انتقلت العلاقة من لقاء الدهشة إلى اللقاء المدروس عن طريق البعثات. ويمكن القول بأن التأثير الأوربى سرى فى كيان المجتمع المصرى عن طريق البعثات وعودة المبعوثين بالجديد إلى أرض الوطن[٥].

ومثل عصر إسماعيل عصر الانفتاح على أوروبا والنقل منها فى كافة نواحى الحياة. وكانت له مقولة بأن «مصر لم تعد فى أفريقيا بل أنها أصبحت بالفعل جزءاً من أوربا»[٦].

التيار الليبرالى وحضارة أوروبا :

ثم ظهر التيار الليبرالى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان أحمد لطفى السيد ومعاصروه مثل طه حسين وهيكل وعباس العقاد قد اعتقدوا مبدأ الحرية التى أصبحت محور تفكيرهم[٧]. وعبر هؤلاء عن أفكارهم على صفحات المجلات والجرائد وفى كتابة القصص والروايات التى تتبنى أفكارهم وقضاياهم .

وقد رأى هؤلاء أن طريق النهضة المصرية ينبغى أن يبدأ من حيث بدأت النهضة الأوربية . ولم يأبه هؤلاء باتهامهم بأنهم ناقلون لتعاليم إفرنجية، فقد كانت حجتهم أن طبيعة الموقف الحضارى أن تنقل الأمة آثار الأمم المتقدمة عليها فهذا وحده شرط السبق والابتكار، وهذا يعنى رفضهم لطمس الذات [٨].

وكان هذا الجيل الليبرالى المتطلع عبر البحر المتوسط إلى أوروبا هو الذى رأى فى معاهدة ١٩٣٦ تقدمًا وتصحيحًا لمسار العلاقة بين مصر وأوروبا[٩].

فنجد طه حسين يرحب كمعظم رجال جيله بمعاهدة ١٩٣٦ ويستقبلها بالتفاعل دون أن تخدعه الأوهام عن حقيقتها [١٠].

وقد اعتبر طه حسين أن المعاهدة وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى اتفاقية مونترو ١٩٣٧ بمثابة عهد جديد للتصالح الحضارى الدائم بين مصر وأوروبا بعد أن انتهى خصامهما السياسى. فكتب فى كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) ١٩٣٨ يقول : «هل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع [١١]، وهكذا أصبح أمامنا طريق واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم

لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ومايحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»(١٢).

ورغم إعجاب طه حسين بحضارة أوروبا فإن منهجه كان الأخذ بأسباب تقدم أوروبا وحضارتها وليس النقل والمحاكاة بما يدخل فى إطار التقليد الأعمى : فقد تساءل : لماذا هذا التقليد للأجنبى ؟ إننا لن نستطيع محاكاتهم إلا إذا التقينا بأنفسنا ثقافيًا وأصبحنا مساوين للأجنبى بحيث لايجرؤ أن ينظر إلينا باحتقار (١٣).

ولاشك فى أن هذا الاتجاه كان مرفوضًا من قبل الكتاب المثقفين ثقافة حقيقية ، ففى مقال كتبه أحدهم ورمز لاسمه بحرف (ع) (جلسنا نتحدث فمال بنا الحديث فيما مال إلى مبلغ شعورنا بقوميتا ومبلغ حرصنا على مظهرها .. وكانت أشد الأقوال إيلامًا لنفوسنا أننا قوم نتلاشى فى غيرنا ويسهل على أية قوة أن تسوقنا حسبما تريده. وقطع النقاش دخول صديق فى رفقته شاب أراد أن يمنح هؤلاء المحاورين دليلاً ماديًا على مايختلفون عليه، فأخذ يتحدث فى عبارات عربية إنجليزية مكرراً قوله .. «لما كنت فى إنجلترا» كأنما يخشى أن ينسى المستمعون أنه كان هناك !! وختم الصحفى مقاله بأنه فى المصريين من سافروا فتلقوا العلم فى أوروبا ثم عادوا إلى وطنهم محتفظين بمظاهر قوميتهم فإن قلدوا غيرهم قلدوهم فى العظائم وأخذوا عنهم ما يشرفهم، ونبذوا ما يشينهم)(١٤).

وعودة إلى رأى الليبراليين ممثلاً فى طه حسين نقول بأنه كان يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن مصر تنتمى إلى الغرب لا إلى الشرق. أما المنطلق الحضارى لهذه الدعوة فيتلخص فى الفرضية القائلة بأن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط(١٥). وعليه فالعقل المصرى- عبر هذه الرابطة المتوسطية- عقل أوربي غربى يشارك أوروبا جذورها الحضارية منذ اليونان والرومان (١٦).

ولذلك كان طه حسين من المؤيدين لدراسة الإنسانيات الغربية، وكان فى رأيه أن دراسة أرسطو وشيشيرون تعنى إنشاء جسر جديد بين مصر والبحر والمتوسط بما يعنيه ذلك من تقوية للجسور القديمة بينهما (١٧).

وهكذا نستطيع القول بأن هؤلاء الليبراليين اتجهوا فى فترة ما بين الحربين اتجاهين: فقد توخوا من جهة خلع السيطرة السياسية الأوروبية عن بلادهم. لكنهم أقروا من جهة أخرى بتفوق المدنية الأوروبية، كما أنهم اعتقدوا بأن معونة أوروبا ضرورية لتحقيق الاستقلال (١٨).

ولأن فترة ما قبل الحرب شهدت حالة من الاضطراب فى البيئة الحضارية للأمة نتيجة وجود تيارات فكرية متباينة [١٩] فطبيعى أن نجد فريقًا مخالفًا لهذه التيارات يبدأ رحلة البحث عن الإنتماء والهوية بدلاً من التحقيق عبر المتوسط ومحاولة التطابق مع أوروبا فى الهوية، إلى مد البصر عبر سيناء نحو إنتماء العروبة والإسلام.

وكان المازنى من الداعين إلى الفكرة العربية، وعندما نشبت المعركة الشهيرة بين طه حسين وساطع الحصرى حول الفرعونية والعروبة كان توفيق الحكيم يرقب تلك المعركة ويطرح فكرة «التوفيقية بين مصر والعروبة»[٢٠].

وكانت الطبقة الوسطى الجديدة هى التى وعت الواقع بحكم موقعها الاقتصادى والثقافى، وهى التى رأت ضرورة التوفيق بين النقائض الفكرية والحضارية المتصارعة بإعتبارها فئة عربية مسلمة منغرسة الجذور فى تاريخها وعقيدتها من ناحية، وباعتبارها من ناحية أخرى طليعة اجتماعية مخلصة انفتحت على قبس من روح العصر الحديث وشعرت بوطأة الغرب الحديث وخطره وأهميته وحاجتها إليه وإعجابها العظيم بإنجازاته، كل ذلك ممتزج بكرهها الشديد له لتسلطه وغطرسته وتفوقه الذى لايحتمل .

ومن هنا كانت النبرة الحادة فى صوت هذه الطبقة ضد الاستعمار والغرب، واللهفة فى الوقت ذاته للتحضر والتحديث وربط روائع الحضارة العربية الإسلامية بمكتشفات أوربا الحديثة[٢١].

روح الشرق

ونلمح أن قضية الاهتمام بالروحانيات، من صفات الشرق، كانت من القضايا التى تناولها الكتاب فى تلك الفترة، ففى كتاب «الشرق والغرب» كتب أحمد أمين بأن الغرب يأخذ بالسببية ولايعنى بخبرات هذا العالم وأن روحه علمية وتفكيره فى الشئون الاقتصادية تفكير عقلى فى حين أن الشرق لايفتقر إلا إلى اقتباس روح الغرب العلمية ويعطى العالم ما عنده من «روحانيات وأديان وتأملات» [٢٢].

أما العقاد فأحتج بأن الأوربيين «قد خدعونا ، فصدقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حس، وإننا أهل روح ولسنا أهل مادة ». ويرى العقاد أن الأمة كلها من أوربا نفسها، فقبل اتصال أوربا بالشرق لم يقل أحد إن الشرقيين أهل أحلام وخيالات وإنهم من رجال العاطفة وغيرهم من رجال العقل والواقع [٢٣].

ولايعنى هذا أن العقاد كان يرفض اهتمامنا بالشعر والأدب. فعندما نشر «أحمد الصاوى» مقالاً فى الأهرام يناشد الشباب المصرى على هجرة الأدب والشعر والانصراف إلى العلم والاختراع ، وختم مقاله بقوله «أسكتى إذن يا آلهة الشعر، لقد ذهب أوانك وتلاشى سلطانك وأخرجى أيتها الأرض شباباً واقعياً قوياً يفل الحديد بالحديد والنار بالنار لا بالقصائد والأشعار[٢٤]. عندئذ احتج العقاد على ذلك، واشترك فى الرأى مع الزيات فى رفض العلم المجرد والمدنية القاسية التى لاروح فيها ولا مبدأ . حيث أنه لابد للفكر أن يكون له نصيب من الروح كما أن له نصيبه من المادة[٢٥].

سنوات التكوين

وإذا كانت تلك هى فكرة كبار مصر ومثقفيها فى تلك الآونة ، فماذا عن فتية مصر وشبابها فى تلك الفترة ؟! إننا يمكن أن نجد فى ذكرياتهم وماضيهم نفس الإعجاب والانبهار الواعى أيضًا ، ولكن بروح شابة فتية ... وإذا كان المبعوثون والكتاب قد سجلوا آراءهم وفقًا لما شاهدوه فى سفراتهم ، فالشباب شاهد أوربا أولاً من خلال الكتب والروايات. يقول «لويس عوض» : أنا كنت عارفًا لندن قبل ما أسافر من مصر، بس عن طريق الكتب والروايات ، كنت أرسم فى خيالى خرائط لوستمنستر وبيكاديللى».

«لما كنت فى ثانوى كان فيه مجلات مصرية تسأل : إذا كنت ولدت فى غير القرن العشرين متى تحب أن تولد ؟! كنت أفكر أن أعيش فى عصر الثورة الفرنسية عشان أقرأ روسو وأكتب بنفسى على حيطان التويلرى بالطباشير (الحرية والإخاء والمساواة) »[٢٦]. وبعد ما أتيحت لكاتب هذه السطور زيارة الأماكن التى قرأ عنها سجل مشاهداته فكتب عن كمبريدج : «شفتها زى ما تصورت مش فى التفاصيل؛ لكن فى الجو والأبعاد والظل والألوان .. فيه حاجات كثيرة فى كامبريدج تخليها قرية من قرى العصور الوسطى».

إقرأ شعر «توماس جراى «تلاقى فيه أوصاف كثيرة تنطبق على كمبردج»

وعن زيارته لكنيسة الملك كتب : «دخلت كنيسة الملك عشان أدرس العمارة القوطية.. أشوف الكنيسة طويلة قوى وعالية قوى، تملأنى الرهبة، ولو كان السقف سانداه عواميد كان تحول إلى سقف معبد وثنى لإله خلقه ضيق يحب الانتقام ، لكن الفراغ الكامل بين الحيطان والسقف أكدوا فى نفسى الخشوع .. حيث إزاى الفن القوطى العمودى فن مسيحى»[٢٧].

ومع انبهار الكاتب بما شاهده لم يخف استياءه من فكرة الناس فى أوربا عن مصر حيث كانت فكرة كثيرين منهم «أنها صحراء واسعة سخنة ومغروز فى وسطها هرم ونخل» [٢٨].

«فنظرة هؤلاء الشباب للقاهرة كانت مليئة بالإعجاب فقد كتب عبدالله عنان يصفها قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بأن العهد بلغت فيه قمة البهاء والعمران فقد كانت يومئذ مدينة عظيمة- جميلة نظيفة تغطى شوارعها الكبرى المحلات الكبرى والمقاهى الأرستقراطية والمسارح التى تعرض أحدث الأعمال الأوربية»[٢٩].

وكان لعنان اهتماماته فى مختلف المكتبات الأوربية مثل مكتبة الفاتيكان بروما والمتحف البريطانى ومكتبة أكسفورد بانجلترا ومكتبة باريس الوطنية ومكتبة فينيا الوطنية- ومكتبة ليدن الهولندية[٣٠].

ولأن تخصصه الأول كان فى الدراسات الأندلسية فقد سجل إعجابه بمكتبة قصر الأسكوريال الشهيرة التى تتضمن مخطوطات أندلسية ومغربية بالإضافة إلى إعجابه بالشعب الأسبانى وكتابه ومفكريه الذين يروج إنتاجهم فى أسبانيا وأمريكا اللاتينية[٣١].

ومثل الاهتمام والقراءة باللغات الأجنبية جانبا مهما من تكوين الشباب بإتقان اللغة الإنجليزية راجع إلى رأى كتبه محمد حسين هيكل فى إحدى مقالاته بأن الأديب العربى لايمكن أن يستغنى عن القراءة بلغة أجنبية واحدة على الأقل[٣٢].

أما سهير القلماوى فرأت أن القراءة باللغة الإنجليزية فتحت أمامها أبواب الثقافة العالمية على مصاريعها، ساعدت على إنعاش ثقافتها القومية وتفتحها على أفاق بعيدة [٣٣].

وسجل مصطفى سويف انبهاره بالأدب الإنجليزى وخصوصاً أدب أوسكار وايلد[٣٤].

بين الأصالة والانبهار

ولقد شهدت تلك الفترة تيارات فكرية متناثرة سياسية واجتماعية ودينية، بعضها يمثل منظمات وقوى سياسية واجتماعية وبعضها يمثل اتجاهات فردية فى الإطار العام لحركة الفكر المصرى[٣٥].

فكان للتيار الإسلامى رأى فى تلقى العلم من الغرب؛ فكتب أحد أقطابه . «إن الإسلام يتسامح فى أن يتلقى من غير المسلم فى علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب أو الصناعة أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية وأمثالها.. ولكنه لايتسامح فى أن يتلقى

أصول عقيدته ولانظام حكمه ولاموحيات فنه وأدبه من مصادر غير إسلامية». وفى الوقت نفسه يصف سيد قطب الحضارة الغربية «بجاهلية العصر الحديث» ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربى وعلى نتاجه كذلك فى الدراسات الإسلامية. و«من ثم تجب الحيطة كذلك فى أثناء دراسة العلوم البحتة التى لابد لنا فى موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية من أية ظلال فلسفية تتعلق بها»[٣٦]. وفى ذلك تأكيد من أصحاب هذا الفكر على ضرورة النقل من الغرب مع توخى الحذر خلال ذلك.

وإذا كنا قد عرضنا لموقف تيار آخر تجاه حضارة أوربا فقد كان هناك دلائل على محاولات التوفيق بين المقتبس والموروث، فقد كتب البشرى فى مذكراته عن ثقافة المدنية الحديثة، التى وجدها فى النخب الاجتماعية الجديدة وأساليبها الحديثة فى نشر الثقافة والمعارف والصحافة، وما تنقله من صور المجتمع الغربى والإذاعة ونغمات الموسيقى الأوربية والمسرح وتراجم الأدب الأوربى[٣٧]. وفى الوقت ذاته رأى أن أجل ما كان له فى جيل المطربشين أنهم رغم شعورهم بالتفوق على ذوى العمائم فى حاضرهم ومستقبلهم ورغم ما أندس إليهم من وجوه الانبهار بحاضر أوربا، ذلك الانبهار الذى يميل بالمبهور إلى التقليد ويضعف لديه المقدرة على التوازن فى الاختيار، رغم كل ذلك فقد كان موصول العروق بالرؤوس المعممة مقراً ومعتزاً ببنوته لهؤلاء[٣٨].

وقد وضحت مسألة الصراع بين الارتماء فى أحضان الغرب أو العودة إلى التراث والكلاسيكيات حتى فى كتابات الروائيين ففى رواية «قنديل أم هاشم» عرض «يحيى حقى» مسألة الاختيار، فالبطل القادم من دراسته فى أوربا يعود إلى احترام المقدسات بعد أن كان رافضًا لها . وسلط حقى بذلك الضوء على الصراع الذى يعانيه شعب بأسره فى الاختيار بين الكفاءة التى يستحضرها من مصدر غريب عن كيانه وبين الأصالة التى لا توجد إلا فى هذا الكيان[٣٩].

الحرب :

وفى الوقت الذى انشغل الكتاب المثقفون بما يجب أن تكون عليه علاقة مصر بحضارة أوربا وعلمها ، كانت الأزمة الدولية على أشدها، وكان شبح الحرب يبدو قويًا فى الأفق، وبدت القارة الأوربية فى أوضاعها السياسية والعسكرية الجديدة بنفس الصورة التى كانت تظهر بها

قبل نشوب الحرب الأولى فقد ظهرت فى تلك الفترة كتلتان من الدول الأوربية : كتلة الدكتاتورية ممثلة فى محور برلين- روما ، وكتلة الدول الديمقراطية ممثلة فى محور لندن- باريس الأولى ليست فى الواقع إلا صورة جديدة للتحالف الثلاثى الذى عقد فى أواخر القرن التاسع عشر بين ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا. والكتلة الثانية وهى محور لندن- باريس ليست إلا امتدادا وتجديداً للوفاق الودى الشهير الذى عقد بين انجلترا وفرنسا ١٩٠٤، وكان أساسًا لتحالف الدولتين فى الحرب العالمية الأولى(٤٠).

وكان موقف مصر الدولى غير واضح من الحرب والأطراف المتصارعة فيها فى البداية. كان موقف مصر غاية فى الدقة والحساسية ، فالذين يقولون بأن مصر ليس لديها ما تكسبه بل لديها كل ما تفقده بسبب ذلك، كانت رغبة مصر فى التعاون مع بريطانيا تعلو وتنخفض حسب سير معارك الحرب نفسها (٤١). وأصبحت انتصارات الألمان فى الميادين المختلفة تشعر مصر بأن اشتراكها فى الحرب إلى جانب الإنجليز مراهنة على الجواد الخاسر، لذا أصبح مبدأ «تجنيب مصر ويلات الحرب» هو المبدأ المسيطر على السياسة المصرية خلال الحرب. ويكفى ما تقوم به قوات بريطانيا فى صحراء مصر وفى منطقة القناة بالإضافة إلى المساعدات التموينية، فكل ذلك يكفل لمصر أن تكون لها مطالبها فى أعقاب الحرب(٤٢).

وهكذا أخذت الحرب العالمية الثانية تضغط بظلها الثقيل على البلاد وأعلنت الأحكام العرفية، وفرضت الرقابة على الصحف وأخذت أنوار السلام تنطفىء حتى عم الظلام العالم كله.

ويصف محمد ذكى عبد القادر شعوره بقوله :

«خيل لى أننى وقد بدأت استقر فى حياتى بعض الشىء ، بدأت أنعم بهدوء الخاطر، أمارس عملى فى استمتاع ، وأبنى حياتى فى سلام كأن الحرب قد جاءت لتفسد كل ما غزلت.. كأنها جاءت من أجلى أنا وحدى».

ولاشك فى أن جانبًا كبيراً من الخوف لم يكن شخصيًا بقدر ما كان تمرداً على واقع تعيشه البلاد تحت الاحتلال حيث تساءل الكاتب «ما ذنبنا نحن حيث نعيش؟ ألمانيا وفرنسا بينهما ثأر قديم ، وبريطانيا دولة ذات امبراطورية تريد أن تحافظ عليها ، وما لنا نحن ؟!! ولكننا حلفاء بريطانيا .. حلفاء بالنبوت. وهكذا حظ الضعفاء من الشعوب»(٤٣).

ويمضى الكاتب يصف فى حسرة وألم كيف امتلأت القاهرة بالجنود البريطانيين والاستراليين وغيرهم، وصارت الأضواء مغطاة باللون الأزرق الكثيب بالمقاهى والمحال العامة التى كانت تتلألأ بالأضواء أصبحت كئيبة، وانطوت المدينة الساهرة الفاتنة على نفسها، اجترت أحزانها فى داخل قلبها وطوت صدرها على مآذنها وقبابها وكفائها وأثارها ومفاخرها، تريد أن تزود عنها الشر النازل من السماء(٤٤).

إذا انتقلنا إلى كاتب آخر هو الدكتور محمد حسين هيكل نجده لم يشغل نفسه بنشاط سياسى يذكر لعدة شهور بعد إعلان الحرب، حتى فكر فى العودة إلى الكتابة والاهتمام بكتابى «حياة محمد» و«فى منزل الوحي» ، وقراءة المصادر العربية والأجنبية .. ويقول هيكل: أن جو الحرب العالمية الذى أحاط به فى أثناء هذه القراءة كان له أثره فى معاونته على الاندماج فى العمل حتى شعر أن يعيش فى ذلك الصدر الأول للإسلام يجاهد مع المجاهدين ويغزو مع الغزاة الفاتحين (٤٥).

وقبل أن تجذبنا أحاديث الحرب التى لانهاية لها فى تلك الفترة أود أن أرصد صدى إعلان الحرب على اثنين من شباب المثقفين فى تلك الفترة نقلا عن مذكراتهم .. فيقول أنور عبد الملك: «بداية الحرب العالمية، الظلام يسود القاهرة والإسكندرية، بدأت ألتهم الكتب السياسية والفلسفية . كما فعل على ما اعتقد معظم الجيل الذى كان على موعد مع القدر، كان التساؤل هو : ما العمل ؟ كيف يمكن الإفادة من صراع الدول الكبرى لزعزعة قبضة الاستعمار البريطانى الحديدية على أرضنا والقضاء على الاحتلال. ثم ما معنى التحرير أو الاستقلال الحقيقى؟!!(٤٦).

أما طارق البشرى فكتب عن مصر والحرب هذه «إنها نقطة تقاطع المكان والزمان مع بداية إدراك الصبى بجماعته وأمته لم تكن مصر فى هذه الأيام محتلة فقط بمثل ما عرفت من قبل لأن الاحتلال كان فى هذا الوقت فى أشد حالات الحركة وكان ذا وجود كثيف وحركته تضاعف من كثافته . وشارك الإنجليز فى الاحتلال أصناف وألوان من جند الحلفاء من الأمريكيين والهنود الأفارقة»(٤٧).

وبدأ الوجود الاستعمارى بصورته الغليظة أمام العيان بغير غطاء وبغير تجمل وظهرت شخصيتان عظيمتان فى الوعى الاجتماعى: شخصية « غنى الحرب» بجهله وفظاظته وسوقيته وشخصية «أرتست الحرب» بإباحيتها وكل منها ثمرة وجود أجنبى بغيض وثمرة حرب لا ناقة لنا فيها وجمل»(٤٨).

وقد بدأ تأثير الحرب سريعًا وواضحًا فى كافة جوانب الحياة، فها هو أحمد حسن الزيات يشعر بقسوة الحرب على الصحافة وقطع الوارد عنها من الورق والحبر وأدوات الطباعة بالإضافة إلى صعوبة نقل الصحف . كما أن «الناس شغلوا بأخبار الحرب وأطوارها عن النظر فى الأدب / للباب والفن الخالص، فلم يقرأوا إلا ما يتصل من قريب أو بعيد بهذه القيامة القائمة»(٤٩).

وأطلقت الحرب العنان لخيالات الكتاب لتأملها ودراستها. فعندما قال بعضهم بأن عدوى الحرب انتقلت للبشر من الحيوان ؟! تساءل العقاد: «أين هو الحيوان الذى يحشد الأسراب والقطعان لقتال سرب أو قطيع من جنسه ؟ بل أين هو الوحش الذى يجمع أبناء جنسه لقتال جنس آخر من الوحش فى الغاب ؟!! فالحرب كما نعلمها فى ميادينها البشرية إنما هى خاصة من خواص أبناء آدم !! هم دون غيرهم من الخلائق الحية يجمعون بعضهم لقتال بعض ويخرجون على نية القتال»(٥٠).

أما المازنى فقد كتب عما ذكرته الصحف البريطانية عن الجديد فى هندسة البناء نتيجة للحرب من حيث إقامة مبانى ذات طبقات ممتدة فى جوف الأرض يلجأ إليها الناس ويحتمون بها من الغارات الجوية، وتساءل المازنى : «أترى سيعود الإنسان إلى حياة الكهوف ؟! كيف تكون الحياة فى المستقبل البعيد، إذا بقيت الحروب تدور بين جماعات الإنسان ؟ أحسب أن اندساس الإنسان فى جوف الأرض سيكون بداية انحطاطه . فما أغرب أن يكون رقيه العلمى مفضيًا إلى انحداره وهويه ؟ وتلك جناية استخدام العلم فى الحرب»(٥١).

وكان الزيات أيضًا ممن أزعجتهم سطوة الآلة وسرعتها ، فقد تعجب من إعجاب الناس من السرعة الخاطفة عبقرية العصر ومزيته !! فقد رأى أن هذه السرعة ليست عبقرية ولا مزية وإنما هى مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة : «فالحرب الحديثة لاتعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح وانما تعتمد على سرعة الدواليب فى الطائرة والسيارة والدبابة والغواصة ، فأصبح الفرق بين الآلة والسيف فى حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل فى حصد الحنطة » (٥٢).

ويبدو أن غضبة الزيات على العلم كانت من القوة بحيث دعت العقاد إلى مهاجمة العلم هو الآخر وتمنى لو أن العالم «كر إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان »،ومدنية القلب واللسان، لينجو هذا العالم الذى يدمر ما يعمر، ويخلص من هذه الحضارة التى تأكل

ما تلد ». وإن لم يكن العلم هو المسئول الأول عما يحدث : «فلو كر العالم إلى عصر الجمل والحصان وحرب السيف والسنان لما رضى الزيات، لأن هولاكو وتيمور قد صنعا بالحصان والسنان ما لم يصنع قادة هذا الزمان . . فأين يذهب العلم المسكين مع الإنسان»[٥٣].

المحور .. أما الحلفاء؟!

وكان طبيعيًا أن يناقش هؤلاء الكتاب المثقفون مبادىء الأطراف المتصارعة فى محاولة لفهم تداعيات هذه الحرب واستقراء نتائجها .. ففى مقال للدكتور جواد على أوضح فيه الأفكار والمبادىء الهتلرية التى تقول بأن اقتصاديات الشعب مرتبطة بقوة وسلامة العنصرية فيه، وبما أن لكل شعب فكر خاص وعقلية تميزه عن الشعوب الأخرى فاقتصاديات كل أمة ونظمها التجارية يجب أن تكون وفق نظمها وقواعدها السياسية والاجتماعية والتاريخية .

كما أوضح أن فقر ألمانيا فى المواد الأولية يدعوها إلى إيجاد مصادر لها فى الخارج وهى المستعمرات ، حيث قسمت ألمانيا مبدئيًا العالم إلى قسمين : أمم متحضرة مستهلكة ومصدرة وأمم كتب عليها أن تشتغل لتزويد هذه البلاد المختارة ؟[٥٤].

وعلق العقاد على ما نشره جواد على من آراء للنازية وخصوصًا الرأى القائل «بأن الهتلرية ترى أن خير حل لمشكلة العمل والعمال هو الاعتراف بمبدأ الملكية الشخصية ورأس المال، ولكنها ترى أن صاحب المال أو العمل من جهة أخرى هو مدير لماله أو لمعمله، أو قائد يتصرف به وفق الأنظمة والقوانين ، وكل من يحاول استغلال ماله عن طريق يخالف مبادىء النازية نصيبه العقاب الصارم أو الإعدام».

فيرى العقاد أن ماذكر هو حبر على ورق ؛ لا أثر له فى عالم الواقع. فهناك ألوف العمال الذين قتلوا بمحاكمة أو بغير محاكمة أو الذين أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال أو حرموا العمل فى أنحاء البلاد كافة لأنهم يطالبون أصحاب المصانع والشركات بحقوقهم. بينما لم يحدث أن قتل صاحب مصنع واحد أو قتل أو أرسل إلى معسكرات الاعتقال أو أغلق مصنعه لأنه ظلم العمال أو حرمهم حصتهم من الربح والأجر المعقول[٥٥].

وكان لعرض كتاب عبدالرحمن بدوى عن الفيلسوف الألمانى «نيتشه» صداه لدى القراء الذين كانوا مهيئين نفسيًا لرفض التعاليم النازية وقسوتها. فالحرب التى تلقى بظلالها القائمة عليهم هى عقيدة النازية التى تدعو الأمم للتنكر للسلام وعدم التجهم للحرب (فالسلام يقتل

حيوية الأمم المترفة المستسلمة.. فألمانيا تبتغى تقسيم العالم من جديد ، والشعب الألمانى خلق للسيادة فلابد أن يبسط سلطانه على العالم ليهيىء حضارة أعلى. وفى سبيل فرض السيادة على الدنيا لابد لألمانيا من التسلط على المستعمرات والطرق الرئيسية للبحار، وبالاطلاع على مبادىء نيتشة فى القيم الأخلاقية لانستطيع أن ندهش لتصرفات الألمان فى أى بلد اجتاحوه. فعند نيتشه الضعيف يسمى العجز «إحساسًا» ويسمى عدم القدرة على الانتقام «صبراً» ويسمى عجزه «تواضعًا» . فأما الأقوياء فيسمون الأشياء بأسمائها ولايبتغون إلا الظفر وتحطيم كل من يقف فى سبيل تحقيق مثلهم السامية فى الحياة، غير حافلين بدموع تسكب أو دماء تسفك ، لأن قلوبهم الصخرية وعواطفهم المتحجرة تملأها المطامع والغايات[٥٦].

وكان ادعاء ألمانيا النازية التى أشعلت الحرب بأن غايتها من الحرب هو تحرير الشعوب وإقامة العدل بين الناس مبالغة دعت الكثيرين إلى رفض تصديقها تمامًا[٥٧].

وكان الزيات من الرافضين لخداع دول المحور فقد رأى فى الإخلاص الإيطالى للإسلام والعطف الألمانى على العرب دعاية مموجة رغم أن هناك بعض المخدوعين صدقوها فرددوا مقولة خاطئة بأن فيالق الدوتشي وكتائب الفوهرر لم تحشد فى صحراء مصر وجبال البلقان ، إلا لتنقذ العرب والمسلمين من عذاب الديمقراطية البريطانية [٥٨].

واقترن رفضه لدول المحور بإعجاب شديد بالتجربة البريطانية فى الحرب «فعندما وقعت انجلترا بسطوتها وقوتها فى مواجهة القوة الهتلرية وانهارت حليفتها (فرنسا) فى الحرب، طورت من جيشها وأسطولها بحيث استطاعت فى أقل من خمسة أشهر أن تفسد على هتلر خطة الغزو التى أعدها »[٥٩].

وترتفع نبرة الانبهار ببريطانيا فى قوله : إن الله أمد الإنجليز بجيوش لاتقهر من الصبر والثقة بالنفس والإيمان بالله والحرية والديمقراطية ، فياليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع، حالفناهم كذلك على الآداب والخلق . لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء فأصبحنا وآسفاه بضلالات الأذهان عبرة للضعفاء»[٦٠].

نتاج الحرب!

ولقد وجدت الحرب من يدافع عنها أيضًا فخشونة الحرب وقسوتها كان لها تأثيرها الإيجابى على الشعوب، وكما يرى كاتب هذا المقال أن ألمانيا ألقت بسلاحها ١٩١٩ فشرطت عليها شروط وفرضت عليها الغرامات وأرادت أن تدفع عنها هذا الإجحاف فلم يسعفها إلا قانون الخشونة فلجأت إليه وفرضته على الناس فرضًا، فشاع مبدأ: المدفع قبل الزبد. وبدأت مرحلة التسلح وإنماء قوة ألمانيا .

أما فرنسا فلم توفق إلى ما وفقت إليه ألمانيا فى الاستعداد لهذه الحرب والأخذ بالخشونة، فسلمت فى أولى مراحلها . أما إنجلترا التى تمتعت بثمار انتصارها فى الحرب الأولى فقد تباطأت لذلك فى الاستعداد عن ألمانيا، ولكنها سارعت إلى اللحاق بركب التسلح فلما وقع حمل الحرب على كاهلها وحدها لم تنؤ به ووجدت فيها ألمانيا خصمًا يساجلها ثباتًا بثبات ومقاومة بمقاومة[٦١] .

ورغم إعجاب الكاتب بقانون الخشونة فإن الحرب دفعته إلى التأمل والتساؤل: «أخير هذه الحرب أم شر؟ فالشعوب التى كانت حرة استعبدت ، ومن هذه الشعوب شعوبًا كان فى إطلاق حريتها مجال فسيح لابتكار ما يفيد المدنية، فإذا علم المتحاربون ما فى قانون القوة من قدرة على احترام الحرب وسعوا للتخلص منه، كانت هذه الحرب التى أثمرت هذه الثمرة بركة على الناس: فربما خسر قانون القوة بعض الأنصار وكسب قانون العدل أنصاراً جدداً .. وخطونا خطوة فى سبيل السلام»[٦٢].

ووافق «سيد قطب» «محمد عرفة» فى رأيه فلم يقل بأن للحرب والخشونة إيجابيات بل قال بأن للسلم ويلات، ربما فاقت ويلات الحرب، بل هى تفوقها بالتأكيد . ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقًا لسموم السلام. «فنجد فرنسا بعد الهزيمة وهى أشد حيوية وأكثر يقظة وأخذ كل فريق فيها يعمل لفرنسا وحدها لا لنفسه أو لحزبه ، أما ألمانيا فقد صنعت عام ١٩١٩ ما تصنعه فرنسا اليوم فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة ، ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس (هتلر) لانتفع بها العالم فى التعمير بدل التخريب. أما فى مصر ففيها من ويلات السلم مالايتصوره عقل . وفيها مشاحنات ومنازعات وفحش من الفقر والغنى .. ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيص والدعة المريضة والأمان التافة»[٦٣].

غير أن قطب وصل حد المبالغة فى القسوة مع نفسه ومع بلاده فيقول : «علم الله لقد كانت أكبر أمنيـة لى أن أعيش حتى أرى مصر تخوص معركة واحدة تظهرها كما تظهر النار الخبث وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة... اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركانًا ثائراً أو زلزالاً محطمًا أو كارثة من كوارثك الرحيمة التى تنقذ بها عبدك من نعومة الأمن وويلات السلام»(٦٤).

حتمية المكان :

وكان للجغرافيين أيضًا تأملاتهم ودراستهم للحرب باعتبارها مظهراً من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض وبالتالى يمكن دراستها من جوانب متعددة فيدرسها علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة وحتى علماء النفس من حيث سلوك الأفراد والأمم .

أما علماء الجغرافيا فعليهم دراستها على أساس أن الإنسان لايحارب فى الفضاء وإنما يحارب فى (المكان). وظروف هذا المكان كثيراً ما تحدد نجاح المحارب ، إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها .

ولذا نجد الجغرافى القدير سليمان حزين يكتب عدة دراسات عن أهمية موقع مصر فى الحروب العالمية (٦٥). فيستعرض الحروب التى مرت بها مصر عبر تاريخها الطويل منذ حروب الإسكندر الأكبر مروراً بالحروب الصليبية ثم العصر الحديث وحملة نابليون التى نبهت الأذهان فى تلك المرحلة الحرجة إلى أهمية موقع مصر . وخرج «حزين» من الدراسة بحقيقة تختص بمصر وموقعها الجغرافى تقول بأن لم تحدث حرب عالمية بالمعنى الكامل الصحيح لهذه الكلمة ومنذ فتح الاسكندر باب هذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفًا فيها ولم تستطع مصر بموقعها الجغرافى الفذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تجنب نفسها مثل هذه الحروب التى دفعت إليها دفعًا أو انساقت إليها انسياقًا (٦٦).

ورأى حزين أنه مهما قيل فى أسباب الحرب العالمية الثانية، فقد كان الغرض الأول منها هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم فى مصائر الأمم، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق. ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط، لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم بابًا ينفذ منه الغرب إلى الشرق، وجسراً تمتد من فوقه قنوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطمعًا للطامعين(٦٧). وهكذا نجد أن لهيب الحرب قد امتد إلى مصر والشرق الأوسط أكثر من أى جهة أخرى، وكان ذلك أمراً طبيعيًا .

وإذا نحن راعينا كثرة مداخل الإقليم وأهميته الفريدة فى صلات الغرب والشرق، فإنه كان طبيعيًا أيضا أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما يزيد عن تأثر غيره من أقاليم الأرض وشعوبها، فقد أطعمت الحرب الظافرين فى هذا الأقليم ومراكزه العسكرية وموارده الكثيرة. وهكذا لم تكن تلك الحرب الجبابرة وحدهم وإنما شارك فيها واكتوى بنارها الشرق الأوسط، وأممه وكانت مشاركتهم بمواردهم وأرزاقهم وأرواحهم[٦٨].

وأعقاب الحرب:

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بدأت كتابات المثقفين تتناول قضايا جديدة تتعلق بآثار ونتائج الحرب عالميًا وموقع مصر من هذه النتائج.

فكانت خسارة ألمانيا فى الحرب الثانية تطرح فكرة أن الهزيمة العسكرية وحدها لاتكفى لانتزاع فلسفة القوة من عقلية الشعب الألمانى، بل قد تغدو الهزيمة ذاتها عاملاً فى إذكاء هذه الروح العنيفة، كما حدث عقب الحرب الأولى حيث أصبحت الهزيمة مبعثا لفورة جديدة من القوة وشهوة الانتقام والسيادة[٧٠].

لذا كانت دعوة الحلفاء لاتخاذ إجراءات نزع سلاح ألمانيا وتدمير قواها العسكرية ومواردها الاقتصادية.

وكان العامل الاقتصادى واضحا منذ بداية الحرب التى لم تعد حرب مواقع عسكرية صحيحة، بل هى حرب اقتصادية فقد كانت ألمانيا بموقعها الجغرافى وظروفها الاقتصادية وضعف مواردها الأولية فى مركز أضعف من انجلترا وفرنسا اللتين كانتا تسيطران على مستعمرات واسعة [٧١]. ولذا دخلت الحرب فى محاولة لشق طريقها إلى مغانم الاستعمار وتحقيق التفوق الاقتصادى [٧٢].

وقام الحصار الذى ضربه الحلفاء حول ألمانيا خلال الحرب دليلاً على ذلك فقد استطاع هذا الحصار الخفى أن يمنع عن ألمانيا المؤن والأطعمة والزيت والمعادن الواردة من وراء البحار[٧٣] غير أن الحياة الاقتصادية لم تتصدع فى ألمانيا وحدها، بل فى كافة أنحاء أوربا، الأمر الذى يدعو إلى تعمير أوربا ثانية عن طريق نزع سلاح ألمانيا نزعًا دائمًا وبذل عون لدول أوربا لتعزيز قدرتها الصناعية مما يرفع من مستوى معيشتها حتى لايكون الفقر والعوز فيها تربة تنبت فيها بذور الحرب مرة أخرى[٧٣].

نحو نظام عالمى جديد:

كان الجميع يحلمون طوال أيام الحرب بعالم جديد تسود فيه العدالة الاجتماعية فى كل أمة. ولعل الهفوة الأولى التى ارتكبتها أوربا بعد الحرب الأولى هى معاهدة فرساى التى فشلت فى تقليم أظافر ألمانيا وفى وضع أساس نظام عالمى جديد[٧٥].

وأصبحت ضرورة إيجاد عصبة جديدة للأمم هى محور كتابات الصحفيين والمثقفين فى أعقاب الحرب، على اعتبار أن المشاكل لاتحل والعالم لايهدأ حتى تتغير عقلية الشعوب الكبيرة وعلى الأخص قادتها [٧٦].

واتسمت الكتابات عن النظام العالمى الجديد بمقارنته مع عصبة الأمم خوفًا من أن تكون هيئة الأمم المتحدة هى عصبة الأمم القديمة متشحة فى ثوب جديد.

وحذر «عبدالله عنان» من كون نظام العصبة الجديدة يحتكم إلى قوة عسكرية لتنفيذ قراراتها حين ترى تنفيذها بالقوة القاهرة، فإذا كان هذا الأمر يبدو من بعض الوجوه ميزة عملية فإن من جهة أخرى قد يغدو خطراً إذا أسىء استعمال هذه القوة[٧٧].

وأضاف بأن تبادر هيئة الأمم المتحدة إلى تقديم الأدلة العملية على أنها قامت لتحقيق العدالة الدولية بين سائر الأمم كبيرها وصغيرها، فإذا لم تشعر الأمم الصغرى بالطمأنينة على استقلالها وحريتها فى ظل هذا الصرح الدولى الجديد، فقدت الأمم المتحدة تأييد الشعوب وثقتها بسرعة وكان مصيرها المحتوم ما صرت إليه عصبة الأمم القديمة[٧٨].

وبذات الفكر تابع «محمود عزمى» أعمال المجالس واللجان فى الأمم المتحدة وأعلن عن خشيته أن تكون الليلة شبيهة بالبارحة ، أى أن الأمم المتحدة لايميزها عن عصبة الأمم إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية، أما الرغبة فى سيطرة «العظيمات» على «الصغيرات» فواحدة[٧٩] .

غير أن الكاتب شعر ببادرة تفاؤل نظراً للعلنية التى تمتاز بها الأمم المتحدة ، والتى كان من شأنها أن تجعل مناقشاتها فى متناول الساسة والعلماء والمفكرين بمجرد انعقادها ، مما يكون له أثره فى دفع هؤلاء فى مختلف البلاد فى رعاية فكرة التعاون العالمى والمشاركة فيه[٨٠].

أما الكاتب «محمد عوض محمد» فاهتم فى مقاله بدراسة نتائج الاستعمار الذى أشاع الفوضى والفساد فى الشئون ،العلاقات الدولية، وبعد تعريفه للانتداب وأنواعه وكيفية

تطبيقه على يد عصبة الأمم القديمة، أوضح رأيه بأن الانتداب منذ طبق لم يكن سوى ثوب جديد تسترت به الشهوة الاستعمارية «ستراً جيداً أو ستراً رديئًا» ولم يتفاءل الكاتب هو الآخر كثيراً بعد دراسته للفروق الجوهرية بين النظام العالمى الجديد وعصبة الأمم القديمة[٨١].

وبانتهاء الحرب واجهت مصر صعوبة فى استمرار علاقتها بالغرب، فإذا كان الغرب الذى اتخذت منه مصر معلمًا قد خرج من الحرب العالمية الثانية حائراً مرتبكا فاقداً للثقة فى نفسه، فكيف يمكن لهم أن يظلوا من أتباعه؟!!.

وكما رأينا أصبح البحث عن حلول لمشاكل أوربا والعالم قضية أساسية فى كتابات المثقفين المصريين، وفقدت أوربا هيبتها السابقة، وأصبحت كلمة «الجلاء» فى أعقاب الحرب تعنى الرغبة الحقيقة فى التخلص من التبعية السياسية والثقافية لعالم لم يعد مبهراً كما كان.

الحواشى

١- عزت قرنى : فى الفكر المصرى الحديث - محاولات فى إعادة التفسير القاهرة ١٩٩٥، ص١٦١ .

٢- دار الهلال : التكوين .. حياة المفكرين والأدباء بأقلامهم - القاهرة ١٩٩٨، ص٣١٦ .

٣- عزت قرنى : نفس المرجع ص١٦٢ .

٤- نفسه ص١٦٤ .

٥- لمزيد من التفصيل عن البعثات فى عصر محمد على، انظر : أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على- القاهرة١٩٣٨ . وأيضًا : جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ١٩٥١ .

٦- جاك بيرك : مصر . الأمبرالية والثورة . ترجمة : يونس شاهين القاهرة ١٩٨٧ ، ص٣٦٤ .

٧- ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ بيروت ١٩٦٨ ، ص٢١٣ .

٨- عزت قرنى: نفس المرجع ص١٨٥ .

٩- محمد جابر الأنصارى: تحولات فى الفكر والسياسة فى الشرق العربى (١٩٣٠-١٩٧٠) الكويت، ١٩٨٠، ص٩٥ .

١٠- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٦٣ .

١١- الأنصارى : نفس المرجع ص٤٠ .

١٢- البرت حورانى : نفس المرجع ص٣٩٤ .

١٣- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٦٣ .

١٤- مقال بإمضاء (ع) وعنوانه (صنع فى إنجلترا) الرسالة : مجلة أسبوعية - العدد ٣٣٩ الأثنين أول يناير سنة ١٩٤٠ ، ص١٥ .

١٥- الأنصارى : نفس المرجع ص٩٤ .

١٦- نفسه ص٩٥ .

١٧- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٦٤ .

١٨- حورانى : نفس المرجع ص٣٨٧ .

١٩- قسطنطين زريق : الوعى القومى -نظرات فى الحياة إلقومية ١٩٤٠ ص٧٧ .

٢٠- لمزيد من التفصيل انظر محمد جابر الأنصارى ص١٤٠-١٤٩ . وأيضًا عاصم الدسوقى: مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٦ ص٣٦٣ وص٢٧١ .

٢١- الأنصارى : نفس المرجع ص١٦٣ .

٢٢- حورانى : نفس المرجع ص٣٩٤ .

٢٣- عباس محمود العقاد : لانخدع أنفسنا حتى يخدعونا - مجلة الرسالة- العدد ٣٦٧ الأثنين ١٥ يوليو ١٩٤٠ ص١١٥٠-١١٥١ .

٢٤- عباس محمود العقاد: العلم أم الأدب- الرسالة- العدد ٣٦٥- الإثنين أول يولية ١٩٤٠ ص١٠٩ .

٢٥- أحمد حسن الزيات : من مزايا عصر السرعة- الرسالة العدد ٣٦٢ الأثنين ٧ من يولية ص٩٦٢ .

٢٦- لويس عوض: مذكرات طالب بعثة. القاهرة ١٩٦٥ ص١٢٩ / ١٣٠ .

٢٧- نفسه ص١٤٦-١٤٧ .

٢٨- نفسه ص١٥٨-١٦٠ .

٢٩- محمد عبدالله عنان : ثلثا قرن من الزمان : القاهرة - بدون تاريخ ص١١٥ / ١١٦ .

٣٠- نفسه ص١٦٥ .

٣١- نفسه ص١٤٤ .

٣٢- دار الهلال : التكوين .. شكرى عياد ص٢١ .

٣٣- نفسه ، سهير القلماوى ص٢٧٣ .

٣٤- نفسه ، مصطفى سويف ص٧١ .

٣٥- عاصم الدسوقى: نفس المرجع ص٢٦٩ .

٣٦- سيد قطب : معالم فى الطريق: دمشق ص١٧٠-١٨٥ الأنصارى: نفس المرجع ص٢٤٩-٢٥٠ .

٣٧- التكوين : طارق البشرى ص٣٦ .

٣٨- نفسه : ص٣٠ / ٣١ .

٣٩- جاك بيرك : نفس المرجع ص٣٧٢ .

٤٠- الموقف الدولى واحتمالات الحرب والسلام- مجلة الثقافة السنة الأولى- العدد ١٩ . الثلاثاء ٩ مايو ١٩٣٩ .

٤١- عاصم الدسوقى: نفس المرجع ص٣٤٣ .

٤٢- محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية - الجزء الثانى (يولية ١٩٣٧ - يولية١٩٤٥) القاهرة ، ص١٥٩ / ١٦٠ .

٤٣- محمد ذكى عبد القادر : أقدام على الطريق . القاهرة ص٣٧٣ .

٤٤- نفسه ص٣٧٤-٣٧٥ .

٤٥- محمد حسين هيكل : نفس المرجع ص١٥٩ .

٤٦- التكوين : أنور عبد الملك ص٢٨٣ .

٤٧- نفسه : طارق البشرى ص٤٠ .

٤٨- نفسه ص٤١ .

٤٩- أحمد حسن الزيات : الحرب والصحافة ، الرسالة ، العدد ٣٣٩ الأثنين أول يناير ١٩٤٠ .

٥٠- العقاد : الإنسان والحيوان والحرب الرسالة . العدد ٣٣٩ .

٥١- إبراهيم عبد القادر المازنى: الحرب ومستقبل الإنسان . الرسالة : السنة الثامنة - العدد ٣٥٠ - الإثنين ١٨ مارس سنة ١٩٤٠ ، ص٤٨٥-٤٨٦ .

٥٢- أحمد حسن الزيات : من مزايا عصر السرعة . الحرب بين أمس واليوم . الرسالة العدد ٣٦٢ : الإثنين ١٠ يونيه ١٩٤٠ ص٩٦٢ .

٥٣- عباس محمود العقاد : العلم المسكين. الرسالة العدد ٣٦٣- الأثنين ١٧ يونيه ١٩٤٠، ص١٠١٧ .

٥٤- جواد على: عقيدة النازى المالية - الرسالة. العدد ٣٥٢ الأثنين أول أبريل سنة ١٩٤٠ ص٥٧٧ / ٥٧٩ .

٥٥- عباس محمود العقاد : عقيدة النازى المالية . الرسالة . العدد ٣٥٣ الأثنين ٨ أبريل سنة ١٩٤٠ ص٦٠٣-٦٠٤ .

٥٦- عبد المجيد نافع : ألمانيا بين نيتشة وهتلر «دين القوة» الرسالة ، العدد ٣٧٥ ص٤٥،٤٨ .

٥٧- محمد عوض محمد : شئون الحرب وشئون السياسة : الثقافة العدد ٣٢٠ - الثلاثاء ١٣ فبراير ١٩٤٥ ص١٦٦ .

٥٨- أحمد حسن الزيات: أمة التوحيد تتحد، الرسالة العدد ٣٨٤ الإثنين ١١ نوفمبر ١٩٤٠ ص١٦٧٤ .

٥٩- الزيات : : إنجلترا هي المثل . الرسالة العدد ٣٨٦ الأثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠ ص١٧٣٠ .

٦٠- نفسه ص١٧٣١ .

٦١- محمد عرفة : خواطر فى الحرب. الرسالة . العدد ٣٨٦ الإثنين ١٦ سبتمبر ص١٤٥٥٠ .

٦٢- محمد عرفة : خواطر فى الحرب . الرسالة . العدد ٣٧٧ الأثنين ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠ ص١٤٨٢ .

٦٣- سيد قطب : ويلات السلم : الرسالة ، العدد ٣٩٤ الإثنين ٢٠ يناير ١٩٤١ ص٦٨ / ٦٩ .

٦٤- سيد قطب : نفس المرجع ص٧٠ .

٦٥- سليمان حزين : بين الحرب والجغرافيا - الحروب العالمية وموقع مصر . الكاتب المصرى . العدد السابع أبريل ١٩٤٦ ص٤١٤ .

٦٦- سليمان حزين : نفس المرجع ص٤١٩ / ٤٢٤ .

٦٧- سليمان حزين: الشرق الأوسط والحرب- الكاتب المصرى العدد الثامن مايو ١٩٤٦ص٥٨٦-٥٩٠ .

٦٨- سليمان حزين : نفس المرجع ص٥٩٠-٥٩٢ .

٦٩- محمد عبدالله عنان : نهاية المانيا النازية والمعضلة الألمانية الحقيقية «الثقافة العدد ٣٣١-- الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥ ص٤٧٤ .

٧٠- نفسه ص٤٧٥ .

٧١- الصراع الاقتصادى أبرز مظاهر الحرب العالمية . الثقافة - السنة الأولى- العدد ٤٩ الثلاثاء ديسمبر ١٩٣٩ ص٢ / ٤ .

٧٢- عبدالله عنان : نهاية ألمانيا النازية- الثقافة- العدد ٣٣١ الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥ ص٤٧٤ .

٧٣- كيف حاصر الحلفاء المانيا : نقلاً عن إدارة الاقتصاد الخارجى بالولايات المتحدة- المختار- أبريل ١٩٤٥ .

٧٤- فؤاد صروف : المشكلة الاقتصادية الكبرى فى التسوية العالمية بعد الحرب- المقتطف المجلد ١٠٦- ١ مايو ١٩٤٥ ص٤٢٠-٣٢٣ .

٧٥- مقدمة لتاريخ الحرب العالمية الثانية- المقتطف أول يناير ١٩٤٠ ص٩ .

٧٦- أحمد أمين : العالم الجديد- الثقافة العدد ٣٣٨ - الثلاثاء ١٩ يونيو ١٩٤٥ ص٦٧٠ / ٦٧١ .

٧٧- عبدالله عنان : عصبة الأمم القديمة وعصبة الأمم الجديدة - الكاتب المصرى مجلد ٢ العدد ٦ مارس ١٩٤٦ ص٢٦٨-٢٧٠ .

٧٨- نفسه ص٢٧١ / ٢٧٥ .

٧٩- محمود عزمى : انطباعات من أوربا ومن هيئة الأمم المتحدة - الكاتب المصرى- المجلد الثانى- العدد ٧ أبريل ١٩٤٦ ص٣٨٩ .

٨٠- نفسه ص٣٩٠ / ٣٩١ .

٨١- محمد عوض محمد : الانتداب والوصاية والاستعمار - الكاتب المصرى المجلد الثانى العدد ٧ - أبريل ١٩٤٦ ص٤١٣ .

مصادر البحث

دوريات:

الأعداد من ديسمبر ١٩٣٩ حتى مايو ١٩٤٦ .

- الرسالة : مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون .
- الثقافة .
- الكاتبّ المصرى : مجلة أدبية شهرية .
- المختار
- المقتطف .

مراجع عربية :

- ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ - بيروت .
- جاك بيرك : مصر - الأمبريالية والثورة- ترجمة- يونس شاهين - القاهرة ١٩٨٧ .
- دار الهلال : التكوين - حياة المفكرين والأدباء بأقلامهم- القاهرة ١٩٩٨ .
- سيد قطب : معالم فى الطريق - دمشق ١٩٦٥ .
- عاصم الدسوقى: مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ - القاهرة ١٩٧٦ .
- عزت قرنى: فى الفكر المصرى الحديث- محاولات فى إعادة التفسير- القاهرة ١٩٩٥ .
- قسطنطين زريق : الوعى القومى- نظرات فى الحياة القومية- ١٩٤٠ .
- لويس عوض : مذكرات طالب بعثة- القاهرة ١٩٦٥ .
- محمد جابر الأنصارى- تحولات فى الفكر والسياسة فى الشرق العربى، ١٩٣٠ - ١٩٧٠ ، الكويت ١٩٨٠ .
- محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية- الجزء الثانى- يوليه ١٩٣٧ - يوليه ١٩٥٢ - القاهرة .
- محمد زكى عبد القادر : أقدام على الطريق - القاهرة.
- محمد عبدالله عنان: ثلثا قرن من الزمان- القاهرة بدون تاريخ .

أ.د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم *

الحملة الفرنسية على مصر حلقة فى التنافس التجـارى الدولـــى

نجحت البرتغال فى الوصول إلى رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨م والدوران حول القارة الأفريقية بهدف اكتشاف عالم البهار، وبالتالى تحويل التجارة إلى الطريق الجديد، والقضاء على طريق التجارة القديم عبر البحر المتوسط ، وكان أن أدى هذا التحول إلى الدخول فى صراع مع دولة سلاطين المماليك فى مصر حتى انتهى الصراع بهزيمة المماليك فى موقعة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩م، مما أدى إلى انهيار دولتهم لتحل محلها الدولة العثمانية التى تزعمت الدفاع عن ديار الإسلام ضد المخططات البرتغالية الحبشية لغزو الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وتدميرها .

وقد قام السلطان العثمانى سليم الأول ومن بعده ابنه سليمان بتحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية، ومنع السفن المسيحية من الدخول فيه حفاظا على المقدسات الإسلامية والعربية . ولما كان طريق التجارة القديم عبر مصر أقصر كثيرا من الطريق حول رأس الرجاء الصالح، فقد حاولت الدول الأوربية السعى لدى السلطان العثمانى لتسهيل مرور تجارتها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، ونجحت فرنسا فى عام ١٥٣٥ فى الحصول على امتياز باحتكار التجارة فى المنطقة وحق حماية الرعايا الكاثوليك فى أراضى الدولة العثمانية[١].

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة .

ولما كانت فرنسا إحدى دول البحر المتوسط فقد رأت تجنب المنافسة بين إنجلترا وهولندا، حيث أن كلا منهما كانت تسعى إلى السيطرة على طريق رأس الرجاء الصالح، لذا رأت فرنسا أن تولى كل اهتمامها نحو إحياء الطريق البرى عبر مصر والبحر المتوسط، وذلك حتى تتمكن من تحقيق منافسة تجارية مع الدول الأخرى، خاصة هولندا وإنجلترا .

وقد ساعد الموقع الجغرافى فرنسا فى السيطرة على الطريق البرى مثلما ساعد الموقع البحرى كلا من هولندا وإنجلترا ومكنهما من التحكم فى رأس الرجاء الصالح[٢].

ومنذ أواخر القرن السادس عشر أخذت فرنسا تحتل المكانة التقليدية لكل من البندقية ونابلى ، خاصة بعد تحالفها مع السلطان العثمانى ، وصارت الدولة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى البلاط العثمانى ، وصاحبة حق رعاية الكاثوليك داخل الإمبراطورية العثمانية[٣].

وكان أن بدأ الصراع منذ ذلك القرن بين الدول الأوربية من أجل السيطرة وبسط النفوذ ومحاولات التوسع للحصول على امتيازات من حكام المنطقة ، وإحياء الطريق البرى الذى يوفر المسافة بين أوربا والشرق، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد الثورة الفرنسية التى أحدثت انقلابا فى العلاقات السياسية فى أوربا كما أنها كانت ضربة قاصمة وجهت للنظم الملكية السائدة. وكان على القوى الأوربية أن تقف أمام أفكار الثورة التى دكت عروش الملكية. وقد دفع هذا الصراع القوى الأوربية إلى السيطرة على طرق المواصلات عبر مصر والشرق لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة، ولتأمين التجارة عبر هذه الطرق، ومن هنا جاء التفكير فى ضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند، وكان تاليران وزير الخارجية الفرنسى قد أدرك فوائد المستعمرات للدول الأوربية، وكانت الحكومة والرأى العام الفرنسى يميلان إلى القيام بعمل حربى حاسم، وغزو إنجلترا فى عقر دارها ، لكن نابليون أقنع حكومة الإدارة بخطورة ذلك، وأوضح أن غزو مصر لايقل أهمية وأثرا عن غزو إنجلترا ذاتها، واستجابت حكومة الإدارة لثقتها فى عبقريته العسكرية[٤].

من هنا كانت فكرة الحملة الفرنسية على مصر والتى أصبحت مجرد حلقة فى سلسلة الصراع الدولى للسيطرة على طرق المواصلات البرية ولاحتكار طريق التجارة عبر مصر، ومحاولة الحصول على امتيازات من حكام المنطقة للسيطرة على هذا الطريق البرى الهام.

وفى هذا السياق نحاول فى هذا البحث إلقاء الضوء على عدد من النقاط الأساسية والتى تتمثل فى:

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر .

ثانيا : الحملة البريطانية للسيطرة على الطريق البرى .

ثالثا : اشتداد الصراع بين الدولتين أثناء الحملة وبعدها .

رابعا : الآثار التى ترتبت على هذا الصراع حول طرق التجارة البرية .

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر:

أدى تحول التجارة العالمية بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر إلى انزال الضرر البالغ بجمهورية البندقية ودولة المماليك فى مصر، يضاف إلى ذلك أن الصراع الحربى العنيف بين البندقية والدولة العثمانية الفتية التى ابتلعت شرق أوربا قد أجبر الأولى على الاعتراف بالأمر الواقع أى التفوق العثمانى فى هذا الجزء من البحر المتوسط [٥].

ومنذ القرن السادس عشر أقامت جالية فرنسية فى مصر، وكانت مصر إحدى ركائز الشرق التى أقامت بها الدول الأوربية وكالات تجارية، وحصلت الدول الأوربية على امتيازات تجارية تسمح للسفن الأوربية على حق تفريغ ركابها وبضائعها فيها[٦].

وكانت فرنسا أولى الدول التى حصلت على امتياز من السلطان العثمانى وذلك بمقتضى اتفاق عقد فى عام ١٥٣٥ بين ملك فرنسا فرانسوا الأول وسلطان القسطنطينية. وقد ضمنت هذه المعاهدة لرعايا فرنسا فى الدولة العثمانية حق الإقامة فى الثغور والمدن لأغراض التجارة كما ضمنت سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، وحرية العبادة لهم، وأن يخضعوا فى معاملاتهم الشخصية لقضاء القنصل الفرنسى، وألا يدفعوا رسوما جمركية تزيد عن ٣٪ من قيمة المتاجرة ، كما لايتعرض عمال السلطان لتركات من يموت منهم [٧].

ولم يلبث أن حصل التجار الإنجليز على امتياز فى عام ١٥٨٠، كما حصل الهولنديون أيضا على امتياز فى عام ١٦١٢ مثل امتياز الفرنسيين. وهذا يوضح أن الدول الأوربية المتنافسة كانت تحاول الحصول على امتيازات من الباب العالى حتى لاتتعرض تجارة أى منهم إلى مضايقات من الدول الأخرى. ويعطى هذا التنافس أهمية كبرى للطرق التجارية عبر مصر، خاصة بعد أن أغلق السلطان العثمانى البحر الأحمر، وجعله بحيرة إسلامية. وكان الهدف من هذه الامتيازات تنشيط التجارة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية دون أن تعطى للتجار الأجانب أى حق استعلاء على الرعايا المحليين .

وقد أثار فرانسوا الأول ملك فرنسا استنكار جزء من العالم الإسلامي لأنه أقام علاقات مع الدولة العثمانية رغم أن هذه المعاهدة ليست رسمية، لأن هذه الامتيازات إنما هى إنعامات يمنحها السلطان بصفة مؤقتة، ويجب أن تنال موافقة خلفائه . وفعلا وافق عليها السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٦٩ ، وباختصار فإنه منذ المعاهدة بين فرنسا والسلطان العثمانى حصلت الدول الأوربية على امتيازات مماثلة(٨).

والمعروف أن هذه الامتيازات أعطت الدول الأوربية حق البيع والشراء فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، كما تمتع التجار بإعفاء من غالبية أنواع الضرائب، مع حق ممارسة الشعائر الدينية بحرية(٩).

وكان النشاط التجارى الأوربى فى مصر فى فترة الحكم المملوكى العثمانى، خاصة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، يتجدد تباعا لمصالح الدول الأوربية خاصة انجلترا وفرنسا، وكانت هذه المصالح تتمثل فى التنافس على احتكار طريق السويس البرى، ورغم كشف طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة لم تتحول عن الطريق البرى عبر برزخ السويس، وظل الإنجليز والفرنسيون يستخدمون هذا الطريق (١٠).

والواقع أن فرنسا أولت عناية خاصة بإحياء طريق السويس البرى منذ أواخر القرن السادس عشر خاصة عندما آلت المستعمرات البرتغالية- وأهمها جزر الهند الشرقية- إلى أسبانيا . وفى هذا الوقت فكر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فى توصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط فى عام ١٥٨٦ حتى يستطيع الأسطول العثمانى الوصول إلى البحر الأحمر ، ومطاردة سفن البرتغال والأسبان فى مياه المحيط الهندى(١١).

لقد أصبح فتح الطريق البرى من قواعد الدبلوماسية الفرنسية فى القرن السابع عشر، ولاسيما فى عهد لويس الرابع عشر وخلفائه ، وسعت فرنسا لدى السلطان العثمانى حتى يوافق على فتح الطريق التجارى عبر مصر ، وعندما أسس كولبير شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ لم يكن الغرض احتكار جزء من تجارة انجلترا فحسب، بل كان الهدف احتكار نقل التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر المارة بطريق رأس الرجاء الصالح(١٢).

ورغم نشاط شركة الهند الشرقية فإنها لم تستطع أن تركز اهتمام فرنسا على إحياء الطريق البرى. وكان فقدان الممتلكات الهندية الفرنسية بعد ذلك بمائة عام قد بدد اهتمامات فرنسا بالطريق البرى، وتحول هذا إلى تنافس تجارى وعسكرى مع إنجلترا (١٣).

وسوف نحاول تتبع محاولات الفرنسيين لإحياء الطريق البرى، بل واحتلال مصر إذا لزم الأمر ، ويظهر هذا بشكل جلى من خلال كتب ومذكرات الرحالة والسياسيين والتجار، الذين كان لجهودهم الأثر الأكبر فى لفت أنظار الحكومات الفرنسية لأهمية هذا الطريق البرى. وجاءت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث لوضع هذه الأفكار موضع التنفيذ من خلال الحملة الفرنسية التى أصبحت إحدى حلقات التنافس الدولى على طرق المواصلات البرية، بل وفاتحة سياسة استعمارية أوربية ليس على مصر فحسب، بل على كل المنطقة العربية باعتبارها شريان الحياة فى طرق التجارة العالمية.

أولا : استمر اهتمام فرنسا بمصر عندما صدر كتاب فى عام ١٦٦٥ يحمل عنوان «رحلات مسيو دى تيفينو فى المشرق» والذى اشتمل على وصف مصر بدقة فضلا عن مدنها الرئيسية، والآثار الموجودة بها ، وتفاصيل دقيقة عن الحياة اليومية، والاحتفالات الدينية فى مصر.

ثانيا : ظهر اهتمام فرنسا بمصر وآثارها وعظمتها عندما قام الفيلسوف الألمانى ليبنز فى عام ١٦٧٢ بزيارة إلى باريس ليسلم لويس الرابع عشر مذكرة يقترح فيها بوضوح إرسال جيش لغزو بلاد الفراعنة ويقول «هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره والأكثر سهولة فى تنفيذه. إن مصر من بين جميع بقاع العالم هى الأفضل موقعا من أجل السيطرة على الدنيا وعلى التجار، والحال أنها خالية من أى دفاع، ولاتنتظر سوى وصول جيش تحرير لكى تنهض» [١٥].

إن هذه العبارات توضح مدى الاهتمام الذى أولته الدول الغربية لأهمية مصر، ومكانتها فى عالم التجارة وذلك فى القرن السابع عشر ، ويزداد هذا الاهتمام كلما دخلت أوربا فى صراعات وثورات اجتماعية وسياسية .

وكان ليبنز يعرف علاقات الدولة العثمانية السيئة مع فرنسا ، لكنه أكد أن مصر منذ قديم الزمن هى أرض العلوم ، وعرين المعجزات الطبيعية، ولذا يجب على المسيحيين عدم فقدان هذه الأرض المقدسة التى تربط أسيا بإفريقيا خاصة وأنها تتوسط البحرين الأبيض والأحمر ، وتعد مستودعا لغلال الشرق ، ومخزنا لكنوز أوربا والهند .

ثم عاد هذا الفيلسوف الألمانى ليؤكد مرة ثانية أنه بدلا من الهجوم على هولندا مباشرة، فإنه من الأفضل هزيمتها عن طريق مصر . ذلك لأن هذا المشروع سيؤمن امتلاك الهند وتجارة آسيا والسيطرة على الكون[١٦].

ولم يهتم لويس الرابع عشر بآراء ليبنز ولا حتى باستقباله أو الرد عليه، بل اكتفى بإخطار أمير المقاطعة الألمانية التى يعيش فيها بأن زمن الحروب الصليبية قد انتهى، ولم يعد يطابق ذوق العصر، وفضل الملك شن الحروب فى أوربا [١٧].

ثالثا : فى عهد لويس الخامس عشر تحسنت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، ولم يحدث أى تطور فى مشروع غزو مصر. وحاول لويس الخامس عشر فى عام ١٧١٤ تجديد معاهدة الامتيازات التى سبق أن وقعت فى عام ١٥٣٥ مع العثمانيين، والتى أعطت لفرنسا حق حماية المسيحيين فى سائر أرجاء الدولة العثمانية. لكن هذا أثار انجلترا التى ظلت تخشى ازدياد النفوذ الفرنسى فى الدولة العثمانية مما يهدد طريقها الملاحى عن طريق البحر الأحمر مثلما يهدد مصالحها فى الهند[١٨].

رابعا : ظل الحال على هذا المنوال حتى جاء لويس السادس عشر فتكررت النداءات والحجج لاحتلال مصر، فى الوقت الذى ازداد ضعف الدولة العثمانية بسبب حربها مع النمسا وروسيا[١٩].

وفى عام ١٧٧٦ قام البارون دى توت بإعداد مذكرة أكد فيها أن مصر مليئة بالثروات ويمكن غزوها بسهولة ، وإذا لم تستول عليها فرنسا فإن انجلترا سوف تفعل ذلك، وتحدث بسهولة عن فتح مصر واحتلالها فى مذكراته التى نشرها فى أربعة أجزاء فى عام ١٧٨٤[٢٠].

وتأثر وزير الحربية بهذه المذكرة ، وأرسل البارون دى توت إلى مصر، ثم عاد إلى باريس أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بفكرة مشروعه . لكن انشغال فرنسا فى حروب مع انجلترا جعل من الصعب التخلى عن أى جزء من الجيش فى هذه الفترة، وتأجلت فكرة احتلال مصر لكن المشروع ظل ماثلا فى أذهان الساسة والمفكرين الفرنسيين .

خامسا : فى عام ١٧٨٧ ألف الرحالة فولنى قصة بعنوان «الرحلة فى مصر وسوريا» ووصف حالة مصر السيئة ، وحاول أن يصف العلاج لهذه الحالة بخروج المصريين من تحت السيادة العثمانية ودخولهم تحت لواء دولة أخرى تكون صديقة للمصريين وذات حضارة . ونهضة أدبية وعلمية وفنية، حتى تتمكن هذه الدولة من إحياء التراث المصرى القديم، والتنقيب عن الأثار المغمورة فى الدلتا والصعيد ، وكشف رموز اللغة والكتابة الهيروغليفية .

وهكذا رسم فولنى صورة عن بلاد يطحنها البؤس والأمراض والفوضى ، لكنه تحدث عن التجارة والمكوس والضرائب ، كما تحدث عن تحصينات ميناء الاسكندرية، وقدم وثيقة فريدة للفرنسيين الذين يحلمون بغزو مصر . وتأكيداً لهذه الرغبة من فولنى فقد ألف الرحالة سافارى أيضا كتابا نشره فى ١٧٨٥ وتحدث فيه عن خصوبة أرض مصر ووفرة غلاتها وسهولة غزوها والاستيلاء عليها [٢٢].

وفى هذا الكتاب الذى حمل اسم «خطابات عن مصر» دعا إلى غزو مصر لأنها ستكون مركز التجارة فى العالم، والجسر الذى يربط أوربا وآسيا[٢٣].

وعلى العموم فإن كتابات هؤلاء الرحالة كانت مقدمة جوهرية لغزو مصر، حيث بلغ الضيق بهؤلاء التجار الفرنسيين حدا جعلهم يطالبون بإرسال قوات عسكرية لتأديب المماليك ولتأمين مصالحهم [٢٤].

لقد جمع فولنى كل الآراء التى تدعو فرنسا لاحتلال مصر ولخصها فى عدة نقاط :

أ- أن مصر تنتج المحاصيل التى تحتاجها فرنسا كالشعير والأرز والقطن والعنب وقصب السكر وغير ذلك .

ب- أن احتلال مصر سوف يمكن فرنسا من الحصول على السلع القادمة من أفريقيا كالعاج والتبر والرقيق .

ورغم هذه المزايا فقد أشار فولنى إلى أن احتلال مصر سوف يجعل فرنسا تدخل فى حروب مع الأتراك والإنجليز والمصريين . ولن تنجح فرنسا فى احتلال مصر نظرا لاختلاف الدين والعادات والتقاليد. وطالب فرنسا بأن تركز على تحسين الإنتاج داخل بلادها وتبتعد عن الاستعمار فى هذه الفترة.

سادسا : عندما استولى على بك الكبير على السلطة فى مصر عام ١٧٦٨ قام بالقبض على التجار الفرنسيين ، وانسحبت القنصلية الفرنسية من القاهرة إلى الاسكندرية ومعها غالبية التجار، وقرر بعضهم البقاء فى مصر على مسؤولياتهم . ومن هؤلاء التاجر تشارل ماجالون الذى كان يقوم بعمل القنصل. وقد لعبت هذه الشخصية دورا حاسما فيما بعد خاصة بعد قيام الثورة الفرنسية ، وإضعاف الجالية الفرنسية، وقيام المماليك بابتزازهم، وكان الفرنسيون يشترون الأسلحة ويتدربون على استخدامها ساعتين يوميا[٢٥].

ونجح ماجالون فى عقد ثلاث معاهدات مع مصر فى يناير ١٧٨٥، الأولى مع مراد بك الذى تعهد بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها فى مصر، وحدد الضريبة على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى على مصر و٤٪ للبيك الحاكم و٣٪ إذا كانت التجارة مصدرة إلى فرنسا. أما المعاهدة الثانية فقد وقعها مع يوسف كساب ملتزم الجمارك العام وفيها تعهد يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية وتحصيل ٥٪ من قيمة المتاجر المفرغة فى السويس ، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب (العربان) وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء بين السويس والقاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل[٢٦].

لكن هذه المعاهدات لم تكن ذات قيمة تذكر لأنها لم تحدث أى تغير فى موقف فرنسا تجاه مصر ، ولم يتحسن هذا المركز التجارى. وهذا ما جعل الجالية الفرنسية تتخذ خطوة أكثر إيجابية تجاه مصر والطريق البرى.

سابعا : وفى عام ١٧٩٠ أرسلت الجالية الفرنسية التماسا إلى الجمعية التأسيسية والغرفة التجارية بمرسيليا ، تطلب فيه فرض حصار بحرى على مصر، مما يتيح لفرنسا الاستيلاء على الطريق إلى الهند . وهكذا تحول التجار إلى خبراء فى الخطط الحربية الاستراتيجية ، كما قاموا بتحديد عدد القطع البحرية اللازمة لتنفيذ هذا العمل ، لكن لم يصل أى رد لأعضاء هذه الجالية[٢٧].

وفى عام ١٧٩٣ تقدم أعضاء الجالية الفرنسية بالتماس آخر، ولم يكن المطلوب هذه المرة مجرد حصار بحرى بل الاحتلال الصريح الواضح. لكن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الالتماس أيضا، ونشط ماجالون وكتب إلى سفير فرنسا فى القسطنطينية يقول «أرجوك أيها المواطن ألا تتقاعس عن المعاونة فى اعطاء مصر لفرنسا ، فهذه هى أجمل الهدايا التى يمكنك منحها لها ، وسيجد الشعب الفرنسى فى هذا الكسب موارد هائلة»[٢٨].

وأوضح مجالون أهمية الطريق التجارى عبر مصر، وقال أنه إذا أصبح الفرنسيون سادة البحر الأحمر فإنهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين، وأن يطردوهم من الهند. وهكذا خرجت نوايا فرنسا تجاه مصر من حيز التفكير إلى حيز التصريح[٢٩].

ثامنا : لقد وجد ماجالون من يستمع إليه أخيرا، وذلك عندما أصبح تاليران وزيرا للعلاقات الخارجية ، وطلبت منه الحكومة كتابة مذكرة توضيحية عن أوضاع الطريق التجارى

عبر مصر. وقام تاليران بإعداد المذكرة التى اقتبس فيها الكثير من آراء ماجالون، وقدمها إلى حكومة الإدارة فى ١٤ فبراير ١٧٩٨ . وكان هذا التقرير دعوة إلى احتلال مصر ، وأشار تاليران فى تقريره إلى أن مصر بلاد غنية ، كما أن موقعها الجغرافى يجعل منهما المركز التجارى الطبيعى للعالم، فإذا ما قامت فرنسا بتحقيق الاستقرار والأمن بها تتمكن الملاحة المتجهة إلى الهند من التخلى عن طريق رأس الرجاء الصالح [٣٠].

وأوضح تاليران أن فرنسا سوف تفقد إن آجلا أو عاجلا مستعمراتها فى أمريكا، وأنه لايوجد تعويض أفضل من مصر. أنها بلاد يسهل أخذها ، ولن تدخل الإمبراطورية العثمانية فى حرب للدفاع عنها لأنها سوف تنهار بعدة مدة لاتزيد عن خمسة عشر عاما. وبالتالى فإن على الجمهورية الفرنسية أن تأخذ منها ما يناسبها . وهو يقصد بذلك أن تكون مصر فى أولى الأوليات من هذه الأنقاض. وأقر هذا الغزو هنرى لويس الذى أكد أن الغزو واجب تحتمه الثورة الفرنسية، نصيرة حقوق الإنسان، والتى تسعى إلى نقل الحضارة إلى منابعها الأولى فى مصر [٣١].

تاسعا : تحمس كل من تاليران ومعه الجنرال نابليون لمشروع غزو مصر، ولم يلبث أن صار هذا المشروع حديث رجال الإدارة والسياسة والصحافة ، كما حاز على تأييد الأوساط الشعبية الفرنسية ، ومن ثم دخل المشروع فى دور التنفيذ .

وفى ١٢ أبريل ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة قرارا بتشكيل جيش الشرق -تحت قيادة نابليون بونابرت - لغزو مصر ، وأوضحت حكومة الإدارة الأسباب التى دفعتها إلى إرسال حملة على مصر لمعاقبة بكوات المماليك أصحاب السلطة فى مصر، كما أشارت إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح والذى يعرقل وصول الفرنسيين إلى الهند[٣٢].

وهكذا اتضحت سياسة فرنسا من خلال الرحالة والمفكرين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، التى كانت تهدف إلى تحويل تجارة فرنسا الشرقية إلى الطريق البرى عبر مصر، وذلك لمنافسة التجارة التى تمر فى طريق رأس الرجاء الصالح. وقد اتضح أيضا أن الحكومة الفرنسية لم تفكر أساسا فى تشجيع التجارة مثلما فكرت فى القضاء على نفوذ كل من هولندا وإنجلترا [٣٣].

وباختصار فإن فكرة الحملة الفرنسية على مصر، وفكرة السيطرة على طريق التجارة عبر مصر، قد وجدت تأييداً ودعما من كل المفكرين عبر سنوات طويلة. وكلما اشتد الصراع بين

فرنسا والدول الأخرى كلما ازداد الاهتمام بالفكرة، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث هى التى أحيت الفكرة وإعادتها إلى الأذهان . وكانت محاولات انجلترا للسيطرة على هذا الطريق هى التى حفزت على القيام بالحملة[٣٤].

ثانيا : المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى:

من المعروف أن التجار البريطانيين وصلوا إلى مصر متأخرين عن التجار الفرنسيين، وذلك لأن بريطانيا لم تدخل ميدان البحر المتوسط إلا فى فترة متأخرة ولأن التجار لم يكن لهم اهتمام بالتجارة الأوربية قبل القرن السادس عشر . ولكن حدث بعد اتحاد انجلترا سياسيا إثر حرب الوردتين (١٤٥٥-١٤٨٥) أن أخذت تتطلع إلى الطرق البحرية لزيادة مواردها.

ومع مطلع القرن السادس عشر بدأت السفن الإنجليزية تتاجر على الساحل الأوربى بل وفى مدخل البحر المتوسط، مما تسبب فى إزعاج السفن الأسبانية والفرنسية. لكن بريطانيا أنشأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ لاحتكار التجارة الشرقية.

وسوف نحاول فيما يلى إلقاء الأضواء على المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى والدخول فى منافسة مع الدول الأخرى.

أولا : فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تكونت شركة الليفانت، وأدى قيامها إلى بداية علاقات دبلوماسية تجارية مع الدولة العثمانية. وقد حاولت الحكومة الفرنسية عرقلة نشاط هذه الشركة الإنجليزية، ونجحت فى ذلك إلى حد ما ، لكن السلطان العثمانى اعترف فى عام ١٥٨٣ بالسيد وليم هاربون سفيرا لبريطانية فى الأستانة ، وتعد هذه الخطوة بداية مرحلة جديدة من العلاقات البريطانية مع الشرق الأدنى [٣٥]، وهو الأمر الذى ظهر فى الاهتمام البريطانى بتعيين قنصل لها فى مصر عام ١٥٨٣، كما أرسلت إنجلترا سفينة محملة بالقصدير والرصاص إلى الاسكندرية.

ثانيا : فى عام ١٥٨٧ ظهرت طلائع السفن البريطانية فى الاسكندرية، وبدأ التجار الإنجليز يمارسون نشاطهم فى مصر رغم فرض رسوم وصلت إلى ١٠ ٪ على تجارتهم ، وهى بالطبع نسبة أعلى من النسبة التى تدفعها فرنسا، على أن الأصواف الإنجليزية لم تجد الرواج المطلوب فى مصر، فى حين أخذ التجار الفرنسيون ينظرون بعين الشك والريبة إلى التجار الإنجليز ، وأخذوا يختلقون لهم الدسائس والمكائد عند السلطات المصرية، وهكذا اضطر التجار

الإنجليز إلى مغادرة مصر، كما أغفلت شركة الليفانت القنصلية الإنجليزية فى عام ١٦٠١ ، وعهدت برعاية مصالحها إلى القنصل الفرنسى.

ثالثا : فى عام ١٦٩٧ عادت شركة الليفانت تمارس نشاطها من جديد، وعينت ميلز فليتود قنصلا للإشراف على مصالحها فى مصر، ولكنه وجد معارضة من القنصل الفرنسى هناك، وأيضا من القنصل الفرنسى فى الأستانة، رغم صدور قرار من السلطان فى عام ١٦٩٨ بالاعتراف رسميا بالقنصل الإنجليزى فى القاهرة، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على العداء الدفين الذى كان يكنه القنصل الفرنسى سواء فى مصر أو الأستانة لأى نشلط قنصلى انجليزى، حتى لاتجد فرنسا من ينافسها على طرق المواصلات التى وضعتها فى حساباتها منذ القرن السادس عشر . ويفسر هذا الموقف بدايات الصراع والتنافس على الطرق البرية عبر مصر والبحر الأحمر.

رابعا : عندما قامت حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١-١٧١٤) حاولت انجلترا الاستفادة من هذه الحرب بتدعيم نشاطها التجارى، لكن لم يؤثر ذلك على ما حققته فرنسا من مكاسب تجارية وظلت التجارة الإنجليزية ضئيلة وأخذت تتناقص تدريجيا حتى أنه فى عام ١٧٥٦ لم يكن فى مصر سوى تاجر إنجليزى واحد.

خامسا : عندما قامت حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) تركت أثارها على التجارة الإنجليزية التى أخذت فى الاضمحلال. ولكن حدث بعد توقيع معاهدة باريس ١٧٦٣ أن تغير الموقف وأصبحت هذه نقطة تحول فى نظر انجلترا إلى الطريق البرى عبر مصر، لأن هذه المعاهدة أطلقت يد انجلترا فى الهند، حيث اقتصر اهتمام الحكومة البريطانية على أصلح الطرق وأقصرها لنقل الرسائل والتعليمات والجنود بين الهند وانجلترا وكانت الرسائل تصل فى خلال ثلاث وستين يوما أى حوالى ربع المدة للرحلة عن طريق رأس الرجاء الصالح[٣٦].

سادسا : وفى الربع الأخير من القرن الثامن عشر تجدد اهتمام الإنجليز بمصر وبطريق السويس البرى، وكان السبب فى ذلك يعود إلى :-

أ- زيادة أهمية موقع مصر الجغرافى أثناء حرب السنوات السبع باعتبارها حلقة هامة فى طريق المواصلات بين بريطانيا والهند، خاصة عند نقل البريد.

ب- استقلال على بك الكبير بمصر عام ١٧٦٩ واشتعال الحرب الروسية التركية

(١٧٦٨-١٧٧٤) مما أضعف الدولة العثمانية ، وخشية بريطانيا من وقوع مصر تحت سيطرة دولة قوية مما يؤثر على مصالحها فى الهند .

ج- رغبة بعض التجار الإنجليز فتح طريق مباشر بين الهند والسويس، وتشجيع على بك لفتح هذا الطريق ، وإرسال خطاب إلى وارن هسيتنج حاكم البنغال فى مارس ١٧٧٥ لعقد اتفاقية للتجارة والملاحة مع حكام المماليك ، خاصة مع محمد أبى الدهب، وتأكيد اتفاقية جيمس بروس عام ١٧٧٣ (٣٧).

سابعا : لم تكن انجلترا تهتم بالناحية التجارية فحسب، وإنما كان هدفها الوصول إلى المستعمرات . وكان التجار الإنجليز مجرد مغامرين . وقد ظهرت مجموعة من الرحالة والتجار الذين حاولوا تحقيق مكاسب تجارية لإنجلترا ، ومن هؤلاء الرحالة البريطانى جيمس بروس الذى كان يعمل فى قنصلية انجلترا فى الجزائر، وحضر إلى القاهرة فى يونيه ١٧٦٨ ولم يجد بها أحدا. وقابل على بك وعقد معه معاهدة ١٧٧٣ أعطت للسفن البريطانية حق الدخول شمالا حتى مرفأ السويس . وبذلك أصبح العلم البريطانى أو الأعلام الأجنبية التى رفرفت فى البحر الأحمر بعد أن كان بحيرة إسلامية مغلقة فى وجه السفن الأجنبية (٣٨).

وبعد رحيل على بك نجح بروس فى عقد اتفاق مع محمد أبى الدهب فى فبراير ١٧٧٥ ، وفى هذا الاتفاق أمكن السماح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى السويس ، وعدم التعرض للتجار الإنجليز بالأذى. هذا فضلا عن تحديد الرسوم الجمركية بحيث لاتزيد عن ٨٪ على التجارة الواردة إلى السويس، مع فرض خمسين ريالا أسبانيا كرسم ميناء لكل سفينة(٣٩).

ثامنا : لما ازداد نشاط التجار الإنجليز فى السويس، تقدم السلطانى العثمانى فى عام ١٧٧٥ بطلب إلى حكومة لندن يطلب فيه منع السفن الإنجليزية من الوصول إلى السويس أو القيام بأى نشاط تجارى هناك. ووافقت حكومة لندن على هذا الطلب بشرط أن تطبق نفس الشروط على سفن الدول الأخرى. ولكن رغم صدور قرارات الحكومة البريطانية فقد ظلت السفن الإنجليزية تصل إلى السويس حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى وقف الاتجار فيما وراء جدة. وهكذا أدت المعارضة العثمانية للسفن الإنجليزية إلى فشل المعاهدات مع المماليك(٤٠).

تاسعا : لقد كان هذا النشاط الإنجليزى فى مصر سببا فى إثارة فرنسا خاصة عند قيام جورج بولدوين بتنظيم خط منتظم من المواصلات بين الهند وبريطانيا ، وبدأت السلطات الإنجليزية فى الهند فى الاعتماد على طريق البحر الأحمر ومصر(٤١).

وأمام قسوة الحكام المماليك عاد النشاط الإنجليزى لمصر بعد عام ١٧٨٥ . لكنه لم يعد تجاريا بحتا، بل أصبح يحمل الطابع السياسى. ودخلت الحكومة البريطانية نفسها فى هذا المجال. وقد أصبحت مصر حلقة من حلقات الصراع العنيف بين فرنسا وانجلترا حول الهند، فضلا عن أن مصر خرجت من سياستها الجامدة فى علاقاتها مع الدول الأجنبية. وتخلت عن سباتها العميق، وأصبحت تتأثر بالأحداث الأوربية الدولية. ولهذا استدعت التاجر البريطانى جورج بولدوين وطلبت منه أن يكتب تقريرا عن النشاط الفرنسى فى مصر[٤٢].

عاشرا : قدم بولدوين تقريره فى عام ١٧٨٥ ونشر هذا التقرير فى كتاب بعد ذلك تحت اسم «مذكرات سياسية بخصوص مصر» ، وفى هذا التقرير وجه الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى وحاصلاتها التجارية وأهميتها بالنسبة لفرنسا ، وما يمكن أن يؤدى إليه احتلال الفرنسيين لها. وقد أدى هذا التقرير إلى ضرورة مواجهة إنجلترا للنشاط الفرنسى فى مصر، وعقدت فعلا معاهدات مع شركة الهند الشرقية وقررت إنجلترا وضع خطة تقوم على أساس إرسال جورج بولدوين إلى مصر ليكون قنصلا لها، وتكون مهمته التفاوض مع المماليك لعقد معاهدة تجارية، وإرسال تقارير عن النشاط الفرنسى فى مصر[٤٣].

وفى عام ١٧٦٨ وصل بولدوين إلى مصر وتقلد مهام منصبه. وحاول عقد معاهدة مع القبطان باشا الذى جاء للقضاء على مراد بك، لكن فشلت المفاوضات لأن القبطان باشا عاد إلى بلاده بسبب الحرب الروسية التركية. وعاد مراد بك بجيوشه ودخل القاهرة ووقع معاهدة مع بولدوين فى عام ١٧٩٤ . وقام بولدوين بإرسال هذه المعاهدة إلى حكومة لندن ، لكن الحكومة قابلتها بنوع من الفتور وعدم الهتمام وذلك بسبب خوف بريطانيا من تحول التجارة الفرنسية إلى البحر الأحمر ومصر بعد حرب السنوات السبع، فضلا عن انشغال بريطانيا وفرنسا فى حروب بعد عام ١٧٩٣ وحاجتهما إلى جهود عسكرية لمراقبة مصالحهما فى الأستانة، وعلى الطريق البحرى حول القارة الأفريقية ، يضاف إلى ذلك تلك الفوضى السائدة فى مصر فى ظل حكم كل من ابراهيم بك ومراد بك ، وهو الأمر الذى انعكس بشكل واضح على الطرق التجارية[٤٤].

والجدير بالذكر أن وزير الخارجية البريطانية أمر بإغلاق القنصلية البريطانية فى فبراير ١٧٩٣ لأنها تتطلب نفقات تفوق وجودها فى مصر ، كما أقيل بولدوين ، الذى استمر رغم

ذلك فى مصر ولم يغادرها إلا فى أبريل ١٧٩٦ ، أى قبل وصول الحملة الفرنسية بشهور قليلة[٤٥].

واستمر بولدوين يحذر بريطانيا من مخططات فرنسا فى مصر ، لكن دون جدوى، وعاد إلى مصر فى عام ١٨٠١ ليكون ضمن الحملة التى جاءت لإخراج الفرنسيين منها[٤٦].

وهكذا تخلت إنجلترا عن فكرة تقوية نفوذها فى مصر ، ولم تستمع إلى نداء رجال التجارة والقناصل ، حتى فاجأتها فرنسا بتلك الحملة على مصر ، وهى التى تمثل دورا جديدا من أدوار السباق بين انجلترا وفرنسا حول الفتح والاستعمار منذ القرن السابع عشر ، وخلال القرن الثامن عشر، والذى اتخذ طورا جديدا بعد الثورة الفرنسية التى قضت على النظام القديم وأعلنت الجمهورية ، وكان أن تألبت الدول الأوربية عليها، ودخلت مع إنجلترا فى حرب سجال بعد أن صارت إنجلترا العقبة الكئود بسبب موقعها الجغرافى. ومن ثم فكرت حكومة الإدارة الفرنسية فى ميدان آخر يمكن أن تقهر فيه انجلترا . وكان أفضل ميدان هو ضربها فى مستعمراتها فى الهند بالاستيلاء على مصر، فكانت الحملة الفرنسية التى تعد فصلا جديدا من فصول الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية[٤٧].

وفى أبريل ١٧٩٨ قررت حكومة الإدارة غزو مصر، وصدرت التعليمات إلى نابليون بتجهيز الحملة وقيادتها . وتضمن البيان سوء معاملة التجار الفرنسيين ، كما تعرض للاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح، وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند ، وطلبت حكومة الإدارة ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند.

وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق، فى الاستيلاء على مالطة ومصر وطرد الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق[٤٨].

هذه هى الدوافع الحقيقية للحملة الفرنسية التى لم تكن سوى مرحلة من مراحل الصراع الدولى على طرق المواصلات، والحصول على امتيازات تجارية وصناعية، أى أن الحملة الفرنسية تدخل فى إطار الصراع الإنجليزى الفرنسى، ورغبة فرنسا فى السيطرة على طرق التجارة للهند. ومن الواضح أن الحملة الفرنسية على مصر تعد نقطة تحول خطيرة فى حياة مصر والشرق العربى كله، حيث أظهرت بشكل قاطع الأهمية الاستراتيجية لهذه البلاد المطلة على البحر المتوسط والواقعة على الطريق الهام المؤدى إلى الهند[٤٩].

ثالثا : الحملة واشتداد الصراع بين الدولتين :

خرجت الحملة الفرنسية من ميناء طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ ، فوصلت إلى جزيرة مالطة، وقامت باحتلالها ، فى حين كان الأسطول الإنجليزى يراقبها فى البحر المتوسط ، ويرغب فى تحطيمها . وبينما الحملة الفرنسية مشغولة فى مالطة ، وصل الأسطول الإنجليزى إلى الاسكندرية ليبدأ مرحلة من الصراع حول طرق المواصلات بين الشرق والغرب. ويتمثل هذا الصراع فى النقاط الآتية :

أولا : بعد أن وصل الأسطول الإنجليزى إلى سواحل مصر لم يجد الأسطول الفرنسى، فأقلع الإنجليز للبحث عن الأسطول الفرنسى، وعندما وصل نابليون إلى الاسكندرية اختار منطقة العجمى ، لإنزال الجنود والعتاد والمهمات ليلا، ولكن عندما علم الأميرال نلسون قائد الأسطول الإنجليزى بقدوم الفرنسيين إلى مصر، عاد إلى سواحلها . وفى أول أغسطس ١٧٩٨ وقعت موقعة أبى قير البحرية وفتحت النيران من الجانبين، وقتل أمير البحر الفرنسى وانفجرت بارجته ، وهكذا قضى على الأسطول الفرنسى بأكمله فيما عدا أربع بوارج اضطرت إلى الانسحاب بسرعة جنوب مالطة. وغنم الإنجليز ست سفن فرنسية. وكانت هذه العملية ضربة قوية أصابت الحملة الفرنسية على مصر، وقضت على وسائل اتصال الحملة بفرنسا ، وأدى هذا إلى انخفاض الروح المعنوية عند الفرنسيين، وخضوع مصر لعملية الحصار البحرى وما كان لهذا من أثر على طرق التجارة العالمية [٥٠].

وفى نفس الوقت رأت حكومة بومباى بعد وصول الحملة إلى مصر ضرورة القيام بنشاط واسع النطاق للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، لمنع أى محاولة فرنسية للوصول إلى الهند من جهة ولحماية جهودها الرامية إلى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية على وجه الخصوص . ولهذا تحركت قوة من الهند بقيادة الكولونيل جون موراى واتجهت نحو المدخل الجنوبى للبحر الأحمر واحتلت جزيرة ميون أو بريم الواقعة فى أضيق نقطة فى بوغاز باب المندب، وذلك فى اليوم الثالث من مايو ١٧٩٨ وظلت حتى أوائل سبتمبر من نفس العام[٥١].

ثانيا : عندما تحطم الأسطول الفرنسى فى مياه أبى قير بفضل التفوق البريطانى، تشجعت كل من الدولة العثمانية وشعب مصر على التصدى لهذه الحملة، رغم المبادىء التى أعلنها نابليون وأنه جاء لتأديب المماليك وثار المصريون ثورتهم الأولى رغم مجهودات الفرنسيين فى

التقرب منهم وتحركت ثورة المصريين بشكل تلقائي وبدون تنظيم، لكنهم بسرعة تجمعوا أمام الأزهر ، حيث بدأ الصدام مع القوات الفرنسية .

وساعدت الدماء التي سالت في المعركة على زيادة الحماسة ، فانتشرت الثورة وامتدت إلى الأقاليم وفي الإسكندرية ورشيد والبحيرة، وكانت المقاومة التي لقيتها الحملة الفرنسية في الصعيد لاتقل في ضراوتها عن تلك المقاومة التي واجهتها في الدلتا. وكان أن نجح الثوار نتيجة انهيار الروح المعنوية للفرنسيين ، بعد أن حطم الإنجليز أسطولهم في مياه أبي قير.

ثالثا : تشجعت الدولة العثمانية لإخراج الحملة من مصر ، وأحس نابليون أنه لابد من مواجهة هذا الخطر في الشام قبل أن يصل إلى مصر خاصة وأن الإنجليز شاركوا العثمانيين في هذا التحرك الذي امتد إلى العريش، فكان قرار نابليون القيام بحملته على سوريا. وبعد معركة العريش التي انهزمت فيها القوات العثمانية استولى الفرنسيون على غزة والرملة ويافا، التي شهدت أسر ثلاثة آلاف أسير عثماني وقتلهم رميا بالرصاص مما أثار حمية الحامية العثمانية في عكا ، فاستبسلت في الدفاع عن عكا وساعد أحمد باشا الجزار في الدفاع عن مدينة عكا وجود الأسطول الإنجليزي بقيادة السير سيدني سميث أمام الميناء ، ومنع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر، بل إن الأسطول الإنجليزي كان قد أسر السفن الفرنسية التي حملت المدفعية والذخائر واتجهت بها جنوب سواحل سوريا ، وسلمها إلى أحمد باشا الجزار الذي دفع بها عن عكا أمام الفرنسيين، وأمام فشل نابليون في حصار عكا اضطر إلى العودة إلى مصر وبعد أن فقد ما يزيد عن ألفي قتيل وألف رجل ماتوا بالأمراض فضلا عن حوالي ٢٥٠٠ جريح .

وهكذا عاد نابليون مهزوما بعد مائة وخمسة وعشرين يوما ليواجه المقاومة المصرية في الصعيد والدلتا ، وكانت تهدد أمن القوات الفرنسية هذا في الوقت الذي نزلت قوات عثمانية في منطقة أبي قير في شهر يونيه ١٧٩٩ واحتلت قلعة أبي قير لاتخاذها قاعدة لهم ضد الفرنسيين ، لكن نابيلون هاجم هذه القوة وهزمها ، مما زاد من شعور المصريين بالعداء ولم يلبث أن اضطر نابليون إلى العودة إلى أوربا بسبب الاضطرابات هناك وهزيمة الجيوش الفرنسية في كل من إيطاليا والنمسا . وقد ترك نابليون مصر يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ومعه عدد من كبار الضباط [٥٢].

رابعا: في عهد كليبر- خليفة نابليون في مصر- قامت ثورة القاهرة الثانية، مما اضطره إلى

الاتصال بالدولة العثمانية من أجل التفاوض والصلح الذى انتهى باتفاقية العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ . وتقدمت الحكومة العثمانية لاستلام القاهرة لكن بريطانيا أعلنت رسميا عدم موافقتها على اتفاقية العريش لأنها ترى ضرورة الاستسلام دون قيد أو شرط بالنسبة للحملة الفرنسية . وأعلنت انجلترا أنها سوف تضبط فى البحر الأحمر كل سفينة تحمل جنودا فرنسيين، وتعتبر من عليها أسرى حرب. وأمام هذا الوضع تقدمت قوة عثمانية إلى القاهرة لكن المدفعية الفرنسية أوقعت بالقوات العثمانية خسائر جسيمة ، واضطر العثمانيون إلى الانسحاب من موقعة عين شمس التى كانت الشرارة التى أشعلت ثورة القاهرة الثانية وما تلاها من أحداث ذلك أنها كانت أقوى من ثورة القاهرة الأولى نتيجة انضمام بعض العثمانيين والمماليك ، واستمرت هذه الثورة ثلاثة وثلاثين يوما . وفى صبيحة يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠ ذهب كليبر إلى الروضة لاستعراض كتيبة الأروام التى جندها الفرنسيون، وفجأة اقترب منه أحد الشبان ، وأخرج خنجرا وطعن به كليبر الذى سقط مضرجا بدمائه وأسلم الروح(٥٣).

خامسا : وكان أن تولى الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية فى مصر ، ولكنه لم يكن ذا كفاءة عسكرية كبيرة، وبالتالى فإنه رتب الأمور على أساس إبقاء الاحتلال الفرنسى فى مصر، وقيام مشروعات اقتصادية من موارد مصر. لكن الوقت كان ضيقا إذ جاءت قوات عثمانية وبريطانية إلى مصر لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم بقوة السلاح من مصر . وتحت ضغط الإنجليز اضطر مينو إلى قبول الرحيل عن مصر بعد أن بدأت القوات العثمانية والإنجليزية فى الزحف جنوبا نحو القاهرة التى احتلها العثمانيون والإنجليز .

وفى ٢٣ يونيه ١٨٠١م بدأ التفاوض بين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز على أساس جلاء الفرنسيين عن البلاد. وبعد مفاوضات امتدت لمدة أربعة أيام تم الاتفاق على جلاء القوات الفرنسية عن مصر على أساس انسحاب القوات الفرنسية فى مدة لاتتجاوز خمسين يوما على نفقة الحلفاء وتم توقيع الاتفاق فى ٢٧ يونيه ١٨٠١ ، وخرجت الحملة بعد ثلاث سنوات . وكان خروجها من مصر بفضل الجهود الضخمة التى بذلتها انجلترا فى محاولاتها للحفاظ على طرق المواصلات البرية إلى الهند. وبالتالى فإن الحملة الفرنسية لفت أنظار العالم إلى أهمية موقع مصر الجغرافى، واشتداد الصراع الدولى على هذه الطرق، خاصة بعد

رحيل الحملة . ولم يكن الإنجليز يهتمون بجلاء الفرنسيين عن مصر قدر اهتمامهم بمنعهم من تهديد المصالح البريطانية فى الشرق وكان أن فرضت انجلترا حصارا على سواحل مصر(٥٤).

سادسا : بعد رحيل الحملة سادت مصر فترة من الصراعات الداخلية بين المماليك والعثمانيين والمصريين . وكانت الحملة قد لفتت الأنظار إلى أهمية مصر فى المجالات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والمعنوية ، فظهرت على أنها مركز هام، ونقطة اتصال بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وطريق رئيسى يصل أوربا بالشرق الأقصى، هذا إلى أن مصر ظهرت على أنها سوق توزيع له قيمته بالنسبة لتصريف المنتجات الأوربية ، ومنطقة إنتاج مواد خام تحتاج إليها الصناعات الأوربية. وبعد رحيل الحملة أخذت كل من الدولتين انجلترا وفرنسا فى التفكير فى العودة إلى مصر . ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١ فقد ظلت رغبتهم فى العودة إليها والتحكم فى طريق البحر الأحمر شديدة، وأوفد نابليون الكولونيل سبتيانى إلى مصر للتعرف على البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك فى نهاية عام ١٨٠٢ م . وظل نابليون حتى نهاية حياته السياسية مهتما بمصر ، وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الأحمر، كما كان يرسل مبعوثه لجمع البيانات والمعلومات الهامة. لعرقلة مصالح ومساعى أعدائه البريطانيين فى هذه المناطق (٥٥).

وحاولت كل من انجلترا وفرنسا عن حليف قوى يضمن لها العودة، فتحالف الإنجليز مع زعيم المماليك الألفى، وتحالف الفرنسيون مع خصمه البرديسى بك. لكن الأمور آلت فى عام ١٨٠٥م إلى محمد على الذى حاول الفرنسيون والإنجليز التقرب منه. ولما أظهر تعاونا مع فرنسا أرسلت انجلترا حملة فريزر عام ١٨٠٧ لمساعدة زعيم المماليك الألفى بك لتقلد السلطة، ولكنه كان قد مات قبل وصول الحملة الإنجليزية التى منيت بالفشل نتيجة المقاومة الشعبية المصرية فى رشيد مما أجبرها على الرحيل. ورغم هزيمة حملة فريزر فإن بريطانيا كان لها السيادة البحرية فى البحر المتوسط حيث احتل الإنجليز جبل طارق عام ١٧٠٤ واحتلوا جزيرة مالطة عام ١٨٠٧ وضموها إلى مستعمراتهم أثناء انعقاد مؤتمر فينا عام ١٨١٥ (٥٦).

أما فى مصر فقد واصل محمد على سياسته الرامية إلى التحالف مع فرنسا ، وهو ما أزعج انجلترا التى وقفت له بالمرصاد فى كل توسعاته ، سواء فى الجزيرة العربية، أو فى الشام أو فى الخليج العربى. ولما أحست بخطورة تحركاته على مصالحها وطرقها التجارية ، خاصة بعد احتلال عدن عام ١٨٣٩ ، قامت بإجبار محمد على على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ وهى التى

قلصت كل جهوده ، وحرمته من كل انتصارته، وجعلته حاكما على مصر فقط . كل هذا من أجل الحفاظ على طرق المواصلات التى أبرزت الحملة الفرنسية أهميتها بالنسبة لطرق المواصلات إلى الهند(٥٧).

سابعا : كانت الحملة فاتحة الصراع على مصر، وظهرت أهميتها بعد رحيلها -فى عهد عباس حلمى الأول (١٨٤٨-١٨٥٤)- حيث نجح الإنجليز خلال فترة حكمه فى التفوق على فرنسا ، خاصة عندما توطدت الصداقة بينه وبين قنصل بريطانيا العام فى مصر وهو شارل مرى وحصلت بريطانيا على موافقة لإنشاء سكة حديدية فى مصر لخدمة المصالح البريطانية ، ولتسهيل سرعة نقل التجارة والجنود البريطانيين بين انجلترا والهند(٥٨).

ثامنا : عندما تولى اسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ظهر التنافس بين الدولتين انجلترا وفرنسا ، وكان يختلف عن سابقيه حيث ظهر طموحه ومشروعاته الكبرى التى كلفته مبالغ ضخمة جعلت النفوذ الأجنبى يتغلغل داخل مصر . واشتدت الأزمة المالية التى أجبرت مصر على بيع حصتها فى قناة السويس، واشترتها إنجلترا حتى تكون شريكا لفرنسا فى إدارة القناة. ومع اشتداد الأزمة المالية، وتشكيل صندوق الدين ولجان التحقيق الدولية حاول اسماعيل إيقاف هذا النفوذ الأجنبى، وتحريك القوى الوطنية المصرية . وكان أن قامت إنجلترا وفرنسا بالضغط على السلطان العثمانى حتى عزل اسماعيل عام ١٨٧٩ . وتطورت الأمور بثورة الشعب المصرى بزعامة أحمد عرابى، الذى واجه تدخلا عسكريا سافرا من إنجلترا التى احتلت مصر عام ١٨٨٢ . وخرجت مصر من الناحية العملية عن سلطة الدولة العثمانية، واستقر الاحتلال نهائيا بالاتفاق الودى بين الدولتين عام ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا حيث اطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش، وظلت مصر من الناحية النظرية ولاية عثمانية حتى إعلان الحماية على مصر فى عام ١٩١٤ لتنتهى قصة الصراع الطويل على طرق المواصلات عبر مصر بدخول مصر تحت الاحتلال البريطانى(٦٠).

رابعا : الآثار التى ترتبت على الصراع حول طرق التجارة البرية :

من هذا العرض للحملة الفرنسية باعتبارها حلقة من حلقات الصراع الدولى على طرق المواصلات بين الشرق والغرب تتضح عدة أمور لها آثارها على المنطقة وعلى طرق المواصلات البرية ومن هذه الآثار :

أولا : أدى هذا الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية إلى محاولة الدولتين انجلترا

وفرنسا توثيق علاقاتهما بالسلطات الحاكمة فى مصر ابتداء من القرن السادس عشر، خاصة بعد انهيار دولة المماليك وتولى الدولة العثمانية الدفاع عن ديار الإسلام، وإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن الأوربية ، وقيام الدولتين بعقد معاهدات مع الحكام الموجودين فى مصر خاصة على بك ومحمد أبو الدهب وإبراهيم بك ومراد بك بقصد تسهيل مرور التجارة عبر مصر، رغم أن طريق رأس الرجاء الصالح كان ميسورا بالنسبة لانجلترا وهولندا لكنه أطول كثيرا من الطريق البرى عبر مصر .

ثانيا : أثبتت الدراسة أن كلا الدولتين حاولتا إرسال الرحالة والمستكشفين والتجار الذين أكدوا أهمية احتلال مصر باعتبارها مفتاح الشرق، وكانت فرنسا أسبق فى هذا المضمار خاصة بعد مسيو دى تيفيو وليبنز وفولنى وماجالون. وأكد الرحالة ضرورة احتلال مصر حتى تضمن فرنسا السيطرة على الطريق التجارى وضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند.

ثالثا : عندما أحست انجلترا بمحاولات فرنسا إغلاق الطرق أمام بريطانيا كان رد الفعل الطبيعى أن تحاول إرسال عدد من التجار والقناصل لوقف هذا المد الفرنسى، فضلا عن محاولات انجلترا الاستيلاء على منافذ طرق التجارة ، خاصة الاستيلاء على جبل طارق فى مدخل البحر المتوسط وعدن فى مدخل البحر الأحمر، وفرض الحماية على المشيخات العربية، سواء فى الخليج العربى أو فى أطراف الجزيرة العربية هذا كله بالإضافة إلى تكوين الشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية وشركة الليفانت من أجل السيطرة على منافذ التجارة البرية عبر مصر والعالم العربى .

رابعا : كانت الحملة الفرنسية على مصر سابقة خطيرة فى تاريخ العلاقات الدولية ، خاصة بين انجلترا وفرنسا، وكان قدوم الحملة صدمة حضارية أصابت المجتمع المصرى ولفتت انتباهه إلى تخلفه الشديد إبان الحكم العثمانى. وكان لابد من محاولة مواكبة التطورات الدولية وإحياء طرق التجارة البرية.

وقد تجلى هذا فى عصر محمد على الذى وجد تنافسا من الشركات الأجنبية لحفر قناة السويس للسيطرة على طرق التجارة . ولكن محمد على كان حريصا على استقلال مصر، وقال عبارته المشهورة «لا أريد بسفورا آخر فى مصر» لأنه كان يخشى من وقوع مصر تحت سيطرة أى من الدولتين انجلترا وفرنسا، كذلك ورفض إعطاء امتياز حفر قناة السويس لأى منهما، وحافظ على استقلال مصر، مما زاد من غضب انجلترا التى ظلت تضمر له العداء وحرمته من

كل انتصاراته، وأجبرته فى معاهدة لندن على التقوقع داخل مصر حتى لايؤثر على طرق المواصلات عبر مصر .

خامسا : أثبتت هذه الدراسة أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بداية مرحلة جديدة لفتت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى الفريد فى طرق المواصلات البرية. وكانت بداية محاولات جادة من أجل السيطرة عليها. وإذا قارنا فترة الحملة وما كان بعدها لجد الفرق شاسعا بين المرحلتين ، حيث كانت فترة ما قبل الحملة مجرد محاولات من قبل الرحالة والتجار، لكن بعد الحملة كان الطابع السياسى هو السائد والمحرك لكل الأحداث التى تلت الحملة . وكانت الحملة نقطة التحول، وبداية الأطماع الأوربية فى مصر والعالم العربى والأفريقى. ولم تتوقف هذه المحاولات إلا بسيطرة بريطانية على مصر عام ١٨٨٢م ، وانتصار أصحاب الطريق البرى والسكك الحديدية على أنصار الطريق البحرى وحفر قناة السويس .

هوماش البحث

١- السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧-١٨٨٢، ص٧١ .

٢- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٩٢ ، ص٢٢٢ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٩ ، ص١٨٨ .

٤- أحمد زكريا الشلق: معالم التاريخ المصرى الحديث والمعاصر، ص٣٨ .

٥- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٢ .

٦- روبير سوليه : مصر : ولع فرنسى ، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص١٤ .

٧- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٢٨ .

٨- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص٧٣ .

٩- Henry , Lamba: De l'evolution Juridique des Europeens en Egypt, Paris 1896 p. 205.

١٠- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٧ .

١١- جلال يحيى : المجمل فى تاريخ مصر، ص٥٢ .

١٢- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٢٢٣ .

١٣- روبير سوليه : مرجع سابق ، ص١٦ .

١٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٠ .

١٥- عمر السكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى الوقت الحاضر، القاهرة ١٩١٦ ، ص١٧ .

١٦- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٢٢٤ .

١٧- Deherain , Henry : L'Egypt, Turque p. 202 .

١٨- فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١، ص٧٣ .

١٩- روبير سوليه : مرجع سابق ، ص٢٤ .

٢٠- جلال يحيى: مرجع سابق ، ص١٥٣ ، وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سابق ، ص٢٠١ .

٢١- حراز : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٢٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص٩٦ .

٢٣- Jean Marir Carre : Voyageurs et Ecrivians Francais en Egypt le Cairo, 1956 , p. 36.

٢٤- حراز : مرجع سابق ، ص٧٧ .

٢٥- Francais Charles , Roux : les Origins de l'Expedition d'Egypt, paris 1916 , p. 39.

٢٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٣٠ وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن : النشاط التجارى فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨ ضمن كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص٢٥٤ .

٢٧- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٢٨- روبير سوليه : مرجع سابق، ص٣٠ .

٢٩- فاروق أباظة : مرجع سابق ، ص٧٩ .

٣٠- جلال يحيى : مرجع سابق ، ص١٥٤ .

٣١- Henry Laurens : L'Execpdition d'Egypt Paris , 1989 , p. 230 . وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٢٠٣ .

٣٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٣٣- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق، ص٢٢٢ .

٣٤- Ghorbal Shafik : The Beginnings of the Egyption Quastion and the Rise of Mahemet Ali 1928 , p. 3 .

٣٥- السيد رجب حراز: مرجع سابق، ص٨٠. Coupland R: East African and its Invaders, p. 362.

٣٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٢٦ .

٣٧- نفس المرجع السابق عمر عبد العزيز ص٢٢٧ .

٣٨- فاروق أباظة : مرجع سابق، ص٥٧ .

٣٩- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٨٤ .

٤٠- عبد الرحيم عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص١٩٦ .

٤١- محمد أنيس : مرجع سابق ، ص١٩٠ .

٤٢- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص٨٩ .

٤٣- عمر عبد العزيز : مرجع سابق ، ص٢٢٨ .

٤٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٩٢ .

٤٥- محمد أنيس : مرجع سابق، ص١٩ .

الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة على يد تيمورلنك ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا وأنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير.

ب- (وكالة الجوانية) هذه الوكالة تجاه باب الجوانية من القاهرة فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون كان موضعها عدة مساكن فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وبناها فندقا وربعا بأعلاه فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليه ما يصل إلى القاهرة وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس ويصير ما يرد فى البر يدخل به على عادته إلى وكالة قوصون وجعلها وقفًا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين فاستمر الأمر على ذلك [٣١].

ووكالتا قايتباى[٣٢] الأولى بالأزهر خلف الجامع الأزهر [٣٣]، والثانية[٣٤] على الشارع الأعظم التجارى الرئيسى للقاهرة فى حينه بالقرب من باب النصر ، ووكالة المستخرج التى تقع بجوار قصر بشتاك والمطلة على شارع المعز لدين الله الفاطمى ، والتى اشتراها السلطان قانصوه الغورى من الشيخ شمس الدين أبى عبدالله محمد بن زين الدين عبدالقادر بن شمس الدين محمد الشهير بابن الموقع بمبلغ ٢٥٢٠ دينارا ذهبيا [٣٥].

هذا وفى نهاية عصر المماليك الجراكسة نجد قمة العمارة التجارية والنضج الهندسى والجمالى فى وكالة السلطان الغورى[٣٦] والتى تقع بشارع التبليطة خلف خان الزراكشة بالأزهر وهى تتكون من خمس طوابق [٣٧]، الأرضى والأول : حواصل لتخزين البضائع ، والثلاثة الباقية أروقة (رباع) لسكن التجار، وكل رواق يتكون من ثلاث طوابق ، يتم الاتصال بينها بسلم داخلى يتغير موقعه بين كل طابق وآخر ، وهى فى حالة ترميم وتجديد الآن[٣٨].

أما فى العصر العثمانى فقد زادت أعداد الوكالات ، ويكفى للتدليل على ذلك وجود عشر وكالات[٣٩] فى هذا العصر أى فى القرون (١٠-١٢هـ / ١٦-١٨م) بالإضافة إلى الوكالات القديمة السابقة .

كما ذكر المقريزى بعض الأسواق وهى قرينة الوكالات بينهما اتصال لاينقطع نذكر منها نقلا عنه [٤٠]:

قال ابن سيدة والسوق التى يتعامل فيها تذكر وتؤنث والجمع أسواق وفى التنزيل إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق والسوقة لغة فيها والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان الذكر والانثى فى ذلك سواء وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً قد باد أكثرها وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقًا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتًا وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر وسأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا إلى ذكره إن شاء الله تعالى .

* (القصبة) قال ابن سيدة قصبة البلد مدينته وقيل معظمه والقصبة هى أعظم أسواق مصر وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول أن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسى ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لايكاد أن ينكر هذا الخبر وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العادّ عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والتى يوضع فيها الجبن والتى يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى والخيوط التي تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل ومن أدرك الناس قبل هذه المحن وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف لم يستكثر ما ذكرناه ، وقد اختل حال القصبة وخرب وتعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعايش ، ويقال لهم أصحاب المقاعد وكل قليل يتعرض الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما يحصل بهم من تضييق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت وقد ذهب والله ما هناك ولم يبق إلا القليل وفى القصبة عدة أسواق منها ما خرب ومنها ما هو باق وهذه بعضها .

* (سوق باب الفتوح) هذا السوق فى داخل باب الفتوح من حد باب للفتوح الآن إلى رأس حارة بهاء الدين معمور الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين والفاميين والشرايحية وغيرهم وهو من أجل أسواق القاهرة وأعمرها يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز ولشراء أصناف الخضروات وليس هو من الأسواق القديمة وإنما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عندما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين وقد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث وفيه إلى الآن بقية صالحة .

* (سوق المرحلين) هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين إلى بحرى المدرسة الصيرمية معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج إليه يقصد من سائر إقليم مصر خصوصًا فى مواسم الحج فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق وفى المخازن ، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة وكثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق إلى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز بالبلاد الشامية صار الوزراء يستدعون ما يحتاج إليه الجمال من الرحال والأقتاب وغيرها فإما لايدفع ثمنها أو يدفع فيها الشيء اليسير من الثمن فاختل من ذلك حال المرحلين وقلت أموالهم بعد ما كانوا مشهرين بالغناء الوافر والسعادة الطائلة وخرب معظم حوانيت هذا السوق وتعطل أكثر ما بقى منها ولم يتأخر فيه سوى القليل .

* (سوق خان الرواسين) هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش قيل له ذلك من أجل أن هناك خانًا تعمل فيه الرؤس المغمومة ، وكان من أحسن أسواق القاهرة فيه عدة من البياعين ويشتمل على نحو العشرين حانوتًا مملوءة بأصناف المآكل وقد اختل وتلاشى أمره .

* (سوق حارة برجوان) هذا السوق من الأسواق القديمة وكان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش وذلك أن أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم إلى مصر فى زمن الخليفة المستنصر وقد كانت الشدة العظمى بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر وأقام هذا السوق برأس حارة برجوان قال ابن عبدالظاهر والسويقة المعروفة بأمير الجيوش معروفة بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر وهى من باب حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكمى وهكذا نشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة فإن فيها والحد القبلى ينتهى إلى سويقة أمير الجيوش وسوق حارة برجوان هو فى الحد القبلى من حارة برجوان وأدركت سوق

حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة فنقول بحارة برجوان حمامات يعنى حمامى الرومى وحمام سويد فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة وبها فرنان ولها السوق الذى لايحتاج ساكنها إلى غيره وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين إلى سوق الشماعين معمور الجانبين بالعدة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ وبياعى اللحم السميط وبياعى اللحم البقرى وبه عدة كثيرة من الزياتين وكثير من الجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والبواردية والعطارين والخضريين وكثير من بياعى الأمتعة حتى أنه كان به حانوت لايباع فيه إلا حوائج المائدة وهى البقل والكراث والشمار والنعناع وحانوت لايباع فيه إلا الشيرج والقطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل وسمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة عنها يومئذ دينار ونصف وكان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النئ والمطبوخ إلى ثلث الليل الأول ومن قبل طلوع الفجر بساعة وقد خرب أكثر حوانيت هذا السوق ولم يبق لها أثر وتعطب بأسره بعد سنة ست وثمانمائة ، وصار أوحش من وتد فى قاع بعد أن كان الإنسان لايستطيع أن يمر فيه من ازدحام الناس ليلا ونهاراً إلا بمشقة وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لايتفرغ من الوزن ولايزال مشغولا به ومعه من يستحثه ليزن له فلما كان بعد سنة عشر وثمانمائة أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة وعمر ربعًا وحوانيت فتحابى بعض الشيء وقبض على طوغان فى سنة ست عشرة وثمانمائة .

العناصر المعمارية للمنشآت التجارية:

وردت فى المصادر مسميات عديدة لنوع من المنشآت التجارية كالخان -الفندق- القيسارية - الوكالة ، ولم توضح المصادر أية فروق بينها جميعا ، لاسيما وأن المطلوب من بنائها هو إيجاد مكان لعرض السلع ، وإقامة التجار الأغراب عن المدن فى راحة تامة ... وعقد الصفقات التجارية الكبيرة وقد خطط المهندس المعمارى لتلك المنشآت أن يكون فى كل منها :

١- حوانيت لعرض البضاعة .

٢- فناء أوسط يتم إنزال البضائع به .

٣- الحواصل لتخزين البضاعة بها .

٤- مصادر المياه اللازمة للمنشأة (مساه الشرب، الصرف الصحى) .

٥- الأروقة أو الرباع لإقامة التجار، أو عامة الناس.

هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن معظم الوكالات الكبيرة فى العصر المملوكى وما بعده كانت تتركز فى حى الأزهر وبولاق حيث المساحة والأرض الواسعة بالإضافة إلى، أن بولاق كانت ميناء لاستقبال السفن التجارية القادمة من الشمال أو الجنوب فى نهر النيل حيث تمتلئ الوكالات بالسلع والبضائع .

أما وكالات العصر العثمانى فمعظمها يقع وسط المدينة بالقاهرة العثمانية ... وإذن فوكالات العصر المملوكى بشقيه وخاصة من نهاية ق٩هـ وأوائل العاشر نهاية ق١٥ أوائل ق١٦م كانت تتكون من خمسة طوابق ، وفناء كشف سماوى مستطيل الشكل محاط بمجاز دائرى ، يطل على هذا الفناء بباتكة من العقود المحمولة على أعمدة ودعامات، ويفتح على هذا المجاز حواصل الطابق الأرضى والأول، أما الطوابق الثلاثة الباقية فتحتوى على أروقة خصصت لسكن التجار أو الأهالى، ونلمس كل هذا فى وكالة الغورى ، وهى بحالة جيدة الآن [٤١]، وأما مدخلها فيفتح على شارع التبليطة (شارع الشيخ محمد عبده الآن) .

وهذا الشكل والأسلوب الكائن بوكالة الغورى * وجد أيضا فى وكالة الخروب[٤٢] ووكالة سليمان[٤٣] باشا ووكالة حسن باشا الوزير [٤٤].

أما وكالات العصر العثمانى فهى أصغر حجما عنها فى العصر المملوكى كما أشرنا ، ويمثل هذا النوع من الوكالات وكالة جمال الدين الذهبى، فهى تتكون من فناء كشف سماوى مستطيل الشكل يفتح عليه حواصل الدور الأول مباشرة ، وذلك بسبب صغر المساحة المقام عليها الوكالة..[٤٥]. ونجد على مثالها وكالة ذو الفقار (ق١٢هـ/ ١٨م) .

ومهما يكن من أمر فإن وكالات هذا العصر - بصفة عامة- تتكون من فناء أوسط مستطيل عادة أو مربع الشكل، يحيط به فى الطابق الأرضى مجموعة من الحواصل مقبية السقف وحوانيت ، ومدخل الوكالة مميز بزخارف حجرية وهندسية ، وقد جعلت الحواصل الداخلية مخازن للبضائع ، والحوانيت الخارجية الواقعة على الشارع المسلوك لعرض البضائع فى الخارج على المارة من الناس.

---

* راجع ترجمته فى هذا البحث ، د. حسن الباشا : قنصوة الغورى وعمائره فى موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية جـ١ ص٣٤١-٣٥٧ ط١ سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مكتبة الدار العربية للكتاب- القاهرة.

أما الأدوار العليا فكانت سكنا للتجار الوافدين بتجارتهم إلى القاهرة ، وأكثر من ذلك أنها جعلت سكنا للعامة ، أو رباعا يسكنها الأهالى كما ذكر ذلك المقريزى -وأشرنا إلى ذلك- عند ذكره لوكالة قوصون التى كان يعلوها ربع يشتمل على ٣٦٠ بيتا يسكنها حوالى أربعة آلاف شخص وعادة ما يكون بالوكالة صهريج يمد السكان بالمياه اللازمة ، ويوجد بها أحيانا مصلى أو مسجد يكون بوسط الوكالة ..[٤٦].

وبشئ من التفصيل أتناول كل عنصر من العناصر السابقة وهى:

١- الحوانيت : جمع حانوت (دكان) ويتكون عادة من مساحة مستطيلة الشكل، وسقفه قبو مغطى عادة بالبلاط الكدان أو الحجر الجيرى واللون الأبيض أو الأصفر أو الرمادى أو المجزع [٤٧]، وتوجد الحوانيت فى كل منشأة تجارية لعرض السلع والبضائع الكائنة بها، وعادة ما تكون مفتوحة على الشوارع الرئيسية التى يسلكها المارة لتلفت أنظارهم وتجذبهم لابتياع هذه السلع ويظهر ذلك واضحا فى وكالات قايتباى والغورى وجمال الدين الذهبى وغيرها.

٢- الفناء الأوسط : كان على هيئة مستطيلة الشكل وهو قاسم مشترك بين جميع المنشآت التجارية وكان يوجد به مبان دينية فى وسطه، فالفنادق التى كانت بالثغور بنيت فى وسطها الكنائس لتأدية الطقوس للتجار المسيحيين، وكذلك المسجد أو المصلى لإقامة شعائر الإسلام وفروض العبادة فى مكان عملهم وبجانب تجارتهم.[٤٨]. أو فوارة أو فسقية فى الوسط [٤٩]، وأحيانا تكون به حديقة صغيرة كما فى بعض الفنادق .

٣- الحواصل : جمع حاصل وهو المخزن[٥٠] وعادة ما تكون فى الطابق الأرضى من الوكالة أو الفندق أو القيسارية أو الخان وعادة ما تكون مستطيلة الشكل سقفها قبو نصف إسطوانى ذو باب بمصراع واحد يفتح على الصحن يعلوه نافذة للتهوية والإضاءة ، وأحيانا تشمل الحواصل الطابق الأرضى والأول الذى يليه ، واستخدمت فى خزن السلع لحفظها [٥١].

٤- مصادر المياه : كانت بالمنشآت التجارية عادة آبار توجد فى أفنيتها أو فى «الدركاة» وهو المكان الذى يلى المدخل مباشرة، وقد يلحق بأحد أركان المنشأة سبيل لشرب المارين على الطريق ، ولإمداد ساكنيها بالمياه العذبة الصالحة للشرب والوضوء، وبها صهريج[٥٢] يملأ سنويا فى موسم الفيضان ، وقد يوقف المنشىء الوكالة على مصالح السبيل لاستمرار تأدية وظيفته كصدقة جارية للتقرب إلى الله تعالى كما تنص على ذلك بعض الحجج الشرعية.

٥- الأروقة : جمع رواق ويتكون من إيوان[٥٣] أو إيوانين متقابلين بينهما دور قاعة[٥٤] في الوسط وشبابيك وطاقات مطلة على الواجهة الرئيسية أو مطلة على الفناء الأوسط الداخلى كما فى وكالة الغورى بشارع التبليطة بالأزهر ومنافع وحقوق [٥٥].

وعادة ما تكون هذه الأروقة بالأدوار العليا تعلو الحواصل كالكائن فى وكالة الغورى حيث يسكن التجار علوها بعد أن يضعوا بضائعهم فيها، واستمر ذلك فى العصر المملوكى وامتد فى العصر العثمانى بتلك المنشآت، بل أكثر من هذا نصت بعض الوثائق على إنشاء رباع فوق المنشآت التجارية ، وذلك للاستفادة القصوى منها لملاكها[٥٦] وقد ذكر المقريزى أن وكالة «قوصون» كان يعلوها ربع يتكون من ٣٦٠ بيتا (رواقا) يسكنها أربعة آلاف شخص ما بين رجل وامرأة وصغيراً[٥٧].

موظفو المنشآت التجارية :

يحتاج العمل فى المنشآت التجارية إلى جيش من الموظفين فى وظائف كثيرة ومتنوعة ، ولابد لاستمرارها فى أداء وظيفتها الحيوية اليومية المنوطة بها، لابد من وجود موظفين وسنرتبهم حسب أهميتهم :

١- القنصل . ٢- السماسرة والدلالون . ٣- البواب . ٤- المتسبب . ٥- المثمن . ٦-المترجم أو الترجمان . ٧- العتالون أو الحمالون . ٨- ناظر الأسواق . ٩- كاتب الجرايد بالسوق - مدولب الوكالة . ١٠- شاد السوق . ١١- الشهود العدول أو شهود الوزن . ١٢- العاشر أو العاشور أو مستوفى الضريبة .

وأفصل فى شرح هذه الوظائف بعض التفصيل :

١- القنصل : هو النائب عن دولته فى دولة أخرى يرعى حقوقها وتجارتها ويدافع عن رعيتها وهو دون الوزير المفوض ومرتبته دون مرتبة السفير [٥٨]، وأصلها اللاتينى Consui يعنى مستشار ، ويعنى بها فى زماننا هذا ممثل الدولة[٥٩] وقد اصطلح أرباب السياسة على أن القنصل مأمور ترسله دولة إلى دولة أخرى أجنبية لحماية حقوقها وتجارتها وتبعتها ، وكان فى الدولة الرومانية صاحب المقام الأول من الولاة وتكون له سلطة الملك لمدة سنة[٦٠].

بينما يرى القلقشندى : أن القنصل هو الذى يرعى مصالح دولته فى البلد الموجود به، وهو من ألقاب زعماء النصارى[٦١] وتلك وظيفة لاتوجد إلا فى الفنادق الموجودة بالثغور[٦٢] وقد

يعقد القنصل اتفاقيات تجارية هامة نيابة عن بلده، ففى عهد السلطان برسباى وفد إلى مصر مبعوث فلورنسا لعقد اتفاق تجارى مع السلطان برسباى، فيصف المراحل التى مرّ بها حتى وصل إلى رؤية السلطان ، حيث بدأ بمقابلة الدوادار .

٢- السماسرة والدلالون والمتسببون : جمع سمسار ودلال ومتسبب ، فالسمسار هو وسيط بين البائع والمشترى لتسهيل الصفقة وهذا اللفظ فارسي معرب أما السمسرة فهى الحرفة بعينها(٦٣).

وفى حديث قيس بن أبى عروة : «كنا قوما نسمى السَّماسِرَة بالمدينة فى عهد رسول الله ﷺ فسمانا النبى ﷺ التجار(٦٤) » . والسمسار فى البيع هو الذى يدخل بين البائع والمشترى متوسطا لإمضاء البيع . والسمسرة البيع والشراء(٦٥).

أما الدلال : فهو لفظ مرادف للسمسار ويعنى الجمع بين البيع والشراء، وهو ما ينادى على السلعة لتباع بالممارسة والحرفة منها هى الدلالة(٦٦) وجمعها دلالون (٦٧).

أما المتسبب فهو مفرد المتسببة وهم فئة من التجار وتقول العامة لما فى أيديهم «سَبُّوبَة» ويعرفهم ابن إياس بأنهم أشخاص يعملون فى هذه المهنة، كانوا يرتزقون عن طريق التجارة أو يقومون بدور الوساطة أو السمسرة بين البائع والمشترى(٦٨).

وهذه الوظائف منفرد أو مجتمعة وجدت فى المنشآت التجارية سالفة الذكر، وهم الوسطاء بين البائع والمشترى ومهمتهم هى تسهيل عقد الصفقات التجارية وإنجازها ، وكان لكل سوق سمسار معين يتبعه سماسرة يختص كل منهم بسلعة معينة(٦٩).

ولهذه الفئة صفات اتصفت بها حددتها كتب الحسبة وأوجبت عليهم أن يكونوا ثقاة من أهل الدين والأمانة وصدق القول، ولاينبغى لأحدهم أن يزيد فى سلعة ما ولايكون شريكا فيها، وأن يكون عف النفس واللسان ، بصيرا بالشىء المبيع حسناته وسيئاته ، يبصر المشترى بكل شىء عن المبيع ويراقب الله تعالى فى عمله (٧٠).

٣- البواب : هو الحاجب الذى يحجب الناس ويمنعهم من الدخول إلا بإذن وهو ملازم الباب والبوابة بتخفيف الواو وظيفة لحقت بالمنشآت المدنية فى العصور الوسطى وتعنى فى اللغة حافظ الباب أى حارسه، وإذن هى تطلق على الجزء ويراد به الكل أى المنشأة التى بها الباب وهو المدخل لهذه المنشأة (٧١). وعلى شاغل هذه الوظيفة مراقبة الداخلين والخارجين . ويسهر على الحراسة ويفتح باب المنشأة فى وقت معلوم ويغلقه فى وقت معلوم من الليل أو بعد صلاة

العشاء، ويوقظ من يريد الإيقاظ فى وقت طلبه، ويحصل الإيجار من السكان، ويلزمه المبيت بالقرب من الباب ليسمع من يطرقه ويفتح للسكان . عندما يتأكد من سماع صوتهم، ويوقظ السكان وينبهم إذ شب حريق فى المكان[٧٢] هذا وقد تدهورت أحوال صاحب هذه الوظيفة عندما تخربت بعض الوكالات وأصبح الناس يدخلونها ولا بواب بها [٧٣].

٤- المترجم أو الترجمان : هو الذى بيّن الكلام وأوضحه أو هو المفسر للسان ونقل الكلام من لغة إلى أخرى[٧٤] وكلمة ترجمان مرادفة للمترجم ، والجمع تراجم وتراجمة، ويظهر أن الترجمان نوعان : أحدهما من أهل البلد بصير بلغة الأغراب وثانيهما من الأجانب بصير بلغة أهل البلد الذى يزوره ويسمى ترجمان الافرنج[٧٥].

٥- المثمن : وهو الذى يقوّم السلعة ويحدد ثمنها حسب درجة جودتها من عدمه [٧٦]، وعمله فى المنشآت التجارية وفى العصور الوسطى كان يقوم بتقدير الشىء المبيع ليمكن مقايضته بالمقابل له ، وربما كان موظفا حكوميا مهمته مراقبة عملية تبادل السلع والتجارة وحركتها فى المنشأة وغالبا ما كان ذلك فى الفنادق أكثر [٧٧].

٦- العتّال أو الحمّال : هو الذى يحمل الأشياء على كتفه أو رأسه أو ظهره وينقلها من مكان إلى آخر بأجرة[٧٨] ومن الطبيعى أن توجد تلك الوظيفة فى المنشآت التجارية والأسواق لحمل البضائع لمن يشترون[٧٩]. وقد وجدت هذه الوظيفة على شاهد قبر مؤرخ سنة ٢٤٢هـ ٨٥٦م باسم سعيد بن ميمون الحمّال وعلى النسيج والخزف ذى البريق المعدنى بمتحف الفن الإسلامى[٨٠].

٧- القبانى: نسبة إلى القبّان وهو ميزان بالغ الدقة فى تقدير الوزن[٨١] ومن المؤكد أن وظيفة القبانة وجدت فى المنشآت التجارية حيث يعتبر صاحبها طرفا محايدا بين البائع والمشترى ، وكان من صفاته : أن يكون ثقة مشهورا بالأمانة ديّنًا ، وعلى المحتسب ألا يمكن القبان من الوزن أو الكيال من الكيل أو القياس من القياسة أو غيرهم ممن يندرج عملهم تحت تلك الوظيفة إلا إذا كان مشهودا له بثبوت أمانته وعدالته[٨٢].

وقد وجدت كتابة أثرية على ميزان قبان محفوظ فى متحف الفن الإسلامى نصها : صاحبه محمد بن محمد القبانى عمل الفقير أحمد البرنبالى [٨٣].

٨- مدولب الوكالة: هو الشخص الذى يقوم بادارة الآلة المعروفة بالدولاب وهو اسم آلة تديرها الدابة لسقى الأرض، وجمعه دواليب لفظة فارسية معربة ، وقد وجدت هذه المهنة فى الوكالات وكذلك الحمامات ومطابخ السكر وغيرها [٨٤].

٩- شاد السوق : صاحب هذه الوظيفة مكلف بالتفتيش والإشراف على إدارة السوق ومنها شاد البحر أى له حق الإشراف على الموانىء أو شاد الجوالى وشاد الأقواد وشاد الأوقاف وشاد الخاص وشاد الشوانى وشاد المسابك وشاد المهمات وشاد العمائر وشاد الدواوين ... الخ وقد شاع استخدام هذه اللفظة فى دولة المماليك، وهو اسم فاعل من شد الشيء بمعنى قواه ومتّنه ، ويبدو أن هذه الوظيفة كانت معاونة للمحتسب فى الأسواق [٨٥].

١٠- الشهود العدول أو شهود الوزن : أصحاب هذه الوظيفة كانت مهمتهم الشهادة على صحة عقد البيع فى العمليات التجارية والشهادة أمام القضاة بصدق ذلك من عدمه فى حالة النزاع والخصومة بينهم، وكان لهم ديوان خاص بهم وقد عبر القلقشندى عنهم بالشهود والمعدلين[٨٦] وعرفوا أيضا بالعدول أو العدل أو المعدل[٨٧] وكانت المحاكم تعينهم بعد أن تتأكد من ثبوت عدالتهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح والتعديل ليحصل لهم الوثق بهم [٨٨]. وهم أنواع كثيرة فمنهم : شهود السبيل ، وشهود القيمة ، وشهود المماليك وشهود البيمارستان ، وشهود دواوين المال وشهود الطراز، وشهود دار الضرب وشاهد الخزانة... الخ[٨٩].

١١- ناظر الأسواق : هو الرئيس والمسئول الأول عن كل ما يجرى فى الديوان، ويرجع إليه الموظفون ، ولابد من توقيعه الرسمى على الإيراد والمنصرف فى الديوان، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقى والفوائض والمتأخرات[٩٠] وصاحب هذه الوظيفة وعمله لابد أن يكون فى أماكن البيع ، ويعاون المحتسب ومن مهامه الإشراف على العمليات التجارية ومراقبة الأسواق[٩١] وأنواع النظارة كثيرة منها : نظارة : الجيش ، نظارة الخاص ، ونظارة المواريث ونظارة الزكاة ونظارة الكسوة ونظارة الدواوين ، وناظر النظار وغير ذلك[٩٢].

١٢- كاتب الجرائد بالسوق : وظيفة كتابة أسماء العملاء فى السوق على قوائم يمكن الرجوع إليها عند الحاجة[٩٣] والجرائد جمع جريدة وهى الصحيفة التى تسجل فيها المنشورات ، ولهذه الوظيفة مسميات كثيرة منها : كاتب الجيش وكاتب السر...الخ [٩٤].

١٣- العاشر أو العاشور : ووظيفته تحصيل العشور أو المكوس على البضائع المستوردة وعمله ومكانة فى الوكالات والأسواق وعلى بوابات القاهرة (بوابة المتولى، وباب الفتوح وباب النصر وغيرها، وآدابه ومظاهر رفقه فى استيفاء العشور تحدثت عنها كتب الحسبة وكتب الفقه

بالتفصيل وقد تجلى ذلك فى تنوع الاستيفاء وفى التفريق بين ما تنقسم عنه ومالاتنقسم وفى أخذ البدل مكان العين وتجلت أيضا فى تحريم القبالة وهى تضمين مناطق الجمارك للأفراد ، ويتم الإشراف عليها منهم بدلا من إشراف الدولة، ولايخفى أن ذلك يدعو إلى تعسف الأفراد المشرفين على استيفاء الضرائب أملا فى الحصول على أرباح أكبر(٩٥).

هذا ... لقد كانت الوكالات أسواقا كبيرة للجملة ، ولايخفى أن البيع أو الشراء بها مما يصحبه دواما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، ولولا طرق القوافل(٩٦) البرية والبحرية التى ترتبط بالقاهرة لما ازدهرت فى وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية.

وسنترجم لبعض أصحاب الوكالات الكبيرة الشهيرة لبعض السلاطين والتى ما زالت موجودة إلى الآن . ونحن نترجم لثلاثة من سلاطين المماليك الجراكسة أصحاب الوكالات الشهيرة بالقاهرة وهم :

السلطان برسباى الدقماقى :

هو الملك الأشرف برسباي بن عبدالله أبو النصر الدقماقى الظاهرى الجركسى ، سلطان البلاد المصرية والشامية والثامن من ملوك الجراكسة.

أخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القريم ، فاشتراه بعض التجار متوجها به إلى بلاد الشام، فاشتراه فى الطريق نائب ملطية الأمير دقماق المحمدى، ثم أرسله هدية إلى الظاهر برقوق ضمن هدايا أخرى هائلة.

وقد أعتقه برقوق وتنقلت به الأحوال ليكون ساقيا فى دولة الناصر فرج ، ثم فرَّ إلى نوروز وشيخ إلى أن قتل فرج ، فعاد معهما إلى مصر، ولازال فى الترقى والصعود حتى أمير مائة ومقدم ألف، فولى نيابة طرابلس ثم عزل وقبض عليه وسجن . ثم عاد إلى مصر صحبة السلطان ططر، إلى أن مات ططر ، فأصبح هو المتكلم على ابنه الصغير (٩٧).

لكن رأى أهل الدولة وأصحاب الحل أو العقد فيها أن تكون السلطة لشخص كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ، وينظر فى أحوال الناس، ويدير الأمر، وينصر المظلوم. وقد وقع اختيار كبار الأمراء على «برسباى» لكونه متصفا بصفات الكمال من الدين والفقه والمهابة وطهارة الذيل واللسان ، وقوة القلب والجنان»(٩٨). ولقب بـ «الأشرف» وكنوه بـ «أبى النصر»، وبولايته سكنت الفتن واستقرت الأحوال، فتولى السلطنة بذلك يوم الأربعاء ٨ من ربيع الآخر ٨٢٥هـ ١٤٢٢م»(٩٩).

صفاته : كان «برسباى» ملكا جليلا مهابا، عارفا متواضعا حسن الخلق، شهما شجاعا ذا شيبة نيرة وهيئة حسنة متجملا فى حركاته، لايتعاطى شيئا من المسكرات، محافظا على ناموس الملك، محبا لجمع المال، مكثرا من المماليك، ويحب العلماء وأهل العلم.

من محاسنه : إبطال عادة تقبيل الأرض، وكانت هذه عادة من قبله من الملوك مكتفيا بتقبيل اليد، وحسن النقود حتى كانت نقوده من أجد الذهب والفضة. وكان الناس يرغبون فيها ويتكالبون عليها، وكان كثير البر والصدقات مع لين الجانب ، ولولا كثرة طمعه لكان عظيما من عظماء التاريخ(١٠٠).

ومن محاسنه : كذلك مرسومه إلى حاجب حجابه الأمير «قرقماس» سنة ٨٣٢هـ-١٤٢٩م، بإراقة الخمور وحرق من الحشيشة المغيرة للعقول شيئا كثيرا، وتتبع مواطن الفساد ومنع الناس من الاجتماع بها(١٠١).

ومن محاسنه : أنه أدب الفرنج ، وحارب القبارصة فى ثلاثة غزوات أسر فى ثالثتها «جانوس» ملك قبرص وأتى به مكبلا بالسلاسل إلى مصر ذليلا وعلق خوذته على باب مدرسته الأشرفية ، ثم عفا عنه ورسم له بما يكفيه حتى فك أسره ورجع، وثبت أركان دولته فهابها الجميع (١٠٢).

أما عيوبه : فالمظالم التى أحدثها فى شهر المحرم ٨٣٢هـ- ١٤٢٨م وهى إلزامه للتجار العراقيين بدفع ثلاثة دنانير ونصف عن كل حمل يتبضعون به من تجارة الهند بمكة بدلا من حضورهم إلى القاهرة، وألزم سائر التجار بالحضور للقاهرة لدفع الجمارك على بضاعتهم، صحبة ركب الحج ، وعين أعوانه لحراستهم وحفظهم حتى لايستطيع أحدهم الفرار أو البقاء بمكة.

وألا ينصب قبانى لوزن بضاعة أحد من التجار بالاسكندرية، ومنع كافتهم من بيع البهار للفرنج الذين ألزمهم بشراء الفلفل السلطانى من جدة بسعر ١٢٠ دينا للحمل، وكانت قيمته مع التجار بثمانين ، فأخذ الفرنجة البضاعة إلى بلادهم ، ولم يشتروا أو يبيعوا للتجار، وحصل بذلك لهم ضرر كبير (١٠٣).

ولما بلغ السلطان مدى كثرة الربح الذى يحصل عليه تجار الشام فيما يجلبونه من الأقمشة أمر السماسرة بمنعهم من البيع ويكون كل هذا النوع متجرا للسلطان ورسم لأمراء الشام بعدم

دخول هؤلاء التجار إلى القاهرة بأقمشتهم ، فأرجعوهم بتجارتهم فى البرارى وخربت مدن الشام من هذا النوع من الأقمشة وغيرها وبطلت صناعة النسيج كذلك وضج الناس من هذه الأهوال.

وكذلك احتكر السكر ليباع في المتجر السلطاني فلايجرؤا أحدا على شرائه إلا من متجر السلطان وكذلك احتكر الفلفل ، وبذلك تسبب فى خراب بيوت التجار وهجرهم القاهرة، وكان هو فى الحقيقة سببا فى اتجاه البرتغاليين من حينئذ فى البحث عن طريق بديل للتجارة غير مصر(١٠٤).

ومن عيوبه كذلك : توسيطه لطبيبيه (أى قطعه لوسطهما بالسيف) وهما الرئيس «زين الدين خضر» والرئيس «شمس الدين بن العفيف الأسلمى» ، وذلك عندما حصلت له «مليخوليا» ، فى مرض موته ، وذلك لشدته عليه ، وكان ذلك فى ٤ شوال سنة ٨٤١هـ-١٤٣٧م فاستسلم الثانى وثبت حتى صار قطعتين ، أما خضر فراع وجزع جزعا شديدا ودافع عن نفسه وكثر صياحه وبكاؤه ، فتكاثروا عليه ووسطوه توسيطا مروعا وذلك لتلويه واضطرابه(١٠٥).

أما جلوسه للحكم، فقد كان يوم السبت والثلاثاء ، وكان يجمع معه القضاة الأربعة، ثم تركهم وجلس وحده . فقد نادى فى يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ٨٤٠هـ بجلوسه مع القضاة الأربعة بمجلسه : «من له ظلامة ، من قهر من غبن عليه بالأبواب الشريفة»(١٠٦). وكانت سفرته المشهورة إلى ديار بكر سنة ٨٣٦هـ- ١٤٣٢م .

وكانت وفاته يوم السبت ١٣ ذى الحجة ٨٤١هـ- ١٤٣٨م بعد أن اختلط عقله وابتلى بالصرع، وكانت مدة سبطنته ١٦ سنة و٨شهور، وكان سنه قد تخطى الخامسة والسبعين بخمسة أيام (١٠٧)، ودفن بتربته بالصحراء وكان السلطان قد رسم ألا تخرج امرأة من بيتها مطلقا، فكانت الغاسلة إذا خرجت إلى ميت أخذت ورقة من المحتسب فتجعلها على رأسها حتى تستطيع المرور من السوق، وسلط أعوانه بتشديد القبضة عليهن ، فمن خرجت ضربت ضربا مبرحا ، فامتنعت النساء من الخروج ووقفت الأسواق من بيع العطور، وكان ذلك برأى القضاة وذلك لخروجهن متبرجات متزينات ، كما رسم بألا يلبس فلاح زنطا مطلقا(١٠٨).

منشآته وحبه للعمارة : كان برسباى ممن يعشقون العمارة ولعا بها ، وتعتبر منشآته من أشهر آثار العصر المملوكى، فمن المدارس التى أنشأها:

١- المدرسة الأشرفية بالقاهرة [١٠٩]، عند سوق الوراقين بشارع المعز لدين الله الفاطمى[١١٠]، وسميت الأشرفية نسبة إلى منشؤها الأشرف برسباى، وتمت عمارتها على أكمل وجه ، وكان السلطان يقوم بنفسه بمباشرة العمل بها.

ففى يوم الخميس مستهل رجب ٨٢٦هـ- ١٤٢٣م رسم السلطان بهدم الحوانيت بخط الصنادقيين إلى رأس الحريريين وما جاورها من الأملاك والأوقاف لكى يبنى المدرسة والمسجد فى هذا المكان، وكان المشرف على عمارتها «الزينى عبد الباسط» ، فدفع ثمن الأملاك التى هدمت والأوقاف التى استبدلت، وأظهر اهتماما ونهضة كبيرة ، ونقل التراب والطين المتخلف من الحفر، ونقل الحجارة وعملها جيرا ، ورسم بعدد من الحمير والجمال لنقل ذلك.

وفى يوم السبت ٢٦ شوال من نفس هذه السنة ، ركب السلطان إلى مدرسته بعد الظهر ومعه جماعة قليلة من غير أن يعلم أحدا، ودار فى المدرسة ورجع [١١١]. ولما تمت عمارتها وكملت عين بها أرباب الوظائف ، ففى يوم الخميس ٣ من رجب سنة ٨٢٧هـ عين لهذه المدرسة شيخا هو «علاء الدين على بن الرومى الحنفى»[١١٢]، وحضر السلطان والقضاة مجلس علمه، فبعد الاستفتاح خطب خطبة بليغة تضمنت مدح السلطان، ثم شرع يتكلم فى قوله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾(التوبة / آية ١٨) وخلع السلطان وأنعم عليه فى شهر رمضان بالقمح والسكر والذهب ، ولما سأله السفر للحجاز أعطاه هجينا ومبلغ من المال قدره ١٥٠ دينارا ذهبا [١١٣].

وفى ٩ رمضان ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م قرر السلطان بها ثلاثة دروس فجعل للشيخ «شمس الدين بن على القاباني الشافعى»[١١٤] درسا ومعه عشرون طالبا ، وشيخ المالكية «عبادة بن على ابن صالح الزرزاى»[١١٥] المولود ٧٧٧هـ- ١٣٧٥م ومعه عشرة طلاب، أما الحنابلة فشيخهم زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله المعروف بالزركشى [١١٦]، المولود سنة ٧٥٨هـ- ١٣٥٧ م ومعه عشرة طلاب [١١٧].

وقد أثبت السلطان وقفيتها وفى جدرانها بكتابة بارزة من بدن الحجر داخل المقصورة حرصا على بقاء أوقافها ، ومع هذا لم يفد ذلك فائدة ، فقد لحقها ما لحق بغيرها من الاضمحلال والضعف.

المرتبات : يصرف لإمام هذا المجتمع شهريا ألف درهم ، وثلاثة أرطال خبز يوميا وللخطيب خمسمائة درهم شهريا ، وثلاثة أرطال خبز يوميا ، وللمدرس الحنفى ثلاثمائة درهم فى كل شهر وستة أرطال خبز يوميا ، وللمدرس الشافعى مائة درهم شهريا وستة أرطال خبز يوميا ، ولمدرس مالكى وحنبلى كل منهما خمسون درهم شهريا وستة أرطال خبز لكل منهما ، ولخمسة وستين طالبًا سبعة آلاف وخمسمائة درهم سهريا ، وخمسة وتسعون رطلا من الخبز يوميا [١١٨]، ولخازن الكتب ٣٠٠درهم شهريا ، ٣ أرطال خبز يوميا .

الصوفية بالمدرسة الأشرفية : قرر السلطان برسباى فى حجة وقفه شيخا للصوفية رجلا من أهل العلم حنفى المذهب، موصوف بالديانة ، ويكون عالما بالأصلين قادرا على إلقاء الدروس على الطلبة، «من الكشاف للزمخشرى ، ومن المفتاح للسكاكى، ومن الهداية فى فقه مذهب الإمام أبى حنيفة ، ومن البزدوى فى أصول الفقه ». وعدد الصوفية الذين معه خمسة وستون صوفيا .

«يجلس لهم كل يوم بالجامع المذكور مدرسا بكرة النهار يقرؤون عليه شيئا من العلوم الشرعية على ما جرت به العادة بالقاهرة المحروسة.

ويصرف لهذا الشيخ فى كل شهر من الفلوس الجدد المضروبة والمختومة معاملة الدينار المصرية أو ما يقوم مقامها من النقود ، ثلاثة آلاف درهم، ومن الخبز القرصة المستخرج من دقيق ستة أرطال [١١٩].

وشرط برسباى أن يكون الطلبة والأساتذة كلهم من الصوفية، كما شرط أن كل من يتقاضى خبزا لابد أن يحضر درس التصوف بعد صلاة العصر، على أن يجتمعون هم وشيخهم من كل مذهب فى كل يوم بالجامع المذكور ويفرق عليهم الربعات الشريفة ، ويقرأ كل منهم حزبا من القرآن العظيم[١٢٠].

كما عين السلطان الشيخ «شرف الدين موسى الرومى» مكتبا لتعليم أرباب الوظائف وغيرهم تحسين الخط العربى «ويصرف له فى كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة درهم أو ما يقوم مقامها من النقود ، وفى كل يوم من الخبز القرصة ثلاثة أرطال ، ليتعاهد أرباب الوظايف بالجامع المذكور بتعليم رسم الكتابة على العادة فى مثل ذلك»[١٢١].

٢- مدرسة السلطان برسباى بسرياقوس: كملت عمارتها فى ربيع الآخر ٨٤١هـ ١٤٣٨م

وقفها على الصوفية بخانقاه سرياقوس على الطريق المسلوكة ، وقرر السلطان لها إمام للصلوات الخمس وخطيبا وقراء يتناوبون القراءة فى المصاحف . وقيل أنه تناهى فى نقشها وزخرفتها(١٢٢). وذرعت فجاءت خمسين ذراعا ، وبعض الباحثين يطلقون عليها مسجدا والبعض الآخر مدرسة ، والصحيح أنها مجمع دينى يشتمل مدرسة وكتاب وسبيل ومنبر للخطابة وخانقاه، للصوفية ، ويرى بعض الباحثين أن السبب فى بناء هذا المسجد أنه عند خروجه لغزو قبرص نزل بخانقاه سرياقوس سنة ٨٢٩هـ، ونذر لله إن أحياه وظفر بعدوه الملك (جان دى لوزنيان) وأسره، ليعمرن فى هذا المكان مدرسة وسبيلا ، ولما تم له النصر وفى بنذره، والمسجد مربع الشكل، مساحته بالمتر ١٤٧٤ .

وممن ولى مشيخة هذه المدرسة (الخانقاه) القاضى «محب الدين بن رسول الكرادى» القرمشى الأصل الحنفى، المعروف بابن الأشقر المتوفى يوم ١٢ رجب ٨٦٣ هـ- ١٤٥٩م(١٢٣).

٣- مسجده بباب النصر : قرر فيه إمام للصلوات الخمس، ومؤذن وعلى المؤذن - بالإضافة إلى عمله بإعلام الناس بوقت الصلاة - تعليم الأيتام الموجودين المقررين بالمسجد وهم عشرة(١٢٤).

على أن حجة وقف السلطان برسباى تجعل الإمام لهذا المسجد هو المؤذن وهو نفسه مؤدب الأطفال به ، وشرطت أن يعلمهم كتاب الله العزيز والخط العربى والاستخراج (الحساب)(١٢٥) على أن يصرف له فى كل شهر خمسة عشر درهما وزنا بصنج الفضة، ومن الخبز القرصة كل يوم رطلان.

على أن يصرف للأيتام جميعهم خمسة عشر درهما لكل واحد منهم فى الشهر درهما ونصف درهم، ولكل واحد منهما رطلان من الخبز القرصة يوميا بالسوية بينهم ، وللأيتام كذلك من الفلوس الجدد مائتى درهم ليكمل لكل يتيم منهم درهم ونصف فضة وعشرون درهما فلوسا فى كل شهر ورطلان خبزا فى كل يوم .

ويزيد على مبارك فى خططه إمام للمسجد ويعطيه مائة درهم فضة، وليس هذا الإمام موجودا بحجة برسباى، ولا أدرى من أين أتى بهذا الإمام ، ولعله اطلع على الحجة الأصلية ورأى فيها الإمام وسقط هذا الإمام من الكاتب لحجة الوقف المنقولة عن الأصلية(١٢٦).

٤- مسجد وتربة وزاوية بالصحراء(١٢٧): وقد عين السلطان برسباى لهذه المدرسة المجاورة

للتربة إماما وخطيبا ومدرسا حنفيا ومعه سبعة عشر طالبا. على أن يصرف لكل منهم: الإمام: خمسة وثلاثون درهما نقرة جيدة شهريا، وثلاثة أرطال خبز يوميا ، وفى نظير قراءته فى المصحف كل جمعة خمسون درهما شهريا .

الخطيب: مرتبه مائة درهم شهريا فقط وليس له خبز لأنه لايحضر يوميا .

المدرس الحنفى : مرتبه شهريا خمسة وسبعون درهما ، وثلاثة أرطال خبز يوميا .

أما الطلاب السبعة عشر: فلهم مائتا درهم شهريا، وواحد وخمسون رطلا من الخبز يوميا(١٢٨).

هذا وقد وقف السلطان برسباى على منشآته التعليمية وغيرها أرضا بالجيزة والغربية والدقهلية والمنوفية وأسيوط وغيرها وعقارات بالقاهرة وغيرها(١٢٩).

هذه تقريبا أهم منشآته ، وله منشآت مدنية كثيرة منها: قنطرة المجذوب بمدينة أسيوط فقد جاء فى محاضر حفظ الآثار أنها انشئت فى عصر برسباى ، وذلك لوجود رسم «فهد» على هذه القنطرة ، وهو الرنك (الشارة والعلامة) المميزة ليرسباى، ويؤكد ذلك ويرشحه ويقويه وجود أملاك برسباى فى زمام ناحيتى ربقة(١٣٠) ودرنكة والتى تقع حاليا بحوض «الزنار» الذى يقع جنوب هذه القنطرة مباشرة، بالإضافة إلى وجود أراضى أخرى فى ناحية قريبة من هذه المنطقة(١٣١).

وللسلطان برسباى منشآت أخرى منها تجديدات بالحرم الشريف والجامع الأزهر، وبعض المساجد بمصر، وغير ذلك من أنواع البر والقربات(١٣٢).

أما مجالس علمه فكانت لاتنقطع ومنها على سبيل المثال:

مجلس فى شهر شعبان ٨٢٧هـ- ١٤٢٤م، أمر السلطان فيه بقراءة صحيح البخارى من أول شعبان بحضور القضاة الأربعة من كل مذهب ، وحضر شيخ الإسلام «ابن حجر العسقلانى». وكان القارئ للبخارى -أمام السلطان- نور الدين السويفى، وحضر السلطان معهم فى القصر البرانى الكبير.

واستمر المجلس لمدة شهرين يحضره المذكورون كل يوم، وفى ختامه خلع السلطان على أكثر من عشرين فقيها ، لكل منهم صوف طرى بسنجاب مربع، وخلع على شمس الدين الهروى كاملية خضراء بفرو سمور وعلى القاضى «البدر العينى» بصوف سنجاب مربع، وكذلك على

القارىء والمادح . كما فرق على الطلبة من سائر المذاهب لكل واحد منهم أكثر من مائة فلوس، بالإضافة إلى كسوة أيتام مكاتبه والتوسعة عليهم فى شهر رمضان المعظم (١٣٣).

أما المجلس الآخر والذى حدث فيه نقاش واستفتاء : فكان فى ختم البخارى بالقلعة فى ٢٣ من شهر رمضان ٨٤١هـ- ١٤٣٨م ، فقد اجتمع فيه الأعيان وقضاة القضاة الأربعة على العادة وعدد من مشايخ العلم والطلبة، وقد سأل السلطان فى هذا اليوم عن كثرة الوباء وهل هذا بسبب ارتكاب المسلم للذنوب فيعاقبه الله بالطاعون أو غيره، وقد أجابه بعض العلماء : «أن الزنا إذا فشى فى الناس سلط الله عليهم الطاعون ، وأن النساء يتزين ويتبهرجن ويمشين فى الطرقات مهتوكات ، لم يخف منهن غير رقعة وجههن، وغالبهن سافرات الوجوه».

وهنا برز أحد العلماء متصديا لهذا العالم، بأن هذا الكلام على عمومه، ويجب أن يمنع فقط المتبرجات ، أما العجائز ، ومن ليس لهن من يقوم بمصالحهن فلايمنعن من الخروج .. واختار السلطان منع النساء مطلقا من الخروج إلى الأسواق، ظانا منه أن منعهن يوقى الطاعون، وقد اتفق مع قضاة الشرع على منع النساء من الخروج ، وشددوا فى ذلك، وهددوهن بالقتل ، ونادوا بذلك فى القاهرة المحتسب والوالى والمشاعلى، وصاروا يتبعون من خرجت فيشخنونها ضربا وسجنا حتى امتنعن نهائيا (١٣٤).

* * *

والثانى من أصحاب الوكالات بالقاهرة : السلطان أبو النصر «قايتباى»:

أعظم رعاة العلم والفن والعمائر على الإطلاق من السلاطين الجراكسة، الملك الأشرف الجركسى الظاهرى -نسبة إلى الظاهر جقمق- السادس عشر من ملوك الجراكسة،ويلقبه بدون حصر بالأشرف أبى النصر، خاتمة العظام ونابغة النظام، ولد فى ٨٢٠هـ ، واشتراه الأشرف برسباى من التاجر «محمود بن رستم» سنة ٨٣٩هـ، وحبس بطبقة الكازية من أطباق القلعة إلى أن ملكه جقمق وأعتقه وجعله خاصكيا ، ثم داوادار صغيرا، وصار يتدرج فى الوظائف ويكافح إلى أن نقله الظاهر تمربغا مكانه فى الاتابكية لما تسلطن ، ولم تطل أيامه فيها إلى أن تسلطن يوم الاثنين ١٢ رجب ٨٧٢هـ- ١٤٦٨م .

ولما استقر فى المملكة صار يعزل ويبقى، ويبذل ويأخذ ويتحرى لما يراه العدل، والتقريب والتهديد والإرشاد والتمهيد والتلبث والتثبت ، كان من رأيه وأسلوبه وتدبيره وتقريره مع حرمته الزائدة ، خافه الناس لعظمته ووافاه العظماء بالاسترضاء. سار فى الناس السيرة الحميدة واجتهد فى بناء المشاعر العظام وأزال الكثير من الفساق وقطاع الطرق والمناسر واستقرت الدولة غالب أيامه(١٣٥).

صفته : طويل القامة ، عربى الوجه، مصفر اللون، نحيف الجسد ، شائب اللحية، شجاعا عالما بأنواع الفروسية(١٣٦).

صفاته : كان غاية فى الثبات والتجلد وصدق العزيمة، رايته منتصبة دائما ، راقيا فى تربية مماليكه ، ويختار جلساءه ، عفيف يقظ بكاء ، يحب العلماء ويهوى مجالستهم، ويطالع كتب العلم والرقائق ، وسير الخلفاء والملوك ، ويسأل القضاة وغيرهم الأسئلة الجيدة. يكره التهويش ورفع الصوت العالى بدون فائدة (١٣٧)، يمدحه الشعراء فلايلتفت إليهم، ويقول لهم لو مدحتم النبى ﷺ لكان أفضل، كثير الاطلاع فى الكتب، له أذكار وأوراد.

عمائره الدينية والمدنية: له مبرات وعمارات شتى فى مصر والمدينة ومكة وغيرهما ففى مصر جدد بعض ما تهدم من جامع عمرو بن العاص ، والمشهد النفيسى، والإيوان النفيسى كله المجاور لقبة الشافعى، وعمر القبة والمنبر من جامع الناصرى وجملهما بالرخام . وعمر إيوان القلعة ، وربعين متقابلين وجامع بجزيرة الروضة، وجامع بقلعة الكبش، وجامع بباب القرافة، وإيوان القلعة الكبير، والميدان الناصرى بالنصارية بعد أن كان مهجورا ، كما أنشأ عدة قناطر وجسور بالأقاليم ، ورمم أيضا جامع الأمير زياد بالمنيا(١٣٨)، وجامع بسلامون الغبار (١٣٩)،

والمدرسة المتبولية بدمياط [١٤٠]، وحصنا بالاسكندرية ، ومدرسة بالقرب منه، وحصن ثغر دمياط وحصن ثغر رشيد[١٤١]. والمقام الدسوقى بدسوق ، والمقام الأحمدى بطنطا ، وزاوية اليسع والزاوية الحمراء ، والمقام الزيادى بين دهروط وطنبدا بالوجه القبلى[١٤٢]. وبطنبدا زاوية للعربان، وقناطر عشرة متلاصقة ، وجسور بالجيزة وبرجا محكما برشيد والاسكندرية ، وعدة سبل وعدة مكاتب للأيتام تعلوها ، أحدها بدرب الأتراك بالأزهر، وعند الفراغ منه سقى الناس السكر عدة أيام بجواره ربع متسع جدا، وخان للمسافرين ، وحوض لسقى الدواب وحوانيت ووكالة ، وغيرها وفى وسطها حوض وحوش للدواب، وحفر بها بئرا كذلك، وعمل خانا وفرنا وطاحونا ورباع، وكان يوسع الشوارع ويزيل الموانع[١٤٣].

اصلاحاته بالجامع الأزهر : جدد مطهرة الجامع الأزهر ليعم الانتفاع بها ، وأمر بهدم الخلاوى المتجددة بسطحه ، بعد ضعف عقوده وسقفه ، وجمع العلماء بمجلسه لذلك. وجدد أروقة المغاربة والأتراك والشوام. وعمل ترابزين حول صحن الجامع ما زال اسمه ورنكه منقوشا عليه للآن، كما جدد باب الأزهر والمئذنة الرشيقة المركبة فوقه[١٤٤].

أنشأ تربة بالصحراء بجوارها مدرسة تقام فيها الجمعة والجماعات ويجتمع بها الصوفية وبها خزانة كتب شريفة منيفة [١٤٥]، وعمل بجوارها ربعا للصوفية بجواره سبيل، وحوض للدواب، يعلوه كتاب للأيتام، ومدرسته التى بالكبش للجمعة، والجماعات والطاعات ، وهدم مسجد سلطان شاه ووسعه ، وجامع شاكر الذى بقنطرة قديدار، وبنى زاوية ظاهر الخانقاه بجوار زاوية النهتيتى بها فقراء مقيمون ، شيخهم «محمود العجمى» [١٤٦]، كما أكمل فى رمضان ٨٨٦هـ- ١٤٨١م، قبة الأمير يشبك بن مهدى المعروفة بالقبة الفداوية، فإنه مات قبل أن يكملها[١٤٧].

عمائره بمكة والمدينة : عمر مسجد الخيف بمنى، وحفر صهريجا بنمرة ذرعه عشرون ذراعا، وعمر بركة خليص ، وأجرى العين الطيبة إليها ، وأصلح المسجد الذى هناك، وأجرى عين عرفة بعد انقطاعها أكثر من قرن، وعمر سقاية سيدنا العباس، وأصلح بئر زمزم والمقام، وفى سنة ٨٧٩هـ - ١٤٧٤م جهز منبرا عظيما للمسجد الحرام، وفى كل سنة يرسل للكعبة الشريفة كسوة فائقة ، وأنشأ بجانب المسجد الحرام مدرسة عظيمة وبجانبها رباطا مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، وسبيلا عظيما للعام والخاص، ومكتب للأيتام، بل بنى المسجد الحرام بعد حريقه .

وبالمدينة المنورة مدرسة بديعة، وعمر مدرسة بغزة ، ورمم الجامع الأموى بدمشق ومدرسة كبيرة ببيت المقدس [١٤٨]، وغير ذلك كثير[١٤٩] مما يطول شرحه [١٥٠].

مجالس العلم لدى السلطان قايتباى : تعددت مجالس السلطان قايتباى ، وكان أغلبها فى أول الشهور العربية للتهنئة بحلولها وكان بعضها يطلب عقده لظروف طارئة ، وكانت معظم مجالسه لأخذ رأى القضاة واستشاراتهم كلما عن له أمر من الأمور، مثل النظر فى شئون الدولة خاصة تصرفات القضاة حيال الأحكام والأوقاف ، وكذلك أخذ الفتاوى لتنفيذ أحكام الشرع، أو مناقشة مسائل بعينها، كجمع المال لمحاربة الأعداء والنفقة منها على الجنود وغير ذلك .

وغالبا ما خذل السلطان فى مجالس الشورى هذه فلم يحظ رأيه بالتأييد[١٥١] ، وكانت مجالس العلم لاتنقطع بأمر السلطان سواء حضر أو كان مسافرا ، ففى رمضان ٨٨٢هـ-١٤٧٨م كان السلطان مسافراً ، وجرت العادة أن يختم البخارى بالقلعة ، لكن نظرا لسفر السلطان احتفل به هذا العام بالجامع الأزهر، وحضر القضاة الأربعة، ووزعت عليهم الخلع والصرر على العادة ودعا الحاضرون للسلطان بسلامة العودة[١٥٢].

ومن الذين درسوا بمجلس الأشرف قايتباى ، الشيخ «محمد بن على الحسينى القاهرى الشافعى» ويعرف بابن قمر والمولود سنة ٨٠٣هـ- ١٤٠٠م ، ت فى ١٣ جمادى الأولى ٨٧٦هـ- ١٤٧١م) واشتهر بالحديث الذى أذن له ابن حجر فى تدريس فنونه، وهو أحد العشرة الذين أوصى لهم بعد موته ووصفهم بالحديث ، وقد درسه بالظاهرية القديمة وجامع الحاكم والخانقاه البيبرسية الذى كان شيخا لها وأحد صوفيتها، واستفاد منه الطلبة ، وألف كثيرا من الكتب، ورغب أخيرا عن كتبه ووظائفه[١٥٣].

إلا أن بعض الفقهاء لاقى منه العنت والإرهاق ، فقد صادر بعضهم وقطع مرتباتهم من اللحم، بل أراد أن يسترد منهم ما أخذوه فيما مضى . وذلك لوقوفهم ضده الوقفات المشرفة الجرئية ممتنعين عن الإفتاء على هواه، ومنهم شيخ الإسلام أمين الدين الاقصرائى» الذى رفض رفضا قاطعا اعتداء السلطان على الأوقاف، بحجة حرب شاه سوار أو حسن الطويل، وهذا الموقف يدل على انتصار الفقهاء على السلطان وبطشه .

وكذلك الشيخ «سراج الدين العبادى الشافعى» تحدث حديثا طويلا مع السلطان، قايتباى حثه فيه -وخَشَّنَ له القول- فى عدم إهانته للفقهاء ... ولكنه ضرب بكلامهما عرض الحائط

وأهان القضاة فى أحد مجالسه (١٥٤). كما عارضه أيضا الشيخ القاضى عبد الغنى بن تقى المالكى بأخذه أجرة الأملاك سنة كاملة وأنها ستثقل كاهل الشعب، وإن كان لابد فليكن خمسة أشهر فقط فاضطر إلى الرضوخ والموافقة.

بر السلطان قايتباى وعطفه : فى سنة ٨٧٢هـ ١٤٦٨م حج السلطان قايتباى - ولم يحج من السلاطين الجراكسة غيره- فرتب لأهل الحرمين ثمانية آلاف أردب من القمح تعم الغنى والفقير والحر والعبد والذكر والأنثى.

وفى شوال ٨٨٤هـ- ١٤٧٩م خرج السلطان للحج، ولم يشعر بخروج المحمل أحد، ثم قدم فى المحرم ٨٨٥هـ- ١٤٨٠م رسول من عند السلطان يخبر بأنه دخل المدينة الشريفة وزار القبر الشريف، وأنعم بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار، وأنه وصل إلى الينبع قاصداً العقبة، وأنه رحل عنها وسيصل عما قريب . وكان من ثمرات هذه الرحلة أنه تبرع بستين ألف دينار ذهب من ماله الخاص دون بيت مال المسلمين، يشترى بها رباع وأماكن وغير ذلك ، ويصرف من ريعها على فقراء المدينة من الدشيشة والخبز والزيت يوميا، وشرع السلطان بنفسه فى بناء الرباع (الوكالات) التى أنشأها بباب النصر (١٥٥) وفى غيره من أنحاء القاهرة وما زال مبنى ربع باب النصر قائما للآن وعليه نقوش تؤيد وقف إيرادها على شراء قمح دشيشة لفقراء الحرمين (١٥٦).

كما كان السلطان قايتباى يعطف على ذوى الحاجات والمعوزين وأرباب الديون وصحائفه مليئة بالحسنات ، ومنها مثلا : إطلاقه لبعض المساجين بسجن المقشرة، وكان أحدهم به منذ ثلاثين سنة لعجزه عن سداد ديونه، فسددها عنه السلطان وأطلقه، كما وزع نحوا من ثمانمائة دينار على المدينية والفقراء.

وقد استن سنة جميلة من التوسعة على الفقهاء والعلماء فى شهر رمضان بتوزيع العطاء عليهم واستمر ذلك معمولا به حتى وفاته ، ولما سقط أحد النجارين ممن يعملون فى طباق المماليك بالقلعة ومات لتوه ، والتمس أهله صدقات السلطان سارع بمنحهم مائة دينار، وثيابا وثلاثة دنانير أشرفية لتجهيز الميت، كما بر رجلا فقيرا بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح لأنه أنجب أربعة أولاد وهو فقير (١٥٧).

رحلات السلطان : كان للسلطان قايتباى رحلات كثيرة طوال العصر، وتكرر نزوله من القلعة ليل ونهار حتى خرج عن الحد - كما يقول ابن إياس- ولما كان ركوب السلاطين فيما

مضى نادرة من النوادر ، اضطر المؤرخون المعاصرون إلى ترك ذكر ركوب السلطان ونزوله من القلعـة ولم يحصوا ذلك. وعـاب عليـه ابن تغرى بردى ذلك بقوله : «أنه لم يَبُتَّ أمرا ولاردع مفسداً » طبعا لكثرة أسفاره وخروجه ، ولم تظهر لها نتائج طيبة على الأقاليم التى زارها، بل شملها الخراب لكثرة النفقات والنهب والهدايا للسلطان ، ولما علم المفسـدون منه ذلك ازداد طمـعـهم وكـثـر شرهم على الناس ، وقطعـوا الطرق، بـل تعـدى بعـضـهم على أعـوان السلطان وحاشيته .

بينما يعلق «الجوهرى» المؤرخ القريب من السلطان : «أنه كان فى ضيق من فـتنة شاه سوار وغيره ، وأنه أراد إظهار قوته حتى لايطمع فيه أحد ، كما كان يتفقد أحوال دولته التى ترامت أطرافها من حدود الفرات إلى بلاد النوبة ، وتفقد أحوال الرعية، وغـالبا ما كان ينزل متـخفيا ويسأل عنهـا بنفسه ، مما كان سببا فى رفع كثير من المظالم وإعادة الحق إلى نصابه» كـما كان يتفقد مشروعات التعمير الكثيرة التى اقترحها ، مما كان له أكبر الأثر فى إنجازها على وجه السرعة، وغالبها أعمال عم بها الخير جل البلاد ، ولم يتحرج السلطان فى رحلاته هذه من زيارة المرضى من الأمراء وهذا وفـاء منه لزملائه الذين خدموا معه»[١٥٨].

حبه للصوفيـة : كان السلطان قـايتباى يحب الصـوفيـة ويعتـقدهم ، وقد بنى للشيخ عـبد القـادر الدشطوطى مـسـجـدا ببـاب الشـعـرية [١٥٩]، مـا زال قـائمـا للآن تقـام به الجـمع والصلوات، وكان قايتباى يعتقده غاية الاعتقاد ويمتثل لأمره ويقبل يده [١٦٠]، وقد قطع بعض المؤرخين بولاية قـايتبـاى وصـلاحه ، وبشره أيضا بالسلطنة بعض الأولـيـاء قـبل أن يليـهـا بزمن طويل، ولكنه كان يطلب منهم إخـفـاء ذلك حـتى لايتـعـرضـوا وإياه لنقـمـة السـلاطين القـائمين بالأمر.

ولما ثار الخلاف والجدل فى المحرم ٨٧٥هـ- ١٤٧١م بين العلماء بسبب قـصائد ابن الفارض، وكان السـلطان متعصبا له، وقد صرح العلمـاء بفسقه وتكفيره ، ونسبوه إلى من يقـول بالحلول والاتحاد، تدخل حينئذ وألقى بثقله فى المسألة وعمل على حسم الفتنة[١٦١].

وكان دائمـا يزور الصوفية فى أمـاكنهم ويزور أضرحة الأوليـاء ففى المحرم ٨٨٨هـ- ١٤٨٣م لما نزل السلطان لمعاينة الجسور ببلدة سنيت من الغربيـة عرج على طنتدا لزيارة مقـام سيدى أحمد البدوى. وفى المحرم ٨٩١هـ- ١٤٧٦م توجه إلى قبة يشبك بن مـهدى بالمطرية، وفى

عودته نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق ، وأمر برعاية مصالح الصوفية بها وعمل لها منبرا من الحجر ما زال موجودا للآن[١٦٢].

ولم يؤرق صفوه إلاّ حربه مع شاه سوار الذى دوخ الدولة واستنفد كثيرا من آليتها وضاع فيها أعاظم الأمراء، وكذلك حربه مع حسن الطويل ومع العثمانيين .

مرضه ووفاته : انتاب السلطان أمراض ووعكات كان آخرها مرض موته ، فقد رفسه فرس الأمير أزبك فكسر ساقه، ولما لم يتمالك نفسه من السرور بانتصاره على العثمانيين ركب فرسا يتنزه به فى القلعة، انقلب به الفرس فانكسرت رجله وأغمى عليه، وحمل إلى الدهيشة وهو فاقد الوعى. وقد حاول المماليك الجلبان اغتيال السلطان أثناء نومه على الدكة فى الحوش السلطانى زمن الصيف وفشلت هذه المحاولة ، ثم انتقل من هذا المكان، وفى الصباح وجد ثلاثة أسهم نشاب بالمخدة التى ينام عليها ، فكتم الخبر، ونزل السلطان إلى باب السلسلة وجلس بالمقعد لم يكترث بذلك وزادوا فى الطغيان ، فحزن السلطان وزاد حزنه فمرض بالحمى، ولزم الفراش وأصيب بإسهال مفرط أقعده عن الحركة فتنازل لابنه محمد عن العرش وسنه يومئذ ١٤ سنة .

وفى ٢٧ ذى القعدة ٩٠١هـ- ١٤٨٦م مات السلطان قايتباى وله من العمر نحوا من ٨٤ سنة. وكانت مدة سلطنته ٢٩ سنة ، ٤ شهور ، ٢٠ يوما، ويكون مولده على ذلك سنة ٨١٧هـ، لأن السخاوى ذكر مولده سنة بضع وعشرين وثمانمائة ، وقال إن ترجمته تحتمل عدة مجلدات . ولم يخلف السلطان غير ابنه محمد وسيرته العطرة وأعماله المعمارية التى خلدت اسمه والخيرات الكثيرة التى ما زالت قائمة[١٦٣] ودفن بتربته التى أنشأها بالصحراء وقبره ظاهر يزار [١٦٤].

والثالث من أصحاب الوكالات الشهيرة بالقاهرة: السلطان «قانصوه الغورى»:

السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسى المشهور «بالغورى»(١٦٥)، نسبة إلى طبقة الغَوْر أحد طبقات القلعة بمصر، والتى كانت معدة لتعليم المؤدبين ، وقد سماه ابن طولون «جندب» وجعل «قانصوه» لقباله.

ولد فى حدود ٨٥٠هـ- ١٤٤٦م، وترقى فى المناصب حتى أصبح نائب «طرسوس» ولما انتزعها منه جماعة ابن عثمان هرب إلى حلب، ثم عاد إليها بعد انتصار الجيش المصرى على الروم ، ولما استولوا عليها مع غيرها هرب منها إلى حلب ، ولما انتصر عسكر مصر عاد إليها ثانيا ، ثم أعطى نيابة ملطية ، فلما مات السلطان «قايتباى» جاء إلى القاهرة ووقعت له عدة وقائع فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أعطاه تقدمة ألف، وفى دولة «جانبلاط» أعطى وظيفة نوبة أبنوب، ثم تنقلت به الأحوال حتى أصبح سلطانا (١٦٦).

قد تلا وفاة السلطان «قايتباى» عهد من الاضطراب والفوضى، تداول أمر مصر وما يتبعها فيه خمسة سلاطين ، فقد خلفه ابنه محمد لمدة ستة أشهر وخلع ليعود ثانية إلى الملك بعد خمسة أشهر ، فيقتل بعد ثمانية عشر شهرا سنة ٩٠٤هـ- ١٤٩٩م، وتوالى بعده ثلاثة سلاطين فى خلال ثلاثين شهرا.

فلما اختفى ثالثهم «طومانباى» هربا من المماليك بعد أن وثبوا عليه فى سلخ شهر رمضان سنة ٩٠٦هـ- ١٥٠١م ليلة عيد الفطر وأشيع ذلك فى الصباح، اجتمع رؤساء الدولة ليختاروا سلطانا ينتهى هذا الاضطراب بولايته ، ووقع اختيار الأمراء عليه بعد أن تعصب له «قيت الرجبى» أمير سلاح ، و«مصر باى» أحد الأمراء وقالوا : ما نسلطن إلا هذا، فامتنع وبكى بكاء شديدا وهم يسحبونه من طوقه، ، حتى مزقوا ملوطته وأجلسوه بالقوة وتوسموا فيه الضعف فى المستقبل ، وظهر لهم بعد ذلك على عكس هذا التصور. وقد حضر القضاة الأربعة يتقدمهم خليفة الوقت وعقدت البيعة للغورى بعد أن كتبوا محضرا بخلع العادل وأنه سفاك للدماء .

وكانت سلطنة الغورى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ٩٠٦هـ- ١٥٠١م، ثم ألبسوه خلعة السلطنة وهو يمتنع ويبكى، ولقبوه بالأشرف، وسما فى علوه وأشرف وكنوه بأبى النصر قنصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرقة بالغورى (١٦٧).

ونودي باسمه فى القاهرة، وارتفعت له الأصوات بالأدعية الفاخرة وزالت الشكوك والظنون وقرّت به العيون . وكان الناس يظنون أن هذه السلطنة على غير أساس لأنها جاءت على غير قياس فصار منه بعد ذلك الهزل جد، ومكث فى السلطنة مكثا جاوز الحد، فزال عنه الإضرار والبأس ، وامتلأت منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحوا من ستين سنة ، ولم يظهر برأسه الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده(١٦٨).

وصفه : كان الغورى طويل القامة، غليظ الجسد، ذا كرش كبير، أبيض اللون مدور الوجه(١٦٩)، مشحم العينين جهورى الصوت، مستدير اللحية، لم يظهر بلحيته شيب إلا قليلا، مهيبا مبجلا فى المواكب ملء العيون فى المنظر(١٧٠).

حبه للتنزه والموسيقى والرقص والحفلات : كان السلطان الغورى يحب الموسيقى والغناء ويعرفهما جيدا ، وقد اتفق المؤرخون على ولعه بالموسيقى ، وشهدت به سيرته ، فاذا أراد الاستراحة من عناء العمل خرج إلى مقياس النيل بالروضة أو إلى قبة الأمير يشبك بن مهدى بحدائق القبة وأحضر المطربين والعازفين .

ففى يوم عاشوراء من المحرم سنة ٩١٨هـ- ١٥١٢م نزل هو وحاشيته إلى المقياس نزهة هناك، فجلس بقصره ومد سماطه الحافل بأنواع الأطعمة ، وحضر أمامه أرباب الآلات الموسيقية والمغنون ، وحضر شخص يدعى على باى من المضحكين الفكهين والذى يعمل عفريتا فى المحمل عند دورانه ، فرقص أمام السلطان ورقص كرتباى من الأمراء واقباى الطويل أمير آخور ثانى، ثم بركات المحتسب ثم عبد العظيم الصيرفى الذى كان جسيما فعندما رقص ضحك عليه السلطان(١٧١).

وكانت هذه الاحتفالات تعود على العامة بالفرج والخير، إذ كانوا يأكلون ما بقى من سماط السلطان من اللحم والحلوى وغيرها الكثير وحينما يعود من نزهته يوزع عليهم النقود.

ففى ثانى يوم عيد الأضحى ذى الحجة ٩١٥هـ- ١٥١٠م توجه السلطان فى نزهة إلى قبة يشبك بالمطرية ، وهناك مدت الأسمطة الحافلة، وأحضر جماعة من المغنيين وأصحاب الآلات الموسيقية ، وطلب إلى بعض الأمراء أن يرقصوا فرقصوا أمام السلطان. وبعد صلاة العصر – وفى طريق عودته إلى القلعة- صار يوزع على الفقراء ومن يقف له من الناس من كيس ذهب كان فى جيبه «يعطيهم من يده بغير واسطة بحسب ما يقسم لهم»(١٧٢).

صدقاته على الفقراء : كان يتصدق بيده كثيرا على الفقراء والمساكين والمعوزين ، فكان دائما يطلب الفقراء ويجمع معهم الحرافيش عند سلم المدرج، وعندما اجتمع منهم الجم الغفير «صار يوزع عليهم الصدقات، وهو راكب فرسه لكل صغير وكبير» من رجل وامرأة يعطى كلا منهم أشرفيا ذهبا » وقد مات من شدة الزحام فى هذا اليوم ثلاثة من الفقراء ، وقد بلغ ما فرقه نحو ثلاثة آلاف دينار وارتفعت له الأصوات بالدعاء (١٧٣).

كما كان يدفع ديون المساجين تخفيفا عنهم قربة لله تعالى، ففى شهر شعبان سنة ٩١٢هـ - ١٥٠٧م عرض السلطان المحابيس والنساء المسجونين بالحجرة ، فأطلق جماعة منهم بعد أن صالح عنهم أرباب الديون من ماله الخاص (١٧٤).

وفى رمضان ٩١٥هـ تصدق على نحو سبعين إنسانا ما بين رجال ونساء من المغاربة ، الذين قصدوا الحج فى هذه السنة ، ورسم لهم لكل واحد منهم أشرفيا ثمن بسقماط(١٧٥).

ولما كان النيل بمصر فى العصر المملوكى سيفا ذو حدين ، إذ نقص ماؤه هلك الزرع والضرع، وإذا زاد ماؤه حدثت الخسائر أيضا ، من أجل هذا كان السلطان الغورى يتصدق على الفقراء بعد قراءة القرآن والدعاء بزيادة النيل أو هبوطه .

ففى نهاية سنة ٩١٥هـ- ١٥١٠م زاد النيل زيادة يخشى منها الغرق والتلف، فطلب الغورى من القضاة الأربعة والعلماء أن يتوجهوا إلى المقياس ليدعوا الله تعالى بهبوط النيل فذهبوا إلى هناك وباتوا بالمقياس يدعون ويبتهلون . وقرأ السلطان فى هذه الليلة ختمة شريفة، بعد أن مد وسماطا فاخرا «فانهبط النيل إلى ما يقرب من نصف ذراع فكان من العجائب»(١٧٦).

وفى جمادى الآخرة ٩١٩هـ - ١٥١٤م عاد أحد الأمراء من الصعيد ومعه عدد من مشايخ العربان بسبب ٧٠ ألف أردب من القمح قد تأخرت عليهم، ولما عرضوا على السلطان مقيدين قال : «أطلقوهم جميعا فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى»(١٧٧).

هوايات الغورى : كانت هواياته كثيرة منها : حبه لسماع الطيور المغردة ذات الألوان البديعة ، ونشق الأزاهير العطرة والبخور والمسك والعود، يحب رؤية الأزهار والفواكه ، يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . ويستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، ويستعمل الأشياء المفرحة(١٧٨).

أما ولعه وهوايته لغرس الأشجار والأزهار واقتناء الطيور فكان غاية فى ذلك، وهذا المؤرخ المعاصر ابن إياس يحدثنا عن ذلك فى حوادث سنة ٩١٢هـ- ٩١٥م فيقول : «فى شعبان سنة ٩١٢هـ وصل إلى الغورى من بلاد الشام صناديق خشب فيها أشجار بطينها ما بين فراصية وتفاح شامى وكمثرى وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض وسوسان وزنبق وسفرجل وكروم وعنب وغير ذلك من أشجار جوز الهند بطينها، فزرع ذلك جميعه بالميدان ، وكانت نحوا من مائة وخمسين حملا ، حتى صار هذا الميدان من جملة متنزهات القاهرة التى تشبه غوطة دمشق ما بين أشجار ومياه جارية[١٧٩]. وفى سنة ٩١٥هـ أينعت هذه الأشجار وأخرجت الشتلات أنواع الأزهار ما بين فل وورد وزنبق وياسمين وبان وسوسان وورد أبيض لم يجد بمصر مثله «فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس وسيفرش فوقها مقعدا مخمل بنطع ويجلس عليه تظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المنشات ينشون عليه وحوله أقفاص بها طيور المسموع ما بين هزازات وشحارير وفواخت وقمارى وغيرها، كذلك حوله بين الأشجار أنواع من الدجاج الحبشى والبط الصينى. وقد صار هذا الميدان جنة الله على وجه الأرض[١٨٠].

أبناء الغورى : لم نعثر فى بدائع الزهور أو مجالس السلطان الغورى على أبناء له إلا بنت ذكرها ابن إياس فقال : «فى يوم ٢٨ شوال ٩١٠ هـ توفيت للسلطان ابنة كانت مستحقة للزواج فأخرجت فى بشخانة زركش ، وقداسها كفارة، وصلى عليها فى الجامع الأزهر ، ودفنت داخل القبة بمدرسة أبيها ، وكانت جنازتها مشهودة[١٨١].

اهتمامه بالنواحى الاقتصادية : كان السلطان الغورى مهتما بالنواحى الاقتصادية لدولته من كل ما يدر له دخلا يتقوى به على الأخطار المحيطة بدولته من الحرب البحرية مع البرتغاليين بالإضافة إلى تحرش العثمانيين بالثغور والمنافذ الشمالية للدولة المملوكية.

ومن هذه الاصلاحات : ترميم وتجديد وإصلاح قنطرة اللاهون بالفيوم التى أنشأها السلطان بيبرس البندقدارى ، ونظرا لأهميتها البالغة لإقليم الفيوم توالت عليها الإصلاحات إبان العصر المملوكى. ولما زار الغورى إقليم الفيوم سنة ٩١٨هـ- ١٥١٢م وجد هذه القنطرة فى حالة تصدع شديد نتيجة لقطع جسر اللاهون وجسر بحر يوسف ، فأمر أحد المقدمين الأمير «أرزمك» الناشف بإصلاحها فأصلحت.

ولكن هذه القنطرة دب فيها الخراب والتلف فى العصر العثمانى نتيجة لتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية وإهمال شأن الترع والجسور والقناطر والعيون فى هذا العصر.

وكان الغورى كثيرا ما يفرض على الزراع الغرامات الفادحة ليستعين بها على الإصلاحات الطارئة، وربما سخر جمالهم وبغالهم وغيرها للعمل فى هذه المنشآت، أو يطلب إليهم كميات من التبن أو الغلال أو الفاكهة ، أو يفرض ضريبة على أرض الإقطاع معجلة قبل حلول موعد استحقاقها ، فيصيبهم الضرر البالغ ، وقد يفضل بعضهم الهرب والفرار أو الهجرة إلى ناحية أخرى لعدم استطاعته الوفاء بالدين(١٨٢).

أما عن منشآته فهى كثيرة جداً(١٨٣) منها: مسجد بحى «الشرابشيين»* (الغورية الآن) والقبة والكتاب والسبيل ومدرسته المواجهة للمسجد، وجامعا عند القلعة، وبنى خان الخليلى من جديد، بعد أن آل للسقوط ، وخانا ، وأحواضا فى طريق الحج عند العقبة ، ورباطا ومارستانا فى مكة، وأنشأ الميدان عند القلعة ، وقصرا عند المقياس بالروضة ووكالة (١٨٤)، بحى الغورية(١٨٥)، وأخرى بالمحلة الكبرى، كما عمر قاعة البيسرية ، وقاعة العواميد والدهيشة فى القلعة، كما أنشأ عدة قناطر وأبنية أخرى، وبنى دائرة الحجر الشريف ، وباب إبراهيم ، وجعل علوه قصرا شاهقا وتحته ميضأة ، وجدد بعض أروقة المسجد الحرام، وأنشأ مجرى الماء من مصر إلى القلعة ، وعمر بعض أبراج الاسكندرية، والمئذنة المعتبرة ذات الرأسين بالجامع الأزهر (١٨٦)، كما بنى مصطبته السلطانية بدلا من الدكة، كما أقام عدداً من المنشآت الحربية كالأبراج والمكاحل والأسطول (١٨٧).

أما مدرسته (١٨٨): فقد انتهى العمل من بنائها وزخرفتها فى ليلة عيد الأضحى سنة ٩٠٨هـ- ١٥٠٢م، وعمل السلطان احتفالا وعمل وليمة حافلة حضرها الخليفة «المستمسك بالله يعقوب» والقضاة الأربعة وأعيان مصر من المشايخ والأمراء والقراء والمباشرين والوعاظ، وزينت الدكاكين من باب زويلة إلى الشرابشيين* وعلقت القناديل المضاءة.

وكان صاحب هذه المدرسة هو الطواشى «مختص» (١٨٩)، الذى كان رأس نوبة السقاة، وكان قد وضع أساسها تمهيدا لإتمامها، لكن الغورى تغير خاطره عليه، ولما قبض عليه وصادره قرر عليه مالا، فأعطاه هذه المدرسة من جملة المال، وكان قد بنى منها شيئا فهدمه الغورى

---

* الشرابشيين : هو حى الغورية وهو شهير (بالطرابيش) .

وأضاف إليها سوق الجملون وما حوله ، فاتسعت ، وتناهى فى بنائها وزخرفتها فجاءت فى غاية الحسن والرونق والظرف.

وقد شنع بعض الناس على الغورى فى بنائه هذه المدرسة من مصاريف جاءت من المصادرات ومن وجوه المظالم ، فقد أخذ رخامها من أماكن متعددة بأبخس الأثمان ، وقد خرب قاعة «شموال» اليهودى الصيرفى وأخذ رخامها وأبوابها ، بل خرب عدة قاعات أخرى وقد سمى بعض الظرفاء هذه المدرسة «بالمسجد الحرام» لما وقع فيها من اغتصاب الأرض ومصروفها من مال فيه شبهات ، ويعلق ابن إياس على ذلك بقوله : «وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها فى حق الناس.. »[١٩٠].

ولما كملت عمارة هذه المدرسة ببناء مدفن له- لم يدفن فيه- وعقد فوقه قبة وأنشأ بها صهريجا ومكتبا، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية يحضروا بكرة والعصر»، أى يحضرون فى الصباح الباكر دروسا معينة، ويبتدى بعد العصر- تشبه الفترة المسائية فى بعض مدارسنا حاليا- دروسا أخرى. وجعل «قاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف» شيخ الحضور بالنهار، ومحب الدين الحلبى الإمام شيخ الحضور فى العصر ، ثم نقل إليها الآثار الشريفة التى كانت برباط الآثار بعد أن استفتى العلماء مخالفا بذلك شروط الواقف ، كما نقل إليها المصحف العثمانى وربعة شريفة كتبت بماء الذهب ، كانت موجودة بالخانقاه البكتمرية بالقرافة كان الواقف قد اشتراها بألف دينار ، وبعد نقل هذه الأشياء أصبحت هذه المدرسة من محاسن الزمان، خاصة أن هذا الخط من هذه الناحية محتاجا إليها لعدم وجود مدارس أخرى سابقة فيها، وعد ذلك من جملة سعد الغورى.

وكان أصل هذا المكان قيسارية للأمير على، فاستبدلت من وقف «الناصر محمد بن قلاوون». أما القاضى «البرهان بن أبى شريف» فقد ترك منصب قاضى القضاة ليتفرغ لمشيخة هذه المدرسة.

وكانت زيارات السلطان الغورى لمدرسته لاتنقطع ويعطى فيها لأيتام المدرسة وصوفيتها الكسوة وغيرها. كما أعطى لمطبخ الأزهر فى رمضان ستمائة أردب قمح ومائة قنطار عسل وستمائة وسبعين دينارا على أن يصنع من القمح خبزا يفرق على من به [١٩١].

وقد ارتفعت الأصوات له بالدعاء والزغاريد من الطيقان فى يوم ٣ جمادى الآخرة ٩١٧هـ/ ١٥١٢م حيث زار المدرسة وأنعم على صوفيتها وعلى مشايخ الدرس لكل واحد منهم عشرة

دراهم كما أنعم على أيتام المكتب والقراء والوعاظ والبوابين والفراشين، فكان جملة ما فرقه في هذا اليوم نحوا من خمسمائة دينار[١٩٢].

وفى ١٩ رمضان ٩١٩هـ- ١٥١٤م زار الغورى مدرسته ، وعرض عليه أطفال المكتب: فرسم لهم بكسوة العيد [١٩٣]، وقد أوقف على مدرسته ومسجده وكتابة الأوقاف الكثيرة.

ومن منشآته : المصطبة بدلا من الدكة السلطانية التى يجلس عليها الغورى للحكم بين الناس، فقد بناها بالحجر الفص النحيت، وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى والمرسينى وغيره، ونقش بروازها بالذهب، وجعل لها أفريزا وكساه بالذهب ونقش عليه اسمه فجاءت فى غاية الحسن لم يعمل مثلها قط ، ولاسبق إليها[١٩٤].

أما جامع الغورى المشهور الآن بحى الغورية على مدخلها من شارع الأزهر على يمين المتجه إلى باب زويلة، فقد جاء فى غاية الأبهة والعظمة والحسن والبهاء والزخرفة، وقد صنع له مئذنة لها أربعة رؤوس وهو أول من اتخذ ذلك[١٩٥].

وأول من خطب بهذا الجامع هو العلامة «الشهاب أحمد بن الفرفور الدمشقى الشافعى» فى جمعة مستهل ربيع الآخر سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م، وحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة، برهان بن أبى شريف الشافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى، وبرهان الدين الدميرى المالكى والشهاب الشيشينى الحنبلى، وحضر غالب الأمراء والشيوخ والجم الغفير من أعيان الناس، وزينت منطقة الغورية كالمعهود ، وخلع السلطان على جملة من الأعيان منهم ابن الشحنة الحنفى لكونه أفتى بصحة الجمعة فى هذا الجامع ، وعلى اينال شاد العمارة بامرة عشرة، وجملة من النجارين والبنائين والمرخمين والمهندسين من أرباب الصنائع الذين عملوا الجامع، وأنعم على جملة الفعلة لكل واحد منهم ألف درهم[١٩٦].

وفى شهر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ- ١٥٠٦م مالت مئذنة هذا الجامع وتشققت وآلت للسقوط ، فرسم السلطان بهدمها بعد أن ثقلت من علوها لكونها ذات أربع رؤوس فلما هدمت أعيدت على الصحة، وقد بنى علوها بالطوب الملبس بالقيشانى الأزرق . وقد نظم للشيخ بدر الزيتونى الأديب قصيدة مطولة فى هذا الجامع منها:

وأنشأ بمصر جامعا لم يزل	بيتا يذكر الله معمور
والقبة الزرقاء وصهريجها	والماء والكيزان والزير
كأن برد الثلج فى مائــه	لكل عطشان ومحرر. الخ القصيدة[١٩٧]

وفى شهر شوال سنة ٩١٧هـ- ١٥١٢م ظهر فى بقية هذه المدرسة- التى انشأها السلطان - تشقق فاحش حتى آلت للسقوط، فأمر السلطان بهدمها فهدمت من سفلها، ثم علقت ورمت ترميما حافلا[١٩٨].

ويفصل المسجد عن المدرسة شارع الغورية، حيث تتقابل هاتان المنشأتان العظيمتان شامختان إلى اليوم، والآن يتم تبييض الجدران وترميم المتهدم منها، ويوجد تحت الجامع طابق ينزل إليه بسلم، قال بعض العاملين بالمسجد أنه سجن كان الغورى يسجن به المتمردين وأرباب الجرائم.

تدين الغورى وحبه للعلماء وبره بهم: كان السلطان قانصوه الغورى ديِّنا محافظا على فروض الدين، شديدا على من يفرط فيه، وكان يعتبر من علماء الدين بمصر ، ذلك لأنه كلما نزلت بالبلاد نازلة أو قرعتها قارعة، وكلما حزبه أمر فزع إلى قراءة القرآن والحديث ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما سار الغورى على العادة القديمة بقراءة البخارى فى القلعة وختمه باحتفال مهيب فى نهاية رمضان.

ففى حوادث رجب ٩١٥هـ- ١٥١٠م نجده يأمر الناس بألا يتجاهروا بالمعاصى. ولايمشى أحد بسلاح بعد المغرب وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس فى الجوامع [١٩٩]. وقد وصف العلامة «الشويفى» مترجم الشاهنامة الفارسية إلى اللغة التركية بأمر الغورى- صلاة السلطان ودعائه وتهجده بالليل فى خاتمة الشاهنامة[٢٠٠].

وكان الغورى يبر العلماء حينما تضيق بهم الحال ، فالقاضى فخر الدين بن العفيف ، الذى كان يشغل منصب كاتب المماليك، وقف للغورى لما ضاقت الدنيا فى وجهه وأظلمت وشكا ، ضيق ذات يده وفقره ، رسم له بجامكية «ألفى دينار فى كل شهر وزيديتين لحم فى كل يوم»[٢٠١].

كما تحمل الضرائب المتأخرة عن الفلاحين المقيدين بالسلال قائلا: «أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى»[٢٠٢].

وكان يحب الصوفية ويجلهم ويحسن إليهم فعند مروره إلى قناطر السباع وقف وبصحبته الأمراء عند مدرسة ابن الزمن ليزور الشيخ «سويدان» الذى يقيم بهذه المدرسة[٢٠٣]، إلا أنه -لدواعى الأمن- ألغى مولد سيدى أحمد البدوى ، حيث كانت العربان ثائرة فى البلاد والطاعون يعمل عمله بالقاهرة[٢٠٤].

مناظرات العلماء فى مجلس السلطان الذى تعصب لضرب عنق أحد العلماء شتم سيدنا ابراهيم الخليل : فى شهر جمادى الأولى ٩١٣هـ- ١٥٠٨م أشيع أن خطيبًا بأحد الجوامع يسمى «علاء الدين النقيب الحنفى المحلى» أطال لسانه ووقع بكلام فاحش فى حق سيدنا ابراهيم الخليل ، فضبط عليه ذلك، فاستتابه بعض القضاة، وحكم القاضى ، «شمس الدين الحليبى» بحقن دمه، لكن السلطان الغورى لما علم بهذه الواقعة استشاط غضبا فتعصب للخليل، وأراد ضرب عنق هذا الرجل ، وجمع لذلك مجلسا من القضاة الأربعة فى الدهيشة بحضرته ، وحضر العلماء والقضاة المفصولون وغيرهم، وتباحث العلماء فى هذه المسألة، وتمخض المجلس عن نشوب الخلاف والمشاجرة بين القضاة ، فالشيخ «زكريا الأنصارى» قال : مذهبنا أن هذا القائل إذا تاب إلى الله واستغفر تقبل توبته ووافقه على هذا الرأى بعض العلماء، وخالف بعضهم الآخر ومنهم «عبد البر بن الشحنة» الذى وقع التشاجر بينه وبين الشيخ «نور الدين المحلى» وأحظر كل من العلماء بقوله فى هذه المسألة، وينفض هذا المجلس عن أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، والسلطان مصمم على ضرب عنقه ، لكنهم أخذوا هذا القائل إلى السجن(٢٠٥).

مجالس العلم لدى الغورى : للسلطان الغورى مجالس كثيرة كان يجتمع معه فيها نخبة كبيرة من علماء عصره ، ويكثر فيها المناقشات والمجادلات للبحث فى مسائل شتى. ومن العلماء الذين اشتركوا فى هذه المجالس «عبد البر بن الشحنة» قاضى قضاة الحنفية، والشيخ «حسين چلبى» و«شمس الدين السمديسى» و«البرهان بن أبى شريف» و«جلال الدين السيوطى» (٢٠٦)، والشيخ «محب الدين المكى» والشيخ «ابن أبى الحسن»، والشيخ «عبد الرازق» والشيخ «على الأخميمى الحنفى» والشيخ «كمال الدين البرقوقى»(٢٠٧) والشيخ «كورانى» والشيخ «كمال الدين الطويل» وغيرهم . وكان هؤلاء العلماء المذكورين هم رؤساء الجلسة الذين يديرون الحوار.

أما المسائل التى نوقشت مع السلطان فكثيرة ، منها فتاوى وقصص ونواد وحكايات وتفسير وحديث، وتاريخ وسيرة يتخللها نكات وألغاز وغير ذلك. ومن الألغاز التى قيلت فى أحد المجالس:

١- ما اسم شىء قد غدا نزهة   للنفس محبوب لدى الأزمنة

وإن ترد تصحيف مقلوبه   تجده شهرا من شهور السنة

فقيل هو البحر (٢٠٨).

٢- مـــا اسم شيء أكـــلا　　ناعـــم فـــي الحلـــق لين
كيف يخفى عنك هـــــذا　　وهو فى التصحيف «بين»(٢٠٩)

وهناك كتابان سجل فيهما كثير من مسائل هذه المجالس، ويصوران تصويرا حسنا بعض أحوال مصر السائدة فى عصر الغورى وهما:

١- كتاب «نفائس المجالس السلطانية فى الأسرار القرآنية» ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وعشر روضات . وكانت المجالس تنعقد فى كل أسبوع مرة أو اثنين أو ثلاثة... ألف هذا الكتاب العلامة حسين بن محمد الحسينى(٢١٠).

٢- «الكوكب الدرى فى مسائل الغورى» ويحتوى هذا الكتاب على ألفى مسألة وأجوبتها(٢١١).

اهتمام السلطان قنصوه الغورى بالعلماء : عاش زمن الغورى عدد كبير من العلماء والأئمة الفضلاء الذين زاولوا القضاء والفتوى والتدريس ونذكر منهم على سبيل المثال المشهورين : جلال الدين السيوطى (ت٩١١هـ- ١٥٠٦م) المؤرخ المحدث المفسر الموسوعى، زين الدين زكريا الأنصارى الصوفى (ت٩٢٦هـ / ١٥١٩م) وقاضى قضاة الشافعية والفقيه البليغ شهاب الدين القسطلانى المحدث صاحب «ارشاد السارى» فى صحيح البخارى (ت٩٢٣هـ- ١٥١٧م، فخر الدين عثمان الديمى ، شيخ الحديث فى زمانه (ت٩٠٩هـ- ١٥٠٤م) ، وقد تتلمذ له فيه طبقات من الرجال ، نور الدين الأشمونى(٢١٢) العلامة فى النحو والقراءات والأصول وفقه الشافعية (ت٩٢٠هـ- ١٥١٤م) ، أما ابن اياس الحنفى المؤرخ (ت٩٣٠هـ- ١٥٢٤م) فقد شاهد عصر الغورى بعينيه ولمسه بيديه وكتب كتابه المستفيض «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» فى عصر الغورى ومن سبقوه ونهاية دولة وبداية دولة جديدة(٢١٣).

أما عن المعلمين (المهندسين) والرؤساء (الأطباء) فكثيرون جدا منهم: المعلم حسن بن الصياد (المهندس البارع) والذى صنع (ماكيتا) نموذجا مجسما من الجبس لمدينة الاسكندرية يتضمن كل ما بالمدينة من الأبراج والأبواب والمنارة وغير ذلك، وقد أقام هذا النموذج فى المطرية وزاره الغورى فى شعبان ٩١٦هـ- ١٤١١م وأعجب بدقة فنه وصناعته.

أما المعلم عبد القادر الشماع فقد كان خبيرا ونابغة فى التقويم والفلك (ت٩١٨هـ - ١٥١٢م) والأمير إينال شاد العمائر السلطانية وكان عليما بالهندسة خبيرا بفن البناء.

أما الأطباء فمنهم : (١) الرئيس بركات السكندرى (ت٩١٥هـ- ١٥١٠م) ، (٢) شمس الدين القوصونى (ت٩١٧هـ- ١٥١٢م) ، (٣) عبد القادر القطبى (ت٩١٩هـ- ١٥١٤م) .

وممن عالج الغورى من الكحالين (أطباء العيون) حين ارتخاء جفونه ، القوصونى المذكور وصلاح الدين الشامى، وعبد الرحمن الشريف ، وتقى الدين المنوفى[٢١٤].

شعراء عصر الغورى وأدبائه : كان من هؤلاء الحافظ الراوية ، والزاهد المتصوف والمؤلف البارع والأديب المفنن والشاعر الباريعى. ومن هؤلاء من قصد القصائد الطويلة أو نظم المقطوعات، ومنهم من شطر البردة النبوية ومنهم من خمسها وغير ذلك ، ومنهم من أولع بالتورية والفكاهة والتضمين وما إلى ذلك، ونذكر منهم على سبيل المثال:

عبد القادر الدماصى (ت٩١٥هـ- ١٥١٠م) كان شاعرا ناثرا ومحاضرا فكها، نظم فى الألغاز والخوانيات. جلال الدين النصيبى (ت٩١٦هـ- ١٥١١م) برع فى العلوم الدينية والعربية ، زاول التأليف ونظم فى الغزل وغيره ، وخمس إحدى قصائد ألشاب الظريف. علاء الدين بن مليك الحموى (ت٩١٧هـ- ١٥١٢م) كان فقيها حنفيا خبيرا بالنحو والأدب والعروض ، له عدة قصائد فى مدح الرسول ﷺ وديوان شعر كبير . عائشة الباعونية الشيخة العالمة المتصوفة المتوفاة (٩٢٢هـ- ١٥١٦م) نظمت شعرها فى التصوف والزهد والمدح، أجادت المديح النبوى ولها فيه بديعيتان ، ولها أيضا شعر فى الرصف والألغاز . الناصرى محمد بن قنصوه بن صادق (ت ٩٢٨هـ- ١٥٢٢م) قال الشعر فى النقد الاجتماعى، والوصف والمدح، شارك بشعره فى أحداث بلاده فى هذا العصر ، بكى مصرع السلطان الغورى بكاء مرا، ونكبة البلاد من بعده . جمال الدين السلمونى (ت ٩٣٠هـ- ١٥٢٤م) وكان من أبرز شعراء عصر الغورى ، هجاء نقادا لاذع النقد والهجاء وفد مرة على بيت قاضى القضاة شهاب الدين ابن الفرفور فمنعه حاجبه من الدخول فكتب أبياتا قال فيها:

بيابكم كلب عقور مسلط ... عديم الحيا والعقل فى البعد والقرب

ومن يربط الكلب العقور ببابه ... فإن بلاء الناس من رابط الكلب

فترضاه القاضى وصالحه [٢١٥].

مكانة الغورى العلمية : يظهر لنا من تاريخ الغورى، ومن أقواله التى تضمنها الكتابان نفائس المجالس والكوكب الدرى ، ومما كتبه الشريفى مترجم الشهنامة ، أن السلطان الغورى كان ذا حظ من علوم التوحيد والفقه والتفسير مشاركا فى علوم العربية[٢١٦] من نحو وبلاغة وغيرها، إلا أنه كان مولعا وشغوفا بقراءة كتب التاريخ والسيرة[٢١٧] وكان يعرف عدة لغات أجنبية [٢١٨]، وله ملكة أدبية زينت له المشاركة فى النظم أحيانا، كما كان يحب الموسيقى وله ألحان يتغنى بها[٢١٩].

وكان القضاة الأربعة وغيرهم لايتخلفون عن حضور مجالس الغورى ، إلا أن هناك نخبة ممتازة من العلماء أمثال السخاوى والسيوطى والقسطلانى وزكريا الأنصارى تورعوا عن حضورها ولم تذكر أسماءهم إلا نادرا(٢٢٠).

ترجمته للشهنامة للفروسى: كان سبب ترجمته لها من اللغة الفارسية إلى اللغة التركية أن الغورى كان يقرأ كثيرا، ولديه خزانة فيها ضروب الكتب(٢٢١) وكان بها نسخة من الشهنامة ، فأمر الشريفى بترجمتها إلى اللغة التركية ، وتعتبر ترجمتها التى استغرقت نحو عشر سنين عملا أدبيا ممتازا ، حبذا لو كان ذلك إلى اللغة العربية إذن لأضفى ذلك على الحركة الأدبية فى عصره رونقا وبهاء(٢٢٢).

شعره وموشحاته : للغورى عدة قصائد وموشحات ، القصيدة الأولى اثنان وعشرون بيتا أولها :

يا ملك أنعم ربنا الرحمن وهو الكريم المنعم الرحمن(٢٢٣)

يدعو الله فيها أن يؤلف بين قلوب جنده ويجمعهم حوله . والقصيدة الثانية ثلاثة وعشرون بيتا حث فيها على إحياء ليلة النصف من شعبان ودعاء له ولجنده ورعيته أولها:

لله فى أيامنا نفحات من دكرنا تزكو بها الأوقات

وله عدة موشحات بالعربية، منها واحد مكون من عشرة أبيات من نغم الحسينى: أوله

ربنا أدم لنا نعما جدت لى بها كرما

اثنا عشر بيتا من نغمة عشاق العجم: أوله :

جل من وهبا ملك مصر واكتسبا

اهتمامه بتعليم المماليك : يرى السلطان أن تعليم المماليك وتربيتهم تربية دينية سليمة يخلق فيهم حب الوطن والولاء له ولذلك اهتم بتعليمهم عند الفقهاء وإحضارهم من حين لآخر إلى مجلسه ليقرؤا أمامه ويمتحنهم(٢٢٤).

ففى المجلس العاشر وكان إمام المجلس سيدى على الأخميمى، وطلع الشيخ عباس مع مملوكين ، واحد منهما حفظ عبادات مذهب أبى حنيفة والآخر حفظ القرآن الكريم. ووجود المماليك فى مجلس السلطان يدل دلالة قاطعة على اهتمامه بتعليمهم وتربيتهم(٢٢٥).

محاسن الغورى ومساوئه : أشرنا فيما سبق إلى أن للغورى صفات تدل على رقة طبعه ورقة إحساسه وولوعه بالجمال والاستمتاع بزينة الحياة الدنيا. ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالما جبارا سفاكا للدماء قاسيا على الضعفاء . وبالإضافة إلى أنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب ، كان له اعتقاد فى الصالحين ، يعرف مقادير الناس على قد طبقاتهم يمسك لسانه عن سب الناس فى شدة غضبه ، قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه(٢٢٦)، غير كثيف فى الطبع فى ذاته ، ولديه لين جانب ورياضة ، ولم يكن عنده شمم ولاتكبر نفس عكس طبع الأتراك(٢٢٧).

وكان وفيا لإخوانه ورجاله الذين أخلصوا له ولم يغدر بهم ولانوى ذلك لهم ولا أضمر لهم حقداً ، أو دبر ضدهم مؤامرة كأسلافه ، بل كان مأمون الجانب فيما يتصل بهم عطوفا عليهم(٢٢٨).

غير أنه بجوار هذه المحاسن كانت له مساوىء كثيرة تغطى على محاسنه.. ومن المساوىء جنوحه إلى حياة عابثة لاهية، وسخائه على حفلاته وخاصته وعماراته(٢٢٩)، وشحه وبخله على جنده وعسكره الذين لم يكفوا عن الثورة مطالبين بالنفقة حتى اجترأوا عليه واستهانوا بواجبهم، كذلك الضرائب الظالمة والمصادرات الجائرة وسوء ظنه ومبادرته إلى العقوبة ، كما أباح لنفسه جمع المال بأى طريق، لذلك سمح بغش وتزييف العملة والرشوة التى استشرت فى كل شىء، حتى القضاة الذين سعوا إلى وظائفهم لدى السلطان بالرشوة ، وترك لأمراء دولته الحبل على الغارب، ليتدخلوا فى القضاء، فتصدوا للفصل فى القضايا لقاء الأجور الباهظة والرشوة(٢٣٠).

لكنتنا أمام هذه المساوىء لانستطيع ولاينبغى أن ننسى- فى مقام التاريخ محاسن وعظمة هذا السلطان خاصة إذا أدركنا الظروف والملابسات التى صاحبت سلطنته من أول سلطنته، عاش بقية حياته مدافعا عن بلاده ما دامت مفاجآت الحوادث تدعوه إلى الدفاع الشديد الغيرة عليها، سريع الغضب إذا اعتدى على أطرافها معتد أثيم. ولوصفا له الدهر ونفوس من حوله لغير بهم وجه التاريخ.

لقد سار بنفسه إلى حلب- وهو طاعن فى السن- على رأس حملة كبرى، فشهد معركة مرج دابق وعاين النصر، لكن الخيانة والغدر لاحقته، وفرقت الدسائس بين صفوفه ، ففر جنوده لايلوون على شىء ، أما هو فقد لقى حتفه وهو يشهد خاتمته بعد أن ثبت وسط المعركة واقفا كعلمه، وبقيت سيرته عظة وعبرة لمن يعتبر .

الأعمال الخيرية للتجار الكارمية[٢٣١] وغيرهم من كبار التجار:

تمهيـد:

فى العصر المملوكى عامة والجركسى خاصة أصبح تاجر الكارم هو صاحب القوافل الهائلة التى كان يحميها بخيّالة وجند يعملون لحسابه الخاص، ولهم وكالات ضخمة فى مدينة القاهرة وغيرها .

وقد حقق هؤلاء التجار من وراء عملهم هذا فى تجارة الشرق أرباحا هائلة وثروات طائلة ، فقد بلغت ثروات بعضهم مليون دينار، وبلغت ثروات البعض الآخر أضعاف ذلك بكثير وقد تعذر إحصاء ثروات بعضهم[٢٣٢].

أما عن اهتمام سلاطين المماليك بهذه الطائفة، فقد قدموا لهم التسهيلات اللازمة حيث خصصوا لهم موظفا حكوميًا كبيرا هو «مستوفى البهار والكارم» يهتم بهم ويسهل لهم أمورهم، وقد حدثنا القلقشندى عن وظيفة هذا الرجل فقال: «إن موضوعها: التحدث عن أصل التجارة الكارمية من أصناف البهار وأنواع المتجر، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة، وتجعل تبعا لها ، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعا لها ، وتارة تنفرد عنها حسبما يراه السلطان»[٢٣٣].

ومن الاهتمام بهذه الطائفة أقام المماليك لهم الفنادق والوكالات داخل البلاد ، يمارسون فيها نشاطهم التجارى بمختلف أنواعه، كما بنى الكارمية أنفسهم بعضا من هذه الفنادق على نفقتهم الخاصة، كانت تتم فيها صفقات بيع التوابل وسلع الشرق الأخرى لتجار أوربا، ولم تكن هذه الفنادق فى القاهرة وحدها ، بل كانت لهم فنادق داخل الاسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى ودمياط وقوص وعيذاب ومكة وعدن والهند[٢٣٤].

كيان الكارمية التجارى:

ولما كانت المراكز التجارية الكارمية هى: عدن ، وجدة ، وعيذاب ، والسواحل العربية للمحيط الهندى ، فقد ظل النشاط قائما فى تلك المراكز حتى انتقل مركز تجارة العالم من المحيط الهندى إلى البحر المتوسط، مع قيام دولة المماليك فى مصر ، وكان طبيعيا أن يتخذ العاملون فى هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من البحر المتوسط، ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ليتخذوها موطنا وسكنا لهم ، وأصبح بعضهم يسمى بحسن كارم ومحمد حسن كارم.

واستجابوا بذلك النشاط للاتصال العالمى بين الشرق والغرب ، فأصبحوا كبار التجار المشتغلين بتجارة الشرق العالمية، وأصبح التاجر الكارمى فى العصر المملوكى الجركسى خاصة هو تاجر التوابل وسلع الشرق الغالية الثمن.

ويرجع تمتع هؤلاء التجار بالأمان على أنفسهم وعلى أحوالهم فى تلك المناطق الإسلامية وإتاحة فرص الكسب الواسع لهم إلى إقرار النفوذ المصرى لهم فى العصر المملوكى الجركسى قبل نهايته فى البحر الأحمر، وفى تنظيم شئون التجارة فى اليمن وغيرها من بلدان ذلك البحر وموانيه[٢٣٥].

أهم مميزات الكارمية :

كان يجمع الكارمية جلهم طائفة واحدة قوية تشبه الآن إلى حد كبير نقابة التجاريين، أو الغرفة التجارية ، وكان لهذه الطائفة رئيس يقوم بالإشراف عليها ويحل مشاكلها ويسمى بعدة أسماء منها «رئيس التجار» ، و«وكيل التجار » أو «شهبندار التجار» ، وكانت هذه الرئاسة وراثية يرثها الابن عن الأب جيلا بعد جيل.

وكان ابن رئيس التجار الكارمية يتعلم أصول هذه التجارة باشتراكه فى رحلات تجارية بعيدة وهو فى سن مبكرة ، وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء للعائلات التى تولت رئاسة الكارمية فى العصر المملوكى ، أمثال عائلات: الخروبى والمحلي والدمامينى وغيرهم.

وكان أهم ما يميز هذه الطائفة اتحادها رغم تعدد أجناسها وارتباطها مع بعضها برباط المصاهرة مسلمين كانوا أم يهودا ، وشاهد ذلك تلك المصاهرات التى ظلت قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، كذلك جمعت بينهم الأخطار التى كانوا يتعرضون لها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى سواء كانت هذه الأخطار طبيعية كالأعاصير والرياح وارتفاع الموج والشعب المرجانية من ناحية أو من جهة متجرمة البحار وقراصنتها، كذلك كان الاشتراك فى تجارة واحدة تتخذ لها طريقا واحدا، يحتاج بالضرورة إلى قيام طائفة تضم هؤلاء التجار وتحافظ على تجارتهم ومصالحهم[٢٣٦] .

تجار الكارم ومساعدتهم لحركة العلم والعلماء ومآثرهم وأفضالهم :

كان لتجار الكارم مآثر وأيادى بيضاء على المجتمعات والشعوب التى عاشوا فيها أو حلوا بها، لما كانوا يتمتعون به من ثروات طائلة ، ويتحلون به من أخلاق فاضلة وتقوى زائدة، فكانوا يقيمون بإقراض المحتاجين بدون ربح[٢٣٧].

أولا: قاموا بنقل طلاب العلم على سفنهم من الراغبين فى طلبه إلى الجامع الأزهر بالقاهرة فى صورة علمية جميلة، وبعد أن ينتهى هؤلاء الطلاب من دراستهم ويريدون العودة إلى بلادهم أعادوهم مرة أخرى من حيث أتوا تدريجيا فى رحلات علمية أيضا، كما كانوا ينقلون على حسابهم بعض العلماء الذين يريدون الحج والمجاورة فى بيت الله الحرام بمكة.

ثانيا : كانوا يقومون بشراء المخطوطات التى نسخت حديثًا وظهرت فى أسواق البلاد التى يتجرون فيها، إلى راغبى العلم والمعرفة ، وبعضهم نقلوا إلى السلاطين والأمراء المماليك أندر وأنفس المخطوطات مكلفين بذلك منهم ، بل أنهم أنفسهم اقتنوا أعظم الكتب والمخطوطات فى مكتباتهم الخاصة ليطلع عليها كل من أراد، وأيضا كنوع من البركة والجمال، الذى تزدان به قصورهم.

ثالثا : خصص أغلبهم جزءا من ثروتهم لإنشاء المدارس والمساجد والزوايا والمستشفيات وترميمها بالقاهرة ومكة والمدينة.

رابعا : اهتم رجال الكارم بدراسة علوم الدين عامة والحديث خاصة، كما سهروا على العناية بتعليم أبنائهم تعليما خاصا، بإحضار الأساتذة والمشايخ لهم فى قصورهم ولم يبخلوا عليهم فى هذه الناحية، وكانوا يبتاعون لهم المخطوطات بأغلى الأثمان لتنشئتهم تنشئة دينية طيبة[٢٣٨] .

ومن يدرس تاريخ حياة هذه الطائفة بالتفصيل ، يجد أنهم لم يقتصروا على العمل فى تجارة الكارم فى البحار فحسب، بل كانوا أيضا أصحاب وكالات وحوانيت فى داخل البلاد بالقاهرة وغيرها ، وكان منهم من يعمل أيضا بالتدريس والقضاء إلى جانب عمله بالتجارة. وبالجملة فقد كان رجال الطائفة الكارمية فى العصر المملوكى الجركسى خيرة رجال عصرهم مكانة وعلما وخلقا[٢٣٩]. وما يقوم به رجال المال والأعمال الآن من بناء المدارس والمستشفيات فى مصر يذكرنا بتجار الكارم وأعمالهم الجليلة فى خدمة العلم والعلماء والدين الإسلامى .

والآن سنذكر أمثلة لبعض التجار الذين قاموا بإنشاء المساجد والمدارس وغيرها رعاية للعلم: على سبيل المثال لا الحصر وحسبما أسعفتنا به المصادر المعاصرة:

١- برهان الدين المحلى التاجر (٧٤٥-٨٠٦هـ/ ١٣٤٤-١٤٠٣م) : إبراهيم ابن عمر بن على التاجر الرئيس برهان الدين المحلى الخواجا العظيم[٢٤٠] قيل إنه من ذرية طلحة بن عبيدالله ، انتهت إليه رياسة التجار فى زمانه وبلغ من الحظ فى المتجر وسعة المال إلى الغاية، وكان عنده حشمة ومرؤة وخير معروف وبر وعظمت منزلته بمصر وغيرها، جدد بمصر جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة[٢٤١] وبنى عدة أملاك تعرف به [٢٤٢]، أنشأ مدرسة بمصر العتيقة وقف

عليها الأوقاف الكثيرة وعين بها المدرسين ومنهم «شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى» سمع منه صاحب المدرسة ترجمة العلامة البخارى سنة ٨٠٥هـ- ١٤٠٣م.

ولم يزل على رياسته حتى (ت فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ- ١٤٠٤م) وذكر ابن اياس وفاته فى ذى الحجة من نفس السنة . وقد مدحه البدر الدماميني بشعر قال فيه:

ياسريا معروفة ليس يحصى ورئيسا زكى بفرع وأصل

مذ علا فى الورى ملك عزا قلت هذا هو الوزير المحلى[٢٤٣]

٢- بعض الأبناء لم يلتزم بوصية والده فى تكميل المدارس والإنفاق من أوقافها على العلماء والطلاب .

فالحسن بن سويد بدر الدين المصرى، تاجر الكارم (ت فى أوائل صفر ٨٢٩هـ - ١٤٢٦م) بنى مدرسة مقابل حمام جندر بالقاهرة ، مات قبل تكميلها ، وأوصد لإكمالها مبلغ أربعة آلاف دينار، ولكن أولاده ألغوا التدريس الذى كان بها وحولوها إلى مسجد [٢٤٤].

٣- محمد بن محمد بن محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن عبد الخالق المحب أبو القاسم بن الفاضل الشمسى النويرى[٢٤٥] الميمونى القاهرى المالكى ، ولد بالميمون فى رجب ٨٠١ - وتوفى فى ٤ جمادى الأولى ٨٥٧هـ- ١٣٩٩-١٤٥٣م) ، قدم القاهرة ولازم البساطى فى الفقه والعلوم العقلية، وغيرها وأذن له فى الإفتاء والتدريس، درس كذلك على الجمال الافقهسى والشهاب الصنهاجى والشمس الشطنوفى وغيرهم كثيرون جدا، ألف كثيرا من الكتب والقصائد. كان متواضعا مع الطلبة كبيرهم وصغيرهم مفرطا فى الانبساط معهم، باذلا جاهه لمن يقصده ، ذا كرم بالمال والإطعام . يتكسب من التجارة بنفسه وبغيره ، وقد أغناه ذلك عن الالتفات إلى وظائف الفقهاء ، عرض عليه السلطان جقمق قضاء القدس فامتنع وقضاء مصر فرفض، ولما حضروا إليه بمربعة فيها مرتب العينى فى الجوالى* بعد موته فى كل يوم دينار قال: «إن جقمق يريد أن يستعبدنى فى موافقته بهذا المرتب».

بنى بخانقاه سرياقوس مدرسة وقف عليها كل ما كان فى حوزته من أملاك.

ومن شعره فى المدح :

وأفضل خلق الله بعد نبينا عتيق ففاروق فعثمان مع على

---

* المقصود بهم أهل الذمة (الباحث) .

وسعد سعيد وابن عوف وطلحة عبيدة منهم والنهير فتم لي[٢٤٦]

٤- أما محمد بن محمد بن محمد الفارسكوري البساطي المتوفى قريبا من سنة ٨٨٠هـ ١٤٥٦م أحد المتمولين من بيت تجارة ووجاهة . كان أبوه على قاعدة تجارة دمياط ، يقال إنه كان يسبك الفضة ويبيعها للهنود ، وغيرهم ، وكان يستأجر الغيطان ونحوها ، ترقى حتى زادت أمواله على الوصف، بحيث قيل أنه وجد خبيئة فى بعض المعاصر «بنى مدرسة بدمياط وعمل بها شيخا وصوفية»[٢٤٧].

٥- إبراهيم بن حسن برهان الدين المناوى ثم القاهرى التاجر (ت فى رجب ٨٧٥هـ-١٤٧١م) عشق التجارة ، فرزقه الله منها حظا وبركة، لإخلاصه لأهل العلم والفقراء ، وصحب الشيخ الغمرى ، وقام لجامعه فى القاهرة بمصاريف كثيرة كزيت الوقود، وتسبيل الماء كل يوم والطعام ليلة الميعاد من كل شهر، والبخارى فى الأشهر الثلاثة رصد له ربعا بالقرب منه ورزقه حبسها عليه وغيره من القُرب . وصار بيته موردا للصالحين ، بل محلا لإقامة غيرهم بعياله[٢٤٨]. .

٦- عبد الرشيد البرلسى ثم السكندرى التاجر (توفى بمكة فى شوال ٨٨٧هـ- ١٤٨٢م) بنى فى رشيد مدرسة لطيفة علو صهريج بناء مع بيتين آخرين»[٢٤٩].

٧- وتاجر الخيل محمد الشمس بن المرضعة (٧٩٠-٨٨٩هـ- ١٣٨٨-١٤٨٤م)، كان رجلا خيرا، بدأ بتجارة الخيل، وكانت هذه التجارة فى هذا العصر رائجة رابحة جدا لحاجة أهل العصر إليها للركوب فى الأسفار ونقل البريد والحجيج بالإضافة إلى الحروب والتجاريد التى لم تنته طوال هذا العصر ، فحصل له منها رواج عظيم واتسعت دائرته «بحيث ابتنى مدرسة بخط الحجارين بالقرب من دار الخلافة فى طريق المشهد النفيسى».

٨- وهذا قبانى من أصحاب الحرف هو محمد المدعو بركات بن ولى الدين بن شمس الدين بن عبدالكريم القليوبى (ت٨٩٦هـ- ١٤٩١م) القبانى بباب الفتوح، كان صوفيا بسعيد السعداء خيرا يقرأ القرآن ويشهد الجماعات، أصلح مسجدا تجاه خان الوراقة ، وخلوة فوق سطح جامع الحاكم[٢٥٠].

وهذا أحد الأمراء المماليك الصغار الذى كان يخدم عند التاجر نور على الطنهدى، وهو الأمير عنبر الطنبدى الطواشى أعتقه كبير التجار، وخدم عند الأمراء حتى أصبح نائب مقدم المماليك السلطانية (٨٦٧هـ-١٤٦٣م) بنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة[٢٥١].

الحواشى

١- الرازى :محمد بن أبى بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح - القاهرة دار التراث العربى د.ت مادة (وكالة).

٢- صحيح البخارى جـ٣ ص٢٠ دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان .

٣- الفكر الاقتصادى عند الخلال من خلال كتابه «الحث على التجارة والصناعة والعمل تحقيق الدكتور / ضيف الله بن يحيى الزهرانى مكة المكرمة سنة ١٤١٦هـ مطابع الصفا ، ص٣٨، ٣٩ .

٤- سورة البقرة ، من آية ٢٨٢ .

٥- سورة النساء، من آية ٢٩ .

٦- سورة الجمعة، من الآيتين ٩ ، ١٠ .

٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٥ ص٤١٠ تحقيق أحمد شاكر دار المعارف - القاهرة .

٨- الضريك : كأمير : يعنى الأحمق القاموس المحيط للفيروز آبادى ، أبوبكر أحمد بن محمد الخلال (ت٣١١هـ) : الحث على التجارة والصناعة والعمل ص٦ . نشر مكتبة القدسى والبدين طبع مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٨هـ .

٩- الخلال ... نفس المرجع ص٦ .

١٠- نفس المرجع ص٩ .

١١- نفس المرجع ص١٢ .

١٢- نفس المرجع ص١٣ .

١٣-١٤- نفس المرجع ص١٤ .

١٥-١٦- سمى وكيلا لأن موكله قد وكل إليه القيام بأموره وشئونه ، فهو موكول إليه لأمر، وهى تعنى بذلك أن يعهد الإنسان إلى غيره أن يعمل له عملا ما سواء أكان بأجر أو بدونه ، وكأن تعهد «العروس» إلى ولى أمرها من أب أو أخ أو قريب أن يعقد قرانها على زوجها فى الحال أو المآل، ومن ثم فالذى يقوم بهذا العمل هو «الوكيل» أو «الموكل إليه» فى أداء هذا العمل وللاستزاده (راجع : ابن منظور «لسان العرب جـ١١ مادة (وكل) بيروت ، دار صادر بيروت سنة ١٩٥٦م. أيضا : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية جـ٢ مادة (وكل) ، د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية الدار المصرية اللبنانية ط أولى سنة ١٩٩٣م ، ص٥٢ وما بعدها .

١٧- القيسارية: مصطلح غير عربى، دخل اللغة العربية بالتقادم وهو مشتق من اسم «قيصر»(Cesar) و«قيصرية» (Cesarie) وهذا المصطلح يعني سوقا صغيرة مخصصة لبيع السلع اليومية الطازجة كالخضر والفاكهة ومشتقات الألبان من زبد وسمن وجبن وقشدة وحليب وغيرها وعليها بوائك من الخشب لحماية الناس من حرارة الشمس وسقفها جملونى لحماية من بداخلها من ماء المطر، وتحتوى القيسارية على محلات للبيع وورش ومخازن، وفى الطابق العلوى يوجد- غالبا- مساكن يشغلها أصحاب هذه المحلات - راجع كتابنا «الجامع الأحمدى شقيق الجامع الأزهر» ص٤٨٨ طبعة أولى سنة ١٩٩٠م ، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ط القاهرة - الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م ص٢٩٥-٢٩٦ ؛ د. صالح لمعى مصطفى : التراث الإسلامى المعمارى فى مصر ص٧٥ بيروت ، جامعة بيروت سنة ١٩٧٥ م ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية سنة ١٩٧٠م ص٥٤ هذا وقد عرّفها باحث آخر حيث ذكر أنها نسبة إلى «بازيلوس» امبراطور القسطنطينية والذى يعادل لقب قيصر روما ، وهذا الاسم أطلق على الأسواق القائمة فى وسط المدينة التى تحف بها البوائك والتى تحولت فى المصطلح الدارج إلى قيسارية راجع : سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون فى دولة الإسلام الاسكندرية - منشأة المعارف سنة ١٩٨٦ ، ص٢٠٩ وذكر صاحب معجم البلدان أنها منسوبة إلى مدينة «قيسارية» الموجودة على ساحل بر الشام فى فلسطين . (ياقوت الحموى : معجم البلدان طبع طهران سنة ١٩٦٥ ، جـ٢ ص٢١٤ . أما الفندق : فهى كلمة فارسية تساوى كلمة «خان» ذكرها ابن منظورفى لسانه وأضاف أن الفندق فى لغة أهل الشام «خان» ومن هذه : الخانات التى ينزلها الناس مما يكون فى الطرق والمدائن وله معان أخرى (ابن منظور : لسان العرب مادة (فندق) ، عبد القدوس الانصارى : الفنادق والفندقة فى بلاد العرب . والاسلام (مجلة الفيصل) س١ع١ يونية سنة ١٩٧٧ م ص١٦ ، وبصفة عامة فهو مكان مهيأ لاقامة المسافرين من التجار (للتوسع راجع د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٣٧ ، ٤٥ ، مرجع سابق .

١٨- المقريزى : الخطط جـ٢ ص٨٢ ط. بولاق .

١٩- د. حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية - القاهرة دار النهضة العربية سنة ١٩٧٩ ، ص١٩٢ ، د. آمال العمرى : أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية (أبحاث الكتاب الذهبى فى الاحتفال الخمسينى لكلية الآثار) جامعة القاهرة -كلية الآثار سنة ١٩٧٨،ص٦٧-٧٠ .

٢٠- نعيم زكى فهمى- طرق التجارة الدولية ... ص٢٩٦ مرجع سبق، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة إبان العصر العثمانى ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية) تونس سنة ١٩٨٨ ، ص٤٨١ .

٢١- ابن الصيرفى : الخطيب الجوهرى على بن داود: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ، دار الكتب سنة ١٩٧٠ م جـ١ ص٢٧١-٢٧٢ .

٢٢- جرابار ، أوليج : تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ، إحسان صدقى العمد، مراجعة فؤاد زكريا - الكويت المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سنة ١٩٧٨ ، جـ٢ ص٤٥ .

٢٣- ابن ميسر : أخبار مصر ص٦٢، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ١ ص٤٥١ ، د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص١٦٠ ، وكانت هذه الوكالة بجوار دار الضرب على يمنة السالك من رأس الخراطين إلى سوق الخياميين والجامع الأزهر للاستزادة راجع : د. آمال أحمد حسن العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى- جامعة القاهرة - كلية الآثار سنة ١٩٧٤ م رسالة دكتوراه ٢ مجلد غير منشورة ص١٦٨ .

٢٤- تولى الخلافة بعد موت والده سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م وكان عمره حينذاك خمس سنوات قتل سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م بعد أن حكم مصر تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف ، ومن آثاره الخالدة على الزمن للآن [الجامع الأقمر أثر رقم ٣٣ بشارع المعز لدين الله الفاطمى] ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٢٩٩ ترجمة رقم ٧٤٣ طبع القاهرة النهضة العربية سنة ١٩٤٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، نفس المرجع السابق جـ١ ص٣٥٧ ، جـ٢ ص٢٩٠-٢٩١ .

٢٥- ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ، الدر المطلوب فى أخبارملوك بنى أيوب ، جـ٧ ص٣٠٤ تحقيق د سعيد الفتاح عاشور - القاهرة ، المعهد الألمانى للآثار سنة ١٩٧٢م، د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر- القاهرة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٣ ، جـ١ ص١٧١ .

٢٦- دكتور محمد الإسكندرانى: اكتشاف رأس الرجاء الصالح وأثره على العلاقات التجارية بين العالم الإسلامى والغرب بحث قدم للمؤتمر الدولى حول التاريخ الاقتصادى للمسلمين بجامعة الأزهر فى ذى الحجة سنة ١٤١٨ هـ أبريل سنة ١٩٩٨م جـ٢ ص٧١ ، ٧٢ .

٢٧- أحمد عبد الحميد خفاجى : طبقة التجار فى مصر المملوكية وأثرها فى المجتمع المصرى (مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا) ع١ ص٦٨ ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .

٢٨- خطط المقريزى، جـ٣ ص١٤٩-١٥١ طبع بمطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٥هـ .

٢٩- راجع خطط المقريزى ، جـ٣ ص١٤٠-١٤٨ ، طبعة النيل .

٣٠- أنشأها الأمير قوصون سنة (٧٤٣هـ/ ١٣٤١م) أثر رقم ١١- أى قبل موته فى هذه السنة، وقد خربت هذه الوكالة سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) أيام السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق من حيث وجود هجوم تيمور لنلك على الشام وتخريبها ، وفتن الخراب بين الأميرين نوروز الحافظى ، وشيخ المحمودى، وعم الغلاء والفناء، ولم يفيض النيل فى هذا العالم . للاستزادة عن الأمير قوصون . المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ . طبع بولاق .

- عبداللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية (مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة) . مج ٢٥ ، جـ١ مايو ١٩٦٣ ، ص١٢٩ ، د. رفعت موسى محمد الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٥٥ مرجع سابق .

٣١- المقريزى : الخطط نفس المرجع جـ٣ ص١٤٠ وما بعدها .

٣٢- للاستزادة عن السلطان قايتباى وآثاره المعمارية انظر : حسنى محمد نويصر منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة دراسة معمارية أثرية - كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م (رسالة دكتوراه غير منشورة) د. عبد الرحمن عبد التواب قايتباى المحمودى - الأعلام ، طبع الهيئة العامة للكتاب وترجمتنا له فى هذا البحث .

٣٣- أثر رقم ٧٥ (٨٨٢هـ- ١٤٨٠م) هذا ولم يبق منها الآن إلا الطابق فوق الأرض والسبيل الملحق بها ، ويطلق عليها العامة وكالة «حلة».

٣٤- أثر رقم ٩ (٨٨٥هـ - ١٤٨٠-١٤٨١م) .

٣٥- سجل هذا البيع فى الوثيقة رقم ١٤١ جـ أوقاف ، وذكرت هذه الوكالة فى وثيقة ٨٨٢ أوقاف ، وقد أرخها الدكتور أحمد محمود عبد الوهاب المصرى بنهاية القرن ٩هـ/ نهاية ق١٥ أو أوائل ق١٦ راجع رسالته: العمارة فى وثائق الغورى الجديدة بوزارة الأوقاف - جامعة أسيوط - آداب سوهاج سنة ١٩٨١ م ، ص٤٢ - ٤٥ .

٣٦- أثر رقم ٦٤ (٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥م) .

٣٧- صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى الإسلامى ... ص٦٠ مرجع سابق .

٣٨- تقوم وزارة الثقافة الآن على قدم وساق بترميم وتجديد هذه الوكالة بعد أن فرّغت منها أصحاب الحرف التقليدية (النحاس والزجاج وخشب الخرط والخزف والحلى الشعبية وغير ذلك) ، ونقل منها كذلك جمعية «أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة» ومرسمها الحر(الباحث) .

٣٩- راجع : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، القسم الثانى- الترتيب التاريخى ص١٠-١٤ بينما يذكر د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم أن عددها أربعة عشر من خلال الوثائق وهم : وكالة الزيت ، وكالة الغورية ، وكالة باب الشعرية، وكالة الماوردى، وكالة الجراكسة ، وكالة الكعكيين وكالة السكر ، وكالة المرجان ، وكالة الجلابة ، وكالة ذو الفقار ، وكالة الحشر، وكالة الشرايبى ، وكالة أحمد المراكشى، وكالة المغاربة راجع: د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثمانى (مجلة كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر) ع٣ سنة ١٩٨٥م ، ص٢٩٩-٣٠٠ . لكن أدموند بوتى ذكر ستة عشر وكالة فى القاهرة وبولاق (ق١٠هـ- ١٦م) وهم : وكالة حسن الباشا الوزير (أثر رقم ٥٣٨) سنة ٩٩١هـ ١٥٨٣م وكالة الخروب ((أثر رقم ٥٣٦ق١٠هـ- ١٦م) وكالة سليمان باشا (أثر رقم ٥٣٩)(٩٤٨هـ ١٥٤١م) وجميعهم فى بولاق (ق١١هـ / ١٧م) وكالة الوش أثر رقم ١٩ (١٠٨٤هـ- ١٦٧٣م) بينما ذكرت فى فهرس الآثار الإسلامية وكالة أودة باشى، وكالة مصطفى بيه طبطباى أثر رقم ٢٧٢ (١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م) بباب النصر ولم تذكر فى فهرس الآثار الإسلامية ، وكالة عباس أغا (أثر رقم ٣٩٦ (١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م)، وكالة النقادى (أثر رقم ٣٩٧) (١٠٢٨هـ - ١٦١٨م) وكالة جمال الذهبى (أثر رقم ٤١١) - (١٠٤٢هـ- ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٢-١٦٣٥م) ، وكالة محمدين (أثر رقم ٥٠٠) (ق١١هـ- ١٧م) ولم تذكر فى فهرس الآثار الإسلامية، وكالة الحرمين (أثر رقم ٥٠١) (ق١١هـ- ق١٧م) وكذلك لم تذكر فى فهرس الآثار الإسلامية وكالة التوتنجى أثر رقم ٥٤٨ (ق١١هـ / ١٧م) أما القرن ١٢هـ ١٨م فقد حاز على ثلاث وكالات هى وكالة نفيسة البيضا (أثر رقم ٣٩٥) ١٢١١هـ/ ١٧٩٦ وكالة بازرعة (أثر رقم ٣٩٨) ق١٢هـ ١٨م) وكالة الشرايبى أثر رقم ٤٦٠ (١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م) راجع د. رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت ص٦٠ حاشية ١ .

٤٠- الخطط جـ٣ ص١٥٣-١٥٤ طبعة النيل .

٤١- أثر رقم ٦٤ (٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥م).

٤٢- أثر رقم ٥٣٦ (ق١٠هـ-١٦م) .

٤٣- أثر رقم ٥٣٩ (٩٤٨هـ / ١٥٤١م) .

٤٤- أثر رقم ٥٣٨ (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) .

٤٥- للتوسع راجع د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية - مرجع سابق ، ص٦١ ، ٦٢ .

٤٦- راجع ملحق رقم وثيقة من أربع صفحات لحوانيت ورباع وحجرات سكنت بالأهالى فى وكالات تابعة لرواق المغاربة بالأزهر ، وينفق ريعها على مصالحه وطلاب العلم المجاورين به .

٤٧- د. محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم : المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية القاهرة - الجامعة الأمريكية سنة ١٩٩٠م ص٢٢ .

٤٨- د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٦٠ ، د. آمال أحمد حسن العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى رسالة دكتوراه - غير منشورة -كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤ .

٤٩- أنبوب ينطلق منه الماء إلى الفسقية فإذا كان ثابتا أطلق عليه فوار والمتحرك منه يسمى دوارة (د.محمد محمد أمين المصطلحات .. نفس المرجع ص٨٥ ، ٨٧) .

٥٠- مازال الناس فى بعض قرى مصر يطلقون على المكان الذى يضعون فيه تموين البيت من أرز وفول وذرة وغيرها حاصل ويعنون به «المخزن».

٥١- كما فى وكالة الغورى بشارع التبليطة بالأزهر (راجع د. مجاهد توفيق الجندى: المعمار المسلم سبق العالم الغربى فى تشييد الأسواق التجارية المتكاملة - جريدة الإيمان الكويتية (العدد ٨٨٥٨ الجمعة ١٧ من شوال سنة ١٤٢١هـ ٢ يناير سنة ٢٠٠١ م ص٤) .

٥٢- الصهريج : هو خزان أرضى للمياه يبنى بالطوب الآجر والغافقى فى تخوم الأرض لحفظ المياه، وله قبة غير عميقة مقامة على دعامات وقناطر من الحجر الفص النحيت ، وتغطى فوهته بخرزة من الرخام أو الحجر الصد المستدير الشكل (د. عبداللطيف ابراهيم : وثيقة قراقجا الحسينى أمير أخور كبير ص٢٠٣ مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة مج١٨ ج٢ ، د. مجاهد الجندى : الجامع الأحمدى ص٤٨٢ ، ٤٨٣ .

٥٣- الرواق : يطلق على المساحة المحصورة بين صفين من العقود ، وهو القاعة أو الايوان أو الغرفة ، وفى العصر المملوكى كان يختلف معنى الرواق فى المسجد عنه فى المنزل ففى المساجد كان معناه المسطحات المسقفة التى بين الأعمدة وفى المنازل الوحدة السكنية أو بعضها (صالح لمعى : التراث المعمارى الاسلامى ص٩٥) .

٥٤- الدرقاعة هى الجزء الذى يتوسط القاعة أو المسجد أو المدرسة ، وعنها يمكن الدخول إلى أجزائها ويكون مستوى أرضية الدرقاعة منخفضا عن مستوى أرضية الأواوين بمقدار درجة سلم ... للاستزادة أ.د. محمد محمد أمين : المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص٥٠ ، د. مجاهد توفيق الجندى : الجامع الاحمدى شقيق الجامع الأزهر ص٤٨٧ طبع أولى سنة ١٩٩٠م ، وثروت عكاشة : القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية ص٨٦ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١ م.

٥٥- الحقوق هى غرفة الخدمات (المعيشة) توجد دائما مع كلمة منافع (د. صالح لمعى مصطفى التراث المعمارى الاسلامى فى مصر ط. بيروت سنة ١٩٧٥ ، ص١١٨) .

٥٦- د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٦٩ الدار المصرية اللبنانية ط. أولى سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٥٧- الخطط المقريزية جـ٢ ص٩٣ طبع بولاق مرجع سابق .

٥٨- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط جـ٢ مادة (قنصل) .

٥٩- طوبيا العنيسى : تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية ص٥٩ .

٦٠- نفس المرجع ص٥٩ .

٦١- صبح الأعشى جـ٨ ص٥٣ طبع دار الكتب المصرية . وللتوسع راجع : صبحى لبيب: الفندق ظاهرة سياسية ص٢٩٥-٢٩٩ .

٦٢- دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى... ص٧٧ دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢ م .

٦٣- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية جـ١ مادة سمسر .

٦٤- ابن منظور : لسان العرب مج٤ مادة سمسر .

٦٥- نفس المرجع .

٦٦- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية جـ١١ مادة (دلال) ، الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦، ص٦٤ .

٦٧- السبكى : تاج الدين عبد الوهاب ت٧٧١هـ - معيد النعم ومبيد النقم تحقيق محمد على النجار وأبوزيد شلبى ومحمد أبو العيون القاهرة ، والخانجى سنة ١٩٤٨م.، ص١٤٣-١٤٤ .

٦٨- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ ص٣٠٤ ، د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف جـ٣ ص٩٩١ .

٦٩- د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية - مرجع سابق - ص٧٤ ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثمانى - مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر سنة ١٩٨٥ عدد ٣ ص١٩٦ .

٧٠- ابن الاخوة : محمد بن محمد أحمد القرشى : معالم القربة فى أحكام الحسبة . تحقيق روين ليوى بكيمرج - دار الفنون سنة ١٩٣٧ ص١٥٢-١٥٣ .

٧١- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية مادة (بوّاب) .

٧١- السبكى : معيد النعم - نفس المرجع ص١٤٤-١٤٥ وللاستزادة د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ١ ص٣٢٠-٣٢٣ .

٧٣- تدهورت أحوال صاحب هذه الوظيفة عندما أصبح البواب يتقاضى مرتبا لايكفيه وأولاده خبزا فقط فى الشهر فترك الباب وصار يبحث عن رزقه ومن هنا تندر العامة بقولهم لمن يدخل بدون إذن : هى وكالة من غير بوّاب (الباحث) .

٧٤- ابن منظور : لسان العرب مجلد ١٢ مادة (ترجم)، المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية جـ١ مادة (ترجم) .

٧٥- ابن طولون الدمشقى شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان - تحقيق محمد مصطفى - القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٤م جـ٢ ص١١١ . وللتوسع راجع: القلقشندى : صبح الأعشى جـ٨ ص١٢٣-١٢٥ ط. دار الكتب المصرية .

٧٦- ابن منظور : لسان العرب ط١ بيروت دار صادر . دار بيروت ١٩٥٦م مجلد ١٣ مادة (ثمن) مرجع سابق والمعجم الوسيط جـ١ مادة (ثمن) .

٧٧- صبحى لبيب : الفندق ظاهرة سياسية ... ص٢٩٤ .

٧٨- د. حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف .. جـ١ ص٤٢٩ ، ٤٣٠ .

٧٩- ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ، نفس المرجع ج٢ ص١١٠-١١١، أحمد المصرى - العمارة فى وثائق الغورى ... ص١٩ .

٨٠- د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ١ ص٤٢٩، ٤٣٠ .

٨١- نفس المرجع جـ٣ ص٨٩٢ .

٨٢- أحمد المصرى - العمارة فى وثائق الغورى ... ص١٧ ؛ ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص٨٤ ، صبحى لبيب ، الفندق ظاهرة سياسية ص٢٩٤ .

٨٣- حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ٢ ص٨٩١ ؛ والبرنبالى: نسبة إلى «برنبال» بلدة تتبع مركز منية النصر دقهلية تنقسم إلى برنبال القديمة وبرنبال الجديدة، راجع : دليل المحافظات والأقسام والشياخات ص٢٧ رئاسة مجلس الوزراء / مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار. مصلحة الأحوال المدنية.

٨٤- ابن منظور : لسان العرب مج ١ مادة (دلب) - محمد على الأنسى : الدرارى اللامعات فى منتخبات المغات مادة (دولاب) ص٢٦٢ .

٨٥- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية مادة (شد) ، د. حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف جـ٢ ص٦٠٤ ، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢١٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

٨٦- صبح الأعشى جـ٣ ص٣٩٠ مرجع سابق .

٨٧- د. محمد محمد أمين : الشاهد العدل فى الشرع الإسلامى- دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق اسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك (مجلة الدارة السعودية) س٨ ع٢ أكتوبر سنة ١٩٨٢ م ص١٢٦ .

٨٨- د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ... جـ٢ ص٦١٩ .

٨٩- السبكى : معيد النعم ... ص٦٣ ، ٦٤ ، د. حسن الباشا الفنون والوظائف ص٦١٨-٦٢٢ .

٩٠- النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ٧٣٢هـ : نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٣ ص٢٩٩ القاهرة- دار الكتب المصرية.

٩١- ابن الصيرفى : نزهة النفوس ... مرجع سابق ج١ ص١٣٢ .

٩٢- عن هذه الوظائف راجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٦٢ ، ج٤ ص٣٣ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ج٥ ص٤٦٥ ، ج٦ ص٣١ ، ج١١ ص٣٥٣ .

٩٣- ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ج١ ص١٤٨ .

٩٤- د. حسن الباشا : الفنون والوظائف ج٣ ص٩٠١ - ٩٢٠ .

٩٥- دكتور عمر عبد العزيز العانى: العاقات التجارية بين المسلمين وغير المسلمين فى الفقه الإسلامى- بحث قدم للمؤتمر الدولى حول التاريخ الاقتصادى للمسلمين فى الفترة من ٢٨-٣٠ ذى الحجة سنة ١٣١٨هـ (٢٥-٢٧ أبريل سنة ١٩٩٨ م) مركز صالح كامل وقسم التاريخ فى كلية اللغة العربية

بالقاهرة - وقسم التاريخ فى كلية الدراسات الإنسانية بنات جامعة الأزهر ملخصات البحوث ص٢٥، ٢٦ .

٩٦- من الطرق التجارية إلى وكالات القاهرة درب الأربعين الذى ربط تجارة غرب أفريقيا والسودان بها قرونا طويلة ... لقد سرنا عليه فى رحلة علمية لقسم التاريخ والحضارة فى كلية اللغة العربية يوم ٢٧ يناير / ١ فبراير ٢٠٠١ فى زيارة لمحافظة الوادى الجديد وأطلعنا على بعض القلاع الإسلامية وقرية المكس.

٩٧- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى جـ٧ ص٢٣٨-٢٣٩ .

٩٨- نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ أهل الزمان لابن الصيرفى ج٣ ص٥ ، النجوم الزاهرة، ج١٤ ص٢٤٢ .

٩٩- خطط على مبارك ، جـ١ ص٤٤، ٤٥ ، راجع فى صفاته وأولاده : النجوم الزاهرة، ج١٥ ص١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

١٠٠- البدر الطالع ، ج١ ص١٦١ ، ١٦٢ .

١٠١- نزهة النفوس ، ج٣ ص١٤٤ .

١٠٢- راجع غزواته الثلاثة فى : نزهة النفوس ، ج٣ ص٧٦ ومابعدها ، والغزوة الثالثة ص٨٤ ، وما بعدها ، ص٢٥٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٨، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، وكذلك النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٢٧٠ ، الغزوة الأولى، والثانية ص٣٧٦ ، والثالثة وفيها بعض أعيان الفقهاء، ص٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ - ٢٩٨ .

١٠٣- راجع نزهة النفوس جـ٣ ، ص١٨٥ حيث جمع السلطان تجار الكارم وألزمهم بأوامره ومرسومه .

١٠٤- راجع : نزهة النفوس ، جـ٣ ص١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٨٥ .

١٠٥- شذرات الذهب، جـ٧ ص٢٣٩ .

١٠٦- نزهة النفوس، ص٣٧٧ .

١٠٧- راجع ترجمته بالضوء اللامع جـ٣ من ص٨-١٠ .

١٠٨- خطط على مبارك ، جـ١ ص٤٥ .

١٠٩- أثر رقم ١٧٥ .

١١٠- تقع الآن فى شارع المعز لدين الله الفاطمى فى التقاطع بين شارعى الأزهر والموسكى بجوار الحناوى صاحب محل العطر هناك ، الاسحاقى: أخبار الأول، ص١٤٨ .

١١١- النجوم الزاهرة ، جـ١٦ ، ص١٨٧ ، ١٨٨ . نزهة النفوس ج٣ ص٢٦ .

١١٢- راجع النجوم الزاهرة ج١٦ ص١٨٠ .

١١٣- نزهة النفوس ، ج٣ ص٥٣ .

١١٤- العلامة القاياتي: محمد بن على بن محمد بن يعقوب من محمد الشمس أبوعبدالله بن النور القاياتى القاهرى الشافعى، ولد سنة ٧٨٥هـ - ١٣٨٣م بالقايات من أعمال البهنساوية، درس الفرائض على عمه الذى كان ماهرا فيها بالقاهرة، تكسب بالزراعة ثم نزل طالبا بالمؤيدية ، ثم مدرسة المحدثين بالبرقوقية ، ثم مدرس الشافعية بأشرفية برسباى ، ثم شيخ سعيد السعداء ثم مدرس بالغرابية، خطبة الظاهر جقمق للقضاء فباشره بعفة ونزاهة ولم يأذن إلا قليل من النواب، نظم الأوقاف وعمرها ونظر فى مصالحها وصرف لمستحقيها ثم تعين أخيرا لتدريس الفقه بالصلاحية والشيخونية، ثم مشيخة البيبرسية ونظرها (ت فى محرم ٨٥٠هـ- ١٤٤٦م) وكان عالما علامة غاية فى التحقيق وبالتدقيق وجودة الفكر، وكانت طريقته فى التدريس أحسن قبل القضاء لتصديه للعلم ليل نهار (الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع للسخاوى).

١١٥- ولد بزرزارا من قرى مصر، ثم رحل إلى اليمن مع البدر الدماميني، درس الفقه المالكى بالشيخونية والبرقوقية والأشرفية ببرسباى ، أفتى وانتفع به الطلبة (ت٨٤٦هـ- ١٤٤٠م)، راجع ترجمته بأنباء الغمر (وفيات ٨٤٦هـ) ، والضوء اللامع جـ٤ ص٦٦ ، البقاعى: عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران ، ترجمة رقم ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٢٧٩ .

١١٦- كانت الزركشة صنعة والده، رحل فى طلب العلم إلى دمشق ونابلس واسكندرية ودمياط ، والصعيد ، ترجمته فى أنباء الغمر رقم ٧ فى وفيات ٨٤٦هـ ، البقاعى: مرجع سابق، ترجمة رقم ٢٧٢ ، ص١٧٩ .

١١٧- نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص١٩٥ ، ١٩٦ .

١١٨- خطط على مبارك ، جـ٤ ص٥٨ ، حجة وقف برسباى.

١١٩- حجة برسباى رقم ٨٨٠ أ ، أوقاف ، ٥٠٥ ميكروفيلم ص١٧٩ . المجلس الأعلى للثقافة .

١٢٠- حجة برسباى رقم ٨٨٠ أ ، أوقاف ، ص١٨٤ .

١٢١- راجع ص١٩١ من نفس الحجة ، ويلاحظ أن هذه هى الحجة الوحيدة التى ذكرت خطاطين يعلمون أرباب الوظائف بهذه المدرسة تحسين الخط خاصة.

١٢٢- نزهة النفوس، ص٣٩٥ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة . ص٣٢٢، حسن عبد الوهاب ، مساجد القاهرة ، ص٢٢٩ ، د. سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، مرجع سابق ص١٠٦ .

١٢٣- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص٢٠٤ ، الضوء اللامع ، ج٨ ص١٤٣ .

١٢٤- خطط على مبارك، جـ٤ ص٥٩ .

١٢٥- راجع حجة برسباى ، بأرشيف وزارة الأوقاف .

١٢٦- راجع حجة برسباى رقم ٨٨أ، أوقاف ، المصدر السابق .

١٢٧- أثر رقم ١٧١ .

١٢٨- راجع حجة برسباى نفس المرجع ، خطط على مبارك ، ج٤ ص٥٩ ، د. ابراهيم طرخان : مرجع سابق ، ص٢١٨ وما بعدها ، ص٣٢٢ .

١٢٩- الخطط التوفيقية ، ج٤ ص٥٨ .

١٣٠- راجع : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية لابن الجيعان ص١٨٥ .

١٣١- د. سعاد ماهر ، محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ص٥٣،٥٢ .

١٣٢- للسلطان برسباى مصحف بمعرض دار الكتب برقم ١٩ مصاحف .

١٣٣- نزهة النفوس، ج٣ ص٥٥ .

١٣٤- المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

١٣٥- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص٣٩٤ ، ٣٩٥ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباى المحمودى ص٩ وما بعدها .

١٣٦- راجع الملاحق .

١٣٧- الضوء اللامع ، ج٦ ص٢٠١-٢١١ ، الاسحاقى، أخبار الأول ، ص١٥٠ ، البدر الطالع للشوكانى، ج٢ ص٥٥ ، ٥٦ .

١٣٨- راجع د. سعاد ماهر : الجمهورية العربية المتحدة ، مرجع سابق ، ص٦٤ ، ومدفون بهذا المسجد زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكى ، وقد أعلا بناءه من جديد السلطان قايتباى ، كما هو مدون على اللوحة المثبتة داخل الضريح .

١٣٩- سلامون الغبار : إحدى قرى مركز بسيون محافظة الغربية وقد زار الباحث القرية بصحبة عمدتها الشيخ محمد الجندى سنة ١٩٨٠م.

١٤٠- على مبارك : الخطط ، جـ١١ ، ص٥٢ ، د. سعاد ماهر، محافظات الجمهورية ، ص١٧٩ ، ١٨٠، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة رقم ٨٨٩ (ق) . أوقاف بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ٨٨١هـ، تحقيق د. محمد محمد أمين .

١٤١- شذرات الذهب ، ج٨ ص٨ .

١٤٢- التحفة السنية ، ص١٦٦ .

١٤٣- الضوء اللامع ، مرجع سابق نفس الجزء والصفحات ، تاريخ التربية فى مصر، ص٢١٨-٢١٩ .

١٤٤- عبد الرحمن زكى : قلعة مصر، ص٥١ ، ١٠٥ ، ١١٠ .

١٤٥- راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة رقم ٨٨٦ أوقاف ، ٥٠٣ ميكروفيلم المجلس الأعلى للثقافة .

١٤٦- الخطط التوفيقية ، ج١ ص٤٦ .

١٤٧- قايتباى المحمودى ، ص٨٤ .

١٤٨- شذرات الذهب، ج٨ ص٦، ٧ ، ٨، ٩ ، راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة ، رقم ٨٨٧ أوقاف ٤٩٤ ميكروفيلم .

١٤٩- راجع عمائر السلطان وأماكنها بمصر فى: قايتباى المحمودى من ص١٨٦-١٩٣ للعمائر الدينية والتعليمية ، من ص١٩٤-١٩٨ للعمائر المدنية، من ص١٩٨-٢٠٠ للأسبلة التى يعلوها الكتاتيب ، ومن ص٢٠٠-٢٠١ لأعمال الرى، ومن ص٢٠١-٢٠٤ للعمارة الحربية ، ومن ص٢٠٤-٢٠٥ لعمائره بالشام، ومن ص٢٠٥-٢٠٨ لأعماله بالحجاز. أما عمائر رجال الدولة ووجهاء مصر فى عهده فمنها : (١) مسجد المرأة ((فاطمة الشقراء) بشارع تحت الربع، (٢) مسجد تميم الرصافى بحى السيدة زينب، (٣) مسجد وسبيل تمراز الأحمدى بالسيدة زينب ، (٤) مسجد وقبة جانم البهلوان بأول شارع السروجية ، (٥) مدرسة أبوبكر مزهر بالخرنفش (راجع : عارف رزق : رسالة ماجستير عن هذا المسجد رقم ١٠٣٦ بجامعة القاهرة ، (٦) مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر (حسن عبد الوهاب : ص٢٦١ ، ٢٦٦) ، (٧) مسجد السلطان أبى العلا (٨)، تكية أحمد أبوسيف بالقرافة الشرقية ، (٩) زاوية فاطمة أم خوند بباب الشعرية (١٠) مسجد بدر الدين الوفائى بشارع الزرايب بحى الخليفة، (١١) مسجد ازدمر بشارع صلاح سالم بجوار مجرى العيون (١٢) مدرسة الأمير أزبك اليوسفى بحى السيدة زينب ، (١٢) ضريح الشرفا بالقلعة ، (١٤) مقعد الأمير ماماى ببيت القاضى

بالجمالية ، بالإضافة إلى آثار الأمراء التى عفا عليها الزمن كجامع أزبك بن ططخ بالأزبكية وحوضه وسبيله ببركة الحاج.

١٥٠- للسلطان قايتباى وثائق وقف بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة على منشآته هذه مسجلة تحت أرقام : ٨١٠ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠، ٩١٢ (ق) ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦ ج ولم ينشر منها سوى جزء من الوثيقة رقم ٨٨٦ والوثيقة رقم ٨٨٧ انظر د. عبد اللطيف ابراهيم على : كتاب مؤتمر الآثار الثالث فى البلاد العربية ١٩٥٩م كما يوجد مجموعة منها بمحكمة الأحوال الشخصية تحت أرقام ١٨٧ محفظة ٢٨، ١٩٧ ، محفظة ٣٠، ٢١٠ محفظة ٣٣، ٢١٥ محفظة ٣٤ .

١٥١- راجع مجالس : ذى القعدة ٨٧٢هـ، ربيع الآخر ٨٧٣هـ، ربيع الآخر ٨٧٥هـ، ربيع الآخر ٨٧٦ هـ، ٢٥ من جمادى الأولى ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٦ ، ١٠ رجب ٨٧٦هـ ، شوال ٨٧٦ هـ، رجب ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٧هـ، المحرم ٩٠٠هـ، فى كتاب قايتباى المحمودى ص٤٨-٦٣ . وفى هذا المجلس الأخير سأل السلطان الشيخ جلال الدين السيوطى عن أى سُنَّةٍ سنها الرسول ﷺ ولم يفعلها ، فلم يجبه السيوطى، وكان لدى السلطان كتاب «حيرة الفقهاء» ثم أجاب السيوطى بعد ذلك بأن السلطان يقصد الأذان ، فأنه سنة ولم يفعله ، والأصح أنه أذن فى وقت أورد فى ذلك الحديث، وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة.

١٥٢- قايتباى المحمودى ، مرجع سابق ، ص١٣١ .

١٥٣- الضوء اللامع ، جـ٨ ص١٧٦-١٧٨ ، نمرة ٤٣٨ .

١٥٤- قايتباى المحمودى، ص١١٨ .

١٥٥- الخطط التوفيقية ، جـ١ ص٤٦ .

١٥٦- راجع قايتباى المحمودى، ص٨٠-٨٣ ، إلا أن بعض الأهالى يستعملون هذا الربع الآن فى عمل ورش الحديد وغيره، كما يربون فيه أنواعا من الحمام ، وهو ظاهر للعيان، ولمن أراد الاطلاع على ذلك فليذهب إلى هناك ليرى مدى الاستعمال السئ لهذه الآثار النادرة الآن (الباحث) . وهذا الربع يقع على يمين الداخل من باب النصر .

١٥٧- قايتباى المحمودى، ص٣١-٣٢ .

١٥٨- راجع رحلاته بالتفصيل فى المراجع المعاصرة، قايتباى المحمودى ، ص٦٣-٨٥ ، وهذه سنوات خروجه ورحلاته : فقد كان أول ركوبه من القلعة فى شعبان ٨٧٢هـ، وفى صفر ٨٧٣هـ خرج للنزهة ،

وفى ربيع الأول ٨٧٣هـ خرج إلى خانقاه سرياقوس، وفى شوال ٨٧٣ هـ توجه إلى قليوب وقناطر أبى منجا ، وفى ذى القعدة ٨٧٣هـ توجه إلى طرا فى ضيافة ، فى نفس الشهر والسنة سافر إلى بحيرة تنيس على حين غفلة وانقطع خبره عن الناس مدة ، وصلى العيد بفارسكور ، وفى جمادى الأولى ٨٧٤هـ نزل بركة الحاج ، وفى جمادى الآخرة ٨٧٤هـ توجه إلى خليج الزعفران للنزهة ، وفى ذى القعدة من نفس السنة خلع الصوف ولبس البياض وابتدأ ضرب الكرة مع امرائه ، وفى ربيع الأول ٨٧٦هـ ذهب للنزهة إلى طرا، والمطرية ، وفى جمادى الآخرة ٨٧٥ سار إلى الخانكة والعكرشا وهو راكب الهجن ، وفى رجب ٨٧٥هـ توجه إلى الأهرام، وفى ذى القعدة ٨٧٦ هـ نزل فى ضيافة ، وفى المحرم ٨٧٦هـ توجه إلى شبين القصر وقد شب عليه فرس رفسه وكسر ساقه ، وفى ربيع الآخر ٨٧٦هـ نزل إلى خليج الزعفران للنزهة ، فوجد امرأة ميتة فأم الجماعة وصلى عليها ، وهذه حسنة من حسناته ، ومكرمة توضع فى سجلاته . وفى رجب ٨٧٦هـ نزل للمحاكمات ، وفى صفر ٨٧٧هـ توجه إلى دمياط ورشيد وتوجه وركب البحر، واستغرقت الرحلة ١٣ يوما . وفى جمادى الأولى ٨٧٨هـ توجه إلى طرا ، وفيه أيضا توجه إلى خليج الزعفران، وفى ربيع الآخر نزل إلى شبرا بعد أن أشيع سفره إلى الشام، فى جمادى الآخرة ٨٨٠هـ توجه إلى طرا فى ضيافة وقد لدغته نحلة تورم منها وجهه وعاد لتوه . وفى جمادى الآخرة ٨٨٠هـ توجه إلى دمياط، ثم ذهب إلى مكان ليصيد فيه السمك البورى وعاين كيف يصاد وهو راكب مركب صغير ، وفى رجب ٨٨٠هـ سافر لبيت المقدس خلسة وزار الخليل ومكث بالقدس ثلاثة أيام، وقد أمر ببناء جامع بالقرين وهو مار بهذا البلد، وفى ذى القعدة ٨٨٠هـ سافر للفيوم للمرة الثانية وشاهد الطاحون الذى أنشأه خيربك من حديد ويدور بالماء ، وفى شعبان ٨٨١هـ نزل للرماية . وفى رمضان ٨٨١هـ أشيع بين الناس أن السلطان ارتدى زى المغاربة ونزل إلى الجامع الأزهر، وصلى به، وكان يسأل فى بعض الطرقات الناس عن سيرة نفسه، ووقع له مع الناس فى هذا الأمر أشياء عجيبة وسمعهم وهم ينقدونه .

١٥٩- أثر رقم ١٢ .

١٦٠- قايتباى المحمودى ص٤٢ .

١٦١- راجع أحداث هذه الواقعة فى المراجع المعاصرة ، قايتباى المحمودى ص٤٢-٤٥ .

١٦٢- المرجع السابق ص٨٥ .

١٦٣- خطط على مبارك ج١ ص١٤٧ .

١٦٤- شذرات الذهب ج٨ ص٩، قايتباى المحمودى ص٨٦-٨٨ ، خطط على مبارك ج١ ص١٤٧ . وقد أحسنت وزارة المالية حينما صورت مسجد السلطان قايتباى على الورقة الجديدة فئة الجنيه وذلك كنوع من التخليد لآثارنا الإسلامية، وكنوع من تشجيع السياحة الدينية فى مصر التى ترتبط بذكريات هذا السلطان العظيم (الباحث) .

١٦٥- ضبط الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة الغورى بفتح العين لا ضمها، وبين أن حجته فى ذلك مصحف فى دار الكتب المصرية كتب باسم الغورى عليه بهذا الضبط ، ويرشح هذا الرأى ويقويه أبيات كثيرة فى الشاهنامة التركية جاء فيها القافية مع كلمات مثل ثور وغور، وأن الاسم ضبط هذا الضبط فى عنوان هذا الكتاب، (راجع ص٨ من كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام) .

١٦٦- شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٢ ، الأشرف قنصوه الغورى للدكتور محمود رزق سليم، ص٣٠-٣٣ ، الاسحاقى : أخبار الأول ، ص١٥٢ .

١٦٧- د. عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى ، ص٩ وما بعدها . د. محمود رزق سليم المرجع السابق ، ص٣٣-٣٥ .

١٦٨- بدائع الزهور، حوادث سنة ٩٠٦هـ.

١٦٩- راجع صورة الغورى فى أول كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام.

١٧٠- بدائع الزهور ، ج٦ ص٨٧، (حوادث سنة ٩٢٢هـ) .

١٧١- بدائع الزهور ، جـ٤ (ط ألمانيا) ص٢٥٤ ، ٢٥٥ ، مجالس السلطان الغورى ، ص١٥-١٧ ، الأشرف قنصوه الغورى ، مرجع سابق ، ص١٨٠ .

١٧٢- بدائع الزهور (ط ألمانيا) ، ص١٧١ ، ج٤ .

١٧٣- المرجع السابق ، ص٩٤ ، مجالس السلطان الغورى، ص٣٢ .

١٧٤- المرجع السابق ، ص١٠٢ .

١٧٥- نفس المرجع والصفحة.

١٧٦- المرجع السابق ، ج٤ ص١٧٢ ، مجالس السلطان الغورى، ص٣١ .

١٧٧- الأشرف قنصوه الغورى ، ص١٨٥ .

١٧٨- بدائع الزهور ، جـ٤ ص٨٦ حوادث سنة ٩٢٢هـ .

١٧٩- بدائع الزهور ، ج٤ ص٢٣٩ ، ٢٤١ ، وراجع الأشرف قنصوه الغورى ، ص٩١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، وللشاعر بدر الدين الزيتونى من أدباء العصر قصيدة طويلة فى منشآت الغورى (بدائع الزهور) جـ٤ ص١٠٢ .

١٨٠- وقد تهكم اسماعيل شاه الصفوى ببستان الغورى هذا وانشغاله بغرس الأشجار بقصيدة أرسلها إليه وقد رد عليه شعراء العصر بعدة قصائد رنانة راجعها فى : بدائع الزهور جـ٤ ص٢٢١-٢٢٧ (ط ألمانيا) ، مجالس الغورى ، ص٢٩ ، ٣٠ .

١٨١- بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٧٧ ، د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها وآثارها وفنونها ، ص١٤٣-١٥٣ .

١٨٢- الأشرف قنصوه الغورى ، ص٧٠ .

١٨٣- راجع عن منشآت الغورى، المرجع السابق، من ص٨٧-٩٩ .

١٨٤- يقال أن عدد حجراتها يبلغ ٣٦٥ حجرة بعدد أيام السنة .

١٨٥- تقع هذه الوكالة خلف تكية محمد بك أبو الذهب ، وبها الآن مراسم الفنانين التشكيليين، وقد قام الباحث سنة ١٩٦٥م بعرض انتاجه الفنى حينما كان طالبا بمعهد طنطا الدينى الثانوى ، وقد حصل الباحث على الجائزة الأولى فى الفنون العملية، وقابل فضيلة المرحوم الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر واستلم منه الجائزة ميدالية ذهبية وأسبوع إقامة بمدينة البعوث الإسلامية لمشاهدة معالم القاهرة . وقد أحسنت الحكومة صنعا حينما أعادت الصناعات التقليدية التى كانت فى عصر الغورى إلى هذه الوكالة على يد معلمين فى فنون الخيام وحفر الخشب (أويمة) والزجاج الملون المعشق بالجص وحفر وتكفيت النحاس بالفضة وصناعة الصدف والخشب الخرط والخزف ، وغير ذلك لأطفال صغار ، فأحيوا بذلك صناعات خان الخليلى التى كادت أن تنقرض، وهى مزار سياحى محلى ودولى ، ومازلنا فى دراستنا الميدانية لمادة الآثار والعمارة والكتابة والفنون الإسلامية لطلاب شعبة الحضارة والدراسات العليا بكلية اللغة العربية تكون هذه الوكالة ضمن خطة الدراسة فى كل فصل دراسى (الباحث).

١٨٦- شذرات الذهب، ، جـ٨ ص١١٣-١١٧، مجالس الغورى ، ص٢٣ .

١٨٧- د. حسن الباشا : القاهرة ، ص١٥٢ . وهذه المئذنة من التحف الإسلامية النادرة فى العالم الإسلامى ، فقد زخرفت بتلبيسات القيشانى الأزرق ، وفى بدنتها الثانية سلمين للطالع والنازل لايرى أحدهما الآخر، وهى حيلة فنية معمارية للمهندس الذى صنعها، وقد صعد الباحث إلى الرأسين ونبه إلى خطورة تآكل الحديد وسقوط الرأسين ، فقامت هيئة الآثار مشكورة بعمل ترابزين ورممت الجزء المتآكل منها .. إلا أن سلالها كانت مليئة بالقطط الميتة والقاذورات (الباحث) .

١٨٨- راجع عنها من الناحية المعمارية والفنية : د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، ص١٤٩ ، ١٥٠ وما بعدها .

١٨٩- ترجمته في بدائع الزهور ، جـ٤ ص٨٠ ، الأشرف قنصوه الغوري، ص٨٨ .

١٩٠- راجع : بدائع الزهور، جـ٤ ص٥٢ ، ٥٣ .

١٩١- راجع : بدائع الزهور، جـ٤ ص٣٩٩ ، مجالس الغوري ، ص٢٥-٢٧ ، د. عبد الرحمن زكي : القاهرة ، مرجع سابق ، ص١٦٧ ، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٤ .

١٩٢- راجع : بدائع الزهور، جـ٤ ص٢٣٦ ، حجة وقف الغوري رقم ٨٨٣ أوقاف ، ٥٠٠ ميكروفيلم بتاريخ ٢٠ صفر ٩١١هـ ، المجلس الأعلى للثقافة.

١٩٣- راجع : بدائع الزهور ، ج٤ ص٢٨٥ ، ٢٨٦ ، حجة وقف الغوري رقم ٤٨٨، ١٩ ميكروفيلم .

١٩٤- راجع : حجة وقف الغوري رقم ١٣٠ ، أوقاف ، ٥٠١ ميكروفيلم، بدائع الزهور: جـ٤ ص٢٠٣ .

١٩٥- بعد زيارة الباحث لمسجد السلطان الحنفي بالناصرية بالقاهرة، وجد مئذنة أيضا لها أربعة رؤوس.

١٩٦- د. عبد الوهاب عزام : مجالس الغوري، ص٢٤ ، الأشرف قنصوه الغوري، ص٨٨ ، ٨٩ .

١٩٧- بدائع الزهور ، ج٤ ص١٧٥ ، ١٧٦ .

١٩٨- راجع : بدائع الزهور ، ج٤ ص٢٤٩ ، مجالس الغوري، ص٢٥ ، ويتكون هذا الجامع من صحن يحيط به أربعة أواوين أكبرها الايوان الشرقي، ويغطيها جميعا سقف ذو نقوش مموهة بالذهب ، وللصحن منور مستطيل لامثيل له. وأرضية الاواوين مغطاة برخام مختلف الألوان بديع الصنع.. ومكتوب على الجدران آيات بالخط الكوفي المغربي يقال أنها تمنع الذباب والهوام والحشرات ، وقد صليت به أكثر من مرة فوجدت ذلك صحيحا عكس غيره ، وقد اعتدى بعض التجار على جزء من المسجد واستولى عليه، وعمل به دورة مياه ، وكان الجامع مخزنا لتجار البهارات إلى أن تمكنت هيئة الآثار ووزارة الأوقاف من تنظيفه ، وبالجامع سلم يوصل إلى البئر وسلم آخر يوصل إلى مكان عميق تحت المسجد قيل أنه سجن ، كان الغوري يضع به أرباب الجرائم (الباحث) ، راجع : القاهرة لشحاته عيسى ابراهيم ص١٥٠ وما بعدها ، د. حسن الباشا : القاهرة ، ص١٥١ ، ١٥٢ .

١٩٩- بدائع الزهور، في حوادث هذه السنين ، مجالس الغوري ، ص٣٠-٣١ .

٢٠٠- ص١١٦٣-١١٦٤ .

٢٠١- بدائع الزهور، جـ٤ ص٣٢١ .

٢٠٢- المرجع السابق ، جـ٤ ص٣٢٧ .

٢٠٣- المرجع السابق ، جـ٤ ص٢٠٢ (ط ألمانيا) .

٢٠٣- المرجع السابق، ص٣٠٩ .

٢٠٥- بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص١٢٠ ، ١٢١ .

٢٠٦- راجع ، ص٦٠٥ من كتاب نفائس المجالس تأليف حسين بن محمد الحسينى، تحقيق عبد الوهاب عزام .

٢٠٧- ص٧٢ ، ٧٩ .

٢٠٨- أى أن كلمة بحر إذا صحفت أصبحت «رجب» راجع ص٣٣ من نفائس المجالس.

٢٠٩- فقيل هو التين، راجع المرجع السابق ، ص٥١ .

٢١٠- راجع ص٤٨ من مجالس السلطان الغورى.

٢١١- راجع ص٥٢ ، ٥٣ من المرجع السابق .

٢١٢- قام الزميل أمين عبدالله سالم المدرس المساعد بكلية اللغة العربية فى «بى العرب» منوفية بإعداد رسالة ماجستير عن «تنبيهات الأشمونى على ألفية ابن مالك لأبى على الأشمونى» نوقشت سنة ١٩٧٨م ويوجد منها نسخة بكلية اللغة العربية بالقاهرة (الباحث) .

٢١٣- تراجم هؤلاء : الأعلام فى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ، جـ١ .

٢١٤- راجع ص٢١-٢٣ من كتاب «الأشرف قنصوه الغورى» لمحمود رزق سليم .

٢١٥- تراجم هؤلاء موجودة بالتفصيل فى الكواكب السائرة للغزى جـ١ ص٢٨ ، ٢٩ من كتاب الأشرف قنصوه الغورى ، وسنتحدث عنهم بالتفصيل عند ذكر الأدباء فى هذا العصر .

٢١٦- راجع ص٢٠ من كتاب النفائس .

٢١٧- بدائع الزهور، حوادث رمضان ٩٢٢هـ. مجالس السلطان الغورى، ص٢٠ .

٢١٨- راجع نفائس المجالس، ص١٣٢ .

٢١٩- الأشرف قنصوه الغورى، ص١٧٦ ، ١٧٧ .

٢٢٠- مجالس السلطان الغورى ، ص٣٨ ، ٣٩ .

٢٢١- تبلغ هذه الكتب حوالى ٢٧ ألف كتاب ، ما زال بعضها داخل الصناديق كما أخبرنى بذلك المسئول

عن مكتبة قصر ثقافة الغورى، وهى بعض الكتب التى عثر عليها بمدرسة الغورى وكانت تتكون خزانة كتبها بعد أن استولى السلطان سليم على مصر وأخذ منها إلى استنبول كل غال ونفيس (الباحث) .

٢٢٢- الأشرف قنصوه الغورى، ص١٩١ ، مجالس الغورى، ص٤٥ ، ٤٦ .

٢٢٣- راجع ص٤٣ ، ٤٤ ، مجالس السلطان الغورى.

٢٢٤- راجع ص٥١ من كتاب مجالس السلطان الغورى، شذرات الذهب ، جـ٨ ص١١٤ .

٢٢٥- راجع ص٦١ من كتاب نفائس المجالس.

٢٢٦- راجع ص٦٦ ، ٧٥ ، ٨٦ من الكوكب الدرى فى مسائل الغورى، مرجع سابق .

٢٢٧- راجع : ص٣٤ من مجالس السلطان الغورى.

٢٢٨- الأشرف قنصوه الغورى: ص١٩١ ، ١٩٢ .

٢٢٩- للسلطان الغورى الآن حي بالقاهرة يعرف «بالغورية» نسبة إليه ، وقد تغنى الناس قديما وحديثا بالغورية . (الباحث) .

٢٣٠- بدائع الزهور ، حوادث رمضان ٩٢٢هـ، الأشرف قنصوه الغورى ص١٩٣ وما بعدها ، مجالس الغورى، ص٣٦ ، ٣٧ .

٢٣١- تنسب تجارة الكارم إلى «الكارمية» وهم كما تحدثنا عنهم الوثائق ، فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من السلع الأخرى، وكان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى (المجلة التاريخية، مجلد ٢٢، د. عطية القوصى ، ص١٧ ، ١٨) . وقد كان المحيط الهندى منذ القدم هو السوق التجارى الكبير الذى كانت تتجمع فى موانيه سلع الشرق الأقصى والهند وغيرها ، وقد اتخذ تجار سلع الشرق قواعد لهم فى موانىء ساحل الهند الغربى، وفى الخليج العربى، وعند مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وكانت سفن الكارم تتردد على أكثر من عشرين ميناء على سواحل الهند الغربية .

وبرغم أن تاريخ نشأة تجار الكارم لم يتحدد بعد ، فإنه من المعروف أن هذه الجماعة نشأت فى المحيط الهندى وعلى الشاطىء الغربى للهند، وأنها وجدت هناك فى بداية الأمر على صورة ما ثم تطورت مع الزمن ومع التقدم الحضارى ، وصار هذا الاسم هو ما تعرف به هذه الجماعة ، وتوارثه من جاء بعدهم أو من تحولت إليه السيطرة التجارية فى أسواق الهند وغيرها (الشاطر بصيلى : الكارجة ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ١٣ ، ١٩٦٦م، ص٢١٧) .

محاولات تفسير كلمة الكارمية: (المجلة التاريخية ، عدد ٢٢ ، ١٩٧٥ م، ص٢٤ ، ٢٥) لم يصل

المؤرخون بعد وحتى الآن إلى تفسير جازم لتسمية هؤلاد التجار بهذا الاسم، ويبدو أنه اسم عام لأنه ليست هناك كلمة فى اللغة العربية بهذا المعنى، وقد تعددت محاولات تفسير هذه الكلمة، فقد نقل (كاترميير) ما أورده القلقشندى من أن هذا الاسم مأخوذ عن (الكانم) وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، وأن هذا الاسم انتشر بين من اشتغلوا بتجارة البهار، بعد أن وقع فيه تصحيف وأصبح كارم (صبحى لبيب: التجارة الكارمية ص٦ وتجارة مصر فى العصور الوسطى، مستخرج من مجلة الجمعية التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثانى، ١٩٥٢م).

ويفترض ليتمان أن هذا الاسم قد أخذ عن متاجر التجار نفسها، إذ وجد أن لفظ (كوراريما) الأمهرية تعنى الحبهان وهو من التوابل التى تاجروا فيها، ثم حرفت هذه الكلمة وأصبحت (كارم) وأطلقت على هؤلاء التجار (صبحى لبيب، ص٦)، والتفسير الجديد لكلمة (كارم) الذى أورده جواتين المستشرق، مفاده أن أصل هذه الكلمة ليس عربيا، ولكنه هندى، ذلك لأن لغة جنوب الهند (التامل) توجد بها كلمة (كاريام)، وهى تعنى فيما تعنى من أشياء أخرى: «الأعمال» أو الأشغال، ولما كانت أعمال أهالى الساحل الهندى الغربى مع تجار الشرق الأوسط تتعلق بالتجارة، فمن المحتمل أن أصحاب هذه السفن أو التجار الذين عملوا فى ذلك المضمار قد عرفوا وأطلق عليهم أهالى الهند هذا الاسم. وجاء مع هذه التفسيرات تفسير جديد آخر وهو الأكثر قبولا من غيره أورده الأستاذ الشاطر بصيلى، فى مقال له عن الكارمية (ص١٧) ورد فى ذلك التفسير أننا إذا قسمنا لفظة (كارم) قسمين لوجدناها تتكون من (كار) فى المقطع الأول ثم (يم) فى المقطع الثانى، وكان معناها الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة ... الخ، و(يم) معناها المحيط أو البحر البعيد الشواطىء، أو النهر الكبير، ثم سقط حرف الياء من (كاريم) فأصبحت (كارم) وأن معنى الكلمة- حسب هذا التفسير- هو حرفة التجارة فى أعالى البحار.

٢٣٢- مجلة الجمعية التاريخية، مجلد ٢٢، ١٩٧٥، ص٣٢، ٣٣.

٢٣٣- صبح الأعشى، جـ٤ ص٣٢.

٢٣٤- مجلة الجمعية التاريخية، مصدر سابق، ص٣٠، ٣١.

٢٣٥- صبح الأعشى، المرجع السابق، جـ٤ ص٢٦.

٢٣٦- صبح الأعشى - نفس المرجع جـ٤ ص٢٧.

٢٣٧- يذكر السخاوى فى ترجمة رئيس التجار على بن محمد النور بن الجلال الطنبدى المصرى «أنه كان يقرض الناس من المحتاجين بدون ربح وكان حسن المعاملة كثير البر»، الضوء اللامع، جـ٦ ص٣٠.

٢٣٨- يحدثنا ابن الصيرفى عن غياث الدين محمد بن خواجا على بن نجم الكيلانى المولود فى حدود ٧٧٠هـ- ١٣٦٨م، كان أبوه من أعيان التجار فأشغله بالعلم بحيث كان يبتاع له الكتاب الواحد بمائة دينار . نزهة النفوس، جـ٢ ص٤٣١ .

٢٣٩- الضوء اللامع، جـ٣ ص٣٢ ، ٣٣ .

٢٤٠- بدائع الزهور ، جـ١ قسم ٢ (ط المانيا) ص٦٩١ .

٢٤١- نزهة النفوس ، ج٢ ص١٩٣ .

٢٤٢- المنهل الصافى ، ج١ ص١١١ ، ١١٢ .

٢٤٣- بدائع الزهور ، ج١ قسم ٢ (ط ألمانيا) ص٦٩١ .

٢٤٤- الضوء اللامع جـ٣ ص١٠١ ، نمرة ٤٠٦ .

٢٤٥- نوير: قرية من صعيد مصر الأدنى على مسافة يوم للراكب منها إلى القاهرة، والميمون: قرية أقرب للقاهرة من النويرة بنحو نصف بريد. الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص٢٤٦-٢٤٨ ، نمرة ٥٩٨ .

٢٤٦- المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

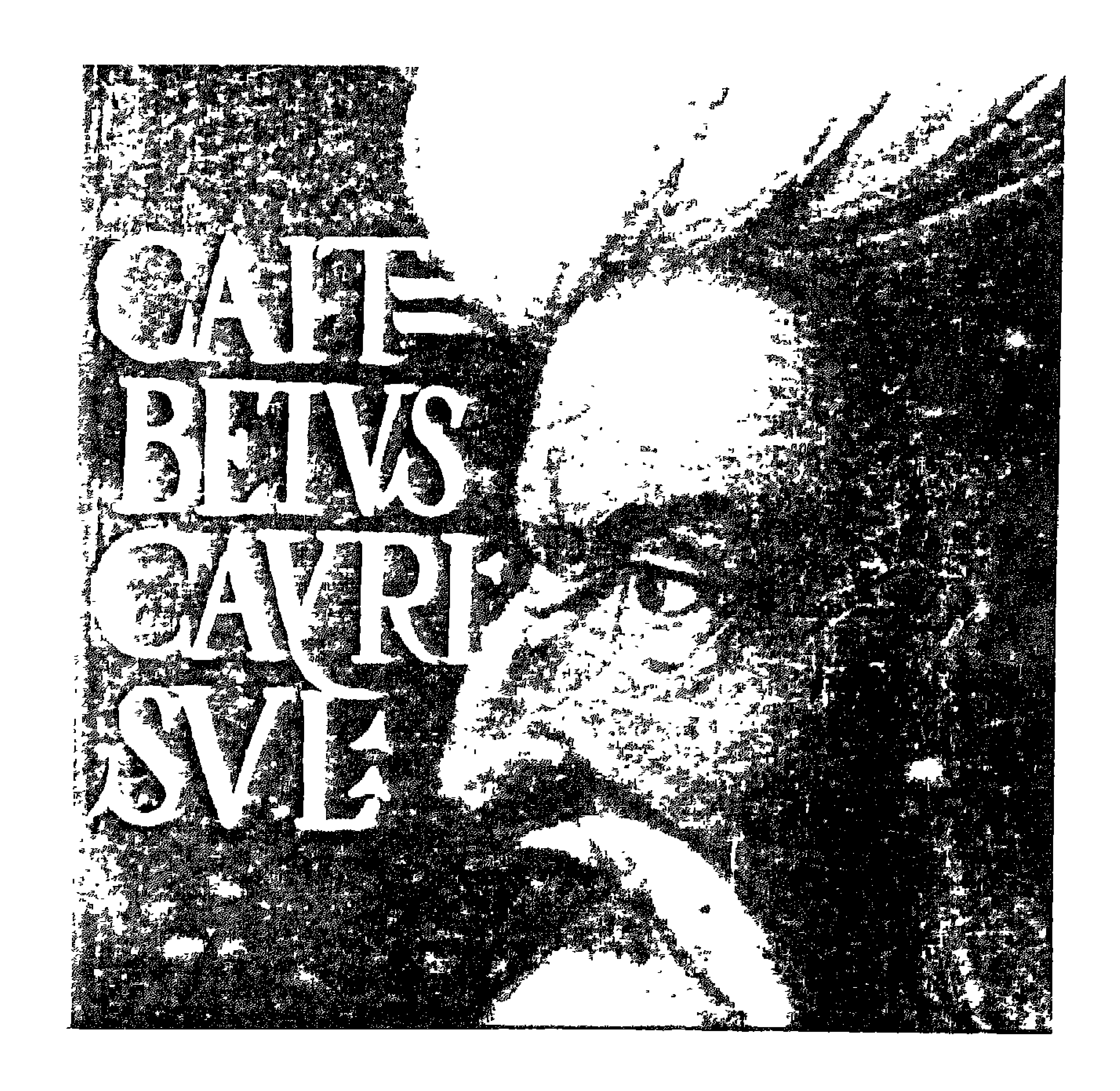
٢٤٧- الضوء اللامع ، جـ١ ص٤١ ، ٤٢ .

٢٤٨- محمد محمود زيتون : إقليم البحيرة ، ص٤٨٥ .

٢٤٩- الضوء اللامع ، جـ١٠ ، ص١٠٦ ، نمرة ٣٦٩ .

٢٥٠- المرجع السابق ، ج١٠ ، ص٧٠ ، نمرة ٢٣٨ .

٢٥١- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص٣١٨ .



صورة للسلطان أبو النصر الأشرف قايتباى

والأصل فى أرشيف الباحث عن صورة بالمتحف الحربى .المرجع رسالتنا للدكتوراه غير منشورة «الحركة العلمية فى عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها» كلية اللغة العربية سنة ١٩٨١م ج٢ ص١٠٥٠ .

راجع التقرير التاسع والأربعون بعد المائة للقومسيون الثانى محضر الجلسة نمرة٥٧ رقم٣ ص٧٦-٧٧ (المجموعة التاسعة) من محاضر لجنة حفظ الآثار القديمة العربية ، وتقرير القومسيون الثانى عن سنة ١٨٩٢ أفرنكية .

(٣) وكالة قايتباى بالنسروجيه

فى أثناء مرور القومسيون الثانى وقف أمام بقايا وكالة قايتباى لمعاينة الكتابه الحفر البارزة على أعتاب الموارده التى كانت حامله للدور الاول المتلاشى بالكامل وهذه الكتابه هى المنوه عنها فى تقريره نمرة ١٤٦ فلوقايته وحفظ تلك الكتابه يستحسن القومسيون أخذ تعهد على كل سكان وملاك الوكالة بعدم تسمير أو تركيب أى شئ على الاعتاب

وهذا هو نص الكتابة المذكورة

(أمر بانشاء هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى وجزيل عطائه سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين صاحب الديار المصريه والبلاد الشاميه والاعمال الفراتية والقلاع الرومية والحصون الاسماعيلية والثغور السكندرية صاحب السيف والقلم والنيل والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين)

(اللهم أدم العز والبقاء والعلو والارتقاء والنصر على الاعداء بسيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين حامى حوزة الدين أبو الفقراء والمساكين كهف الارامل والمنقطعين منصف المظلومين من الظالمين الملك المكرم والخاقان المعظم أبو المعالى واللهم سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم عبدك وابن عبدك القائم بشريعتك وفرضك سيفك المرهف السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى عز نصره)

نص اللوحة التأسيسيّة لوكالة قايتباى وهو شىء نادر لاوجود له الآن فى بقاياها (الباحث)

التقرير السادس والخمسون بعد المائة للقومسيون الثانى محضر نمرة ٥٩ رقم٥ ص٧٢ ، ٧٥ والصورة بعدهما من المجموعة العاشرة من محاضر لجنة حفظ الآثار القديمة العربية وتقارير القومسيون الثانى سنة ١٨٩٣ أفرنكية .

(٥) وكالة قايتباى

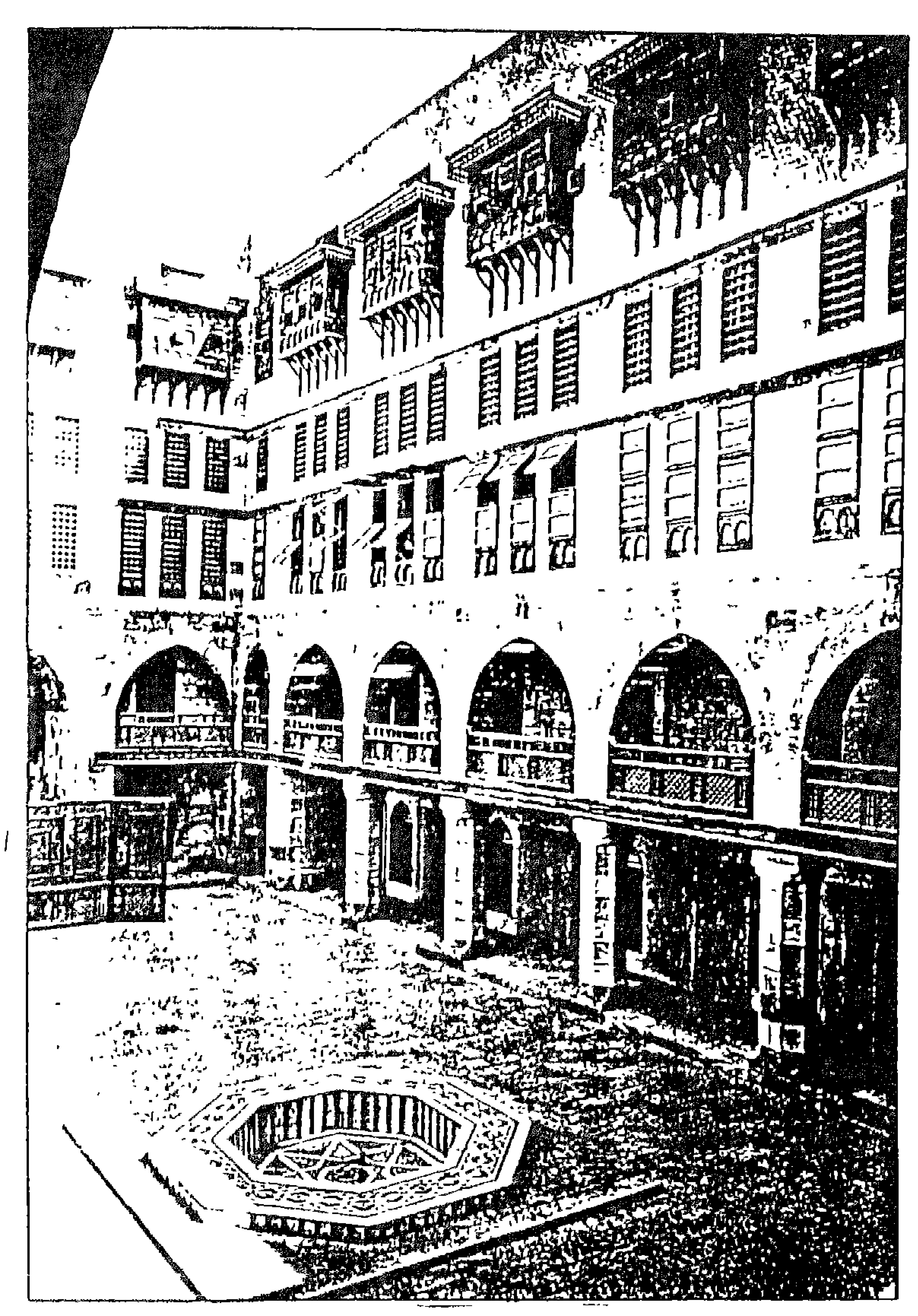
طلبت نظارة الاشغال العمومية سرعة هدم الجزء المخل من المنزل وقف مناو وباحالة هذا الطلب من ديوان الاوقاف على مهندس الآثار رأى أن المنزل المذكور هو بقايا وكالة السلطان قايتباى التى تكلمت عنها اللجنة أخيرا وقد أجرى حالا شد وصلب الجزء المقول عنه ولما عاين القومسيون الثانى الوكالة يوم تاريخه وجد أن الدور الارضى لهذا الاثر غائص فى الارض أكثر من متر ونصف وقد أثرت عليه الترميمات المتعددة تأثيرا جسيما وصار فى حالة التلف الزائد الامر الذى يوجب تجديد وجهته بأكملها حفظا لاعتاب الابواب وعليه يطلب القومسيون من اللجنة عدم تسجيل هذا المكان ضمن الآثار اللازم حفظها وانما يصير التشديد فى نقل الافريز الخشب المستطيل الموجود عليه كتابة (انظر التقرير نمرة ١٥٠) الى الانتيكخانه العربيه وان كل الاجزاء الصناعية الثمينة يجرى اعادة استعمالها فى العمارة الجديدة التى فى عزم الحكومة عملها على ذمة الكتبخانة الخديوية والانتيكخانة العربية اذا اقتضت الحال لهدم هذا المحل ولهذه الغاية يقتضى فك كل مبادى الادوات المذكورة بغاية الاعتناء ونقلها الى مخزن الاوقاف لحفظها به كما هو لازم ووقايتها من التلف والتأثيرات الجوية وقبل الهدم يتعين على المسيو هرتس أن يأخذ بعض مناظر بالفتوغرافيه من الوجهة الموجودة ويجهز الرسومات الضرورية التى يمكن بواسطتها معرفة المحل الذى كانت كل قطعة محفوظة فيه ثم اعتمد القومسيون تكاليف الشدة الوقتية التى أمر بها المهندس البالغ قدرها ٧٠٠ مليم

وصف لحالة وكالة قايتباى المتردية سنة ١٨٩٣م



وجهة وكالة السلطان قايتباى بشارع السروجية بالقاهرة سنة ١٨٩٣م

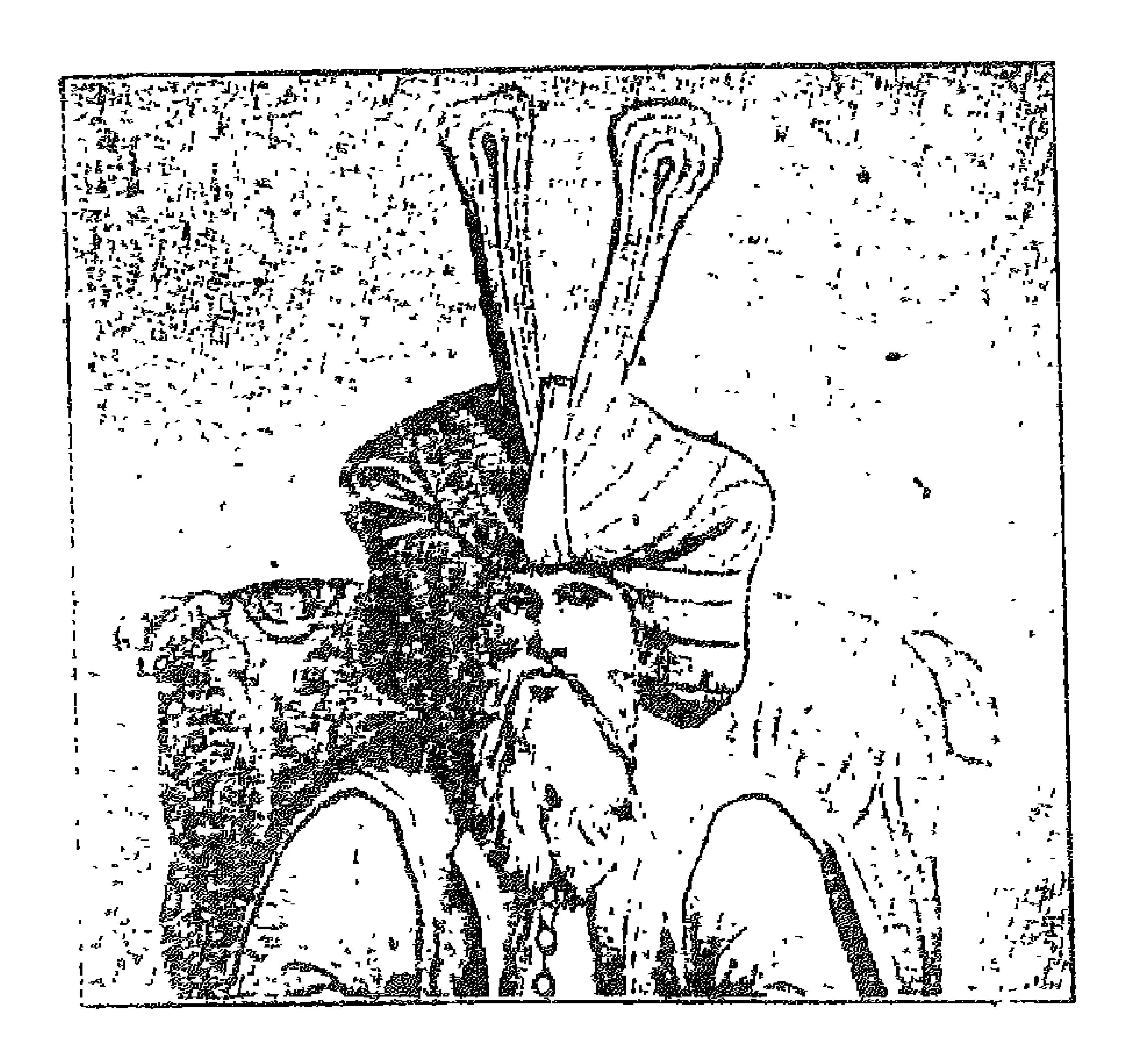
(فتوغرافية ليكچيان وشركاه)



(لوحة 317) مصر ـ القاهرة

وكالة الغورى – منظر داخلى -٩٠٩-٩١٠هـ/ ١٥٠٣-١٥٠٤م

نقلا عن د. حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ص٢٤١ مكتبة الدار العربية للكتاب مجلد٤ ط أولى سنة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م



(السلطان الغورى)

نقلا عن كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام

المرجع رسالتنا للدكتوراه «الحركة العلمية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها » ج٢ ص١٠٥٤ سنة ١٩٨١م كلية اللغة العربية جامعة الأزهر غير منشورة

د. حمود بن محمد بن على النجيدى *

منهجية ابن العبرى التاريخية تجاه أحداث الحروب الصليبية مقارنة بمنهجية ابن الأثير

أولا : المقدمة :

مما لاشك فيه أن عقيدة المرء تؤثر على فهمه ورؤيته للأحداث والتطورات ، وبالتالى نظرته وتصوره لها. ومن الأمور البارزة فى تاريخ العلاقات بين الإسلام والنصرانية أحداث الحركة الصليبية وتطوراتها التى صبغت الحياة السياسية بل ورسمت مساراتها فى عدة ميادين؛ كان أبرزها ميدان فلسطين وبلاد الشام.

وأظنه واضحًا أن تأثيرات الحركة الصليبية لم تقتصر على ميدانها أو ميادينها بالمفهوم الجغرافى ، بل إنها تجاوزتها إلى المناطق الأخرى المتاخمة بل وغير المتاخمة، والاختلاف يكمن فقط فى درجة ومستوى التأثير.

عاشت الحركة الصليبية فى ميدان فلسطين وبلاد الشام قرنين من الزمان، وأرخ لهذه الحركة الكثيرون من المعنيين بالتاريخ منهم من ينتمى إلى الجانب الإسلامى ومنهم من ينتمى إلى الجانب النصرانى، وهذا الاختلاف فى الانتماء الدينى بالنسبة لمؤرخى الحروب الصليبية

* أستاذ مشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم كلية العلوم الاجتماعية.

يقدم فرصة جيدة لتقويم العديد من الدراسات التاريخية المقارنة سواء بالنسبة لأفراد من المؤرخين أم بالنسبة لمجموعة المؤرخين على الجانبين، وأمر طبيعي أنه من غير الممكن تقديم دراسات مقارنة في الإطار الثاني دون الاعتماد على دراسات مقارنة للمبرزين من أفراد المؤرخين في كلا الجانبين.

وتمشيًا مع هذه القاعدة ، فإن البحث الذي أقدمه في هذه الصفحات يعني بدراسة منهجية مؤرخ مقارنة بمنهجية مؤرخ آخر كلاهما من المؤرخين الذين أرخوا للحروب الصليبية، أحدهما مسلم والثاني نصراني عاشا في فترتين متقاربتين من الناحية الزمانية، وفي منطقتين متقاربتين أيضًا من الناحية الجغرافية، وكان لكل من المنطقتين إسهامهما في تشكيل بعض مسارات الحركة الصليبية وتحديد أبعادها .

وإضافة إلى ما سبق فإن كلا المؤرخين قد انتهت حياتهما في فترة الصراع الذي كان محتدمًا بين المسلمين والصليبيين، والاختلاف بين المؤرخين في هذه الجزئية يتمثل في أن أحدهما وهو ابن الأثير أمضى حياته في المنطقة الإسلامية، بينما أمضاها الآخر وهو ابن العبري في نواح كانت غالبًا خاضعة للصليبيين أو لحلفائهم.

واختلاف آخر بين المؤرخين هو أن لكل منهما نظرته المختلفة عن الآخر في أحداث الحروب الصليبية ، وبالتالي اختلاف منهجيتيهما التاريخية حولها؛ وإذا كان تركيز هذه الدراسة على منهجية ابن العبري، فهي أيضًا بيان لمنهجية ابن الأثير لأن المقارنة تستدعي توضيحًا لهذه المنهجية في الحدود التي نتعرف من خلالها على منهجية الأول اعتماداً على ما أورده في تاريخه من أحداث خاصة بالحروب الصليبية تتوافق مع الأحداث التي أوردها ابن الأثير ، وبهذا تكون المقارنة- من وجهة نظري- أمثر دقة وأكثر موضوعية.

ولقد بدأت بتوضيح منهجية ابن الأثير ثم أعقبت ذلك ببيان منهجية ابن العبري وذلك لسببين أرى أهميتهما:

أولهما : أسبقية ابن الأثير الزمنية مولداً ووفاة وتأليفًا لكتابه ، وأيضًا كونه أكثر قربًا للأحداث .

وثانيهما : أن ابن الأثير وبالتحديد كتابه (الكامل في التاريخ) ، وهو موسوعي مفصَّل يعد أصلاً لكتاب ابن العبري (تاريخ مختصر الدول)، وهو مختصر موجز ، فقد نقل ابن العبري معظم معلوماته إن لم يكن جميعها والخاصة بأحداث الحروب

الصليبية عن ابن الأثير حتى أنه استخدم ألفاظه وعباراته وجمله وكلماته في كثير من الأحيان .

هذا ويلزم قبل الحديث عن عناصر المقارنة بين منهجيتى المؤرخين أن أمهد لذلك بحديث موجز عنهما وعن كتابيهما .

ثانيًا : المؤرخان والكتابان :

فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة (١١٦٠م) ولد أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى الذى حمل فيما بعد لقب عز الدين، وعرف واشتهر بابن الأثير الجزرى نسبة إلى جزيرة ابن عمر الذى ولد فيها ، وهى إحدى البلدات أو المدن الصغيرة التابعة لمدينة الموصل حاضرة ديار ربيعة فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة الفراتية [١].

وبعد سنوات الطفولة انتقل صاحبنا مع أبيه وأخويه إلى مدينة الموصل، وكانت آنذاك تماثل مدينة حلب إلى حد كبير فى كون كل منهما مركزاً من مراكز المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبى ولاسيما فى إمارة أنطاكية الصليبية[٢].

وفى حياته يذكر عن ابن الأثير أنه زار العديد من المراكز أو المدن الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقدس وغيرها ، وبعض هذه الزيارات تمت بوصفه مبعوثًا من قبل هذا أو ذاك من الحكام المسلمين ؛ على حين كانت الزيارات الأخرى التى قام بها من أجل إكساب شخصيته العلمية- ولاسيما فى مجال التأريخ- المزيد من الصقل والإثراء.

وفى سنواته الأخيرة تنقل مؤرخنا بين كل من حلب ودمشق والموصل، وفى هذه الأخيرة ، وفى شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة (١٢٣١م) وافته منيته بالغًا من العمر خمسة وسبعين عامًا وثلاثة شهور، ودفن فيها[٣].

ويعد ابن الأثير من أبرز المؤرخين المسلمين الذين أرخوا- لفترة زمنية طويلة من الحروب الصليبية كما أن كتابه (الكامل فى التاريخ) يعد من أهم مصادر التاريخ الإسلامى عامة وفترة الحروب الصليبية بصفة خاصة.

هذا عن ابن الأثير؛ أما عن ابن العبرى: فهو أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطى المشهور بابن العبرى نسبة إلى قرية (عبرا) وهى إحدى قرى ملطية[٤] المولود فيها سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية (١٢٢٦م) ، وكانت نشأته فيها حيث درس اليونانية والسريانية والعربية ، وعلوم أخرى مثل الطب والفلسفة واللاهوت.

وبسبب ظروف الغزو المغولى هربت أسرته إلى أنطاكية ، وارتحل منها إلى طرابلس ، وتنقَّل بين بلاد الشام وبلاد شمال العراق حتى عيِّن فى إحدى بلداتها (جوباس) رئيسًا لأساقفة الشرق [٥]، واستمر فيه حتى وافاه الأجل فى بلدة مراغة من أعمال أذربيجان[٦] سنة خمس وثمانين وستمائة للهجرة (١٢٨٦م) .

ويعد ابن العبرى من أهم المؤرخين النصارى الذين أرخوا- كما هو ابن الأثير- لمعظم أحداث فترة الحروب الصليبية، كما يعد كتابه (تاريخ مختصر الدول) أهم مؤلفاته التى ألفها وزادت على الثلاثين كتابًا[٧].

ويوجد بين المؤرخين ابن الأثير وابن العبرى العديد من عناصر التشابه فكل منهما عنى بالتأليف فى حقل التاريخ، والاختلاف بين المؤرخين فى هذه الجزئية يكمن فى مستوى الاهتمام، فابن الأثير جعل من التاريخ اهتمامه الأول، ولهذا جاءت كافة مؤلفاته فى التاريخ على اختلاف أنواعه العام منها والخاص ؛ أما ابن العبرى فقد شكل التأريخ واحداً من مجالات اهتماماته العلمية، وبما أتى فى مكانة تالية لتلك الاهتمامات .

وكلا المؤرخين يوضع ضمن مؤرخى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فابن الأثير كان نصيبه من القرن المذكور ثلاثين سنة على حين كان نصيب ابن العبرى عمره كله والذى تجاوز ستين سنة، وهذا الاختلاف فى نصيب كل منهما من سنوات ذلك القرن لايؤبه به كثيراً إذا ركزنا على سنوات النضج، أو السنوات التى اكتملت فيها مقومات المؤرخ بالنسبة لكل منهما ، وفى هذه الحالة يتساوى المؤرخان على وجه التقريب .

وكل من المؤرخين أمضى حياته فى منطقة يمكن أن توصف بأنها ساخنة سواء فى ذلك بلاد الشام والجزيرة الفراتية بالنسبة لابن الأثير، أو أنطاكية ومدن عدة فى شمال العراق وأرمينية بالنسبة لابن العبرى ، وكل منهما عرف بالتنقل بين العديد من المدن والمراكز الحضارية والسياسية فى منطقته .

والاختلاف الجوهرى الذى نلحظه بوضوح من خلال تتبع حياة المؤرخين يتمثل فى الصبغة الدينية التى غلبت على الحياة الوظيفية لابن العبرى، والتى أوصلته إلى مركز مرموق فى سلم المناصب الدينية لجماعة اليعقوبية أو السريان النصرانية[٨]، وهذا لانجد له نظيراً بالنسبة لابن الأثير.

والقرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الذى عاش فيه المؤرخان كان محكومًا بمجموعة من المسارات السياسية ، وأحد هذه المسارات الصراع الذى كان محتدمًا بين المسلمين والصليبيين ، وهذا يعنى أن كلا من المؤرخين كان معاصراً لحقبة من حقب الحروب الصليبية ؛ فابن الأثير كان معاصراً لمرحلتين من مراحل الحروب الصليبية [٩]، مرحلة صلاح الدين الأيوبى[١٠]؛ والتى كانت موازين القوى فيها تشير إلى تفوق المسلمين ، ومرحلة العادل الأيوبى وابنه الكامل، وفيها وبالذات فى عهد الكامل تراجعت القوة الإسلامية مما أتاح للصليبيين الاستفادة من هذا التراجع.

أما ابن العبرى فنجد أنه كان معاصراً لإحدى فترات الحروب الصليبية التى اتسمت بتحسن ميزان القوى لصالح المسلمين؛ ففى منتصف العقد الثالث من عمره وقعت أحداث الحملة الصليبية السابعة ، وهى الحملة التى اندحر فيها الصليبيون بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا[١١]، وفى بدايات العقد الخامس من عمره ، وتحديداً سنة ست وستين وستمائة للهجرة (١٢٦١م) نجح المسلمون بقيادة السلطان المملوكى بيبرس البندقدارى[١٢] فى تحطيم الوجود الصليبى فى أنطاكية التى عاش فيها ابن العبرى سنوات لايستهان بها، وقد ترتب على انتصار المسلمين أن عادت أنطاكية إلى واقعها السابق منطقة إسلامية.

وقبل إنهاء الوجود الصليبى فى أنطاكية بحوالى عامين وجهت قوات الظاهر بيبرس ضربة شبه قاضية للكيان النصرانى المتمثل فى مملكة أرمينية النصرانية[١٣] والتى كانت ملطية وجوياس داخلتان فى نطاقها .

ومما لاشك فيه أن تدمير انطاكية والنكبات التى حلت بمملكة أرمينية قد انعكست أحداثهما بشكل مباشر على نفسية ابن العبرى، ولايمكن استبعاد أن تكون قد أثرت على تاريخه ، وليس مستغربًا أيضًا أن يكون انقطاعه فى بعض الأديرة قد جاء تعبيراً عما كان يعتمل فى داخله من حالة انهزامية.

ونترك المؤرخين ونلتفت إلى كتابيهما اللذين سنستخرج منهما عناصر المقارنة وبخصوص هذا الجزئية أقول :

إن كتاب ابن الأثير يحمل عنوان «الكامل فى التاريخ» على حين يحمل كتاب ابن العبرى عنوان «تاريخ مختصر الدول»، وهذا يعنى أنه جاء مختصراً أو موجزاً مقارنة بكتاب ابن الأثير غير أن هذا التفاوت لايشكل عقبة فى الوصول إلى عناصر المقارنة التى أستهدفها ،

ولكى تتضح هذه العناصر بأسلوب علمى سليم يلتزم الحيادية والموضوعية المطلوبة، فإننى أرى أن تتركز عناصر المقارنة على أقسام ثلاثة تبعًا لطبيعة الأحداث وإطارها الزمنى إذ أنها تنقسم إلى أحداث رئيسة وأخرى ثانوية، ومن أجل تيسير المتابعة فإنه بالنسبة للأحداث الرئيسة من الأفضل تقسيم الفترة الزمنية إلى مرحلتين المرحلة السابقة على صلاح الدين، ثم المرحلة الأيوبية، وليس من الضرورى التقيد بهذا التقسيم بالنسبة للأحداث الثانوية، وعلى هذا يكون لدينا ثلاثة أقسام تتركز عليها عناصر المقارنة.

يتبقى بعد ذلك أمران من الضرورى الإشارة إليهما، أولهما أن ابن الأثير قد اتخذ من النظام الحولى أساسًا لهيكلية كتابه، وهذا ما نجده لدى ابن العبرى ولكن فى إطار الدول التى أرخ لها والتى ابتدأها بالدولة الأولى، واختتمها بالدولة العاشرة[١٤]. الأمر الثانى يتصل باللغة التى كتب بها الكتابان، فاللغة الأساسية التى ألف بها ابن الأثير كتابه هى اللغة العربية على حين يذكر عن ابن العبرى أنه ألف كتابه فى الأصل باللغة السريانية ثم نقله إلى اللغة العربية وذلك فى أواخر حياته، وذلك بناءً على طلب البعض من وجهاء العرب، يقول العالم الذى وقف على طبع الكتاب فى صورته العربية[١٥] «وقد ضمنه أموراً كثيرة لاتوجد فى المطول السريانى، ولاسيما فيما يتعلق بدولتى الإسلامى والمغول وتراجم العلماء والأطباء».

ثالثا : تأريخهما للفترة السابقة على صلاح الدين الأيوبى:

يصل المدى الزمنى للمرحلة السابقة على صلاح الدين بالنسبة للحروب الصليبية إلى حوالى ثمانين سنة[١٦]، والأحداث الرئيسة فى أثنائها متعددة يأتى فى مقدمتها تأسيس الإمارات الصليبية الأربع (الرها، أنطاكية، بيت المقدس، طرابلس)[١٧]، ثم بعد ذلك انتهج الصليبيون فى كل إمارة سياسة التوسع على حساب القوى الإسلامية المجاورة؛ والتى كان عليها بالضرورة مقاومة هذا التوسع والتصدى له، وهو ما يعبر عنه إسلاميًا بالجهاد.

وبعد حوالى ثلاثين سنة من بداية تأسيس تلك الإمارات الصليبية أخذ يظهر على الساحة الإسلامية وفى إطار الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين زنكى[١٨] وذلك فى منطقة لها مركزان أحدهما مدينة الموصل فى الجزيرة الفراتية وثانيهما مدينة حلب شمال بلاد الشام، وهذا يعنى أن المنطقة التى سيطر عليها عماد الدين كانت متداخلة فى حدودها مع الكيانين الصليبيين فى

كل من الرها وأنطاكية. اتخذ عماد الدين زنكى من الجهاد ضد الصليبيين طابعًا أساسيًا لسياسته ، وفى إطار علمياته الجهادية نجح فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٥م) فى استرداد القسم الأكبر من إمارة الرها الصليبية، وبعد حوالى ست سنوات أكمل ابنه نور الدين محمود[١٩] المهمة الجهادية وتمكن من إزالة بقية إمارة الرها المتمثل بالجزء الشامى من الإمارة[٢٠] بعاصمته تل باشر[٢١].

ومن الأحداث الرئيسة البارزة فى عهد نور الدين محمود الحملة الصليبية الثانية والتى استهدفت دمشق، وذلك كى يعوض من خلالها الصليبيون ما ضاع منهم فى الرها ، ونعرف أن الفشل كان من نصيب الصليبيين فى هذه الحملة، وبعد إخفاق الحملة الصليبية الثانية فى تحقيق أهدافها اتخذ الصراع بين الصليبيين ونور الدين محمود شكل منافسة أو سباق حاد من أجل بسط السيطرة المباشرة على مصر، والتى كان النظام الحاكم فيها- وهو النظام الفاطمى- يتهيأ للسقوط ويترنح منذ سنوات.

وفى حمى هذا التنافس سقطت الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) لحساب نور الدين محمود مما يعنى اكتمال تطويق الوجود الصليبى من بيت المقدس جنوبًا وحتى أنطاكية فى الشمال .

وبعد حوالى سنتين آل حكم مصر إلى صلاح الدين الأيوبى فى خطوة بالغة الأهمية فى تشكيل بداية الحقبة الأيوبية [٢٢].

* * *

١- هذه بصورة عامة الأحداث الرئيسة فى إطار الصراع بين المسلمين والصليبيين إبان المرحلة السابقة على صلاح الدين، وقد أرخ كل من ابن الأثير وابن العبرى للمرحلة المشار إليها؛ فبالنسبة للحملة الأولى أرخ لها ابن الأثير فى مقدمة تأريخه لأحداث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (١٠٩٨م) [٢٣]، وذلك بدرجة مناسبة من التفصيل حيث غطى تطورات القتال الذى دار بين الصليبيين وقوات أنطاكية تحت قيادة حاكمها من قبل السلاجقة ياغى سيان [٢٤]، حاكم الموصل وممثل الدولة السلجوقية ضد الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على أنطاكية منذ عدة أسابيع .

ويتفق ابن العبرى مع ابن الأثير فى التأريخ لاستيلاء الصليبيين على أنطاكية وذلك فى

شكل خبر موجز دون أى تفصيلات [٢٦]، والخبر الذى أورد ابن العبرى فى سطر واحد يمثل تلخيصًا لما أورده ابن الأثير مفصلاً فى عدة صفحات- قرابة أربع صفحات - .

ونتحرك مع تأسيس إمارة أنطاكية خطوة أخرى نحو جولة القتال الثانية التى انتهت بانتصار حاسم للصليبيين وبالتالى البداية الفعلية لتأسيس إمارة أنطاكية.

وبخصوص هذه الجزئية نجد أن ابن الأثير قد أرخ لهذه الجزئية فيما يزيد قليلاً على صفحتين[٢٧] بينما أرخ ابن العبرى لذات الحدث فى حوالى نصف صفحة وتحديداً فى أربعة عشر سطراً أى أربعة عشر مثلاً لما أرخ به لجولة القتال الأولى؛ بل وفى نفس الموضع [٢٨]، وما أرخ به ابن العبرى للجولة الثانية استقاه بل وأخذ بعض عباراته حرفيًا من ابن الأثير، وهذا النقل ليس مستغربًا من ابن العبرى إذ أنه من الأمور المسلم بها اعتماده على ابن الأثير كمصدر معلومات لكثير من الأحداث ومنها الأحداث المذكورة آنفًا .

غير أن التساؤلات التى تفرض نفسها تنصب على التباين الحاد فى مستوى المعالجة ، فإذا كان ابن العبرى قد أشار لجولة القتال الأولى باقتضاب شديد اتخذ شكل سطر واحد، فكيف نفسر إسهابه فى التأريخ لجولة القتال الثانية الذى استنفذ فيه أربعة عشر سطراً ؟ وهل يحمل هذا الإسهاب نوعًا من السخرية بالقائد المسلم كربوغا وإدارته للمعركة ؟. أم يبرز اعتزاز ابن العبرى بالقوة الروحية للنصرانية متمثلة فى أحد الرهبان الذى وصفه بقوله : «وكان داهية من الرجال» ؟ .

أم يغمز ابن العبرى من خلال ذلك إلى الروح الانهزامية التى سيطرت على الجنود المسلمين فولوا منهزمين قبل أن يخوضوا المعركة ؟!!.

تساؤلات عدة يطرحها تباين ابن العبرى فى مستوى المعالجة ، وإذا كان من الصعب أن نختار التبرير الحقيقى؛ فإنه من السهل أن نؤكد أن منهجية ابن العبري ومعالجته لهذه الجزئية غير مستقيمة ، وأن فيها من الانحياز لأبناء ديانته، والسرور لنتائج الأحداث ماهو واضح لا لبس فيه .

٢- ونتحرك مع الزمن قليلاً بعد تأكيد الصليبيين سيطرتهم على أنطاكية، فنجد أن ابن الأثير قد أرخ لسيطرة الصليبيين على معرة النعمان[٢٩] مشيراً إلى المقاومة التى بذلها أهلها ضد الغزاة وموضحًا أيضًا المذبحة المروعة التى ارتكبها الصليبيون مع أهلها، وقد غطى ابن

الأثير ذلك فى نصف صفحة[٣٠] بينما غطى ابن العبرى أحداث معرة النعمان فى سطر واحد فــقـط [٣١]، وهو بهذا الإيجاز الشديد أفرغ الحدث من مقوماته الأساسية ، وأظهر تغاضيًا متعمداً عن أمور لايريد ذكرها ، ولاسيما المذبحة التى ارتكبها الصليبيون ضد الأهالى، وهذا التجاهل يبرز تعاطف ابن العبرى مع إخوانه فى العقيدة ، وفى إطار هذا أيضًا يتجاهل المقاومة الشديدة التى أبداها أهالى المعرة فى مواجهة الصليبيين، ومنطلق ابن العبرى فى تجاهل المقاومة الإسلامية هو نفسه منطلق تجاهله للمذبحة ، بمعنى أن ما يحمل إيجابية للمسلمين ينبغى تجاهله بالدرجة ذاتها التى يجب فى إطارها تجاهل الصور القاتمة أو السلبية بالنسبة للصليبيين، وهذا يعنى أن تعاطف ابن العبرى مع الصليبيين يقابله درجة من عدم التعاطف مع المسلمين، وبكل وضوح يقلل هذا الموقف من موضوعية ابن العبرى وحياديته فى تناوله للأحداث.

٣- وإذا انتقلنا إلى السنة التالية سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٩م)، حيث بدأ الصليبيون فيها تأسيس مملكة بيت المقدس ، وتتمثل نقطة البداية فى هذا التأسيس فى الانتصار الذى أحرزه الصليبيون على القوات الإسلامية المدافعة عنها والتى كانت تابعة للدولة الفاطمية.

ولقد أرخ كل من ابن الأثير وابن العبرى بما عرف عن أسلوب كل منهما بين التفصيل والإيجاز [٣٢]، وهذا أمر طبيعى ، ولكن الذى يثير التساؤل حقًا هو أن ابن العبرى أرخ فى كتابه للمذبحة التى أوقعها الصليبيون بالمسلمين فى بيت المقدس، وذلك على النقيض من تجاهله للمذبحة التى ارتكبوها بحق المسلمين فى معرة النعمان، ولايمكن الزعم بأن ابن العبرى قد أحيط علمًا بما جرى للمسلمين فى بيت المقدس؛ على حين أنه لم يكن يعرف شيئًا عن مذبحة المعرة، وذلك لسبب بسيط يتمثل فى حقيقة أن مصدر معلوماته فى الحدثين واحد هو ابن الأثير .

ولايبقى أمام الباحث سوى محاولة تفسير التناقض ، وفى هذا الجانب يمكن القول بأن ابن العبرى تجاهل مذبحة المعرة نظراً لأن المدينة تحتل مكانة ثانوية مقارنة بمكانة القدس التى سيؤرخ لمذبحتها من قبل الجميع ، أما المعرة فنظراً لثانويتها فقد ليؤبه بالتأريخ لمذبحتها ؛ ويحتمل إن هو أقدم على ذلك أن يكون الشاهد الوحيد على جريمة بشعة ارتكبها إخوانه فى النصرانية.

٤- معروف فى التاريخ أن إمارة الرها الصليبية قد اسقطت على مرحلتين جرت أحداث المرحلة الأولى فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م) حينما هاجم عماد الدين زنكى ورجاله مدينة الرها وانتزعوها من حاكمها الصليبى جوسلين الثانى[٣٣]، أما المرحلة الثانية فإنها ترتبط بجهود نور الدين محمود فى سنة ست وأربعين وخمسمائة (١١٥١-١١٥٢م) حيث تجمع المصادر التى أرخت للمرحلة الثانية أن نور الدين قد منى بالهزيمة أول الأمر، ثم وضع خطة لأسر حاكمها جوسلين الثانى، وفعلاً نجحت الخطة وترتب عليها هزيمة الصليبيين ومن ثم إزالة الوجود الصليبى فى القسم الثانى من الرها الصليبية واستعادة حاضرته تل باشر.

ونرجع لابن العبرى فنجده قد أرخ لمرحلتى السقوط، وجملة ما دونه بخصوص هذا الحدث يتفق مع ما دونه ابن الأثير[٣٤] مع ملاحظة الفرق بينهما فى الإيجاز والتفصيل ، وأيضًا أن كثيراً من الألفاظ والعبارات التى استخدمها ابن الأثير قد استخدمها ابن العبرى، وهذا يؤكد أن ابن العبرى قد نقل معلوماته بصورة مباشرة من ابن الأثير، ولايستبعد أن كليهما قد استفادا من مصدر آخر هو على الأرجح ابن القلانسى الذى كان معاصراً لهذه الأحداث[٣٥].

هذا بالنسبة للحدث أما التعليق عليه وإبراز قيمة أسر جوسلين فى ترجيح كفة انتصار المسلمين، فقد أورده ابن الأثير[٣٦] على حين تجاهله ابن العبرى تجاهلاً تامًا ، ولاشك أن لهذا التجاهل مبرراته عند ابن العبرى، ونستأنس بالنصوص من كلا المصدرين لبيان ذلك، فهذا ابن الأثير يعلق على نجاح خطة نور الدين فى أسر جوسلين الثانى قائلا[٣٧]:

«وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطانًا عاتيًا ، شديداً على المسلمين قاسى القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره».

أما ابن العبرى فنجده قد أرخ لمرحلتى إسقاط الرها وذلك بصورة موجزة للغاية بالنسبة للمرحلة الأولى حيث قال[٣٨]:

«وفى سنة تسع وثلاثين فتح أتابك عماد الدين زنكى مدينة الرها من الفرنج».

أما بالنسبة للمرحلة الثانية فنجد ابن العبرى يلجأ إلى تفصيل نسبى استفادة أو نقلاً عن ابن الأثير، والتفصيل الذى جاء يرتبط ارتباطًا مباشراً بتعاطفه مع الصليبيين حيث يقول[٣٩]:

«فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان فى جملتهم سلاح دار نور الدين ، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال له: هذا سلاح دار زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه».

أما ابن الأثير فيقول [٤٠]: «فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون ، وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان فى جملة من أسر سلاح دار نور الدين، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه».

ومن المقارنة بين ما أورده ابن العبرى وما أورده ابن الأثير يتضح أن الألفاظ والعبارات التى استخدمها ابن العبرى هى نفسها التى استخدمها ابن الأثير مما يؤكد أن ابن العبرى قد استفاد منه فى معلوماته ، والفرق البارز بين المؤرخين يتمثل فى حقيقة أن ابن الأثير كان متوازنًا فى عرضه للأحداث، ولم يمل أو يتحيز إلى الجانب الإسلامى على حساب الجانب الصليبى، وعلى العكس من ذلك كان ابن العبرى الذى دفعه ميله أو تحيزه إلى إخوانه فى العقيدة الصليبيين إلى إغفال ما يسىء إليهم أو يقلل من شأنهم، وفى ذات الوقت حرص على كشف كل ما ظنه مسيئًا إلى المسلمين.

٥- فى الفترة الواقعة بين مرحلتى إسقاط الرها الصليبية، وتحديداً فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (١١٤٨م) وقعت أحداث الحملة الصليبية الثانية[٤١] التى استهدفت دمشق مدينة وإمارة بهدف تعويض الخسارة التى لحقت بالصليبيين نتيجة ضياع الرها.

كان المتوقع من ابن العبرى الذى أرخ لمرحلتى إسقاط الرها، أن يؤرخ للحملة الثانية غير أنه تجاهلها تجاهلاً تامًا، وكأنها لم تحدث مع ملاحظة أن ابن الأثير قد أرخ لها وبتفصيلاته المعهودة ، ولايصح لأحد أن يزعم أن تجاهل ابن العبرى لهذه الحملة يعود لتفاهة الحدث وقلة أهميته ، إذ أنه حدث أساسى من أحداث الحروب الصليبية ، ثم لايغيب عن أذهاننا أن ابن العبرى قد أرخ لأحداث تعد ثانوية للغاية.

والتفسير المنطقى والمقبول لهذا التجاهل يكمن فى حقيقة واحدة ولاشىء سواها، تتمثل فى الفشل الذريع التى منيت به الحملة على الرغم من الحشد الهائل الذى سخر لها والتى عقد عليها الصليبيون الكثير من الآمال أقلها أنها ستعوضهم عن خسارتهم بضياع الرها بالاستيلاء على دمشق، ولكن لم يستحسن ابن العبرى هذا الخسران فآثر تجاهله، حتى ولو كان

على حساب الحقيقة والأمانة العلمية، واتخذ ابن العبرى هذا الموقف الذى يتنافى والحيادية فى
التأريخ والأمانة العلمية، واتخذ ابن العبرى هذا الموقف الذى يتنافى والحيادية فى التأريخ
للأحداث، وليته اقتدى بابن الأثير فى حياديته وترفعه عن التأثر بالعواطف بل ليته استفاد من مؤرخ صليبى اشترك مع ابن الأثير فى المعاصرة لعدة عقود ذلك هو وليم الصورى(٤٢) الذى أرخ لأحداث الحروب الصليبية بدرجة معقولة من الحيادية وخصص عدة صفحات للتأريخ للحملة الصليبية الثانية (٤٣)؛ بل إنه كتب فى التعليق على إحدى الهزائم التى حاقت بالصليبيين قائلاً (٤٤):

«ولقد ضاعت فى هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة فى خطب كان من أشد الخطوب، وفى نكبة كانت من أقدح النكبات التى حاقت بالصليبيين ، ذلك أن بسالتهم التى كانت حتى هذه اللحظة مضرب الأمثال عند الشعوب هوت إلى الحضيض ، وأصبحت سخرية فى عيون الأمم النجسة (يقصد المسلمين) بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها ».

أفلايحق للباحث أن يقول بأن تأريخ وليم الصورى- وهو صليبى- للحملة الثانية وللفشل الذريع الذى منيت به يمثل شهادة تدين ابن العبرى، وتدين تجاهله المتعمد لهذه الحملة التى تمثل نقطة تحول فى مسار الحروب الصليبية .

رابعًا : الفترة الأيوبية:

أقصد بالفترة الأيوبية تلك الحقبة التى تبدأ من انفراد صلاح الدين الأيوبى بحكم مصر عقب وفاة نور الدين محمود فى شهر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة (١١٧٤م)، وتنتهى بمعاهدة يافا التى عقدت بين المسلمين والصليبيين فى ربيع الأول من سنة ست وعشرين وستمائة (مارس ١٢٢٩م) وهذا يعنى أن المدى الزمنى لهذه الفترة يصل تحديداً إلى سبع وخمسين سنة(٤٥).

والفترة الأيوبية متخمة بالأحداث الهامة والتقلبات المثيرة، وفى مقدمة هذه الأحداث نجاح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الإسلامية مما كان عاملاً مؤثراً فى الانتصار الإسلامى فى حطين(٤٦) وهى المعركة التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً مؤزراً تحت قيادة صلاح الدين أثمر عن نتائج إيجابية عديدة جاء فى مقدمتها استرداد المسلمين بيت المقدس.

ثم كانت غلبة الصليبيين فى معركة عكا(٤٧) فى أعقاب الحملة الصليبية الثالثة مما ترتب عليه مكاسب عدة لصليبى الجنوب أو بيت المقدس، أما فى الشمال فقد خصص صلاح الدين

سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) للجهاد ضد أنطاكية، وقد تحقق للمسلمين فى هذه الناحية مكاسب لكنها كانت أقل شأنًا مما تحقق لهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ختم صلاح الدين جهاده ضد الصليبيين بصلح الرملة[٤٨] الذى تم التوصل إليه فى شهر شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة (٢سبتمبر ١١٩٢م) .

وتبعًا لبنود صلح أو هدنة الرملة تجمَّد النشاط العسكرى بين الجانبين لفترة، ثم فى أواخر سنة أربع عشرة وستمائة (١٢١٨م) بدأت طلائع قوات الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى شمال الدلتا المصرية، وهى التى شهدت عدة أحداث هامة أحدثت تغيراً مثيراً لصالح المسلمين.

كان من أحداث هذه الحملة استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط ومن ثم توغل قواتهم جنوبًا صوب العاصمة المصرية، وفى الطريق تصدت لهم القوات الأيوبية فى منطقة شكلت ما يمكن أن نسميه خط الدفاع الثانى والتى كانت مدينة دمياط قبله قد شكلت خط الدفاع الأول، وفى منطقة خط الدفاع الثانى حقق المسلمون انتصارهم الأول على قوات الحملة، وبعده توالت الهزائم على الصليبيين ، وزاد من تأزم موقفهم إغراق مدينة دمياط وإغلاق خط الرجعة أمامهم، ورضخوا لشروط الهدنة التى أملاها عليهم ومن مركز قوة الملك الكامل الأيوبى[٤٩]،وكان أولها انسحابهم من أرض مصر مما يعنى هزيمة مريرة وفشلاً ذريعًا لأحلامهم وأهدافهم من الحملة على مصر .

وبعد سنوات ، وفى منتصف سنة خمس وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) شهدت سواحل أرض فلسطين الحملة الصليبية السادسة، والتى تتمثل أحداثها الرئيسة فى حدثين أولهما استعانة السلطان الأيوبى الملك الكامل بالإمبراطور الألمانى فردريك الثانى[٥٠] كى يسانده فى مواجهة منافسيه من زعماء البيت الأيوبى، أما الحدث الثانى فهو تخلى الزعيم الأيوبى عن بيت المقدس للإمبراطور الألمانى والذى يعد العنصر الأساسى فى هدنة يافا[٥١] التى عقدت بين الجانبين فى ربيع الأول سنة ستة وعشرين وستمائة للهجرة (مارس ١٢٢٩م) .

* * *

١- كانت أحداث الفترة الأيوبية متزامنة مع المؤرخ ابن الأثير فى فترة نضجه وتشكيل مقوماته بوصفه مؤرخًا ، فقد كان حينما وقعت معركة حطين فى أواخر العقد الثالث من عمره؛ أما ابن العبرى فكان يعبر السنوات الأولى من عمره مع أحداث الحملة الصليبية السادسة ، وإذا صح للباحث أن يقول عن ابن الأثير أنه كان معاصراً للفترة الأيوبية ، فإن ابن العبرى كان

قريب العهد بها، إضافة إلى أنه عاصر المرحلة اللاحقة بما فيها من أحداث الحملة الصليبية السابعة وإسقاط أنطاكية الصليبية .

على أى حال فالعنصر الأساس لهذه الدراسة هو المقارنة بين المؤرخين فى تأريخهما لأحداث المرحلة، ونبدأ بابن الأثير فنجده قد أرخ لكل أحداثها [٥٢]، وأهمها الجهود التى بذلها صلاح الدين الأيوبى من أجل مواجهة الخطر الصليبى بإعادة بناء الجبهة الإسلامية ، ومن ذلك نجاحه فى ضم دمشق وحصاراته لحلب[٥٣] ثم ضمها ، وأيضًا نجد ابن العبرى قد أرخ[٥٤] لهذه الحوادث ناقلاً ذلك بصورة نصيه إلى حد كبير عن ابن الأثير، ومستخدمًا ألفاظه التى عبّر من خلالها عن تطورات الأحداث ، ويتبين لنا ذلك من قول ابن الأثير عن الحدث الأخير وهو حصار حلب سنة تسع وسبعين وخمسمائة (١١٨٣م) [٥٥]:

«إنه يسلم- عماد الدين - حلب ، ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وجرت اليمين على ذلك ، وباعها بأوكس الأثمان، أعطى حصنًا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع... فعجب الناس كلهم من ذلك ، وقبحوا ما أتى ، حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجّانة وماءً ، وناداه أنت لايصلح لك الملك ، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب، وأسمعوه المكروه».

أما ابن العبري فيقول [٥٦]:

«فتقرر الصلح أن يسلم حلب إلى صلاح الدين، ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وجرت اليمين على ذلك ، فباعها بأوكس الأثمان؛ أعطى حصنًا مثل حلب ، وأخذ عوضها قرى ومزارع، فقبح الناس كلهم ما أتى».

وكما هو واضح فقد اعتمد ابن العبرى على معلومات ابن الأثير، وحتى ألفاظه فى التأريخ لهذا الحدث، ولكن انفرد ابن الأثير بإبراز إيجابية هذا الحدث بالنسبة لدولة صلاح الدين قائلاً[٥٧]:

«واستقر ملك صلاح الدين بتملكها ، وكان مزلزلاً ، فثبت قدمه بتسليمها ، وكان على شفا جرف هار».

وهذا التعليق من ابن الأثير يحمل مبالغة واضحة ، فقد كان ملك صلاح الدين يزداد رسوخًا وثباتًا سنة بعد أخرى منذ انفراده بحكم مصر أواخر سنة تسع وستين وخمسمائة، ولايغيب عنا أن ابن الأثير فى هذا التعليق كان متحاملاً على صلاح الدين ، وذلك لاعتقاده أنه لم يحفظ جميل أستاذه نور الدين، فعامل ابنه بصورة غير لائقة ، وعلى هذا الأساس فإن

تجاهل أو إغفال ابن العبرى لتعليق ابن الأثير لايخرج عن أحد أمرين أولهما : أن هذا الإغفال جاء تمشيًا مع أسلوب الإيجاز الذى اختاره لكتابه ، وفى هذه الحالة يلزم أن نصمت إزاءه؛ وثانيهما : أن يكون هذا التجاهل قد حدث لكى لايقع فى سقطة علمية، وفى هذه الحال يكون التجاهل أمراً طيبًا جديراً بالإشادة[٥٨].

٢- بعد إعادة بناء الجبهة الإسلامية تتابعت سلسلة من الأحداث أبرزها معركة حطين فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) وما ترتب عليها من مكتسبات فى مقدمتها استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس .

وبالنظر إلى موقف مؤرخينا من هذه المعركة نجد أن ابن الأثير قد أرخ لأحداث السنة المشار إليها بدرجة وافية من التفصيل [٥٩]، وفى إطار هذا التفصيل أبرز عوامل الهزيمة التى لحقت بالصليبيين فى معركة حطين ومن أبرزها حرمان الصليبيين من مصادر المياه، وهو سلاح استخدمه صلاح الدين بقدرة فائقة ، ثم تحدث عن الأسرى الصليبيين ، وعدّد من أسر من زعمائهم وطوائفهم .

أما ابن العبرى فموقفه غريب جداً من هذه المعركة حيث نجد أنه تجاهل الإشارة إليها تجاهلاً تامًا بحيث لم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد؛ هذا على حين أنه أرخ لأحداث ثانوية سبقت المعركة، وأخرى أقل شأنًا أيضًا أعقبت المعركة ، فمن الأحداث التى أرخ لها[٦٠] قبل معركة حطين استيلاء قوات صلاح الدين على طبرية [٦١]، ومن الأحداث التى أعقبتها استعادة المسلمين لعدد من المدن الإسلامية من بينها قيسارية وحيفا ويافا وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من المدن والبلدات الإسلامية ، وابن العبرى فى هذا ناقل عن ابن الأثير فى كل معلوماته التى أوردها [٦٢].

فما هى مبررات ابن العبرى فى إغفال مثل هذا الحدث الهام واهتمامه بدلاً من ذلك بأحداث ثانوية؟!! .

إن فكرة الإيجاز أو التلخيص التى اتسم بها منهج ابن العبرى فى تأليف كتابه تعنى بداهة التركيز على الأحداث الأساسية ، وتجاهل الأحداث الثانوية غير أن ابن العبرى انتهج أسلوبًا متناقضًا تمامًا، وليس له من تبرير سوى أن قلمه لم يطاوعه فى أن يبرز كارثة حاقت بالصليبيين كتلك التى ألمت بهم فى معركة حطين ، وهذا يعنى رضوخه لعواطفه الدينية، وهذا الرضوخ ينافى الموضوعية المطلوبة من المؤرخ فى معالجة الأحداث التاريخية.

٣- وفى الوقت الذى تجاهل فيه ابن العبرى معركة حطين، نجده يؤرخ وبدرجة غير مألوفة من التفصيل عن ظروف استرداد صلاح الدين لبيت المقدس [٦٣]، وهو الحدث الذى وقع بعد معركة حطين بعدة أسابيع [٦٤]، ومن الأمور التى حرص على تسجيلها القتال الشديد التى احتدم بين المسلمين والصليبيين على مشارف المدينة، كما سجل الحوار الذى دار بين صلاح الدين وباليان بن نيوزان[٦٥] ومما ورد فيه قول الأخير[٦٦]:

«أيها السلطان ، إعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان؛ فإن رأينا أن الموت لابد منه فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ، ولانترككم تغنمون منا ديناراً ولادرهمًا ، ولاتسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولانترك لنا دابة ولاحيوانًا إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا ، وحينئذ لايقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كرماء».

وأورد ابن العبرى هذا النص وفيه مالايخفى على فطنة القارىء الكريم من اعتزاز وتفاخر من الزعيم الصليبى، ودعاية للقوة الصليبية وتقليل من الانتصار الإسلامى ، وكأنى بابن العبرى قد جعل من نفسه أو من كتابه صورة دعائية لوجهة النظر الصليبية، وتعاطفًا مع أبناء عقيدته وتبريراً للظروف التى أدت إلى هزيمتهم. وهذا يتنافى مع الحيادية والموضوعية المطلوبتين فى المؤرخ عند معالجته أحداثًا تقوم على التباين الدينى كأحداث الحروب الصليبية.

لقد سجل ابن العبرى القواعد التى على أساسها تم استسلام الصليبيين[٦٧]، ولكنه تجاهل عن عمد عدداً من الحقائق أو المعلومات ذات الصلة باستعادة المسلمين لبيت المقدس، وبالرجوع إلى ابن الأثير[٦٨] وهو الأصل الذى نقل عنه ابن العبرى معلوماته السابقة نلحظ هذا التجاهل بالمعلومات المتصلة بإحدى السيدات الروميات من نساء ملوك الروم، وأيضًا المتصلة بملكة القدس، وكذلك ما يتصل ببطريرك الفرنج من معلومات.

ونخلص من هذه الجزئية أن ابن العبرى سجل حقائق وتجاهل أخرى سجل ما رأى فيه نقاطًا إيجابية للصليبيين، وتجاهل ما قد يحسب نقاطًا مضيئة للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبى؛ سجل استماتة الصليبيين فى القتال لأن هذه الاستماتة تحسب لهم، وسجل الحوار الذى أورده على لسان باليان لأنه رأى فيه عبقرية أقنعت صلاح الدين بقبول فكرة استسلام الصليبيين وتبريراً مقنعًا لهزيمتهم، وفى الوقت نفسه نراه يتجاهل التصرفات النبيلة التى

صلاح الدين إزاء الصليبيين وفى كل هذا منافاة للموضوعية التى يلزم أن يتحلى بها المعنى بالتأريخ والحيادية التى ينبغى أن ينهجها من يؤرخ للأحداث ويرصد تطوراتها.

أما عن موقف المؤرخين حول معركة عكا الذروة فيما يسمى بالحملة الصليبية الثالثة أو الرد الصليبى على انتصارات صلاح الدين الأيوبى، ففى نصوصهما عن هذه المعركة والمفاوضات التى أعقبتها يجد الباحث تشابهًا شديداً بين ما دونه ابن الأثير[٦٩] وما دونه ابن العبرى[٧٠] باستثناء كلمة «غدروا» التى أوردها ابن الأثير وكررها أكثر من مرة فى ثنايا المفاوضات التى جرت بين صلاح الدين وقادة الصليبيين تعبيراً عن عدم التزام الصليبيين بتعهدهم بعد تسلمهم عكا، وغدرهم بمن فيها من المسلمين ، وحذف ابن العبرى لهذه الكلمة يبرز تعاطفه مع إخوته فى العقيدة، وكأنه بذلك يريد أن ينفى عنهم صفة الغدر.

وإذا كان ما سبق عن موقف المؤرخين من الأحداث المتصلة بمملكة بيت المقدس، فمن المناسب التعرف على هذا الموقف من الأحداث المتصلة بأنطاكية، والنشاط الجهادى الذى بذله صلاح الدين ضد الصليبيين فى المناطق الشمالية.

٤- وفى هذا الصدد نجد أن ابن الأثير قد فصّل الحديث عن جهاد صلاح الدين وما بذله فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) من نشاط حربى فى مواجهة الوجود الصليبى فى إمارة أنطاكية، وما ترتب عليه من استعادة معظم المدن والمواقع التابعة لأنطاكية والتى قال عنها ابن الأثير[٧١]:

«وهى جميعها من أعمال أنطاكية ، ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودربساك».

هذا وقد استنفذ تأريخ ابن الأثير لهذه العملية الجهادية عدة صفحات زادت على سبع صفحات ، أما ابن العبرى فقد قفز على هذه الأحداث بحيث اختصرها فى سطر وثلاث كلمات فقط قائلاً[٧٢]:

«وفى سنة أربع وثمانين فتح صلاح الدين جبلة واللاذقية وصهيون وشُغْرَبكاس ودربساك وبغراس والكرك وصفد».

ويغلب على الظن أن ابن العبرى قد لجأ إلى هذا الاختزال الشديد للأحداث كى لايبرز أو يؤرخ للعديد من الصور المؤلمة لهزائم الصليبيين فى أنطاكية ، وفى إطار هذا الاختزال تجاهل عبارة ابن الأثير التى اتخذت شكل إحصائية أو تقرير ختامى ، وكأنى بابن العبرى لايريد

لقلمه أن يسجل حالة التردى التى وصل إليها الصليبيون فى إمارة أنطاكية التى أمضى فيها حقبة من حياته .

٥- ومن الأحداث الهامة المتصلة بالحملة الصليبية ما يتعلق بالجهود التى بذلها صلاح الدين فى تحصين مدينة القدس فى مواجهة القوات الصليبية التى استهدفتها بعد الاستيلاء على عكا ، وقد ترتب على هذا التحصين فشل المحاولات الصليبية اقتحام المدينة المقدسة، وقد أرخ ابن الأثير لهذا الأمر بدرجة مناسبة من التفصيل[٧٣] على حين تجاهل ابن العبرى الموضوع برمته، وهذا يتسق مع طريقته فى تجاهل النقاط السلبية بالنسبة للصليبيين، ومما يساعدنا فى هذا الاستنتاج أننا نجد ابن العبرى يؤرخ بتفصيل غير مسبوق[٧٤] عن نجاح الصليبيين فى معركة عكا ، وذلك فى السطور التى تسبق مباشرة الحديث عن تحصين القدس، وهو بهذا ينتقى الأحداث التى يؤرخ لها بحيث تكون من النوع الذى يسجل انتصاراً أو غلبة للصليبيين ، أما تلك التى تفيد إخفاقًا أو فشلاً أو هزيمة لهم فإنه غالبًا ما يتجاهلها أو يسقطها من تأريخه ، وإذا وجد نفسه مضطراً إلى ذكرها فإنه يشير إليها إشارة عابرة أو بطريقة مختزلة يترتب عليها إخلال بالمعنى المقصود ، وهذا الأسلوب لايتوافق مع الحيادية والموضوعية اللتين يجب على المؤرخ التحلى بهما عند تدوين التاريخ.

أما آخر الأحداث الهامة المتعلقة بالحملة الصليبية الثالثة فهو صلح الرملة[٧٥] الذى ختمت به تلك الحملة، وعن هذا الحدث نجد أن ابن الأثير يؤرخ له بصورة مناسبة[٧٦] حيث أوضح أن المبادرة فى طلب الهدنة جاءت من جانب ملك انجلترا[٧٧] الذى دفعته ظروف متعددة إلى اتخاذ المبادرة؛ كما يبين ابن الأثير التنازلات التى قدمها ريتشارد قلب الأسد وأورد تفصيلات لها أهميتها بالنسبة للحدث فى ذاته، وهى أيضًا هامة بالنسبة لدارسى التاريخ إذ أنها تلقى مزيداً من الضوء على المفاوضات التى تمت بين الجانبين ، كما تعرفنا بوضعهما فى المواجهة العسكرية، ولعلى فى إبراز نص ابن الأثير حول الحدث المذكور ما يوضح ما ذهبت إليه ، يقول ابن الأثير[٧٨]:

«وسبب الصلح أن ملك إنكلتار لما رأى اجتماع العساكر ، وأنه لايمكنه مفارقة ساحل البحر، وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه، وقد طالت غيبته عن بلاده راسل صلاح الدين فى الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا... ، فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة، ونزل عن تتمة عمارة عسقلان، وتخلى عن غزة والداروم والرملة».

وفى إطار تعليق ابن الأثير على الصلح، وعلى لسان الزعيم الصليبى باليان بن بارزان نقل ابن الأثير قوله لصلاح الدين[٧٩]:

«ما عمل أحد فى الإسلام ما عملت، ولاهلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلتهم أنت، وبعضهم مات، وبعضهم غرق».

ونتبين أهمية هذا النص الذى أورده ابن الأثير من أهمية الإحصاء الذى انفرد به عن ضخامة الخسائر البشرية التى تكبدها الصليبيون، وكانت السبب المباشر لطلبهم الصلح مع صلاح الدين .

ونلتفت إلى ابن العبرى فنجد أنه أرخ للصلح أو الهدنة فى سطر واحد فقط [٨٠]، ومن السهل على الباحث أن يدرك سر تجاهله للتفصلات المرتبطة بالهدنة سواء فى أسبابها أو فى نتائجها إذ أنها تفصيلات تبرز تغيراً لايستهان به فى موازين القوى لصالح المسلمين ، وإلا لما أقدم ريتشارد على التنازلات التى قدمها ، وهى تنازلات تتصل بالسيادة والأرض كما هو واضح من نص ابن الأثير.

٦- توفى صلاح الدين فى شهر صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة (فبراير ١١٩٣م) أى بعد حوالى ستة أشهر من عقد صلح الرملة ، وبعد وفاته تتابعت سلسلة من التطورات الداخلية فى دولة صلاح الدين ، كما جرت تطورات سياسية على الجانب الصليبى، ولايعنى البحث الذى بين أيدينا هذه أو تلك حتى جاءت سنة ستمائة من الهجرة (١٢٠٢-١٢٠٣م)، وفيها جرت أحداث الحملة الصليبية الرابعة، وهى الحملة التى أسفرت عن استيلاء الصليبيين على الإمبراطورية البيزنطية وبالتالى تأسيس نظام كاثوليكى[٨١] عمر حوالى ستين سنة.

أرخ ابن الأثير[٨٢] للحملة الصليبية الرابعة، وقدم فى ثنايا تأريخه معلومات مفيدة ، وكذلك أرخ ابن العبرى[٨٣] لهذه الحملة أيضًا، ولكن بدرجة تكاد تكون تفصيلية على غير عادته، ومن ذلك تأريخه للمعاملة القاسية التى عومل بها الناس على يد الصليبيين وزعمائهم، ولم يسلم من ذلك رجال الدين البيزنطيون، ولا كنيستهم آياصوفيا ولا أناجيلهم ولا صلبانهم.

صحيح أن ما أرخ ابن العبرى لمذبحة القسطنطينية قد نقله بصورة شبه كاملة عن ابن الأثير

وذلك على غير المألوف من هذا المؤرخ الذى تجاهل من قبل المذبحة التى ارتكبها الصليبيون مع مسلمى معرة النعمان ، وذلك على الأرجح كى لايجعل من نفسه شاهداً على جرائم إخوانه فى العقيدة، أما إذا تعلق الأمر بنصارى الشرق (الأرثوذكس)(٨٤)- وهو منهم- فسيكون الأمر مختلف تمامًا، وسيميل لصالحهم على حساب الصليبيين وهم (كاثوليك) ، ثم لاننسى أنه كان أحد رجال الدين النصارى ممن يحملون لكنيسة آيا صوفيا ورجال الدين النصارى فيها انتماءً روحيًا وفكريًا وزمالة قديمة.

٧- أما عن الحملة الصليبية الخامسة فالعجيب تجاهل ابن العبرى هذه الحملة تجاهلاً يكاد يكون تامًا حيث أسقطها من مؤلفه وكأنها لم تكن (٨٥)، ولكن سرعان ما يزول هذا التعجب إذا عرفنا- - كما سبق أن أشرت- أنه قد تجاهل الحملة الصليبية الثانية، والقاسم المشترك بين الحملتين- وهو ما دعى ابن العبرى إلى الصمت عن تأريخ الحملة - هو الفشل الذريع الذى منيت به الحملتان، وعجز قادتهما عن تحقيق أى من الأهداف التى كانت مؤملة منهما.

والغريب فى الأمر أن ابن العبرى قد أرخ وبشىء من التفصيل(٨٦) المثير للانتباه للاجتياح المغولى لمناطق المشرق الإسلامى، وذلك ضمن أحداث سنة سبع عشرة وستمائة (١٢٢٠-١٢٢١م) ، فأرخ لسقوط بخارا، وكذلك سمرقند وغيرهما من مدن وأقاليم إسلامية علمًا أن الحملة الصليبية الخامسة امتدت أحداثها من أواخر سنة أربع عشرة وستمائة (١٢١٨م) إلى سنة ثمانى عشرة وستمائة (١٢٢١م) ، أى أن أحداث الاجتياح المغولى تقع زمنيًا مع أحداث الحملة الصليبية الخامسة.

وكما سبق أن أشرت فقد أرخ ابن العبرى ضمن أحداث سنة ثمانى عشرة وستمائة لنهاية الحملة ، وبالتحديد للانسحاب الصليبى من مدينة دمياط التى سبق أن استولى عليها فى السنة قبل الماضية ، وقد نقل ما دونه من معلومات عن ابن الأثير ، ولكنه حذف ما لم تتقبله عاطفته الدينية، وبالذات فى إغفاله الإشارة إلى رهائن الصليبيين وكانوا عشرين من قادتهم فى مقدمتهم ملك عكا(٨٧) ونائب البابا (٨٨)، وأيضًا إغفاله ذكر حالة الفرح والابتهاج التى عمت المسلمين نتيجة لانسحاب الصليبيين ، ولتكون هذه المقارنة أكثر وضوحًا أورد ما قاله المؤرخين عن ذلك الانسحاب ، يقول ابن الأثير(٨٩):

«وتمموا الصلح على تسليم دمياط، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ، انتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن

على تسليم دمياط؛ ملك عكا، ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكًا، وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط فى تسليمها، فلم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين... وكان يومًا مشهودًا».

ويقول ابن العبرى (٩٠):

«فأجابوا- يقصد الصليبيين - إلى الصلح على تسليم دمياط وإطلاق ما بأيديهم من أسرى المسلمين، وإطلاق ما بأيدى المسلمين من أسراهم، وقرر الصلح عامًا مع الدكاد نائب البابا، وملك عكا، وملوك فرنجة ومقدمى الداوية والاسبتارية».

ونظرة إلى النصين نلحظ أن عاطفة ابن العبرى الدينية لم تطاوعه فى تسجيل موقف مهين بالنسبة للصليبيين، كما لم تطاوعه فى تصوير ابتهاج المسلمين وفرحهم ، وبين هذا وذاك كان صمت ابن العبرى على حساب الحقيقة التاريخية والأمانة العلمية.

٨- ونقطع من الزمن حوالى ثمانية أعوام، وبالتحديد إلى منتصف سنة خمس وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) حيث شهدت سواحل بلاد الشام بداية الحملة الصليبية السادسة[٩١]، وذلك بوصول مقاتلين من قوات الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى، وأهم ما يميز هذه الحملة أنها كانت هادئة ومع هدوئها حققت مكاسب مهمة على حساب المسلمين، وفى مقدمتها تسليم مدينة القدس للإمبراطور الألمانى ، وذلك فى الأول من ربيع الثانى من سنة ست وعشرين وستمائة (فبراير ١٢٢٩م) [٩٢].

لقد أرخ كل من ابن الأثير[٩٣] وابن العبرى[٩٤] للحملة الصليبية مع تباينهما فى ذلك من حيث التفصيل والإيجاز كما هى عادة المؤرخين، ويعنينا من هذا التاريخ تأريخهما لنتائج الحملة بصفة خاصة، والتباين الشديد بينهما فى هذه الجزئية بالذات رغم اعتماد ابن العبرى فى معلوماتها على ابن الأثير إلا أنه كان بعيداً جداً فى تفكيره وأهدافه ومضمون معلوماته عن ابن الأثير، الأمر الذى يعطينا مثالاً واضحًا على أهمية الفكر التاريخى لدى المؤرخ، وأهمية الصياغة فى التعبير عن هذا الفكر (أهدافه ومراميه) ، ولأهمية ما أرغب توضيحه فى هذه المقارنة بالذات أورد نصى المؤرخين عن هذه الجزئية، ومن ثم أعلق عليهما، وأرغب من القارىء الكريم التدقيق جيداً فى النصين والتوقف عند كل كلمة فيهما.

يقول ابن الأثير:

«فلما اجتمعا (يريد الملك الكامل الأيوبى وأخاه الملك الأشرف) ترددت الرسل بينهما وبين الأنبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وملطية وغير ذلك بيد المسلمين، ولايسلم للفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التى استقرت معه».

ويقول ابن العبرى:

«وفى سنة خمس وعشرين وستمائة ترددت الرسل بين الفرنج والملك الكامل فى طلب الصلح فاتفق على تسليم البيت المقدس إلى الفرنج فتسلموه ومواضع كثيرة أخر من بلاد الساحل، وإنما أجابهم الكامل لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال والأموال، فخاف على بلاده أن تؤخذ عنوة فأرضاهم بذلك».

نصان قصيران ولكنهما يكشفان للباحث عن حقيقة خطيرة، فإلى جانب عدم دقة ابن العبرى فى تحديد سنة الصلح وجعلها سنة خمس وعشرين وستمائة وهى سنة ست وعشرين وهذا مأخذ له أهميته، فهو أيضًا قد عمد إلى التزييف بل إلى قلب الحقائق رأسًا على عقب، وليس هذا الحكم من باب التحامل على ابن العبرى، فما أردته من إيراد النصين وتدقيق القارئ الكريم فيهما وفى كلماتهما إلا لتأكيد هذه الحقيقة.

إنه من خلال نص ابن الأثير والذى أيدته المصادر الصليبية[٩٥] نعرف أن الذى تم التنازل عنه هو بيت المقدس ومواضع يسيرة لا تذكر، وأن عدة بلدات مثل الخليل ونابلس والغور قد بقيت بأيدى المسلمين، بل وفوق ذلك فإن الحرم القدسى بما حواه من مسجد الصخرة والمسجد الأقصى قد بقيا تحت السيادة الإسلامية.

غير ابن العبرى لم يرق له حجم هذه التنازلات، فجاءت عبارته «فتسلموه ومواضع كثيرة أخر»، ومن أجل إحكام التضليل والتزييف أضاف عبارة من بلاد الساحل، وفرق كبير بين الحقيقة ومقصد ابن العبرى.

هذه ناحية، وناحية أخرى يبرز من خلالها التزييف المتعمد من ابن العبرى، وتتمثل فى إظهار أى الجانبين كانت ظروفه أشد ضغطًا عليه ودفعًا له إلى طلب الصلح، فابن العبرى ودون لبس يصرح أن الكامل إنما أجابهم لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال... على حين أن ابن الأثير وبوضوح أيضًا لم يشر إلى هذه الناحية، بل ما ألمح إليه هو تحسن

الوضع العسكرى للملك الكامل فى الفترة الأخيرة عنه مع بداية الحملة، وقد برز هذا التحسن بعد مؤازرة أخيه الملك الأشرف له فى مواجهة الصليبيين.

وإضافة إلى هذا تبرز مصادر أخرى إسلامية وغير إسلامية ضعف موقف الإمبراطور الألمانى وأن الوقت ليس فى صالحه والضغوط تزداد عليه، وأنه ليس لديه القوة الكافية التى يستطيع بها تحقيق أى انتصار ولو كان هزيلاً على المسلمين .

يقول رنسيمان [٩٦]:

«على أن فردريك تعرض للضغط فترة من الزمن ، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفى للقيام بحملة كبيرة».

وما أشار إليه رنسيمان تحدث عنه عدد من المؤرخين المسلمين[٩٧] بدرجة جيدة من التفصيل والوضوح، والنص على تسليم القدس، وأن تبقى خرابًا ولايجدد سورها، وعليها والٍ من المسلمين يكون مقره البيرة، وأن الحرم الشريف بما حواه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى يكون بيد المسلمين، ولايدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، وأن ما حصل عليه الفرنج إضافة إلى القدس مجموعة قرى معدودة تقع فى الطريق بين عكا والقدس كى لاتكون مصدر تهديد للعابرين من الصليبيين بين المدينتين.

وأعتقد أن صلحًا هذه شروطه أو بنوده ليس فيه من المكاسب سوى الحد الأدنى منها ، وما أوردته المصادر الإسلامية من تفصيل حول شروط الصلح ليس تعاطفًا منها مع الكامل الأيوبى لأن أصحابها مسلمون لايستبعد تعاطفهم معه بل هى الحقيقة التاريخية التى نقلتها تلك المصادر بكل أمانة وصدق ، ومع هذا يمكن حسم مثل هذا الاتهام لو حدث من خلال الوثيقة التى أخذت شكل خطاب استعطاف بعث به الإمبراطور الألمانى إلى الكامل الأيوبى فى بعض مراحل المفاوضات، وأنه يكشف بوضوح وصراحة أن حاجة الإمبراطور إلى الهدنة كانت تفوق بكثير حاجة الكامل الأيوبى إليها ، كما يكشف عن حرج موقف الإمبراطور أمام شعبه وأمام البابوية التى أصدرت بحقه قرارى حرمان ، وسمحت بالاعتداء على ممتلكاته ؛ ومما جاء فى هذا الخطاب [٩٨]:

«وأنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايبًا انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس

فهى أصل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر».

ونخلص مما سبق إلى القول بأن ابن العبرى قد عمد إلى تشويه الحقائق وتزييفها ، وهذا يدفع إلى عدم الثقة فى تأريخه لبعض الحوادث ولاسيما تلك التى تمس عواطفه الدينية.

خامسًا : المؤرخان والأحداث الثانوية:

إيفاءً بمتطلبات منهجية البحث يلزم أن نتعرف على موقف المؤرخين المذكورين بالنسبة لعدد من الأحداث الثانوية، حتى وإن جاءت المعطيات خفيفة الدلالة فيما نحن بصدده فاليعذر القارىء الكريم ذلك رغبة فى استيفاء كافة المواضع التى تتحقق من خلالها عناصر المقارنة المطلوبة بين المؤرخين، ويؤيد هذه الرغبة توفر أحداث عديدة منها ما يتصل بالفترة السابقة على صلاح الدين، ومنها ما يتصل بالفترة الأيوبية جمعتها من وجهة نظرى صفة الثانوية من حيث الأهمية، وأعلق عليها معتمداً على تسلسها الزمنى.

١- الحدث الأول يتعلق بالفاطميين ودورهم فى إثارة الحروب الصليبية، وإذا كان ابن الأثير قد أبان شكه وعدم تأكده من حقيقة هذا الدور [٩٩]؛ فإن ابن العبرى قد تجاهل هذه الإشارة وأعرض عنها ، وقد يكون بهذا محقًا حيث رأى أن ابن الأثير قد أورد هذا الحدث فى إطار الشك مبتدءاً حديثه بكلمة (وقيل)، ومختتما إياه بكلمة (والله أعلم) ، ولعل هذا الشك هو ما دعى ابن العبرى إلى تجاهل الحدث وعدم التأريخ له.

٢- الحدث الثانى هو حقيقة تعهد قادة الحملة الصليبية الأولى للإمبراطور البيزنطى [١٠٠]، والمتمثل فى حلفهم له أن يسلموا إليه أنطاكية ، وهو التعهد الذى أوردته المصادر الصليبية[١٠١].

فإبن الأثير قد أورد هذا التعهد فى قوله عن الإمبراطور البيزنطى[١٠٢]:

«لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لى أنكم تسلمون إلى أنطاكية».

أما ابن العبرى فقد أغفل الإشارة إلى هذا التعهد[١٠٣]، وهذا الإغفال مستغرب منه بحكم نصرانيته الشرقية الأرثوذكسية ، وانتمائه الدينى والعاطفى لها ضد الغربية الكاثوليكية.

٣- أما الحدث الثالث فعن استيلاء الفاطميين على بيت المقدس فى شعبان من سنة تسع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٦م) فى أجواء الحملة الصليبية الأولى، وهو الحدث الذى أوردته مصادر كثيرة إسلامية وغير إسلامية ومن بينها ابن الأثير[١٠٤] وابن العبرى[١٠٥]، وإذا كان هذا الأخير قد أرخ للحدث بألفاظ ابن الأثير تقريبًا ، ومع أنه قد جعل تاريخ هذا الحدث سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وما فى ذلك من خلل منهجي وعدم دقة فى تتبع الأحداث، فالتساؤل الذى يرد هو لماذا أرخ ابن العبرى للاستيلاء الفاطمى على بيت المقدس فى الوقت الذى تجاهل فيه الإشارة إلى تعهد القادة الصليبيين على أنفسهم للإمبراطور البيزنطى؟ ويستطيع البعض أن يجب على هذا التساؤل بأن الاستيلاء الفاطمى على بيت المقدس حدث بارز عرفه الجميع بينما التعهد كان محصوراً فى دائرة ضيقة ، وقد يفسر آخرون موقف ابن العبرى من الحدثين بأنه أرخ للحدث الذى يوضح حالة العداء والانشقاق بين المسلمين فى حين تجاهل الحدث الذى يبرز حالة العداء بين النصارى، وكذلك التعهد الذى قطعه قادة الصليبيين على أنفسهم، وفى حالة عدم وفائهم به يعنى نقطة قاتمة فى تاريخهم ، وهو لايريد لمثل هذه النقاط أن تظهر وإن ظهرت فلا يكون ظهورها من قبله.

٤- ومن الأحداث الثانوية وقوع حاكم الرها الصليبى القمص بردويل (بلدوين)[١٠٦] فى أسر المسلمين سنة سبعة وتسعين وأربعمائة (١١٠٤م)، ثم إطلاق سراحه فى سنة اثنتين وخمسمائة (١١٠٨م)، وعن الحدث بشقيه نجد أن ابن الأثير[١٠٧] قد أرخ له بينما ابن العبرى تجاهل الحديث عنه ، وليس مقبولاً أن يقال إن عدم إشارة ابن العبرى إلى الحدث ناتج عن عدم معرفته وهو الناقل من ابن الأثير أولاً ولأهمية الحدث ثانيًا وكون الحدث على درجة كبيرة من الأهمية، وارتباطه بأكثر من سنة وبعدد من قادة الصليبيين من ناحية ثالثة، وفى ضوء هذه الاعتبارات فإن الأقرب إلى القبول هو أن ابن العبرى تجاهل الخبر لأنه يمثل نقطة قاتمة فى تاريخ الصليبيين، وليس لهذا التجاهل من تبرير آخر يمكن الاطمئنان إليه.

٥- ومن الأحداث الثانوية المرتبطة بسنة ثلاث وخمسمائة (١١٠٩م) استيلاء طنكرى[١٠٨] حاكم أنطاكية الصليبية على عدد من الثغور الإسلامية فى بلاد الشام، وقد أرخ ابن الأثير[١٠٩] وبدرجة مقبولة من التفصيل لهذا الاستيلاء ضمن أحداث السنة المذكورة والسنة التالية، وقد التفت ابن العبرى[١١٠] هو الآخر لهذا الأمر، وتحدث عنه بصورة موجزة تتفق وطبيعة تأريخه ، وطالما أنه يمثل انتصاراً صليبيًا وهزيمة للمسلمين ، ففيما بين كلمات النص

الذى تضمن الحدث يلمس القارىء غبطة ابن العبري وفرحه لهذا الانتصار، وحرصه على إبراز ضعف المسلمين سواء كانوا من أتباع السلطنة السلجوقية أم الخلافة الفاطمية.

٦- ومن أحداث السنة المذكورة وسنتى خمس وخمسمائة وست وخمسمائة الحملات الحربية التى قادها مودود[١١١] حاكم الموصل بدعم وتوجيه من السلطان السلجوقى[١١٢] ضد مدينة الرها وتوابعها ، فعن هذه الحملات[١١٣] نجد أن مؤرخينا لم يؤرخا للحملة الأولى فى سنة ثلاث وخمسمائة (١١١٠م)، وانفرد ابن الأثير فى التأريخ[١١٤] للحملة الثانية فى سنة خمس وخمسمائة مبرزاً إخفاق المسلمين فى استعادة المدينة، وانسحابهم منها لملاقاة الصليبيين الذين تجمعوا للدفاع عنها. أما عن الحملة الثالثة فى أول السنة التالية، فإضافة إلى تأريخ ابن الأثير لها[١١٥] نلاحظ أن ابن العبرى لم يغفل التأريخ[١١٦] لهذه الحملة لأن فيها انتصاراً صليبيًا على المسلمين، وما تأريخه لها إلا انسجامًا مع عاطفته الدينية التى بادرت إلى تسجيل الانتصار الذى حققه الصليبيون على المسلمين ، وهذا واضح جداً فى أمر هذه الحملات، فالنجاحات التى حققها المسلمون فى الحملتين السابقتين رغم فشلهم فى استعادة المدينة لاتستحق من ابن العبرى الرصد والتأريخ حتى ولا الالتفات والإشارة إليهما دون نجاحاتهما ، ولامبرر لهذا عند ابن العبرى سوى ما ذكر من أن عاطفته الدينية وفرحه لتحقيق أى انتصار على المسلمين سببان كافيان فى نظره للتأريخ ورصد الأحداث بدلاً من الأمانة والحيادية .

٧- فى سنة سبع عشرة وخمسمائة (١١٢٣م) استولى بلك بن بهرام بن أرتق[١١٧] على حلب بهدف دعم الجهاد الإسلامى فى مواجهة التوسع الصليبى، وفى السنة التالية استشهد وهو محاصر لمنبج، فعن هذين التطورين نجد كلاً من ابن الأثير وابن العبرى[١١٨] يؤرخان لهما حسب منهجيتيهما فى التفصيل لابن الأثير والإيجاز لابن العبرى، ولكن بالنسبة للحدث الثانى نلحظ أن ابن العبرى من خلال مقارنة نصه بنص ابن الأثير عن ذات الحدث قد تجاهل الجزئيات المتصلة بالصليبيين ، وعلى الأرجح أنه حرص على هذا التجاهل لأن الهزيمة لحقت بهم، وهو لايريد لقلمه أن يسجل انتكاستهم، وهذا يعنى أنه جعل عواطفه أو ميوله تتحكم فى تأريخه للأحداث ، وما يتبع ذلك من مجافاة للموضوعية والحيادية.

٨- وبعد سنتين أى سنة عشرين وخمسمائة (١١٢٦م) استشهد قسيم الدولة آقسنقر البرسقى[١١٩] حاكم الموصل ، وقد أرخ لهذا الحدث كل من ابن الأثير[١٢٠] الذى ألحق به

تفصيلات عديدة لها فائدتها ، وكذلك ابن العبرى [١٢١]، ولكنه لم يلق بالاً للتفصيلات التى أوردها ابن الأثير- خصوصًا وأنه ينقل عنه- عدا جزئية واحدة يبدو أنها راقت له واتفقت مع ميوله، وهى المتعلقة بالصليبيين، ومعرفتهم خبر استشهاد قسيم الدولة قبل معرفة ولده عز الدين مسعود[١٢٢] بذلك.

وللباحث أن يتساءل عن حقيقة الدوافع التى دعت ابن العبرى إلى اختيار هذه الجزئية دون الجزئيات الأخرى التى ألحقها ابن الأثير بخبر استشهاد البرسقى ، وأظنه ليس من قبيل المجازفة أن أقول بأن الدوافع تتلخص فى إعجاب ابن العبرى بالصليبيين ومهارتهم فى التجسس أو تصيد الأخبار، وهو ما لم يكن متوفراً للمسلمين، وهذا بدوره يؤكد انسياق ابن العبرى وراء عواطفه وميوله الدينية.

٩- وعن استشهاد عماد الدين زنكى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (١١٤٥م)، فقد أرخ مؤرخانا[١٢٣] لهذا الحدث، وكما هى عادة ابن العبرى فقد استقى معلوماته عن ابن الأثير، وأيضًا استخدم مفرداته وعباراته، وفوق كل ذلك استخدم جمله الاعتراضية، وفى إطار هذا التقيد الشديد حذف كلمة واحدة لم تطاوعه عواطفه على ذكرها ، وهى كلمة الشهيد التى أوردها ابن الأثير صفة لعماد الدين، وأسقطها ابن العبرى ، وجاء هذا تعبيراً عن ما كان يكنه من عدم ارتياح أو بغض لعماد الدين ، وما ذلك إلا لأن عماد الدين قد وجه إلى الصليبيين العديد من الضربات .

ونلحظ أيضًا أنه اختلف مع ابن الأثير فى توقيت هذا الحدث فجعله قبل سنة من حدوثه أى فى سنة أربعين وخمسمائة (١١٤٤م)، ولامبرر لهذا الاختلاف ، فإن لم يكن سقط نظر من ابن العبرى ، فهو بالتأكيد مثال على موقفه السىء من الشهيد عماد الدين وسوء نظرته وعدم ارتياحه له.

١٠- ومن الأحداث المرتبطة بسنة أربع وأربعين وخمسمائة (١١٤٩م) غزو نور الدين محمود لإمارة أنطاكية ، فقد غزاها مرتين حقق فيهما انتصارين كبيرين، وبالنظر إلى مؤرخينا نجد أن ابن الأثير قد أرخ للغزوتين بشىء مناسب من التفصيل[١٢٤] أما ابن العبرى فنجده يؤرخ فقط للغزوة الأولى[١٢٥] متجاهلاً الثانية، ويبدو أن تجاهله لها ارتبط بروعة الانتصار الذى تحقق فيها لدرجة الإشادة الكبيرة من الشعراء، وهنا يبرز تحكم ميول ابن العبرى فى رؤيته للأحداث وفى تأريخه لها.

١١- وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (١١٥٧م) تملك نور الدين محمود حصن شيزر[١٢٦]، وبالنظر إلى ابن الأثير نراه يؤرخ لهذا التطور بدرجة جيدة من التفصيل[١٢٧]، وأبرز العامل الأساسى فى حرص نور الدين على تملك شيزر، وهو اتصال أصحاب الحصن بالصليبيين وتعاونهم معهم مما يعنى عقبة فى المخططات الجهادية لنور الدين، كما أرخ أيضًا للحدث الذى زامن هذا التطور ، وأعنى به الزلزلة التى دمرت كثيراً من المدن الشامية، ومن بينها حصن شيزر .

أما ابن العبرى والذى نقل معلوماته عن ابن الأثير، فنراه يؤرخ للزلزلة والأضرار التى اقترنت بها[١٢٨] دون أن يلتفت إلى التطور الذى جرى فى حصن شيزر ، وهو بهذا يعبِّر بطريقة غير مباشرة عن كراهيته لما حدث ، وعدم رضاه للنتائج المترتبة عليه، وما فيها من أضرار بالمصالح الصليبية.

١٢- ومن أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٦٤م) تدخل كل من نور الدين والصليبيين فى شؤون مصر الفاطمية، وملحظ تأريخ ابن الأثير[١٢٩] لإحدى مراحل هذا الصراع وبدايات هذا التدخل ، وتابعه فى ذلك ابن العبرى[١٣٠]، ولكن بإيجاز يتفق وطبيعة كتابه.

ومن أحداث السنة المذكورة انتزاع نور الدين لحصن حارم[١٣١] وقلعة بانياس[١٣٢] وهما الحدثين اللذين أرخ لهما ابن الأثير[١٣٣] وأبرز قيمتهما فى إرغام الصليبيين على الانسحاب من مصر، أما ابن العبرى فقد تجاهلهما تمامًا، وهذا التجاهل تعبير عن عدم رضاه على الانتصار الإسلامى والهزيمة الصليبية، والتطورات التى أعقبت ذلك، وبالذات الخسائر التى لحقت بالصليبيين نتيجة ضياع الموقعين ، وعدم تأريخ ابن العبرى لما فيه قوة للمسلمين وانتصار لهم أحد الأمثلة العديدة التى يبين فيها كرهه للمسلمين وتعاطفه مع الصليبيين ، وهو ما أملته عليه عواطفه الدينية.

١٣- وعن تأريخ الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة خمس وستين وخمسمائة (١١٦٨-١١٦٩م) ونجاح المقاومة الإسلامية بقيادة صلاح الدين فى صدها وإلحاق هزيمة قاسية بالصليبيين ، فقد أرخ ابن الأثير لتفاصيل هذه الحملة[١٣٤]، وبيَّن الرابطة بين هذه الحملة ونجاح قوات نور الدين فى السيطرة على مصر فى تاريخ سابق، وقد قام بتغطية جيدة للحدث وتطوراته اللاحقة حتى نهاية الإخفاق الصليبى وهزيمتهم، ومن ثم انسحابهم من مصر.

أما ابن العبرى فكما هى عادته غالبًا فقد تجاهل الحملة، ولم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد، ولايفسر تجاهل مؤرخ لحدث له أهميته فى التاريخ عمومًا وفى تاريخ الفترة خصوصًا إلا لأسباب ذاتية تتعلق بالمؤرخ نفسه، إذ كيف تطاوعه نفسه، ويوافقه قلمه على تسجيل الهزيمة لإخوانه فى العقيدة، وهى شر هزيمة عبَّر عنها ابن الأثير بقوله :

«رجعوا خائبين لم يظفروا بشىء ، ووجدوا بلادهم خرابًا ، وأهلها بين قتيل وأسير».

وهذا يعنى أن ابن العبرى لم يتخلص من عواطفه وميوله وأحقاده على المسلمين وبغضه لهم وجزعه من انتصاراتهم، مما جعله يقف وبكل وضوح مع المعسكر الصليبى ضد المسلمين.

١٤- ومن الأحداث الثانوية المقايضة التى تمت بين صلاح الدين وعماد الدين زنكى(١٣٥) ضمن جهود الأول فى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وسبق أن ذكرت بأن مؤرخينا قد أرخا لهذه المقايضة ، وأوردت نصيهما فى هذا الشأن (١٣٦) ، والذى نلحظه من نص ابن الأثير أنه سفَّه فى جزئية منه قبول عماد الدين لهذه المقايضة ، ونقل ابن العبرى هذا التعليق بألفاظه من ابن الأثير، ومعروف أن هذا الأخير كان يميل إلى البيت الزنكى ويتعاطف مع ذرية عماد الدين مؤسس هذا البيت ، ويرى أن صلاح الدين لم يتعامل معهم بالمستوى اللائق الذى كان يجب عليه ويستحقونه ، نظرًا لأن كبير البيت الزنكى ومن بعده ابنه نور الدين هما صاحبا الفضل فى إقامة الدولة الأيوبية، لذا نجد فى تأريخه غمزات وإشارات ذات دلالة على هذا الموقف من ابن الأثير والمقايضة التى تمت، وتقبيحه لها يمكن أن تندرج فى هذا الإطار .

وابن العبرى - الذى ينقل عن ابن الأثير- يحرص على أن يؤرخ لمثل هذه الأحداث التى تظهر الانقسام بين المسلمين وقادتهم ، وتحط من شأنهم وشأن صلاح الدين بصفة خاصة، وهذا ليس لأنه ينقل عن ابن الأثير كل شىء، ولكن لأنه يختار ما ينقل وفق مزاجية مرتبطة بعقيدته وبميوله وعاطفته من ناحية، ولأنه باستيلاء صلاح الدين على حلب يكتمل طوق الحصار حول الصليبيين من ناحية ثانية، وفى هذا تفوق حاسم لصلاح الدين عليهم، وهذا مالايستسيغه ابن العبرى ولايطمئنه ولايرضيه وهو المتعاطف مع الصليبيين.

١٥- ومن أحداث سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة (١١٨٦م) ما أقدم عليه أرناط(١٣٧) حاكم الكرك من نقضه الهدنة(١٣٨) التى كانت معقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية، وهو ما شكل السبب المباشر للتطورات التى وقعت فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) ، وأبرزها معركة حطين التى انتصر فيها المسلمون ، وانتزعوا بيت المقدس من

الصليبيين، فقد أرخ ابن الأثير لتصرف أرناط تفصيل مناسب ، وذلك تحت عنوان (غدر أرنـاط) [١٣٩]، أما ابن العبرى فقد تجاهل هذا الحدث تمامًا رغم أنه أرخ لأحداث أقل شأنا وقعت فى السنة نفسها أوفى السنة السابقة عليها[١٤٠].

١٦- ومن الأحداث المتصلة بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) استعصاء مدينة صور[١٤١] على صلاح الدين وجنوده حين حاول فتحها ، فقد أرخ مؤرخانا للحدث[١٤٢] ناقلاً ابن العبرى التفصيلات التى أوردها ابن الأثير فى هذا الشأن .

١٧- ومن أحداث سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) الهدنة التى وافق صلاح الدين على عقدها مع حاكم أنطاكية الصليبية[١٤٣]، فقد أرخ لها كل من ابن الأثير[١٤٤] وابن العبرى[١٤٥]، ولكن فى الوقت الذى يوضح فيه ابن الأثير أن المبادرة فى ذلك جاءت من قبل الحاكم الصليبى، نلحظ أن ابن العبرى يبدأ نصه لهذا الحدث بقوله : «وهادن صلاح الدين»، فكأنه يحيل المبادرة بالهدنة إلى صلاح الدين دون أن يوضح التطورات التى مهدت لها، وجعلت حاكم أنطاكية يبادر إلى عقدها مع صلاح الدين، وهذا ينسجم مع أسلوب ابن العبرى فى إظهار القوة الصليبية وتفوقها على المسلمين.

ومن أحداث السنة ذاتها موقف صقلية وملكها وليم الثانى[١٤٦] من انتصار حطين، وهزيمة الصليبيين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م)، ففى الوقت الذى يؤرخ فيه ابن الأثير[١٤٧] لهذا ضمن أحداث سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١١٨٩م) نجد أن ابن العبرى يتجاهله ولايشير إليه ولو بعبارة مقتضبة ، ولعل مرد هذا التجاهل هو أن قوات صقلية لم تحقق نجاحًا يذكر ضد القوات الإسلامية.

١٨- ومن الأحداث الثانوية المرتبطة بسنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (١١٩٧م) انتزاع الملك العادل الأيوبى[١٤٨] مدينة يافا من الصليبيين ، وتمكن الصليبيين من السيطرة مؤقتا على بيروت، وقد أرخ ابن الأثير[١٤٩] لهذه التطورات وبتفصيل مناسب أوضح فيه أن الصليبيين بعد أن أخذوا بيروت رحلوا عنها كى يدافعوا عن صور التى هاجمتها القوات الإسلامية، وهذا يعنى أن أخذ الصليبيين لبيروت كان مؤقتًا حيث استعادها المسلمون بعد وقت قصير؛ أما ابن العبرى فيؤرخ[١٥٠] وبصورة مقتضبة جداً لبعض هذا الحدث دون تطوراته، فيذكر استعادة يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين، وهذا يعنى أنه تجاهل بقية الخبر أى عودة بيروت للسيادة الإسلامية، وهذا نوع من التحريف لم يجد ابن العبرى غضاضة فى ارتكابه انسياقًا وراء عواطفه الدينية وميوله للصليبيين.

سادسا : الخلاصة :

من خلال المقارنة السابقة يمكننى تحديد قاعدتين أساسيتين توضحان منهجية ابن العبرى مقارنة بمنهجية ابن الأثير وذلك على النحو التالى:

أولاً: يمكن أن نصف ابن الأثير بأنه مؤرخ شامل إذ أنه غطى كل أو معظم الأحداث التى تجمعت لديه وذلك فى إطار الترتيب الزمنى، والأحداث التى أعنيها تشمل الأحداث السياسية والاجتماعية والعلمية سواء فى ذلك ما يتصل بالدول والأسر الحاكمة، وأيضًا ما يتصل بالأفراد، ولاسيما النابهين منهم هذا بالنسبة لابن الأثير.

أما بالنسبة لمعاصره ابن العبرى فإنه على العكس من ذلك فى كثير من الأمور إذ يمكن وصفه بأنه مؤرخ انتقائى ، ينتقى أحداثًا بعينها ويؤرخ لها دون النظر إلى أهميتها ، وهذا يعنى أن تكون بعض الأحداث التى انتقاها وأرخ لها أقل أهمية من أحداث أخرى تجاهلها أو لم يعتن بها.

ثانيًا : تحلى ابن الأثير بدرجة عالية من الموضوعية والشجاعة حينما أرخ لأحداث تبدو مؤلمة بالنسبة له كونه مسلمًا ، وأبلغ مثال على ذلك تأريخه للنكسات التى منى بها المسلمون فى الصراع الدائر بينهم وبين الصليبيين ، وكذلك تأريخه للاجتياح المغولى لأقطار المشرق الإسلامى، وهذه خاصية إيجابية تحسب لابن الأثير وتجعله مصدراً موثوقًا به، كما تؤخذ فى الاعتبار عند تقييم ابن الأثير.

أما ابن العبرى فلم يكن يتحلى بهذه الخاصية؛ بل على العكس من ذلك آثار التجاهل أو الصمت إزاء الأحداث التى لم ترق له، أو كانت مؤلمة بالنسبة له بوصفه نصرانيًا، وأبرز الأدلة على ذلك تجاهله لسقوط إمارة أنطاكية الصليبية سنة ست وستين وستمائة للهجرة (١٢٦٨م)، وكان عمره وقتها يزيد على الأربعين سنة ، أى أنه كان ناضجًا فكريًا وعلميًا، واقتربت شخصيته كمؤرخ من الكمال، وفوق هذا وذاك ما هو معروف من أنه أمضى فى أنطاكية سنوات هامة من فترة شبابه.

ومع كل هذه الاعتبارات تجاهل ابن العبرى الحدث، ولم يؤرخ له، ولم يكن من تفسير لذلك سوى رضوخه لشعوره الدينى، وحزنه على سقوط السيطرة الصليبية على إمارة أنطاكية واستعادة المسلمين لها.

ومثل هذا الحدث ليس بالأمر السهل فهو ليس حدثًا ثانويًا ، بل هو بالغ الخطورة والأهمية فى تطورات الأحداث والصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين بصفة خاصة، وابن العبرى الذى التزم الصمت إزاء حدث من هذا النوع أو تجاهله، نراه يؤرخ للاجتياح المغولى لأقاليم المشرق الإسلامى، ويسارع إلى تأريخ الاستيلاء المغولى لبغداد[١٥١] سنة ست وخمسين وستمائة هجرية (١٢٥٨م) وبتفصيل غريب يخالف منهجه وأسلوبه في تأليف الكتاب.

وليس لهذا من تفسير أمام الباحث أو المتفكر لموقف ابن العبرى سوى القول إن عاطفته الدينية قد تحكمت فيه وأثرت عليه ودفعته إلى نوع من التشفى من المسلمين ومن خلافتهم العباسية، وببساطة شديدة فإن تجاهل أحداث والتركيز على أحداث أخرى يعنى الافتقار إلي الموضوعية والحيادية اللتان تستدعيان من المؤرخ أن يرتفع بعواطفه وميوله عن التأثر بالأحداث سواء بالسلب أو الإيجاب .

هاتان هما القاعدتان الأساسيتان اللتان يمكن من خلالهما التفريق بين منهجيتى المؤرخين ابن الأثير وابن العبرى ، وفى إطارهما ورغبة فى معرفة مزيد من التفصيل عن منهجية ابن العبرى التأريخية يمكن تقديم العناصر الآتية[١٥٢]:

١- تاريخ *ابن العبرى* بما حواه من معلومات لايرضى *نهم الباحث* المتخصص ولايشفى غليلاً له، ولاميزة أو سمة يختص بها عن غيره من المصادر التاريخية، ومؤلفه بمعاصرته للأحداث ومهنته وصلاته الشخصية لم يستثمرها فى تدعيم الثقة فى الكتاب وإثراء معلوماته وإكسابه شخصية مستقلة.

٢- نقل *ابن العبرى* عن *ابن الأثير القسم الأكبر* من معلوماته، ويلحظ *الباحث* أنه نقل حرفى أو يكاد يكون حرفيا ودون تغيير.

٣- نقل ابن العبرى عن ابن الأثير، ولكن مع حذف جزئيات أو كلمات لاتتوافق مع عاطفته الدينية وميوله نحو الصليبيين .

٤- التباين الكبير فى مستوى المعالجة التأريخية لدى ابن العبرى ، وذلك لأمر ما فى ذهنه أو تأثراً بعاطفته وفكره الدينى، والمثال الصارخ على هذا التباين تأريخه لجولتى الصراع الذى خاضه الصليبيون من أجل الاستيلاء على أنطاكية، فمعالجة من سطر واحد للجولة الأولى تتباين كثيراً مع معالجة من أربعة عشر سطراً للجولة الثانية ،

وكذلك تأريخه لمذبحة القسطنطينية التى أوقعها الصليبيون ضد النصارى الأرثوذكس ، فى حين يتجاهل مذبحة معرة النعمان التى ارتكبها الصليبيون ضد مسلمى هذه البلدة، وهذا تباين حاد فى مستوى المعالجة تتصل بالمنهجية التى سار عليها ابن العبرى فى نظرته للأحداث من ناحية، وفى تأليف كتابه من ناحية ثانية وفرق كبير بين الإيجاز الشديد والمخل أحيانًا وبين الإسهاب المفرط فى أحيان أخرى، وهذه الملحوظة تنسحب على كثير من الأحداث التى عالجها، كما تنسحب زيضاً على تركيزه على قضايا معينة وتجاهله لقضايا أخرى.

٥- يلجأ ابن العبرى إلى التغاضى أو التجاهل المتعمد بالنسبة لأحداث بعينها، وهذا خلل خطير فى منهجية المؤرخ وأمانته وصدقه مع نفسه ومع الآخرين.

٦- يفتقر ابن العبرى إلى التوازن فى نقل المعلومات ، وتتضح هذه السلبية فى تأريخه لمرحلتى إسقاط الرها الصليبية واستعادتها ، ولاسيما أنه نقل المعلومات الخاصة بالمرحلتين عن ابن الأثير.

٧- يؤخذ على ابن العبرى صمته التام إزاء أحداث رئيسة وجوهرية، وهذا يعنى أن تأريخ ابن العبرى أو شهادته للأحداث- وهو المعاصر لها- يشوبها قدر كبير من عدم الأمانة والصدق ، وهما يقتضيان قول الحقيقة حتى مع النفس، وما صمته عن الحملة الصليبية الثانية التى منيت بالفشل الذريع ، وسكوته عن معركة حطين التى تجاهلها تامًا مع أنها واحدة من أخطر وأهم الأحداث فى تاريخ الحروب الصليبية ، إلا دليلاً على أن ابن العبرى قد انجرف وراء عواطفه الدينية وميوله النفسية والفكرية مع الصليبيين وضد المسلمين.

٨- يعاب على ابن العبرى أنه فى انتقائه للأحداث التى يؤرخ لها ، وتلك التى يتجاهلها يرضخ لعواطفه الدينية فهى ميزانه فى نظرته للأحداث، وهذا الرضوخ منافٍ للموضوعية التى يجب أن يتحلى بها المؤرخ ، ومن الأمثلة الدالة على هذه السلبية تجاهله للتصرفات النبيلة التى عامل بها صلاح الدين الأيوبى عدداً من نساء الروم اللاتى كن يقمن بالقدس وقت فتحها، وكذل معاملته لملكة القدس، وابن العبرى لايريد أن يسجل ما قد يحسب نقاطًا مضيئة للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبى .

٩- مع إيجاز ابن العبرى للمعلومات واختزاله الشديد لها يقع فى أخطاء تاريخية لاتقع من معاصر لها وقريب الصلة بها، ومما يؤكد وقوع الخطأ منه تعارض معلوماته مع المصدر الذى نقل عنه وهو ابن الأثير، وهذا ينافى الأمانة العلمية التى يجب أن يلتزم بها المؤرخ ويحرص عليها.

١٠- وأخيراً يعمد ابن العبرى أحيانًا إلى تزييف المعلومات أو قلب الحقائق دفاعًا عن الصليبيين وتأييداً لهم وبسبب هذا يفتقر إلى معايير تماسك الذات والأمانة التى تميز بها المؤرخون الأقدمون ، وقسوة الصليبيين وقادتهم وغدرهم عنده فى أحيان كثيرة لم تكن موضع لوم أو ملاحظة تجعله يعمل على تسجيلها أو التأريخ لها، وهذا المسلك من ابن العبرى مسلك خطير ينبغى للباحثين بصفة خاصة التنبيه لمثل هذا المزلق الذى وقع فيه ، وترتب عليه تشويه للتاريخ وتزييف لحقائقه ، وإخلال بالنتائج المترتبة عليها.

هذا بصورة عامة أبرز العناصر التى تبينتها فى منهجية ابن العبرى التاريخية تجاه أحداث الحروب الصليبية فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) مقارنة بابن الأثير وأحداث الحروب الصليبية فى كتابه (الكامل فى التاريخ) .

الهوامش

١- يطلق إقليم الجزيرة الفراتية على الأجزاء الشمالية من المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات ابتداءً من إلتقاءهما جنوبًا وحتى اقترابهما من بعضهما شمالاً، وهى المنطقة المحصورة بين جبال كردستان شمالاً ونهر دجلة شرقًا وأرض السواد جنوبًا ونهر الفرات غربًا ، وقد قسمت قديمًا إلى ثلاثة أقسام:

* القسم الجنوبى الشرقى والمعروف بديار ربيعة وحاضرته مدينة الموصل .

* القسم الجنوبى الغربى والمعروف بديار حضر وحاضرته مدينة الرقة.

* القسم الشمالى من الجزيرة والمعروف بديار بكر وحاضرته مدينة آمد أو مدينة ميافارقين.

ولمزيد من التفاصيل عن جغرافية الجزيرة الفراتية وتاريخها فضلاً أنظر:

- المقدسى : شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد (ت٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، سنة ١٩٠٦م، ص١٣٦، ١٣٨ .

- أبو الفداء: المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على (ت٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)، تقويم البلدان، باريس ، ١٨٤٠م، ص٢٧٧ ومابعدها .

- كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.

- محمد يوسف غندور : تاريخ جزيرة ابن عمر، دار الفكر اللبنانى، بيروت، ١٩٩٠م.

- عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية فى الجزيرة وبلاد الشام ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠م.

- عصام الدين عبد الرؤوف : فى بلاد الجزيرة ، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٥م.

٢- أنطاكية : قصبة إقليم العواصم شرق حلب بينهما مسيرة يومين (٣فراسخ = ٩أميال= ١٤,٥كيلومترا) وبينها وبين البحر ستة أميال ، وهى عبارة عن سهل طوله ثلاثة أميال تحيط بها استحكامات طبيعية حصينة تربطها عدة طرق باللاذقية غربًا والاسكندرونة وميناء السويدية شمالاً وبدمشق جنوبًا . ذات أهمية استراتيجية وعسكرية وتجارية وصناعية وكذلك دينية.

بدأ الصليبيون حصارهم لأنطاكية فى الثالث عشر من ذى القعدة ٤٩٠هـ (الحادى والعشرين من أكتوبر ١٠٩٧م)، ومع ضخامة قواتهم التى زادت على ثلاثمائة ألف شخص ، فإنهم لم يحكموا حصارهم لها معظم مساحتها ومناعة حصونها وطبيعتها الجغرافية ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها رغم المساعدات المتكررة من الصليبيين والأرمن والبيزنطيين إلا بعد أكثر من سبعة أشهر

وبالتحديد فى الأول من رجب سنة ٤٩١هـ (الثالث من يونية سنة ١٠٩٨م)، ونتيجة لخيانة أحد الحراس الأرمن وتآمره مع الصليبيين .

لمزيد من المعلومات عن أنطاكية وتاريخها فضلاً أنظر:

- ابن القلانسى أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على بن محمد (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.

- حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

- جمال محمد الزنكي: مؤيد الدين ياغى سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى ٤٧٧-٤٩١هـ/ ١٠٨٥-١٠٩٨م، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية عشرة ١٤١٧-١٤١٨هـ، الرسالة السادسة والعشرون بعد المائة.

Downey (G), A History of Antiochin Syria from seleucus to the arab conquest, pri-necton, 1961 .

٣- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، جـ٣، ص٣٤٨ ، ٣٥٠ .

٤- ملطية : تقع عند سفح جبل طوروس ، من أهم مدن الحدود أو الثغور الإسلامية بين بلاد الشام والدولة البيزنطية ذات أهمية عسكرية وزراعية ، كانت فى زمن المؤرخ (القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى) إحدى مدن مملكة أرمينية النصرانية فى آسيا الصغرى، والتى كانت فى تحالف عسكرى مع إمارة أنطاكية الصليبية ، وهى الآن على بعد فرسخين (ستة أميال= ٩,٦ كيلومترات) من موقعها القديم المسمى الآن إسكى شهر، وعلى بعد فرسخ واحد (ثلاثة أميال- ٤,٨ كيلومترات) من الجسر القديم المسمى قرق كزفوق نهر طوخمه صو قرب ملتقاه مع نهر الفرات.

- (ياقوت ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى (ت٦٢٦هـ، ١٢٢٨م) معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، جـ٥ ، ص١٩٢ ؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٥٢-١٥٣) .

٥- فى تاريخ متأخر انقطع ابن العبرى فى بعض الأديرة واختير أسقفًا على جوباس من أعمال ملطية، وأخذ يترقى فى الوظائف الدينية حتى حصل على رتبة جاثلين أى رئيس رؤساء الكهنة السريانيين فى فى بلاد المشرق (العراق وفارس وغيرهما).

- (الأدب أنطون صالحانى اليسوعى، ترجمة ابن العبرى فى كتابه تاريخ مختصر الدول ط الثانية ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٨م، ص د ؛ محمد عزيز ، العرب فى المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية ، من حصاد ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، عقدها اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م، ص١٣٦) .

٦- مراغة : من مدن أذربيجان تقع على بعد سبعين ميلاً (١١٢كيلاً) جنوب تبريز ، على نهر صافى الذى يصب فى بحيرة أرمية، تشتهر بزراعاتها ، أصبحت مركزاً لإقليم أذربيجان فى العهد المغولى، وفى ظاهرها المرصد الفلكى الذى بناه نصير الدين الطوسى للإيلخان المغولى هولاكو.

أما إقليم أذربيجان فهو من أقاليم فارس الشمالية الغربية يحده شرقًا بحر خوارزم (بحر قزوين)، وغربًا عراق العجم وأرمينية الصغرى، وجنوبًا إقليم الجبال (كردستان)، وشمالاً إقليم الران (ياقوت ، جـ١ ، ص١٢٨ ، جـ٥ ، ص٩٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص١٩٣، ص١٩٨-١٩٩) .

٧- يعد كتابه فى التاريخ باللغة السريانية أهم كتبه ، وقد أكمل به تاريخ المنطقة من وفاة ميخائيل السريانى حتى وفاته سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، وهو فى جزئين خصص أولهما للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما جعل الثانى فى قسمين خصصهما للأحداث الدينية، فضلا أنظر:

- شاكر مصطفى، التاريخ العربى والمؤرخون ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٢، ص٤٥٥ .

- سهيل زكار، أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام، من حصاد ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب ، عقدها اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م، ص١٣٢ .

- محمد عزيز ، العرب فى المصادر السريانية ، ص١٣٦ .

٨- اليعقوبية : نسبة إلى يعقوب البرادعى (بارادبوس ، ت٥٧٨م)، وهم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزية) ، ومنطقتهم تمتد بين أنطاكية والرّها شمالاً وحتى القدس جنوبًا ، ومراكزهم كانت فى أسيا الصغرى حول ملطية وفى قليقية، فى شمال بلاد ما بين النهرين، وكان كرسى البعاقبة فى عكا وبيت المقدس، وأكبر المناصب عندهم البطريركية ، ثم منصب المفريان وتحت رئاسته عدد من الأساقفة.

(القلقشندى أبو العباس، أحمد بن على (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج١ ، ص١١٠-١١١؛ ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة

عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط الثانية ١٩٩٧م، ص١٣٤ ؛ الأب أنطون صالحانى، ترجمة ابن العبرى ، ص د، ص هـ).

والسريان هم المتحدثون بالسريانية ، وهى فرع من الآرامية إحدى اللغات السامية التى تحدث بها سكان سورية والجزيرة الفراتية والمناطق المجاورة لهما، وكتبوا بها خلال قرون طويلة منذ ماقبل الميلاد وحتى ما بعد الفتح الإسلامى، وكان السريان يعيشون فى بلاد الشام منذ القرن الأول للميلاد ، وهم فئتان السريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك ، وما زال بعضهم يتحدث بها حتى الآن.

(سهيل زكار : أضواء على بعض المصادر السريانية، ص١٢١، أغناطيوس يعقوب : البراهين الحسِّية على تعارض السريانية والعربية، دمشق ، ١٩٦٩م، ص٢٣) .

٩- كان ابن الأثير يناهز الثلاثين من عمره حينما وقعت معركة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) .

١٠- صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان من الأكراد الروادية إحدى بطون قبيلة الهذبانية التى كان موطنها الأصلى بلدة دوين فى إقليم أذربيجان قرب تفليس، ولد ليلة انتقال أسرته من تكريت إلى الموصل سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م) ، وبعد سنتين انتقل مع والده إلى بعلبك ثم إلى دمشق حيث عاش فيهما طفولته وشبابه ، ثم إلى مصر حيث عاش فيها رجولته وجهاده إلى أن توفاه الله فجر يوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ (أوائل سنة ١١٩٣م) وعمره قريب من سبع وخمسين سنة.

(ابن وصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م، جـ٢ ، ص٤٢٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢ ، ص٣٧٧ ؛ أبوشامه : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، دار الجيل، بيروت ، ١٢٨٨هـ، جـ٢ ، ص٢١٨) .

١١- الملك الفرنسى القديس لويس التاسع (التقى المتحمس) ابن لويس الثامن ولد فى ٢٥ أبريل ١٢١٤م فى بواسى، تولى الملك فى ٨ نوفمبر ١٢٢٦م، جرد إضافة إلى الحملة السابعة حملة ثامنة على تونس سنة ٦٦٨هـ (١٢٧م) غادراً بما قطعه من عهد بعدم الرجوع إلى محاربة المسلمين ، وكان فيها هلاكه فى المحرم سنة ٦٦٩هـ (٢٥ أغسطس ١٢٧٠م) .

(جان سيردى جوانفيل، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥٣ ، ص٣١٣ ؛

Brunschvia (ROBERT), La berberic orientale sous les Hafsides vol . I , Paris, 1940, pp. 59-62 .

١٢- السلطان المملوكي بيبرس بن عبدالله البندقداري النجمي ركن الدين أبو الفتح أصله من القفجاق ، ولد سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)، وحمل إلى القاهرة واشتراه الأمير أيدكين البندقداري ، ثم أخذه الصالح نجم الدين الأيوبي، تسلطن في سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) واستمر حتى وفاته يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) .

(محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان بن عباس، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م، جـ١ ، ص٢٣٥ ؛ ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبدالله الظاهري (ت٨٧٤هـ / ١٣٥٤م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي جـ١ ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٥، ص٢٠٣) .

١٣- لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الجانبين فضلاً أنظر:

- ابن عبدالظاهر ، محي الدين أبو الفضل عبدالله (ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٢)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ.

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥ / ١٤٤٢م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) .

- فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٠م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور : (سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى) ضمن كتاب دراسات وبحوث في تاريخ العصور الوسطى، بيروت ١٩٧٧م، ص٢٢٥) .

١٤- جعل ابن العبري الدولة الأولى هي دولة الأولياء قبل الدخول إلى أرض الميعاد، وجعل الدولة العاشرة هي دولة المغول، وقبلها دول ملوك العرب المسلمين ، فضلاً انظر الكتاب ، ص٣، ص٩٣ .

١٥- الأب أنطون صالحاني اليسوعي مقدمة الكتاب ص و.

١٦- ابتداء من سنة ٤٩١هـ إلى سنة ٥٦٩هـ (١٠٩٧-١١٧٤م) .

١٧- لمزيد من التفاصيل حول التأسيس فضلاً انظر:

- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق .

- فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زيادة العسلي، دار الشروق، بيروت ١٩٩٠م.

- ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ١ ، ترجمة السيد الباز العريني، ط الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣ ، ١٩٧٨م.

١٨- أبو الجود أبوسعيد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبدالله قسيم الدولة، كان مولده في حلب سنة ثمانين وأربعمائة ، وهو وحيد والده، كان صغيراً عندما قتل والده، وحافظ عليه مماليك أبيه حتى نشأ وكبر. تسلم ولاية البصرة صغيراً ، ثم مللك الموصل ثم الجزيرة، وماردين ثم حلب ثم دمشق وأجزاء من بلاد الشام، كان سياسيًا محنكًا ومجاهداً عظيمًا ضد الصليبيين تحقق على يديه لأول مرة توحيد الجبهة الإسلامية وتحقيق أول انتصارات المسلمين عليهم ، قتله أحد مماليكه وهو محاصر لقلعة جعبر ليلة الأحد سادس ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) .

(ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٤ وما بعدها؛ ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٢ / ١٩٦٣م، ص٥ ، ص٢٤ ص٣٢ وما بعدها؛ ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت٦٦٠هـ / ١٢٦١م) ، بغية الطلب في تاريخ حلب، نشر بعض تراجمه سهيل زكار ضمن كتابه الحروب الصليبية، بيروت ١٤٠٤هـ، جـ٢، ص٧٢٥ وما بعدها) .

١٩- أبو القاسم ، نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي كان مولده سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وكانت نشأته في الموصل ثم بدمشق ، كان عادلاً زاهداً عابداً مجاهداً له جهاد حربي مشهود ضد الصليبيين، كانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة في قلعة دمشق.

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٨٤ ، ١٨٨ ؛ أبوشامة ، الروضتين، جـ١، ص٥ ، ص٢٤ومابعدها).

٢٠- معروف أن إمارة الرُّها الصليبية كانت تتكون من قسمين أحدهما شرقي وبه مدينة الرُّها ويقع في الجزيرة ، والثاني غربي وبه مدينة تل باشر الواقعة في بلاد الشام إلى الشمال من حلب.

لمزيد من التفاصيل فضل انظر:

- علية عبد السميع الجنزورى ، إمارة الرّها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م.

- عماد الدين خليل، الإمارات الأرتقية فى الجزيرة والشام، ص١٩٩ وما بعدها .

٢١- تل باشر : شمالى حلب بينهما مسيرة يومين (٣ فراسخ = ٩ أميال = ١٤,٥ كيلومتراً)، أهلها نصارى أرمن ، فيها أسواق ومزارع وفيها قلعة حصينة، تعرف الآن بتل باجر تتبع إدارياً منطقة جبل سمعان إحدى محافظات حلب.

(ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص٤٠؛ سهيل زكار، الحروب الصليبية جـ٢، ص٥٦٢، حاشية(١)).

٢٢- عن تلك الأوضاع وتطوراتها فضلاً انظر : الدراسة الجيدة- من وجهة نظرى- التى قام بها على بيومى : الدولة الأيوبية فى مصر ، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢م.

٢٣- الكامل فى التاريخ ، دار الفكر، بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، جـ٨ ، ص١٨٥، ١٨٨ .

٢٤- ياغى سيان بن محمد بن ألب التركمانى من أمراء السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى، الذى منحه حكم أنطاكية بعد مقتل سليمان بن قتلمش ابن عم السلطان، الذى استولى عليها من البيزنطيين سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥م، كان ذا رأى وحزم وشجاعة، قتل على بعد فرسخ من أنطاكية، تركه غلمانه مغشياً عليه متأثراً بضياع أنطاكية، فوجده على هذه الحال أحد الأرمن فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الفرنج.

(ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص١٨٦) .

٢٥- قوام الدولة أبوسعيد كربوقا كان من أمراء السلطان ملكشاه السلجوقى، كانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) على بعد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً = ١٩,٣ كيلومتراً) من مدينة خوى، من أعمال أذربيجان بعد أن وصلها مريضاً، وكان السلطان السلجوقى بركيارق بن ملكشاه قد بعثه للاستيلاء عليها.

(ابن الأثير، الكامل، جـ٨ ، ص٢١٠) .

٢٦- ص١٩٦ .

٢٧- جـ٨، ص١٨٥-١٨٧ .

٢٨- ص١٩٦-١٩٧ .

٢٩- معرة النعمان تقع على الطريق بين حماة وقنسرين، كانت بداية الحروب الصليبية، مدينة عامرة مزدهرة ذات كثافة وأهمية تجارية وزراعية.

(ناصر خسرو (ت٤٨١هـ/ ١٠٠٨م) سفر نامة ترجمة يحى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص١١ ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٥٦) .

٣٠- جـ٨ ، ص١٨٧-١٨٨ .

٣١- ص١٩٧ .

٣٢- ابن الأثير، جـ٨ ، ص١٨٩ ؛ ابن العبرى، ص١٩٧ .

٣٣- جوسلين الثانى من أم أرمينية هى أخت ليون الأرمينى، وهو بهذا من أمراء الفرنج الذين ولدوا فى الشرق اتصف بالبراعة الحربية مع حب اللهو والإسراف فى الشراب، أقام إقامة مترفة على شواطىء الفرات ، تزوج من بياتريس أرملة حاكم صهيون، ورث عن والده جوسلين الأول الذى قتل عند دلوك سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) حب رعاياه له، ولكن كان يميل إلى حياة الراحة والهدوء وكانت تنقصه روح التصميم، كان شديد العداء للمسلمين، كثير الغدر والمكر لهم، أسره نور الدين محمود سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) وقضى سنواته مسجونًا فى حلب حتى هلك.

(ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٥٥؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٩٣ ؛ عليه الجنزورى ، إمارة الرُّها ، ص٢٩٦-٢٩٧، ص٣٢٥) .

٣٤- ابن العبرى، ص٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن الأثير، جـ٩ ، ص٨ ، ص٢٩ .

٣٥- أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على بن محمد التميمى، ولد بدمشق سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٩م شغل العديد من المناصب مثل رئاسة ديوان الإنشاء، كانت وفاته بدمشق سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) ، مؤرخ ثقة ، له عناية بالحديث، كان أديبًا ، له إنشاء جيد وشعر حسن .

(خير الدين الزركلى، الأعلام، (ط الخامسة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠م، مج٢ ، ص٢٧٦).

٣٦- جـ٩ ص٢٩ .

٣٧- جـ٩ ، ص٢٩ .

٣٨- ص٢٠٦ .

٣٩- ص٢٠٧ .

٤٠- جـ٩ ص٢٩ .

٤١- عن الحملة الصليبية الثانية وأحداثها فضلا أنظر:

- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق .

- وليم الصوري: الحروب الصليبية: ترجمة حسن حبشي ، جـ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٢م.

- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص٦٠٦ وما بعدها.

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٩٧ ومابعدها .

٤٢- ولد وليم الصوري في مدينة القدس سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م)، لم يكن حريصًا على ذكر أصله حيث بقي مجهولاً كما أن نشأته في مدينة القدس كانت مجهولة سوى أنه كان حتى الخامسة عشرة من عمره يعيش حياته في رغد من العيش بعدها سافر إلى إيطاليا وفرنسا للعلم، فدرس اللاهوت والفلسفة والرياضيات، وعاد إلى الشرق ليتقلد عدة مناصب هامة حيث شغل وظيفة رجل القانون الكنسي في عكا ورئيسًا لشمامسة بيت لحم وصور، ثم مربيًا ومعلمًا لبولدوين الرابع ملك بيت المقدس، ثم مستشاراً للمملكة الصليبية ورئيسًا لأساقفة صور، مات سنة ١١٨٠م (٥٧٦هـ) في بيت المقدس ألف عدة مؤلفات كان أهمها كتابه في تاريخ الحروب الصليبية (Gesta Hierosolymit orum regus) الذي ترجمه الدكتور حسن حبشي في أربعة أجزاء بعنوان (الحروب الصليبية) عن الترجمة الإنجليزية التي عنوانها:

(AHistory of deeds done beyond the Sea Columbia university. Press. 1943).

فضلا انظر : (مقدمة الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، جـ١ ص٥ ، ٤٣ ؛ حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص٣٤، حاشية رقم (١٧)).

٤٣- الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٢٦٩ وما بعدها (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م) .

٤٤- الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٢٨٠ .

٤٥- عن تطورات هذه الفترة وتفاصيل أحداثها فضلاً انظر:

- ابن واصل ، مفرج الكروب .

- أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين.

- المؤرخ المجهول : ذيل كتاب وليم الصورى (مخطوط روثلان) ترجمة وتعليق أسامة زكى زيد، الاسكندرية، ١٩٨٩م.

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، جـ٣ .

٤٦- حطين : قرية غرب بحيرة طبرية غنية المرعى وفيرة المياه بها قبر النبى شعيب عليه السلام، أخذت شهرتها من المعركة التى قادها صلاح الدين رحمه الله وانتصر فيها المسلمون على الصليبيين يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٤هـ (٤يوليو ١١٨٧م) واسترد المسلمون نتيجتها بيت المقدس وانهيار مملكة الصليبيين فيها .

لمزيد من التفصيل عن معركة حطين (مقدماتها ، نتائجها) فضلا انظر:

- ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سير صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

- فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامى فى العصر الأيوبى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

٤٧- عكا : كانت من أحسن بلاد الساحل (ساحل بلاد الشام) وأعمرها، حصينة واسعة ذات نشاط زراعى وتجارى (ياقوت ، المعجم ، جـ٤ ، ص١٤٣). استولى عليها الصليبيون للمرة الثانية بعد جهاد إسلامى مشرف ، وبعد حصار دام بدأ فى الثامن من رجب سنة ٥٨٥هـ (أواخر أغسطس سنة ١١٨٩م) ، وانتهى نهار الجمعة السابع عشر من جمادى الآخر سنة ٥٨٧هـ (يوليو ١٩٩١م) . لتفصيلات أوسع عن أحداث عكا فضلاً انظر:

- ابن شداد ؛ النوادر السلطانية .

- أبوشامة : الروضتين .

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ .

٤٨- الرملة مدينة قديمة فى أرض فلسطين بينها وبين القدس مسيرة ثمانية عشر يومًا (٢٧ فرسخًا = ٨١ ميلاً = ١٣٠كيلومترا) مدينة واسعة معمورة خربها صلاح الدين خوفًا من استيلاء الصليبيين

عليهـا ، واسـتـمـرت خـرابًا حـتـى منتـصـف القـرن السـابع الهـجـرى. (ياقـوت ، المـعـجـم ، جـ٣ ، ص٦٩-٧٠)، وفيـها تم عـقـد الصلح أو الهدنة بين صـلاح الدين الأيوبى وريتشارد قلب الأسد بدءًا من يوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ (الثانى من سبتمبر ١١٩٢م) ، واستمر ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ونص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وتكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وبقية المدن والجهات الأخرى تكون للمسلمين. لتفصيلات أكثر عن هذه الهدنة فضلاً انظر:

- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٨٦٠ ، ٨٦٥ .
- فايد عاشور ، الجهاد الإسلامى، ص٢٣٤ ، ٢٤٤ .

٤٩- الملك الكامل أبو المعالى محمد بن محمد بن أيوب بن شادى ، ولد فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م)، وحكم بعد وفاة والده العادل الأيوبى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) ، مات مريضًا عصر الأربعاء الواحد والعشرين من رجب سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م)، كان عظيم القدر جميل الذكر محبًا للناس والعلماء والفضلاء ومجالستهم ومحاورتهم، كان حازمًا ذا حنكة ودراية محبًا للسلم كارهًا للحرب .

(ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٥ ، ص٧٩، ٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥، ص١٥٦ وما بعدها).

٥٠- الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى بن هنرى الرابع، ولد من أب ألمانى وأم نصف إيطالية فى ديسمبر ١١٩٤م، وتوج إمبراطوراً بمساعدة البابوية سنة ١٢٢٠م حتى عام ١٢٥٠م حيث كانت وفاته . أصبح ملكًا بالوصاية على مملكة بيت المقدس عام ١٢٢٥م، تربى وتعلم فى صقلية قريبًا من المؤثرات العربية فنشأ محبًا للعلوم والجدل والرياضيات واللغات ومنها العربية.

(سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٥٠، ٩٥٢ ، ستيفن رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٠٥ وما بعدها).

٥١- يافا من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا تعد ميناءً لبيت المقدس بينهما مرحلتان (١٦ فرسخًا = ٤٨ميلاً= ٧٧,٢٣ كيلومترا).

(ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٥، ص٤٢٦؛ الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجرى)، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس، ط الثانية ،

مكتبة لبنان، ، بيروت سنة ١٩٨٤م، ص٦١٥).

وعن اتفاقية يافا فضلاً انظر ص٢٩ الجزئية الثامنة.

٥٢- فى الجزئين الثامن والتاسع .

٥٣- كان ضم صلاح الدين لمدينة دمشق سنة ستين وخمسمائة (١١٧٤م) أما محاولاته ضم حلب فكان أولها فى ٣ جمادى الآخر سنة سبعين وخمسمائة (١١٧٤م)، وآخرها فى صفر سنة تسعة وسبعين وخمسمائة (١١٨٣م) . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك فضل انظر:

- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ .

- أبوشامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٣٥ ومابعدها .

- على بيومى: قيام الدولة الأيوبية فى مصر.

- وفاء محمد على: قيام الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

٥٤- فى الصفحات ٢١٥، ٢٤٥ .

٥٥- جـ٩ ، ص١٦٢ .

٥٦- ص٢١٩ .

٥٧- جـ٩ ، ص١٦٢ .

٥٨- لمزيد من الضوء عن هذه الجزئية فضلا انظر عرض الأحداث الثانوية الجزئية رقم (١٤) .

٥٩- جـ٩، ص١٨٢-١٨٦ .

٦٠- ص٢٢٠ .

٦١- طبرية : من أعمال الأردن، بليدة تطل على البحيرة المسماة باسمها يطل عليها جبل الطور، بينها وبين بيت المقدس مسيرة ثلاثة أيام (٤,٥فرسخ = ١٣,٥ميل= ٢١ كيلومترا) اشتهرت بعيونها الحارة وحماماتها (ياقوت ، المعجم ، جـ٤ ، ص١٧) . ذات تاريخ وجهاد فترة الحروب الصليبية، استعادها المسلمون يوم الخميس السابع من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٢٨يونية سنة ١١٨٧م) ، وكانت إحدى أهم مصادر المياه التى سيطر عليها المسلمون فى المنطقة، وبعدها بأيام كانت معركة حطين الفاصلة.

(ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٨٩؛ فايد عاشور، الجهاد الإسلامى، ص١٢٥) .

٦٢- ص٢٢٠ .

٦٣- ص٢٢٠-٢٢١ .

٦٤- حسمت معركة حطين فى ٢٥ ربيع الآخر (يوليو ١١٨٧م) بينما استردت بيت المقدس فى ٢٧ رجب من العام نفسه (أكتوبر ١١٨٧م) .

لمزيد من التفاصيل فضلا انظر:

- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٧٥ وما بعدها.

- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٩٣ ، ٢٣٤ .

- سهيل زكار : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار إحسان، دمشق، ١٤٠٤هـ.

- عبدالله ناصح علون : صلاح الدين الأيوبى بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٦٥- باليان الثانى دى إبلين، وفى المصادر الإسلامية باليان بن بارزان أو بيرزان، صاحب الرملة، خلف والده باليان الأول دى إبلين فى حكمها سنة ١١٦٩م، كان من الأمراء القلائل الذين لجوا من معركة حطين سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس لأخذ زوجته الملكة ماريا كومنين أرملة عمورى الأول وأولاده ولكنه خان وعده لصلاح الدين وبقى فى بيت المقدس يعمل على تحصينها والدفاع عنها، كان أحد الموقعين على هدنة الرملة مع صلاح الدين (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٧٨١، ص٨٦٣) .

٦٦- ص٢٢١ .

٦٧- ص٢٢١ .

٦٨- جـ٩ ، ص١٨٤ .

٦٩- جـ٩ ، ص٢٠٨، ٢١٠ .

٧٠- ص٢٢١-٢٢٢ .

٧١- جـ٩ ، ص١٩٣ .

٧٢- ص٢٢٢ .

٧٣- جـ٩ ، ص٢١٤ ، ٢١٧ .

٧٤- ص٢٢٢ .

٧٥- فضلا انظر الحاشية رقم (٤٨) .

٧٦- جـ٩ ، ص٢٢١-٢٢٢ .

٧٧- ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧-١١٩٩م) توج خلفًا لوالده هنرى الثانى ملكًا على انجلترا فى سبتمبر سنة ١١٨٨م، وقاد مع الملك الفرنسى فليب أغسطس الحملة الصليبية الثالثة، وصفه ابن شداد بأنه شديد البأس عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، وأنه دون ملك الفرنسيين ولكنه أكثر مالاً وأشهر فى الحرب والشجاعة. قتل فى مارس عام ١١٩٩م.

(ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٤٩-٢٥٠؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٨٣٦ ومابعدها) .

٧٨- جـ٩ ، ص٢٢١ .

٧٩- جـ٩ ، ص٢٢٢ .

٨٠- ص٢٢٣ .

٨١- الكاثوليكية ، إحدى العقائد النصرانية ، تسمى كنيستها بكنيسة الغرب اللاتينى، انفصلت عن الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) عام ١٠٥٤م لأسباب عديدة أهمها ما يتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام ، تتبع النظام البابوى فى روما الذى يقوم على مجمع كنائس مكون من مجلس الكرادلة الذى يرأسه البابا، وله الحق فى إصدار إرادات بابوية سامية هى حسب زعيمهم إرادات إلهية.

لمزيد من المعلومات فضلا انظر:

- محمد أبوزهرة : محاضرات فى النصرانية، الرياض ، ١٤٠٤هـ.

- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ط الثانية ، مكتبة النور، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

- أليكس جورانسكى : الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم ، ترجمة خلف محمد الجراد، ط الثانية، دار الفكر المعاصر ، بيروت، ١٤٢١هـ.

٨٢- جـ٩ ، ص٢٦٣-٢٦٤ .

٨٣- ص٢٢٧-٢٢٨ .

٨٤- الأرثوذكسية : إحدى العقائد المذهبية للنصرانية بعد انقسامها عام ١٠٥٤م، وتشمل نصارى الشرق، تسمى كنيستها بالكنيسة الشرقية أو اليونانية، أو كنيسة الروم الشرقيين كان مقرها مدينة القسطنطينية، ثم أصبحت موزعة على عدة كنائس مستقلة عن بعضها فى عدد من الدول الآسيوية، والأفريقية، والملاحظ أن نصارى الشرق يتصوفون بصفات خاصة بهم تميزهم عن نصارى الغرب، وذلك من حيث توزيعهم إلى طوائف مختلفة قائمة بذاتها تستند كل منها إلى تاريخها الخاص بها، وكل كطائفة تتمتع بهيكلية كهنوتية وتشريعات كنسية ومحاكم مذهبية خاصة بها.

لمعلومات أوسع فضلاً انظر:

- محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية، الرياض ١٤٠٤هـ، ص٤٦ .

- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ص١٤٠ .

- أدفون أرياط: المسيحيون الشرقيون (دراسات ومناقشات ، بيروت (ب-ت) ، ص١٥ .

٨٥- ص٢٣٧، وقد أشار إلى نهايتها فقط كما سيتضح ذلك بعد قليل.

٨٦- ص٢٣٣ ، ٢٣٦ .

٨٧- كان يوحنا دويرين (١١٤٨-١٢٣٧م) ملكًا على عكا، كما كان وصيًا على مملكة بيت المقدس (١٢١٠-١٢٢٥م) .

٨٨- كان الكاردينال بيلاجيوس مندوبًا عن البابا (هونوريوس الثالث)، وقائداً أعلى للصليبيين فى حملتهم على مصر ، وكان المسئول الأول عن فشل الحملة الصليبية. (سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٩٢٠ وما بعدها) .

٨٩- جـ٩ ، ص٣١٨ .

٩٠- ص٢٣٦-٢٣٧ .

٩١- لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة فضلاً انظر:

- ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٣٣ وما بعدها .

- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٩٤٥ ، ٩٧٢ .

- رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ٣١٧ ، ٣٤٢ .

٩٢- حدث هذا نتيجة اتفاقية يافا التى عقدت بين الجانبين فضلاً انظر : ص٢٩ الجزئية الثامنة.

٩٣- جـ٩ ، ص٣٧٨ .

٩٤- ص٢٤٤ .

٩٥- Setton, (K.M.): A History of the Crusades. pansylvania. 1958. vol , 2. pp. 454-457 .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ص٣٣٠-٣٣١ .

٩٦- تاريخ الحروب الصليبية، ج٣ ، ص٣٢٩ .

٩٧- فضلاً انظر:

- ابن واصل مفرج الكروب ، ج٤، ص٢٤١ .

- أبو الفداء : المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥هـ، ج٣، ص١٤١ .

- ابن أيبك: أبوبكر عبدالله بن أيبك الدودار (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) : كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٢٦ .

- المقريزى : السلوك ، ق١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

٩٨- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢، ص١٠١٠ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٢٩ ؛ Setton, Op. cit. vol . 2 . p. 454 .

٩٩- جـ٨ ، ص١٨٦ .

١٠٠- كما هو معروف تنقسم الحملة الصليبية الأولى إلى شعبتين ، الأولى ما عرف بالحملة الشعبية أو حملة الدعاة أو حملة بطرس الناسك، وقبلها حملة جوتييه سانزأفوار على رأس فريق من الرعاع وصل بهم إلى القسطنطينية ، والثانية ما عرف بحملة الأمراء التى تألفت من عدة مجموعات رأس كل مجموعة أحد الأمراء الأوربيين، فكان على المجموعة الأولى الأمير جودفرى بوايون ورفقته أخوه بلدوين البولونى وعدد آخر من الأمراء، ومجموعة ثانية وصلت إلى القسطنطينية بحراً هى ما عرف بالحملة النورامنية بقيادة بوهيمند النورمانى بن روبرت جسكارد ومعه عدد كبير من الأمراء والدوقات الأوربيين ، ومجموعة ثالثة وفدت من إقليم بروفانس تحت زعامة ريموند الرابع (ريموند الصنجيلى) أمير تولوز وبروفانس ، وصحبتها الأسقف بوى (Adhemar de monteil) الـذى

اختاره البابا نائبًا عنه فى القيادة العليا للحملة الصليبية، ثم وصلت أخيراً الحملة الفرنسية لتلتقى مع بقية المجموعات الصليبية على شاطىء البسفور ، وكانت بقيادة الأمير روبرت بن وليم الفاتح أمير نورماندىا، ومعه أيضًا عدد من الأمراء الفرنسيين ، وقد تعهد أولئك الأمراء قادة المجموعات الصليبية للإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١-١١١٨م) وأقسموا له بيمين الولاء والتبعية للإمبراطورية البيزنطية (فضلاً انظر المصادر التالية).

١٠١- من المصادر الصليبية :

- المؤلف المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٧ ومابعدها .

- فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص٤٠ وما بعدها .

- وليم الصورى: الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص١١٢ ومابعدها .

- ولمزيد من المعلومات عن ذلك فضلا انظر:

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ١ ، ص١٤٠ ومابعدها .

- رنسيمان : الحروب الصليبية، جـ١ ، ص١٨٩ ومابعدها .

١٠٢- جـ٨ ، ص١٨٦ .

١٠٣- ص١٩٦ .

١٠٤- جـ٨ ، ص١٨٩ .

١٠٥- ص١٩٧ .

١٠٦- الأمير بلدوين الثانى دو بورج أمير الرها من كبار الأمراء الصليبيين الذين شاركوا فى توجيه الحملة الصليبية الأولى، أشاد بجهوده المؤرخون فى التقريب بين النصارى الشرقيين والغربيين ، ومن ذلك زواجه من مورفيا بنت جبريل حاكم ملطية الأرمنى، تم تتويجه ملكًا على مملكة بيت المقدس فى أبريل سنة ١١١٨م بعد وفاة ابن عمه بلدوين الأول، كان له جهود فى توحيد الصليبيين بعد أن صار وصيًا على عدد من الإمارات الصليبية فى الرها وانطاكية ، وقع فى أسر المسلمين أكثر من مرة كان أولها بعد معركة حران (البليخ) فى ٧ مايو سنة ١١٠٤م، الثانية وهو يهاجم خرتبرت فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣م، وأطلق سراحه أواخر يونيو سنة ١١٢٤م، وأخيراً هلك فى بيت

المقدس فى ١٢ أغسطس سنة ١١٣١م بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة.

(سعيد عاشور) الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٤٢٥ ، ٥٢١) .

١٠٧- جـ٨ ، ص٢٥٣ .

١٠٨- تنكرد : تانكريد بن المركيز أمير أنطاكية الصليبية (١١٠١-١١١١م) أحد الأمراء النورمانديين المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى ضمن المجموعة النورمانية، وأحد الأمراء المخلصين لقائد المجموعة جودفرى بوابون لذا أقطعه إقليم الجليل وأسس فيها إمارة له أضاف إليها فيما بعد حيفا والمناطق المحيطة بها ، ثم أصبح وصيًا على إمارة أنطاكية بعد أسر خاله بوهيموند ، ثم أميراً عليها تحت لقب الأمير الكبير أو خادم الله كان من المتحمسين لحرب المسلمين، وله طموحات سياسية كبيرة جعلته فى حروب دائمة مع المسلمين والبيزنطين وحتى الصليبيين ، كانت نهايته فى ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ م دون أن يترك وريثًا يرثه فى إمارته الصليبية.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٢٥١ ، ٤٠٩) .

١٠٩- جـ٨ ، ص٢٥٩، ٢٦١ .

١١٠- ص١٩٩ .

١١١- الأتابك شرف الدولة مودود بن ألتونتكين ، أصبح أميراً على الموصل سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) بعد أن نجح فى القضاء على عصيان أميرها السابق جاولى سقاوو الذى استقل بها عن التبعية للسلطان السلجوقى ، قتله أحد الباطنية الحشاشين فى دمشق وهو خارج من صلاة الجمعة وكان صائمًا وذلك آخر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة ، ودفن فى أصبهان ، كان خيراً عادلاً كثير الخير كثير الجهاد للصليبيين الذين فرحوا كثيراً لمقتله.

(ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٧-١٨٨؛ سبط ابن الجوزى: شمس الدين يوسف بن قزاوغلى (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، جـ٨ ، ق١ ، ص٥٠-٥١ ؛ عفاف صبرة ، الأمير مودود بن ألتونتكين ، مجلة الدارة، العدد الثانى ١٩٨٦م، ص١٠٩ ومابعدها) .

١١٢- السلطان أبوشجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى خطب له بالسلطنة فى جامع بغداد فى سابع عشر ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة له آثار حسنة وسيرة طيبة وسياسة حكيمة وجهاد مشكور، مرض مرضًا طويلاً أدى إلى وفاته يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى

الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة بمدينة أصبهان، وله من العمر سبعًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

(ابن الأثيـر ، الكامل، جـ١٠ ، ص٢٧٧-٢٧٨ ؛ ابن خلكان ، وفيـات الأعيـان، جـ٥ ، ص٧١ ، ٧٣) .

١١٣- بدأت الحملة الأولى فى شوال من سنة ٥٠٣هـ (أبريل سنة ١١١٠)، واستمرت المحاصرة مدة ثلاثة أشهر تقريبًا انتهت بانسحاب الجيش الإسلامى أواخر ذى الحجة (١٩يوليو) ، وتركت آثاراً واضحة عليها من الناحيتين السكانية والاقتصادية، والحملة الثانية بدأت أوائل سنة ٥٠٥هـ (يوليو سنة ١١١١م) واستمرت مدة خمسة وأربعين يومًا انسحب المسلمون بعدها بعد أن وجدوا صلابة فى الدفاع عنها وكثرة الجنود والمؤن داخلها ، وكانت الثالثة فى المحرم سنة ٥٠٦هـ / يونيو سنة ١١١٢م، ولم تستمر سوى أيام، وهى التى نال الصليبيون فيها من جيش مودود.

لمزيد من المعلومات عن ذلك فضلا انظر:

- ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٩ ومابعدها .

- عليه الجنزورى : إمارة الرّها الصليبية ، ص١٣٠ ومابعدها .

١١٤- جـ٨ ، ص٢٦٢ .

١١٥- جـ٨ ، ص٢٦٥ .

١١٦- ابن العبرى، ص١٩٩ .

١١٧- نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق ، كان أميراً على خرتبرت وماجاورها ، ثم تولى إمارة حلب، وكان له فيها جهاد مشكور ودور بارز فى محاربة الصليبين، قتل وهو محاصر لمنبج فى ربيع الأول من سنة ثمانى عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٤م)، وحمل إلى حلب حيث دفن فيها .

(ابن الأثيـر، الكامل فى التـاريخ ، جـ٨ ، ص٣١٥؛ عمـاد الدين خليل، الإمـارات الأرتقيـة، ص٢٧٤) .

١١٨- ابن الأثير ، جـ٨ ، ص٣١٢ ، ص٣١٥ ؛ ابن العبرى، ص٢٠٢ .

١١٩- أبوسعيد سيف الدين آق سنقر البرسقى الغازى كان مملوكًا تركيًا للأمير برسق من كبراء مماليك السلطان محمد السلجوقى، كان دينًا عادلاً خيراً لين الأخلاق حسن المعاملة والعشرة، كثير الجهاد ،

ولى العراق والموصل وحلب وجهات أخرى فى العراق والشام. قتله أحد الباطنية الحشاشين فى الموصل بعد صلاة الجمعة ثامن ذى القعدة سنة عشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٦م) .

(ابن العديم ، بغية الطلب، تحقيق سهيل زكار (كتاب الحروب الصليبية) جـ٢، ص٧١٩ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ، ص٣٢٠ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جـ١، ص٢٤٢) .

١٢٠- جـ٨ ، ص٣٢٠ .

١٢١- ص٢٠٢ .

١٢٢- عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقى صاحب الموصل، وليها بعد وفاة أبيه، وكان فى إمارة حلب عندما علم بوفاة والده، فلم يختلف عليه أحد، واستقامت أموره وخطب للسلطان السلجوقى محمود بن محمد كان شجاعًا شهمًا طموحًا مات بمرض مفاجئ وهو محاصر الرحبة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٧م) .

(ابن الأثير ، الكامل، جـ٨ ، ص٣٢٣؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ١ ، ص٢٤٣) .

١٢٣- ابن الأثير ، جـ٩ ، ص١٣-١٤ ؛ ابن العبرى، ص٢٠٦ .

١٢٤- جـ٩ ، ص٢٥-٢٦ .

١٢٥- ص٢٠٧ .

١٢٦- شيزر : مدينة قديمة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال حماة ، تقع على أكمة صخرية على الضفة الغربية لنهر العاصى الذى يلتف حولها من ثلاث جهات مما زادها منعة وتحصينًا ، عدت زمن الحروب الصليبية مركزًا هامًا لإمارة بنى منقذ التى ضمت كلاً من أفامية وكفر طاب واللاذقية.

(محمد محمد مرسى الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ، ١٩٨٠، ص٤٦-٤٧) .

١٢٧- جـ٩ ، ص٥٣-٥٥ .

١٢٨- ص٢٠٨ .

١٢٩- جـ٩ ، ص٨٤-٨٥ .

١٣٠- ص٢١٢ .

١٣١- حصن حارم من أعمال حلب ، بينها وبين أنطاكية يتبعه بلدة صغيرة تحيط بها الأشجار ونهر صغير، يقع الحصن على رابية صخرية مرتفعة محمى من جميع الجهات بخندق عميق منحوت فى الصخر، كان حصنًا مثلث الشكل ثم أصبح دائريًا بأربعة أبراج مربعة الشكل .

(ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٠٥ ؛ أسامة زكى بدر، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨١م، ص١٥٣ حاشية (١).

١٣٢- قلعة بانياس ، مدينة صغيرة من أعمال دمشق إلى الغرب منها لها قلعة حصينة يحيط بها نهر بردى .

(الحميرى ، الروض المعطار، ص٧٣) .

١٣٣- جـ٩ ، ص٨٦-٨٧ .

١٣٤- جـ٩ ، ص١٠٥-١٠٦ .

١٣٥- أبو الفتح وأبو الجود عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى، ولى حلب بعد وفاة ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، وعندما عرف عجزه عن حمايتها والدفاع عنها سلمها إلى صلاح الدين ثامن عشر صفر سنة ثمانية وخمسمائة للهجرة، وانتقل إلى سنجار حتى كانت وفاته فى المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة للهجرة (١١٩٧م)، كان خيراً دينًا عادلاً كثير الصدقات، كانت ولايته ثلاثين سنة.

(أبوشامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٢ ، ص٣٣٠-٣٣١) .

١٣٦- فضلا انظر ص١٨-١٩ .

١٣٧- أرناط فى المصادر الإسلامية (ريجنالد) أورينو دوشاتيون ، وقبل مجيئه إلى بلاد الشام كان اسمه (Le Prince arnould se igneur de Carac) فارس فرنسى قدم أنطاكية وأصبح أميراً عليها ثم أصبح أميراً لحصن الكرك، ظل فى قبضة المسلمين سنين طويلة أسيراً فى قلعة حلب، حتى أطلق سراحه سنة ١١٧٧م لم تفلح فى تهذيب سلوكه وتأديبه ، كان ذا سياسة طابعها الحماس والتطرف ، لقى منه المسلمون والصليبيون كثيراً من الغدر والخيانة قتل بيد صلاح الدين بعد انتصار حطين يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يوليو ١١٨٧م) .

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧٤٠) .

١٣٨- عقدت هذه الهدنة أول سنة ٥٧٦هـ (مايو سنة ١١٨٠م) بطلب من الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بعد الضربات القوية التى وجهها صلاح الدين ضد الصليبيين فى عدد من الجهات التى استولوا عليها، والملاحظ أن هذه الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها، مما جعل صلاح

الدين فى حلٍ من مهاجمة الصليبيين فى شمال بلاد الشام، فاضطر ريموند الثالث أمير طابلس إلى عقد هدنة مماثلة مع صلاح الدين.

(أبوشامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٩٧ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧٣٥) .

وفى صيف سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨١م تناسى أرناط الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وقام ومعه قوة من رجاله بالتوغل فى صحراء العرب (شمال غرب شبه الجزيرة العربية) حتى تيماء، وكانت واحة لها أهميتها فى طريق الحاج بين بلاد الشام والمدينة المنورة ، وكان فى نيته أن يزحف بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وعندما فشل هدفه اكتفى بالاستيلاء على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مكة المكرمة، وسلب ما تحمله من مال ومتاع وقتل وأسر من كان فيها.

لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلا انظر:

- ابن الشداد : النوادر السلطانية : ص٧٤ .
- ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٢٧ ، ١٣٢، ص١٩٤-١٩٥ .
- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧٢٩ وما بعدها .
- يوسف درويش غوانمه : إمارة الكرك فى العصر الأيوبى. عمان، ١٩٨٢ م.
- محمود رزق محمود : العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى معركة حطين عام ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، القاهرة ١٩٧٣م.

١٣٩- جـ٩ ، ص١٧٤ .

١٤٠- ص٢١٩-٢٢٠ .

١٤١- مدينة صور من أعمال الأردن تبعد عن بيروت جنوبًا بسبعة أميال، وعن صيدا ستة أميال يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، لذا كانت حصينة جداً منيعة لايمكن أخذها بسهولة. (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٣٣؛ أسامة زكى بدر، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، ص١٠).

١٤٢- ابن الأثير ، جـ٩ ، ص١٨٦-١٨٧ ، ابن العبرى، ص٢٢١ .

١٤٣- كان بوهيموند الثالث (١١٤٥-١٢٠١م) أميراً على أنطاكية (١١٦٣-١٢٠١م) قد اضطر إلى مهادنة صلاح الدين بسبب الهجمات المتتالية والناجحة التى حققها صلاح الدين ضد أملاك هذه الإمارة والحصون والقلاع التابعة لها ، وعقدت بين الطرفين هدنة مدتها ثمانية أشهر.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٨٠٠) .

١٤٤- جـ٩ ، ص١٩٥ .

١٤٥- ص٢٢٢ .

١٤٦- الملك وليم الثانى المولود سنة ١١٦٦م، كان ممن سارع فى تلبية نداء الصليبيين لحمايتهم والدفاع عنهم بعد حطين واستعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وكان أول من استجاب لتلك الدعوة، فعقد صلحًا مع البيزنطيين، وأرسل إلى بقية ملوك أوربا يدعوهم للتضامن معه فى مشروع حملة صليبية ضد المسلمين واستعادة بيت المقدس، ولم ينتظر رد أولئك الملوك بل بادر بإرسال أسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس ، تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزى الذى نجح فى منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية، وكان مما حال دون اشتراك الملك الصقلى فى الحملة الصليبية الثالثة هو انشغاله بالعلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم كانت وفاته فى ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩م سببًا فى فشل أهدافه.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٨٠٩-٨١١ ؛ ستيفن رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٢١) .

١٤٧- جـ٩ ، ص١٩٩ .

١٤٨- الملك العادل سيف الدين أبوبكر محمد بن أيوب بن شاذى بن مروان ، ولد بدمشق فى المحرم سنة أربعين وخمسمائة، وكانت وفاته بعالقين - قرية بظاهر دمشق- فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة (١٢١٨م) ونقل إلى دمشق حيث دفن فى قلعتها وله من العمر خمسًا وسبعين سنة وشهوراً، كان ذا رأى وتدبير ومعرفة وحنكة حسن السيرة ، جميل الطوية وافر العقل حازمًا فى الأمور ذا دين وصلاح محب للعلماء.

(ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٧٠، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٥ ، ص٧٤) .

١٤٩- جـ٩ ، ص٢٣٧-٢٣٨ .

١٥٠- ص٢٢٥ .

١٥١- ص٢٧٠ ، ٢٧٢ .

١٥٢- تشكل الأحداث التى وردت فى الصفحات السابقة أمثلة لهذه العناصر مما لايخفى على فطنة القارىء الكريم .

قائمة المصادر والمراجع *

أولاً : المصادر:

- ابن الأثير: عز الدين على بن محمد بن عبدالكريم (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) :
الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن زبى بكر (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.

- ابن شداد : بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٦م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

- ابن العبرى: أبو الفرج غريغوريوس بن هارون (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) :
تاريخ مختصر الدول، نشرة الأب أنطون صالحانى اليسوعى، ط الثانية ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٨م.

- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد العقيلى (ت٦٦٠هـ / ١٢٦١م) :
بغية الطلب فى تاريخ حلب ، بعض تراجم نشرها سهيل زكار ضمن كتاب الحروب الصليبية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

- ابن القلانسى : أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.

- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٧م.

- أبو الفداء : المؤيد إسماعيل بن على (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) :
تقويم البلدان، باريس ، ١٨٩٠م .

- أبوشامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) :
الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، ١٢٨٨هـ.

---

* لم تشمل هذه القائمة المصادر والمراجع التى وردت فى حواشى البحث لمرة واحدة فقط.

- جوانفيل : جان سير دى جوانفيل (كانو موجوداً سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٩م) :

مذكرات جوانفيل (القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

- الحميرى: محمد بن عبد المنعم (ت أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجرى):

الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤ .

- الشارترى : فوشيه (كان موجوداً سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م) :

تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة زياد جميل العسلى، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٠م.

- الصورى: وليم (ت٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) :

تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد ﷺ وحتى عام ١١٨٤م من الميلاد. ترجمة حسن حبشى تحت عنوان الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١-١٩٩٤م .

- المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) :

السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول- تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٦هـ.

- المؤرخ المجهول: ذيل كتاب وليم الصورى (مخطوط روثلان) ترجمة أسامة زكى زيد، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

- ياقوت : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) .

معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

ثانيًا : المراجع :

- أسامة زكى زيد : صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١م.

- حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

- ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، ط الثالث، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

- علي بيومى مهران: قيام الدولة الأيوبية فى مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢م.
- علية عبد السميع الجنزورى : إمارة الرُّها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية فى الجزيرة وبلاد الشام ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامى فى العصر الأيوبى، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ .
- محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية، الرياض ، ١٤٠٤هـ.
- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ط الثانية، مكتبة النور، القاهرة ١٤٠٧هـ.

Settoh . (K.M.) A History of the crusades, pensylvania, 1958 .

ثالثًا : البحوث والمقالات :

- الأب أنطون صالحانى اليسوعى : ترجمة ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول).
- سهيل زكار : أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام ، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب ، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ/ ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م.
- محمد عزيز : العرب فى المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب.

رقم الإيداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
مهندس / يوسف عز
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

